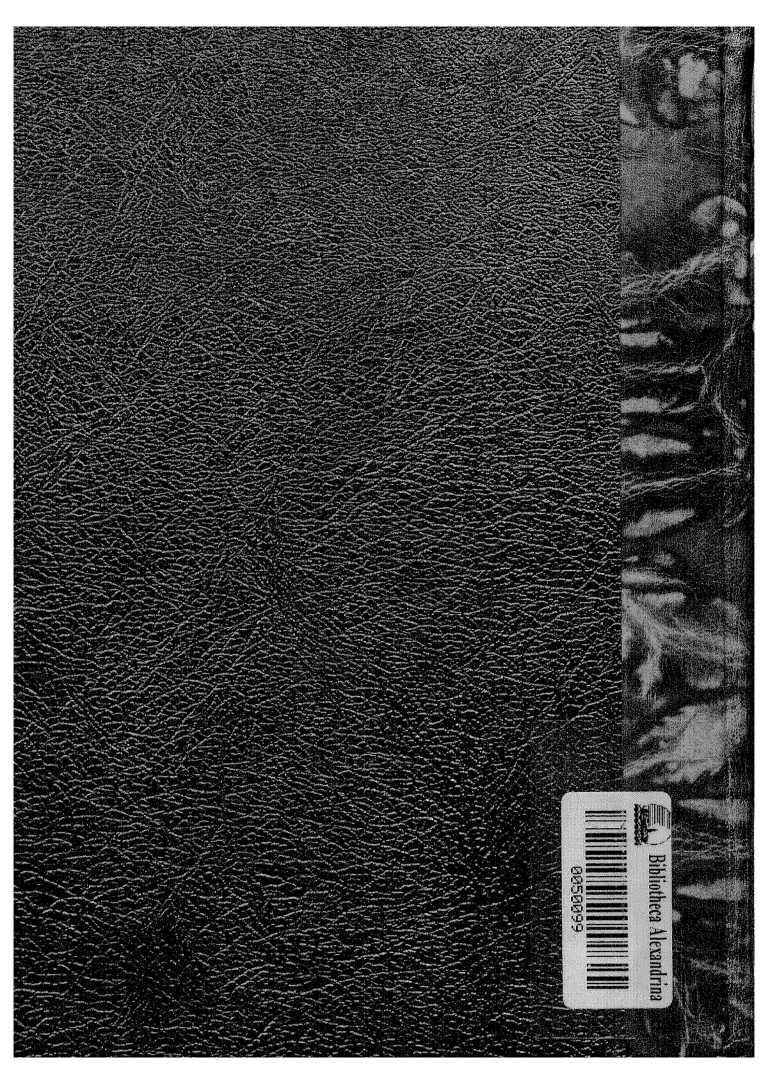
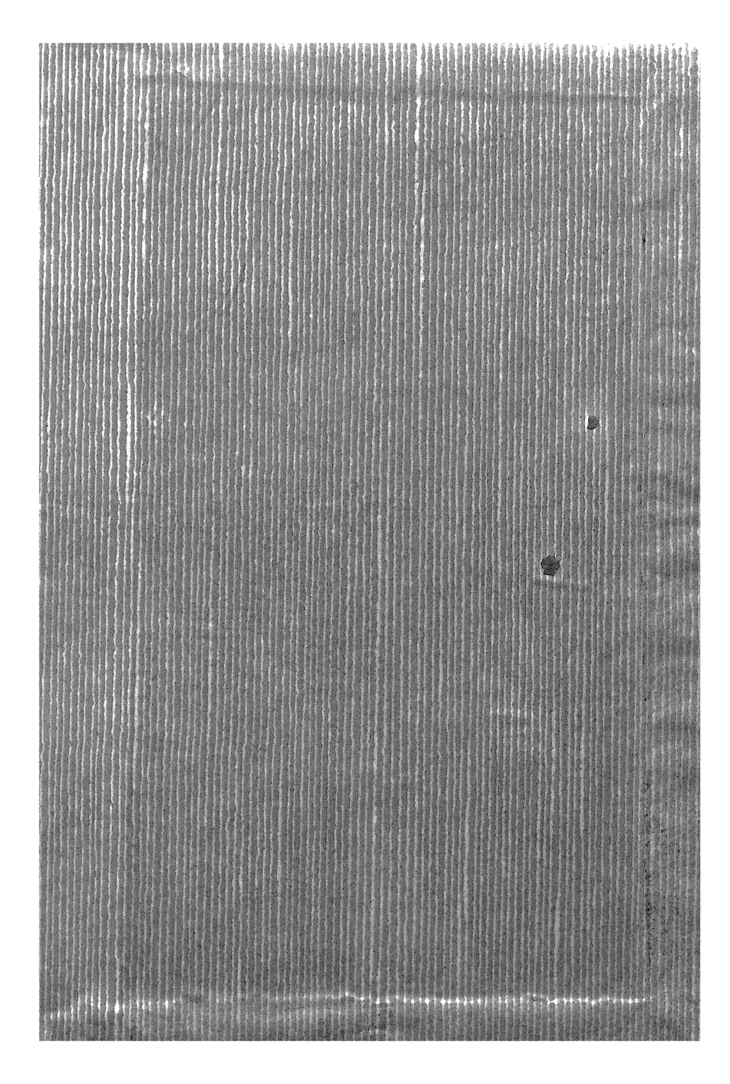
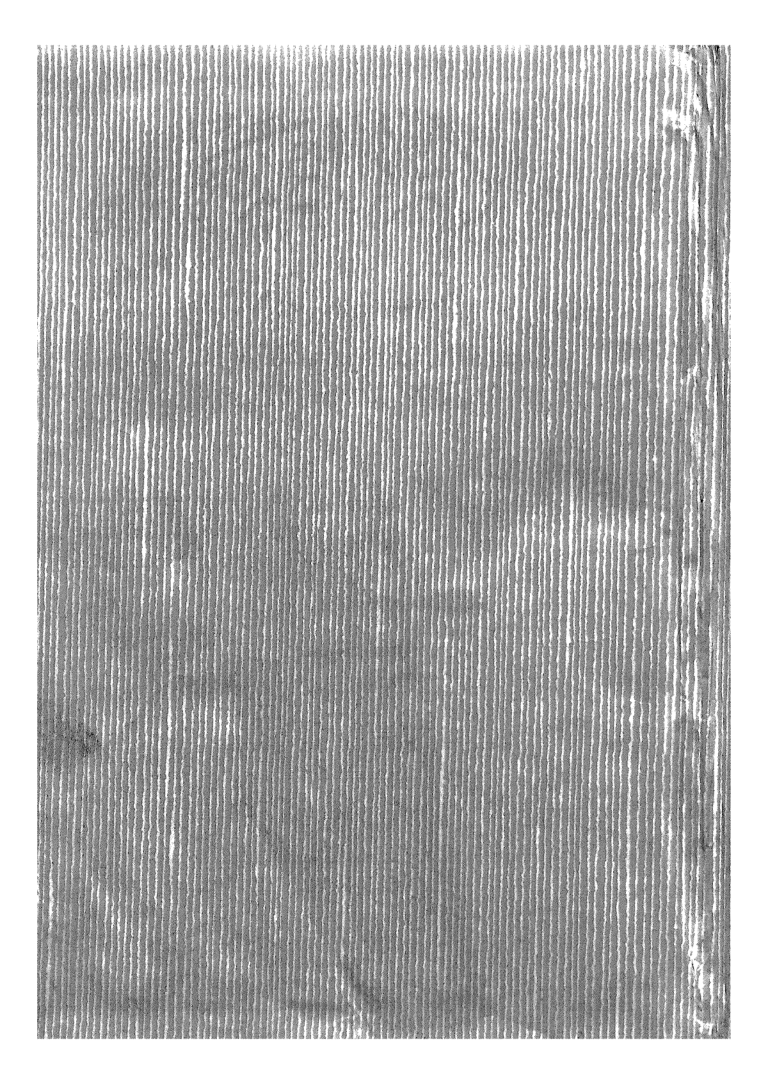

Bibliotheca Alexandrina
0050099







أو

فتح مصر القديم

رواية تاريخية تمثل غزو الفرس في عهد ملكهم قمبيز لمصر

في عهد الملك بسامتك بن الملك أماسيس

تأليف

العالم الألماني الشهير

الدكتور جورج ايبرس

عربها عن الانجليزية

احمد فهمي ابو الخير

ليسانسيه في العلوم

﴿ الطبعة الأولى ﴾

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

١٣٤٥ هـ – ١٩٢٦ م

كلمة المعرب

أقدم لقراء العربية رواية « الأميرة المصرية » الفذة فى موضوعها ، وأنا واثق أنها ستقع من عشاق القصص ، وهواة التاريخ والأدب القديمين ، موقعاً رفيعاً وستبلغ من نفوسهم مبلغاً سامياً. واخالهم لم ينسوا الأثر الطيب الذى تركته رواية « وردة » فى نفوسهم ، اذ أن مؤلف الروايتين واحد . فما بالهم ان علموا أن شهرة « وردة » انما استمدت من شهرة « الأميرة المصرية » ومما بلغته هـذه الأخيرة فى عالم التاريخ والقصص والأدب ؟ ولا يدهشن القارئ اذا علم أن هـذه الرواية ترجمت الى عدة لغات ، وأن هذه الترجمة هى الترجمة الثامنة عشر لها .

جاء فى دائرة معارف هارمسورث عن الدكتور جورج ايبرس مؤلف هذه الرواية أنه « لكى ينشر على الجمهور أبحاثه القيمة استعان بالخيال فكتب رواية الأميرة المصرية سـنة ١٨٦٤ ، وقد ترجمت الى الانجليزية فى عام ١٨٧٠ — ٧١ » وجاء أيضاً أنه « قصد مصر للمرة الثانية فى عام ١٨٧٢ — ٧٣ واستكشف فى طيبة ملفاً من ورق البردى من خير ما عثر عليه الباحثون وأهداه الى متحف ليبزج حيث أطلق عليه اسم « بردية ايبرس » تخليداً لاسمه هناك . وهذا الملف رسالة فى الطب من عهد سايس Sais [1] فى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وتتضمن هذه الرسالة فصلا طويلا عن طب العيون . ومن غريب المصادفات أن ما وجده فيها وافق تمام الموافقـة ما كان كتبه قبل ذلك بنحو عشر سنين فى روايتـه « الأميرة المصرية » عن وجود مثل هذا الأثر . ».

ولم يخرج ذلك عما ذكرته دائرة المعارف البريطانية فى هذا الصدد .

ومن ثم نستنتج أن المؤلف لم يستسلم فى كتابته الى وحى الخيال المطلق ، لأنه كان صادق الاستقراء والاستنتاج فوافق خياله الحقيقة الواقعة . هذا الى أنه كان دائم

---

(١) هى صا أو صا الحجر

الرجوع الى ما كتبه المؤرخ القديم « هيرودوت » وتطبيق ما تضمنه النقل على ما اشتملت عليه النقوش الأثرية الهيروغليفية . ولا أطيل فى ذلك فالمؤلف فى مقدمتيه التاليتين قد أبان عن كثير . ونصيحتى للقارئ أن يطالع بامعان هاتين المقدمتين . وسيجد القراء الأخلاق والحكم والعادات المصرية والاغريقية والفارسية منثورة فى صلب الرواية ، اما فى الوصف واما على ألسنة أشخاصها ، على نسق مشوق . فمن وقفة لحكيم أمام طاغية تذكرنا بوقفة بيدبا الفيلسوف الهندى أمام طاغيته ، الى وفود الشعوب الخاضعة لحكم الفرس تذكرنا بوفود العرب على كسرى ، الى مشهد من مشاهد الهوى الطاهر الذى يرفع النفس الى عالم ملائكى ، الى مظهر من مظاهر القسوة الوحشية تهوى بصاحبها الى أحط درجات الانسانية بل والحيوانية ان شئت .

ولقد عربت الرواية عن الترجمة الانجليزية لها ، وانى كدأبى لم أتهجم على المؤلف بحذف جزء من مؤلفه بل عربت النسخة الانجليزية للرواية بحذافيرها . أما الشروح التى وضعها المؤلف فى آخر كتابه والتى يبلغ حجمها حجم الرواية نفسها فقد أدمجت فى التعريب منها ما وسعه المقام . ويصح القول هنا بأن جل هذه الشروح ، ان لم تكن كلها ، وقف على مصادر ، بين مؤلفات ونقوش وآثار ، أخذ المؤلف عنها واستعان بها فى وضع مؤلفه . وللأساطير الجاهلية فيها ، أو الميثولوجيا ، شأن كبير .

حقيقة أن أصحاب المقتطف الأغر كانوا قد وكلوا الى أديب كبير أمر تعريبها فعربها لهم وطبعت سنة ١٨٩٨ ، ولكن كل ما نأخذه على هذا التعريب أنه انتقص من الرواية جزءاً كبيراً جداً جعلها مجرد سرد حوادث . ولعل حضرة الأديب المعرب راعى أن العقول فى ذلك الزمن لم تكن لتحتمل من القصة افاضتها فى التاريخ والأخلاق والعادات ، فسلك فى تعريبها الطريق الملائم لمزاج ذلك العصر . على أنى أقول الحق اذ أشهد أن الأديب المعرب قد ألبسها مع ذلك الاقتضاب ثوباً قشيباً من البلاغة ومتانة الأسلوب .

وقد يجد القارئ الملول فى الفصول الثلاثة الأولى ما قد لا يشجعه على المضى فى القراءة الى النهاية ، ولكنى أنصح اليه أن لا يتأثر بما يجده من كثرة الاسماء وبعيد الاشارات . وليعلم أن المؤلف لم يذكر شيئاً عبثاً بل قصد فيه الى أمر سوف يستكشفه .

وبعدئذ يتبسط له الحديث فلا يهدأ له بال حتى يجيء على آخره . هذا الى أن الأمور بخواتيمها .

و بعد فان أراد المؤلفون الروائيون المؤرخون أن يطلعوا على خير نسق فى هذا السبيل فليقرأوا روايات ايبرس ، وفى مقدمتها الأميرة المصرية . ان تاريخ مصر القديم يكاد يبعث السأم فى نفس قارئه ولكنه ان طالعه فى روايات ايبرس سهل عليه استيعابه ، وسلس اليه قياده . فهل نرجو أن يكون منا ازاء تاريخ مصر الحديث ما كان من العلامة ايبرس ازاء تاريخها القديم ؟ ليس على الله بمستنكر أن تكون نهضتنا الحاضرة نهضة جامعة شاملة ، فيبعث من بين كتابنا ومؤرخينا الأدباء كاتباً مؤرخاً كايبرس ، يكون من مفاخر مصر كما كان ذلك من مفاخر ألمانيا .

سدد الله الخطى ، وأضاء لنا سبيل الاصلاح والتجديد ؟

القاهرة فى أول أغسطس سنة ١٩٢٦ احمد فهمى أبو الخير

٦

مقدمة المؤلف للطبعة الثانية

مضى الآن أربع سنين على ظهور هذا السفر للجمهور أول مرة، وأشعر أنه من واجبي أن لا أدع الطبعة الثانية تظهر في الوجود دون أن أرفقها ببضع كلمات. ويخيل الي أنه يكاد يكون من الضروري أن أؤكد لقرائي أنني اجتهدت في أن أضع للصفحات التالية عنواناً هو « طبعة مصححة » ولا يخفى أن المؤلف أب لمؤلفه، وماذا يستطيعه أب يرى ابنه يعد العدة لاجتياز طريق جديد خطر، حتى اذا لم يكن ذلك الاجتياز لأول مرة، الا أن يحاول مده بكل صالح نافع في وسعه تقديمه، والا أن يحرره من كل خطأ أو سقم ينظر اليه الناس نظرة غير مستطابة ؟ لهذا كان التوكيد بأني بذلت أقصى جهد ممكن في تصحيح روايتي هذه — الأميرة المصرية — توكيداً مفرطاً فيه في نظري، ولكني في الوقت نفسه أرى أنه يحسن أن أذكر باختصار أين وكيف وجدت من الضروري ادخال هذه الاصلاحات. لقد راجعت الشروح وغيرتها وزدت فيها كل نتائج الأبحاث الأثرية القديمة (وعلى الأكثر بالنسبة للغة قدماء المصريين وآثارهم) التي وصلت اليها معلوماتنا منذ سنة ١٨٦٤، والتي سمح لي عامي المحدود وقتئذ بعرضها على الناس. أما التغيير الذي أدخلته في صلب الكتاب فقد كنت فيه حذراً حريصاً بل فزعاً جباناً، ذلك لأنه قد يفسد الجانب الشعري في طبيعتي البشرية الجانب النقدي منها خلال مثل هذه السنين الأربع التي قضيتها في جهد مستمر كمعلم أكاديمي وباحث يكتب في هذه المناحي الجافة من البحوث التي توقف المران الحر للخيال وتصده. وعلى ذلك فبمحاولتي تعديل قصتي هذه من جديد قد أكون خاطرت بنفسي بفصلها عن جو الأدب الأكثر مرحاً، وهو الجو الذي تنتسب اليه في الواقع. لذلك أرضيت نفسي فراجعت الأساوب مراجعة طيبة، وحذفت المقطعات الطويلة التي قد تكون أنقصت لدى جمهرة القراء العاديين لذة القصص، وأدخلت بعض زيادات هامة أو ايضاحية وغيرت بعض أسماء الأشخاص. فكتبت الأسماء لا بالصيغة الاغريقية بل بالصيغة اللاتينية، وذلك بعد أن أكد لي غير واحد من حضرات القراء الأفاضل أن اسمي Ibykus و Cyrus مثلا قد صادفا منهم

قبولا لمعرفتهم القديمة بهما، فى حين أن Ibykos و Kyros الموجودان فى الطبعة الأولى كانا من الغرابة والتعمق فى البحث بحيث أصبحا باعثين على الضجر والفتور . وقد فضلت أن أضع الحرف الالمانى K مكان الحرف الرومانى C فى المواضع التى فيها يتوازن الحرفان . أما الأسماء المصرية والأسماء التى أخذناها عن النقوش الاسفينية الشكل فقد اخترت لها من الألمانية أقرب الحروف ملاءمة فى الحديث والنطق ، وكذلك ضمنت هذه الطبعة كل ما وجدته لازماً من التفسيرات التى لا غنى عنها لفهم القصة ، وقد وضعت هذه التفسيرات فى أسفل كل صفحة بدلا من وضعها فى آخر الكتاب لكى تكون أقرب منالا وأسهل تحصيلا :

على أن صيحة الانكار ، التى أثارها أهل الأدب، والتى ترمى الى عدم الموافقة على سبك رجل العلم أبحاثه العلمية فى قالب قصصى خيالى ، قد أصبحت لدىّ اليوم أكثر وضوحاً منها يوم ظهر كتابى هذا للجمهور أول مرة . وانى من بعض الوجوه أوافقهم على حكمهم ، غير أن اقبال الجمهور على شراء هذه القصة وسرعة نفاد مجلداتها فى الطبعة الأولى ، قد برهنا على أن السواد الأعظم من أهل الأدب راضون عن العالم الذى لا يستنكف من عرض نتائج أبحاثه عليهم بالصيغة التى تلذ لهم ، والصورة التى يرتاحون اليها . ولم يصل عالم بعد الى وسائل خيراً من تلك التى اخترتها فى ايصال المعلومات الى أكبر عدد ممكن من القراء ، والى تهذيب عقولهم . ولقد يشعر أولئك الذين يطالعون الكتب العلمية بلذة فى العلم ، ولكن يصح أن الصفحات التالية قد تثير فى نفس القارئ رغبة فى الاستزادة من العلم ، بل وقد تكسب من بين القراء واحداً يشتغل بدراسة التاريخ القديم ، فى حين أن ذلك القارئ قد يكون قصده من القراءة مجرد اللهو بالقصص والاستمتاع به .

وانا لنعلم القليل عن الحياة المنزلية للاغريق والفرس قبل الحرب الفارسية ، وان نكن نعرف الكثير عن الحياة المصرية . ولذلك فان أعلم العلماء وأكثرهم تقصياً يكاد لا يستغنى عن الاستعانة بالخيال عند ما يهم بوصف الحياة الخاصة بين الأمم المتمدينة فى القرن السادس قبل الميلاد . انه قد ينجو من خطر الوقوع فى كل تلك الأغلاط التاريخية التى يتعرض لها مؤلف كتاب كالذى أخذت على عاتقى وضعه .

فبالانتباه والجد فى العمل قد يمكن تجنب الأغلاط ذى الصبغة الظاهرية ، ولكنى اذا اخترت أن أحرر نفسى من كل اعتبارات الأزمنة التى فيها ظهرت أنا وقرائى فى الوجود ، ومن أساليب الفكر الشائعة بيننا فى الوقت الحاضر ، وحاولت أن لا أصور شيئاً سوى تلك السجايا البحتة القدم التى اتصف بها الأقدمون وتميزت بها أزمنتهم ، فانى أصبح مستعصى الفهم على كثيرين من قرائى ، غير مشوق لهم أجمعين ، وأكون قد أخفقت كل الاخفاق فى تحقيق غرضى الأصلى . سيكون أشخاص روايتى فارسيين ومصريين وهلم جرا فى الشكل والمظهر ، أما فى لغتهم ، أو فى حركاتهم وسكناتهم ، فان الراوية الألمانى سيكون مدركا محسوساً ، لا فوق مستوى خيال وقته الحاضر دائماً ولكنه واحد من الناس ظهر فى دنيا القرن التاسع عشر بعد أن ظهر السيد المسيح وهو ذلك المعلم العظيم ، الذى تركت تعاليمه أثراً عميقاً فى عقول الناس ومشاعرهم .

والفرس والاغريق من حيث المنحدر والتسلسل تربطنا واياهم علاقات وروابط ، ولذا فهم من هذه الوجهة أقل استعصاء من المصريين الذين جعلتهم سكناهم فى ذلك الوادى الخصيب الذى اقتطعه النيل لهم من الصحراء بمعزل عن بقية أجزاء العالم .

وانى لمدين بالشكر الكثير للأستاذ لبسيوس Lepsius اذ أنه أشار علىّ بأن قصر القصة على مصر والمصريين قد يجعلها متعبة غامضة ، فاتبعت نصيحته وأنصعت لمشورته ورتبت المواد التى أدلى بها المؤرخ هيرودوت Herodotus لأدخل بالقارئ أولا فى وسط اغريقى . وهنا لا بد أنه شاعر ، الى حد ما ، أنه فى داره بين أهله وعشيرته ، وهو لا شك محس فى ذلك الوسط الاغريقى من نفسه مشاركته لهم فى نقطة هامة واحدة ، هى آراءهم فى الجمال والفن . ثم هو بعدئذ واصل الى مصر خلال ذلك الرواق الهيلينى Hellenic أى الاغريقى ، ومن ثم الى فارس ثم يعود أخيراً الى النيل . وغرضى من ذلك أن تجذب هذه الأمم الثلاث نظره بقدر واحد ، ولهذا لم أركز همّ القارئ وتشوقه الى الوقوف على تدبير القصة فى بطل واحد من أبطالها ، ولم أقصر عليه كل الشأن فيها ، بل اجتهدت فى عرض كل أمة من هذه الأمم بشخصيتها المفردة فى شخص فرد يمثلها أحسن تمثيل ، ولقد سميت قصتى بالأميرة المصرية لان على حظها توقفت حظوظ كل أشخاص الرواية من خير وشر ومن احسان واساءة ، وهى لذلك

لا بد أن تعتبر المحور الذى تدور القصة كلها عليه .

وقد ترسمت فى وصف أماسيس ملك مصر ذلك الوصف الشيق الذى خطه المؤرخ هيرودوت والذى أكدته تلك الصورة التى استكشفت على أثر قديم . ولقد كان هيرودوت دليلى أيضاً فى رسم الصور الأصلية لخلق قمبيز ملك الفرس ، اذ أن ذلك المؤرخ فى الحقيقة ظهر بعد حوادث هذه القصة بنحو أربعين أو خمسين سنة فقط ، وعلى تاريخه أقمت أساس قصتى هذه .

وهيرودوت هذا « أبو التاريخ » ومع ذلك فانى لم أنقد اليه انقياد الأعمى ولكنى قد اخترت ، وعلى الأخص عند تكوين الأشخاص ، تلك المناحى والطرائق التى دفعتنى اليها مبادئ علم النفس ، ولم أهمل أبداً التزود بالنقوش الاسفينية والرجوع الى الكتابات الهيروغليفية التى فكت رموزها وأمكن الوقوف على مضمونها . وفى كثير من الاحوال أكدت هذه الرموز وتلك النقوش ما ذهب اليه هيرودوت من الآراء .

ولقد جعلت مقتل بردية ، أخى قمبيز ، يقع بعد غزوة الفرس لمصر لأنى لا أستطيع أن أوافق على ترجمة النقوش البهستونية Behistun . فقد جاء فى هذه الترجمة بالحرف الواحد ما يأتى : « كان شخص يدعى قمبيز بن كورش وهو من أسرتنا ملكا علينا ، وكان له أخ يدعى بردية أبوه أبو قمبيز وأمه أمه . وعلى ذلك قتل قمبيز بردية هذا . » ومعلوم أنه ليس من المستحسن أن ندخل فى بحث يخص محاسن اللغة فى كتاب مكتوب للجمهور ، ولكن حتى غير المتثقف يرى أن كلمتى « وعلى ذلك » هاتين لا معنى لهما فى هذا الصدد . على أنه فيما عدا ذلك من النقط تتفق النقوش مع رواية هيرودوت ، وانى أعتقد أنه من الممكن أيضاً التوفيق بين رأى دارا و بين هذا الرأى ، ولكنى أحتفظ بذلك الى فرصة أخرى .

ولم يتحقق للآن من أين أخذ هيرودوت اسم سمرديس Smerdis الذى أطلقه على كل من بردية أخى قمبيز وجوماتا المجوسى .

ولقد ذكرت فى الحاشية رقم ٩٠ من الجزء الأول الأسباب التى دعتنى الى اعتبار فانيس Phanes أثينياً ولقد كان يصح لى أن أتجنب هذا التحريف فى الطبعة الأولى ،

ولكنى لا أستطيع تغييره هنا دون احداث تغييرات هامة فى صلب الرواية . وانى أعتذر اعتذاراً شديداً للوسائل التى استخدمتها فى سبيل جعل نايتيتس Nitetis الأميرة المصرية صغيرة فى السن ، لأنه على الرغم من أن هيرودوت قد وصف حكم أماسيس بالوداعة واللين ، فانه من غير المحتمل أن يكون الملك حفرع Hophra قد عاش بعد سقوطه عشرين عاماً . على أن ذلك أيضاً ليس مستحيلا لأنه يمكن اثبات أن أبناءه لم يقتلهم أماسيس .

ولقد وجدت على لوحة فى متحف ليدن أن أحد أفراد الأسرة الساقطة واسمه بسامتك Psamtic عاش حتى العام السابع عشر من حكم أماسيس ، ومات بعد أن بلغ عمره الخامسة والسبعين .

وأخيراً ليسمح لى القراء أن أقول كلمة عن رودو بيس Rhodopis فأما أنها من شهيرات النساء فذلك واضح مما جاء فى تاريخ هيرودوت وقد ذكرته فى الحاشيتين ١٠ و ١٤ من الجزء الأول ، ومما ذكره عنها كثير من الكتاب . و يدلنا اسمها ومعناه « ذات الخدين الورديين » على أنها كانت من جميلات النساء ، ولطالما حدثنا هيرودوت عن رقتها وسحر سجاياها . على أن خير برهان نقدمه على رفعة قدرها وسمو مكانتها هو تلك الأساطير والأحاديث التى خلدت اسمها بين الأحياء . ويقول الكثيرون عنها أنها هى التى ابتنت أجمل الاهرام — وهو هرم منقرع . هذا الى أن هناك قصة عنها رواها كل من سترابو Strabo وايليان Elian ولعل هذه القصة هى التى اتخذت أساساً لأسطورتنا الخرافية القديمة الشيقة المسماة سندرلا Cinderella وهناك أسطورة أخرى بها بعض الشبه من خرافة لورلى Loreley legend وروى سترابو أن نسراً — ويقول ايليان انه ريح لا نسر — حمل نعل رودو بيس ، وقد كانت تغتسل فى النيل ورمى به عند قدمى الملك . وكان فى مجلس قضائه يحكم بين الناس بالعدل فى الساحة العامة ، فجذب النعل نظره وسحره فلم يذق للراحة طعما حتى استكشف صاحبته ، واتخذها ملكة عليه .

أما الأسطورة الأخرى فتحدثنا كيف أن حسناء عارية كانت ترى جالسة على قمة أحد الأهرام وكيف أن رواد الصحراء كانوا يجنون بها غراماً وولهاً .

وقد صاغ مور Moore هذه الأسطورة شعراً من خير ما كتب .

وعلى الرغم مما تبدو عليه هذه الأساطير من الخرافة فانها لا تزال تدل على أن رودو بيس لم تكن امرأة عادية . ولقد غالى بعض الكتاب فوضعها فى مستوى الملكة الحسناء ذات البطولة نيتوكريس ، التى تحدث عنها يوليوس أفريكانوس Julius Africanus ويوسابيوس Eusebius وآخرون ، والتى وجد اسمها (نيث Neith القاهرة) منقوشاً على بعض الآثار التى تشير الى احدى ملكات الأسرة السادسة . وهذا حدس مبالغ فيه وتهجم جرىء . غير أنه يدل على كبير أثر بطلتنا رودو بيس ، ومما لا شك فيه أن كثيراً من الأساطير التى تشير الى احداها تخص الأخرى ، والعكس بالعكس . ولقد ظهر هيرودوت بعد رودو بيس بزمن قصير جداً ولقد حدثنا بكثير من خصائصها وتاريخ حياتها ، فأصبح من المستحيل بعدئذ أن نعد رودو بيس من عرائس الخيال وابتكار القصص . ولقد أردت بكتاب دارا المذكور فى آخر مؤلفى هذا اثبات أن رودو بيس الاغريقية هى رودو بيس بانية الهرم كما جاء فى الأساطير . و يصح أن أذكر أيضاً أن صافو Sappho حفيدة رودو بيس كانت تنادى جدتها باسم دوريشا Doricha وقد يكون ذلك الاسم اسمها قبل أن تلقب بذات الخدين الورديين .

أما من حيث مشاهد الحب بين صافو وبردية فلست أكتم أن بعض ذوى الرأى قد وجهوا الىّ سؤالا بهذا الصدد قالوا : « هل يعرف القدماء شيئاً عن الحب بالمعنى الذى نفهمه نحن من الكلمة ؟ أليس الحب الخيالى كما نعلم نحن من نتائج المسيحية ؟ » ورداً على ذلك أقول ان الجملة الآتية المختارة من كلام الكسندر هامبولدت ، الموضوعة فى رأس مقدمة الطبعة الأولى لروايتى هذه ، تدل على أننى لم أهمل هذه المسألة ولم أتجاهلها عند ما شرعت فى الكتابة فقد جاء فيها : —

« لطالما لوحظ فى خطابات سيسرو Cicero و بلاينى Pliny الصغير أنها تشمل على دلائل ، مقطوع بها ، على العواطف فى ذلك العهد ومشابهتها لمثيلاتها فى أيامنا الحاضرة . رانى لأجد فيها أساليب الرقة المتناهية ونبراتها ، تلك الاساليب والنبرات الصادرة والتى تصدر من القلوب الحزينة الموجعة فى كل صقع من الأصقاع وكل عصر من العصور . »

واني لأوافق مع السرور على رأى ذلك الأديب الكبير وألفت نظر قرائى الى الحقيقة القائلة بأن القصص الغرامية كتبت قبل العصر المسيحى : مثال ذلك كتاب أبوليوس Apuleius وعنوانه « آمور وبسايك Amor and Psyche » والحقيقة أن الحب بكل أشكاله كان معروفاً لدى القدماء . وأين نستطيع أن نجد تعبيراً للعاطفة الفياضة أجمل وأكثر خلابة مما نجده فى أغانى صافو ؟ وهل هناك صورة للحب الصبور أنبل من تلك التى رسمها هومر فى مؤلفه « بنيلوب Penelope » ؟ وهل توجد صورة لاتحاد قلبى محبين حتى وهما ثاويان فى القبر أجمل من الصورة التى رسمها لنا زينوفون Xenophon عن العاشقين بانثيا وأبرداتاس Panthea & Abradatas أو ما جاء فى قصة سابينوس Sabinus وزوجته ، وهى المذكورة فى تاريخ فسبازيان Vespasian ؟ وأنى لنا أن نجد أسطورة أعلى من أسطورة هالكيونز Halcyons وهى الطيور الثلجية التى تحب الواحدة منها الفها ، حتى اذا ما أصابه الضعف بسبب تقدمه فى السن بسطت له جناحيها فامتطاها الى حيث يريد ؟ وكيف أن الآلهة ، حينما ترغب فى مكافأة مثل هذا الحب الصادق ، تأمر الشمس فتسطع أشعتها فى رفق ، وتأمر الهواء والماء فيسكنان فى الأيام التى تبنى فيها هذه الطيور أوكارها لتأوى فيها بصغارها ؟ كذلك لا يصح أن يقال انه ليس ثمت حب فى مثل تلك الأيام التى يوصى فيها رجل عظيم كأنطونيوس عركته الحوادث والأيام بأن تدفن جثته بجوار حبيبته كليوبترا ، وأيضاً لا يصح القول بأن شجاعة الحب مجهولة حينما رفع شعر الملكة الحسناء بيرينيس Berenice كالكوكب فى السماء . وهل نستطيع أن نرمى الأمم الغابرة بأنها لا تعرف معنى التضحية فى سبيل الحب ، ومنها أمة قامت بأكملها تنذر باثارة حرب ضروس فى سبيل احدى الحسان ؟ لقد أهين الاغريق فقاموا يثأرون ، أما التروادين فقد حاربوا للحصول على هيلين Helen بل ولقد حدث أن شيوخ ايليوم Ilium كانوا على استعداد «لأن يحتملوا الألم طويلا فى سبيل مثل تلك المرأة.» وأخيراً ألم يجب على هذه المسألة بحذافيرها الشاعر ثيوكريتس Theocritus فى قصيدته الفذة التى عنوانها «الساحرة» ؟ لقد رأينافيها الفتاة المسكينة المهجورة تقبع بجوار مربيتها العجوز ثستيلس Thestylis منحنية فوق النار التى وضعت عليها الطائر المقول بأن له

قوة ارجاع حبيبها دلفيس Delphis ناكث العهد . وكانت سميثا Smaithia هذه قد تلقت على بعض الآشوريين كثيراً من التعاويذ والرقى السحرية فجعلت تجربها كلها. فكان من ذلك أن اشترك قصيف الأمواج البعيدة ، والدخان المتصاعد من النار ، ونباح الكلاب فى الطرقات ، ونشنشة الطائر المسكين الذى يتلوى ألماً ، والفتاة الموجعة القلب من حرقة الهوى برقاها وتعاويذها الرائعة — كل هؤلاء اشتركن فى خلق منظر ليلى رائع زاده روعة ضوء القمر المادئ اللطيف . ثم تركت العجوز فتاتها فأوقفت هذه على الفور المضى فى تعاويذها ، وسمحت لدموعها أن تنطلق من محابسها، ثم رفعت ناظريها الى القمر كاتم سر العشاق وانبرت تقص عليه حديثها كله : وما كان أشد خفقان قلبها حينما رأت حبيبها زين الشباب يتقدم سرباً من الشبان لم تر منهم سواه فأنشدت تقول (وهنا أرادها الشاعر أن تتكلم) : —

« لست أدرى كيف وصلت الى دارى ، فقد انتابتنى حمى غريبة توسدت الفراش بسببها عشرة أيام بلياليها . ألا حدثنى أيها القمر من أين سرى الحب الىّ ؟ »

الى أن قالت وقد تخطى حبيبها دلفيس عتبة دارها : —

« ثم تمشت البرودة فى جسمى فصرت أشبه شىء بقطعة من الثلج ، وتصبب العرق البارد من جبينى ، ولم أفه بشىء ، لم ألفظ حتى بما يلفظه الطفل فى أحلامه لامه ، لقد تصلب جسمى اللدن الجميل واستحال شمعاً . ألا حدثنى أيها القمر من أين سرى الحب الىّ ؟ »

فمن أين سرى الحب اليها اذن ، بل ومن أين ينحدر الينا نحن الآن ؟ ألا ان حب المخلوق لخالقه ، والانسان لربه وبارئه ، هو أكبر منح المسيحية وأكرمها . لقد أوصانا السيد المسيح بحب الجار فلم يخلق بوصيته تلك فكرة حب الخير فحسب بل حب الانسانية نفسها ، وتلك فكرة يجهلها الوثنيون حيث كان الحب لديهم لا يبذل على أوسع مداه الا لمدينتهم التى فيها يقطنون ولبلدهم الذى اليه ينتسبون . وليس ثمت شك فى أن المسيحية قد ظهرت حب الرجل والمرأة وغيرت من صوغه ، ولكننا لانزال نعتقد أن الاغريقى قد ترقى فى مدارج الحب تدرج أخيه المسيحى . بل ولا يصح أن ننكر على أسلافنا الأقدمين أن عاطفة الحب عندهم كانت أشد تأججاً وضراماً . ثم ألم يتكشف حبهم على ألسنتهم بنفس العبارات التى تنطق بها أفواهنا الآن ؟ ومن ذا الذى لا يعرف تلك الأغنية الساحرة : —

« احتس معى كؤوس الخمرة السارة ، وأنفق معى ساعات الشباب الحلوة ، أوكن محباً متأوهاً ، أوتوج رأسك بالزهور والريحان . فان أنا فاض بى السرور والجنون ففض أنت أيضاً سروراً وجنوناً ، وان أنا تقسمتنى الهموم وأرمضتنى فلتقتسمك الغموم ولتوزعك الفكر . »

هذه الأغنية لم يصغها أحد من الشعراء العصريين ، بل صاغها براكسيلا Praxilla فى القرن الخامس قبل الميلاد . ومن ذا الذى يحدس أن أغنية مور Moore القصيرة قد صيغت من أخرى كتبت قبل العصر الذى وقعت فيه حوادث قصتنا هذه ؟ واليكها : —

« واذ جلست الحسناء على نولها أطرقت برأسها من لاعج ما بها من الحب لا تدرى الى أين شردت أصابعها ، فالتفتت الى أمها باكية وقالت : أماه عبثاً ما أبذل من جهد ، لم أعد أستطيع النسج كما كنت من قبل أنسج ، ذلك لانى شاردة القلب والفكر ، أفكر أبداً فى الرجل الذى أهوى . »

ولو أن الظروف تسمح لى لذكرت الكثير فى هذا الموضوع ، غير أنى أكتفى فى الختام بذكر ملاحظة واحدة فقط فأقول ان العشاق ، الآن وفيما مضى ، يجدون فى الطبيعة متعة يسرون بها . لقد كان القمر نجيهم المختار ، ولم أجد فى الشعر الحديث شعراً صيغت فيه رقة ليالى الصيف والجمال الساحر للزهور والأشجار ونافورات المياه وهى فى ذلك السكون حيث العالم نائم ، أقول لم أجد شعراً أوفى فى الوصف من شعر صافو ، اذ يشعر قارئه أنه مرغم على التنفس ببطء واليك بعضه : —

« ان الكواكب السيارة التى تحيط بالقمر ، وتقف منه موقف المسود من السيد ، تختفى اضواؤها الضئيلة ، اذا ما سطع ضوء القمر الفضى وهو على أتمه فى مداره ، فأضاء بنوره دنيانا هذه . »

وقولها : —

« خلال الحدائق ، وما يسود جوها من عبير ، ينساب الماء بخريره صافياً بارداً . وعندئذ يدعو الخافق حفيف أوراق الأشجار الى الراحة والهجوع . »

اخال ابداء ما مضى من الملاحظات لازماً لأولئك الذين يرون استحالة وجود حب بين الأقدمين كحب صافوا وبردية . ومما لا شك فيه أنه اليوم أكثر ندرة منه فى تلك الأيام ، وانى لأعترف أننى صورت ذينك الحبيبين فى صورة بألوانها بعض الزهو والبهاء . ولكن ألا يسمح لى مرة على الأقل أن أطلب لنفسى حرية الشاعر ؟

على أنه يتضح من الشروح التى ذيلت بها مؤلفى أنى قليلا ما انتفعت بهذه الحرية . وهذه الشروح فى نظرى ضرورية ، وذلك لكى أفسر من جهة الاسماء وأوضح الظروف والمناسبات التى جاء ذكرها فى صلب كتابى ، ومن جهة أخرى لكى أبرر موقف الكاتب فى نظر أهل العلم . وأنى لواثق من أن هذه الشروح لن تكون ذات أثر غير مشجع لقرائى ، ذلك لأنهم سيجدون قصتى هذه سهلة سلسة القراءة دون أن يرجعوا الى تلك التفسيرات والشروح .

ينا (Jena) فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٦٨ — دكتور

جورج ايبرس

من مقدمة المؤلف للطبعة الرابعة

كنت ، وأنا أصحح مسودات الطبعة الثالثة ، أعد العدة لرحلة الى النيل . وانى لأنظر لاقامتى فى مصر عامى ١٨٧٢ ، ١٨٧٣ نظرة رضى خاصة ، ذلك لأنى تمكنت لحسن الحظ من العثور على كنوز جديدة ، ومن بينها كنز لا يقدر بثمن ، هو تلك المخطوطات القديمة العظيمة المحفوظة فى متحف ليبزج تحمل اسمى عليها . هذا الكنز هو «بردية ايبرس» وهى تعد الثانية بين أكبر المخطوطات المصرية القديمة وأحسنها ، كتبت فى القرن السادس عشر قبل المسيح . وتشمل صفحاتها العشرة والمائة كتاباً وضعه الكهنة عن طرق العلاج الطبية التى كان يستعملها قدماء المصريين ، وكان هذا الكتاب معروفاً لدى اغريق الأسكندرية . وفيها أن الاله تحوت (هرمس) يدعى مرشد الطبيب وحاميه ، وأن المباحث العديدة التى يشتمل عليها هذا الكتاب انما هى عن وحى هذا الاله . وفى هذه الصحيفة القديمة تشخيص للأمراض الظاهرية والباطنية التى تعترى معظم أعضاء الجسم ، وفيها كذلك أوصاف لعلاجات هذه الأمراض . وقد أرفق كل صنف من العقاقير بأرقام تشير الى الأوزان والمقادير التى يجب اعطاؤها . والتذاكر الطبية مصحوبة بتفاصيل يعيدها الطبيب وهو يحضر الدواء ويسقيه للمريض . وفى السطر الثانى من الصحيفة الأولى من هذه المخطوطات البردية ما يشير الى أنها انحدرت الينا من سايس (صا) وقد أفرد فيها فصل مطول للعصب البصرى ، ويبتدىء كتاب العين فى السطر العشرين من الصحيفة الخامسة والخمسين ويشغل ثمانى صفحات كبيرة . ولا زلنا للآن مضطرين للرجوع الى المؤلفات الاغريقية واللاتينية للحصول على معلومات بخصوص معرفة المصريين لطب العيون . أما بردية ايبرس فهى الكتاب المصرى الوحيد الذى نستطيع أن نأخذ عنه شيئاً يتعلق بهذا الفرع من الطب بين القدماء .

اخال أنه لا محل لذكر هذه الكلمات فى مقدمة رواية ولكن الموضوع حرى بالذكر هنا . أليس من العجيب المدهش أن يكون أمر استكشاف هذه الوثيقة على يدى مؤلف «الأميرة المصرية» ؟ سيجد المؤلف بين أشخاص القصة طبيباً للعيون من سايس

(صا) كتب مؤلفا عن علاج أمراض العيون . وقد كان لمصير هذا الكتاب القيم أثر هام فى حوادث هذه القصة . فأصبح ذلك القرطاس الذى كتبه طبيب العيون فى سايس حقيقة ، وكان حتى ذلك الوقت من مستحدثات خيال مؤلف «الأميرة المصرية» لا يعرفه الا قراؤها فقط . فما كان أشبهنى فى ذلك بالرجل الذى استكشف طريق الكنز الذى رآه فى نومه .

١٨

الفصل الاول

رودوبيس

فاض ماء النيل على مجراه ، واختفت حقول الحنطة اليانعـة والحدائق المزهرة الممتدة على ضفتيه تحت مياهه الفياضة الواسعة المدى ، ولم يكن يرى من بين المدن التى تحميها من قوة الماء سدود قائمة حولها وأفاريز تحزمها حزاماً ، الا المعابد الضخمة والقصور الباذخة والا قمم الجبـال وأشجار السنط بارزة فوق سطح الماء . وتدلت أغصان الجميز والدلب وطفت على أمواجه ، ولكن فروع أشجار الحور الفضية الطويلة ظلت قائمة كأنها كانت تريد أن تبتعد عن ذلك العالم المائى الذى بأسفلها . و بدأ القمر فى السماء بدراً كاملا ، تسقط أشعة ضوئه الفاتر على سلسلة جبال ليبيا وتضمحل فى الأفق نحو الغرب ، أما فى الشمال فكان بريق ماء البحر الابيض المتوسط يكاد يرى . وطفت أزهار اللوتس (النيلوفر) بين زرقاء و بيضاء على الماء الرائق الصافى تدفدف فوقهـا الخفافيش المختلفة الأنواع خلال الهواء الساكن حاملة شذى أزهار السنط والياسمين . وأوت أسراب القطا واليمام الى أعشاشها فى أعالى الأشجار ، فى حين جثمت جماعات البجع والرخم والكراكى على الشاطئ متفيئة ظلال قصب البردى . وسكنت حركة البجع والرخم ، واختفت مناقيرها الطويلة تحت خوافيها ، أما الكراكى فقد أزعجها دفع مجذاف فى الماء ، فمدت رقابها متطلعة بشغف فى الفضاء الممتد أمامها اذ سمعت نوتيا يغنى فى قاربه . وسكن الهواء تماماً ، وانعكس ضوء القمر باستمرار كأنه ترس من اللجين فوق سطح المـاء فبرهن على أن النيل ، رغم انسيابه بشدة فوق الشلالات ورغم اندفاعه بحدة حول معابد الصعيد الضخمة ، تهجره تلك الحدة عند ما يقترب من البحر ماداً ذراعيه ، ليصب فيه بسكينة ورزانة .

ففى هذه الليلة المقمرة من ليالى سنة ثمانى وعشرين وخمسمائة قبل الميلاد أقبل زورق يمخر عباب النيل بالقرب من مصبه يريد عبره ، وقد قعد بحار من المصريين عند خيزرانته يدير دفتـه ، وجلس البحارة الآخرون عراة الى النصف يغنون

والمجاذيف بأيديهم . وجلس فى المخدع الغارى الذى يشبه منازل الصيف الخشبية رجلان متكئين على وسائد منخفضة . ولم يكونا من أصل مصرى ، اذ أن منبتهما الاغريقى يمكن ادراكه حتى فى ضوء القمر . وكان أكبرهما سناً رجلا طويل القامة قوى البنية ، أربى على الستين من عمره ، تتدلى على رقبته القصيرة الجامدة جدائل شعره الكثيف الأشيب فى شيء من عدم النظام والتنسيق . وكان ملتفاً بعباءة بسيطة عادية ، يطيل النظر الى الماء وتعرو سيماه الكآبة والحزن . أما زميله فكان على العكس من ذلك ، أصغر منه سناً بنحو العشرين سنة ذا بنية رقيقة دقيقة . ولكنه كان ينظر تارة نحو السماء ، وطوراً يخاطب الربان ، وآونة يرتب عباءته الجميلة الأرجوانية ويبدل طياتها ، وآناً يشغل نفسه بترتيب جدائل شعره الأسمر العطر أو شعر لحيته المنتظم التجعد .

ترك الزورق من نحو نصف ساعة بلدة نقراتس الواقعة اذ ذاك على الضفة اليسرى لمصب النهر فى الشمال الغربى للدلتا بالقرب من بلدة سايس (صا الحجر) وكانت المرفأ الاغريقى الوحيد فى مصر . وظل أول الرجلين ، وهو الأشيب الشعر المكتئب ، مطرقاً لا يتكلم أثناء هذه الرحلة ، فلم يشأ الثانى أن يقطع عليه سكونه وتفكيره . فلما اقترب الزورق من الشاطئ نهض الأصغر منهما وهو الأكثر حراكا وصاح برفيقه قائلا « لقد وصلنا الى الجهة التى نقصدها يا أرسطوماكس ، فهذا المنزل الفخم الذى تراه عن يسارك قائماً بين أشجار النخيل التى تعلو سطح الماء هو مسكن صديقتى رودوبيس ، بناه لها زوجها شراكسوس ، ويتبارى أصدقاؤها ومن بينهم ملك مصر ، سنة بعد أخرى فى تجميله وتزيينه بالجديد الممتع . على أن جهدهم ضائع اذ أنهم لو جملوه بكل زخارف الدنيا وكنوزها فان السيدة التى تقطنه لا زالت أبهى هذه الحلى وأزهاها . »

فاستوى الشيخ فى جلسته وجعل يصعد ويصوب فى البناء ، وهو يلعب بشعر لحيته الكث الأشيب الذى غطى خديه وذقنه والذى لم يكشف عن غير شفتيه ، وقال « ولم كل هذا التحمس يافانيس بشأن رودوبيس هذه ؟ ومتى كان من عادة الأثينيين أن يطروا عجائز النسوة ؟ » فابتسم الآخر لدى سماعه هذا الاعتراض وأجاب بلهجة

الوانق بنفسه قال « ان معرفتى بالدنيا ولا سيما النسوة واسعة ، واسمح لى أن أمتدح نفسى من هذه الوجهة ، واننى أكرر بعد اعتراضك هذا أننى لم أعرف تحت سماء مصر كلها مخلوقاً أنبل وأشرف من هذه المرأة العجوز . وانك لو تراها وترى حفيدتها الحسناء ، وتسمع من جوقة جواريها الأغانى التى تستطيبها أنت وتلذ لسماعها ، فانك لا بد شاكر لى مجيئى بك الى هذا المكان . »

فرد عليه الاسبرطى قائلا « لولا أننى آمل لقاء فريكساس الدلفى هنا لما كنت رافقتك . »

قال « انك ستجده هناك ، ولكنى مع ذلك لست آمل الا أن تعجبك الأغانى وتسرى عن نفسك . »

فهز أرسطوماكس رأسه وأجاب « قد تسركم أنتم معشر الأثينيين أصحاب المزاج الحاد أغانى بلادكم ، ولكن الحال ليست كذلك معى ففى كثير من الليالى التى يهجر النوم فيها عينىّ ، يتضاعف تشوقى ويزيد حنينى الى اسبرطه ، لا أن يخفت ذلك الحنين ولو غنانى شاعرنا ألكمان بكل أغانيه . »

قال فانيس « أو ظننت اذن أننى لست أشتاق الى أثيناى المحبوبة ولألعاب الصبا فيها ولحركة أسواقها المزدحمة ؟ حقاً أن خبز المنفى لا يقل مذاقه قبحاً فى فمى عما فى فمك ؛ ولكنه يفقد شيئاً من مرارته فى حفلات هذه الدار . انى اذا ما سمعت الأغانى الهيلينية تمثلت بلادى ، أمام عينى ، كطيف من الأطياف ، فأرى شجر صنوبرها وزيتونها ، وأرى أنهارها الخضراء الزمردية وبحرها الأزرق الصافى ومدنها الزاهية الزاهرة وجبالها المغطاة بالثلج ومعابدها الرخامية . فتنحدر من عينى خلسة ، اذا ما خفتت أصوات الموسيقى ، على خدى دمعة حرى ما بين حلوة ومرة . ثم أستيقظ من هذه الغفوة فأذكر أنى فى مصر ، فى هذه البلاد الحارة الشاذة ذات النسق المستديم — تلك البلاد التى أشكر الآلهة على أنى مبارحها قريباً . غير أنى أسألك يا أرسطوماكس ، أيصح أن لا تغشى الواحات فى الصحراء لأنك عائد فيما بعد الى الرمال والجدب ؟ بل أيصح أن تهرب من ساعة أنس وسرور لأن أياماً سوداً بانتظارك ؟ ولكن مالنا ولهذا ، لقد وصلنا ، فسر عن نفسك أيها الصديق وانف

عنها هذه البرحاء ، اذ لا يجوز لنا أن ندخل معبد الهة الجمال وربة الرقة واللطف بقلوب مكتئبة حزينة . »

وعند ما أتم فانيس حديثه ألقى الزورق مراسيه بالقرب من سور الحديقة وقد غمره ماء النيل . وهناك قفز الأثينى منه بخفة وتبعه الاسبرطى بخطى أكثر تثاقلا وكان لأرسطوما كس ساق خشبية ، الا أنه كان ثابت الخطى اذا قورنت خطاه بخطى فانيس الخفيف الحركة ، فكأنما تلك الساق المستعارة بضعة من لحمه .

وكانت حديقة رودوبيس أشبه شيء بجنة الخلد ملأى بشجى الأصوات ويانع الزهور وشذى العطور . سيجت بالأشواك وغرست فيها أشجار السنط والنخيل ، وعبقت منها رائحة الورد ، من أبيض وأحمر ، ورائحة الياسمين والنسرين والآس . وكانت أسراب الخفاش الكبير تحلق برفق فى الجو وتحوم فوق الكل ، وكانت أصوات المرح والغناء يرجع صداها من النهر .

وقد أنشأ هذه الحديقة مصرى لأنه كان للمصريين الذين بنو الأهرام فرفعوها شهرة طائرة فى فلاحة البساتين . وكانوا يحذقون تخطيط الزهور ، ويزرعون الأشجار والغياض متراصة متراصفة ، ويجرون الماء الهافى قنوات ونافورات ، وينظمون من الأجم مظلات ومصايف يتفيأون ظلالها صيفاً ، بل كانوا أيضاً يحوطون الممارفى الحدائق بسياجات مقصوصة ويحيئون هذه الحدائق بضروب من السمك يربونها فى حياض من الحجر .

وقف فانيس عند باب الحديقة ، وأدار بصره حواله وأصغى ، ثم هز رأسه وقال « لست أفهم معنى ذالك . ليست هناك أصوات ، وليس يرى ولا ضوء مصباح واحد وقد اختفت كل الزوارق والقوارب ، ومع ذلك فلا زال العلم مرفوعاً على ساريته تذهب به الريح كل مذهب هناك بجانب المسلات والعمد القائمة على جانبى الباب . ان رودوبيس غير موجودة لا شك فى دارها . ترى هل نسى أهل الدار . . . ؟ »

وهنا اعترضه صوت ضعيف يقول « رئيس الحرس هنا ! أهلا وسهلا ! »

فالتفت فانيس صوب الرجل وكان قد بدا للعيان فحياه قال « طاب ليلك يا كنا كياس » ثم سأله « كيف يصح أن تكون هذه الحديقة ساكنة كقبور المصريين

فى حين أن علم الاستقبال يخفق مرفوعاً على بابها ؟ ترى كم مضى من الزمن على هذا العلم الأبيض وهو يهتز فاتحاً صدره عبثاً للضيفان ؟ »

قال عبد رودو بيس وقد علت ثغرة ابتسامة « حقا كم مضى عليه ! انه مادامت آلهة النجاة ترعى حياة مولاتى بعنايتها فان هذا العلم يظل يدعو من الضيفان الى هذه الدار فوق ما تسع . ان رودو بيس ليست فى دارها الآن ، غير أنه من المؤكد أنها ستكون هنا بعد قليل . ان الجو لطيف والليل مقمر لذا رغبت سيدتى فى نزهة فى النيل مع ضيفانها ، وقد بدأوا فيها بعد الغروب ومضى عليهم ساعتان ، وهاقد أعد طعام العشاء ولا يمكن أن يظلوا فى غيبتهم أكثر من ذلك . أرجو يا سيدى فانيس بعض أناتك وصبرك فتتبعنى الى داخل الدار . ان سيدتى لن تغتفر لى بسهولة خطأى ان أنا تركت ضيفا مثلكم لهم عندها مكانتكم يعودون أدراجهم . » ثم التفت نحو السبرطى وقال « أما أنت يا سيدى الغريب فانى أرجو من كل قلبى أن تبقى هنا . ان فرح مولاتى باستقبالك سيكون مضاعفا لأنك صديق أحد أصدقائها . »

تبع الاغريقيان الخادم فأجلسهما عند دوحة فى الحديقة ، و بعد أن استقر بهما المقام وادار أرسطوماكس نظره فى الحديقة معجباً وقد زادها نور القمر حسنا واشراقا قال « أوضح لى الأمر يا فانيس وقل كيف ساعد الحظ رودو بيس هذه ، وكانت قبل ذلك أمة فاجرة ، فأصبحت تعيش فى قصرها كأنها احدى الملكات تستقبل ضيفانها هذا الاستقبال الفخم ؟ »

فأجابه الأثينى « لقد توقعت هذا السؤال منك ، و يسرنى أن أدلى اليك بتاريخ هذه المرأة قبل أن تدخل دارها . ولم استطع ، ونحن قادمون فى النيل ، أن أخبرك بقصتها فان لهذا النهر القديم قوة غريبة تدفع المرء الى السكون والتفكير . ألم تر كيف أن لسانى المتثرثر قد صار معقولا كلسانك حينما بدأت سفرى ليلا على سطح مائه . »

قال السبرطى « شكراً لك على ذلك ، ولقد أصبت القول فانى لما رأيت أبيمنيدس ، كاهن زيوس ، فى كنوساس بجزيرة كريد ، وكان عمره مائة وخمسين

سنة ، وقعت فى نفسى هيبة منه . فما قولك بهذا النيل ، نهر القدماء يجبتوس كما يسميه الاغريق ، وقد تقادم عهده وتقدس اسمه ! ! من ذا الذى يرجو أن لا يخلبه سحره ؟ والآن فرجائى أن تقصص علىّ يا صاح نبأ رودو بيس . »

قال فانيس « اليك نبأها . كانت رودو بيس هذه طفلة تلهو مع أترابها على شاطئ البحر فى طراقيا ، فاختطفها بعض البحارة الفينيقيين ، وحملوها الى جزيرة ساموس وهناك باعوها الى رجل يقال له جدمون من أشراف تلك الجزيرة وسراتها . شبت هذه الطفلة وكبرت يوما بعد يوم وشب معها جمالها وظرفها ولباقتها ، وسرعان ما تعشقتها القلوب وصبت اليها نفوس كل من رأوها . وكان ايزوب قصاص الأساطير الشهيرة متصلا فى ذلك الوقت بجدمون هذا ، فآنس من الفتاة ميلا الى الأدب فسره منها ذلك فقام على تعليمها وتثقيفها وعنى بذلك عناية المربى الذى يوكل اليه أمر تربية أطفال الأثينيين . وقد وجد فيها سرعة البديهة والادراك . فلم يمض الا قليل حتى حذقت الغناء والموسيقى والبيان ، وأحرزت قصب السبق على أبناء سيدها جدمون بما رزقته من سلامة القريحة وسحر الخلال ، مع أن جدمون بذل كل ما فى وسعه لتهذيب أبنائه وتثقيفهم . وعند ما بلغت رودو بيس الرابعة عشر من عمرها كانت من الجمال والتثقيف بحيث حركت غيرة زوجة مولاها ، فلم تستطع هذه احتمال بقائها فى المنزل ، واضطر الرجل على الرغم منه أن يبيعها لرجل اسمه زانتوس . وكانت حكومة ساموس اذ ذاك فى أيدى أشرافها الموسرين . ولئن كان بوليقراط يومئذ على رأس تلك الحكومة لما كان لزانتوس هذا أن يقنط من وجود شارلها ، فان هؤلاء الطغاة كانوا يملؤون خزائنهم من السلب والنهب كما تملأ جوارح الطير أوكارها . ولكن بهذا جرى القدر فمضى بدرته الثمينة هذه الى نقراتس ، وهناك جمع ثروة طائلة مستخدما فى ذلك جمالها الساحر . ومرت بها على هذه الحال سنوات ثلاث كانت كلها خزيا ومنقصة فى حياة رودو بيس ، ولا زالت تفزع لذكراها حتى اليوم .

« ذاع صيتها وطبقت شهرتها جميع انحاء بلاد الاغريق ، وأقبلت وفود الناس على نقراتس من كل فج سحيق لرؤيتها . ثم حدث أن ثار أهل لسبوس فى وجوه الأشراف ، وأقصوهم عن الحكم ، وأقاموا بيتاكاس الحكيم ملكا عليهم .

وأرغمت أسر الاشراف فى لسبوس على الرحيل من البلاد ، ففر بعضهم الى صقلية ، و بعضهم الى الولايات الاغريقية فى ايطاليا ، و بعضهم الى مصر . وكان فيمن نزح الى نقراتس الشاعر ألسيوس أشعر شعراء اليونان فى ذلك العهد ، وشرا كسوس أخو الشاعرة صافو التى أوصانا صولون الحكيم أن نستظهر أشعارها . وأصبحت نقراتس منذ ذلك العهد مركزا عامرا للتواصل التجارى بين مصر و بقية أنحاء العالم . و رأى شرا كسوس يوما رودو بيس فهام بها هياما ملك عليه مشاعره ، ونقد التاجر المرتزق زانتوس مبلغا عظيما من المال للحصول عليها ، وكان زانتوس هذا على وشك العودة وإياها الى بلاده . وقد نظمت صافو قصائد مقذعة فى هجوها وهجو أخيها ، ولكن ألسيوس الشاعر استحسن صنيع شرا كسوس ونظم فى سبيل ذلك أغانى حلوة فياضة للتمدح بجمال رودو بيس وسحر سجاياها . وطارت بسبب ذلك شهرة أخى صافو فى نقراتس وكان خامل الذكر بين الأجانب القاطنين فيها ، وأصبح منزله مقصد الركب ومنجع الوفد ، وتناثرت عليه الهدايا من كل قطر وناد . ثم سمع حفرع ملك مصر بجمالها وذكائها فارسل يستدعيها الى منف ، وتقدم لشرائها من شرا كسوس ولكن هذا أبى بيعها بتاتا لأنه كان قد أعتقها سرا من زمن بعيد ، وأحبها حبا لم يعد يقوى بسببه على فراقها . وهى أيضاً قد احبت ذلك السبى الجميل ، وأبت أن تهجره رغم العطايا الفاخرة التى كانت تنهال عليها من جميع الجهات . وأخيراً اتخذها زوجة شرعية واستمر فى سكناه معها هى وابنتها الصغيرة كليس فى نقراتس ، الى أن أذن بيتا كاس المنفيين من أهل لسبوس بالعودة الى أوطانهم . فقفل راجعا الى بلاده مستصحباً زوجته ، ولكنه مرض فى الطريق ومات بعد وصوله الى ميتيلين بقليل . وأحبتها الشاعرة صافو بعد ذلك حباً شديداً ، مع أنها كانت قد نقمت على أخيها زواجه منها وسرعان ما أغرقت فى الاعجاب بجمال الأرملة فنظمت من الأغانى الفياضة شعراً تبارى به شعر ألسيوس للتمدح بجمال رودو بيس .

« و بعد وفاة الشاعرة صافو عادت رودو بيس و بنتها الصغيرة الى نقراتس ، وهناك تلقاها الأهالى كآلهة وعظموها تعظيما كبيرا . وكان الملك أماسيس خلال هذه الفترة قد توثب على عرش مصر ، واحتفظ لنفسه بالملك بقوة الجيش الذى شايعه

لانه كان من طائفة الجند . ولما كان سلفه حفرع قد عجل سقوطه عن سرير الملك ، ودفع بالجيش والكهنة الى الثورة بميله الى الاغريق ومخالطته للأجانب عامة — وذلك دائماً مكروه لدى المصريين — وثق الناس من أماسيس وظنوا أنه سيعود الى العادات القديمة فيقصى الأجانب عن البلاد ، ويطرد المرتزقة من الاغريق ، وبدلا من أن ينتصح بنصائح هؤلاء سيهرع الى الكهنة يأتمر بأمرهم وينتهى بنواهيهم . ولكن المصريين خدعوا بأماسيس وظنوا به ماليس فيه ، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار . ولئن كان حفرع فى نظر المصريين صديق الاغريق فان أماسيس حبيبهم ونجيهم . والمصريون ، وعلى الأخص كهنتهم وجيشهم ، تتقد قلوبهم غيظاً منا وحنقاً علينا ، وهم لا يتوانون أن يقتلونا واحداً واحداً . وليست تقلق هذه العاطفة من ناحية الجيش بال أماسيس ، لانه يعلم أننا نفوقهم فى كل شيء . أما من ناحية الكهنة فالمسألة خطيرة لسببين : أولهما أن لهم فى نفوس الشعب تأثيراً لاحد له ، وثانيهما أن أماسيس مرضاة لنا يكتم فى قرارة نفسه حباً شديداً لهذه الديانة الخرقاء — تلك الديانة التى يعظمها معتنقوها ويقدسونها كثيراً لا لشيء سوى أنها ديانة الآباء فى تلك البلاد الشاذة — وقد بقيت من غير تبديل آلاف السنين . وهؤلاء الكهنة لايفتأون يثقلون على الملك حياته وينغصون عليه عيشه ، وهم يقتلوننا ويوصلون الأذى الينا بكل ما وسعت أيديهم . ولا أكتمك أنه لولا حماية الملك لى لكنت من زمن غيبت فى بطن الأرض . . . أرانى شططت عن موضوع حكايتى فلأعد الى حديثى الأول . قلت لك آنفاً ان رودوبيس عادت الى نقراتس فاستقبلها الناس بأذرع مبسوطة وصدور مسرورة وزاد على ذلك عطف أماسيس عليها ، وكان قد تعرف بها . ولم تكن تسمح قط لابنتها كليس — وكما هو الحال الآن مع حفيدتها الصغيرة صافو — أن تظهر لزائريها ، الذين كانوا لا ينقطعون ليلة عن زيارتها ، وفى الحقيقة لم يكن فى نقراتس فتاة بذل فى تربيتها وتهذيبها ما بذلته هى فى تربية ابنتها . وقد زوجتها [illegible] بعد ذلك من تاجر فينيقى غنى من أسرة شريفة واسمه جاوكاس ، وكان قد أبلى بلاء [illegible] حسناً فى الدفاع عن بلده ضد غزو الفرس لها . وسافرت معه الى بلدة ماسيليا (مرسيليا الآن) وكانت قد أنشئت حديثاً على الشاطئ الكلتى . وهناك وقع الزوجان فريسة

لبرودة الجو ، فقضيا نحبهما هناك ، تاركين بنتاً صغيرة هى صافو. فسافرت رودو بيس بعد وفاتهما مباشرة الى ماسيلا وعادت بحفيدتها الى نقراتس ، و بذلت كل ما فى وسعهـا لتربيتها ، وحجبتها ، بعد أن كبرت ، عن مجالسة الرجال وتلك عادة المصريين ، اذ كانت رودو بيس لا تزال تذكر ماضيها هى وما كان فيـه من عثرات . على أنها كانت ترى أن صحبة الرجال ومجالستهن ألزم اليها من الماء والهواء ولذلك كان يؤم دارها كل الأجانب الموجودين هنا ، وكان هؤلاء يلقون منها وجهاً صبوحاً وصدراً رحباً ، فـكانوا لا يتوانون عن زيارتها كلما رأوا علم استقبالها مرفوعاً على بابها . وانك لترى هنا يا أرسطوما كس كل ذى جاه من الاغريق ، وكأنما نحن فى هذه الدار ندرس أحسن الوسائل لمقاومة كراهية الكهنة لنا وتحبيب الملك فينا وجلبه الى صفنا . وانك لتجد هنا أيضاً أحدث الأنباء عن بلادنا ، بل وعن باقى أنحاء العالم . وهذا المنزل هو الكعبة التى لا تنتهك حرمتها ، والملاذ لـكل لاجئ ، فان رودو بيس قد حصلت من الملك على أمر يمنع رجال الشرطة من تخطى دارها وفى هذا البيت أيضاً نشنف آذاننا بسماع أغانينا ، وفيه نتكلم بلغتنا الأغريقية ، وفيه نبحث عن خير الوسائل لانقاذ بلادنا من تلك الاعتداءات المنصبة عليها أبداً من ظالميها.

« وبالاختصار ان هذا المنزل من حيث المصالح الهيلينية فى مصر محط الأنظار وكعبة الآمال ، وهو من الوجهة السياسية أهم لدينا من هيكلنا نفسه بل ومن غرفتنا التجارية .

« وسترى بعد قليل هذه المرأة الشهيرة ، بل ربما ترى أيضاً حفيدتها صافو ان كنا وحدنا ، وستعلم يقيناً أن ما بلغتاه من السؤدد ورفعة الجاه انما كان لما امتازتا به من الصفات لا لحسن الحظ والطالع . يظهر أنهم جاءوا ، وهاهم قادمون صوب الدار ألست تسمع غناء جواريها ؟ انهن الآن يلجن الباب . فلندع الجمع فى اطمئنانه ، وهيا فاتبعنى فاذا ما انقضت السهرة فاخبرنى أ كنت نادماً على مجيئك هنا أم مسروراً وحدثنى بعدئذ هل رودو بيس تشبه الملكة أم هى تلك الامة التى أعتقت ؟ »

وكانت الدار مبنية على النمط الأغريقى ، فكانت مستطيلة ذات طبقة واحدة ،

ومظهرها الخارجي بسيط اذا قيس بواجهات ، دورنا الحالية . أما في الداخل فقد جمع الى جمال النقش المصرى حسن الهيئة اليونانية . و يؤدى الباب الكبير الى بهو واسع ، ترى الى يساره غرفة الأكل الكبيرة المطلة على النيل ، يقابلها المطبخ وهو شقة منعزلة لا توجد الا في منازل خاصة الاغريق وسراتهم أما الفقراء فكانوا يطهون واطعامهم على مواقد وسط الدار . أما ردهة الاستقبال ففي الطرف الآخر من مدخل البهو ، وهى مربعة الشكل محاطة من الداخل بعمد مقنطرة وتؤدى هذه القناطر الى مخادع أخرى عديدة . وكانت هذه الشقة مخصصة للرجال و بوسطها موقدة مصنوعة من النحاس وضعت فوق متكأ عال يشبه المذبح.

وكان يضىء هذه الردهة منفذ في السقف هو في الوقت نفسه منفذ يتصاعد منه الدخان . ومن هذه الردهة (في الجهة المقابلة لمدخل البهو) ممر عليه باب متين مغلق يؤدى الى حجرات النساء . ويحيط بالممر أيضاً من الداخل عمد مقنطرة أخرى على جوانب ثلاثة منه فقط ، وهنا كانت تمضى نساء المنزل أوقاتهن حينما لا يشغلهن في المنزل شاغل ، وكن يقضين الوقت في الغزل أو النسيج في الحجرات القريبة من الباب الخلفى أو باب الحديقة كما اعتدن تسميته . أما حجرات النوم فواقعة بين تلك الحجرات و بين المخادع الأخرى المنتشرة على الجانبين في شقة الحريم . وكانت حجرات النوم هذه بمثابة الخزائن المأمونة يوضع فيها أثمن وأغلى ما يوجد في المنزل . وصبغت جدران شقة الرجال بالأصباغ الحمراء الضاربة الى السمرة . وفرشت أرضها بالزرابى والنمارق الثمينة من صنع سارديس ، وصفت عليها وسائد من جلد النمر ، وحول الموقدة التي في الوسط وضعت مقاعد وموائد منقوشة من الخشب عليها آلات الطرب من ناى وقيثار ومزمار . وعلقت على الجدران مصابيح كثيرة غريبة الأشكال ملئت بزيت الكيكى (الخروع) وكان بعض هذه المصابيح يمثل دلفين البحر والنور ينبعث من شدقيه ، و بعضها يحكى حيوانات أخرى هائلة الخلق ، تخرج من بين فكوكها لهبا ونيرانا ، فيمتزج ضوؤها بضوء الموقدة فتضىء المكان بضوء ساطع .

وجلس في هذه الحجرة جمع من الرجال مختلفة وجوههم وأزياؤهم . فمنهم سورى

من مدينة صور قد لبس جبة حمراء سابغة الأذيال جلس يحدث آخر تنم ملامح وجهه وشعره الاسود الجعد على اسرائيليته ، وقد جاء مصر لشراء عجلات وخيول لزربابل ملك يهوذا — وكانت عجلات مصر وخيلها أفضل من سواها فى ذلك الوقت . ومنهم ثلاثة من أغريق آسيا الصغرى (الأناضول) يلبسون أغلى وأثمن لباس فى بلادهم جلسوا يتحدثون مع فريكساس الرسول الموفد لجمع المال من اليونانيين لمعبد الاله آبولون فى دلفى ، لأن المعبد القديم احترق من عشر سنوات فارادوا أن يبنوا مكانه معبداً آخر أجمل منه .

وكان هناك أيضاً اثنان من أهل ميليسيا ، وهما من تلاميذ انكسيمندار وأنيكسيمانس من مشاهير فلاسفة اليونان ، وقد قدما مصر لتعلم علم الفلك ولدرس حكمة المصريين فى هليوبوليس . وعلى مقربة منهما جلس ثالث واسمه ثيوبومبس من أغنياء التجار ومن أصحاب السفن وكان قد استوطن نقراتس . أما رودوبيس فكانت مشغولة بالحديث مع اثنين من الاغريق الساميين (من ساموس) أحدهما النقاش والصائغ الشهير ثيودوروس ، والثانى ابيكوس شاعر ريجيوم وكان قد غادر بلاط بوليقراط فترة من الزمن ليتعرف بمصر ، وكلاهما وفدا على أماسيس يحملان اليه الهدايا من ملكهما . وجلس بجوار الموقد فياوينوس السيبارى (من سيباريس احدى مدن ايطاليا) وكان بدينا شهوانيا تبدو على وجهه علامات القوة . اضطجع على مقعد مغطى بالفرو الثمين ، وجعل يلهو بشعره العطر وبما علق حول عنقه من السلاسل الذهبية المتدلية على جبته الزعفرانية اللون التى تغطى جسمه حتى قدميه .

وجعلت رودوبيس تحيى ضيفانها كل بكلمة ، وقد أعجبت بالساميين المذكورين حتى شغلت بهما عن الباقين ، وكان الحديث عن الفن والشعر . وكان لا يزال بريق نار الشباب يبدو فى عينى تلك المرأة الطراقية ، وكان جسمها الطويل لا يزال ممتلئا غير متقوس ، وكان شعرها الأشيب مقصوصا حول رأسها الجميل على شكل موجات كثيفة ومسترسلا على كتفيها كضفيرة من الذهب الخالص ، وعلى جبهتها تاج يسطع ويبرق .

وكانت صفراء المحيا ، خلا وجهها الجميل من التغضن والتجعد رغم كبر سنها .

والحق ان من يرى فمها الصغير وشفتيها الحمراوين وثناياها البيض وعينيها النجلاوين الفاترتين وأنفها الأقنى يحكم عليها بأن هذا الجمال حرى بأن يزين فتاة حديثة السن.

لقد كانت تبدو لناظرها أصغر من عمرها الحقيقى مع أنها لم تبذل أى جهد للتنكر من سنها . وكان وقار المرأة ظاهراً فى كل حركاتها ، ولم تكن رقتها رقة الفتاة التى تحاول أن تسر كل من تراه بل رقة المرأة المتقدمة فى السن التى ترجو سرور الناس باحترامهم والتى فى الوقت نفسه تنطلب منهم أن ينظروا اليها بعين الاكبار والاجلال .

وظهر صاحبانا فى البهو فاتجهت اليهما الأنظار ، واذ دخل فانيس آخذاً بذراع صاحبه ابتدره الجميع بعبارات الترحيب من كل الجهات . فقال أحد الميليسيين « الآن عرفت ما كان ينقص جمعنا هذا . لاطرب بغير فانيس ولا سرور . »

وقال فياو ينوس السيبارى رافعاً صوته وهو مضطجع على مقعده لا يريد أن يتحرك « ان السرور من خير الأشياء وأحبها ، فان جئتنا به أيها الأثينى فأهلا بقدومك الكريم . »

وقالت رودو بيس ملتفتة الى ضيفيها الجديدين « أما أنا فانى أرحب بكما من كل قلبى وقد سرى عنكما الهم ، وأرحب بكما أكثر من ذلك وقد دهمكما أمر ونجئكما غم . لست أعرف سروراً يعادل سرورى باجلاء غم الاخوان وتخفيف احزانهم وأنت أيها السبرطى ! انى أجرؤ فأدعوك بالصديق فقد قيل حبيب الى قلبى حبيب حبيبى . »

فحنا أرسطو ما كس رأسه وهو صامت ، أما فانيس فأجاب مخاطباً رودو بيس وفياو ينوس السيبارى قال « حسن يا صديقىّ ، ففى وسعى اقناعكما . فأما أنت يا رودوبيس فاننى جئتك بنبأ يستلزم التعزية فانى تاركك سريعاً ، نعم انى مغادر دار الأنس هذه قريباً جداً . وأما أنت يا فياو ينوس فانى محدثك بما يسرك اذ لا يسعنى الا أن أسر بالأوبة الى وطنى العزيز ، الى هيلاس مرة أخرى ، و بمغادرتى على الرغم منى لهذه البلاد التى تشبه شركا للجرذ صيغ من ذهب خالص . »

فصاح جميع الحاضرين « أنت نازح عنا ! هل فصلت من منصبك ؟ والى أين تمضى ؟ »

قال فانيس « صبراً صبراً أيها الأصدقاء فحديثى طويل أرى أن أبقيه حتى مجلس

الى طعـام العشاء ، والحق أقول يا صاحبي فيلوينوس ان رجوعي شديد كمصابي في قهرى على فراقكم . »

فقال السيباري متفلسفاً مرة أخرى « ما أحسن الجوع اذا كان بانتظار الجائع طعام شهي . »

فقالت رودو بيس « لك أن ترتاح من هذه الوجهة يا صاحبي فقد أمرت الطاهي أن يبذل ما في وسعه للاجادة لأن أشهر أكول في أعظم بلاد الدنيـا ترفاً ، وهو فيلوينوس السيباري ، سيصدر حكمه القاسي على صحاف الطعام اللذيذ المأكل . اذهب يا كنا كياس ومر باعداد العشاء . والآن فهل أنتم راضون أيها الصحب الذين أعياكم الانتظار ! أما عني أيها السادة فإن حديث فانيس قد أضاع مني الشهية للأكل . »

فحنا فانيس رأسه وعاد السيباري الى فلسفته قال « ما أحسن القناعة اذا أجيبت الرغبات كلها ؟ واني لمدين لك بالشكر يارودوبيس على حسن تقديرك لبلادنا وترفها . واسمعي ما قاله الشاعر أنكريون : —

اليوم يومنا فما الذى نخشاه ؟ اليوم يومنا وهو قريب منا . ألا فلنحسن معاملتنا له حتى يرغب في البقاء معنا . ألا سحقا للشغل والمشغولية ألا سحقا للاحزان فالغد في علم الآلهة .

« ايه يا ابيكوس ، هل أحسنت الرواية عن شاعركم الذى ينعم معكم بولائم بوليقراط ؟ أراني قد أجسر على القول انه ان فاقني أنكريون في قرض الشعر فانه لا يفوقني في تفهم طرق العيش وان يكن قد نظم فيها كثيراً من أشعاره. ولست أدرى لماذا خلت أشعاره من شيء عن الطعام وملاذه ؟ نعم لا أنكر أن التشبيب واللهو من أحب الأشياء الي ، ولكني أستطيع العيش دونهما وان تكن الحياة على هذا النسق مضجرة مشئومة ، في حين أن الطعام قوام الحياة ولا حياة الا به . . »

قال السيباري ذلك واستلقى ضاحكا . أما ارسطوماكس السبرطي فلم يشترك في هـذا الحديث بل انتحى وفريكساس جانباً ، وفارقه سكونه ورزانتـه العاديين ، فسأله بلهفة عما اذا كان قد جاءه بجواب السؤال الذى طال انتظاره له من الآلهة . فانبسطت أسارير الدلفي ، ومد يده الى طيات قميصه وأخرج منها رقا صغيرا ملفوفا

من جلد الغنم كتبت عليه بضعة أسطر .

فارتجفت يدا السبرطى الشهم الشجاع عنـد ما تناول هذا الرق ، ونظر الى الـكتابة ببصر حديد كاد يخترق الجلد الذى كتبت عليه .

ثم استجمع نفسه وهز رأسه مكتئبا وقال « لقـد خلقنا نحن السبرطيين لحذق فنون أخرى غير القراءة والـكتابة . فهلم اقرأ لى ، ان استطعت ، ما تقوله بيثيا . »

فما كاد الدانى يقع نظره على الـكتابة حتى قال « أبشر يا أرسطوما كس فان لوكسياس ، وهو الهنا آبولون ، يقول بعودتك الى وطنك فرحا مسرورا . اسمع نبؤه الكاهنة :

« انه يوم يجىء المقاتلة بجموعهم من فوق الجبال المكسوة قممها بالثلوج . وينحدرون الى الحقول التى تجرى فيها مياه النهر فتتدفق السهل الفسيح ريا وسقيا ، فحينئذ يحملك الزورق بعدما طول تمهله وابطائه الى تلك المراعى والرياض حيث يلقى الراحل الجوال الراحة والسلام ويجد له وطنا يقيم فيه . انه متى جاءك أولئك المقاتلة هابطين من تلك الجبال المكسوة قممها بالثلوج ، فحينئذ تمنحك الخمسة الاقوياء ماطالما أبته عليك . »

أنصت السبرطى لهذه الـكلمات بتلهف شديد ، ثم استعادها مرتين ثم جعـل يرددها هو من الذاكرة ، وبعدئذ شكر فريكساس وأخذ الرق منـه ووضعه فى طيات ثوبه .

أما الدانى فعـاد الى الحضور يشترك معهم فى الحديث الدائر بينهم ، وطفق أرسطوماكس يردد كلمات النبؤة لنفسه بصوت منخفض محاولا استظهارها واستكناه خبيئها .

الفصل الثانى

الألعاب الاولمبية

وفتحت أبواب غرفة الطعام فاذا على بابها غلامان جميلا الصورة يحمل كل منهما اكليلا من الرياحين ، واذا في وسطها مائدة كبيرة منخفضة من الخشب الصقيل اللامع يحيط بها وسائد من الأرجوان تغرى بالجلوس .

وزينت هذه المائدة بطاقات كبيرة من الزهور ، ووضعت عليها صحاف كبيرة فيها الشواء ، وأخرى مختلفة الاشكال فيها البلح والتين والرمان والشمام والعنب ، وأكواب وأوانى فضية ملئت عسلا ، وصحاف نحاسية أخرى وضعت عليها أقراص الجبن الشهى المجاوب من جزيرة ترينا كريا . وفى وسط هذه الصحاف مبخرة من الفضة تتصاعد منها أفاويق البخور فتملأ الغرفة بطيبه .

وفى احدى زوايا المائدة آنية من الفضة تمزج فيها الخمر بالماء ، لأن الخمر الخالصة كانت محرمة على الاغريق يتأثمون منها و يعاقبون على شربها . وكانت هذه الآنية من خير ما أخرجته يد الصانع ، فكأن مقبضيها المتعرجين ماردان يكادان يسقطان من ضغط ما يحملان . وقد أحيطت هذه الآنيـة بالرياحين والزهور ، وخصصت لكل ضيف كأس تحيط بها طاقة من الورد أو الريحان .

أما أرض الحجرة فقد نثرت بأوراق الورد ، وأضيئت عدة مصابيح علقت على الجدر الجصية الملساء البيضاء .

وسرعان ما أخذ الضيفان مجالسهم على الوسائد حتى أقبل الغلامان فضفرا أكاليل العليق والريحان على رؤوسهم وأكتافهم وغسلا أقدامهم فى أحواض من الفضة . ولم يهدأ بال السيبارى حتى أحيط جسمه كله بالورد والريحان رغم أنه كان متعطرا بكل عطور العرب ، واستمر شاغلا للغلامين حتى بعد أن رفع قطّاع اللحم من المائدة الشواء الذى عليها لتقطيعه اربا اربا ، ولكن لما وضع الصنف الأول من الطعام ، وكان سمكا متبلا بالخردل ، نسى كل تلك الاعتبارات الثانوية وانهمك فى

التهام تلك الأطعمة الشهية .

وجلست رودو بيس على كرسى فى صدر المائدة بالقرب من آنية الخمر ، ولم تقصر همها على ادارة الحديث على الطعام بل كانت أيضاً ترشد الندل الواقفين حولها الى ما كانوا يعملون .

وكانت تنظر الى ضيوفها بنوع من الاعظام ، و بدت لكل منهم كأنها تخصه بكل عنايتها . فكانت تسأل الدلفى كيف نجح فى مهمته والسيباري هل هو راض عن طاهى طاهيها ، ثم كانت تصغى تمام الاصغاء الى ابيكوس وهو يحدثها كيف أن فرينيخوس الأثينى قد استعاض عن الروايات التمثيلية التى تمثل بعضا من أطوار الحياة بالروايات التمثيلية الدينية التى وضعها تسبيس الايكاريوى ، وكيف أنه يمثل تواريخ الماضى مستخدما فى ذلك الأغانى والمحاورات .

والتفتت الى السبرطى قائلة انه من بين الضيفان الشخص الوحيد الذى تقدم اليه اعتذارها لاعن بساطة الطعام بل عن كبير ترفه . ووعدته ان هو شرف دارها مرة أخرى بزيارته فان عبدها كنا كياس ، الذى طالما يفخر بأنه يستطيع أن يطهى الحساء الأحمر (وهنا ارتجف السيبارى) ، سيعد له طعاما من أطعمة لاسيديمونيا .

ولما فرغ الضيفان من الطعام عادوا فغسلوا أيديهم . ورفعت بعدئذ الصحاف عن المائدة ، وكنست أرض الحجرة ، ومزجت الخمر بالماء فى الآنية وأديرت عليهم أقداحها . وأخيراً انتهزت رودو بيس الفرصة السانحة الملائمة والتفتت الى فانيس ، وكان مشغولا بالحديث مع الميليسيين ، وقالت تخاطبه :

« لقد عيل صبرنا أيها الصديق الكريم ، وقد حان لنا أن نسألك عن أمرك . فهل لك أن تقص علينا قصتك ، وتحدثنا بأمر تلك الظروف السيئة التى ستنتزعك من مصر وتحرم مجتمعاتنا منك ؟ انك قد تستطيع أن تغادر هذه البلاد وأنت صابر على فراقنا لأن الآلهة قد خصتكم يا معشر الايونيين بتلك الهبة الثمينة ، هبة الصبر ، من يوم أن تلدكم أمهاتكم ؛ أما نحن فسنذكرك طويلا والحزن يمض قلوبنا . ليس أشق عندى على نفس الصديق من نزوح الفه عنه بعد تجربة اخلاصه سنين طويلة . وكثيرون منا قضوا على ضفاف النيل زمنا طويلا فلم يتشربوا من المزاج المصرى ،

السرمد الذى لم يتغير ، لا قليلا ولا كثيراً . أراك تبتسم ولكنى متأكدة أنه مهما كان حنينك الى العودة الى وطنك العزيز فانك لن تستطيع فراقنا البتة دون أسف وحسرة . اخالك توافقنى على ذلك ؟ اذن فلم أكن قط مخدوعة فيك . والآن حدثنا ما الذى أرغمك على هـذا السفر وحدا بك الى ترك مصر ، فلعلنـا نجد فى الامكان أن نقنع الملك بالعدول عن أمره فتظل بيننا . »

فابتسم فانيس ابتسامة مرة وقال « أشكرك كثيرا يارودوبيس على كلماتك الرقيقة ، وعلى ذلك التعطف الذى تبدين فيـه أسفك على رحيلنا واستعدادك لمنعه ان أمكن . لسرعان ما تساعدك مئات الزوار على سلوانا ، وشكرا للآلهة وحمدا على انك ، رغم اقامتك طويلا على ضفاف النيل ، لا تزالين اغريقية صميمة من رأسك الى اخمص قدميك . انى ممن يعشقون الثبات ، ولكنى أكره الحمق من كل قلبى ، ومن منكم لا يرمينى بالحمق ان أنا حاولت محالا ؟ لا أستطيع أن اسمى ثبات المصريين فضيلة بل هو محض ضلال وغى . فان القوم الذين يحتفظون بموتاهم الوف السنين ، والذين يفضلون أن يخسروا آخر كسرة من قوتهم عن أن يفرطوا فى عظمة من عظام أسلافهم الفانين ، ليسوا من أهل الثبـات بل هم حمقى معتوهون . ثم هل يمكن أن ينسر قلبى وأنا أرى اصدقائى يحزنون من أجلى ؟ الجواب سلبى بالطبع . فعليكم أن لا تقلدوا المصريين الذين اذا فقدوا صديقا لهم ناحوا عليـه أياما وشهورا . بل اذا ذكرتم فيما بعد صديقاً مات أو غاب عنكم — فقد لا تطأ قدماى بعـد اليوم أرض مصر — فلنكن تلك الذكرى بوجوه مستبشرة وثغور باسمة ، ولا تقولوا لم أرغم فانيس على مغادرتنـا ، بل قولوا فلنسر فى غيبته كما كنا نسر فى حضرته ، انه كان حسن المحضر والمغيب . وعلى هذا النمط تحتفلون بذكرى رحيلى ، واليكم ما قاله الشاعر سيمونيدس :

« اذا نحنا شئنا أن نكون أكثر حكمة وتعقلا فعلينا أن لا نبذل الدموع ونطيل النوح والأسف على من مات منا . وعلينا أن لا نقف أمام الطين البارد والخزف الهامد نندب الراحل البائد أكثر من يوم واحد . فما أطول الوقت نبذله فى سبيل الموتى ، وما اقصر الحياة تنتهى فى ابانها ، بل وما أخلاها وأعراها اذا لم تعقل بالتعب والكد والكلال .

«واذا لم يكن لنا أن نبكى أصدقاء غيبناهم فى الثرى فكيف يسوغ البكاء والحزن

على الغائبين منهم والبعيدين ؟ فأولاء قد فقدناهم الى الأبد ، وأما هؤلاء فنقول لهم عند الفراق : الوداع حتى نلتقى . »

وهنا عيل صبر السيبارى ولم يستطع الصمت بعد ذلك طويلا وصاح بأعلى صوته « أفلا تريد أن تقص علينا حكاياتك ايها الماكر ؟ لا أستطيع أن احتسى نقطة واحدة من هذه الخمر حتى تنتهى من ذكر الموت والموتى . لقد أصابتنى البرداء وهى تصيبنى ان مر بخاطرى أن هذه الحياة محدودة . فكيف بى وأنا أسمع حديث الموت باذنى . »

عند ذلك أغرب الجميع فى الضحك و بدأ فانيس قصته قال : « تعلمون اننى حينما أكون فى سايس (صا) أسكن القصر الجديد ، أما فى منف فقد خصص لسكناى الجناح الأيسر من القصر القديم وذلك لأنى رئيس الحرس الاغريقى الذى يلازم الملك فى كل مكان .

« وتعلمون أن سايس موطن ملوك مصر من عهد بسامتيك الأول ، فأهملت من ثم القصور الأخرى . ومنزلى فخم للغاية و به أجمل الأثاث والرياش ، لولا أن فيه أمراً أزعجنى منذ دخلته أولا .

« وكنت اذا وجدت فيه نهاراً ، وما كان أندر ذلك ، راقنى من حجراته أنها أشهى وأجمل ما يرتاح اليه الانسان . وأما فى الليل فقد كان النوم فيها مستحيلا وذلك بسبب الجلبة الناجمة عن صئى ألوف الجرذان ، من ذكور وأناث ، تسكن فى السقوف وتحت الوسائد وخلف الستائر .

« وقد بلغ من وقاحة جرذ أن سار على وجهى فى أول ليلة قضيتها هناك .

« فحرت فى أمرى وما أفعل حتى باعنى أحد العساكر المصريين هرين كبيرين ، فارتحت بسببهما من الجرذان بعض الراحة عدة أسابيع .

« وانكم كلكم تعلمون أن الهر من الحيوانات المقدسة حسب قوانين هذه البلاد الشاذة (التى لا تستطيعان التمدح بثقافتها وحكمتها يا صاحبى الميليسيين) وهم يتبركون بهذه الحيوانات كما يتبركون بكثير غيرها من ذوات الأربع ، ومن قتل هرا حقت عليه عقوبة قتل الأنفس البشرية . »

والى هنا كانت رودوبيس تصغى اليه باسمة ، فلما أدركت أن نفى فانيس كان بسبب استخفافه بهذه الحيوانات المقدسة امتقع لونها وخفق قلبها جزعا عليه ، لأنها كانت تعرف منزلة هذه العجماوات عند المصريين ، وقد رأت بعينها ذهاب كثير من النـاس شهداء ضحايا لهذه الخرافة المصرية ، وكيف أن رجلا من أهل ساموس قتل منذ زمن قريب قطة فقام الجمهور الحانق عليه وقتله ، ولم تغن شفاعة أماسيس الملك له شيئاً .

قال فانيس متابعا الحديث « ولما تركنا منف منذ سنتين كان كل شيء على ما يرام . وسلمت الهرين الى أحد الخدام المصريين وأوصيته بهما خيرا معتقـدا أن هذين العدوين للجرذان سيخلصانى فى المستقبل منها . وفى الحقيقة بدأت أشعر بعاطفة احترام نحو منقذىّ هذين من طاعون هذه الجرذان .

« ثم مرض أماسيس فى العام الماضى قبل أن ينتقل البلاط الى منف فبقينا فى سايس .

« وأخيراً قصدنا مدينة الأهرام من نحو ستة أسابيع . وهناك قصدت مسكنى القديم فما رأيت فيه أثرا حتى لذيل فأر واحد ، ولـكن حل محل الجرذان جنس آخر من الحيوان ليس أحب عندى من سابقـه . لقد توالد الهران خلال السنتين اللتين غبتهما وتكاثرا فأصبح عددها أربعـة وعشرين . فبذلت جهدى للتخلص من تلك السلالة المتعبة المختلفـة السن واللون ، ولـكنى حاولت عبثاً ، وبت ليلى لا يهجع لى طرف من جلبة هذه السنانير ومواثها .

« وكان يؤتى بالقطط الزائدة عن الحاجة فى عيد بوباستيس لهيكل المعبودة باخت ، ذات رأس الهر ، وهناك تطعم ويعنى بأمرها . فاذا مازاد عددها زيادة عظمى قضى عليها سرا ، فما أخبث أولئك الكهنة الملاعين .

« ولسوء الحظ لم تحدث الزيارة للمعبـد خلال أقامتنا فى منف ، ولكننى كنت ضقت ذرعا بهذه القطط واعتزمت أن أتخلص من طائفتين منها ولدتا حديثاً . وكان خادمى العجوز موسى يكره القطط كما تستدلون على ذلك من اسمه ، فأوعزت اليه أن يقتلها بأن يضعها فى كيس ويقذف بها فى النيل .

« وكان اعدامها على هذا النمط ضروريا مخافة أن يلفت مواؤها أنظار الحراس . فحملها ذلك الخادم المسكين وذهب بهـا الى النيـل مخترقا غاب هاتور الهة الحب . ولـكن يا للأسف فان الخادم المصرى الذى اعتاد اطعامها لاحظ أن طائفتين منها قد اختفتا فأدرك بفراسته الأمر كله .

« وفيما كان خادمى يسير مطمئنا فى طريقـه ماراً من بين تماثيل أبى الهول بالقرب من معبـد بتاح ، وحاملا الـكيس ومخفيا اياه تحت ردائه ، لاحظ أنه مقتفى أثره . ولـكنه عند ما رأى متعقبيه قد وقفوا أمام معبد بتاح ، وجعلوا يتكلمون مع الـكهنة ، اطمأن وسار فى سبيله .

« وما كاد يبلغ ضفة النيـل حتى سمع أصواتا من ورائه تناديه ورأى جمعا من الناس يجرى وراءه ، وفى الوقت نفسه قذفه أحدهم بحجر كاد يصيب رأسه .

« أدرك موسى فى الحال الخطر المحدق به ، فاستجمع قواه كلهـا ، وجرى نحو النهر بسرعة ، ورمى بالـكيس فيه . ثم وقف بعدئذ عند الشاطئ وقلبه يدق ، وظل واقفا مكانه لأنه لم يكن يعتقد أنه أجرم . وما هى الا دقائق يسيرة حتى أحاط به نحو مائة من الكهنة .

« ولم يترفع عدوى اللدود بتاحوتب ، كبير كهنة بتاح ، عن أن يجىء بنفسه مع المطاردين .

« ثم جرى جمع من الـكهنة ومعهم ذلك الغادر خادم القطط نحو النهر ، وغاص جماعة منهم فى الماء ، وهناك وجدوا ، لسوء حظنا ، الـكيس ناشبا فى قصب البردى وأعواد الفول تحت المـاء وبه جثث اثنى عشر قطا دون أن يمسسها أذى . فانتشلوه وفتحوه أمام الـكاهن الأكبر وعدد من الـكهنة الأصاغر ونحو الف من أهالى منف كانوا قد هرعوا مسرعين الى محل الحادثة . وما وقعت انظار الجمهور على ما بداخل الـكيس حتى صاحوا بالويل والثبور طالبين الانتقام ، ولقد سمعت صياحهم وأنا بداخل القصر .

« ثم أقبل ذلك الجمع الهائج على خادمى المسكين ، وأخذوا بتلابيبه ، وصرعوه على الأرض ، وراغوا عليـه ضربا بأقدامهم ودوساً بها حتى كادوا أن يقتلوه لولا أن

الكاهن الأعظم أمرهم بالكف عن أذاه وارساله الى السجن ، معتزما أن يدخلنى فى الجريمة شريكا بتهمة التآمر والتدبير .

« وبعد مضى نصف ساعة من ذلك الحادث زج بى أنا أيضاً فى غيابة السجن .

« ولكن خادمى موسى نسب الجريمة كلها لنفسه ، ولكن الكاهن الأعظم أرغمه بالجلد والتعذيب على أن يعترف بأنى أنا الذى أمرته بقتل القطط ، فلم يسعه ، وهو الخادم الأمين ، الا أن يطيع .

« وحاكمونا الى محكمة العدل العليا المؤلفة من كهنة منف وهليوبوليس (عين شمس) وطيبة ، ولم يكن حتى الملك نفسه يستطيع أن ينقض لها حكما . ويمكنكم أن تدركوا بسهولة أن هذه المحكمة لم تبطئ ان حكمت باعدامنا كلينا . أما خادمى فلأنه اقترف جريمتين أولاهما اجتراؤه على قتل الحيوانات المقدسة ، وثانيتهما تدنيس النيل برمم الحيوانات الميتة . وقد أعدموه ، والهف قلبى عليه ، فى نفس يوم صدور الحكم عليه ، طيبت الآلهة ثراه . ولم أعد منذ ذلك الحين أعتبره خادماً وعبداً لى بل صديقاً أحسن الىّ . وقرئ الحكم باعدامى وجثته ملقاة أمامى ، وفيما أنا أتهيأ لذلك السفر الطويل الى العالم الآخر ، جاءهم أمر الملك بالتمهل فى اعدامى .

« فساقونى الى السجن ، وهناك أخبرنى أحد الحراس أن جميع الضباط وكثيرين من الجند (يبلغ عددهم أربعة آلاف) هددوا باعتزالهم مناصبهم ان لم يعف عنى لأنى قائدهم .

« وما كاد الليل يرخى سدوله حتى أخذونى الى الملك .

« فتلقانى بالحفاوة وأكد لى بنفسه رواية ذلك الجندى الحارس ، وقال انه ليشق عليه كثيراً أن يفقد قائدا محبوباً لدى جنده مثلى . ولا بد لى من القول هنا انى لست أحمل لأماسيس أى ضغن على سلوكه معى ، بل بالعكس انى أرثى له كثيرا . ولا بد أن تكونوا قد سمعتم أنه وهو الملك القوى القادر يشكو من عدم استطاعته فعل ما يريده ، فالكهنة يعترضون سبيله ويتدخلون حتى فى شؤونه الخاصة . ولقد قال لى لو ان الأمر بيده لما تردد فى العفو عنى ، ولم يعاقبنى على أمر لا قيمة له عندى بل هو حديث خرافة فى نظرى . هذا الى أنى أجنبى لا علم لى به (وان كان فى ذلك

من الاجحاف مافيه) . وأضاف انه من أجل الكهنة لا يجرؤ على تركى دون عقاب ، وان أهون عقاب يمكن أن ينزله بى هو النفى من مصر .

« وقد ختم شكواه بهذه الكلمات : انك لا تدرى مقدار ما ينبغى أن أبذله من الترضية للكهنة فى مقابل العفو عنك ، وما ذلك الا لأن محكمة العدل العليا مستقلة حتى عنى أنا ملك مصر .

« وعلى هذه الصورة تسلمت أمر اقالتى بعد أن حلفت بين يديه بأغلظ الأيمان أن أترك منف فى ذلك اليوم عينه وأن أغادر أرض مصر كلها فى خلال ثلاثة أسابيع على الأكثر .

« ولقيت عند باب القصر بسامتك ولى العهد ، وهو عدوى من زمن قديم لأسباب ليس فى طاقتى البوح بها وأنت تعرفينها يارودو بيس . وكنت أوشكت أن أحييه تحية الوداع ولكنه أشاح بوجهه عنى وقال (تلك هى المرة الثانية وقد نجوت فيها من الردى أيها الأثينى ولكنك لست بمفلت من انتقامى وانى لظافر بك أنى ذهبت .) فأجبته على الفور دونك ذلك ان استطعته ؛ ثم خرجت من القصر فجمعت أمتعتى وركبت زورقاً وجئت الى نقراتس . ولقد لقيت فيها لحسن حظى صديقى القديم أرسطوماكس السبرطى وهو الذى سيخلفنى فى قيادة الجند ، فقد كان القائد الأسبق للجنود القبرصية . وانى ليسرنى أن يكون خلفى رجلا مثل أرسطوماكس ، ولكننى فى الوقت نفسه أخشى أن تتضاءل جهودى الحقيرة ازاء ما سترون من كبير أعماله وجليلها . » .

فقاطعه أرسطوماكس قائلا « كف عن مديحى يا صاح فان ألسنة السبرطيين قاسية جامدة . ولكنك ان احتجت يوماً لمساعدتى فسيكون جوابى بالفعل لا بالقول ، وستصيب به الهدف الذى تريد فى الصميم . »

فابتسمت رودو بيس ابتسامة الرضا ومدت كلتا يديها لكل منهما وقالت « اذن فالنتيجة التى يمكن استخلاصها من حديثك كله يافانيس أنك لا تستطيع المكث بعد فى هذه البلاد ، ولن أحاول عذلك وتأنيبك على ما أبديت من طيش مع أنك لا بد أن تكون أدركت من قبل أنك عرضت نفسك لأكبر الأخطار من أجل أتفه

الأمور . والعاقل الشجاع من لا يقدم على أمر جلل قبل النظر فى عواقبه وتبين أن منافعه ومضاره يتعادلان على الاقل . والطيش ضرب من الحمق كالجبن ولكن ليس يعدله فى المذمة ، فكلاهما يعقب الأذى والضرر الا أن الجبن وحده يورث العار .

« ان عدم تدبرك هذه المرة كاد يكلفك حياتك ، وهى عزيزة لدى الكثيرين وخليقة بأن تصان لغاية أسمى وأشرف . ليس فى وسعنا أن نستبقيك هنا ، وقد نضر أنفسنا ان حاولنا ذلك ولا ننفعك . وغاية ما نرجوه أن يحل محلك هذا السبرطى النبيل فى قيادة الحرس ، وينوب عن الأمة الاغريقية فى البلاط المصرى ، ويقينا عوادى هؤلاء الكهنة ، ويجعلنا محببين الى الملك . وها أنذا أمسك بيدك يا أرسطوماكس ولا أتركها أو تعد أنك لا تألو جهداً فى الذود عن كل اغريقى مهما وضعت مكانته ، وأن تعصمه شر أولئك المصريين كما كان يعمل فانيس وأن تؤثر اعتزالك منصبك عن أن تدع أقل ضرر يلحق أى هيلينى يمر دون قصاص فلسنا هنا سوى بضعة آلاف قلائل يحيط بهم ملايين من الأعداء ، ولكننا عظماء بشجاعتنا أقوياء باتحادنا وعصبيتنا . وقد عشنا نحن الاغريق حتى اليوم اخواناً ، كل يضحى نفسه فدى للكل والكل يبذلون نفوسهم فدى لأى فرد . فهذه العصبية سر قوتنا ، وهى التى تحفظ لنا عزنا وصولتنا .

« وليتنا كنا مثل ذلك فى بلادنا ومستعمراتها ، حيث تجد عشائر بلادنا يقولون هذا دورى ، وهذا يونانى أو أيولى ، الى غير ذلك ، فنقتنع باسم واحد هو اسم الهيلينيين نسبة الى هيلاس ، ونعيش كأبناء أسرة واحدة أو كأنعام قطيع واحد . انا اذا فعلنا ذلك سدنا العالم أجمع واصبحت أمة الاغريق سيدة الأمم وملكة شعوب الأرض . »

قالت رودوبيس هذا وكأن ناراً اندلع لهيبها من حدقتيها ، فثارت حمية السبرطى وقبض على يدها ، وضرب الأرض بساقه الخشبية وقال « وحق المنازيوس لأذودن عنهم فلن تمس شعرة من رؤوسهم بأذى أما أنت يارودوبيس فما أحراك أن تكونى امرأة سبرطية . »

قال فانيس « أو أثينية . »

قال الميليسيان والحفار « أو يونانية . فان ابنة جيومورى السامى — »
قالت رودو بيس متحمسة « بل أنا أكبر بكثير من كل ما ذكرتم . انني هيلينية . »
فهزت هذه العاطفة الفياضة كل الحضور حتى الاسرائيلي والسوري ، ماخلا السيباري فانه هو الوحيد الذي لم يتأثر بما حدث ، ولكنه قال وهو يلوك الطعام وكان كلامه غير مدرك :

« بل انك أيضاً تستحقين أن تكوني سيبارية يارودو بيس فان الشواء الذي وجدناه على مائدتك هو خير شواء ذقته منذ غادرت ايطاليا ، ولا شربت خمراً سائغة الشرب كالتي احتسيتها في دارك . »

فضحكوا أجمعين الا السبرطي فانه رمق السيباري بنظرة احتقار وازدراء .
وفيماهم على هذه الحال اذا بصوت يصيح بهم من النافذة « تحية أيها الاصدقاء . »
فرد الحاضرون « ولك منا التحية ياصاح » وأخذوا يتساءلون في شيء من الحدس ترى من عسى يكون ذلك الزائر القادم في جهمة الليل .

ولم يطل انتظارهم ، فانه قبل أن يتمكن السيباري من كرع قدح آخر من الخمر كان صاحب الصوت ، وهو كالياس بن فينيباس الاثيني ، واقفاً الى جانب رودو بيس . وكان طويل القامة يجاوز الستين من عمره ذا رأس بيضية تنم عن ذكاء ودماثة . وكان من أغنى سراة الأثينيين المنفيين فقد اشترى مرتين أملاك بزاستراتس من الحكومة ، واغتصبت منه دفعتين أيضاً بعد ما تسنم ذلك الطاغية العرش . ثم أجال عينيه الثاقبتين في الحاضرين ، وحيا كلا منهم ثم قال « اذا لم تحمدوا مجيئي اليكم هذه الليلة قلت ان المعروف ضائع في هذا العالم وناسه . »

فقاطعه أحد الميليسيين قائلا « بل لقد طال انتظارنا اليك فأنت أول من يحمل الينا أنباء الألعاب الأولمبية . »

وقالت رودو بيس « ومن عسانا نجد من ينقل الينا أنباء تلك الألعاب خيراً من صاحب الفوز فيها في الأيام السالفة ؟ »

وقال فانيس ضجرا « اجلس أيها الصديق وأدل في الحال بما عندك من الأنباء . »
فقال كالياس « حباً وكرامة يا مواطني . لقد برحت أولمبيا منذ زمن . ففي

سنشرا نزلت الى احدى السفن السامية (نسبة الى ساموس) من ذات الخمسين مجذافاً وكانت أحسن سفينة صنعت حتى ذلك العهد .

« وليس يدهشنى أن أكون أول اغريقى وصل الى نقراتس ، فلقد ثارت علينا أعاصير البحر وما كنا لننجو بأرواحنا لو لم تكن السفينة مطوقة ومجهزة بالرجال .

« وأما ما كان من مصير المسافرين الآخرين الذين قد يكونون ضلوا الطريق وهم ذاهبون الى بلادهم فذلك ما لا أدريه . ولقد اعتصمنا بمرفأ ساموس الى أن استطعنا الاقلاع بسفينتنا بعد عشرة أيام .

« ووصلنا مصب النيل صبيحة اليوم ، وهناك أسرعت الى زورق فى الحال فتلقتنى ريح الشمال ، وما هى الا دقائق حتى وصلت الى هذه الدار العزيزة ، ورأيت العلم يخفق والنوافذ ساطعة بالأنوار . وقد أحجمت عن الدخول بادئ بدء ، ولكننى لم أتمالك أن دخلت مغلوبا على أمرى ، ازاء محاسن ربة البيت ، وازاء رغبتى الشديدة فى الادلاء اليكم بما عندى من الأخبار، فاشاطركم قصفكم وأحدثكم على الطعام والشراب بما لم يسبق الى سمعكم ولا فى لذيذ الأحلام . »

ثم اطمأن كالياس فى مجلسه متكئاً على وسادة ومد يده ، قبل أن يبدأ حديثه، الى ثوبه وأخرج منه سوارا بديعاً من الذهب على شكل الأفعى ، اشتراه بمبلغ كبير من المال فى ساموس من دكان صاحبنا الصائغ ثيودوروس الجالس مع الحاضرين حول المائدة .

فأهداه الى رودوبيس جريا على العادة المتبعة من اهداء الهدايا للأصدقاء بعد الرجوع من السفر ثم قال « هذه لك يا رودوبيس . أما أنت يا صديقى فانيس فلدىَّ لك ما هو أنفس . هل تعلم من الذى أحرز النصر فى سباق المركبات ذات الجياد الأربعة ؟ »

قال فانيس « أهو أثينى ؟ » وأبرقت أساريره من التأثر ، ذلك لأن النصر الذى كان يحرزه أحد المواطنين فى الألعاب الأولمبية نصر لجميع رجال قبيلته ، وكان غصن الزيتون الأولمبى أكبر شرف ينال الفائز ، فيختص به الفرد الهيلينى أو تشاركه القبيلة الاغريقية كلها .

قال كالياس « ما أصدق حدسك يا فانيس فان الجائزة الأولى قد أحرزها أثيني وليس ذلك فحسب ، بل هو ابن عمك سيمون بن كيبسياوس وشقيق صاحبنا ملتياديس الذى فاز بهذا الشرف منذ تسع سنوات . ألست بهذا فخوراً يا فانيس ، أو لا تسر بمجد أهلك وعشيرتك ؟ » .

فنهض فانيس من سروره وكأنه ازداد طولا .

ومد يده الى ذلك البشير وهو فخور مزهو ، فدنا كالياس منه وعانقه ثم قال « نعم يحق لنا أن نفخر بما أوتيناه من نصر ولا سيما أنت يا فانيس ، فلم يكد المحكمون يقدمون الجائزة لابن عمك حتى أمر المنادين ينادون فى الناس أن الطاغية بيزاستراتس هو صاحب الجياد الصافنات ولذا كان الفائز فى السباق . فسر الطاغية بذلك وأعلن فى الحال أن لأسرتك الحرية فى العودة الى أثينا ، وعلى هذا فقد حانت يا فانيس ساعة عودتك الى الوطن ، ولطالما طال انتظارك لها . »

فاصفر وجه فانيس لدى سماعه هذا القول وانقلب زهوه الى حنق وغيظ وقال لكالياس « ألهذا ينبغى أن أسر أيها الأحمق الأبله ؟ أولى بك أن تأمرنى بالبكاء فلعمرى ما أطيق سماع أن أثينياً من سلالة أجاكس يلقى شهرته وشرفه وانتصاره على قدمى طاغية ظالم . لا وحق أثينا وحرمة الهنا زيوس والهنا آبولون لأموتن جوعاً فى ديار الغربة ، ولن أخطو خطوة واحدة الى الوطن ما دام نير حكم هذا الطاغية مبسوطاً عليه . سأكون بعد تركى خدمة أماسيس حراً كالطائر فى الفضاء ، وانى لأوثر البقاء عبداً ذليلا فى بلاد أجنبية على تسنم أسمى المناصب فى بلادى تحت امرة بيزاستراتس . لقد توارثنا فى أثينا نحن النبلاء فيها ، المجد والسلطان . ولكن سيمون بوضعه اكليل نصره تحت قدمى ذلك الطاغية قد أقر الظالمين وأعلن أنه عبد رق لهم . سيبلغه أن فانيس قلما يعبأ بعفو الطاغية . وانى لأفضل أن أبقى منفياً عن البلاد حتى تتحرر ، وحتى يقوم سادتها وموالها وشعبها على حكم أنفسهم بأنفسهم ، وعلى سن شرائعهم كما يرون . ان فانيس لن يخضع للظالم حتى ان خضعت له رقاب العشائر والقبائل وفى جملتهم رجال اسرتك الاغنياء يا كالياس . »

قال هذا ونظر الى المجتمعين بعينين يتطاير منهما الشرر ، وتفحص كالياس

أيضاً وجوه القوم وهو مزهو فخور كأنما يريد أن يقول .

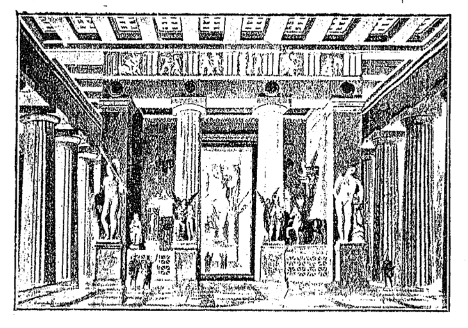
« أنظروا أيها الصحب نوع الرجال الذين تنبتهم بلادى العظيمة . »

ثم أخذ بيد فانيس وقال يخاطبه « أيها الصديق انى أبغض الظالمين بغضك لهم ولكنى أرى أنه ما دام بيزاستراتس حى يرزق فالظلم باق لا يمكن قهره . فحليفاه ليجداميس صاحب ناكسوس ، وبوليقراط صاحب ساموس ، قويان لا يغلبان . وأشد ما تتعرض له حريتنا من الأخطار كامن فى اعتداله وفى حزمه . ففى مدة اقامتى بأثينا رأيت ، والألم يملأ نفسى ، أن السواد من الناس يحبون ظالمهم محبة الأبناء للآباء . وهو مع أنه صاحب الحول والطول يعامل الناس حسب ما استن صولون من الشرائع وانك لتراه يزين المدينة بالمبانى الفخمة والقصور الشاهقة . ويقولون ان معبد زيوس الجديد ، الذى يبنى الآن بالمرمر بأيدى مهرة الفنانين الذين لا بد أنك تعرفهم يا ثيودوروس ، سيفوق سائر المبانى التى شادها اليونانيون حتى اليوم . وهو يعرف أيضاً كيف يجتذب الى أثينا جماعة الشعراء وأهل الفنون المختلفة . وقد أمر بتدوين شعر هومر ، وجمع نبؤات موسى . وأنشأ الشوارع الجديدة وعنى بتنظيم الاحتفالات المبتدعة حديثاً وقد انتعشت التجارة تحت حكمه . وشعر الناس بالرخاء رغم الضرائب العديدة المفروضة عليهم . ولكن ماهؤلاء الناس ؟ انهم جمع من الطغام كالفراش يبهره بريق النار فيهرع اليه ، ويظل يحوم حوله ويتهافت عليه ما دام ذلك البريق ولو حرقت أجنحته . فدع يافانيس مشعل بيزاستراتس يشتعل لهبه ، وأقسم لك أنه اذا ما خبت ناره أسرع ذلك الشعب المتردد الى النبلاء العائدين الى تسنم الحكم ، وعشوا الى النار الجديدة وبريقها ، وأحاطوا بها كما يحيطون الآن بالطاغية .

« ألا هات يدك مرة أخرى أيها الابن البار لأجاكس . أما أنتم يا أصدقائى فلدىّ كثير من الأخبار لم أقصها عليكم بعد فاليكم نبأ الألعاب الاولمبية .

« لقد كان لسيمون كما قلت السبق فى سباق المركبات ، وقد أهدى غصن الزيتون الذى ناله الى بيزاستراتس. ولم أر فى حياتى جياداً أكرم من جياده الأربعة وكذلك كانت بديعة جداً تلك الجياد التى جىء بها من مختلف البلاد . وحقاً كانت

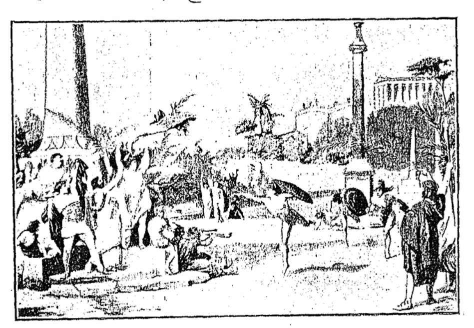
الألعاب فى هذه المرة جميلة أى جمال . وقد جاءت الوفود من جميع البلاد . واحتشدت فى ساحة الألعاب زهرة الشبيبة الاغريقية . وجلس فى مكان النظارة رجال من كل سن وطبقة وأمة ، وجلس كذلك كثير من العذارى وأكثرهن من السبرطيات وقد جئن أولمبيا ليشجعن الفتيان المتبارين خلال السباق بالتصفيق والتهليل . ولم يكن بينهن واحدة من المتزوجات ، اذ كان حضور السباق محظوراً عليهن ،



هيكل زيوس فى اولمبيا (نقلا عن كتاب Wonders of the Past)

وكان القتل جزاء من توجد منهن فى الساحة . وأقيمت سوق البيع والشراء وأمها التجار من جميع الأقطار ، فكنت ترى الاغريق والقرطاجيين والاو بيين والفريجيين والفينيقيين سكان فلسطين المعروفين بالدهاء ، وهناك عقدوا عقود البيع والشراء وعرضوا للجمهور بضاعتهم فى قباب ضربوها وخيام رفعوها . وكيف لى أن أصف لكم ازدحام الجماعات ، وتصاعد الاصوات ، ومئات الذبائح ، واختلاف الأزياء واللغات ، والمركبات ذات الجياد الصافنات ، وفرح الأصدقاء بلقاء الأصدقاء بعد فراق عدة سنوات . وكيف أصف جلال مظهر المفوضين المبعوثين ، وطوائف الباعة والنظارة الذين ملأوا الأماكن المخصصة لهم فتزاحموا فيها ، ثم سكوت الجميع فى أثناء الألعاب ثم هتافهم عند تغلب فريق من اللاعبين . بل كيف أستطيع وصف جلال ذلك

المشهد عند ما تناول المنتصر غصن الزيتون وقد قطعه صبي من صبيان بلدة أيليس أبواه على قيد الحياة بسكين من الذهب من الشجرة الزكية فى الأيكة المقدسة التى غرسها هرقل بيمينه من أحقاب . وأخيراً من لى بلسان يصف جلبة الناس وهتافهم الذى يشبه هزيم الرعد عند ما أقبل ميلو بطل كروتونا يحمل على كفيه تمثاله النحاسى الذى صنعه المثال دامياس ، وقد سار ثابت الخطى مع أن التمثال ثقيل الوزن ينوء بحمله الثور الكبير . وأما هو فكان يحمله كما تحمل المرضع السبرطية طفلاً بين ذراعيها .



ساحة الالعاب فى أولمبيا ويرى فيها الحكام يقدمون للفائز غصن الزيتون
(نقلا عن الكتاب Wonders of the Past)

« وتلا سيمون فى الفوز أخوان سبرطيان ، هما ليسندرو مارو ولدا أرسطوماكس وكان مارو السابق فى العدو ، وأما ليسندر فانبرى بين صياح النظارة لمصارعة ميلو البطل المغوار ، الذى صارع الأقران فى بيزا فصرعهم ، وغالب الأبطال البيثيين والاستميين فغلبهم . وكان ميلو أطول وأضخم من السبرطى ، وكأنه آبولون فى شكله لا يزال فى غلواء الشباب وميعته .

« ووقف كل منهما أزاء الآخر كالأسد والنمر ، وقد خلعا ثيابهما ودهنا جسديهما بالزيت . وقبل أن يبدأ الصراع بسط ليسندر الفتى ذراعيه بالضراعة للآلهة قائلا :

« هاأنذا أقاتل عن أبى وشرفى ومجد اسبرطا . فنظر اليه الكروتونى وابتسم كما

يبتسم صاحب البطنة لشهى الطعام .

« و بدأ الصراع ومضى زمن لم يستطع فيه أحدهما الامساك بقرنه . وحاول ميلو أن ينيخ بجسمه الثقيل الوزن على خصمه ليقبض عليه ، ولكنه كان يفلت من قبضته الحديدية كما تفلت الأفعى . وطال الكفاح ولم يلق أحدهما فرصة من صاحبه ، والناس يرقبون وهم سكوت لا يبدون حراكا تأثراً مما يشهدون . ولم يسمع بينهم الا أنين المتصارعين وتغريد البلابل فى الأيكة المقدسة . وأخيراً نجح الفتى وقبض على خصمه قبضة شديدة بعد أن استعان على ذلك بحيلة لم أر فى حياتى مثلها براعة وحذقاً . وحاول ميلو طويلا أن يفلت من يده ، باذلا فى ذلك كل قوته ، ولكنه كان يحاول عبثاً وابتلت الأرض من كثرة ما تصبب من العرق من جراء ذلك الكفاح الشديد .

« وزاد تأثر النظارة وسكوتهم ، وقلت صيحات التشجيع ، وعلت أنات المتصارعين . وأخيراً أعيا التعب ليسندر ، فتعالت على الفور صيحات التشجيع ، فثار ثائره وحمل على خصمه حملة صادقة باذلا فى ذلك جهداً فوق طوق البشر . ولكن كان قد فات الأوان ، فان ميلو آنس منه ذلك الضعف المؤقت فعاجله بقبضة أصابت منه مقتلا . فسال من شفتى الفتى الجميلتين دم أسود فاحم ، وسقط من بين ذراعى المارد المتعبين على الأرض لاحراك به . فأسرع لمعالجته ديموسيدس أشهر أطباء هذا الزمان ، ولا بد أن تكونوا قد رأيتموه أيها الساميان فى بلاط بوليقراط ، ولكن متى حانت المنية أعيت نطس الأطباء — لقد فاضت روح البطل الفتى ليسندر .

« أما ميلو فلم ينل اكليل النصر لموت خصمه خلال المبارزة ، وسيظل ذكر هذا الفتى خالداً فى كل بلاد الاغريق . و بودى لو كنت ذلك الفتى الميت ليسندر بن أرسطوماكس ، لا كالياس الذى يطعن فى السن وهو خامل الذكر فى بلاد الغربة . وحملوا الفتى الى قبره فى موكب جليل سار فيه خير رجالات الاغريق وأشجع أبطالهم ، وسيقام له تمثال ازاء تمثالى ميلو بطل كروتونا و براكسيداماس بطل أجينا . ولما عاد المنادون ينادون أخيراً على الملأ معلنين حكم القضاة وهو : ان اسبرطة هى التى حازت اكليل النصر لأن ليسندر الكريم لم يغلبه ميلو بل غلبه الموت قاهر الجبابرة ، وان الذى يقوى على مصارعة ميلو أعظم أبطال الاغريق ولا يستطيع هذا أن يصرعه

بعد مضى ساعتين من الزمان ، يحق له غصن الزيتون . »

وهنا وقف كالياس لحظة عن المضى فى حديثه . وكان فى وصفه لهـذه الحوادث الأخاذة بلب كل اغريقى قد نسى أشخاص سامعيه ، ولم يتمثل لعينيه الا مشهد تلك الساحة والمتصارعين فيها كما ارتسمت فى مخيلته . واشد ما كانت دهشـته اذ تلفت حوله فرأى الرجل الأشيب ذا الساق الخشبيـة يشرق فى البكاء ساتراً وجهه بيديه . وروڈو بيس واقفة الى يمينه ، وفانيس الى شماله ، و بقية الحضور ينظرون اليه كأنما هو البطل المعنى فى قصة كالياس. وما هى لحظات الا وأدرك أن الرجل الأشيب لا بد أن يمت بصلة لأحد البطلين فى أوليمبيا . فلما أن سمع أنه أرسطوما كس أبو ذينك الأخوين اللذين لا يزال منظرهما ماثلا أمام عينيه ، كأنهما طيفان انطلقا من مقر الآلهة ، طفق ينظر اليه حسداً واعجاباً . واغرورقت على الرغم منه عيناه بالدموع وكان الرجال فى ذلك الوقت كالنساء يبكون و ينتحبون ، تفريجاً لكربهم وتخفيفاً لحزنهم . ولقد كان الرجال يبكون عنـد الغضب والفرح وسائر ما يؤثر فى النفس ، وكذلك كان الغلمان السبرطيون يجلدون عند مذبح أرطاميس أورثيا حتى تسيل دماؤهم أو يموتوا من ألم الجلد ، فلا تجرى لهم دمعة ولا تسمع لهم زفرة يبتغون بذلك رضى الناس ومديحهم .

وظل الجمع لحظة سكوتا مراعين عواطف أرسطوما كس، ولكن يوشع الاسرائيلى فض ذلك السكوت وخاطبه بلسان اغريقى غير سليم قال :

« ابك ما استطعت أيها السبرطى ، فانى مثلك قد ذقت ثكل البنين . لقد مات ولدى منذ احدى عشرة سنة ودفنته فى أرض الغربة على سواحل بابل ، حيث كان قومى يرسفون فى الذل و يقاسون مضض الأسر . ولو طال عمر ولدى حولا واحداً لمات فى وطنه ، ودفن فى قبور أجداده . ولكن كورش ملك الفرس (أثابه الله) فك اسارنا بعد مضى سنة على موت ولدى ، وعلى ذلك تضاعف نوحى و بكائى على ولدى أنه دفن فى أرض اعداء قومه بنى اسرائيل . ولعمرى هل يوجد رزء أعظم من رؤية ابنائنا وفلذات أكبادنا يغيبون فى الثرى على مرأى منا ؟ على أن مصابك أنت اليوم فوق كل مصاب ، لأنك تبكى ولداً فقدته فى اللحظة التى فيها فاق الأبناء

وطارت شهرته فى الآفاق . »

فرفع السبرطى يده عن وجهه ، ولاح عليه الجد ، وابتسم ودموعه تنهمل وقال : « انما أنت تخطىء أيها الفينيقى ، فلست أبكى حزناً وأسفاً ولكننى أبكى سروراً وفرحاً ولو أن ولدى الثانى مات كما مات ليسندر لرحبت بفقده أيما ترحيب . »

فبهت الاسرائيلى وجزع لهذه الكلمات التى هى فى اعتقاده اثم وخطيئة ، وهز رأسه غير موافق على ما سمع . أما الاغريق فأقبلوا على السبرطى يهنئونه ، كأنما آتاه الله من النعم ما يحسد عليه . وبدا عليه من شدة فرحه أنه أصغر من سنه الحقيقية بعدة سنين ، وصاح يخاطب رودو بيس قال . « ألا بورك فيك أيتها الصديقة وبورك فى دارك ، فهذه ثانية النعم التى حبتنى بها الآلهة منذ دخلتها . »

قالت رودو بيس « وما هى الأولى ؟ »

قال « هى النبوءة التى تعطف بها الاله آبولون علىّ . »

قال فانيس « ولكنك نسيت الثالثة . ففى هذا اليوم حبتك الآلهة بنعمة التعرف برودو بيس . ولكن أجبنى ماذا كان موضوع هذه النبوءة ؟ »

فقال الدلفى « أأعيدها على مسمع الاخوان ؟ »

فهز أرسطوما كس رأسه علامة الايجاب وكرر الدلفى جواب بيثيا بصوت عال . قال :

« انه يوم يجئ المقاتلة بجموعهم من فوق الجبال المكسوة قممها بالثلوج . وينحدرون الى الحقول التى تجرى فيها مياه النهر . فتغدق السهل الفسيح ريا وسقيا ، فحينئذ يحملك الزورق بعد طول تمهله وابطائه الى تلك المراعى والرياض حيث يلقى الراحل الجوال الراحة والسلام ، وحيث يجد له وطنا يقيم فيه . وانه متى جاءك أولئك المقاتلة هابطين من تلك الجبال المكسوة قممها بالثلوج ، فحينئذ تمنحك الخمسة الاقوياء ماطالما أبته عليك . »

ولم يكد الدلفى يجىء على آخر كلمة حتى هب كالياس الأثينى واقفا وصاح قائلا: « واليكم الرابعة من عند الآلهة ستصيبونها أيضا فى هذه الدار ، وكتمت عنكم خبرها ، وهى أعجبها ، حتى تنتهوا . اعلموا أن الفرس قادمون الى مصر . »

وعندئذ أقبلوا عليه ، ما عدا السيبارى ، ووقف كالياس لا يستطيع الرد على أسئلتهم العديدة ، فصاح بهم آخر الأمر : « رويداً رويداً أيها الأصدقاء ودعونى

أرتب لكم قص حكايتى والا فانى غير منته منهـا اليوم . ولا تحسبوا أن القادمين على مصر جيش من المقـاتلة كما وهم فانيس ، وانما هم وفد كبير من قمبيز ملك الفرس الحالى وهو أقوى ملوك الأرض . وقد سمعت فى ساموس أنهم بلغوا مدينة ميليتس وعما قليل يصلون الى مصر . وعلمت أن فيهم بعض أقارب الملك ، والشيخ كريسوس ملك ليديا ، وسيبهرنا ما سنراه فيهم من الجلال والعظمة . وليس من يعرف الغرض من قدومهم ، والمظنون أن الملك قمبيز يريد عقـد محالفة مع أماسيس ، ويقول قوم آخرون انه أرسل يخطب ابنة الفرعون . »

فقال فانيس وقد هز كتفيه ممتعضاً « محالفة ؟ ولمـاذا المحالفة والفرس يسودون على أكثر من نصف العالم ، فقد دانت لهم جميع ممالك آسيا العظيمة ، ولم يبق بلد لم يفلت من قبضتهم الا مصر ووطننا اليونان ؟ »

قال كالياس « لقد نسيت الهند وما بها من ذهب ونضار والأمم العظيمة المترحلة سكان البادية . ونسيت كذلك أن امبراطورية كبلاد فارس مكونة من نحو سبعين أمة أو قبيلة مختلفة اللغات والعادات تحمل فى جوفها بذور الخصومة والنزاع ، ولا بد لها اذن من الحيطة والحذر من خروج الدول عليها والتنكيل بها . بل قد تنتهز بعض الولايات فرصة غياب الجند فتشق عصا الطاعة . سل أهل ميلسيا كم يطول زمان هدوئهم ان هم سمعوا أن قاهريهم قد غلبوا فى احدى المعارك ؟ »

فتضاحك ثيوبومبس التـاجر الميليسى وقال « انه اذا نشبت حرب واحدة مع الفرس تلتها مائة أخرى ، وكنا نحن الميليسيين أول من يثور فى وجه ظالمينا ساعة ضعفهم . »

قال كالياس « ولكن مهما يكن من قصد هذا الوفد فان أنبائى لا تزال صحيحة وسيكونون هنا بعد ثلاثة أيام على الأكثر . »

قالت رودوبيس « واذن لقد صحت النبوءة يا أرسطوماكس فما المقاتلة القادمون بجموعهم غير هؤلاء الفرس . فاذا هبطوا على ضفاف النيل ، فان الخمسة الأقوياء ، وهم قضاتك ، سيغيرون قرارهم وتستدعى الى وطنك ، اذ أنك أبو البطلين الأولمبيين المنتصرين . املأ الأقداح ثانية يا كناكياس ، واترعوها أيها الصحب ، ولنشرب

الكأس الأخيرة نخب البطل ليسندر . ثم انى أنصح لكم بالانصراف ، فقد مضى نصف الليل و بلغ سرورنا المنتهى . والمضيف الصادق المخلص يرى أن يضع حدا للمجلس والسمر حين يرى ضيفانه قد بلغ سرورهم أشده . على أن الذكريات سوف تدفع بكم قريباً الى دارى ، فى حين أن رغبتكم فى العودة قد تقل ان اضطررتم الى تذكر ساعات الغم والكدر التى تلى ساعات قصفكم ولهوكم وسروركم . »

فوافقها الكل على ذلك وقال ابيكوس لها انها حقاً من تلاميذ فيثاغورث ، شاكرا لها حسن ضيافتها وكرم وفادتها .

واستعد كل منهم للرحيل حتى السيبارى الذى زاد من الشراب بقصد اخفاء ما أثاره فيه ذاك الحديث . فنهض يساعده عبيده الذين استدعوا لهذا الغرض .

واذ رفعوه عن مقعده همهم يتذمر مما دعاه « عدم قرى الضيف » فلما همت رودو بيس بالسلام عليه كانت الخمر قد لعبت برأسه فقال « وحق هرقل يا رودو بيس انك تتخلصين منا كأنما جئنا نتقاضاك دينا لنا عليك . ليس من عادتى أن أترك الشراب مادمت قادرا على الوقوف ، وانى لاستهجن طردك لنا كأننا طفيليون أدنياء . »

فقالت رودو بيس مبتسمة تحاول تبرير تصرفها « استمع لوحى العقل أيها السيبارى الذى لا يعرف الاعتدال . »

فلم يكن من هذه الكلمات الا أن زادت حنقه وهو ثمل ، فتفجرت من فمه ضحكة ساخرة وخطا نحو الباب وهو يتمايل ثم قال :

« تقولين انى لا أعرف الاعتدال ، فاليك الجواب . أيتها الأمة القليلة الحياء! ان الانسان ليلمس منك آثار ماضيك فى حداثتك . وداعا اذن يا أمة جدمون وزانتوس ومعتوقة شراكسوس ! »

ولم يكد ينتهى من كلامه حتى هجم عليه أرسطوماكس وفاجأه بلطمة من قبضة يده على وجهه ، ثم حمله بين يديه كالطفل الصغير ، ورمى به فى الزورق الذى كان خدمه ينتظرونه فيه عند باب الحديقة .

الفصل الثالث

بين رودوبيس وفانيس

خرج الضيوف جميعاً وقد أذهب صفوهم ذلك الكلام البذىء الذى فاه به السيبارى الثمل ، كما يذهب البرد يانع السنابل . و بقيت رودو بيس وحدها فى تلك الحجرة البديعة الزينة بعد خلوها من الزائرين . ثم جاء كنا كياس فأطفأ المصابيح الملونة المعلقة بالجدران ، وحل محل أشعتها المتلألئة نور ضئيل تساقط فى ضعف وانقباض على الصحاف الفارغة منضدة بعضها فوق بعض ، وعلى بقايا الطعام ؛ وعلى المقاعد والوسائد وقد تغيرت مواضعها اثناء خروج الضيوف . وهبت ريح باردة خلال البـاب المفتوح مؤذنة بقرب طلوع الفجر ، ولا يخفى أن الهواء فى مصر يشتد برده قبل الشروق . فتخللت الريح ثيابها الخفيفة ، وصدمت أعضاءها ، فأصابتهـا رعدة وهى جالسة شاخصة ، بعينين لم تدمعا ، الى الحجرة المظلمة التى كانت منـذ دقائق مرتع اللهو والسرور ، وخيل اليها أن تلك الحجرة الخالية تشبه قلبها ، فأحست كأن دودة تأكله ، وأن دمها الساخن قد استحال الى جليد .

وظلت كذلك غارقة فى أفكارها الى أن جاءت أخيراً خادمتها العجوز تنير لها الطريق الى مخدع نومها .

فتبعتها رودو بيس فى صمت ، وخلعت الخادمة عنها ثيابها وهى كذلك لا تبدى ولا تعيد ، ثم أزاحت ستاراً يفصل بين مخدع نومها ومخدع آخر للنوم . وقام فى وسط هذا المخدع الثـانى سرير من خشب الاسفندان ، وعلى هذا السرير فراش من صوف الغنم وضعت فوقه ملاءة بيضاء ، واضطجعت فوق الفراش حسناء لم يخلق الله أجمل منها ، مغطاة بدثار أزرق صاف يقيها برد المساء . وتلك هى حفيدة رودو بيس واسمها صافو . وكانت استدارة عودها ورقة شكلها يدلان على أنها دخلت دور العذراء فى ميعة شبابها . أما ابتسامتها الهادئة الوديعة فما كانت تنم الاعن طفلة بريئة سعيدة لا تعرف الضرر ولا الضرار .

وكانت احدى يديها موضوعة تحت رأسها مختفية بين جدائل شعرها الكثيف الشديد السمرة . أما الأخرى فقد كانت ، على غير قصد منها ، قابضة على عوذة صغيرة من حجر أخضر مدلاة من عنقها . وكانت أهداب جفونها الطويلة تطرف على عينيها المغمضتين بدون شعور منها ، وعلى خديها حمرة كانت تنتشر من حين الى حين . أما أنفها الدقيق فكان يعلو ويهبط تبعاً لحركة أنفاسها . فكانت فى نومها وهى تبتسم فى أحلامها مثالا للطهارة والوداعة ، وكان نومها مثال النوم الذى تمنحه الآلهة للشباب فى ابانه حين لا يشوبه هم .

ودنت رودوبيس من السرير تمشى الهوينا على أطراف أصابعها فوق البساط الكثيف ، وتجسم الحنان فى نظرتها الى الفتاة النائمة الباسمة الوجه . ثم جثت بجانب السرير وغيبت وجهها فى أغطيته الوثيرة حتى لامس شعرها يد الفتاة النائمة . وانحلبت عيناها من فرط الأسى ، كأنها ترجو بسكب الدموع ، لا غسل هذه الاهانة الأخيرة فحسب ، بل ومحو كل ما عداها مما فى ذهنها من الآلام والأحزان .

ثم نهضت أخيراً وطبعت على جبهة الفتاة قبلة خفيفة ، ورفعت يديها نحو السماء ضارعة تصلى لأجلها ، وبعدئذ عادت أدراجها الى مخدعها حذرة كما جاءت .

وهناك عند سريرها وجدت جاريتها العجوز لا تزال باقية تنتظرها .

فقالت رودوبيس « ماذا تريدين يا ميليتا منى فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ اذهبى الى فراشك فان من كانت فى سنك لا يحسن بها أن تبقى ساهرة الى هذا الوقت ، هذا الى أنك تعلمين أنى لست فى حاجة اليك الآن . سعد ليلك يا ميليتا ولا تحضرى فى الصباح الا اذا دعوتك . لن أنام الليلة طويلا ، وأرجو أن أستعيض عن ذلك بهجعة عند الصباح . »

فتلكأت الجارية ، ولاح كأن بنفسها شيئاً تخشى ذكره .

قالت رودوبيس « ألديك ما تريدين سؤالى عنه ؟ . »

فظلت الجارية ملازمة صمتها .

قالت رودوبيس « تكلمى ، سلى ما شئت وأسرعى . »

قالت الجارية « رأيتك تبكين يا مولاتى من مرض أو حزن ، فدعينى أقف

ساهرة بجانب سريرك . ألا تحدثينى بألمك ؟ لطالما وجدت يا مولاتى أن البوح بالأحزان يخفف عن القلب وطأتها و يقلل من ألمها . فحدثينى اذن بألمك اليوم ، فقد يكون فى التحدث والشكوى ما يطيب الخاطر ، ويسرى عن النفس ، و يعيد للذهن هدوءه وسكونه .

« ولا بد من شكوى الى ذى مروءة　　يواسيك أو يسليك أو يتوجع . »

قالت رودوبيس « ولكنى لا أطيق ذكر شىء . » ثم ابتسمت ابتسامة مرة وقالت « لقد علمتنى التجارب أنه ليس فى الوجود من يستطيع أن يمحو ماضى أى انسان ، حتى ولا الآلهة . وعلمتنى أيضاً أن الشقاء والعار مترادفان فى هذه الحياة الدنيا . عمى مساء يا ميليتا واتركينى وشأنى . »

وعند ظهراليوم التالى رسا للمرة الثانية ، عند حديقة رودوبيس ، الزورق الذى أقل فى المساء الأثينى والسبرطى .

وكانت الشمس طالعة فى سماء مصر الزرقاء الصافية ترسل أشعتها المحرقة ، والهواء يهب نقياً خفيفاً ، والهوام تطن من مرح . وبحارة الزورق ينشدون والطرب آخذ من نفوسهم كل مأخذ ، وضفاف النيل غاصة بأفواج الناس ، وأشجار النخيل والجميز والموز والسنط فى غاية النضارة والازهار ، وكل شىء يبدو فى حلة من الجمال والبهاء ، ولاح الوادى بأسره رافلا فى أثواب الخصب والنماء ، حتى أن الغريب يظن أن الوادى مرتع السرور والهناء ، وأن ليس فيه ثمت حزن وشقاء .

وكثيراً ما نظن حين نمر بقرية هادئة تكنفها الحدائق والرياض ، أنها مقر السلام ومهبط الأمن والوئام ، نبا عن أهلها الجشع ، وحلت القناعة محل الطماح والطمع . ولكن حين نغشى أكواخها نجدها وياللأسف رازحة تحت أعباء القلق والفاقة ، والعاطفة الوثابة التطلع ، والخوف والندم ، والألم والتعاسة . وقلما تجد فيها بجانب ذلك أثراً من أسباب السرور . ومن ذا الذى يجىء مصر ويتصور أنها ، وهى الأرض الخصبة الغنية المشمسة التى لا تعكر السحب سماءها ، تنتج رجالا يولدون للشقاوة والمرارة ، بل ومن ذا الذى يتصور أن منزلا أنيقاً بديعاً كمنزل رودوبيس محاطاً بالرياحين الجميلة يضم بين جدرانه قلباً ينبض بأعمق عوامل الأحزان ؟ وعدا هذا

وذاك من من بين ضيفان تلك السيدة الطراقية المحترمة يصدق أن هذا القلب الحزين انما هو قلبها هي ، رودو بيس الكريمة البسامة الثغر ؟ .

وجلست رودو بيس فى هذا الوقت مع فانيس فى عريش بالقرب من نافورة ينبثق منها الماء البارد . وكان يظهر على وجهها أثر البكاء ، ولكنه لم يكن خالياً من مظهر جمالها ولطفها المعهودين . فأخذ الأثينى يدها محاولا تهدئة روعها .

وأصغت رودو بيس الى حديثه متجلدة باسمة ، فكانت تبتسم تارة عن مضض وأخرى عن رضى وتسليم بما تسمع . وأخيراً قاطعت حديثه قالت « شكراً لك يا فانيس ولسوف تنسى هذه الاهانة الأخيرة ان عاجلا أو آجلا ، فالزمن ماهر فى فن الابراء . على أنى لو كنت ضعيفة القلب لتركت نقراتس وعشت مع حفيدتى بمعزل عن العالم . صدقنى يا فانيس ان عالماً بأسره يكتمن فى هذه المخلوقة الصغيرة . لطالما غالبت نفسى حين كانت تغرينى بترك مصر فغلبتها ، لا لأنى لا أستطيع العيش دون حصولى على احترام الرجال لى فاننى من هذه الوجهة نلت ما فوق الكفاية ، بل لأنى أشعر أننى أنا ، الذى كنت يوماً فتاة أمة رقيقة ثم امرأة محتقرة ، ذات نفع الآن من بعض الوجوه ، وأن وجودى ضرورى لصالح كثير من أحرار الرجال ونبلائهم الذين لا غنى لهم عن مساعدتى ، ولست أقنع من نفسى بأن أعيش لخدمة فرد واحد مهما كان عزيزاً لدى ، فقد اعتدت أن أدمج نفسى فى دائرة من العمل يشبه فى طبيعته عمل الرجال . وسأذوى كما تذوى الزهرة أزيحت من تربة غنية الى صحراء مجدبة ، وسأترك حفيدتى وحيدة فى هذه الدنيا تشكو اليتم لثالث مرة . كلا سأبقى فى مصر رغم كل شىء .

« والآن وأنت نازح عنا فانى أشعر الآن أنى أشد لزوماً لأصدقائى عن ذى قبـل . ان أماسيس طاعن فى السن ، فاذا ما اعتلى بسامتك العرش فسيكون أمامنا من الصعاب اذ ذاك أكثر مما هو لدينـا الآن . فوجب علىّ أن أبقى وأكافح فى مقدمة الصفوف فى سبيل حرية الشعب الهيلينى وسعادته . ودعهم يقولون ان شاءوا ان جهودى مخالفة لسجية المرأة . ذلك هو غرضى الآن من الحياة ، وسيكون غرضى فى المستقبل ، وسأبقى له أمينـة ما حييت ، ذلك لأنه من الأغراض التى يندر أن تقف امرأة عليهـا حياتها . ولقد شعرت ليلة أمس التى قضيتها فى البكاء بأن

الضعف النسائى لا زالت له بقية باقية فىّ ، ذلك الضعف الذى هو علة شقائنا وسعادتنا نحن النساء . ولقد كان أول واجب لى ازاء حفيدتى صافو أن أجعلها تحتفظ بذلك الضعف مضافا اليه تلك الرقة النسائية ، أما الثانى فهو أمر تحريرى من ذلك الضعف بتاتا . ولكنّ حربا يثيرها الانسان على نفسه وضد طبيعته لا يمكنه ان يستمر فيها ، دون أن يقهر قهراً عرضياً حتى فى حالة النجاح والفوز . وحينما يتملكنى الألم والحزن وأرى نفسى هدفا للقنوط واليأس ، أستعين على غلبة ذلك بتذكر صديقى فيثاغورس أنبل الرجال وأشرفهم ، فأذكر كلماته اذ يقول ، لاحظى النسب الحقة بين جميع الأشياء ، والزمى الاعتدال فى كل شىء . فاياك والفرح الشديد ، واياك والحزن القاتل . واجتهدى أن تجعلى نفسك كالقيثارة فى توافق النغم والرنين ، فهذا الهدوء الداخلى الفيثاغورسى ، هذا السكون العميق الخالى من الاضطراب ، انما أراه كل يوم مجسما أمامى فى حفيدتى صافو ، بل انى أكافح حتى أحصل عليه بنفسى على الرغم من أن كثيراً من ضربات القدر تذهب من أوتار قلبى توافق أنغامها . وها أنا ذا الآن هادئة ساكنة . انك تكاد لا تصدق الأثر الذى يحدثه فى نفسى مجرد تذكرى أول المفكرين ، ذلك الرجل الهادئ النابه الفطن ، ذلك الذى أثرت حياته فى حياتى ونفسه فى نفسى كما تؤثر الموسيقى الحلوة الرقيقة فى النفس . انك تعرفه يا فانيس ، وبوسعك أن تفهم ما أعنى . والآن فاذكر لى طلبتك وما تريد ، فان قلبى هادئ كمياه النيل تجرى وليس يسمع لها خرير . هات ما عندك وسأستمع اليه ان خيراً وان شراً . »

قال الأثينى « انى ليسرنى أن أراك كذلك يا رودوبيس . ولو أنك كنت ذكرت أمس فيثاغورس ، صديق الحكمة كما يسمى نفسه ، لاستعادت نفسك حالها أمس لا اليوم . انه يأمرنا أن نلقى نظرة ، كل مساء ، على الحادثات والمشاعر والفعال التى تمت فى اليوم الدابر . فهل فعلنا ذلك ؟ انك ان كنت فعلته لكان اعجاب ضيفانك بك ، ومنهم قوم نابهون ، موديا الف مرة بتلك الكلمات البذيئة التى آذاك بها سكير فاجر . بل لو فعلته لكنت تشعرين أيضاً أنك صديقة الآلهة ؛ لأنه أليس فى دارك قد منحت الآلهة ذلك الشريف الطاعن فى السن ، بعد سنين بؤسه الطوال ،

أكبر يسر وأعظم فرح يصيب انسانا ؟ ألم تحرمك الآلهة صديقا لكي تعوضك عنه من هو خير منه ؟ لست أريد بعد اليوم أن أسمع منك شكوى أو معارضة . أما عن طلبتي فاليكها :

« تعلمين أن الناس يدعونني أحيانا الأثيني ، وأحيانا الهاليكارناسي نسبة الى هاليكارناسوس[1] . ولما كان مرتزقة اليونان والأيوليان والدوريان من الجند ، على غير وئام مع الكاريين فقد كان لمنبتي الثلاثي المنحدر (ان أمكن تسميته هكذا) ميزة استطعت بها أن أحتفظ بمركزي في رياسة الحرس المكون من هذه الأجناس الثلاثة ولست بمنكر على أرسطوماكس كبير مقدرته وأهليته لرياسة الجند ، ولكن أماسيس سيفقد بخروجي ميزة التغلب على هؤلاء ، اذ كان من السهل عليّ أن أزيل كل خلاف يقع بين هؤلاء الجند ، في حين أن أرسطوماكس ، كأحد السبرطيين ، سوف يكون متعبا من فريق الجند الكاريين .

« ولقد اكتسبت هذه الجنسية المزدوجة من كون أن أبي اتخذ له زوجة هاليكارناسية من أسرة شريفة دورية ، وكان يقيم معها عندما ولدتني في هاليكارناسوس وكان قد قصد هذه البلدة يطلب ارثا لها تركه أبواها . وهكذا فاني ، وان كانوا قد عادوا بي الى أثينا قبل أن أبلغ من العمر ثلاثة أشهر ، الا أني لازلت كاريّ المولد .

« وربيت في أثينا تربية الأشراف لأني من أسرة قديمة أرسطوقراطية هي أسرة الفيلايديين . الا أن بيزاستراتس ، وأسرته لا تقل عن أسرتنا شرفا ومجدا ، قبض على السلطة بيد من حديد ، مع أن الأشراف أقصوه عن الحكم مرتين مع محاولته الرجوع فلم يفلح ؛ ولكنه في المرة الثالثة استعان بليجداميس صاحب ناكسوس وبالاجريفيين والارتريين ، فقاومناه مقاومة عنيفة . و بينما نحن معسكرون ذات يوم بجوار هيكل منرفا في پالين ، ومنهمكون في صلاتنا المعبودة ، اذ أحاط بنا الطاغية في الصباح قبل تناول الفطور ، وظفر بنا ونحن عزل من السلاح . واذ كان نصف الجيش المتطوع لمحاربة هذا الطاغية مسلما لقيادتي اعتزمت أن أفضل الموت على التسليم ، وحاربت بكل ما أوتيت من قوة ، وحرضت جندي على الثبات ،

(١) بلدة على الشاطئ الجنوبي الغربي من آسيا الصغرى واسمها الآن بودرو .

وقاومت مقاومة شديدة ، ولكني أصبت بطعنة رمح في كتفي فسقطت جريحاً .

« وأصبح دعاة بيزاستراتس وأنصاره سادة أثينا وأصحاب الكلمة فيها ، فهربت بامرأتي وولديّ الى هاليكارناسوس بلدي الثاني ، وهناك طارت شهرتي في فنون الحرب ، ثم تغلبت يوما على أقراني في الألعاب البيثية فوليت قيادة المرتزقة من الجند التي اكتراها أماسيس ملك مصر ، ورافقت الحملة التي وجهها لاخضاع قبرص ، وهناك في تلك البلاد التي ولد فيها أفروديت قاسمت أرسطوماكس شرف الانتصار وفخر اخضاع قبرص لأماسيس . وأخيرا عينت قائدا عاما لجميع المرتزقة من الجند في مصر .

« وفي الصيف الماضي توفيت زوجتي تاركة ابنا عمره احدى عشرة سنة و بنتا عمرها عشر سنوات عند خالتهما في هاليكارناسوس . ثم ماتت خالتهما فأرسلت منذ بضعة أيام في طلب الطفلين ، ولا يمكن أن يصلا نقراتس في أقل من ثلاثة أسابيع ، وسيبدآن الرحيل قبل أن يصلهما خطاب مني بالعدول عن المجيء .

« وهاأنت تعلمين أنني مرغم على ترك مصر في ظرف أسبوعين . وعلى ذلك لا يمكن أن أنتظرهما بنفسي .

« وقد اعتزمت الذهاب الى طراقيا حيث يقيم هناك عمي ، وسأترك خادمي كوراكس في نقراتس حتى يعود بهما اليّ اذ لابد أن يتبعاني الى هناك .

« فاذا كنت حقيقة صديقة مخلصة ، فاني أسألك يا رودوبيس أن تقبلي ولديّ في دارك ، وتعني بهما العناية اللازمة ، وتبعثي بهما اليّ على ظهر أول سفينة تقصد طراقيا . وأسألك أيضاً أن تخفيهما عن جواسيس بسامتك ولي العهد . انك تعلمين أنه يكرهني كرها شديداً ، وقد يذهب به هذا البغض الى أن ينتقم مني في شخص ولديّ . واني لم أسألك هذه اليد الا لأني أعرف عنك شفقتك ، ولاني أعرف أيضاً أن الملك قد أمن دارك بما منحك من كتاب الضمان ، وعلى ذلك فسيكون ولداي بمأمن هنا من تدخل الشرطة وابحاثهم . ولا تنسي أن على الأجانب ، حسب قوانين هذه البلاد المصرية الغريبة ، أن يقيدوا اسماءهم عند ضابط القسم .

« لك الآن يارودوبيس أن تقدري أمري ، واعلمي أنني أضع بين يديك كل ما يجعل لهذه الحياة قيمة عندي . فهل لك أن تعيدي الطمأنينة الى قلب أب شفيق ؟ »

قالت فرحة مستبشرة « أجل يا فانيس فاطمئن كل الاطمئنان ، واعلم انك انما تمنحني هبة لا تسألني منحة . وها انى منذ الساعة فى شوق شديد الى لقياهما ، لأنهما سينقذان صافو من وحدتها ، وسيكون ابتهاجها بهما شديداً . ولكني أؤكد لك يا فانيس أنى لست تاركة ضيفيّ الصغيرين يعودان على ظهر أول سفينة تقصد طراقيا . وأظن أن باستطاعتك أن تحتمل فراقهما نصف سنة . وأعدك أنهما سيتلقيان عندى خير الدروس ، وسأرشدهما الى كل ما هو حسن وجميل . »

قال وعلى فمه ابتسامة الشكر « أما عن ذلك فلست أخشى شيئاً ، ولكني لا زلت أصر على أن تبعثى بهما الىّ فى أول سفينة مقلعة . انى أخشى عليهما غضب بسامتك وانتقامه ، وانى أقدم لك شكرى مقدما على ما ستبذلين لهما من حب وعطف ، وآمل بل واعتقد أن الصغيرين سيكونان أداة سرور لصافو فى عزلتها . »

فقاطعته رودو بيس وهى مطرقة قالت « وعداً كل ما ذكرت فان هذه الثقة التى أوليتنيها لتخفف عنى كثيرا أثر تلك الاهانة التى أصابتنى أمس من ذلك السكير . — هذى صافو قادمة . »

الفصل الرابع

الوفد الفارسى

بعد انقضاء خمسة أيام على تلك الليلة التى جئنا على وصفها فى دار رودو بيس ازدحمت ميناء سايس بجمع حاشد .

فكنت ترى المصريين ذكوراً واناثاً ، من كل سن ورتبة يتدافعون و يتزاحمون على الشاطئ .

وكنت ترى الجند والتجار بملابس بيض على أطرافها أهداب ملونة تختلف أطوالها باختلاف رتب لابسيها ، منتشرين وسط جمهور محتشد من رجال عضلين عراة الى نصف أبدانهم لادثار لهم الا مئزر قصير هو لباس العامة . وكنت ترى غلماناً عراة يتدافعون لزازاً متسابقين فى الحصول على خير المواقف التى تمكنهم من رؤية الساحة . وكنت ترى الأمهات فى ملاءاتهن القصيرة ، يحملن صغارهن على أكتافهن كى يمكنهن من رؤية المنظر المنتظر ، فكن بذلك يحرمن أنفسهن رؤية هذا المنظر . وكنت ترى جمعاً من الكلاب والهررة تنفر بين أقدام جمهور الناس الذين كانوا يجهدون نفوسهم فى توقى دوس هذه الحيوانات المقدسة أو فى مسها بأى أذى .

وكان رجال الشرطة يحافظون على النظام و بأيديهم عصى طويلة مرقوم على رؤوسها المعدنية اسم الملك ، وقد وجهوا كل جهد وعناية لمنع الناس من الاقتراب من النهر الفائض فلا يسقط أحد فى لجته ، وكانت مياه أحد فرعيه زمن الفيضان تصل الى أسوار سايس .

وعلى جانبى سلم المرفأ العريض الممتد بين صفين من تماثيل أبى الهول حتى مرسى الزوارق الملكية احتشد جمع آخر يختلف عن سابقه كثيراً .

فهناك على مقاعد حجرية جلس كبار الكهنة وقد ارتدوا حللهم البيضاء الطويلة ولفوا حول رؤوسهم أربطة بيضاء أيضاً ، و بأيديهم هراوات طويلة . وامتاز كبير

قضاتهم بريشة طويلة من ريش النعام تخفق فوق قلنسوته ، وهذه الريشة أطول من مثيلاتها فى رؤوس بقية الكهنة ، وكذلك امتاز بعوذة ثمينة من الياقوت الأزرق تتدلى حول عنقه من سلسلة ذهبية .

وكان كبار ضباط الجيش المصرى يلبسون أردية ذات ألوان زاهية ويحملون فى مناطقهم سيوفاً قصيرة . ووقفت على الجانب الأيمن للسلم فصيلة من فرقة الحرس مسلحة بالفؤوس والمدى والقسى والدروع الكبيرة ، وعلى الجانب الأيسر وقف المرتزقة من جند الاغريق مسلحين على النمط اليونانى . ووقف قائدهم الجديد صاحبنا أرسطوماكس مع بعض ضباطه بعيداً عن المصريين بجانب تمثال بسامتك الأول القائم فى فضاء بأعلى السلم ، وكانت وجوههم مولاة شطر النهر .

وجلس بسامتك ولى العهد أمام هذه النصب على كرسى من الفضة وعليه حلة ضيقة ذات ألوان عدة موشاة بالذهب ، يحيط به كبار رجال الدولة النابهين ، من رجال البلاط وحجاب الملك ومستشاروه وندماؤه وغيرهم ، وكل منهم يحمل عصى محلاة بريش الطاووس وزهر النيلوفر (اللوتس)

ونفد صبر الجماهير من طول الانتظار فجعلت تصيح وتغنى ، على حين كان الكهنة ووجوه الدولة العظام واقفين على منحدر المرفأ وهم فى صمتهم ذوو نفوس أبية وأنوف حمية . فكان كل منهم ، فى تحديقه الشديد وفى شعره المتجعد الصناعى وفى لحيته الطويلة وفى وقاره ، أشبه شىء بالتمثالين الكبيرين المتشابهين ، القائم كل منهما فى مكانه لا حراك به ، يطيل النظر الى النهر .

وأخيراً ظهرت للجمهور شرع من الحرير ما بين أرجوانى وأزرق .

فصاح الجمهور من فرح فمن قائل « انهم قادمون . ها هم ، ها هم . » ومن قائل « حذار والا دست هذه الهرة . » ومن قائل « أيتها المرضع ارفعى الطفل فوق رأسك حتى يستطيع المشاهدة . » ومن قائل « انك تدفع بى الى الماء فحذار . » ومن قائل « انتبه أيها الفينيقى فالصبية يقذفون لحيتك الطويلة بسنابل القمح . » ومن قائل « لا تظن أيها الفتى الاغريقى أن مصر أصبحت ملكا لكم لأن أماسيس قد أذن لكم أن تقيموا على ضفتى النهر المقدس . » وهتف أحد الكهنة بين هذا اللغط قائلا

« فليسقط الاغريق أهل الصفاقة والوقاحة ! فليسقط الاغريق ! » ولم يكد ينتهى الكاهن من هتافه حتى ردده الجمهور وزاد عليه : « فليسقط أكلة الخنازير ، فليسقط محتقرو الآلهة ! »

وانتقلوا من القول الى الفعل ؛ ولكن الشرطة تدخلوا على الفور ، فاستعملوا هراواتهم وسرعان ما استتب الأمر الى ما كان عليه . واقتربت الشرع الكبيرة الزاهية ، وكان من السهل تمييزها بين شرع الزوارق المصرية بين سمراء و بيضاء وزرقاء ، وكانت هذه الزوارق تسبح فى النيل هنا وهناك . وأخيراً نهض ولى العهد وجلساؤه من الأشراف وقوفا ، ونفخ فى الأبواق تحية للقادمين وايذانا لمجيئهم ، ورست السفن القادمة فى المرفأ .

وكانت تلك السفينة مستطيلة مصفحة بالذهب ، على مقدمها تمثال صقر من فضة ، وفى وسطها قبة من ذهب وسقفها من أرجوان ، وتحتها وضعت وسائد مرتبة ، وعلى كل من جانبى المقدمة قام بالتجديف اثنا عشر رجلا وعليهم مآزر ثمينة .

وجلس تحت تلك القبة ستة رجال جميلو المنظر والمخبر فاخرو الملبس . وقبل أن تصل السفينة الى الشاطئ قفز منها أصغرهم سنا وكان شابا جميلا ذهبى الشعر ، ثم وقف على السلم .

وعند رؤيته بدرت من فم البنات المصريات آهة طويلة ، و بدت على وجوه الأشراف ابتسامات البشر احتفاء بالقادم ، وما كان أجمد هذه الوجوه .

وكان اسم هذا الشاب الذى شخصت اليه الأبصار بردية ، وهو ابن ملك الفرس السابق وشقيق ملكهم الحالى . وقد أمدته الطبيعة بكل ما يتمناه شاب فى العشرين من عمره من الجمال والغنى والعز والجاه والقوة والشجاعة . ولفت حول تاجه عمامة زرقاء بيضاء تظهر من تحتها جدائل شعره الذهبى الجميل المتكاثف . وكانت تسطع عيناه بنور الحياة والرغد والرقة والعزة وظرف الشمائل . أما وجهه النبيل المكلل بطلع عذاره المنبئ برجولته فما كان أحقه بيد المثال الاغريقى تصوغ له مثالا ، وأما جسمه العضل فكان ينبئ عن قوة وخفة فى الحركة . وكان جلال ملبسه يناسب جمال صورته وكان يسطع على تاجه نجم مكون من قطع الماس والفيروز . وارتدى حلة بيضاء من

ديباج مطرز بالذهب الخالص تتدلى حتى ركبتيه ، وعلى حقويه نطاق من حرير أزرق وآخر أبيض ، هما لونا شعار الملكية فى بلاد فارس . ومن هذا النطاق يتدلى سيف قصير من ذهب يامع ، محلى مقبضه وغمده بالحجارة الكريمة ومنها الفيروز الأزرق. أما سرواله فكان من ديباج أيضاً كجلبابه منقبضا عند كعبيه ، وينتهى بحذاءين قصيرين من الجلد الرقيق الأزرق .

أما ردناه الواسعان الطويلان فقد تكشفا عن ذراعين عضلين قويين تزينهما أساور من ذهب ولآلئ . وكان يتدلى من عنقه على صدره العريض سلسلة من الذهب .

ذلك كان أول من قفز الى الشاطئ ، وتبعه دارا بن هستاسب ، وهو من الأسرة المالكة فى فارس ويشبه فى الجسم بردية ويقاربه فى نفاسة الملبس والتأنق . وأما الثالث فرجل مسن أبيض الشعر تطالع فى وجهه وداعة الطفل الظريف وحذق الرجل الحكيم وتجربة الشيخ المحنك ، يلبس رداء طويلا أرجوانياً ذا ردنين وينتعل حذاء أصفر اختص به الليديون . وكان منظره فى الجملة دالا على التواضع البعيد عن الادعاء على أن ذلك الرجل الشيخ المتواضع كان منذ بضع سنين يحسده بنو جنسه وأهل زمانه ، بل ولا زال يذكره الناس اليوم وقد مضى على عهده أكثر من ألفى سنة بأنه أغنى رجل فى العالم . فهو كريسوس(1) ملك ليديا المخلوع والمقيم وقتئذ فى بلاط قمبيز كصديقه ومستشاره ، وقد صحب بردية الى مصر كى يأتنس به ويسترشد بآرائه .

وبعد كريسوس نزل بركساسب سفير ملك الفرس ، ثم زوبيروس بن ميجابيزوس من أشراف فارس وهو صديق بردية ودارا ، وكان آخر من ترك السفينة جيجيز بن كريسوس . وهو نحيف الجسم أصفر الوجه أصيب بالخرس وهو فى الرابعة من عمره الا أنه استرد النطق من جراء خوفه الشديد على سلامة أبيه يوم سقوط سارديس .

هبط بسامتك درج السلم ليستقبل هؤلاء الأجانب القادمين محاولا أن يظهر شيئاً من الابتسام على وجهه العابس المصفر . فانحنى له كبار رجال حاشيته وأيديهم

---

(1) هو قارون حاربه كورش الكبير ملك الفرس وقهره . وكانت قاعدة ملكه سارديس أفخر مدن العالم فى ذلك الوقت .

مبسوطة حتى كادوا يلامسون الأرض بجباههم . فلم يكن من هؤلاء الفرس القادمين الا أن أطبقوا أيديهم متصالبة على صدورهم وخروا على الأرض أمام وارث عرش مصر . و بعد أن انتهت هذه الطقوس الرسمية الأولى تقدم بردية حسب العادة فى بلاد الفرس ، وقبل الأمير المصرى فى خده ، فكان عمله مثيراً لعجب المصريين ودهشهم اذ لم يكونوا معتادين على رؤية مثل ذلك . ثم يمم ناحية المحفات المعدة لحمله هو وصحبه الى مقر الضيافة الذى خصصه الملك لسكناهم فى قصر سايس مدة اقامتهم بمصر .

وتبع بعض الجمهور أولئك الأجانب ولكن الجزء الأكبر منه بقى محتفظا بأمكنته ظنا منه أنه سوف يرى شيئاً آخر جديدا عجيباً .

وسأل أحد الكهنة المتبرمين جاره وكان خياطا شهيرا بسايس قال « هل فى عزمك أن تسير وراء هؤلاء القوم أبناء تيفون اله الشر ، أولئك الذين يحاكون قردة فى لباس آدميين . انى أقول لك يا بوهور ، وكذلك يقول الكاهن الأعظم ، ان أولئك الأجانب لايجيئون بخير للأرض السوداء ، أرض مصر . لقد عمرت طويلا ، فما رأيت فيما مضى أجنبياً تبلغ به الجرأة أن يطأ بقدمه تربة مصر . أما اليوم فها هى الطرق غاصة باليهود الماكرين ، ناهيك بهؤلاء الاغريق الملاعين الذين نسأل الآلهة أن تمحقهم من الوجود . أنظر هذه سفينة ثالثة مماوءة بالغرباء ، فهل تعرف من أى أنواع البشر يكون أولئك الفرس ؟ يقول الكاهن الأعظم أن ليس فى بلادهم كلها معبد واحد للآلهة مع أنها فى السعة تبلغ نصف العالم كله . و يقول أيضاً ان هؤلاء القوم بدلا من أن يعدوا لموتاهم قبورا يدفنونهم فيها يتركونهم فى العراء ، تنهش جثثهم الكلاب والصقور والبزاة من الطير . »

فكان غيظ الخياط مما سمع أشد من عجبه ، وأشار الى المرفأ وقال « هذا ردئ جداً . فانظر ، هذه هى السفينة السادسة وهى ممتلئة بالغرباء . »

فأجاب الكاهن متنهدا « أجل فذا أمر لا يطاق . اخال أن جيشاً بأكمله قادم علينا . وأماسيس باق على هاته الحال حتى يطرده الأجانب من فوق عرشه و يبعدوه من بلاده ، و ينهبون الناس و يستعبدونهم كما فعل الهيكسوس الأشرار فساموا مصر

وأهليها العذاب ، وكما فعل الاثيوبيون (الحبشان) فى قديم الزمان . »

وصاح الخياط « السفينة السابعة . »

فقال الكاهن متحسرا « سألت سيدتى وحاميتى نيث أكبر معبودات سايس أن تهلكنى ان أنا استطعت أن أفهم أمر هـذا الملك . لقد أرسل ثلاثة زوارق الى نقراتس ، ذلك العش السام المكروه من الآلهة ، لاستحضار خدم هؤلاء الأعاجم ومتاعهم ، ولكن هـذه الزوارق الثلاثة لم تكف لأن هؤلاء القوم ، الذين يزدرون الآلهة والذين يدنسون موتاهم ويحتقرونهم ، لم يكفهم ما أحضروا من أدوات الطهى ومن كلاب وخيل ومركبات وصناديق وسلال بل جاءوا معهم بجيش من الخدم لازموهم فى سيرهم الطويل . ويقال ان من بينهم جماعة صناعتهم جمع الزهور وتحضير العطور والأدهان . كذلك جاء معهم كهنة يسمونهم هناك مجوسا . وددت لو أعلم لأية غاية جاء أولئك المجوس ، وما الفائدة من كاهن ولا هيكل ولا اله ؟ »

* * *

واستقبل أماسيس الملك الشيخ الوفد الفارسى بما لا مزيد عليه من الحفاوة والاحترام وبما جبل عليه من الظرف والرقة .

وفى اليوم الرابع لوصولهم خرج أماسيس يتمشى فى الحدائق الملكية مع كريسوس ، بعد أن أدى ما عليه من مهام الحكم ، فقد كان من عادته أن يقضى فى ذلك صبح كل يوم بدون استثناء ، أما بقية أعضاء هذا الوفد فذهبوا فى نزهة نيلية الى منف وبصحبتهم ولى العهد .

وكانت حدائق القصر تشبه فى نظامها حديقة رودوبيس وتزيد عنها فخامة الملك ، وهى قائمة فى الشمال الغربى من سايس بالقرب من القلعة الملكية .

وهناك كان يجلس الشيخان متفيئين ظلال شجرة كبيرة قائمة بالقرب من حوض كبير من حجر الجرانيت الأحمر ، يصب فيه الماء الصافى بدون انقطاع نافرا من بين شدقى تمساحين منحوتين من صخر البازلت الأسود .

وكان كريسوس على الرغم من تقدمه فى السن على أماسيس أقوى بنية منه . وكان أماسيس طويل القامة محنى العنق ، وكان جسمه عبلا سميناً تحمله ساقان

ضعيفنان مستدقتان . أما وجهه فكان على حسن تكوينه مخططاً مجعداً . ولكن روحاً وثابة كان ينبثق نورها من عينيه الصغيرتين البراقتين ، وكثيراً ما ظهرت على شفتيه المتلثثتين علامات السخرية والمزح الماكر بل والتهكم المر . وأما جبهته المنخفضة العريضة ورأسه الكبير فانهما تنمان عن عقل كبير . وأما لون عينيه المتغير فكان لا يستطيع رائيهما أن يطالع فيهما ما اذا كان صاحبهما تنقصه البصيرة أو العاطفة . ألم يكن جندياً بسيطاً فشق لنفسه طريقاً لتسنم عرش الفراعنة . وكان صوته حاداً عالياً ، وحركاته تنبئ عن نشاطه اذا هى قورنت بخمود غيره من رجال البلاط المصرى .

أما صورة زميله كريسوس وهيئته فكانتا وقورتين خليقتين بملك مثله . وكانت تدل حاله على أنه جالس كثيراً من أهل الفضل والحصافة من الاغريق ، من أمثال طاليس وأنكسيمندر وأنكسمينس وبياس وصولون وبيتا كاس وغيرهم من فلاسفة اليونان المشهورين . فقد كان هؤلاء فى أيام سعده الأولى ضيوفاً فى بلاط كريسوس فى ساردبس . وكان لصوته الممتلئ الواضح رنيناً يشبه رنين الأغانى اذا هو قورن بصوت أماسيس ذى النبرات الحادة العالية .

وبدأ الفرعون الحديث باليونانية قال « أدل الىّ الآن بصراحة بالفكرة التى تكونت برأسك عن مصر . واعلم أننى قادر حكمك قدره مفضله على رأى كل رجل سواك وذلك لثلاثة أمور : أولها أن لك معرفة بمعظم بلاد الدنيا وأممها ، وثانيها أن الآلهة لم تسمح لك بارتقاء سلم العظمة والسؤدد حتى قمته فحسب بل جعلتك أيضاً تهبط من قمة مجدك وعليائك ، وثالثها أنه مضى عليك زمن طويل كنت فيه المستشار الأمين لأقوى ملوك الأرض قاطبة . فأود من كل قلبى أن تكون بلادى قد راقت فى عينيك فتميل الى البقاء فيها وأتخذ منك أخاً لى ، فلقد كنت حقاً يا كريسوس صديقى من زمن طويل وان كانت عيناى لم تقعا عليك أول مرة الا أمس . »

فاعترضه الليدى قال « ولقد كنت أيضاً صديقى ، وانى لمعجب بشجاعتك التى أقدمت بها على اجراء ما ترى من خير وصواب رغم المعارضة التى تواجهك . وانى

شاكر لك حسن معاملتك ورعايتك لأصدقائى الميليين ، شاعر أن القدر قد جمع بين نفسينا ، فقل ألم تخبر أنت أيضاً صاب هذه الحياة وشهدها ؟ »

قال أماسيس وهو يبتسم « غير أن هناك هذا الفرق وهو أننا ابتدأنا من نقطتين متباينتين ، فأنت أصبت الخير أولا والشر أخيراً فى حين أنى قد انعكس معى الأمر ولا تفهمن من ذلك أنى راض بما قسم لى من حظ حاضر وأنى قانع به . »

قال كريسوس « وانى لأرانى أيضاً فى هذه الحال غير سعيد فيما يدعوه الناس تعاسة وسوء حال . »

قال « وكيف يكون الأمر غير ذلك وقد فقدت ملكا واسعاً وغنى لا يوصف . »

قال « وهل تجد السعادة فى الملك والثراء ؟ وهل السعادة نفسها شىء يقتنى ؟ كلا فما هى فى الحقيقة الا احساس أو شعور تمنحه الآلهة بالأكثر للضعيف المحتاج لا للقوى القادر . فان عين الأخير تبهرها أشعة الكنوز والتحف فتظل فى ذلة مستمرة لأن شعور القوى أن بمكنته المزيد منها يدفعه الى التطلع للحصول على كل شىء ، ومن ثم يكون فى ذلة مستمرة لأنه مقهور مغلوب على أمره أبداً . »

فتنهد أماسيس عندئذ وقال « وددت لو باستطاعتى أن أعارضك فيما ذهبت اليه ، على أنى عندما ألقى نظرة على ماضىّ لا يسعنى الا أن أعترف بأن متاعبى بدأت من يوم قال الناس عنى انى سعيد الحظ . »

فقاطعه كريسوس قال « وأنا أؤكد لك أننى شاكر لك توانيك عن مساعدتى فى يوم محنتى ، فان ساعة سقوطى عن عرش ليديا كانت بداية سعادتى الحقيقية التى لا تشوبها شائبة . ذلك لأنى عندما رأيت الفرس يتسلقون أسوار سارديس لعنت نفسى والآلهة ، وظهرت لى الحياة كريهة ، وحسبت وجودى فى هذه الدنيا لعنة من اللعنات . ولقد مضيت فى الدفاع أنا وقومى ، والقلب غارق باليأس ، حتى أرغمت على التسليم أنا وشعبى . وشهر احد الفرس سيفه يريد شج رأسى ، فلم أشعر الا وابنى ، وقد كان أخرس معقود اللسان ، قد رمى بنفسه ليحول بين أبيه وبين قاتله ، فأنطقت الآلهة لسانه وسمعته يتكلم للمرة الأولى بعد صمت سنين عدة . أطلق الخوف لسانه ، وعرف جيجيز فى تلك الساعة المخيفة كيف يتكلم مرة أخرى .

فما كان منى ، وأنا الذى كنت قبل ذلك بلحظة ألعن الآلهة ، الا أن انحنيت أمام قدرتها وعظمتها . وكنت أمرت أحد عبيدى أن يقتلنى ان أنا وقعت فى يد الفرس أسيراً ، فجردته من سيفه ، وأصبحت بعد ذلك غيرى بالأمس . فتعلمت بالتدريج كيف أكبح جماح نفسى عند ثورتها ، اذ كثيراً ما كانت تثور بين آن وآن دافعة بى الى مناهضة القدر وشق عصا الطاعة ازاء خصومى الأشراف . وانك لتعلم كيف أنى صرت صديق كورش أبى قمبيز ، وكيف أن ابنى شب فى بلاطه حرا يعيش فيه بجانبى وقد استعاد لنفسه قوة الكلام . ولقد وقفت على ولدى كل شىء جميل طيب سمعته أو رأيته أو فكرت فيه خلال حياتى الطويلة كلها ، فكان ولدى هو ملكى وتاجى وثرائى . ولقد ذكرتنى أيام كورش العصيبة ولياليه التى حرم فيها النوم بعظمتى السابقة ، ولشد ما أفزعتنى هذه الذكرى وروعتنى ، ولكن لقد أصبح يزيد فى عينى وضوحاً يوماً عن يوم أن السعادة ليست أمراً يتعلق بأمورنا الظاهرية بل هى داخلية جرمها الخفى كائن فى الناس . فصاحب العقل الراجح من يستمتع بالعظمة والجمال ومن يقنع أيضاً بما هو دون ذلك ان جد الجد واشتد الأمر . العاقل من يحتمل الحزن أو الألم دون تململ أو شكوى ، ومن يجتهد فى تخفيفه وتسويغ مذاقه بتذكر فرح سابق وسعادة ماضية . العاقل هو المعتدل فى كل شىء ، هو من يثق كثيراً بالآلهة ويعتقد أن كل الأشياء عرضة للتبديل والتغيير ، وكذلك كل شىء آبق معنا نحن بنى آدم فان ما يصيبنا من ضر سوف ينزح عنا متى حان حينه . كل هذا يساعد يا أماسيس على انضاج نبت السعادة ، ويكفل لنا من القوة ما يجعلنا نبسم للخطوب ، فى حين أن الرجل الذى لم تثقفه الحادثات قد يغلبه على أمره خوف أو قنوط . »

أصغى أماسيس كل الاصغاء وجعل يخط رمل الحديقة برأس عصاه ، وكانت زهرة من ذهب خالص ، وأخيراً قال « حقاً يا كريسوس فاننى أنا المدعو من المصريين الاله الكبير ، شمس الحق ، ابن نيث ، رب المجد فى الحروب ، أحسدك أنت الملك المخلوع عن عرشك المغلوب على أمرك . لقد كنت أنا أيضاً سعيداً كما أنت اليوم ، وكنت يومئذ منخرطاً فى سلك الجندية معروفاً فى مصر كلها بأنى مرح طروب ضحوك رقيق الطباع ، مع أنى لم أكن الا ابن ضابط صغير . وكان الجند

يحبوننى ولا يتوانون فى ارضائى ، ولطالما اغتفر لى الضباط العظام من رؤسائى كثيراً من الأغلاط وكانوا يسموننى أماسيس المجنون ، أما أقرانى (من صغار الضباط) فكانوا لا يرتاحون فى لهو أو قصف ألا اذا كنت معهم : ورأى سلفى الملك حفرع أن يرسل جيشاً الى شيرين Chyrene ، وكدنا نموت فى الصحراء عطشاً فرفضنا المضى فى السير ، وانتشرت فكرة فى الجيش مؤداها أن الملك يريد الخلاص منا باماتتنا فى الصحراء من أجل المرتزقة من جند الاغريق ، ومن ثم جاهر الجيش بالثورة والعصيان . وكنت أثناء مزاحى مع اخوانى أقول لهم : لن يمكنكم المضى دون أن يكون عليكم ملك يسوس أمركم ، فاتخذونى عليكم ملكا فلن تجدوا من هو أكثر منى جذلا وابتهاجاً . فأخذ عنى الجند كلماتى هذه ، واختارونى فيما بينهم ملكا عليهم . وبعد بضع ساعات جاءونى وهم يصيحون ، أماسيس الظريف الطروب يكون ملكا علينا ، ووضع أحد صحبى تاج القيادة فوق رأسى ، وما لبثت أن صيرت الهزل جداً ، ونازلنا حفرع فى منف فهزمناه ، واشترك الشعب فى المؤامرة ، واعتليت عرش مصر ، فدعانى الناس بالسعيد وغبطونى كثيراً . وكنت حتى ذلك الحين صديق كل مصرى ، أما اليوم فقد صرت عدواً لأعظم رجالهم وأعلاهم قدراً .

« وأقسم الكهنة يمين الطاعة لى وقبلوا أن يدمجونى عضواً فى سلكهم أملا منهم فى أن أكون آلة فى أيديهم يحركونى كما يشاءون . وأما رؤسائى الضباط الأقدمون فقد حسدونى ورغبوا فى أن يظلوا معى كسابق عهدهم يمرحون ويمزحون . ولكن ذلك لم يكن ليتفق مع مركزى الجديد ؛ بل انه قد يذهب بهيبتى ويقلل من سطوتى كملك عليهم . ولذلك ففى ذات يوم كان ضباط الجيش عندى فى وليمة ، وفيما هم كعادتهم يمزحون أريتهم طستا من ذهب غسلت فيه أرجلهم قبل تناول الطعام . وبعد خمسة أيام اذ اجتمعوا عندى للشراب واللهو وضعت لهم على المائدة ، وقد زينتها أبدع زينة ، تمثالا من ذهب للاله رع العظيم . فعند ما رأوه خروا أمامه سجداً وجثياً . فلما نهضوا قبضت على الصولجان بيد الخشية والوقار ، وصحت بهم قائلا : انه فى ظرف خمسة أيام استطاع صانع ماهر أن يجعل من هذا الاناء القذر ، الذى كنتم فيه تبصقون وأرجلكم تغسلون ، تمثالا مقدسا . ولقد كنت أنا نفسى مثل ذلك

الاناء ، ولكن الاله الأعظم ، وهو فى الخلق والتكوين خير من ذلك الصانع وأوفر سرعة ، قد جعلنى ملكا عليكم . فاسجدوا اذن أمامى واعبدون . وكل من يعصى أمرى هذا أو ينسى واجبه نحو مليكه سيكون جزاؤه الموت .

« فخروا أمامى كلهم راكعين ، و بذلك بسطت سلطانى ولكنى أضعت صحبى وخلانى . ولما اشتدت بى الحاجة لصحب يشدون أزرى اعتمدت على الاغريق ، وأنا أعرفهم أبطالا فى الحروب وصناديد يعدل الواحد منهم خمسة من المصريين ، ورأيت أنى بهذه الوسيلة أستطيع تنفيذ كل ما أراه صالحا .

« فاحتفظت بمرتزقة الاغريق حولى ، وتعلمت لغتهم ، وكان لهم فضل معرفتى بأنبل من عرفت من الرجال وأقصد به فيثاغورس . ولقد بذلت جهدى فى ادخال عادات الاغريق وصناعاتهم الى بلادنا ، مراعيا فى ذلك أن من الحمق اللصوق بما انحدر الينا من الأجداد والأسلاف ، فى حين أنه فى نفسه قبيح لا يستحق كل هذا الاحتفاظ والتشبث ، وفى حين أن التربة المصرية فى انتظار البذرة الصالحة لتجعل منها نباتا صالحا .

« ولقد قسمت الأرض لتكون وفق الأغراض التى وضعتها ، وأوجدت خير شرطة فى العالم ، وأتممت الكثير من الاصلاحات . ولكن غرضى الأكبر كان موجها الى أن أدخل فى هذه البلاد الروح الاغريقية ، والعقل الاغريقى ، وشعور الاغريق بالجمال ، وحبهم للحياة والاستمتاع بها . ولكن هذه الآمال كلها كانت تتحطم على نفس الصخرة التى طالما هددتنى بالعزل والخراب كلما حاولت ادخال جديد فى بلادى . ولا تنس أن الكهنة هم خصومى وسادتى ، وهم كالسيف المسلول فوق هامتى . فهم بتمسكهم بالخرافات القديمة ، و بغضهم لكل شىء جديد غريب ، وباعتبارهم كل أجنبى عدوا طبيعيا لسلطانهم وتعاليمهم يستطيعون أن يسوسوا هذه الأمة ، المتمسكة بالقديم والمتعلقة بدينها ، بقوة لا حد لها . فلهذا ترانى مضطرا لتضحية كل ما أراه من الخطط ، ولهذا أرى حياتى ينصرم حبلها وانا مقيد بنظمهم الشديدة القاسية . وانى لأعتقد أن ذلك يحرمنى الهدوء ساعة موتى ، بل وأرانى ازاء هذه الطغمة المزهوة بنفسها غير قادر على منع تدخلها بين نفسى و بين بارئها ، فأحرم

حتى الراحة فى القبر ! »

قال كريسوس مقاطعا وقد تأثر بكلام أماسيس : « وحق زيوس منقذنا ، لأنت حرى بالشفقة والرثاء رغم ما كان لك من حظ وفير . اننى أفهم رزءك وما دهاك ، وانى وان كنت لقيت كثيرين ممن حياتهم ظلام وآلام ، الا أنى ما كنت أعتقد أن هناك أمة بأسرها من بنى البشر تعيش فى هذا العالم وسخائم القلوب ألزم لهم من الناب السامة للأفعى . ولا أكتمك أنه منذ دخلت مصر بل وفى اثناء اقامتى فى بلاطك وأنا لا أرى من الكهنة الا وجوها منقبضة باسرة . ثم ان الغلمان القائمين بخدمتك هم أيضا عابسو الوجوه وقلما يبتسمون ، مع أن البشاشة والتهلل من منح الآلهة تمنحها للشباب فهى منه كالزهر من الربيع . »

قال أماسيس « ولكنك تخطئ فى اعتقادك أن هذا العبوس خلق عام بين المصريين . لست أنكر أن ديننا فى حاجة قصوى الى التفكير العميق . وهناك أمم قليلة لم تهبها الآلهة هبة المرح والمجون ، فاذا كانت فى عيد نسى افرادها كل شىء الا التلهى بالعيد واقتناص فرصة اللهو الحاضرة . أما عن الكهنة فلست أخطئك فى أن مجرد رؤية الأجانب ممقوت لديهم ، وذلك العبوس الذى لاحظته متعمد منهم ، وهو احتجاج علىّ لترحيبى بالأجانب . وهؤلاء الغلمان الذين تكلمت عنهم هم أكبر آلامى فى هذه الحياة . انهم عبيدى وطوع بنانى ، ولقد يخيل للانسان أن الآباء الذين يخصصون أبناءهم لمثل هذه الخدمة ، والذين هم أعلى طبقات الكهنوت يكونون هم أنفسهم أكثر الخدم طاعة واحتراماً للملك و يعدون احترامه مقدساً . ولكن صدقنى يا كريسوس ان فى هذا التخصيص ، الذى لا يستطيع ملك مصرى أن يرفضه دون اثارة غضب الكهنة ، أشد أنواع اللؤم والمداجاة . فكل من هؤلاء الغلمان حارس لى وعين علىّ ، يرقب أعمالى صغيرها وكبيرها و يطلع الكهنة عليها فوراً . »

قال « وكيف يمكنك الصبر على هذه الحال ؟ ولماذا لا تطرد هؤلاء العيون وتختار لنفسك خدما من رجال الجندية مثلا ؟ انى أرى أنهم لا يقلون نفعاً عن الكهنة . »

قال أماسيس بصوت عال « وددت لو ان باستطاعتى ذلك » ثم خفض صوته وكأنه خشى عاقبة تسرعه وقال « انى أعتقد أنى مراقب حتى فى جلستى معك هنا .

ولذلك سآمر غدا بنزع أشجار التين القائمة هناك . ثم أترى هذا الكاهن الفتى الذى يتظاهر بأنه مغرم بتنسيق الحدائق ؟ ان له بجانب جمعه التين ووضعه فى السلال عمل آخر . انه حين يلتقط التين بيديه يتسمع بأذنيه كلام مليكه اذ تنطق به شفتاه . »

قال « ولكن وحق زيوس أبينا وحق آبولون — »

قال مقاطعا « انى أفهم غيظك وحنقك وانى أقاسمك فيه ، ولكن لكل منصب حدود وواجبات . وبصفتى ملكا على قوم يقدسون التقاليد فلابد لى من أن أخضع على الأقل لتلك الطقوس المتبعة منذ آلاف السنين . على أنى ان فككت عنى هذه القيود وحطمت هـذه الأغلال لحرمت عند موتى من دفن جثتى ؛ واعلم أن هؤلاء الكهنة يجتمعون بشأن كل جثة لاصدار حكمهم ، ولهم أن يقضوا بحرمان المذنب من الراحة حتى فى القبر . »

قال كريسوس وقد تملكه الغيظ « ولم كل هـذه العناية بالقبور ؟ انما خلقنا للحياة لا للموت . »

قال أماسيس وقد نهض واقفا « بل قل اننا بعقولنا الاغريقية نعتقد أن الحياة الرغدة هى خير الأمور . ولكنى يا كريسوس من نسل مصرى وغذيت بطعام مصر ، وانى وان كنت أخذت الكثير عن الاغريق فانى لا زلت مصرى الجوهر . واعلم أن ما كان يغنى لنا أيام طفولتنا ، وما كنا نعتقد بقدسيته فى شبابنا ، لا زال عالقا بقلوبنا وسيظل عالقاً بها حتى تحنط جسومنا بعد الموت . انى شيخ ولم يبق لى من العمر الا مرحلة قصيرة سأقطعها قبـل أن أصل الى الحد الذى يفصل ما بيننا وبين ذلك العالم النائى ، عالم الأبدية . فهـل يصح لى أن أشوه عن طيب خاطر آلاف السنين بعد موتى من أجل أيام قلائل أقضيها فى هـذه الحياة ؟ كلا أيها الصديق فانى سأظل مصريا فى هذه النقطة على الأقل . سأظل مصريا كباقى أبناء بلادى فى اعتقادى أن سعادتى فى الحياة المقبلة ، فى مملكة أوزيريس ، تتوقف على الاحتفاظ بجسمى ، وهو مسكن الروح ومرتعها . ولكن كفانا وهـذه الأشياء . انك لتجد الدخول فى مثـل هذه الآراء صعب ، وأولى بك أن تحدثنى عن رأيك فى معابدنا وأهرامنا . »

ففكر كريسوس لحظة وأجاب مبتسما « هـذه الأهرام ، تلك الـكتل الحجرية الضخمة ، تتراءى لى كأنها من خلق تلك الصحراء التى لاحد لها . وهذه الأروقة ، الجميـلة النقش ، ذات العمد ، الموجودة فى معابدكم ان هى الا وليدات الربيع . أما تماثيل أبى الهول ، وان تكن تؤدى الى أبواب معابدكم بل والى محاريبكم المقدسـة ، وتلك الأسوار المنحدرة التى تشبه أسوار القلاع وتلك الأبواب الكبيرة المنعزلة تبدو كأنهـا وضعت هناك لكى تمنع الناس من الدخول . وأما كتاباتكم الهيروغليفية العديدة الألوان فتلفت النظر ، ولكنها تقبض صـدر كل من يحاول فك رموزها بما تضمنته من أسرار سحرية . وأما تماثيل آلهتكم ونصبها فيراها الانسان فى كل مكان ، ويخيل للناظر اليها أنها تتجمع وتتقارب ، ومع ذلك فمن هو الذى لا يدرى أن حقيقتها ليست فيما يبدو عليها من جلال وروعة ؟ أليس من الجائز أن تكون تلك النصب رموزا لأفكار وآراء معلومة لدى القليـل منكم ، وهى كما بلغنى مستعصية على الفهم ؟ ولقد كان يستفزنى العجب فى كل مكان ، ولكم استلفت نظرى ما رأيت ، ولكنى أعترف بانى لم أشبع عاطفة حبى للجمال والجميل ، ولم أستشعر من نفسى أنها تحركت ازاء شىء ما . ربما كان ذلك راجعاً الى أنى حصرت همى فى تفهم أسرار حكمتكم ، ولكن قلبى وعقلى مع ذلك لا يستطيعان قط أن يذهبـا مذهب من يقول ان الحياة حجة قصيرة المدى الى القبر ، وأن الموت وحده هو الحياة الحقة . »

قال أماسيس « ومع هذا فالموت عندنا مزعجاته ومفزعاته ، ونحن نعمل كل ما فى وسعنا للتخلص من قبضته . وان أطباءنا ما بلغوا ما بلغوه من الشهرة والاحترام الا لاعتقادنا فى كفاءتهم ومهارتهم وقدرتهم على اطالة الحياة . وهذا يذكرنى بطبيب العيون نبنخارى الذى بعثت به الى الملك قمبيز فى سوسا . ترى هل لا يزال الرجل محتفظاً بشهرته ، وهل الملك راض عنه ؟ »

قال كريسوس « الحق انه نفع الكثيرين من العميان ، ولكن أم الملك لازالت وياللأسف لا تبصر . ولقد كان نبنخارى هذا أول من حدث قمبيز بجمال ابنتك تاخوط ومحاسنها . وانه ليسوؤنا أن نطاسياً كهذا لا يعالج الا العيون ، فانه حينما مرضت الأميرة آتوسا بالحمى لم يؤت به حتى لاستشارته . »

قال أماسيس « ذلك طبيعى جداً فان أطباءنا غير مسموح لهم الا بتطبيب قسم واحد فقط من الجسد . فعندنا أطباء للآذان ، وأطباء للأسنان ، وآخرون للعيون ، وغيرهم للجراحة وكسر العظام ، وغيرهم للأمراض الباطنية . ومن قوانين الكهنة أن طبيب الأسنان محظور عليه أن يعالج الأصم ، والجراح محظور عليه معالجة الأمعاء ، مع أنه على علم واسع بضروب الأمراض الباطنية . وترمى هذه القوانين الى الاستزادة من العلم من طريق التخصص . ولقد سلك الكهنة (والأطباء من عشيرتهم) هذا المسلك فى جميع فروع العلوم والفنون الأخرى . وها هو منزل الكاهن الأعظم نيتحوتب ، وقد بلغت شهرته فى علمى الفلك والهندسة مبلغاً تمدح به فيثاغورس . وهذا المنزل قريب من الدهليز المؤدى الى هيكل المعبودة نيث حامية سايس . وبودى لو رأيت الأيكة المقدسة بأشجارها الباسقة ، وما بالمعبد من عمد فاخرة جعلت رؤوسها على شكل زهر اللوتس ، وبودى أيضاً أن ترى الحجرة المنحوتة من صخرة واحدة من الجرانيت التى قدمت قرباناً للمعبودة ، ولكن دخول الأجانب محظور ويا للأسف بأمر الكهنة . فهيا اذن نذهب الى حيث زوجتى وابنتاى ، فانهن قد ملن اليك وأحببنك . وانى فى الحقيقة أروم ان أمكن عرى الصداقة بينك و بين ابنتى المسكينة ، قبل أن تغادرنا معك الى تلك البلاد الغريبة وتلك الأمة الغريبة التى سوف تكون ملكة عليها . فهل لك أن تعدنى بأن تسهر عليها وترعاها ؟ »

فأجابه كريسوس متأثراً قابضاً على يد أماسيس « أما عن ذلك فلك أن تعتمد علىّ كل الاعتماد ، سأرعى نايتيتس كأنها ابنتى ، وهى سوف تكون فى حاجة الى مساعدتى لأن العيش فى مقاصير البلاط الفارسى لا يؤمن خطره . على أنها سوف تعامل هناك بكل تجلة واعزاز . وسيقنع قمبيز بها ، ويحمد لك اختيارك له أجمل بنتيك فان نبنخارى حدثه فقط عن ابنتك الأخرى تاخوط . »

قال أماسيس « لكنى مع هذا فلست مرسلا الا ابنتى نايتيتس الجميلة ، اذ أن تاخوط أضعف من أن تحتمل متاعب السفر وآلام الفراق . ولو أنى فى الحقيقة كنت أستمع لوحى قلبى ما فرطت قط فى نايتيتس وما كنت مرسلها الى فارس ، لولا أن مصر فى حاجة الى السلم لا الحرب . هذا الى أنى كنت ملكا قبل أن أكون أباً . »

الفصل الخامس

وليمة فى بلاط الملك أماسيس

وعاد بقيـة الوفد الفارسى الى سايس من نزهتهم النيلية حتى الأهرام ، وقفل بركساسب سفير قمبيز وحده عائداً الى فارس ليخبر مولاه بنجاحه فى مهمته .

وكان قصر أماسيس ممتلئاً بالحياة والحركة ، وامتلأت حجراته كلها بأفراد الوفد وأتباعهم ، وكانوا يبلغون ثلاثمائة عداً ، وقد لقوا كل عناية ورعاية . وقد غصت ساحات القصر بالحرس ورجال الحكومة ، وبصغار الكهنة والعبيد ، والكل فى أحسن الحلل وأبهاها .

وقصد أماسيس فى ذلك اليوم أن يبهر أبصار الفرس بثراء بلاطه وأبهة ملكه فى وليمة أعدت للاحتفال بخطبة ابنته .

فكنت ترى بهو الاستقبال المطل على الحدائق مزداناً بأجل زينة تتدلى من سقفه ثريات من الذهب الخالص وتحمل السقف عمد منقوشة بأبهى النقوش وأزهاها . فما كان أبدعه منظراً يخلب العقول ويفتن الألباب ! وعلقت على الجدران مصابيح من ورق البردى الملون ينبثق منها ضوء غريب ما كان أشبهه بأشعة الشمس تخترق الزجاج الملون . وملئ ما بين العمد والجدر بالنباتات الثمينة والنخيل والرمان والبرتقال والورد ، تخفى وراءها جوقة موسيقية من الضاربين على الأعواد والعازفين على الناى وكانت هذه الجوقة تستقبل القادمين بما توقعه من أنغام مهيبة متشابهة .

أما أرض هذا البهو فقد كانت مبلطة بالبلاط الابيض والأسود ، وفى وسطها أقيمت الموائد الفخمة وعليهـا صحاف من جميع ألوان الطعام بين لحوم مشوية باردة وحلاوى ، وسلال من فاكهة وفطير ، وأباريق من ذهب ملئت خمراً ، وأكواب زجاجية للشرب وأصص من زهور مصطنعة .

وقام بالخدمة جمع من العبيـد لبسوا أفخر لباس ، تحت امرة القهرمان الكبير ، فكانوا يناولون الصحاف للضيفان الذين جعلوا يتسامرون وقوفاً كانوا حول الموائد أم

على مقاعدهم جالسين .

وجلس فى هذا الجمع النساء مع الرجال ، شيباً وشباناً . ولما أن دخلت النساء قدم لهن الكهنة الفتيان الذين فى خدمة الملك باقات صغيرة من الزهور ، وكم من شاب من أبناء الطبقة العاليـة دخل البهو يحمل أزهاراً لم يقدمهـا فحسب للتى أحبها فؤاده بل وقربها من أنفها لتستنشق أريجها .

أما كبار المصريين بحللهم التى رأيناها عليهم يوم استقبلوا الوفد الفارسى فكان سلوكهم نحو النساء سلوك المتأدب الخاضع . ولم يكن من بين النساء الا قلائل يلفت جمالهن الأنظار . وكان معظم هؤلاء النسوة يضعن الورود وأزهار اللوتس فى شعرهن وعلى جباههن وأصداغهن . وكن يحملن بأيديهن الرقيقة مراوح من ريش براق . وتختمن فى أصابعهن بخواتم ثمينة وخضبن أظافرهن بالحنـاء كما هى عادة المصريين ، ولبسن أساور وأحجال من ذهب وفضـة على سواعدهن وأقدامهن فوق المعصم والعرقوب . وأما ثيابهن فكانت فاخرة ثمينـة ، ولقد خيط معظم هذه الثياب بحيث جعل الثدى الأيمن عارياً .

وكان بردية الأمير الفارسى بين الرجال ، ونايتيتس ابنـة فرعون بين النساء ، أجمل من حوى المكان ، لجمالها الرائع وظرفهما الكثير ومحاسنهما البينة . ولبست نايتيتس رداء شـفافاً وردى اللون ، وزشقت فى شعرها الأسود ورداً ندياً ، ومشت بجوار أختها جنباً لجنب لا تختلفان فى الملبس الا أن نايتيتس كانت صفراء فى لون زهرة اللوتس التى فى شعر أمها .

وخرجت الملكة لاديس ، وهى اغريقية المحتد ابنـة باتوس الشيرينى ، تمشى بجوار أماسيس وقدمت الفارسيين لابنتها . وطرحت فوق ثوبها الأرجوانى حلة خفيفة من السجف مطرزة بالذهب ، ووضعت فوق رأسها الاغريقى الجميل ثعبان يورايوس Uraeus وهو حلية الرأس الخاصة بملكات المصريين .

وكانت ملامحهـا نبيلة جذابة ، ونمت كل حركة من حركاتها عن الظرف الذى لا يكتسب الا من التربية الاغريقية .

وقد اختار أماسيس هذه الملكة زوجة له بعد وفاة زوجته الأولى، تنتخيتا المصرية

أم بسامتك ولى العهد ، مراعياً فى اختياره الاغريق وحدهم غير عابئ بغضب الكهنة.

وجلست تاخوط ونايتيتس بجوار لاديس وقد عرفتا بأنهما توأمان ، فى حين لم يكن بينهما من المشابهة التى ترى فى التوأمين ما يبرر ذلك الزعم .

فكانت تاخوط حسناء زرقاء العينين نحيفة الجسم رشيقة القوام ، أما نايتيتس فكانت على العكس من ذلك طويلة القامة ممتلئة الجسم سوداء الشعر والعينين تنبئ كل حركة من حركاتها عن دم ملكى .

قالت لاديس وهى تقبل وجنة نايتيتس « مالك ممتقعة اللون يا ابنتى ؟ طيبى نفساً وقرى عيناً وتلقى ما كتب لك فى المستقبل بملء الشجاعة والثبات . وها انى أقدم لك النبيل بردية أخا زوجك المنتظر . »

فرفعت نايتيتس عينيها السوداوين المتأملتين ونظرت الى الفتى الجميل نظرة طويلة متفحصة ، فانحنى مقبلا ثوبها وقد توردت وجنتاها خجلا ثم قال « أحييك ملكة وشقيقة ، وانى لأعتقد أن قلبك سوف يرتمض لفراق وطنك وأبويك وأخيك وأختك ، ولكن تشجعى فزوجك بطل بيّن البطولة وملك قوى السلطان ، وأمنا أنبل نساء الفرس . واعلمى أن الفرس يبجلون جمال المرأة وما تتحلى به من فضائل كما يبجلون أشعة الشمس التى نستمد منها الحياة . وأما أنت يا أخت نايتيتس ، ياوردة بجوار سوسنة ، فانى ألتمس عفوك لأننا سوف نسلبك أحب صديقاتك اليك . »

واذ قال ذلك نظر مليا الى عينى تاخوط الزرقاوين الجميلتين ، فانحنت قليلا وهى تضغط بيدها على قلبها « لعل على الجمال له عتـابا » وحدجته بنظرها طويلا بعد ما سار به أماسيس الى حيث أجلسه أمام الراقصات مباشرة ، وكن على وشك البدء فى الرقص فأبدعن كل الابداع فى رقصهن . ولم يكن عليهن من ملابس سوى قمصان رقيقة النسيج ، وجعلن ينثنين وينبسطن على أنغام العيدان والدفوف . ولما انتهى الرقص ظهر المغنون والمنشدون فغنوا أطيب الألحان ، وهكذا بالغ أماسيس فى اكرام ضيفانه .

وأخيراً غادر بعض رجال البلاط المكان وكانت الخمر قد لعبت برؤوسهم فسلبتهم بعض نهاهم . وعادت النساء الى دورهن محمولات فوق محفات تحملها العبيد

وحولهن المشاعل المنيرة . ولم يبق فى البهو سوى كبار القواد ، والوفد الفارسى و بعض رجال الحكومة ، وبعض أخصاء أماسيس . وجاء القهرمان فقادهم الى غرفة أخرى فاخرة زينت أبدع زينة ، حيث وضع على خوان مزين على النمط الاغريقى اناء كبير ملئ خمراً ، وهناك دعاهم للشراب .

وجلس أماسيس على كرسى عال فى صدر الخوان ، وعن يساره الأمير الفتى بردية ، وعن يمينه الشيخ كريسوس . و بعد هذين ومن معهم من الفرس جلس صاحبا نا ثيودوروس وابيكوس صديقا بوليقراط ، وأرسطوماكس قائد الحرس الاغريقى .

وأطلق أماسيس لنفسه عنان المزاح والنقد ، ولما يغب بعد عن الأذهان حديثه مع كريسوس وشكواه اليه ، فاذا به يعود مرة أخرى ذلك الضابط القديم المرح صاحب المجون والنكات

وكانت نكاته الماهرة طوراً هازلة ماجنة ، وطوراً ناقدة مقرعة ، وكان الضيفان يضحكون بصوت عال ، وربما كانوا يتضاحكون ، كلما نطق الملك بملحة من ملحه . وفى خلال ذلك كانت الكؤوس تترى يرشفونها . فلما أن بلغ القصف أشده وعبثت الراح بالرؤوس . دخل عليهم القهرمان حاملا موميا صغيرة مذهبة ورفعها على مرأى منهم وقال « اشربوا وامرحوا واطربوا فعما قليل ستكونون مثل هذه المومياء . »

فقال بردية مقطباً « أمن عاداتكم أن تذكروا الموت فى كل ولائمكم ، أم ان ذلك مزاح ارتآه قهرمانك لمثل يومنا هذا ؟ »

قال أماسيس « تلك عادتنا من قديم ان نجىء بأمثال هذه الموميا فى الولائم والأفراح ، لنزيد فى سرور المحتفلين بتذكيرهم بوجوب انتهاز فرص اللذات قبيل فواتها . ولا ريب فى أن لك أيها الشاب وقتاً طويلا للمرح واللهو ، اما نحن الشيوخ يا كريسوس فعلينا أن نكون وثابين على الفرص نُصيبها ونقتحمها ، ولكن كما قالوا : —

لا يستفيقون منها وهى راهنة   الابهات وان علّوا وان نهلوا

« فاملأ الكؤوس أيها الساقى فليس يصح أن تضيع علينا لحظة من حياتنا . ما أقدرك أيها الفارسي ذو الشعر الذهبي على معاقرة الشراب . حقاً لقد حبتك الآلهة عينين

فاتنتين وجمالا ساحراً وحلقوما بجيد الكرع . انى أعانقك أيها الفتى . وانت يا كريسوس ما رأيك فيه ؟ ان ابنتى تاخوط لا يفتأ لسانها يذكر هذا الفتى الأمرد الذى خلب ، على ما أرى ، لبها بنظراته الخلابة وحديثه العذب . خل عنك الخجل يا فتى فما أحرى بمثلك أن يتطلع لبنات الملوك . ولكنى لا أسمح لك بتاخوط ابنتى فتنزح معك الى فارس ولو كنت أنت أباك كورش نفسه . »

وهنا اعترض بسامتك أباه مسرعاً اليه قائلا « أبى ! خذ بعنان لسانك واذكر فانيس . »

فأدار أماسيس اليه رأسه وعبس فى وجهه ، ولكنه انتصح بنصحه ، وقلل من الحديث ، وكان الكلام قد انتقل الى الشئون العامة .

وكان أرسطوما كس جالساً مقابل كريسوس ، وقد بقى طول هذا الحديث والقصف صامتاً يطيل النظر الى كريسوس دون أن يضحك من نكات الملك . فلما أن سكت فرعون عن الكلام التفت أرسطوما كس الى كريسوس ووجه اليه فجأة هذا السؤال قال « وددت لو تكرمت باخبارى أيها السيد هل كان الثلج يغطى الجبال عند ما برحت فارس ؟ »

فابتسم كريسوس وأدهشه هذا السؤال الغريب ثم أجاب « كانت أكثر جبال فارس متشحة بالخضرة عندما بدأنا السير الى مصر منذ أربعة شهور ، ولكن هناك قننا ومرتفعات فى بلاد قمبيز لا يذوب الثلج عنها حتى فى أشد أيام الصيف قيظا . ولقد شاهدنا لمعان تلك القمم البيضاء يوم هبطنا الى السهول . »

وعندئذ تهلل وجه السبرطى وأشرق ، فسأله كريسوس عن اسمه وقد جذبه اليه جده ووقاره فقال « اسمى أرسطوما كس . »

قال « اخالنى أعرف هذا الاسم . »

قال « لقد عرفت كثيرين من الهيلينيين ، واسمى شائع بينهم . »

قال « يظهر لى من لهجتك أنك دوريانى ، وعلى ما أرى أنت سبرطى . »

قال « لقد كنته يوماً ما . »

قال « والآن لم تعد كذلك ؟ »

قال « ان من يهجر وطنه بدون اذن يكون جزاؤه الموت . »

قال « وهل هجرت وطنك من تلقاء نفسك ؟ »
قال « نعم . »
قال « ولأى سبب ؟ »
قال « تخلصا من العار . »
قال « وماذا جئت من الأمور ؟ »
قال « لم أرتكب فى حياتى اداً . »
قال « واذن اتهمت ظالماً ؟ »
قال « نعم . »
قال « ومن كان سبب مصابك هذا ؟ »
قال « انه أنت نفسك . »

فوثب كريسوس من مكانه اذ لم ير فى لهجة السبرطى وعبوس وجهه أثراً لمزاح ، وقد فزع الذين كانوا قريبين منهما متتبعين هذا الحديث الغريب ، واستوضحوا أرسطوماكس الأمر .

فتلكأ وبدا عليه أنه لا يريد كلاما ، لكنه حين أشار الملك اليه بالكلام قال « تعلم يا كريسوس أنك طوعا لوحى الآلهة قد اخترتنا نحن اللاسيدمونيين ، أقوى الهيلينيين ، لنكون لك حلفاء وأعوانا على الفرس ، وأعطيتنا ذهبا لاقامة تمثال آبولون فوق جبل ثورناكس . فأجمع مجلس اسبرطه أن يهديك طاسا كبيراً من النحاس بديع الصنع ، وانتخبت أنا لكى أجيئك بالهدية . ولكن قبل أن تصل بنا السفينة الى ساردیس أصابها نوء فغرقت وغرق معها الطاس ، ووصلنا ساموس ولم ننج بغير أنفسنا . ولما عدت الى اسبرطه اتهمنى الأعداء والحساد أنى بعت السفينة والطاس لأهل ساموس . ولما لم يستطيعوا أن يثبتوا التهمة ضدى وأرادوا فى الوقت نفسه هلاكى ، حكموا علىّ بالصلب يومين كاملين ، لابسا حنا كا ، (١) ربطوا فيه ساقى ليلا وشدوها بالسلاسل . ولكن قبل أن يتنفس صبح نهار عارى هذا جاءنى أخى سرا بسيف أنقذ به شرفى وان ضاعت فى سبيل ذلك حياتى . ولم يكن بوسعى

(١) خشبة يربط بها عنق المذنب .

بعد ذلك أن أموت دون أن أنتقم ممن كانوا سببا فى نكبتى ، ولذلك بترت قدم ساقى المقيـدة ، ثم فررت واختفيت بين الأسل وأشجار البردى القـائمة على ضفاف نهر اليوروتوس . وهنـاك كان يجيئنى أخى بالطعام والشراب سرا . و بعد مضى شهرين تمكنت من السير على قدم خشبية كما ترونى الآن . وتولى آبولون عنى بأخذ ثأرى ، وما كان آبولون ليخطئ المرمى ، فمات اثنان بالطاعون هما ألد أعدائى . ومع ذلك لم يؤذن لى بالعودة الى وطنى ، وأخيرا ركبت سفينة من جيثيوم لأحارب معك الفرس يا كريسوس . ولما رست بنـا السفينة فى تيوس سمعت بعزلك عن الملك ، وعلمت أن كورش أبا هذا الشاب الجميل قد غزا ليـديا القوية فى بضع أسابيع ، وجعل من أغنى ملوك الأرض صعلوكا حقيراً وفقيراً مسكينا . »

فأعجب الكل بأرسطوماكس ، وصافحه كريسوس ، وصرخ بردية قال « بودى أيها السبرطى لو أستطيع أن أذهب بك الى سوسا حتى يرى صحبى هناك أشجع رجل وأشرف بطل رأته عيناى . »

فقـال أرسطوماكس وهو يبتسم « صدقنى أيهـا الفتى ان كل سـبرطى يفعل ما فعلت ، ففى بلادنا يستلزم الجبن من الانسان بسالة أكثر ممـا تستلزمه الشجاعة . »

فقال دارا ابن عم ملك الفرس « وأنت يا بردية أكنت تحتمل لبس الحناك؟»

فاحمر وجه بردية ، على أنه كان من السهل ، بمجرد النظر الى وجهه ، ادراك أنه هو أيضاً كان يفضل الموت على العار .

وسأل دارا ثالث الشبان الفارسيين « وما قولك أنت يازو بيروس ؟ »

فأجاب وهو ممسك بيدى صديقيه من أسفل الخوان « بل انى لهون علىّ تقطيع جسمى اربا اربا فداءاً لكما أنتما الاثنين . »

وجلس بسامتك يرقب ما يجرى وهو يبتسم ابتسامة التهكم — محولا نظره من أماسيس ، الى كريسوس وجيجز ، الى نظرات المصريين ذات المعـانى ، الى أرسطوماكس وهو ينظر بعين الرضا الى الأبطال الفتيان .

وعند ذلك حدثهم أبيكوس بوحى الآلهة وبالنبوءة التى وعد فيهـا أرسطوماكس

بالعودة الى بلاده عند قدوم قوم من الجبال الثلجية . وذكر أثنـاء الحديث منزل رودو بيس وما يلقاه رواده من الـكرم وحسن الضيافة .

وعند ما سمع بسامتك اسم رودو بيس تولاه القلق والاضطراب ، وأبدى كريسوس رغبته فى التعرف بهذه السيدة الطراقية التى تمدح ايزوب بها و بمحاسنها . و بينما الحضور ينصرفون ، وكان منهم كثيرون أسرفوا فى الشراب حتى فقدوا الحس ، اتفق كل من الملك المخلوع والشاعر والمثال والبطل السبرطى على الذهاب فى اليوم التـالى الى نقراتس ، كى يزوروا رودو بيس و يستمتعوا بحديثها .

الفصل السادس

بين أب وابنه

لم ينم أماسيس فى تلك الليلة عقب انتهاء الوليمة التى جئنا على وصفها الا ثلاث ساعات ، اذ أيقظه الكهنة الأحداث عند صياح الديك كما هى العادة كل صباح ، وذهبوا به الى الحمام ثم ألبسوه الحلة الملكية و بعدئذ أخذوه الى المذبح فى القصر حيث صلى للآلهة أمام الشعب . وكان الكهنة خلال ذلك يرتلون صلواتهم و ينشدون أدعيتهم بصوت عال ، معددين فضائل مليكهم وحسناته ، ذاكرين أنه برىء من كل خطيئة وأن مستشاريه من أهل السوء هم المسئولون عن كل ما يرتكب من سوءات لا علم له بها .

ثم أوصوه بفعل الخير وهم يذكرون فضائله ، و بعد ذلك قرأوا بصوت عال جزءاً كبيراً من كتبهم المقدسة التى تتضمن أقوال عظماء الناس وفعالهم ، و بعد ذلك ساروا به الى مجلسه حيث كانت الرسائل والأنباء قد جاءته من جميع أنحاء المملكة .

وكان من عادة أماسيس المواظبة بكل أمانة على هذه الحفلات المتكررة وعلى ساعات عمله . أما بقية اليوم فكان يقضيه كما يريد ، وفى العادة فى مجتمعات الأنس والسمر .

ولطالما أنبه الكهنة على ذلك قائلين ان مثل هذه الحياة لا تلائم جلال الملك ، وفى ذات يوم أجاب أماسيس على كلام الكاهن الأعظم ، وكان قد عاب عليه هذا السلوك ، قال « أنظر الى ذلك القوس ، فان أنت داومت ثنيه فقد قوته ، ولكنك اذا استعملته نصف يوم ثم تركته النصف الثانى كى يستريح بقى قوياً ونافعاً حتى تتقطع سيوره . »

وما كاد أماسيس يمهر بامضائه آخر كتاب يصرح به لأحد مديرى المديريات بالمال اللازم لعمل سدود وأفاريز على شاطئ النهر استلزمها فيضان النيل الأخير ، حتى أعلن الحاجب له رغبة ولى عهده بسامتك فى الاجتماع به بضع دقائق .

وكان أماسيس حتى هذه اللحظة باسما منشرح الصدر بعد قراءة تلك التقارير السارة الواردة اليه من جميع أنحاء البلاد ، فلما أعلنه الحاجب برغبـة ولى العهد فى طلب الاذن بالدخول تقطب جبينه فجأة ، وظهر عليه الجد والتفكير ، ثم قال بعد صمت طويل « اذهب وأبلغ الأمير أننا أذنا له بالمثول لدينا . »

فدخل بساماتك مصفر الوجه عابسه كعادته ، وانحنى الى الأرض أمام أبيـه محيياً مسلماً .

فهز أماسيس رأسه رداً على تحيته ثم سأله مقطباً محتداً « ماذا تروم منى فوقتى قصير محدود ؟ . »

فقال الأمير وشفتاه ترجفان « قصير ومحدود ولا سيما لابنك لا للغير . لقـد توسلت اليك سبع مرات قضاء ذلك السؤال الذى سمحت به اليوم الىَّ أول مره . »

قال « لا لوم ولا عتاب ، وانى لأعلم الباعث على مجيئك . ألست تريد منى أن أزيل ارتيابك بشأن مولد أختك نايتيتس ؟ . »

قال « ما لهذا جئت ، وانما جئت لتحذيرك وتذكيرك بأنى لست وحدى الذى يعلم بهذا السر . »

قال « تريد فانيس ، أليس كذلك ؟ . »

قال « ومن سواه أعنى بكلامى ؟ انه منفى من مصر ومن وطنه ، وسيغادر نقراتس بعد أيام قليلة ، فما هو الضمان الذى بيديك على أنه لا يفشى هذا السر للفرس . »

قال « الصداقة والعطف اللذين حبوتهما اياه . »

قال « وهل تعتقد فى وفاء الناس وذكرهم للمعروف ؟ . »

قال « كلا بل أعتمد على القوة التى لى فى تمييز أخلاقهم . ففانيس لن يخوننـا أبداً ، وأعيد على مسمعك أنه صديقى . »

قال « قد يكون صديقاً لك ولكنه عدوى الألد . »

قال « اذن فكن أنت منه على حذر ، أما أنا فليس لى ما أخشاه منه . »

قال « قد لا يكون منـه ما تخشاه عليك أنت ، ولكن قد يكون منه ما نخشى على الوطن . أبت أذكر أنى وان لم أكن مكروها منك ، رغم أنى انحـدرت من

صلبك ومن بين ترائبك ، فانى لأجل مصر ومستقبلها يجب أن أكون قريبا من قلبك . أبت أذكر أنى بعدك سأكون رب هذه البلاد ورمز مجدها وعظمتها كما أنت الآن ، وأن فى سقوطى سقوط لأسرتنا وبيتنا : بل وهلاك لمصر . »

وعندئذ زاد جد أماسيس وعبوسه فمضى بسامتك فى قوله محتداً متحمساً « انك لتعلم أننى محق فى دعواى ، وتعلم أن فانيس يخون وطننا لأى عدو أجنبى ، وهو يعلم من أمرها ووقائعها ما نعلمه ، وعدا هذا فهو واقف على سر ، ذيوعه يجعل من حليفنا القوى عدواً مشتد الشوكة مجتمع المكيدة مستحكم الشكيمة . »

قال « لست فى هذا مصيباً ، فنايتيتس وان لم تكن ابنتى فهى ابنة ملك ، وسوف تعرف كيف تستولى على فؤاد زوجها . »

قال « انها ان تكن ابنة اله من الآلهة فما هى بمستطيعة انقاذك من غضب قمبيز متى علم بخبىء الامر ، فالكذب أكبر الجرائم عند الفرس ، وأما الانخداع فمنقصة ما بعدها منقصة وعار للمخدوع لا يمحى . وها أنت تخدع أكبر رأس فى أمتهم ، وتضلله وتماحله ، فما الذى تستطيعه فتاة لم تحنكها التجارب ازاء ذلك وازاء مئات من النسوة حذقن فى فن الدسائس والفتن تحاول كل منهن ، بكل ما وسعت من حيلة ، استرضاء مولاها . ؟ »

فقال أماسيس بلهجة باتة « ان للبغضاء والأخذ بالثأر القدح المعلى فى صنعة البيان والشعر ، فهل تظن أيها الأحمق أنى أقدم على هذه اللعبة الخطرة من غير تفكير وروية ؟ فليخبر فانيس الفرس بما يشاء وليحدثهم بكل ما يريد فلن يمكنه أبداً أن يقيم الحجة على ما يقول . فأنا أبو نايتيتس ، ولاديس أمها ، وكلانا خير من يحدث عنها وعن نسبها وعما اذا كانت ابنتنا أم لم تكن . اننا نقول بهذا فمن هو ذلك الذى يستطيع أن يكذبنا فيقول بعكسه ؟ ولئن سر فانيس أن يخوننا لغير الفرس من أعدائنا فليفعل ، لست أخشى شيئاً . انك انما تريدنى على أن أقتل رجلا كان لى صديقاً صدوقاً ؟ وله علىّ فضل لا أنساه فقد خدمنى طويلا بصدق وأمانة دون أن تبدو منه أى اساءة . ألا فاعلم اننى سأدرأ عنه انتقامك الذى تريد انزاله به لأسباب سافلة أعرفها كل المعرفة . »

قال « عفوك يا أبي ! »

قال « انك تروم الايقاع بذلك الرجل لأنه حال دون اغتصابك حفيدة رودو بيس ، ولأني وجدتك غير أهل للقيادة فأسلمته قيادة الجند مكانك . أراك تمتقع . حقاً انني لشاكر لفانيس اطلاعه اياي على نواياك السيئة ، و بذلك مكنني من أن أجمع حول عرشي صحبي ومن عليهم أعتمد و بهم أعتضد ، ومن اليهم رودو بيس أوفى الأوفياء وأخلص الصحب والأصدقاء . »

قال « أ كذا تتكلم يا أبت عن هؤلاء الأجانب ، وتنسى مجد مصر القديم ؟ احتقرني ما شئت ، فانى أعلم أنك تمقتني ؟ وانما لا تقل اننا في حاجة الى الغرباء لكي نبلغ بهم مبلغ العظماء . أنظر الى تاريخنا الماضي ! ألم نكن أعظم الأمم حينما أغلقنا أبواب أرضنا في وجوه الأجانب ، وحينما اعتمدنا على أنفسنا وعلى قوتنا ، وعشنا بموجب نواميس أسلافنا الأقدمين ونظمهم وشرائع آلهتنا ؟ ألم يأتك نبأ رمسيس وما فتح من بلاد وما بسط من سلطان ، فكانت مصر في عهده سيدة الممالك وأم البلدان ؟ والآن ما نحن ؟ الملك نفسه يقول عن متسولة الأجانب وصعاليكهم انهم دعائم ملكه ، و يتخذ من المكائد والحيل أدناها لكي يحتفظ بصداقة قوم كانوا لنا عبيداً وكنا لهم سادة قبل أن يسري الى النيل وباء هؤلاء الأجانب . لقد كانت مصر اذ ذاك ملكة قادرة في أبهى حلة وأفخم زينة ، فأصبحت اليوم امرأة مبتذلة مخضوبة الوجه ، يخدع الأبصار ما على وجهها من طلاء كاذب وزينة مدعاة . »

فخبط أماسيس الأرض بقدمه وقال « حذار مما تقول ، فمصر لم تكن قط رفيعة الشأن زاهية مزهرة كما هي اليوم . فرمسيس جر رجالنا الى بلدان بعيدة ولم يربح سوى الدماء . أما في أيامي فقد سهلت بحكمي تصدير حاصلاتنا ومصنوعاتنا الى أقصى العالم لترجع الينا بالخير والثراء بدل ما يراق من دماء . ان رمسيس ، بما أجرى من دماء شعبه وما بذل من جهودهم ، لم يكن الا ساعياً لكسب الشهرة لنفسه فقط . أما أنا فقد حقنت الدماء فلم يهرق منها الا قليل ، ولم تسل قطرة عرق من جبين مصري في غير الأعمال النافعة المفيدة ، وأصبح اليوم كل مصري قادراً على كسب قوته آمناً مطمئناً . وعلى جانبي النيل تقوم اليوم عشرة آلاف بلدة آهلة بالسكان ، ولست ترى

اليوم فى أرض مصر دانقاً واحداً لم يفلح و يزرع ، بل انك لا ترى طفلا واحداً غير مستمتع بحماية القانون والعدل فأصبح أهل الشر يخشون عين ولاة الأمور الساهرة .

« أما عن الذود عن بلادنا ورد عادية المعتدين ، أليس لنا جيش هو خير من حمل السلاح وذاد عن تلك الحصون التى منحتنا الآلهة اياها وعن شلالاتنا وعن بحرنا وصحارانا ، وليس لدينا من الجنود الهيلينية سوى ثلاثين ألفا هم كل من هناك بجانب جيشنا المصرى . تلك هى حال مصر اليوم وهذه هى أيام حكمى . أما رمسيس فلم يشتر هذه الشهرة الجوفاء الا بدماء شعبه ودموعهم . ولا يدين شعب مصر اليوم ، فى عصرهم الذهبى الحالى ، عصر الرخاء والأمن ، لغيرى أنا ولأسلافى من الملوك الصاويين[1] . »

قال الأمير بسامتيك « ومع كل ذلك لا زلت أقول لك ان هناك دودة تنخر فى جذر عظمة مصر ومجدها ، بل وتقضم حياتها . فان هذا الكفاح فى سبيل المال والأبهة قد أفسد على الناس قلوبهم وعقولهم ، وهذا الترف الأجنبى قد لطم أخلاق مواطنينا وقوميتهم لطمة شديدة ، وكم من مصرى الآن جعلته تعاليم الاغريق يزدرى آلهة آبائه الأولين . وما يمضى يوم الا وتجىء فيه الأخبار بوقوع عراك دموى بين مرتزقة الاغريق و بين الجنود المصرية ، أى بين أهلينا و بين الأجانب . فالراعى والرعية فى خلاف ، ودولاب الحكومة يتآكل ، ومن ثم فالحكومة آيل أمرها الى الخراب والبوار . انى فى هذه المرة ، وفى هذه المرة فقط ، أريد يا أبتى أن أطلعك على كل ما ثقلت وطأته على قلبى . انك ، وقد شغلت نفسك فى المشادة مع الكهنة ، لترى كيف أن فارس الفتاة فى الشرق تلتهم كل الأمم التى فى طريقها الينا كما تلتهم الوحوش الضارية فريساتها فيتضخم جسمها يوما عن يوم . ولم تساعد الليذين كما وعدت ، ولم تنصرهم على عدوهم كما قصدت ، بل عاونت الاغريق على بناء معابد لآلهتهم الكاذبة . ولقد بدا لك أخيراً أن مقاومة الفرس ضرب من المحال ، فان نصف العالم بأجمعه ، بملوكه وأمرائه ، قد ارتمى رمية الذلة عند قدمى فارس . ولكن الآلهة حتى الساعة قد هيأت لمصر فرصة للخلاص ، فأوحت الى قمبيز أن

(١) نسبة الى صا أو سايس .

يطلب ابنتك زوجة له . فضعف قلبك وخانك جلدك ولم تستطع أن تقدم له ابنتك التي هي من دمك ولحمك وتضحيها في سبيل خير المجموع ، واستبدلتها بأخرى لم تكن من صلبك وقدمتها لذلك الملك القادر . ثم في الوقت نفسه تدفعك رقة قلبك الى الابقاء على حياة غريب يمسك بيده حظ هذه البلاد ومستقبلها ، ان أراد اهلاكها ، وهو لا بد مريد ذلك ، أهلكها . هذا اذا لم يصبها الهلاك والخراب سريعاً من فتنة تستعر في داخليتها . فانتبه يا أبت لنفسك ولأهلك وللأمة . »

فظل أماسيس مصغياً لهذا السباب ينهال على صحبه وهو ساكت مصفر الوجه يرجف من الغيظ ، فما جاء بسامتك على هذا الكلام حتى صاح به بصوت كالرعد اهتزت له جوانب الغرفة وقال « ألست تعلم يا ابن الكبرياء ووليد الانتقام ونتاج الشر والشقاء ، من سيكون على يديه دمار هذه المملكة القديمة المجيدة ؟ ألست تدري من هو ذلك الذي يجب أن تضحى حياته ، ان لم يكن أبنائي بل والأسرة التي أسستها أعز لديّ من كل هذا الملك الوفير ؟ انه أنت أنت ، يا بسامتك . أنت يا من لعنته الآلهة وخافته الناس ، ومن لا يعرف قلبه المحبة والولاء ، ومن ثغره لا يرى قط باسما ، ومن نفسه لا تعرف الحنو والرفق بالآخرين : على أنه لم يكن بسبب خطيئة ارتكبتها أن منحتك الآلهة طبيعة شقية غير مباركة ، وأن خيبت لك كل مسعى . فاسمع الآن ما أنا مضطر لقوله لك وما طالما أخفيته عنك . انني بعد أن خلعت سلفي الملك حفرع عن الملك أرغمته على أن يزوجني من أخته تنتخيتا : فتزوجتها وأحبتني وبعد سنة من زواجي بها حبلت بك وقبل أن جاءها المخاض بليلة رأيت في حلمي ، وأنا نائم بجوارها ، كأنها نائمة على شاطئ النيل وأنها تشكو من ألم في صدرها ، فانحنيت فوقها فاذا بي أرى شجرة سرو خارجة من قلبها . ثم صارت تلك الشجرة تنمو وتكبر وتسود وتنتشر ، وبعد ذلك التفت جذورها حول أمك وخنقتها خنقا . فتولتني اذ ذاك رعشة ، واذ أنا على وشك الفرار من هذه البقعة اذا بريح صرصر تهب من الشرق ، فاقتلعت الشجرة وبددت فروعها في النيل ، فانقطع جريان الماء ثم بعدئذ تجمد واستحال النهر الى موميا انطرحت أمامي ، وتحولت كل المدن التي على ضفتي النيل الى قوارير جنازة ضخمة أحاطت بجثة النيل كأنها

فى قبر . وعند ذلك صحوت من نومى ودعوت السحرة ومن لهم معرفة بتفسير الأحلام فلم يستطع أحد تأويله ، وأخيراً فسر كهنة آمون الحلم بأن تنتخيتاستموت اذ تلد ولداً وان شجرة السرو التى قتلت أم الغلام ما هى الا أنت أيها الشقى التعس ، وقالوا ان فى أيام حكمك ستغشى مصر أمة من الشرق تجعل من النيل ، أى المصريين ، جثثاً هامدة ، ومن مدنهم قاعاً صفصفاً وأكواماً خربة ، وتلك هى قوارير الموتى التى ذكرتها لك . »

وأصغى بسامتك الى حديث أبيه وهو صعق وكأنما استحال حجراً ، وتابع أبوه القول قال « وماتت أمك بعد أن ولدتك ، ونبت على جبينك شعر أحمر هو سمة أبناء تيفون اله الشر ، وصرت بعدئذ عابس الوجه ينقبض الصدر لمرآك . واكتنفك سوء الحظ فحرمك زوجة تحبها و بنين أربع . ولقد قال العرافون انى على الرغم من أنى سعيد المولد محوطاً برعاية آمون فان ولادتك حدثت ساعة ظهور النجم سب (زحل) وهو نجم النحس . انك . . . »

وهنا سكت أماسيس لأنه رأى بسامتك قد ناء من هول ما سمع من هذه المخبآت المفزعة فسقط على الأرض وقد نحب ونشج صارخاً « كفاك أيها الأب القاسى ، وأمسك لسانك فلا ينطق على الأقل بتلك الكلمات المرة معلناً أنى أنا الابن الوحيد فى مصر الذى يبغضه أبوه من غير ما جرم أو سبب . »

فألقى أماسيس نظرة على ذلك التعس المنكود الحظ الملقى على الأرض أمامه ووجهه مخفى فى طيات ثوبه ، فاستحال غضب الأب رحمة وشفقة . وجرى به الفكر الى أم بسامتك ، وقد مضى على وفاتها أربعون عاماً ، وأحس من نفسه القسوة فى جرح قلب ولده هذا الجرح القاتل . وكانت تلك هى المرة الأولى ، بعد هذه السنين الطويلة ، التى استطاع فيها أن يشعر ازاء هذا الرجل الجاف الغريب الطبع أنه أب ومواسى . رأى الدموع لأول مرة أيضاً تجول فى عينيه الجامدتين ، وأحس بما قد يكون من لذة فى أن يكفكف هذه الدموع . فانتهز فى الحال الفرصة المائلة وانحنى على ابنه الباكى ، وقبله فى جبهته ، ثم أنهضه وقال له فى لطف ووداعة « سامحنى يا بنىّ ولا تأخذ علىّ غضبى ، وما كانت الكلمات الجارحة التى أحزنتك بخارجة من قلبى وانما نطق بها

لسانى فى ساعة غضب . ولقد مضت سنون عدة وأنت تغاضبنى وتقصينى عنك ببرودك وجمودك وعنادك . ثم جئتنى اليوم فجرحتنى من جديد فى أبلغ مشاعرى وأرقها وأقدسها ، فأهجت منى الغضب ودفعتنى الى هذا القول الشديد . ولكن قد انتهى كل شىء الآن وانقضى ، ولنعد بعد الى الصلح والرضى . ان طبيعتينا متضادتان بحيث يتعذر أن تتوحد مشاعرنا الدقيقة الداخلية ، الا أننا على الأقل نستطيع أن نتعاون ونتعاضد للمستقبل ، وأن يحتمل كل منا الآخر وان أثقله ذرعه وأبطره . »

فانحنى بسامتك فى صمت وقبل ثوب أبيه فصاح به أبوه « ليس هكذا ، بل قبل فمى ولتستقبل شفتاى قبلتك رباطاً متيناً بين أب وابنه . وما بك من حاجة بعد لتفكر فى ذلك الحلم السىء الذى أخبرتك به ، فلا يزعجنك أمره فما الأحلام والرؤى الا خيالات وأوهام ، وهى على فرض أنها من لدن الآلهة فما مفسروها الا بشر مثلنا يخطئون . أرى يدك لاتزال ترجف ، وخديك يحاكيان فى لونهما بياض ثوبك . لقد كنت عليك ثقيل الوطأة أقسى من أب . . . »

فاعترضه قال « بل أقسى من غريب على غريب . انك هصرتنى وسحقت قلبى ، وان وجهى الذى لم يشرق قط بأشعة الابتسام سيكون منذ اليوم فصاعداً مرآة شقاوتى وتعسى . »

قال ممسكا بكتف ابنه « لا تقل ذلك ، ولئن كنت أجرح فانى قادر على مداواة الجروح . فتمن علىّ أحب الأشياء الى قلبك أجبك اليها على الفور . »

فأبرقت أسارير بسامتك واحمر خداه لحظة وأجاب على الفور دون تمعن وتبصر « أريد فانيس عدوى الألد ، أسامنيه ليكون تحت سلطانى . »

فأطرق الملك قليلا وهو يفكر تفكيراً عميقاً وقال : « عرفت الآن ما تسألنيه وسأمنحك ما تريد ، وكنت أود أن تطلب الىّ بدل ذلك نصف ملكى . ان ألف هاتف تهتف بى تحذرنى أنى مقدم على أمر جلل معيب مهلك — من ورائه هلاكى وهلاكك وهلاك الأمة وضياع الملك منا ومن أسرتنا . فحذار يا بنى ، واعمل الفكر قبل الشروع فى العمل ، واذكر أنه مهما كان لك أن تعمل ازاء فانيس فلست أسمح لك ابدا أن تمس شعرة واحدة من رأس رودوبيس . وأحرص

أن يبقى أمر ما تريده بصديقى المسكين فانيس سراً لا يعلم به الاغريق . فأين لى بمثله قائدا وناصحا وصديقا ؟ انه لم يقع بعد فى حبالتك ، ونصيحتى اليك أن تذكر أنه ان خيل اليك أنك من دهاة المصريين فهو من دهاة الاغريق . وانى مذكرك أيضا بيمينك المحرجة التى أقسمت لى لكى تترك حفيدة رودوبيس وشأنها ، وأن لا تهتم بها . وانى اخال أن الانتقام أشهى اليك من المحبة والوئام ، وآمل أن تكون الترضية التى أقدمها لك الآن كافية مقبولة . أما عن مصر فانى أعيد عليك القول انها لم تكن قط فيما مضى مزهرة عامرة كما هى الآن . وتلك حقيقة لا يقوى على نقضها انسان الا الكهنة ومن يستمع لآرائهم . ثم أصغ الىّ بعدئذ أحدثك ، ان رغبت ، بأصل نايتيتيس وسيرة مولدها ، واعلم أن من صالحك أن يبقى ما أفضى به اليك سرا مكتوما . »

فاصغى بسامتك شغفا الى ما قصه عليه أبوه ، وضغط على يده عند تمام حديثه شاكرا ممتنا .

وبعدئذ قال أماسيس « أستودعك الآن فاذهب ولا تنس كلماتى ، وعدا هذا لا تهدر دما . واعلم أنى لا أريد أن أكون من ولدى على وغر فى الصدر مكنون . أراك الآن جذلا مسرورا فوا لهف قلبى عليك أيها الأثينى المسكين ! كان خيراً لك أن لا تطأ قدماك أرض مصر أبد الدهر . »

وخرج بسامتك من لدن أبيه الملك . وبقى هذا فترة يتمشى متحيرا شارد الفكر . أحزنه خضوعه لولده ، وخيل له أنه يرى فانيس مضرجا بدمائه قتيلاً بجوار حفرع الملك المخاوع . ولكى يبرر صنيعه جعل يقول فى نفسه « قد يمكن أن يكون فانيس علة خرابنا . » ثم رفع رأسه بعد طول اطراق ودعا خدمه وغادر الحجرة باسم المحيا .

فهل سكن يا ترى بال ذلك الرجل الحاد المزاج السعيد الجد بهذه السرعة ، هدأ من ثائرة تلك الهواتف الداخلية التى أنذرته بالويل والثبور وعظائم الأمور ، أم كان من القوة بحيث امكنه أن يخفى آلامه بابتسامة ؟

الفصل السابع

سايس Sais

ذهب بسامتك من عند أبيه تواً الى هيكل المعبودة نيث ، وعند مدخله سأل عن الكاهن الأعظم فسأله أحد الكهنة الصغار أن ينتظر اذ أن رئيسهم نيتحوتب كان فى هذه اللحظة يصلى فى قدس الأقداس للمعبودة العظيمة ملكة السماء . و بعد قليل جاءه أحد الكهنة الأحداث وأخبره أن رئيسه بانتظار الأمير.

وكان بسامتك قد جلس متفيئا ظلال الأيكة المقدسة ذات أشجار الحور الفضية التى تحد شواطئ البحيرة المقدسة ، الخاصة بالمعبودة العظيمة نيث . فنهض على الفور وعبر فناء المعبد المرصوف بالحجارة والأسفلت المتساقطة عليه أشعة الشمس كالسهام اللامعة ، ثم انعطف فى ممشى طويل أقيمت على جانبيه تماثيل أبى الهول ، يؤدى الى أبواب عدة منعزلة بنيث أمام الهيكل الكبير : ومر عندئذ خلال الباب الأكبر ، وكان مزينا كبقية أبواب المعابد المصرية بقرص الشمس المجنح . وعلى جانبى الباب قباب ومسلات رفيعة وأعلام تخفق . أما مقدم الهيكل فقائم على سطح الأرض على شكل زاوية منفرجة ، ويكاد يحكى القلاع فى الشكل ، وعليه صور ونقوش ذات ألوان وكتابات . فمر بسامتك من رواق الى ممشى الى البهو الكبير نفسه ، وكان سقفه مزينا بألوف النجوم الذهبية وقائما على أربعة صفوف من عمد مرتفعة شاهقة نحتت رؤوسها على صورة زهر اللوتس . وكانت هذه الرؤوس والعمد نفسها وجدران البهو وكل كوة وركن مغطاة كلها بنقوش هيروغليفية جميلة ذات ألوان زاهية . أما العمد فكما قلنا شاهقة الارتفاع ترد الطرف حاسرا وهو كليل ، وأما هواء هذا الهيكل فكان عبقا بعبير الجاوى « كيفى Kyphi » والبخور والعطور التى كانت تتصاعد من المعمل المتصل بالهيكل . وكانت دقات الموسيقى مستمرة يسمعها المصلون ولا يرون العازفين ، ولم يكن يقطعها سوى خوار أبقار ايزيس أو صياح صقر هوراس ، حيث كانت هذه الحيوانات مقيمة فى احدى الحجرات المجاورة . وكان

المصلون يركعون حتى تلامس الأرض جباههم ، اذا ما سمعوا خوار الأبقار الشبيه بالرعد أو صياح الصقر الذى كان يتمشى فى أعصاب المصلين كأنه برق خاطف . وانتحى الكهنة جانباً مرتفعاً فى المعبد وكان يرى على رؤوسهم الصلعاء ريش من ريش النعام ، وكان يضع البعض منهم على أكتافهم جاود النمر فوق قمصانهم البيضاء ، والكل بين لاغطين ومنشدين ينحنون تارة ويستقيمون أخرى ، يهزون بأيديهم مباخر معلقة فيها ويصبون الماء النقى للمعبودة من أوانى من ذهب .

وكان يخيل للواقف داخل هذا الهيكل أنه قزم صغير ، يشغل حواسه كلها ، بل ويحبس عليه أنفاسه ، ما يراه فيه من أشياء منبوذة لا يحتاج لمثلها فى حياته ، تثير فى الصدر الاكتئاب وتهز الأعصاب هزاً . ويخيل اليه أيضاً أنه اقتطع من كل ما هو عادى له ، ويتراءى له أن برأسه دوارا فيبحث عما يعتضد به خوف الوقوع . هذا الى أن أصوات الكهنة وصيحات الحيوانات المقدسة كانت تلقى فى نفسه الروع بأنه فى حضرة اله من آلهتهم .

وجلس بسامتك جلسة العابد الناسك على وسادة منخفضة مطرزة بالديباج والذهب خصصت له ، ولكنه لم يكن قادراً على تأدية أى أنواع العبادات ، فسار الى الحجرة المجاورة حيث الأبقار المقدسة لايزيس ونيث وحيث صقور هوراس . وكانت هذه الحيوانات محجوبة عن المصلين بستار من أحسن الأنسجة الموشاة بالذهب ولم يكن مسموحاً للناس بالاقتراب من هذه المعبودات ، وما كانوا يرونها الا نادراً وفى أوقات خاصة . وعند ما مر بسامتك بها كان خدامها يقدمون لها الفطير المنقوع فى اللبن . أما البرسيم وهو طعام الأبقار فكان موضوعاً فى مزاود من ذهب . وأما الصقر فكان يقدم له فى قفصه الأنيق العصافير والطيور الصغيرة ذات الريش المختلفة ألوانه . على أن ولى العهد وقتئذ لم تكن له عينان لتبصرا شيئاً مما حولها من تلك الغرائب والأعاجيب ، ولكنه صعد على سلم خفى ، الى الحجرات الملاصقة للمرصد ، حيث اعتاد الكاهن الأعظم أن يقضى فيها فترة الراحة بعد الانتهاء من العبادة .

وخص نيتحوتب بشقة فاخرة فى الهيكل وكان يومئذ قد أربى على السبعين .

وكانت حجراته مفروشة بالزرابى الثمينة البابلية ، وكان كرسيه من ذهب خالص موسد بالأرجوان . وعند قدميه مجثى منحوت دقيق الصنع ، و بيديه ملف من ورق ملئ بالنقوش الهيروغليفية ، ووقف وراءه غلام ممسكا مروحة من ريش النعام يطرد بها الذباب والبعوض .

وكان وجه نيتحوتب يومئذ ظاهر التجعد عميقه ، ولكنه ينبئ عن جمال فى أيام شبابه . أما عيناه الزرقاوان فكان ينبعث منهما نور الذكاء وحدة الذهن ، وتظهر فيهما عزة النفس والأنفة .

وكان شعره المستعار بجانبه فظهر رأسه الأصلع الاملس ، وما كان أشده ملاءمة لذلك الوجه المخطط ، و بدت جبهته عالية لا تشبه فى شيء جباه المصريين المنخفضة. وأما الجدر الزاهية الألوان وما كتب عليها من النقوش الهيروغليفية ، وتلك النصب المقامة للمعبودة المختلفة الزاهية الألوان أيضاً ، وتلك الحلل البيضاء التى كانت تكسو ذلك الكاهن المسن — كل ذلك كان يدعو الى العجب بل و يلقى فى النفس هيبة وروعة .

واستقبل ذلك الكاهن الشيخ الأمير بمزيد السرور وسأله قائلا « ترى ما الذى جاء بالنابه من بنىّ الى خادم الآلهة الحقير ؟ »

قال وهو يبتسم ابتسامة الظافر « لدىّ الكثير أريد أنباءك به يا أبت فانى قادم تواً من عند أماسيس . »

قال « أراه اذن قد سمح لك أخيراً بمقابلته ؟ »

قال « نعم أخيراً . »

قال « أطالع فى وجهك أن أباك الملك قد أكرم وفادتك ؟ »

قال « بلى وانما بعد ما أمطرنى بوابل غضبه ، فانى عند ما التمست الامر الذى كلفتنى به تملكه الغضب الشديد ، وكاد يصعقنى بقارس قوله وشديده . »

قال « لا بد أنك أسأته اذن بلهجتك فأهجت غضبه ، فهل اتبعت نصيحتى ودنوت منه بملء الخضوع ، شأن الابن ازاء أبيه ؟ »

قال « كلا يا أبت بل كنت ثائراً حانقاً . »

« اذن كان أماسيس محقا فى غضبه ، فلا يجوز قط لابن أن يقابل أباه وهو على

هذه الصورة وعلى الأخص حين يطلب الى أبيه أمراً . وأنك لتعلم القول المأثور : من يكرم أباه تطل أيامه ، لطالما تخطئ يابني من هذه الوجهة . ولطالما قلت لك انك تسلك سبيل الغلظة والخشنة لتحصل على ما تريد ، في حين أن كلمة طيبة هادئة أنفع بكثير . ولا تنس أن للكلمة الطيبة أثراً لا يعدله أثر الكلمة الشديدة ، وكثيراً ما تتوقف الامور على الطريقة التي يضبط الانسان بها كلامه . أصغ الى ما سأحدثك به : كان يوجد في الأزمنة الغابرة ملك اسمه صنفرو ، وكانت قاعدة ملكه منف . وحدث أنه رأى في نومه ليلة أن أسنانه سقطت من فمه . فأرسل الى مفسرى الأحلام والعرافين يستوضحهم رؤياه ، فقال أولهم : الويل لك أيها الملك فان قومك ورعاياك يموتون قبلك ، فغضب صنفرو وأمر بعقابه . ثم أرسل في طلب آخر فقال له : أيها الملك عش أبداً ستكون أطول بني قومك وعشيرتك عمرا . فابتسم الملك لذلك وسر به وأمر له بالعطايا . ان التفسيرين واحد الا أن الأخير عرف كيف يحوط تفسيره بشبكة من الكلمات الحلوة الجميلة . أفهمت الآن ما أريد ؟ فاستمع اذن لنصحي ، واياك ومر القول ، واذكر أن أساوب الكلام لآذان الملوك أوقع مما تحتويه العبارة . »

قال « انك كثيرا يا أبي ما كنت تنصحني هذا النصح ، وكم اقتنعت بسوء النتائج التي تترتب على كلماتي الخشنة وحركاتي المغضبة ، ولكني لا أستطيع تغيير طبيعتي ، نعم لا أستطيع . . . »

قال مقاطعا « بل قل اني لا أريد . فان من يكون بالحقيقة رجلا لا يجرؤ على ارتكاب ذنوب ندم مرة على ارتكابها . وحسبك الآن ما نصحتك ، فقل لي كيف استطعت تهدئة غضب أبيك . »

قال « انك تعرف طبيعة أبي ، فانه لما رأى أنه جرحني بكلماته الشديدة ندم وأخذ على نفسه هذا الغضب . ولقد شعر هذه المرة أنه كان قاسيا عليّ جدا فرغب أن يصلح ما بيني وبينه مهما كلفه ذلك . »

« قال ان له قلبا شفيقا رقيقا ، ولكن عقله مغلق ومشاعره ، على ما أرى ، أسيرة. على أن كل ما لم يستطع أماسيس أداءه لمصر بمفرده يستطيعه ان هو عمل بمشورتنا

واستمع لما تأمر به الآلهة . »

قال « ولكن أتدرى ما الذى سمح لى به وقد لعبت به العواطف أى ملعب ؟ انه سمح لى بحياة فانيس . »

قال « أرى عينيك يا بسامتك تبرقان سرورا ، ولا أكتمك أننى لست ممن يسرون لهـذا . لقد حق على الأثينى الموت لأنه أهان الآلهة ، ولكنه اذا وجب على كل قاض فى منصة الحكم أن يترك العدل يأخذ مجراه ، فانه يجب عليه أن لا يسر لموت المحكوم عليه . بل عليه أن يحزن . ثم قل هل نلت منه غير ذلك شيئا ؟ »

قال « لقد أطلعنى على نسب نايتيتس . »

قال « وغير هذا ؟ »

قال « لم يزد على ذلك شيئاً ، ولكن ألا يهمك أن تقف على ذلك السر . . ؟ »

قال « ان الفضول من سوءات المرأة ، وعدا هـذا فانى أعلم من زمن بعيد كل ما تستطيع الادلاء به الىّ . »

قال « ولكن ألم تلح علىّ امس أن أسأل أبى عنه ؟ »

قال « انما فعلت ذلك لكى أختبرك وابلو أمرك ، فأعلم ان كنت خاضعاً للآلهة وأستوثق من أنك لا تزال تسلك الطريق التى بدونهـا لا تستطيع التعمق فى العلوم الروحانية . وها انى أراك قد أخبرتنا بأمانة بكل ما قد سمعت ، فبرهنت بذلك على أنك طيع — والطاعة اولى فضائل الكاهن . »

قال « اذن أنت تعرف من زمن أبانا يتيتس ؟ »

قال « أولست أنا الذى صلى على قبر الملك حفرع ؟ »

قال « ولكن من الذى أطلعك على هذا السر ؟ »

قال « الكواكب الأزلية يا ولدى ومهارتى فى قراءة طوالعها . »

قال « وهل لا تكذب هذه الكواكب ؟ »

قال « ابدا وان تخدع من له بها الالمام الكافى . »

فامتقع بسامتك عندئذ لأنه ذكر حلم أبيه وذكر طالعه النحس المخيف ، فأدرك الكاهن فى الحال تغير سحنته ، وقال له فى لطف « انك تعتقد فى قرارة نفسك أنك

رجل ضائع منكود الحظ لأن الكواكب أنذرت بالشر يوم مولدك . ولكن سرّ عن نفسك يا بسامتك لأنى فى تلك اللحظة رأيت علامة أخرى فى الكواكب لم ينتبه اليها المنجمون ، فلقد كان طالعك منذرا بالويل غير أن مشائمه ومناحسه قد تتحول ، انها . . . »

قال مقاطعا « خبرنى يا أبى كيف تتحول ؟ خبرنى . »

قال « انها لا بد متحولة الى الخير ان أنت نسيت كل شىء وكرست حياتك للآلهة ، مطيعاً صوتها القدسى الذى لا يسمعه سوانا نحن الكهنة داخل معابدها المقدسة . »

قال « اننى مستعد يا أبى أن أطيع كل ما تأمرنى به . »

قال « سألت المعبودة العظيمة المسيطرة بجلالها على سايس أن تلهمك ذلك دائماً ياولدى . والآن أسألك أن تتركنى ، فانى متعب من طول ما أؤديه من العبادات ، ومن ثقل وطأة ما تحملنيه هذه السنون . ولئن استطعت أن تؤجل اعدام فانيس فافعل لأنى أريد أن أحادثه قبل موته . ولى بعد ذلك كلمة أخرى . ان فصيلة من العساكر الأثيوبية (الحبشية) قد وصلت الى هنا أمس ، وهؤلاء لا يفهمون الاغريقية ، وهم لذلك خير من يساعدونك على الخلاص من ذلك الرجل ان أنت أقمت عليهم رجلا أميناً يعرف الأثينى ويعرف مسكنه ، لأن جهلهم اللغة وظروف الحال يحول بينهم وبين الاقدام على خيانتك ، بل ولا يستطيع أى جاسوس مهذار أن يقف منهم على شىء . وقبل المسير الى نقراتس عليك أن لا تخبرهم بشىء يخص مهمتهم . فاذا ما أدوا مهمتهم عادوا ثانية الى بلادهم كوش[1] ، واذكر أن من الصعب الاحتفاظ بالأسرار . فالى الملتقى . »

ولم يكد بسامتك يغادر المكان حتى دخل أحد أولئك الكهنة الأحداث الذين فى خدمة أماسيس .

قال ذلك الكاهن الفتى مستفسراً « أترانى أحسنت التسمع والانصات يا أبى ؟ »

قال « كل الاحسان يا بنى ، فلم تفت أذنيك كلمة واحدة من الحديث الذى

---

(١) الاسم المصرى لايثيوبيا وهى الحبشة .

جرى بين أماسيس و بسامتك . باركت ايزيس أذنيك ، وأبقتهما اليك طويلا . »

قال « ان الأصم كان يستطيع سماع الحديث الذى جرى اليوم ، فقد كان أماسيس يخور كالثور . »

قال « لقد سلبته نيث العظيمة الحرص والكياسة . والآن عد الى عملك ، وكن كلك عيوناً وآذاناً ، فقد يسعى أماسيس لاخفاق المؤامرة . فان كان كذلك فأسرع باخبارى ولا شك أنك واجدى هنا . ومر الخدم أن لا يسمحوا لأحد بالدخول علىّ وليقولوا لمن يقصدنى انى مشغول فى العبادة و فى صلاتى الى قدس الأقداس. ولتباركك الآلهة ولتثبت لك خطاك . »

و بينما كان بسامتك مشغولا فى اعداد المعدات للقبض على فانيس ، ركب كريسوس وصحبه زورقاً من زوارق الملك ، وساروا به فى النيل قاصدين أن يقضوا السهرة مع رودو بيس . أما جيجيز بن كريسوس ورفاقه الثلاثة فقد بقوا فى سايس يصرفون وقتهم فيما يوافق هواهم . وقد بالغ أماسيس فى اكرامهم وسمح لهم ، كما هى عادة المصريين ، أن يجلسوا الى زوجته الملكة وابنتيه التوءمتين . ولقد علّم أماسيس جيجيز لعبة « الداما » وجعل يشاهد أولئك الأبطال الأحداث الأقوياء المهرة وهم يلعبون مع ابنتيه لعبة الكرات والأطواق ، وكانت لعبة شائعة بين الفتيات المصريات ، وظل يمازج ضيفانه ويمازحهم خلال اللعب مفضياً اليهم بسيل لا ينقطع من اللطائف والملاح .

قال بردية وقد رأى نايتيتس تلتقط بعصاها الرفيعة العاجية الطوق المحلى بالأشرطة الزاهية للمرة المائة « حقاً وجب علينا أن ندخل هذه الألعاب فى بلادنا . اننا نحن الفرس نختلف عنكم معشر المصريين . لقد يسحرنا كل جديد نراه ، فى حين أنه قد يكون الجديد لديكم مبغوضاً مكروهاً . وانى سأصف هذا النوع من اللعب لأمى كاسندين ، وهى ستسر اذا سمح لزوجات أخى بهذا النوع الجديد من الألعاب . »

قالت تاخوط وقد علت خديها حمرة الخجل « أجل ، افعل ولا تتردد ، واذن تستطيع نايتيتس أن تلعب أيضا وتمرح ، فيخيل اليها أنها فى بلادها و بين أولئك

الذين تحبهم . » ثم خفضت صوتها وقالت « وأنت أيضا يا بردية فانك لا بد ذاكر أيضا يومنا هذا كلما رأيت الأطواق يرمى بها فى الجو . »

فقـال وهو يبتسم « لن أنسى ذلك ما حييت . » ثم التفت الى نايتيتس وقال « تشجعى يا نايتيتس فستكونين معنـا أسعد مما تظنين . اننا نحن الأسيويين نعلم كيف نقدر الجمال قدره ، والدليل على ذلك تعدد الزوجات عندنا . »

فتنهدت نايتيتس عنـد ذلك وقالت الملكة لاديس « بل ان ذلك على العكس يدل على أنكم غير ملمين الا قليلا بتقدير طبيعة المرأة . انك لا تستطيع يا بردية أن تتصور ما تشعر به المرأة حين ترى زوجها ، وهو ذلك الرجل الذى هو أحب اليهـا من حياتها ومن اليه تقدم كل ما تملك يداها وما تقدسه تقديسا من غير ما تحفظ أو تردد ، ينظر اليها نظره الى لعبة جميلة ، أو جواد كريم ، أوكأس دقيقة الصنع . بل و يؤلمها أكثر من ذلك بكثير أن تشعر بأن الحب الذى ترومه كل امرأة لنفسها هى وحدها موزع يشاركها فيه مائة أخرى من النسوة . »

فقال أماسيس « ها كم الزوجة الغيرى تتكلم . أولا تظنون من كلامها هـذا أنى طالما هيأت لها الفرصة لتشك فى أمانتى وولائى ؟ »

قالت لاديس « كلا كلا يا زوجى فما أنا بغيرى ، وانى أقول ان المصريين يفضـلون الأمم الأخرى من هـذه الوجهة ، لأن الرجل منهم يقنع بتلك التى سبق فأولاها قلبه وحبـه . وانى لأجرؤ على الاصرار على القول ان الزوجة المصرية أسعد حظا . بل وأقول ان الاغريق أنفسهم ، وهم فى كثير من الأمور أئمة لنا ، لا يعرفون كيف يقدرون المرأة حق قدرها . فمعظم البنات الاغريقيات يقطعن دور طفولتهن المحزن فى حجرات مغلقة ، تدفعهن فيها أمهاتهن وأولياء أمورهن الى المغازل والأنوال فاذا ما بلغن سن الزواج وتزوجن انتقلن الى بيوت ساكنة لا حركة فيها فى حجر أزواج لا يعرفون من أمرهن شيئاً ، هذا الى أن حيـاة هؤلاء الأزواج وأعمالهم لا تسمح لهم بزيارة حجرات نسائهم الا قليـلا . فاذا صحب الزوج أصدق أصـدقائه وأقاربه المقربين اجترأت الزوجة على الظهور بينهم ، يعـلو وجهها الحيـاء والخجل ، طمعا فى استماع القليل عما يجرى فى العـالم خارج بيوتهن . ونحن النساء بلا شك

عطشى لطلب العلم أيضا ، ولا يفتكم أن هناك من فروع العلوم ما لا يحق عدلا ان يحرم منه أولئك اللائى سيكن أمهات المستقبل . وماذا تستطيعه أم أثينية من تثقيف بناتها ما دامت هى خلوا من كل علم وتجربة ؟ انها لن تمدهن بغير جهلها هى ، ولذلك نرى الزوج الهيلينى لا يقنع من دنياه بزوجته الشرعية وهى الجاهلة غير المثقفة ، فيهرع الى الساقطات من بنات الهوى يلذ بعشرتهن والحديث اليهن ، وهن بمخالطتهن للرجال والتحدث اليهم يحصلن على معلومات جمة فيستطعن كيف يزينها بأزهار يقتطفنها من الرشاقة النسوية ، ويلطفنها بمالهن من حذق أو ظرف زادت الأيام فى رقته وصقله . أما فى مصر فالحال غير ما ذكرت . فالبنت الصغيرة يسمح لها بمحادثة العلماء من الرجال بكل حرية ، وفيها يتقابل الفتيان والفتيات دائما فى الحفلات والأعياد ، ومن ثم يتعلمون كيف يتعارفون ويتحابون . وليست الزوجة عندهم أمة للزوج ، بل هى صديقته وهو صديقها ، يتم الواحد منهما ما يجده فى زميله من نقص . ويتصدى الزوج للأمور الهامة فيقرر فيها ما يرى ، أما ما عدا ذلك من تافهات الأمور فانه متروك للزوجة فهى بها أبصر منه . وتشب البنات وهن واجدات من الأم كل ارشاد وعناية ، لأن الأم ليست جاهلة ولا عديمة التجربة . وعلى ذلك يسهل على المرأة ان تكون شريفة فاضلة مؤدية واجباتها ، لأنها ترى أن ذلك يزيد فى سعادة ذلك الذى تفخر بأنها منه المحبوبة المقربة ، والذى هو لها وحدها دون غيرها . ومعلوم أننا نحن النساء نعمل ما نرتاح اليه ويسرنا ، ولكن الرجال من المصريين يعرفون كيف يوجهوننا الى كل ما هو طيب وجميل . فهنا على ضفاف النيل لا يستطيع فوسيليد شاعر ميليتاس وهبيوناكس شاعر افيسوس أن يقولا ما قالاه من الهجو والمطاعن فى النساء ، بل وما كان لمثل خرافة باندورا (١) أن تخترعها عقول الشعراء . »

قال بردية « ما أجمل ما تقولين يا سيدتى . ان اللغة الاغريقية ليست سهلة التحصيل ، وما أكثر سرورى الساعة أنى لم أهمل تحصيلها يأسا منها وكلالا ، وانى

---

(١) قصة خرافية كتبها الشاعر سيمونيد ، وهجا النساء فيها هجوا شديدا وشبههن بالعجماوات النجسة وقال ان التى تستحق الزوج من النساء من تكون كالنملة فى العمل والصلاح .

أقبلت على دروس كريسوس باذلا فى ذلك ما تستحقه من العناية . »

قال دارا « ومن هما هذان اللذان أقدما على ذكر النساء بسوء ؟ »

قال أماسيس « شاعران من شعراء الاغريق ، هما فى نظرى أشجع الرجال . فعندى أن اغضاب لبؤة أيسر خطباً من التحرش لامرأة . على أن هؤلاء الاغريق لا يعرفون ما هو الخوف . واليكم مثالا من شعر هيبوناكس : —

« لا تدخل المرأة السرور على قلب زوجها الا فى يومين اثنين : يوم زفافها عليه حيث الآمال تزهو وتلمع ، ويوم يغيبها فى رمسها فتحجب عن عينيه . »

فقالت لاديس وهى سادة أذنيها بيديها « كفى ، كفى ، فهذا ردىء جداً . الآن تستطيعون ياسادة أن تفهموا من هو الرجل أماسيس . انه من أجل نكتة قد يسخر حتى من أولئك الذين يشاطرهم آراءهم . ليس يوجد زوجاً خيراً منه . . . »

قال أماسيس ضاحكا « ولا زوجة أردأ منك ، لأنك تريدين أن تجعلى الناس يظنون أننى زوج سهل مطيع جداً فلأتركَكم الآن يا أبنائى ، ولا بد اضيوفنا الأبطال أن يتجولوا فى سايس ليشاهدوها . ولكنى لن أغادركم قبل أن أعيد عليكم ما قاله ذلك الخبيث سيمونيد عن الزوجة الصالحة . لقد قال : —

« تعيش مع زوجها وتظل محبوبة منه أيام شبابها وشيبها ، وتملأ له داره بجميل البنات وقوى البنين . وان جلست بين النساء كانت أكثرهن وقاراً فيسطع على جبينها نور جمال سماوى ، فيالها فى دارها من زوجة ظريفة وفى مشيها من أليفة نبيلة ، وفى حديثها من مترفعة عن مخاطبة الثرثارين المتفيهقين . تلك مثال الزوجة التى يرزق بها زيوس عبيده الصالحين ، فتبقى لهم على الدوام فخراً وسلوى ! »

« وتلك هى زوجتى لاديس ، فالى اللقاء ! »

قال بردية « لم يأن بعد وقت ذهابك ، واسمح لى قبل كل شىء أن أدافع عن بلادنا المسكينة ، ودعنى أبث الشجاعة فى قلب نايتيتس زوجة أخى الملك المقبلة . ولكنى سأسكت وليتكلم دارا عنى ففصاحته فى الكلام لا تقل عن مهارته فى الحساب والفروسية والمسايفة . »

قال ابن هستاسب « انك تتكلم عنى كما لو كنت ثرثاراً أو صاحب حانوت ، فليكن الأمر كذلك ، فقد كنت على أحر من الجمر طول هذا الوقت لأنى أريد أن

أدافع عن عادات بلادنا . فاعلمى اذن يا لا ديس أنه اذا كلأ الهنا أورامزدا [1] قلب مليكنا برعايته فستكون ابنتك صديقة له لا أمة حقيرة . واعلمى أيضاً أن نساء الملك فى فارس يحضرون فى الأعياد والحفلات الكبيرة و يجلسن على موائد الرجال ، ولزوجاتنا وأمهاتنا منا أكبر احترام وأعظم اجلال . ولقد حدث مرة أن أحد ملوك بابل اتخذ له زوجة فارسية ، فأسكنها وسط سهول الفرات الفسيحة ، فأضناها حنينها الى جبال بلادها ومرتفعاتها ، فابتنى لها صرحاً عظيما على قناطر عالية معقودة ، وغطى السطح بطبقة سميكة من أجود تربة ، وزرع فيها أحسن الأشجار والزهور ، وجعل يرويها بآلات صناعية رافعة . فلما أن أتم هذه الأعجوبة أخذ اليها زوجته فصارت تنظر من عل الى ما تحتها من السهول على النحو الذى اعتادته وهى فى مرتفعات راشمد ، وأغدق عليها العطايا والهبات . ذاك كان أمر الملك نبوخذنصر مع زوجه أميتس وذلك الصرح هو الحدائق المعلقة ، فهل سمعتم به من قبل ؟ و بربك خبرينى هل فى وسع مصرى أن يقدم لزوجته أكثر من ذلك ؟ »

فقالت نايتيتس وهى مطرقة « وهل برئت هذه الزوجة من مرضها ؟ »

قال « نعم برئت من مرضها واستعادت صحتها وعاد اليها سرورها ، وأنت أيضاً ستشعرين بالراحة والرغد فى بلادنا . »

فقالت لاديس مبتسمة « ولكن قل لأيهما تنسب شفاء الملكة الصغيرة ، ألذلك الجبل الجميل أم لحب لزوجها الذى أقام هذا الصرح لأجلها ؟ »

فقالت الفتاتان معاً « لحب زوجها لها . »

قال بردية « ولكنك يا نايتيتس ستسرين لهذا الجبل أيضا ، وسأجتهد فى أن تكون الحدائق المعلقة محل اقامتك ما دام البلاط فى بابل . »

قال أماسيس « هيا بنا فلقد مر الوقت الا اذا أردتم مشاهدة المدينة فى ظلام الليل . ان اثنين من وزرائى ينتظرانى منذ ساعتين . مُر يا ساشونس قائد الحرس أن يصحب ضيفاننا النبلاء و برفقته مائة من الجند . »

---

(١) وأحياناً يسمونه أورمزد وهو اله الخير عند الفرس ، وهو فى حرب دائمة مع أهرمان اله الشر والظلام .

قال بردية « ولم كل هذا العدد ؟ يكفى أن يكون معنا دليل واحد ولعله يكون أحد الضباط الاغريق . »

قال أماسيس « كلا يا أصدقائى فالأفضل أن يصحبكم هذا العدد من الجند ، فلن يستطيع الأجانب فى مصر أن يحتفظوا طويلا بحزمهم وحرصهم . فكونوا حازمين محاذرين ، فلا تنسوا ذلك ولا تزدروا الحيوانات المقدسة على الأخص فاذهبوا بسلام يا أبنائى على عهد اللقاء الليلة لنحتسى سويا كؤوس الخمر العتيقة . »

فخرجوا وبصحبتهم ترجمان اغريقى شب ونشأ فى مصر ويجيد التكلم بكل من اللغتين .

وكان لشوارع سايس المجاورة للقصر منظر جميل سار . أما المنازل ومعظمها ذو خمس طباق فقد كانت فى الجملة مغطاة بصور أو نقوش هيروغليفية أما أروقتها فكانت لها حواجز من خشب مخروط مدهون أجمل دهان ، وكانت مقامة على عمد مدهونة أيضا منثورة حول جدران الأبهاء . وكان يرى مكتوبا على كثير من الأبواب أسماء الملاك وألقابهم ورتبهم . وأما سطوح هذه المنازل فكانت مزينة بأصص الزهور والشجيرات ، فقد كان للمصريين ولع بتمضية الليل فوق هذه السطوح الا اذا فضلوا الصعود الى برج البعوض الذى يكاد لا يخلو منزل منه . اذ أن هذه الحشرات المقلقة التى يساعد النيل على توالدها لا ترتفع كثيرا فى طيرانها ، فكانت هذه الأبراج بمثابة وقاية منها .

ولقد أعجب الفرس بالنظافة الفائقة التى رأوها فى الدور بل وفى الطرقات . وكانت حلقات الأبواب وما عليها من مطارق نحاسية تلمع فى ضوء الشمس ، أما النقوش والطنوف والعمد فكانت ترى جديدة كأن يد الصانع لم تتركها الا منذ لحظات ، بل ان أفاريز الشوارع كانت تبدو للعين كأنها دائمة الصقل واللمعان . فاما بعد الأعاجم عن النيل والقصر ضاقت فرجة الشوارع . وكانت سايس مبنية على منحدر تل مرتفع بعض الارتفاع ، وكانت مقراً للفراعنة سكنوها قرنين ونصف قرن من الزمان ، ولكنها فى هذه الفترة اليسيرة كانت قد استحالت من بلد بسيط مهمل الى بلد كبير الحجم .

وكانت المنازل والشوارع القائمة على جانبى النهر ذات روعة وبهاء ، أما تلك التى كانت على منحدر التل فكانت الا بعضها كهوفا حقيرة ، تبدو عليها علامات الفاقة ، مبنية من أغصان السنط ومن طمى النيل . أما القلعة الملكية فكانت قائمة فى الشمال الغربى .

قال جيجيز مخاطبا رفاقه « فلنعد من هنا . » فقد كان فى غياب أبيه المسئول عنهم ، فكان هو دليلهم وحاميهم ، وكان قد شعر أن الناس يتجمهرون وراءهم ويتزايدون بين خطوة وأخرى .

فقال الترجمان « علىّ أن أطيع أمرك ، ولكن هناك فى الوادى عند سفح التل توجد مقابر الموتى ، وأرى أن مثل تلك المقابر هامة لدى الأجانب . »

فقال بردية « سيروا بنا الى الأمام ، والا فلماذا غادرنا فارس ان لم يكن لمشاهدة تلك الأشياء العظيمة ؟ »

فلما وصلوا الى ميدان مكشوف تحيط به خيام العمال ، ولم يكن بعيدا عن المقابر ، تصاعدت من الجمهور المقتفى أثرهم صيحات مختلفة ، فهلل الصغار ، وزغردت النساء ، وعلا جميعَ الأصوات صوتٌ يقول « تعالوا هنا الى فناء المعبد ، وشاهدوا أعمال الساحر العظيم الذى جاء من واحات ليبيا الغربية والذى أوتى قوة السحر وعمل المعجزات بفضل شنصو مسدى خير النصائح وبفضل تحوت المثلث العظمة . »

قال الترجمان « اتبعونى الى الهيكل الصغير القائم هناك فسترون عجبا . »

ثم شق لنفسه وللفرس طريقا بين الجمهور ، وكثيرا ما كان يعترضه فى طريقه امرأة صفراء هزيلة أو طفل عارى الجسم . وأخيراً عاد ومعه كاهن تقدم الفرس الى الفناء الأمامى للهيكل . وهناك وقف رجل فى ثياب الكهنة ، وحوله صناديق وعلب عديدة ، وبجانبه جثا على الأرض اثنان من العبيد السود .

وكان الليبى رجلا ضخم الجثة ، رخو الأطراف لينها ، ذا عينين سوداوين حادتين . أمسك بيده صفارة كالبوق ، ويحيط بذراعيه وصدره عدد من ثعابين مصر السامة .

فلما اقترب منه الفرس انحنى اليهم ودعاهم باشارة منه الى رؤية ألعابه ، ثم خلع

عنه ثوبه الأبيض وشرع فى ألعابه مع الثعابين . فجعلت تعضه حتى غمر الدم خديه ، ثم دفعها بأنغام صفارته فاستقامت ثم بدأت ترقص رقصاً غريباً . وبعدئذ بصق فى أفواهها فاذا هى عصىّ لا حراك بها ، ثم ضرب بها الأرض فعادت تسعى وظل يرقص بينها رقصاً غريباً دون أن يلمس واحداً منها .

ثم اوى أطرافه اللينة كمن أصابه خبل حتى خيل أن عينيه قد توسطتا رأسه ، وخرجت من بين شفتيه رغوة غدقة بالدم . ولم يلبث أن سقط على الأرض فجأة كأنه عدم الحياة ، لولا ما ظهر عليه من علاماتها بتحريكه شفتيه حركة طفيفة ، ثم بتصفيره صفيراً منخفضاً . فزحفت الثعابين لدى سماعها هذا الصفير ، والتفّت حول رقبته وساقيه وجسمه كالحلقات ، وأخيراً استوى قائماً وجعل يغنى أنشودة يمتدح بها القوة الالهية التى جعلته ساحراً ، ثم وضع معظم الثعابين فى احدى العلب ، واستبقى بعضها ، ولعل هذه كانت أحب ثعابينه اليه ، يزين بها جيده وذراعيه .

وبدأ فى القسم الثانى من ألعابه ، ويتضمن هذا القسم ألعاباً سحرية مدهشة . منها أنه ابتلع قطعة كتان وهى تحترق ، ومنها أنه وازن السيوف وهو يرقص بعد أن وضع أطرافها المدببة فى عينيه ، ومنها أنه جعل يخرج من أنوف الأطفال المصريين خيوطاً وأشرطة طويلة ، ومنها اللعبة المشهورة لعبة الكأس والكرة ، ومنها اللعبة الأخيرة التى استحوذت على عقول المشاهدين ونالت اعجابهم وهى جعله من خمس بيضات من بيض النعام خمسة أرانب حية .

لم يقف الفرس سكوتاً أمام هذه الألعاب ، بل هم على العكس من ذلك شاركوا الجمهور فى الاطراء والاستحسان اذ أثر فيهم هذا المنظر الجديد تأثيراً شديداً .

شعروا أنهم فى بلد المعجزات والأعاجيب . وخيل اليهم أنهم رأوا أعجب الأعاجيب المصرية .

وعادوا أدراجهم وهم سكوت الى شوارع سايس الكبيرة ، دون أن يلاحظوا عدد المصريين المشوهين الذين اعترضوا طريقهم . على أن رؤية أولئك المصريين المشوهين المساكين لم تكن أمراً غير مألوف لدى الاسيويين ، اذ كثيراً ما كانوا يعاقبون الجناة الآثمة ببتر عضو من أعضائهم . وهم لو استفسروا لعلموا أن الرجل

المصرى الذى قطعت يده انما عوقب بذلك جزاء التزوير ، وأن المرأة التى جدع أنفها لم تكن الا زانية ، وأن الرجل الذى قطع لسانه اتهم بالخيانة العظمى أو شهادة الزور ، وأنّ صلم الأذنين جزاء الجاسوسية ، وأن تلك المرأة الصفراء التى تظهر عليها ملامح الجنون والعتــه انما قتلت طفلها فحكم عليها أن تحمل جثته ثلاثة أيام وثلاث ليال سوياً . وأى امرأة تحتفظ بعقلها ومشاعرها بعــد أن تمر عليها ساعات العذاب هذه ؟ ومن ثم يتضح أن معظم القوانين الجنائيــة المصرية لم تكفل عقاب المجرم فحسب بل تجعل تكرار اجترام الجريمة أمراً مستحيلا .

و بينما الفرس سائرون فى طريقهم اعترضهم جمهور كبير محتشد أمام أجمل المنازل فى الشارع المؤدى الى معبد نيث . وكانت نوافذ هذا المنزل المطلة على الشارع قليلة ومغلقة ، وأما بقية النوافذ فتطل على حديقة المنزل وفنائه . ووقف عند الباب شيخ عجوز يلبس الثوب الأبيض الخاص بخــدمة الكهنة ، يصيح محاولا صد عدد من رجال طغمته عن أخذ صندوق كبير . وصاح بهم غاضباً « بأى حق تستحلون سرقة سيدى ؟ انني أنا وكيله أحرس داره ، ولما سافر الى بلاد الفرس ، لعنة الآلهة عليها ، أوصانى أن أعنى على الخصوص بهذا الصندوق المخبوءة فيه مكتوباته . »

فقال أحد أولئك الكهنة الأصاغر ، الذين قدمناهم للقارئ عنــد وصول الوفد الفارسى « هدئ روعك أيها الشيخ هيب . اننا جئنا هنا بأمر الكاهن سيد مولاك ، فلا بد من وجود أوراق هامة فى هذا الصندوق ، والا فان نيتحوتب ما كان يشرفنا بأمر احضاره اليه . »

قال الشيخ « ولكنى لست أرضى أن تختلس أوراق سيدى ، وهو الطبيب الكبير نبنخارى ، وانى هنا أحتفظ بحقوقه وان أدى الأمر لرفع شكوى للملك نفسه . »

قال « كفى ثرثرة ، هيا احملوا أيها الرفاق هذا الصندوق وأوصلوه الى الكاهن الأعظم . وأما أنت أيها الشيخ فيحسن بك أن تمسك لسانك ، واذكر أن الكاهن الأعظم سيدك كما هو سيدى . وادخل الدار وأسرع ما استطعت والا جررناك غداً كما نجر الصندوق اليوم . » وعنــد ما أتم حديثه دفع الشيخ هيب بقوة الى داخل المنزل ثم أغلق الباب عليه ولم ير الناس له وجهاً بعد اليوم .

ورأى الفرس ما جرى فاستفسروا الترجمان فأفهمهم . وضحك زو بيروس لدى سماعه أن صاحب الصندوق المختلس انما هو نبنخارى طبيب العيون الذى أرسله ملك مصر الى فارس ليعيد الى أم الملك بصرها ، فلم يلق فى بلاط قمبيز الا قليلا من العطف والمحبة نظرا لما كان يبدو عليه من الاكتئاب والعبوس .

ورغب بردية أن يسأل أماسيس عن معنى هذه السرقة الغريبة ، ولكن جيجيز رجاه أن لا يتدخل فيما ليس له به شأن . وعندما وصلوا القصر وبدأ يغشى الظلام المدينة ، وهو فى مصر يلى النهار مباشرة ، شعر جيجيز فجأة أنه قد أوقف عن المسير بيد غريبة أخذت بطرف ثوبه . فالتفت فرأى رجلا غريبا يشير عليه بالسكوت بوضع أصبعه على فمه ثم أسر اليه قال « متى يمكننى أن أحادثك وحدك وبدون رقيب ؟ »

قال « وما الذى تريده منى ؟ »

قال « لا تسلنى شيئا وأجبنى فى الحال . وحق مثرا لدىّ حديث ذو بال أريد الادلاء به اليك . »

قال « أراك تتكلم الفارسية فى حين أن ثيابك تنبئ عن مصريتك . »

قال « انى فارسى ، ولكن بربك أجبنى بسرعة قبل أن يلحظنا أحد . قل متى أستطيع أن أراك على انفراد ؟ »

قال « غدا صباحا . »

قال « هذا بعيد جدا . . »

قال « اذن بعد ربع ساعة عند باب القصر هذا حين تشتد حلكة الظلام . »

قال « سأنتظرك . »

واذ قال ذلك توارى عن الأنظار . ولما بلغوا القصر ترك جيجيز بردية وزو بيروس ووضع سيفه فى منطقته ، وسأل دارا أن يأخذ سيفه ويتبعه . وما هى الا لحظة حتى كانا واقفين عند الباب الكبير مع الرجل الغريب ، فى جنح الظلام وقد اشتد حلكه .

قال الغريب بالفارسية مخاطبا جيجيز « الحمد لاورامزدا أن جئت ، ولكن من عسى أن يكون زميلك ؟ »

قال « هودار ابن هستاسب أحد الاخيمنيين [١] ، وهو صديقي . »

فانحنى الغريب وقال « لقد خفت أن تكون استصحبت معك مصريا . »

قال « كلا ، وها نحن وحدنا مصغيان اليك فاختصر ، وقل من أنت وما شأنك ؟ »

قال « اسمى بيبرس ، وقد كنت ضابطا تحت امرة كورش الكبير . فلما فتح الجند ساردیس عاصمة ملك أبيك أذن لهم فى بادئ الأمر أن ينهبوا ما شاءوا . ولكن لما قال له أبوك الحكيم ان نهب مدينة فتحت سبة لفاتحها لا الى ملكها السالف أمر أن يقدم الجند كل ما سلبوا من الغنائم لضباطهم ، وهدد من يخالف أمره بالموت وأمر الضباط أن يجمعوا كل ما كان ثمينا منها لعرضه فى السوق . فكنت ترى هناك سبائك من فضة وذهب مكدسة أكداسا ، وكنت ترى كسى مرصعة بالحجارة الكريمة مزدانة . . . »

فقاطعه جيجز قائلا « عجل واقتصر فوقتنا قصير . »

قال « أصبت فيجب أن أختصر الحديث . لقد خالفت الأمر وأبقيت لنفسى عتيدة طيب مرصعة باللآلئ أخذتها من قصر أبيك ، فعرضت نفسى بذلك للموت . فتوسل أبوك الى كورش بالعفو عنى فعفا عنى ، ورد الىَّ حياتى وحريتى ، ولكنه شهر بى أنى عديم الشرف . فأصبح العيش فى فارس بعد ذلك لا يحتمل اذ كان العار يخز نفسى وخزاً . فركبت سفينة من أزمير الى قبرص والتحقت بالجيش هناك وحاربت أماسيس . وجاء بى فانيس الى مصر أسيرا . واذ كنت فى فرقة الفرسان جعلت هنا بين العبيد القائمين بخدمة خيل الملك . وبعد ست سنوات أقامونى ناظراً على الاصطبلات . ولم أنس قط احسان أبيك الىَّ : وها قد تهيأ لى أن أسديه يداً . »

قال « اذن فالأمر يتعلق بأبى ؟ فبربك عجل به وأخبرنى . »

قال « ها انى قائل . هل أساء كريسوس الى ولى العهد ؟ »

قال « لا علم لى بشىء من هذا . »

قال « هل ذهب أبوك الليلة لزيارة رودو بيس فى نقراتس ؟ »

---

(١) من سلالة الملك أخيمينس .

قال « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال « سمعت ذلك منه ، اذ تبعته الى الزورق اليوم لألقى بنفسى على قدميه . »

قال « وهل نجحت ؟ »

قال « نعم ، وقد تعطف عليّ ببضع كلمات ، لكنه لم ينتظر ليسمع منى ما أردت قوله له ، فقد كان رفاقه بانتظاره فى الزورق . وقد أخبرنى عبده ساندون ، ولى به معرفة ، أنهم ذاهبون الى نقراتس وأنهم سيزورون السيدة الاغريقية التى يسمونها رودو بيس . »

قال جيجز « لقد أصدقك القول . »

قال « اذن فأسرع لا نقاذه ، فان عشر مركبات وزورقين ملآنة بالعساكر الاثيوبية سارت سراً الى نقراتس عند الظهر ، وقد غص السوق بالتجار والباعة ، يقودها ضابط مصرى لمحاصرة دار رودو بيس والقبض على ضيفانها . »

فصاح جيجز « يا للخيانة ! »

قال دارا « وماذا عساهم يريدون بأبيك ؟ انهم يعلمون أن انتقام قمبيز — »

قال بيبرس « لا أعلم سوى أن دار رودو بيس وفيها أبوك ستحاصر الليلة بالجند الاثيوبية . ولقد رأيت بنفسى الخيل التى أقلتهم الى هناك ، وسمعت بنطاؤور وهو أحد حملة مروحة ولى العهد يخاطبهم بقوله : افتحوا أعينكم وآذانكم جيداً ، وأحدقوا ببيت رودو بيس ، والا فر من الباب الخلفى . وحافظوا على حياته ما أمكن ، انما لا تقتلوه الا اذا قاوم ، وجيئوا به حياً الى سايس ولكم فى مقابل ذلك عشرون خاتماً من الذهب[1] . »

قال « ولكن أيمكن أن يراد بهذا أبى ؟ »

قال دارا « كلا بالتأكيد . »

قال بيبرس « لا يمكنك أن تقول ذلك ، فكل شىء ممكن فى هذه البلاد . »

قال « وكم من الزمن يلزم لجواد كريم لكى يبلغ الى نقراتس ؟ . »

قال « ثلاث ساعات اذا استطاع أن يواصل سيره طول هذا الزمن واذا لم يكن

---

(١) لم يكن يستعمل المصريون فى ذلك العهد نقودا مسكوكة الا على شكل خواتم وحيوانات .

النيل قد فاض فغمر الطريق بمياهه . »

قال « اذن سأكون هناك فى ساعتين . »

فقال دارا « وسأكون معك . »

قال « بل عليك أن تبقى مع زو بيروس لحماية بردية ، ومر الخدم بالاستعداد . »

قال « ولكن يا جيجز — »

قال « أجل يجب أن تبقى هنا ، وتعتذر عنى لأماسيس . قل انى غير مستطيع حضور قصف الليلة بحجة أن برأسى دواراً ، أو بضرسى ألماً ، أو لأنى منحرف الصحة ، أوأى شىء شئت . سوف أمتطى نيسيان جواد بردية ، أما أنت يا بيبرس فاتبعنى على جواد دارا . أقرضنيه يا أخى . »

قال « لو كان لى بدل الواحد عشرة آلاف لما منعتك منها . »

قال « وأنت يا بيبرس هل تعرف الطريق الى نقراتس ! »

قال « نعم وانا مغمض العينين . »

قال « اذن فاذهب يادارا ومرهم أن يعدوا جوادك وجواد بردية . ان التمهل وزر كبير . فوداعاً يادارا وربما لاتلتقى بعد اليوم . وداعاً وليكن بردية فى كنفك . ذب عنه وادفع ما استطعت . وداعاً ثم وداعاً . »

الفصل الثامن

هرب فانيس

بقى على نصف الليـل ساعتان ، وكان الضوء ينبثق من خلال نوافذ بيت رودو بيس ، وتصاعدت أصوات الفرح والسرور . وأعدت المائدة وزينت بعناية خاصة احتفاء بمقدم كريسوس .

وجلس على الوسائد حول المائدة أولئك الضيفان المعروفون لدينا وهم ثيودوروس وابيكوس وفانيس وأرسطوماكس وثيوبومبس التاجر الميليسى وكريسوس وآخرون ، ورؤوسهم مزدانة بأكاليل الورد والغار .

و بدأ ثيودوروس الحديث قال « مصر فى نظرى يا سادة كالحسناء التى تصر على لبس حذاء ضيق محكم يؤلم قدميهـا ضيقه وذلك لأنه من الذهب ، فى حين أن بوسع الحسناء أن تنتعل حذاء لينا جميـلا تستطيع ان أرادت أن تحرك قدميها فيه بسهولة . »

قال كريسوس « أتشير بذلك الى تشبث المصريين فى الاحتفـاظ بأزيائهم وعاداتهم ؟ »

قال « نعم ذلك ما أردت ، ولقد كانت مصر منذ قرنين سيدة الأمم بلا نزاع ففاقتنا بكثير فى الفنون والعلوم . ولكننا تعلمنا طرائقهم فى العمل وأدخلنا التحسين عليها ، فلم نستمسك بما فيها من نسب موضوعة وأوضاع مقررة الا فى النماذج الطبيعية فقط ، وأكسبنا رسومهم الجافة نوعا من الحرية والجمـال ، فسبقنـاهم وهم الأساتذة بمراحل . انى أتساءل كيف استطعنا ذلك ؟ والجواب سهل بسيط . ذلك أن المصريين بتقيدهم بنظم وقوانين غير قابلة للتحوير والتبديل سدوا فى وجوههم سبيل التقدم . أما نحن فقد كنا على العكس من ذلك ، أحراراً فى تتبع الطريق التى انتهجنـا فى ميدان الفنون الواسع ، ومضينا فيه الى أبعد مدى تسمح به الارادة والقوة . »

قال « ولكن كيف يرغم مثّال على صوغ تماثيل متشابهة يقصد منها أن تختلف

وتتباين فى مدلولاتها ؟ »

قال « ذلك يمكن تفسيره بسهولة . ان المصريين قسموا جسم الانسان الى أربعة وعشرين جزءاً وربع جزء ، ومن هذا التقسيم ضبطوا نسبة كل عضو على حدته ولقد راهنت أنا نفسى أماسيس بحضور أكبر مثّال مصرى ، وهو أحد كهنة طيبة ، انى ان أرسلت لأخى تلكليز المقيم فى أفيسوس الابعاد والنسب والشكل على حساب الطريقة المصرية فاننى واياه نستطيع معا أن نصنع تمثالا يظهر للرائى كأنه نحت من قطعة واحدة وصيغ بيد واحدة ، مع أن أخى سيتم النصف السفلى فى بلده وأنا سأصنع الجزء العلوى هنا فى سايس تحت رقابة أماسيس . »

قال « وهل تكسب الرهان ؟ »

قال « بلا شك ، وها أنى على وشك البدء فى عمل ذلك اللغز الفنى ، وسيكون تحفة من التحف الفنية التى لا تقل شيئا عن تحف المصريين . »

قال « ومع هذا فتوجد هنا تحف فنية ممتازة فى الصنعة ، مثال ذلك تلك التى بعث بها أماسيس الى بوليقراط فى ساموس . ولقد رأيت فى منف تمثالا قيل أنه عمّر ثلاثة آلاف سنة ، وهو تمثال الملك الذى بنى الهرم الكبير ، فأعجبت به من كل الوجوه . أدهشنى ماوجدته فيه من دقة واحكام مع أنه منحوت من صخر صلد ، وهالنى منه تلك العناية المبذولة لاظهار العضلات وعلى الأخص دقة الصنعة عند الصدر والساقين والقدمين ، وكذلك توافق الملامح ، وفوق هذا وذاك دقة الصقل التى لم تترك مجالا لناقد . »

قال « لامراء فى أن المصريين لا زالوا متفوقين علينا فى ميكانيكية الفن كالدقة والاحكام فى الصنعة حتى فى أصلب المواد ، فى حين أنهم فى كثير من الأمور وقفوا جموداً وظلوا كذلك طويلا . ولكنهم لا يمكنهم أن يتعلموا كيف يصوغون الحرية شكلا وينفثون فى الحجر روحا الا اذا هجروا بتاتا عقائدهم القديمة وآراءهم العتيقة فى ذلك الموضوع . وانك لن تستطيع قط أن تمثل الحياة الروحانية مستخدما فى ذلك النّسب الوضعية ، بل ولن تستطيع بذلك أن تمثل محاسن التنوع فى أعضاء الانسان . أنظر مثلا الى تلك التماثيل التى لا عدد لها والتى أقيمت خلال

الثلاثة آلاف سـنة الأخيرة فى جميع المعابد وفى كافة القصور من تقراتس شمالا الى الشلالات جنوباً ، تجد أنها كلها من نموذج واحد وتمثـل رجالا متوسطى الأعمار ذوى ملامح وقورة رصينة تطالع فيها حب الخير . ومع ذلك لم يكن القصـد منها الا أن تمثل بعض الملوك المتقدمين فى السن ، أو الا أن تكون أقيمت احتفاظاً بذكرى الأمراء الأحداث . ولم يكن يتميز تمثال رجل الحرب من تمثـال رجل القانون ، أو تمثال الظالم المتعطش لسفك الدماء من تمثال الخيّر المحب للانسانيـة ، الا باختلاف فى الحجم يريد به المثال المصرى اظهار القدرة والقوة والجبروت . وان أماميس مثلا قد يدبر أمر تمثـال وينظمه كما أدبر أنا سيفاً وأنظمه ، وأماسيس على ما تعلمون لا يعرف من أمر التماثيل شيئاً كما أنى لست أعلم عن السيف شيئاً . فاذا ما عيّن كلانا الطول والعرض عرفنا النتيجة قبل أن يبدأ الصانع فى العمل . وقل لى بربك كيف يمكننى أن أصوغ تمثـال رجل هرم براه السقم فأجعله شاباً فى مقتبل العمر ؟ أو كيف لى أن أعمل من ملاكم قوى رجلا يتقدم فى سباق للعدْوالسريع ؟ أو كيف لى أن أتخذ من شاعر محارباً ماهراً وبطلا مغواراً ؟ ضع ابيكوس بجانب صاحبنا السبرطى ، وخبرنى بعد بالذى تقوله ان أنا جعلت لهذا المحارب ذى البأس وجه هذا الشاعر المالك لقاوبنا بشعره صاحب الوجه الصبوح والملامح الرقيقة والحركات الهادئة الرشيقة . »

قال « حسن ، وبماذا أجاب أماسيس على ملاحظاتك على ذلك الجمود فى الفن ؟ »

قال « لقـد أظهر لى الأسف والتحسر ، وقال انه لا يأنس من نفسه القوة الكافية لالغاء هذه القوانين الكهنوتية المقيدة . »

قال الدلفى « ومع هذا فقد دفع مبلغاً من المال لتزيين هيكلنا الجديد خيرزينة بقصد نشر الفن الهيلينى ، وتلك كانت كلماته . »

قال كريسوس « وهذا جميل منه ، فهل للألكمانيين أن يسرعوا فى جمع المال اللازم لاتمـام الهيكل ؟ لو أننى كنت غنياً كسابق عهـدى لقمت عن طيب خاطر بدفع كل المصاريف اللازمة ، بقطع النظر عن خديعة الهكم الحقود لى خديعة قاسية شديدة رغم ما قدمت لهيكله من التقدمات والهبـات . فانى حينما أرسلت أستفسر

منه هل أشتبك مع كورش فى حرب كان جوابه أنى أدمر مملكة قوية ان أنا عبرت نهر هاليس . فوثقت من الاله واحتفظت بصداقة اسبرطة حسب أمره ، وعبرت النهر الفاصل بين البلدين ، و بذلك دمرت حقاً مملكة قوية ، ولكنها لم تكن ميديا ولا فارس بل كانت بلادى ليديا المسكينة ، ففقدت استقلالها وأصبحت بعد ذلك ولاية يحكمها أحد مرازبة قمبيز ترى فى فقدان استقلالها نيراً صعباً شديد الوطأة . »

قال فريكساس « انك تلوم الاله بغير حق ، اذ لم يكن الخطأ الا خطأك أنت حيث خدعتك نفسك ولم تفهم خبىء كلام الهاتف . انه لم يعين فى جوابه مملكة فارس ، بل قال ان مملكة ما ستبيد من دخولك الحرب . فلماذا لم تسأل أى مملكة كانت المعنية المقصودة ؟ ألم ينبئك الهاتف عن ولدك وعما كتب له فأخبرك أنه فى يوم نزول النازلة بك يستعيد قوة الكلام ؟ ولما أذن لك كورش بعد سقوط ساردیس أن تسأل وتحقق فى دلفى عما اذا كان من عادة آلهة الاغريق أن ترد الاحسان بالاساءة ، أجابك لوكسياس أنه أراد الخير كله لك الا أنه غلب على أمره بقوة أقوى من قوته ، وهو ذلك القدر القاسى المقدور لجدك الأكبر ، و به تنبأ له أن قد حكم على خلفه الخامس بالسقوط والخراب والضياع . »

فاعترضه كريسوس قال « ما كان أحرانى فى الأيام الأولى من هذه الفادحة بمثل هذا القول الحىّ ، وكم كنت أكثر حاجة لسماعه يومئذ منى الآن ! لقد مضى زمن لعنت فيه الحكم وهواتفه ، ولكنى بعد ذلك ، حينما ذهب عنى أهل الملق والنفاق بذهاب مالى وجاهى وسلطانى ، اعتدت أن أحكم بنفسى على فعالى ، فرأيت بجلاء أن غرورى هو الذى كان سبباً فى سقوطى لا الحكم آبولون . وكيف لى أن أفهم أن المملكة التى ستبيد انما هى مملكتى أنا كريسوس صديق الآلهة وحبيبهم والقائد الذى لم يقهر بعد؟ وانى لأقول لو أن صديقاً لمح الى معنى ذلك الهتاف المبهم لسخرت منه ، ومن يدرى ربما كنت عاقبته . فالملك المستبد كالجواد الغضوب يرفس كل من يلمس جروحه بقصد مداواتها ، فهو يعاقب كل من يلمس منه موضع الضعف والنقص من عقله المريض ومن ثم لم أدرك ما كان يسهل ادراكه لو أن بصيرتى لم تكن سدرة ، و بصرى لم يكن حائراً مضطرباً . والآن وقد وضح الأمر لعينىّ ، فانى ، وان كنت لا أملك

اليوم شيئاً أخشى ضياعه ، أصبحت أكثر اهتماماً وحرصاً عن ذى قبل حيث لم يكن فى الوجود من يستطيع أن يفقد من متاع الدنيا قدر ما فقدت . وأنا اليوم يا فريكساس فقير معدم اذا قورنت حالى بتلك الأيام السالفة ، ولكن قمبيز لم يتركنى أموت سغباً ، اذ لا زلت أستطيع أن أهب معبدكم مبلغاً من المال . »

فشكره فريكساس وقال فانيس « ان الألكمانيين قد وثقوا اليوم من اقامة صرح جميل فهم أغنياء ذوو أطماع شديدو الرغبة فى كسب حب الأمفكتيين ، لكى يستعينوا بهم على طرد الطغاة الظالمين ومن ثم يحتفظون لأنفسهم بمكانة أعلى من مكانة الأسرة التى أنتمى اليها ، ومنها الى القبض على ناصية الحكومة . »

قال ابيكوس « وهل حقيقة ما يقوله النـاس عنك يا كريسوس من أنك أنت سبب ثراء تلك الأسرة ، هـذا زيادة عما تسامه ميجاكليز الألكمانى من مال زوجته أجاريستا ؟ »

قال كريسوس ضاحكا « نعم هذا حقيق . »

قالت رودوبيس « سألتك ألا ما حدثتنا بقصة ذلك . »

قال كريسوس « حباً وكرامة . زارنى مرة ألكمايون الأثينى فى بلاطى فسرنى منه فكاهته وأدبه فأبقيته عندى زمنا ما . وفى ذات يوم أريته خزائنى ، فعند رؤيتها تملكه اليأس وقال عن نفسه ما هو الا متسول بائس ، وجهر بأن حفنة من تلك التحف الثمينة ملء اليد تجعله سعيداً طول حياته . فأذنته فى الحال أن يحمل معه من الذهب ما يستطيع حمله . فما الذى تظنون أن ألكمايون قد صنع عند ذلك ؟ لقد أرسل يطلب حذاء ليديا طويلا من أحذية الركوب ومئزرا وسلة ، فوضع السلة وراءه ، وفوقها وضع الحذاء والمئزر ، بعد أن ملأ الجميع بالذهب حتى لم تعد تسع شيئاً . ولم يقنع بذلك بل نثر التبر فى شعر رأسه ولحيته ، وملأ به فمه حتى كاد يختنق ، وأمسك بكل من يديه صحفة من الذهب ، ثم مشى وهو على هذه الصورة فما كاد يخطو عتبة الباب حتى خر واقعا من الاعياء من ثقل ما يحمل . واذكر أنى ما ضحكت فى حياتى بقدر ما ضحكت يومئذ لدى رؤيته . »

قالت رودوبيس « ولكن هل أعطيته كل ذلك الذهب ؟ »

قال « أجل يا صديقى ولم أر اذ ذاك أنى أعطيت شيئا كثيرا ، بل رأيت أن الذهب قد يجعل من أمهر الرجال وأعقلهم حمقى مأفونين . »

قال فانيس « لقد كنت أكرم الملوك . »

قال « وها أنى اليوم صعلوك معدم . ولكن قل لى يا فريكساس بكم تبرع لكم أماسيس ؟ »

قال « تبرع بخمسين طنا من الشب . »

قال فانيس « هبة ملوكية . »

قال كريسوس « وبكم تبرع الأمير بسامتك ؟ »

قال « لما لفتُّ نظره الى جود أبيه أشاح بوجهه عنى وقال وهو يضحك منى ضحكة الساخر : اجمع المال لهدم معبدكم وانى مستعد لأن أهبكم ضعفى ما وهبكم أبى . »

قال فانيس « يا للتعس ! »

قال « بل قل المصرى الصادق الصميم ، فان كل شىء أجنبى فى عينى بسامتك رجس يجب اجتنابه . »

قال كريسوس « وبكم أشترك اغريقيو نقراتس ! »

قال « لقد اشتركت كل جماعة منهم بعشرين مينا [1] ، هذا عدا تبرعاتهم الخاصة . »

قال « هذا كثير . »

قال « ان فيلوينوس السيبارى وحده أرسل لى ألف دراخمة [2] ، وقد أرفقها برسالة غريبة منه . أتسمحين لى يا رودو بيس بتلاوتها بصوت عال ؟ »

قالت « بلا شك وهى تدلكم على أن الرجل السكير قد ندم على سلوكه الأخير . »

فبدأ الدلفى يقرأ قال « من فيلوينوس الى فريكساس . أما بعد فلقد أمضنى أنى لم أشرب كثيرا فى تلك الليلة التى قضيناها فى ضيافة رودو بيس ، ولو كنت

---

(١) المينا الواحدة خمسة وسبعون شلنا .

(٢) الدراخمة حوالى سبعة بنسات .

استطعت المزيد من الشراب لفقدت الحس بتاتا و بذلك كنت أصبح عاجزا عن اساءة أصغر الهوام . فعلى تقشفى وزهدى يقع اللوم ، حيث أنى لست ،ستمتعا بعد اليوم بخير طعام وأشهى شراب على خير مائدة فى مصر قاطبة . وانى لشاكر مع ذلك لرودو بيس ما منحتنيه من سرور ومتعة ماضيتين ، وانى تذكارا لشوائها الفاخر من لحم الأبقار (ذلك الشواء الذى نمّى فىّ الرغبة فى شراء طاهيها بأى ثمن) أبعث اليها باثنى عشر سفوذا كبيرا لشى الثيران ، وانى أرجوها أن تحفظ هذه السفافيد فى بعض خزائن دلفى على اعتبار أنها هبة مقدمة من رودو بيس . أما عن نفسى فانى ، اذ كنت غنياً ، أكتتب بألف دراخمة وأرجو أن يعلن عن هبتى هذه فى زمن الألعاب البيثية القادمة . كذلك أسألك يا فريكساس أن تقدم خالص شكرى لذلك السبرطى الخشن أرسطوماكس على سلوكه المؤثر الفعال الذى أنجز به ما أردته من مجيئى الى مصر . فلقد جئت بقصد أن يخلع أحد أطباء الأسنان المصريين ضرساً من أضراسى ، وقد قيل لى ان بمصر طبيباً يخلع الضرس دون كبير ألم . ولكن أرسطوماكس قد لطم ذلك الضرس المريض و بذلك وفر علىّ عمل عملية جراحية ، لا أكتمك أن مجرد تفكيرى فيها كان يخيفنى و يرعبنى . ولقد وجدت عند ما أفقت أن ثلاثة أضراس قد خلعت من أثر اللطمة ، ومنها ذلك الضرس العاطب . على أنه من يدرى فربما كان السليمان منها يسببان لى ألماً فى المستقبل . وأبلغ سلامى الى رودو بيس والى فانيس الصبوح الوجه . وأما أنت فانى أدعوك لزيارتى فى سيباريس فى مثل هذا اليوم من السنة القادمة ، فمن عاداتنا أن نبكر فى دعوة ضيفاننا حتى نأخذ الأهبة لاعداد ما يلزم . هذا ولتعلم أنى قد طلبت الى خادمى سوفوتانوس أن يكتب اليك هذه الرسالة فى الحجرة المجاورة لحجرتى ، وذلك لأن مجرد رؤيتى للغير يكتبون يشنج أصابعى . »

فأغرب الكل فى الضحك لدى سماعهم هذه الكلمات وقالت رودو بيس « لقد سرنى هذا الكتاب اذ أنه يبرهن على أن فيلو ينوس ليس أسود القلب . وهو وقد نشأ سيبارياً فانه . . . » ولم تكد تتم جملتها حتى قاطعها صوت رجل غريب دخل عليهم دون أن يراه أحد . و بعد أن قدم اعتذاره لصاحبة الدار وضيفانها لظهوره

بينهم من غير سابق دعوة قال « انني جيجيز بن كريسوس، ولم أكن هازلا فى مغادرتى سايس منذ ساعتين لأصلكم قبل فوات الوقت . »

فصاحت رودو بيس بخادمها « أحضر وسادة يا ميزن لضيفنا . مرحباً بالضيف الكريم فى دارى . استرح بعد هذا السفر الطويل ، وذلك المركب الشاق الخليق بلبيدى مثلك . »

قال كريسوس « وحق الكلاب[1] يا جيجيز ألا ما حدثتنى عن الذى جاء بك الى هنا فى مثل هذه الساعة ؟ لقد أوصيتك بأن تلازم بردية . . . يا للآلهة من منظرك ! خبرنى بالأمر هل جد شيء ؟ قل ، تكلم »

لم ينطق جيجيز فى بادئ الأمر ، لأن رؤيته لأبيه الذى يحبه ، والذى كان قلقاً على حياته ، ضيفاً كريماً مسروراً يجلس على مثل هذه المائدة الفاخرة ، قد عقلت لسانه مرة أخرى . وأخيراً استطاع الكلام فقال « شكراً للآلهة يا أبى انى رأيتك سلما للمرة الثانية . لا تظن يا أبى أنى تركت عملى من غير تفكير . وانى ليؤسفنى أن أظهر فى هذا الحفل السعيد كطائر الشؤم المنذر بالشر ، فاعلموا يا سادة ، ولا داعى لتنميق القول فليس لدىّ وقت اليه ، انكم عرضة لاعتداء مائن سيقع عليكم . »

فوثب الجميع من أماكنهم كأن صاعقة انقضت عليهم ووقف أرسطوماكس يجرد سيفه بسكون من غمده، ومد فانيس ذراعيه ليتحقق من وجود مرونة المصارعة القديمة فيه .

وصاحوا بصوت واحد « ما الأمر ، وما ذا يراد بنا ؟ »

قال جيجيز « ان المنزل تحيط به سرية من العساكر الاثيوبية ، وقد أخبرنى ثقة أن لولىّ العهد مع واحد منكم شأناً يريد محاسبته عليه ، وأنه يروم القبض على هذا الرجل حياً ان أمكن أو ميتاً اذا قاوم . فخشيت أن يكون أبى الضحية المقصودة ولذا جئت مسرعاً . ولم يكذب مخبرى فالدار حقيقة محصورة بالجند ، ولقد جفل جوادى عندما وصلت الى باب حديقتك يا رودو بيس ، وكان قد أنهكه التعب ، فترجلت وأحدقت النظر فتحققت أن وراء الأدغال أسلحة تلمع وعيوناً تبرق وتسطع لقوم كامنين . ولقد أذنوا لى ولزميلى بالدخول دون أن يمانعوا . »

---

(١) قسم شائع بينهم .

وفى هذه اللحظة دخل كنا كياس وهو يصيح أيضاً « أخبار هامة . حينما ذهبت الى النيل لأستقى ماء لأجل الخمر قابلت رجلا يجرى مسرعاً ، وكاد لسرعته يقفز من فوق رأسى ، وهذا الرجل اثيوبى من بحارة فانيس . وقد أخبرنى أنه عندما نزل الى النهر كى يغتسل رأى سفينة من سفن الملك تقترب من زورق فانيس ، فسأل جندى البحارة قائلا فى خدمة من أنتم ؟ فرد عليه مدير المردى (الدفة) قائلا فى خدمة فانيس . واذ ذاك سارت السفينة ببطء . وعند ذلك وثب البحار (الذى كان يغتسل) اليها وجلس عند خيزرانتها (دفتها) يلاعب نفسه ممازحا فسمع أحد الجند الاثيوبيين يقول لزميل له لا يبرح هذا الزورق نظرك ، الآن عرفنا أين يقيم الطائر وصار من السهل اقتناصه . أذكر أن بسامتك وعدنا خمسين خاتما من الذهب ان نحن جئناه بهذا الأثينى الى سايس حيا أو ميتا . ذلك ما قاله سبيك وقد مضى عليه فى خدمتك سبع سنين يا سيدى فانيس . »

أصغى فانيس الى ذلك وهو هادئ البال .

أما رودوبيس فقد ريعت لذلك وصاح أرسطوماكس قائلا « لن تمس شعرة من رأسك بأذى ولو أدى الأمر الى ابادة مصر كلها . » وأما كربسوس فقد نصح الحضور بالتعقل والتبصر وأشار بالتأنى واعمال الروية ، وقد عرى الحضور نوع من الدهش ملك عليهم مشاعرهم .

وأخيراً قطع فانيس هذا السكوت وقال « ان التفكير ألزم ما يكون فى وقت الخطر . ولقد فكرت فى الأمر مليا، ولقد وضح لى تمام الوضوح . ان الإفلات صعب غير ميسور . انهم يعلمون أنى عازم على السفر على ظهر سفينة فينيقية قاصدة سيجيوم ستقلع فى ساعة مبكرة من صباح الغد ، وعلى ذلك لم يبق الا قليل ثم يظفرون بى . وها هى حديقتك يا رودوبيس محاطة بالجند ، ولئن أنا مكثت هنا طويلا مكنتهم من امتهان حرمة دارك فيجوسون خلالها تفتيشا حتى يقبضوا علىّ . وليس ثمت شك فى أنهم وضعوا رقيبا على السفينة الفينيقية أيضا . واذن فليس ما يدعو الى اراقة الدماء عبثا من أجلى . »

قال أرسطوماكس « ولكنك لن تقدم على تسليم نفسك لهم . »

قال ثيو بومبس التاجر الميليسى « كلا وان لى رأيا وخطة . ستبحر عند شروق شمس باكر سفينة الى ميليتس محملة حنطة مصرية ولن تبدأ السير من نقراتس بل من كانوبوس ، نخذ جواد القادم النبيل وامتطه الى هناك ونحن نفتح لك طريقا من الحديقة . »

قال جيجيز « ولكنا قليلو العدد ولسنا من القوة بحيث نتمكن من تنفيذ هذه الخطة . فانما نحن عشرة وليس يوجد سلاح الا مع ثلاثة منا . أما الجند فعددهم مائة على أقل تقدير وهم مدججون بالسلاح . »

قال أرسطوماكس « لو أنك أيها الليدىّ فى ضعف القلب وخور العزيمة أقل من ذلك بعشرة أضعاف ، وكان عدد الكامنين مائتين لا مائة ، لحاربتهم أنا وحدى . »

فضغط فانيس على يد صديقه ، واصفر وجه جيجيز فان ذلك البطل الشجاع رماه بالجبن ، ولم يجد من الكلمات ما ينطق به اذ خانه لسانه عند ثورته وتصاعد الدم فى وجهه بغتة وصار ينفث الكلام من فمه بسرعة قائلا « أيها الأثينى اتبعنى ، وأنت أيها السبرطى زن كلامك قبلما تنطق به فلا تدع أحدا بعد الآن جبانا دون أن تبلوه تماما . أيها الصحب ان فانيس قد نجا . الوداع يا أبى . »

فجعل الباقون يصعدون أنظارهم ويصوبونها فى هذين الرجلين وهم فى حيرة عقلت ألسنتهم . ثم سمعوا وقع حوافر جوادين ، وبعد فترة طرقت آذانهم أصوات صفير وصراخ من النيل .

قالت رودوبيس لأحد عبيدها سائلة « أين كنا كياس ؟ »

قال « لقد ذهب الى الحديقة مع فانيس والنبيل الفارسى . » ودخل على الفور بعدئذ كنا كياس وهو مصفر الوجه مرتجف الأعصاب . فسأله كريسوس قال « هل رأيت ولدى ؟ »

وقالت رودوبيس « وأين فانيس ؟ »

قال « كلاهما يهديكم سلامه . »

قال كريسوس « لقد خرجا اذن ولكن الى أين ؟ وكيف استطاعا ذلك ؟ »

قال العبد « لقد قام جدال طفيف بين الأثيني والفارسي فى الغرفة التالية . وبعد أن انهيا منه خلعا عنهما ثوبيهما ، وارتدى فانيس سروالى زميله الغريب وصدرته ومنطقته ، ووضع على جدائل شعره الطربوش الفارسي . والتف الآخر بعباءة الأثيني وحرامه ، ووضع الشريط الذهبي على جبهته وحلق شعر شاربه ، وأمرنى أن أتبعه الى الحديقة . ثم امتطى فانيس أحد الجوادين الواقفين عند الباب فلما امتطاه صاح به زميله قال : وداعا ياجيجيز ، وداعا أيها الفارسي المحبوب . أسأل لك سفرا سعيدا ياجيجيز ، وأما الخادم الذى كان منتظرا فقد امتطى الجواد الآخر . ولقد سمعت قعقعة السلاح بين الأدغال ؛ فسار الأثيني دون معارضة واعتقد الجند أنه فارسي دون أن يخالجهم أدنى شك .

« وعندما عاد الغريب الىّ أمرنى أن أستصحبه الى زورق فانيس ، وأن لا أفتأ أناديه باسم الأثيني . فقلت له ولكن بحارة الزورق قد يستريبونك فيخونوك ؛ قال فاذهب اليهم اذن ومرهم أن يستقبلونى كأنى سيدهم فانيس . وعند ذلك رجوته أن أرتدى ملابس فانيس وأقوم مقامه فيما يريد ، فلم يسمح لى قط بذلك قائلا ان مشيته وشكله قد ينمان عليه . ولقد صدق فيما قال فلن تنتصب الا قامة الرجل الحر . أما رقبة العبد الرقيق فدائماً محنية . فالمدارس التى يتعلم فيها النبلاء والأحرار رشاقة الحركات وجمالها لم تفتح للعبيد . وهكذا صدق من قال ، ومن يشابه أبه فما ظلم ؛ وهل يمكن أن ينبت ورد من بصل ، أو سوسن من فجل ؟ ان ذل الخدمة يحنى رقبة العبد ، أما الشعور بالحرية والسؤدد فانه يقوّم الجسم ويكسوه وقاراً ونبلا . »

فاعترضه كريسوس يقول « ولكن ما الذى حدث لولدى ؟ »

قال « لم يقبل منى ما عرضت عليه ، وما أحقر ما عرضت ، وهو يقرئك سلامه أيها الملك وناديته : وداعاً يافانيس، سفر سعيد ، مع السلامة ، وفى تلك اللحظة احتجب القمر ثم سمعت صيحات فى جوف هذا الظلام الشديد وأصوات استغاثة . ولكنها لم تلبث طويلا وقد تبعها صفير شديد أعقبه سكوت أشد ، ولم أعد أسمع سوى أصوات المجاذيف وكنت على وشك الرجوع اليكم لأخبركم بما كان واذا بى أرى البحار سبيك يقترب منى . ولقد أخبرنى بأن المصريين قد فتحوا ثلمة فى زورق فانيس ،

فلما ابتعد قليلا عن الشاطئ غص بالماء وابتدأ يغرق . وعند ما صاح البحارة يطلبون النجاة اقترب الزورق الملوكى ، وكان يتبع زورق فانيس ، واخذ بحارته جيجيز ظنا منهم بأنه فانيس ، وأجلسوه فى زورقهم ، ومنعوا ملاحى زورق فانيس من مزايلة أماكنهم فيه فغرقوا مع الزورق ولم ينج منهم الا سبنياك . فجيجيز الآن فى الزورق الملوكى واما فانيس فقد نجا بنفسه ، ولا بد أن يكون المقصود من الصفير تنبيه الجند المختفين فى الأدغال عند باب الحديقة . ولقد بحثت فى الأدغال فوجدت أن الجند قد غادروها ، ولقد سمعت أصواتهم ورنين سلاحهم وهم عائدون الى سايس . »

أصغى الضيفان كل الاصغاء لهذه القصة ، وعند ما أتمها كنا كياس شعر الجميع بما سرّى عن نفوسهم وما ملأها جزعا . فأما ما سرّى عن نفوسهم فقد كان لنجاة صديقهم من خطر محقق ، وأما الجزع فكان على ذلك الفتى الليدىّ الشجاع الذى عرّض حياته للخطر كى ينقذ فانيس . فأثنوا على كرمه وهنأوا كريسوس به ، وانتهوا على أن ولى العهد حين يستكشف الخطأ الذى وقع فيه رجاله يطلق بلا شك سراح جيجيز بل وربما قدم له الترضية اللازمة عما قاساه من رجاله .

ولم يسكّن روع كريسوس الا ما آنسه من ميل أماسيس لفارس وخوفه من سطوة قمبيز . ثم غادر كريسوس الدار على الفور ليمضى بقية الليل فى دار ثيوبومبس التاجر الميليسى . وفيما هو خارج ناداه أرسطو ماكس قائلا « حىّ جيجيز عنى ، واخبره أنى أسأله الصفح عما فرط منى ، وقل انى آمل يوما أن أستمتع بصداقته ، فاذا لم يقدّر لى ذلك رجوت أن ألقاه فى ميدان الحرب عدوا شريفا وقرنا نبيلا . »

فقال كريسوس وهو يصافحه « من يدرى ما الذى يجىء به المستقبل ؟ . »

الفصل التاسع

أول الهوى

بزغت شمس يوم جديد على مصر ، ولكنها لم تزل منخفضة فى الشرق . وكان الندى الغزير يلمع على الأوراق والزهور كاللآلئ الساطعة . والندى فى وادى النيل يقوم مقام المطر . أما نسيم الصباح ، وقد جددته ريح الشمال الغربى ، فقد كان يغرى الذين لا يحتملون حرارة الظهيرة على التمتع به .

وخرج من باب تلك الدار الريفية المعروفة لدينا شبحا أنثيين هما الأمة العجوز ميليتا وصافو حفيدة رودو بيس . ولم تكن صافو وقتئذ أقل منها جمالا عند مارأيناها فى سريرها نائمة . وكانت تمشى فى الحديقة مسرعة الخطى لابسة رداء الصباح الأبيض ذا الردنين الواسعين المحليين بالسجف الجميلة ، تتدلى على ذراعيها وأطرافها . وكانت تعصب رأسها بمنديل أرجوانى ينبثق من تحته شعرها الأسمر المتكاثف ، وعلى ثغرها الوردى وفى فحصتى (نونتى) خديها وفى ذقنها انطبعت ابتسامة خلابة .

ثم انحنت تقطف وردة ونضحت وجه مرضعها العجوز بما فيها من الندى ، وأغرقت فى الضحك من جراء مداعبتها هذه فسمع لضحكها خلال الحديقة رنين واضح كرنين الناقوس . ثم علقت الوردة على صدرها و بدأت تغنى بصوت غاية فى الرقة والعذوبة وتقول : —

« نام كوبيد اله الحب على فراش من الورد ، لسوء حظه لم ير نحلة كانت هاجعة فى طيات الأوراق . فانتبهت النحلة من رقادها مغتاظة فلدغت الغلام وآلمته . فأن الغلام من ألم ، وهرع الى فينوس (الزهرة) الهة الجمال وقال : أماه انى قد جرحت ويكاد يقتلنى الالم ، صدقينى انه يميتنى لدغى مخلوق صغير متغيظ ، وكأنى به أفعى تسكن غصناً . لقد كان ذلك المخلوق نحلة فقد سمعت ذات مرة فلاحا يناديها بهذا الاسم[1] . »

---

(١) الأبيات الأخيرة من هذه الغزليات ، وهى التى فيها المقدة أو النكتة فتعريبها : —

« فبعد أن بث شكايته ، وكانت تبتسم مصغية اليه ، قالت : أى بنى ! اذا كان هذا مبلغ ألمك من مسة نحلة صغيرة ، فكم يكون ألم القلب الواله الكسير وقد لدغه حبك يا كوبيد ؟ »

و بعد أن أتمت غناءها سألت ميليتا باسمة « أليست هذه الأنشودة جميلة جداً؟ ما أغبى ايروس الصغير اذ يتخذ من نحلة صغيرة أفعى ذات أجنحة ! تقول جدتى ان الشاعر الكبير أنا كريون كتب تكملة لهذه القصيدة ولكنها لم تعلمنى اياها . فقولى يا ميليتا ما عسى أن يكون موضوع القسم الباقى من هذه الأنشودة ؟ أراك تبتسمين . ألا ما غنيتنيها يا ميليتا . قولى هل تعرفينها أو لا تعرفين ؟ لا تعرفينها ؟ اذن فمن المؤكد أنك لا تستطيعين أن تعلمينيها . »

قالت العجوز وهى تحاورها « تلك أغنية جديدة ، ولست أعرف الا الأغانى القديمة . ولكن أصغى ، ألا تسمعين قرعاً على الباب ؟ »

قالت « بلى ، وأظننى سمعت أيضاً وقع حوافر خيل . اذهبى لترى من القادم لزيارتنا فى ذلك الوقت المبكر . لعل صديقنا فانيس لم يسافر أمس فجاء يقرئنا سلامه مرة أخرى قبل سفره . »

قالت ميليتا جادة « لقد برحنا فانيس ، وقد أمرتنى مولاتى رودو بيس أن أدخل بك حينما يزورها أحد . فاذهبى يا بنية وسأفتح الباب بنفسى . ها أنهم يقرعونه مرة أخرى . »

فتظاهرت صافو بالاسراع فى الدخول ، ولكنها بدلا من أن تطيع أوامر مرضعها اختبأت وراء سياج من الورد لترى من هذا الزائر المبكر . وهى لم تكن تعلم شيئاً من حوادث ليلة أمس فقد أخفى عنها كل شىء مخافة ازعاجها، على أنها لم تتعود أن ترى أحداً من قصاد جدتها وصحبها المقر بين يزورها فى مثل ذلك الوقت .

ثم فتحت ميليتا الباب فدخل شاب جميل الشعر مجعده فاخر الملابس، هو بردية . وقد أخذت صافو برائع جماله وجلال زيه الفارسى الغريب لديها ، فوقفت لا حراك بها فى مخبأها وقد شخصت بعينيها الى وجهه لا تريد تحويلهما عنه . وخيل اليها كأنها ترى آبولون بخصل شعره الجميل يقود مركبة الشمس .

ولما اقتربت ميليتا والرجل الغريب من مخبأها مدت رأسها الجميل الصغير بين الورد لتسمع حديث الفتى الجميل ، وكان لا يجيد الكلام بالاغريقية الا أن كلامه كان يسيل لطفاً ورقة .

فسمعته يسأل بلهفة عن كريسوس وعن ولده ، فأخبرته ميليتا بما كان ، وعلمت صافو كل ما حدث بالليل ، وأشفقت على فانيس وما كان ينتظره ، وشكرت فى نفسها لجيجيز كرمه ، ثم ساءلت نفسها دهشة ترى من يكون ذلك القادم الغريب وهو يخطر فى ملابسه الملكية ؟ وكانت رودو بيس قد حدثتها عن كورش وعن أعماله الدالة على شجاعته ، وعن سقوط كريسوس ، وعن قوة الفرس وثرائهم ولكنها حتى هذه اللحظة كانت تظن أنهم قوم من الهمج المتوحشين غير المثقفين . وكان ارتياحها لفارس ومن فيها يتزايد كلما أطالت النظر الى وجه بردية الجميل . وذهبت أخيراً ميليتا لتوقظ رودو بيس وتعلن لها حضور الضيف الجديد ، فاجتهدت صافو فى اللحاق بها ، ولكن ايروس ، ذلك الصبى الغبى الذى كانت صافو من مدة وجيزة تهزأ بجهله ، أراد خلاف ذلك . فقد علق ثوبها بأشواك الورد فأعاقها عن السير ، وقبل أن تنزع ثوبها من بين الأشواك كان الفتى قد أدركها ووقف أمامها يساعدها على التخلص من ذلك السياج الشائك الذى فضح أمرها . فتوردت صافو خجلا ولم تقو على النطق بشىء ولا بكلمة شكر ، وأطرقت الى الأرض خجلة وثغرها يبتسم .

ونظر اليها بردية واجماً لا يفوه بشىء ، وهو ذلك المرح الطروب ، وقد بدأ الدم يتصاعد الى وجنتيه .

ولم يطل هذا الصمت لأن صافو نشطت من عقالها وضحكت ضحكة الطفل الغرير من هذا الغريب الساكت الذاهل ، وذلك المشهد المدهش ، ثم أسرعت تجرى نحو الدار كالظبى النافر .

فما أبطأ بردية أن خطا خطوتين فأدركها ، و بأسرع من لمح البصر قبض على يدها وأمسك بها رغم محاولتها الافلات . فصاحت به بين جادة وهازلة وقد رمته بقوس عينيها السوداوين مستعطفة وقالت « دعنى أذهب . »

قال « وكيف ، وقد اقتطفتك زهرة من سياج الورد ؟ وسأظل ممسكا بك حتى تعطينى شقيقتك تلك الوردة التى تحملينها على صدرك ، تذكرة منك أعود بها أدراجى الى بلادى . »

فأعادت صافو عليه القول « بربك دعنى أذهب . لست أعدك شيئاً الا بعد

أن تترك يدى . »

قال « ولكن اذا تركتها ألا تهربين منى ؟ »

قالت « كلا وثق أنى باقية . »

قال « حسن اذن ، واليك حريتك ولكن عليك الآن أن تعطينى وردتك . »

قالت « انك واجد هناك فى السياج وروداً كثيرة أجمل من وردتى فاختر منها ماشئت ، اذ لماذا لاتريد الا وردتى ؟ »

قال « كى أحتفظ بها تذكارا لأجمل حسناء رأيتها فى حياتى . »

قالت « اذن لست معطية لك اياها ، لأن الصديق الحق من يتحدث بطيبتى لا بجمالى . »

قال « ومن علّمك ذلك ؟ »

قالت « جدتى رودو بيس . »

قال « انى أقول لك اذن انك خير حسان هذه الدنيا وأطيبهن . »

قالت « وأنى لك أن تقول ذلك ولم ترنى الا الساعة ؟ اننى فى بعض الأحيان أكون شكسة عنيدة لا أطيع أحدا . ولئن كنتُ حقا طيبة كما تقول لكنت الآن فى كن حجرتى ، لا واقفة أتجاذب معك الحديث هنا . ان جدتى حظرت علىّ ظهورى فى الحديقة عند ما يشرف دارنا زوارها ؛ ولا أنكرك انى لا أعنى قط بأولئك الرجال الأغراب الذين يتكلمون دائما عن أشياء لا أستطيع فهمها . »

قال « كأنى بك تريدين أن أنطلق عنك أنا أيضا ؟ »

قالت « كلا لانى أفهمك تماما رغم أنك لا تجيد الكلام نصف ما يجيده مثلا صديقنا فانيس المسكين ، الذى اضطر أن يفر هذا الفرار الشائن مساء أمس كما سمعت من لسان ميليتا منذ لحظة . »

قال « أو أحببت فانيس هذا ؟ »

قالت « أحببته ؟ نعم لقد كنت به معجبة . وكيف لا أحبه وقد كان يحضر لى وأنا صغيرة كرات وعرائس ولعبا من منف وسايس . وكان يعلمنى لما أن كبرت أغانى جديدة مفرحة . وقد أهدانى عند سفره كلبا صغيرا من صقلية سأسميه أرجوس

لبياضه وسرعة عدوه . و بعد أيام قلائل سنحظى بهدية أخرى من السيد فانيس الطيب الطاهر القلب لأنه . . . » ثم سكتت فجأة و بعد لحظة تابعت الحديث قائلة « الآن قد علمت من أنا ، ولقد كنت على وشك البوح لك بسر عظيم ، مع أن جدتى حظرت علىّ أن لا أخبر أى انسان عن ضيفاننا الأعزاء . ولكنى أشعر كأنى أعرفك من زمن بعيد ، وأطالع فى عينيك من الوداعة والطيبة ما يدفعنى على الادلاء اليك بكل شيء . واعلم أنه عند ما أشعر بالسرور والسعادة لا أجد مخلوقا فى هذه الدنيا أبوح له بما يخالجنى سوى ميليتا العجوز وجدتى رودوبيس ، ولست أدرى سبب قصورهما عن ادراك سبب مسرتى مع أنهما تحبانى حبا شديدا . »

قال « ذلك لأنهما من العجائز وقد نسيتا ما يجلب السرور فى عهد الصبا . ولكن أليس لك أتراب من سنك تميلين اليهن ؟ »

قالت « ولا واحدة . يوجد بالطبع فى نقراتس بنات كثيرات ولكن جدتى تنهانى عن مصاحبتهن ، فلا هنّ يجئن لى ولا أنا أذهب اليهن . »

قال « مسكينة أنت ، فلو كنت فى فارس لوجدت لك فى الحال صديقة صدوقة . ان لى أختا اسمها آتوسا جميلة وصغيرة مثلك . »

قالت « وانى لآسفة على عدم مجيئها معك . والآن ألا ترى أنه يجب أن تخبرنى باسمك ؟ »

قال « اسمى بردية . »

قالت « بردية ! ما أغرب هذا الاسم ! بردية ! بردية ! أتدرى أننى أحببت هذا الاسم ؟ وما اسم ابن كريسوس الذى أنقذ بشهامته وكرمه صديقنا فانيس ؟ »

قال « جيجيز ، وهو ودارا وزوبيروس أصدق أصدقائى . ولقد أقسمنا أن لا نفترق وأن يبذل كل منا حياته فى سبيل الآخر . وهذا ما دعانى للمجىء اليوم سراً ومبكراً لاغاثة صديقى جيجيز اذ ربما كان فى حاجة الى مساعدتى . »

قالت « لقد أتعبت نفسك فى المجىء الى هنا . »

قال « كلا وحق مثرا ، لأن هذا السفر قد جاء بى اليك . والآن جاء دورى فى السؤال عن اسمك فما هو ؟ »

قالت « صافو . »

قال « اسم جميل وقد كان جيجيز ينشدنى أحياناً أغانى لشاعرة اسمها صافو فهل تنتسبين اليها ؟ »

قالت « نعم فهى أخت جدى شرا كسوس ، وكانوا يسمونها عروس الشعر العاشرة أو الأوزة اللسبية . أظن أن صديقك جيجيز هذا يجيد الاغريقية أكثر منك ؟ »

قال « نعم فلقد تعلم الاغريقية والليدية معاً وهو طفل صغير ، وهو يجيد التكلم بهما بدرجة واحدة . وهو كذلك يجيد الفارسية تماماً ، وفوق ذلك قد حصَّل كل فضائل الفرس . »

قالت « وما رأس الفضائل عندكم معشر الفرس ؟ »

قال « الصدق أولها ، والشجاعة ثانيتها والطاعة الثالثة . وهذه الفضائل الثلاث ، مصحوبة باحترام الآلهة ، سبب عظمتنا نحن الفرس . »

قال « ظننت أن ليس لكم آلهة تعبدونها . »

قال « ما أبلهك طفلة ! من ذا الذى يستطيع أن يعيش بدون اله يعبده ، و بغير حاكم هو أحكم الحاكمين ؟ لست أكتمك أن آلهتنا لا تسكن الدور ولا تتقمص التماثيل والنصب كآلهة المصريين ، اذ أن الخليقة كلها مسكن لهم . فالاله الذى يجب أن يكون فى كل مكان وزمان ، والذى يجب أن يسمع كل شىء ، لا يمكن أن يتقيد بمكان فيحصر بين الجدران . »

قالت « وأين تؤدون العبادة وتقدمون الذبائح ان لم يكن لكم هياكل ومعابد ؟ »

قال « على أعظم المذابح فى أكبر المعابد . فى الطبيعة نفسها . فأعظم المذابح عندنا قمة جبل ، حيث نكون أقرب ما يمكن من الهنا مثرا وهو الشمس القوية القديرة ، وكذلك من الهنا أو رامزدا وهو النور النقى المبدع . النور نفسه طاهر صالح والظلام نجس شرير . ولكن صدقينى أيتها الحسناء ان الاله يكون أقرب الينا على قنن الجبال ، فهى أحب الأماكن وأروحها اليه . ألم تقفى فى حياتك على قمة جبل عال ؟ وهل لم تشعرى وسط سكون الطبيعة العميق أنفاس الآلهة الساكنة البينة المرعبة تهب حولك ؟ ألم تخرى ساجدة فى الأجمة الخضراء بجانب عين ماء نقى أو تحت قبة الزرقاء

ثم أصغيت الى صوت الاله يخرج من بين الأوراق والمياه ؟ ألم ترى اللهب يثب الى الشمس منبته وأصل وجوده ، يحمل معه فى عمود الدخان المتصاعد صلواتنا الى الخالق المتألق الذى يشع منه الضوء ؟ انك تصغين الىّ الآن وأنت دهشة ، ولكنى أقول لك أنك ستتركين معى لذلك الاله وتعبدينه معى ان أنا ظفرت بأخذك معى الى مذابحنا الجبلية . »

قالت « وددت لو أن باستطاعتى أن أذهب معك فأرى مرة واحدة ، وأنا فى ذلك العلو الشاهق ، الأجمات والأحراج والمراعى والأنهار والوديان . اخال أنى شاعرة ، وأنا هناك حيث لا يخفى عن عينى شىء ، اننى أنا نفسى اله قادر يرى كل شىء . ان جدتى تنادينى ألست تسمع نداءها . لا بد أن أذهب . »

قال « لم يأن بعد أن تتركينى . »

قالت « أليست الطاعة احدى فضائل الفرس ؟ »

قال « ولكنى أريد وردتى . »

قالت « ها هى . »

قال « وهل ستذكريننى بعد ؟ »

قالت « ولم لا أذكرك ؟ »

قال « عفواً أيتها الحسناء فلى طلبة أخرى . »

قالت « أسرع بها فجدتى تنادينى ثانية . »

قال « اليك ماستى هذه تذكاراً لهذه الساعة . »

قالت « كلا لست أجسر . »

قال « بل خذيها ، خذيها بربك . لقد أعطانيها أبى مكافأة لى على قتلى بيدى لأول مرة دباً كبيراً ، ولقد كانت هذه الماسة أعز شىء عندى الى أن رأيتك . فخذيها لأنك أصبحت أحب عندى فى هذا العالم من كل ما عداك . »

وما أتم حديثه حتى خلع السلسلة المعلقة بها الماسة ، وعالج أن يعلقها حول عنق صافو فقاومته ، ولكن بردية أحاطها بذراعيه وقبلها فى جبهتها ودعاها حبيبته الوحيدة ،

ثم أمعن نظره فى عينيها ، وكانت ترجف وقتئذ ، ووضع السلسلة فى عنقها بعنف فى رفق .

ونادت رودوبيس للمرة الثالثة فنفرت صافو من بين ذراعى الأمير وأسرعت تجرى نحو الدار ، ولكنها التفتت اليه اجابة لالتماسه فسأل ضارعاً « متى أراك ثانية ؟ » فأسرت اليه فى لطف ورقة « غداً صباحاً عند سياج الورد هذا . »

فقال « التى كانت لى حليفة فعلقت بك تصدك عن السير ؟ »

وأسرعت صافو الى الدار . واستقبلت رودوبيس بردية وأخبرته بما كان من أمر صديقه ، فلما أتمت حديثها غادر دارها على الفور قاصدا سايس .

وفى الليل جاءت رودوبيس كعادتها الى مخدع صافو وهى نائمة فلم تجدها فى نومها هادئة كالمعتاد ، بل رأت شفتيها تتحركان وسمعتها تتنهد من أعماق قلبها كأن حلما ثقيلا أزعجها .

وقابل بردية فى طريقه وهو عائد الى سايس صديقيه دارا وزوبيروس ، وكانا قد تبعاه الى نقراتس عند ما علما بسفره الفجائى السرى . ولقد حدسا قليلا أن بردية بدلا من مقاتلة عدو من الأعداء قد صادف فى طريقه « أول هواه . »

ووصل كريسوس سايس قبل هؤلاء بقليل ، وذهب توا الى الملك وأخبره دون تحفظ بكل حوادث الليل الماضى . فتظاهر أماسيس بالدهشة ازاء سلوك ولده ، وأكد لصديقه أن جيجز سيطلق سراحه حالا ، ثم عطف يمزح ويتهكم كجارى عادته على خيبة مسعى ولده بسامتك فى الثأر لنفسه .

وما كاد يخرج كريسوس من لدن الملك حتى أعلن الحاجب قدوم ولى العهد .

الفصل العاشر

وعيد بسامتك

واستقبل أماسيس ابنه ،وغلا فى الضحك وقال له دون أن يلاحظ اصفرار وجه بسامتك واضطرابه « ألم أقل لك ان مصريا بسيطا لا يجد من السهل عليه اقتناص ثعلب اغريقى ؟ لست أستطيع أن أصف لك ما قام بنفسى من السرور حين علمت أن أسيرك لم يكن سوى ذلك الليدى العيي الأ لكن لا الأثينى اللبق الطلق اللسان. »

فتزايد اذ ذاك اصفرار وجه بسامتك ، وصار يرجف من الغيظ وقال بصوت المقهور « هل يليق بك يا أبى أن تسر لاهانة لحقت ابنك ؟ أقسم بالآلهة الأزلية أنه لولا كريسوس ما رأى هذا الليدى الوقح ضوء هذا النهار . ولكن كيف بك وولدك أصبح أضحوكة لهؤلاء المتسولة من الاغريق ؟ »

قال « لا تحتقر بعد أولاء الذين غلبوك على أمرك وفاقوك فى الدهاء والمراوغة . »

قال « فاقونى فى الدهاء ! ان خطتى كانت محكمة بحيث . . . »

قال « كلما كانت فتائل الشبكة دقيقة كلما كانت أدعى الى القطع . »

قال « بل بحيث كان يتعذر على ذلك الاغريقى الدخيل أن يفلت من يدى ، لولا أن مفوض مملكة أجنبية قد أفسد كل خطة بأخذه على عاتقه انقاذ رجل حكمنا عليه بالموت . »

قال « ها أنت تخطئ يا ولدى . اننا لا نتكلم عن تنفيذ حكم قضائى ، بل عن نجاح واخفاق خطة رسمها رجل لينتقم انتقاما شخصياً . »

قال « ولكن الذين قاموا بالتنفيذ قاموا بأمر من الملك ، وعلى ذلك فأقل ما أطلبه منك الآن أن تسأل قمبيز عقاب ذلك الذى تدخل فى المسألة وأعاق تنفيذ أمرك . ففى فارس حيث يطأطئ القوم هاماتهم لارادة الملك كأنها ارادة اله من الآلهة تكون مثل هذه الجريمة من الشناعة بمكان . ان عقاب جيجيز دين على قمبيز أن يؤديه لنا . »

قال « ولكنى لست أرغب البتة فى سؤاله اداء هذا الدين بل أنى على العكس

شاكر لجيجيز انقاذه فانيس من بين يديك . ان جيجيز قد أنقذ نفسى من جريمة اهدار دم برىء ، وأنقذك أنت من نقيصة أنك انتقمت لنفسك انتقاما دنيئاً من رجل أبوك مدين اليه . »

قال « اذن ستخفى الأمر كله عن قمبيز ؟ »

قال « بل سأذكره له فى خطاب على سبيل المجون كعادتى ، وسأحذره فى الوقت نفسه من فانيس . سأخبره أنه أفلت من انتقامى وأنه ربما جنح الى اثارة فارس ضد مصر ، وسأرجو صهرى الجديد أن يسد أذنيه عن سماع كل مايدلى به اليـه من هراء القول وكاذب التهم . وستكون مساعدة كريسوس وجيجيز بسبب صداقتهما لنا أكبر بكثير من الضرر الذى ينجم عن عداء فانيس . »

وقال « هذا اذن عزمك الاخير ، وهل لا أنتظر ترضية ما ازاء ما حدث ؟ »

قال « لا شىء من هذا البتة وانى مستمسك بما قلت . »

قال « اذن فاستعد لأن ترجف لا أمام فانيس فقط بل أمام شخص آخر — أمام شخص قابض عليك بيديه فى حين أنه هو فى أيدينا وتحت سلطاننا . »

قال « أو ظننت أنك مزعجى بما تقول ؟ انك بالطبع لا تريد أن تفصم عرى الصلة التى أحكمنا ربطها أمس . بسامتك ! بسامتك ! أذكر أنك انما تقف أمام ملكك وأبيك . »

قال « وأنت لاتنس أننى ابنك ، ولو أنك ترغمنى على نسيان أن الآلهة قد جعلتك أبى . واعلم أنه اذا كان لى أن لا ألتمس المساعدة منك ، فانى اذن ملتجىء الى نفسى والى أسلحتى . »

قال « وانى لأذوب تلهفاً على تعرف هذه الأسلحة . »

قال « وأنا لست فى حاجة لاخفائها عنك . اعلم اذن أن طبيب العيون نبنخارى فى أيدينا . »

وعند ذلك اصفر وجه أماسيس وتابع بسامتك حديثه قال « انك قبـل أن يخطر ببالك أن قمبيز قد يطلب اليك يد ابنتك أرسلت ذلك الرجل الى بلاد فارس النائية ، لكى تتخلص من رجل له اطلاع على سر نسب نايتيتس التى تدعون أنها

أختى . والرجل لا يزال هنـاك و بأقل أشارة من الكهنة يظهر لقمبيز أنه انما خدع ، وانك أنت خادعه اذ اجترأت على أن ترسل اليه ابنة سلفك حفرع الملك المخلوع عوضاً عن ابنتك . واعلم أن جميع أوراق نبنخارى فى أيدينا ، وأهمها خطاب منك بخط يدك الى أبيه ، الذى ساعدك فى مولد نايتيتس ، تعده فيه بألف خاتم من الذهب رشوة لكى يكتم حتى عن الكهنة سر مولدها . »

قال أماسيس مضطربا « وعند من توجد هذه الأوراق ؟ »

قال « عند الكهنة . »

قال « الذين يتكلمون بفمك ؟ »

قال « لقد قلتها . »

قال « اذن أعد علىّ ما تريد . »

قال « سل قمبيز أن يعاقب جيجيز ، ثم خول لى الحرية التامة فى تعقب فانيس الهارب ، وسلحنى بالقوة التى أراها وأرضاها . »

قال « هل هذا كل ما تريد ؟ »

قال « تقيد بيمين محرجة تقسمها للكهنة على أن يمنع الاغريق منذ الآن من اقامة معابد أخرى لآلهتهم الكاذبة فى مصر ، وأن يوقف بناء معبد آبولون فى منف . »

قال « كنت أتوقع منك هـذه المطالب . لقد اهتدى الكهنة الى سلاح حاد يشهرونه ضـدى . حسن . انى مستعد للخضوع لرغبـات أعدائى الذين انضممت اليهم ونصرتهم علىّ ولكن على شرطين : أولهما انى أريد ، بل وألح ، أن يرد الىّ ذلك الخطاب الذى أعترف بكتابته لأبى نبنخارى فى ساعة اندفاع وعدم تبصر . فانه ان ظل فى أيدى حزبك فسيجعلنى ، أنا الملك ، عبداً حقيراً للكهنة . »

قال « هذا طلب معقول ، ولكن الخطاب سيرد اليك على شرط . . . »

قال مقاطعا « لا شرط بعد ذلك ، بل واعلم أنى أعتبر طلبك عقاب جيجيز نوعا من الوقاحة ، ولذلك أرفضه بتاتا . اذهب الآن ولا تظهر بعدُ أمام عينى الا ان طلبتك . لقد ربحت لى ولدا أمس لكى أخسره اليوم . قم فلست أطلب منك ابداء أى دليل على حبك البنوى وعلى خشوعك لأبيك ، فلم تشعر بذلك طول حياتك . وعليك

بالكهنة ان كنت فى حاجة الى النصيحة والتعزية ، وانظر بعدئذ هل فى امكانهم أن يقوموا منك مقام الوالد ، وقل لنيتحوتب الذى أنت فى يديه كالدمية من الشمع يلعب بك كما يريد ، قل له انه قد عثر على خير الوسائل لارغامى على اجابة مطالبه التى كان يجب علىَّ أن أرفضها . اننى حتى الآن قد رغبت فى تقديم كل تضحية من أجل الاحتفاظ بعظمة مصر ، ولكنى أصرح ، بعد أن رأيت الكهنة يسعون لتسييرى حسب أهوائهم بتهديدى بخيانة بلادهم ، أن تلك الطغمة أضر على مصر من أى عدو آخر ولو كان ملك الفرس . حذار ، حذار . لقد سلمت بمطالب أعدائى هذه المرة ، وذلك بسبب ما جلبته من الخطر على بلادى من جراء ضعفى الوالدى . ولكننى فى المستقبل ، وأقسم بالمعبودة نيث العظيمة ، سأجعل الكل يشعرون أنى ملك وأنى قادر على البطش بهم . انى اضحى بالكهنوت وبالكهنة كلهم ولن أسمح بعد أن أنزل عن ارادتى الملكية . كفى لست أريد أن أسمع منك كلاما . صه ، واغرب عن وجهى . »

فترك الأمير أباه ، وفى هذه المرة ظل الملك مدة طويلة وهو مضطرب ، وأخيراً استعاد لنفسه من مظاهر الطمأنينة والسرور ما استطاع به الظهور أمام ضيفانه.

ثم ذهب بسامتك توا الى رئيس الجند المصرية ، وأمره أن ينفى الضابط المصرى ، الذى أخفق فى مهمته فأفسد عليه انتقامه ، الى محاجر طيبة ، وأن يعيد الاثيوبيين الى بلادهم . وبعد ذلك أسرع الى الكاهن الأعظم ليخبره كيف أنه استطاع الحصول على الكثير من أبيه الملك .

فهز نيتحوتب رأسه كعادته هزة الاستخفاف والشك عند سماعه وعيد أماسيس ، ثم صرف الأمير ببعض كلمات الوعظ والارشاد ، شأنه الذى لم يتخل عنه قط .

وانطلق بسامتك الى قصره وقلبه مكتئب ونفسه مضطربة تتنازعها هموم شتى . فمن اخفاق فى انتقامه الى قطع علاقاته بأبيه ، ومن خوفه من سخرية الاغريق منه الى شعوره بتسلط الكهنة عليه وتشاؤمه من حظه الأسود المكتوب على جبينه من يوم مولده .

ماتت زوجته ، وهى الحسناء الفاتنة ، ولم يبق من أبنائه الخمسة سوى بنت وولد

صغير أحبه حبا جما . وكان بسامتك اذا أراد أن يفرج كربه ويسرى عن نفسه يذهب اليه . ولم يحرك من هذا الرجل قلبه الجامد البارد الا عيني ولده الزرقاوين ، وفمه الضاحك . ولم يكن أحوج الى ابنه منه فى هذه الساعة ، فذهب يتامس السلوى والشجاعة ليستعين على آلام الحياة ومتاعبها .

سأل أول خادم رآه فى طريقه « أين ولدى ؟ »

قال « ان الملك أرسل الساعة يطلب الأمير نيخو ومرضعه . »

وعند ذلك اقترب من الأمير كبير قهارمه ، وانحنى أمامه وسلمه خطابا مختوما مكتوبا على ورق البردى وقال « هذا كتاب من أبيك الملك . »

فأخذ بسامتك الخطاب منه غاضبا ، وفض الختم (١) الاصفر الشمعى المبصوم عليه اسم الملك وقرأ ما يأتى :—

« لقد استدعيت ولدك حتى لا يربو كأبيه آلة عمياء فى أيدى الكهنة ، ناسيا ما عليه من الواجبات لنفسه ولبلاده . وستكون تربيته موضوع عنايتى ، لأن طابع الطفولة يؤثر فيما بعد فى حياة الانسان كلها . ولك أن تراه ان شئت ، وانما بشرط أن تخبرنى قبل رؤيته . »

فكظم بسامتك غيظه وأخفى ألمه عن الذين حوله . وقد كانت ارادة الأب والملك حسب طقوس المصريين أمراً مطاعا لا مرد له . وبعد أن فكر قليلا نادى رجال صيده ، وأمر باحضار الكلاب والقسى والحراب ، ثم قفز فى عجلة وأمر السائق أن يذهب به الى المستنقعات الغربية ، ظنا منه أنه يبدد سحب غمومه بصيد الضوارى فى الصحارى ، فأنزل بهذه العجماوات البريئة انتقامه الذى فشل فى انزاله بفانيس .

وأما جيجيز فقد أطلق سراحه مباشرة بعد مقابلة أبيه لأماسيس ، وقد قابله رفاقه بالتهليل والهتاف . وقد رأى فرعون أن يعوضه عما نزل به من السجن بمضاعفته له المجاملة ، فأمر له فى اليوم نفسه بعجلة وجوادين من كرام الخيل ، ورجاه أن يقبل

---

(١) بس المصريون الخواتم من عهد بعيد ، وقد جاء فى سفر التكوين أن فرعون أعطى يوسف خاتمه ، وقد وجدت الخواتم فى أيدى كثير من الموميات .

منه رقعة من رقع « الدانا » بحجارتها ، مصنوعة أجمل صنع ، ذكرى لسايس وأيامه فيها . وقد كان نصف القطع مصنوعاً من الأبنوس والنصف الثانى من العاج ، وكتب على بعضها بالذهب والفضة كتابات هيروغليفية غاية فى الدقة والغرابة .

واقد أوغل أماسيس وصحبه فى الضحك من جيجيز وحيلته ، وسمح له ولأصدقائه البواسل أن يجوسوا خلال بيته وينبشوا بين أهله ما شاءوا . أما هو فكان كالوالد الفرح بين أبنائه المرحين . ولم يكن يظهر من طبيعته المصرية شيء الا عند الطعام ، فقد كان يأمر بتخصيص موائد للفرس على حدة . اذ كان من عادات قدماء المصريين أن لا يأكلوا مع الأجانب فى وعاء واحد ، بل كانوا يرفضون أن يمسوا اللحم ان اقتطع منه اغريقى قطعة بسكين . ولم يكن يسمح للأسر الأجنبية فى الدانا أن تخطو عتبة الفراعنة لاعتبارهم نجسين من أكلة الأسماك . ولو أنه أكل على مائدة واحدة مع قوم غرباء من أمة أخرى لعدته ديانة أسلافه نجساً دنساً ملوثاً .

وبعد مضى ثلاثة أيام على ذلك أعلن أماسيس أن تكون ابنته نايتيتس مستعدة للسفر الى آسيا فى ظرف أسبوعين . فأسف الفارسيون على أن اقامتهم فى مصر قد قاربت الانتهاء .

وأما كريسوس فكان يلذ بمجالسة الشعراء والمثّالين والفنانين الساميين ، وشارك جيجيز أباه فى تفضيله الفن الاغريقى والفنانين الاغريق . أما دارا ، وكان قد طالع علم الفلك فى بابل ، فقد كان ذات ليلة يرصد النجوم ففاجأه بالكاهن الأعظم نيتحوتب ودعاه أن يصعد معه على سطح المعبد . فلم يتلكأ دارا حتى يعاد عليه الطلب مرة ثانية . وكان يذهب هناك كل ليلة حباً فى الاستفادة ، وكان يصغى بشوق الى دروس ذلك الكاهن المسن .

وقابله ذات مرة بسامتك وهو مع نيتحوتب ، فسأل الكاهن عن الذي دفعه الى أن يطلع فارسياً على الأسرار المصرية . فقال له « انى انما أعلمه الشائع المتعارف عند كل كلدانى فى بابل ، كما هو شائع عندنا . وعدا هذا فانى أربح صداقة رجل فاقت طوالعه طوالع قمبيز وكسفتها كما تكسف الشمس القمر . ان دارا هذا سيصير ملكا قادراً قوياً ، وانى لأرى أشعة نجمه تضيء فوق مصر . واعلم يا بنى أن الرجل

العاقل الحكيم من ينظر الى المستقبل البعيد ، ومن يعنى بكل ما يجده من الأشياء فى طريقه كما يعنى بالطريق نفسه . انك لا تعرف فى أى الدور التى تمر بأبوابها كل يوم يقيم من قد يسدى اليك فى المستقبل يدا . فلا تترك شيئا فى طريقك دون أن تلحظه بعنايتك ، وفوق هذا وذاك أدر بصرك نحو النجوم . وانك لترى الكلب الأمين يرقد الليلة تلو الليلة وهو يرقب اللصوص ، وما كان أشبهنى به فى رقب الافلاك مدة خمسين سنة — تلك الأفلاك التى تحدثنى عن طوالع الرجال ، وتنبئنى بمستقبلهم وهى تلمع فى ذلك الفضاء الأثيرى . فهى فضلا عن كونها مواقيت للناس تعلن عن صيفهم وشتائهم ، تحدثهم بحظوظهم من خير وشر ، وتخبرهم عن الشرف وعن العار والفضيحة . وهى المرشد المعصوم عن الخطأ ، وقد دلتنى على أن فى دارا نباتا ستنبثق منه يوما ما شجرة عظيمة مباركة كبيرة الجذع كثيرة الفروع . »

ورحب بردية بدرس دارا للنجوم ليلا ، اذ استلزم سهره تأخره فى النوم نهاراً ، وسهل على بردية الا نسلال خفية فى البكور الى نقراتس . وكان بردية قد أفضى بسر هواه الى زو بيروس وجعل يستصحبه معه فى ذهابه الى نقراتس . فكان زو بيروس يشغل نفسه والخدم ، أثناء اجتماع بردية بصافو ، بصيد بعض الطير أو بنات آوى أو اليرابيع . و بذلك استطاعوا أن يوهموا كريسوس بأنهم انما يذهبون للصيدوالقنص حسب عادات أشراف فارس .

ولم يلمح أحد على بردية تغييرا قد يحدثه عادة الحب الأول فى سلوك العاشق وخلقه ، الا أن ذلك لم يخف على تاخوط ابنة أماسيس ، لأنها أحبته منذ رأته أول مرة ، فأحسبت من الأمير تغييراً فى خلقه حيث أدركت منه أنه صار يقصى نفسه عنها . ولقد كان يعاملها فى مبدأ الأمر معاملة الأخ لأخته ، فكثيراً ما كان يصلها بالحديث . أما الآن فجعل يهجرها حذرا و يتجنب الاقتراب منها ، لأنه أدرك سرها ووجد أن فى نظرة الشفقة يمن بها عليها ما يمس اخلاصه وحبه لصافو .

فلما أن شق عليها تغيره و يئست من أمرها باحت بسرها وأحزانها لأختها نايتيتس . فشجعتها هذه ، وذهب بهما الخيال كل مذهب ، فصور لهما السعادة التى تحظيان بها ان وجدتا معا فى بلاط واحد وان هما تزوجتا من أخوين من سلالة الملوك .

وجعلت زيارات الأمير تقل يوماً عن يوم ، فاذا ما أقدم على الزيارة كان بسلوكه ازاء تاخوط بعض الجفاء والنفور .

على أنه لم يكن بوسع الفتـاة المسكينة الا أن تعترف بأن بردية يزداد جمالا ورجولة يوما عن يوم ، خلال اقامتـه فى مصر . وكان ينبعث من عينيه الواسعتين علامات شعوره بالعظمة المقبولة الملطفة ، وكأن هجعة قطعت عليه سروره السابق ففقد خداه لونهما الزاهى ، ولكن ذلك لم يكن الا ليزيده جمالا على جماله فى حين أن تاخوط أيضاً قد قل تورد وجنيتها فقل جمالها وزادت صفرة خديها يوما عن يوم .

وكنفت ميليتا ، أمة رودو بيس ، العاشقين بحمايتها ، وكانت قد بغتتهما صباح يوم فرشاها الأمير بما قدم لها من العطايا ، عدا ما قدمتـه لها صافو من رجاء وتمليق ، فوعدت ميليتا أن تحفظ السر فى مكنون صدرها وأخيراً صارت تساعدهما بكل ما أوتيت من قوة ، خاضعة فى هذا الى ذلك الوازع الطبيعى الذى يحرك عطف عجائز النسوة على العاشقين . فخيل اليها أن « ابنتها الجميلة » ملكة على نصف العالم وكثيرا ما كانت تناديها « يا أميرتى » و « يا ملكتى » حين تكونان على انفراد ، وذهب بها الخيال الى تصور مستقبل زاهر لها فى عمل تختص هى به فى البلاط الفارسى .

الفصل الحادى عشر

أحد مشاهد الهوى

قبل اليوم المحدد لسفر نايتيتس بثلاثة أيام دعت رودو بيس الى وليمة فى دارها فى نقراتس عدداً كبيراً من صحبها وزوارها ، و بينهم كريسوس وجيجز ولده .

أما العاشقان فاتفقا على المقابلة فى الحديقة فى أثناء تلك المأدبة تحت جنح الظلام تحرسهما عين الخادمة العجوز . فلما وثقت ميليتا أن عقد المدعوين قد انتظم والكل لاهون بالحديث فتحت باب الحديقة فدخل الأمير ثم جاءت بصافو اليــه ، وعادت أدراجها تاركة اياهما في خلوة ، ووعدتهما أن تنبههما بالتصفيق ان جد شيء .

واذ ذاك قالت صافو هامسة « لم يبق لى سوى ثلاثة أيام أستمتع فيها بقربك ، فهل تدرى أنه يخيل لى أحيـانا أنى ما رأيتك ألا منذ أمس فقط ؟ ولكننى أشعر فى الغالب أنك كنت لى من أمد بعيد ، وانى أحببتك طول حياتى . »

قال « وأنا أيضاً اخال أنك كنت لى دائما ، لأنى لا أستطيع أن أتصور كيف أنى عشت فى هذا العالم بدونك . وددت لو ينتهى هذا الفراق الآن وأننا جالسان معاً ثانيةً ! »

قالت « صدقنى ان ذلك سيمر بأسرع ممـا تتصور . لا أكتمك أنه سيخيل لنا أن الانتظار طويل ، طويل جداً . على أنه اذا ما انتهى ثم تلاقينا ثانية فأظن أنه سيخيلَ الىّ أننــا ما افترقنا قط . وذاك هو حالى كل يوم . فكم أنتظر الصبح يطلع وأنت معه ، فاذا ما جاء الصبح وجلست بجانبى شعرت كأنك كنت معى طول الوقت وأن يدك لم تترك رأسى قط . »

قال « ومع ذلك فانى عند ما أفكر بساعة فراقنا أشعر بخوف يمسك بناصيتى . »

قالت « أما أنا فلست أخافها كثيراً . انى أعلم أن قلبى سيدمى حين تودعنى ولكنى متحققة من عودتك ومن أنك لن تنسانى . وقد أرادت ميليتــا أن تتأكد من أنك ستظل لى مخلصا ، ولذلك رأت أن تسأل عجوزا حضرت تواً من فريجيــا

تنبئ بالليل عن المستقبل مستخدمة فى ذلك الأوتار والبخور وحصى اللبان والفطائر التى على شكل القمر وأوراق الشجر البرى . ولكنى لم أسمح لها بذلك لأن قلبى يتنبأ أحسن من بيثيا كلها ومن الأوتار ودخان البخور ، ويدلنى على أنك ستكون صادقا فى حبك لى وأنك ستحبنى أبداً . »

قال « وما حديث قلبك الا الحق والصدق . »

قالت « ولكن الخوف قد يعترينى أحيانا فأنفخ فى ورقة من ورق الخشخاش ثم أضربها كما يعمل صغار البنات هنا ، فاذا تمزقت وسمع لتمزيقها فرقعة عالية كنت سعيدة جداً ، وصحت من فرحى : انه لن ينسانى . ولكن اذا ماتمزقت الورقة ولم يسمع لها صوت شعرت بالحزن يدب فى قلبى . ولا أنكر عليك أنى عملت ذلك مائة مرة ، فكان يسمع للورقة فى معظم المرات ذلك الصوت المرجو ، ولذا كان عدد مرات سرورى أكثر من عدد مرات حزنى . »

قال « أرجو أن يكون ذلك نصيبك دواما . »

قالت « سيكون ذلك ، ولكن لا ترفع صوتك هكذا أيها الحبيب فانى أرى كنا كياس فى طريقه الى النهر للاستقاء ، وأخشى أن يسمعنا . »

قال « لك ذلك وسأخفض صوتى . سأخط بأصابعى شعرك الحريرى وأهمس فى أذنك و انى أحبك ، فهل تفهمين ؟ »

قالت « تقول جدتى من السهل أن يفهم الانسان ما يحب سماعه . على أنك لو قلت لى و انى أكرهك ، لكذبتك عيناك وصاحت بى بألف صوت تقول لى انك تحبنى ، فان للعيون الصامتة الخرساء ألسنة هى أفصح الألسنة فى هذا العالم . »

قال « بودى لو كنت أجيد الاغريقية مثلك ، فكنت . . . . » فاعترضته قائلة « وانى لمسرورة لعدم اجادتك لها ، لأنه لو أمكنك أن تدلى الىّ بكل ما تشعر به نحوى فلن تكون ، على ما أرى ، أحب الىّ مما أنت . فالكلام هباء . أصغ الى البلبل هناك ! انه لم يوهب قوة الكلام ومع ذلك أرانى أستطيع فهمه . »

قال « وهل لك أن تبوحى لى بسره ونجواه ؟ أريد أن أعرف ما يقوله الجلجل ، وهو البلبل فى لغة الفرس ، لالفه فى سياج الورد . هل لك أن تفضحى سره ؟ »

قالت « سأهمس لك به . ان البلبلة فى غنائها لالفها تقول « انى أهواك » فيجيبها قائلا « ايتيس » ايتو » ايتيس » ألا تسمعه ؟ »

قال « وما معنى ايتو ؟ »

قالت « قبلته . »

قال « وايتيس ؟ »

قالت « هذه تتطلب بعض الشرح حتى تفهم جيداً . ايتيس معناها دائرة . والدائرة ، بحسب ما تعلمت ، علامة الأبدية ، اذ لا بداية لها ولا نهاية . واذن فالبلبل يغنى قائلا : قبلته الى الأبد . »

قال « واذا قلت لك انى أهواك ؟ »

قالت « أجبتك بكل سرور كما قال البلبل : قبلت هواك اليوم وغدا والى الأبد . »

قال « ما أعجب ليلتنا هذه فكل شيء فيها هادئ ساكن ، حتى البلبل ساكت فانى لست أسمعه . انه جاثم على شجر السنط بين الزهور الحلوة الجميلة . وانى لأرى أطراف أشجار النخيل فى النيل وأرى انعكاس ضوء القمر بينها وهو يتلألأ كالأوزة البيضاء . »

قالت « صدقت وأشعة القمر تسطع فوق كل الكائنات كأنها قيود من لجين ، وما الدنيا فى هذه القيود الا كامرأة لا حراك بها تنام أسيرة ذليلة . وانى رغم ما أشعر به من سعادة الآن لا أستطيع الضحك ، بل لا أستطيع حتى رفع صوتى فى الكلام . »

قال « اذن فاهمسى فى أذنىّ أو غنينى . »

قالت « نعم فذاك خير وأولى . هات قيثارتى . شكراً لك . والآن فلأمل برأسى على صدرك وأغنيك قطعة صغيرة جميلة هادئة ، كتبها ألكمان الليدى تمدحا بالليل وسكونه . وعليك أن تصغى الىّ لأن أغنية الرقاد هذه ، وهى الأغنية الجميلة الهادئة ، يجب أن تخرج من بين الشفتين كالنسيم اللطيف . ولى رجاء أن لا تقبلنى بعد أو أتم غناءها ، وعندئذ سأسألك أن تصوغ لى شكرك فى قبلة . »

ثم غنت تقول : —

« الآن يغشى الليل هذه الارض الهاجعة فترى قمم الجبال غافية هادئة ، وترى الوديان الظليلة ساكنة ساكتة . وترى الصخور الوعرة والوهاد الجوفاء ، بل وترى الوحوش فى آجامها والماشية على التلال هاجعة نائمة. كذلك ترى الاسماك ، التى لاعداد لها ، فى قيعان البحور ، من وحشى وغير وحشى ، فى سنة من النوم تستريح من وعثاء الحياة . حتى النحلة ، وما أكثر اشتغالها ، تنسى نصبها فى يومها . وكذلك ترى الغابة الصامتة وليس يسمع فيها صوت حشرة ولا طنين ذبابة . وترى ذات الريش والزغب من الحيوان قد قهرها سلطان النوم ، فجعلها جاثمة على المعابر بين الأشجار ؛ وهى خافضة أجنحتها الخائرة المنهوكة القوى . »

ولما أتمت غناءها قالت « والآن يا عزيزى فأين القبلة ؟ »

قال « نسيتها فى أصغائى اليك ، كما نسيت من قبل الاصغاء فى التقبيل . »

قالت « يالك من ماكر . ولكن قل أليس غنائى جميلا ؟ »

قال « بلى ككل أغنية تغنينها . »

قالت « والشاعر الاغريقى ، هل سررت من شعره ؟ أنه شعر بليغ . »

قال « أجل فالحق ما تقولين . »

قالت « أليس فى فارس شعراء ؟ »

قال « وكيف تسألينى هذا السؤال ؟ وأنى لأمة تحتقر الأغانى والغناء أن تدعى نبل المشاعر والعواطف ؟ »

قالت « ولكنَّ لكم بعض عادات رديئة . »

قالت « وما هى ؟ »

قالت « أن الواحد منكم يتزوج من أكثر من واحدة . »

قال « حبيبتى صافو . . »

قالت « لا تخطئ فهم قولى . اننى أهواك هوى مبرحا حتى أنى لست أرغب فى أكثر من سرورك وسعادتك ، وأن يسمح لى دوما بالمكث معك . فاذا كنت ، باتخاذى لك زوجة دون غيرى ، تتخطى شرائع بلادك ، أوكنت بذلك تعرض نفسك لقالة السوء (ولا أقول الاحتقار فليس من يجرؤ على احتقارك يا بردية) اذن فاتخذ لك غير زوجة واحدة . وانما كن لى أنا وحدى سنتين اثنتين على الأقل ، أو ثلاث سنين ان استطعت . فهل تعدنى بذلك يا بردية ؟ »

قال « نعم أعدك . »

قالت « اذن اذا مضى زمن ورأيت وجوب الخضوع الى طقوس بلادك (وفى هذه الحالة لا يكون للحب دخل فى اتخاذك زوجة أخرى) فلأكن أولى خادماتك وجواريك . ولا يحزنك قولى هذا اذ تلك خطة رسمتها لنفسى وارتضيتها عن طيب خاطر . فاذا ما ذهبت للحرب تخوض غمارها وضعت العمامة حول رأسك ، وعلقت الحسام فى منطقتك ، ووضعت فى يدك احدى الحراب . واذا ما عدت ظافراً منصوراً كنت أول من يتوج هامتك باكليل النصر . واذا خرجت للصيد والقنص شددت لك المهماز ، واذا دعيت الى وليمة زينتك وعطرتك ونثرت الورد حول رأسك وكتفيك واذا جرحت قمت بتمريضك لن أبرح جانبك أو تبرأ . فاذا ما رأيتك سليما معافى مسروراً عدت أدراجى ، امتع ناظرىّ من بعيد بما أنت فيه من مجد وسرور . ثم قد تدعونى لاقترب منك فتقبلنى وتقول : انى بك قانع يا صافو ، وانى لا زلت أهواك . »

قال « حبيبتى صافو ! وددت لو انك زوجى منـذ اليوم — بل منذ الآن . أن الرجل الذى يملك كنزاً مثلك لابد أنه قائم على حمايته والدفاع عنه بكل ما أوتى من حول وطول ، ولن يجنح قط الى تلمس غيره . على أنى ان قارنتك يا صافو بغيرك لكنت بينهن كالشمس تزهى بنورها على بقيـة الكواكب . واعلمى أن من تذوق طعم حبك مرة فلن يمكنه أن يحب أخرى . انى أعرف أن من عادات بلادى أن يتزوج الرجل من أكثر من زوجة ، وهذا مسموح به فقط وليس ضربة لازب ، بل وليس من شرائعنا ما يحتمه . حقيقة ان أبى كان له من الجوارى مائة أو يزيد ، ولكن لم يكن له من بينهن الا زوجة واحدة فقط هى أمى كاساندين . »

قالت « وسأكون منك ما كانت كاساندين من أبيك . »

قال « بل ستكونين منى مالم تكنه امرأة قبلك من بعلها . »

قالت « ومتى تعود لتطلب يدى ؟ »

قال « بأسرع ما يمكننى وعند ما يؤذن لى بذلك . »

قالت « علىّ اذن أن أنتظر بصبر وأناة . »

قال « وهل لا تكتبين الىّ ؟ »

قالت « سأكتب طويلا . سأكتب لك كتبا طويلة جداً ، وأحمل الرياح لك كل رسالة سارة . »

قال « أجل افعلى ذلك يا عزيزتى وارسلى كتبك مع الرسول الذى يحمل الأخبار الى نايتيتس من مصر بين وقت وآخر . »

قالت « وأين أجده ؟ »

قال « سأعين رجلا يقيم فى نقراتس يأخذ على عاتقه ذلك وسأتفق مع ميليتا على كل شيء . »

قالت « ثق بها فهى حريصة وأمينة . ولكن يوجد صديق آخر لى أعز الىّ من كل من فى الوجود ما عداك ، ويحبنى أكثر من كل شخص الاك . . . »

قال « أتقصدين جدتك رودو بيس ؟ »

قالت « نعم فهى وصيى وأستاذى الأمين . »

قال « أجل وهى من فضليات النساء . انها فى نظر كريسوس خير النساء ، ولا تنسى أن كريسوس قد خبر الناس كما يخبر الطبيب النباتات والأعشاب ، فيعرف أن فى بعضها سما زعافا وفى بعضها الترياق الشافى . وكثيراً ما قال لى كريسوس ان رودو بيس كالوردة تذبل و يساقط ورقها واحدة فأخرى ، ولكن لا زال ينبعث منها أريج شذى و بلسم سريع فى شفاء المرضى والضعفاء . وهذه الوردة لا زالت تنتظر ، وهى صابرة ، تلك الريح التي ستذروها فتفرق ما بيننا و بينها . »

قالت « متعتنى الآلهة بطول عمرها . ولى اليك رجاء فهل أنت مجيبى اليه ؟ »

قال « انى أجبتك اليه قبل سماعه منك . »

قالت « عندما تأخذنى الى بلادك لا تترك رودو بيس فى مصر ودعها تحضر معنا . انهـا شفيقة بى وتحبنى كثيراً حتى ليسرها ما يسرنى ، وحبيب الى قلبها كل ما هو حبيب الى قلبى . »

قال « ستكون أكرم نزيل فى قصرى . »

قالت « الآن أشعر بالسرور على أتمه ، وانى لقانعة بما وصلت اليه لأنى أعتقد أنى لازمة لجدتى . انها لن تستطيع العيش دونى ، فانى أنفس كربها وأنزع شجاها .

وهى اذا ما غنتنى ، أو علمتنى كيف يكون النغم ، أو كيف أضبط القيثارة ، فان نوراً ينبعث من جبينها ، ويختفى من أسارير وجهها كل ما خطته الأحزان والآلام ، و يظهر السرور على عينيها ويخيل الىّ أنها قد نسيت الماضى المحزن بالحاضر السار. »

قال « انى سائلها قبل مبارحتى لكم أن تصحبنا الى فارس . »

قالت « ما أشد سرورى لذلك ! وهل تدرى أنه يظهر لى أن أولى أيام فراقنا لن تروعنى كثيراً . انك ستكون زوجى وحق علىّ اذن أن أخبرك بكل ما يؤلمنى وما يسرنى حتى فى الوقت الذى لا أجسر فيه على اخبار أحد بأمرى . فاعلم اذن أنه عند مغادرتك لنا سنكون بانتظار زائرين صغيرين ، هما ولدا فانيس الذى أنقذه صديقك جيجيز بكرمه وشجاعته . وأقصد أنى سأكون لهما كالأم ، فاذا ما شبا وترعرعا غنيتهما قصة أمير شجاع اختار فتاة بسيطة لكى تكون زوجاله. وعند ما أصف ذلك الأمير ستكون أنت فى مخيلتى . سأصفك من رأسك الى اخمص قدميك ، ولو أن الصغيرين لا يحدسان من أمرك شيئاً . سيكون ذلك الأمير فى طولك ، وسيكون له شعر مجعد أصفر جميل كشعرك ، وعينان زرقاوان كعينيك ، وله لباسك الفخم يزين جسمه اللطيف . وسأعطى بطل قصتى كل ما فيك من كرم قلب وحب للصدق واحترام للآلهة ، وما فيك من شجاعة و بطولة . وبالاختصار سأقول كل ما أحبه وما أكبره فيك ، وسيصغى الىّ الطفلان طويلا مندهشين فاذا ما صاحا : ما أجمل هذا الامير وما أكثر حبنا له ! وددنا لو رأيناه . — قربتهما اذن من قلبى ، ولثمتهما كما ألثمك الآن ، واذ ذاك يحصلان على رغبتهما لأنهما سيطالعان صورتك فىّ . واذا ما ضمانى اليهما ضمك الى صدريهما فى الوقت نفسه . »

قال « وأنا سأذهب الى شقيقتى آتوسا وأخبرها بكل ما رأيت فى سياحتى ، فاذا ما وصل بى الحديث عن الاغريق وظرفهم وفنونهم وأعمالهم العظيمة الفنية وجميلات نسائهم ، فانى سأصف لها أفروديت الذهبية مترسما شكلك فى وصفى . سأحدثها عما فيك من فضيلة وجمال وقناعة ، وسأخبرها بصوتك الشجىّ الذى يخلب اليه الأسماع و يستهوى حتى البلابل فى الأغصان ، وسأقول لها الكثير عن حبك لى ورقتك ، وسأنسب كل شىء الى سيبريس Cypris المقدسة . فاذا ما صاحت :

ما أجملك يا أفروديت ! بودى لو أراك . — أقبلت بدورى على أختى فقبلتها تقبيلا . »

قالت « أصغ ، ما هذا ؟ أن ميليتا بلا شك صفقت بيديها . وداعا اذن ، فيجب أن نفترق على أمل اللقاء قريباً . »

قال « زوديني قبلة أخرى . »

قالت « وداعا والى الملتقى . »

* * *

تغلب التعب على ميليتا فأغفت ، ولكن أحلامها لم تطل اذ أيقظتها فجأة ضوضاء عالية ، فصفقت بيديها لتنبه العاشقين وتنادى صافو لانها تيقنت من النظر الى السماء أن الفجر على قاب قوسين أو أدنى .

وعند ما اقترب الاثنان من الدار وجدا أن الضوضاء التى أيقظت الأمة العجوز نتجت عن لغاط الضيفان وهم يستعدون للانصراف . فألحت ميليتا على صافو بالاسراع ، وقادتها الى مخدع نومها فى الحال . واذ بدأت تخلع ملابسها عنها دخلت عليهما رودو بيس .

فقالت « أولم تنامى بعد يا صافو ؟ فما هذا يا بنية ؟ »

فارتجفت ميليتا من خوفها ، وكانت شفتاها على وشك التفوه بحكاية مصوغة ملفقة . ولكن صافو رمت بنفسها على صدر جدتها ، وعانقتها برقة ، وحدثتها بأمرها وأمر حبها وغرامها .

فاصفر وجه رودو بيس ، وأمرت ميليتا بالخروج ثم وقفت أمام حفيدتها ووضعت كلتا يديها على كتفيها وقالت جادة « حدقى النظر الى عينىّ يا صافو . ألا تستطيعين أن تنظرى بهما الىّ نظرة السرور والبراءة كما كنت تنظرين قبل مجئ هذا الفارسى الينا ؟ »

فرفعت الفتاة عينيها فى الحال وهى تبتسم سروراً ، فما كان من رودو بيس الا أن ضمتها الى صدرها وقبلتها ، ثم استمرت فى كلامها قالت « اننى وجهت كل جهودى منذ نشأتك الى السهر عليك وتدريبك على حياة العذراء الشريفة ، حتى لا تنزلق قدمك فى مزالق الهوى ، وحتى لا تؤخذى بحبائل الغرام . وكنت أقصد حسب

طقوس بلادنا ان أختار لك زوجا يلائمك أضعك بين يديه ، وأوكلك اليه . ولكن الآلهة أرادت غير ما أردته لك . ان ايروس [١] يسخر من كل الجهود البشرية التى تبذل لمقاومته أو ربطه داخل دائرة محدودة . على أن الدم الايوليانى Aeolian الذى يجرى فى عروقك يتطلب الحب . وان قلب جدودك اللسبيين ، ذلك القلب الحساس الغدق بالعواطف ، انما يدق فى صدرك . وان يمكن تدارك مافات . فاكنزى تلك الساعات السعيدة ساعات حبك الطاهر الأول ، واحتفظى بها فى زوايا ذاكرتك لأنه لا بد لكل انسان أن يمر به ، ان عاجلا أو آجلا ، حاضر محزن موحش فلن يجد أمامه سوى الماضى الجميل يعيش على ذكراه . فاذكرى هذا الأمير الجميل وأنت ساكنة ساكتة ، واستودعيه الآلهة حين يهم بالعودة الى بلاده ، واحذرى أن ترجى رؤيته مرة أخرى . ان الفرس قوم متقلبون لا يثبتون على حال واحدة ، يهيمون بكل جديد غريب عنهم . واعلمى أن الأمير قد سحره جمالك فافتتن بك وهام الآن ، ولكن اذكرى أنه صغير وجميل تستميله وتسترضيه الكثيرات ، وفوق هذا وذاك فهو فارسى ، فاتركيه أنت قبل أن يهجرك . »

قالت « وأنَّى لى ذلك يا جدتى وقد أقسمت أن أكون أمينة فى حبى له طول حياتى . »

قالت « انك يا بنيتى تلعبين بالأبدية كأنها لحظة مقضية . وانى ألومك على هذا العهد ، وفى الوقت نفسه أكبر فيك تقييدك بالقسم قصد البر به . اننى أكره المثل القائل بأن زيوس لا يحاسب على أقسام العشاق وأيمانهم ، ففى ذلك تجديف وكفر ، اذ لماذا يعتبر القسم الخاص بأرق وأقدس عواطف الانسان أقل فى الأهمية عند الآلهة من الايمان الخاصة بتافهات الأمور ؟ فاحتفظى بعهدك اذن واستمسكى بحبك ، ولكن اجتهدى فى نبذ من تهوين . »

قالت « حاشاى يا جدتى أن أفعل ذلك ، وهل تظنين أنى كنت أحب بردية مالم أستوثق منه ؟ اننى ، من أجل أنه فارسى يرى الصدق أكبر الفضائل ، أجسر على الوثوق بوعده وقسمه معتقدة أنه على الرغم من تلك العادات السقيمة الاسيوية

---

(١) اله العشق .

سيتخذنى دون سواى زوجة له . »

قالت « وان نكث معك العهد وأخلف الوعد فلن تمضى أيام شبابك فى غير الحزن مكلومة القلب . . »

قالت « بعيشك يا جدتى العزيزة لا تتكلمى عن تلك الأشياء المروعة . انك ان عرفته كما عرفته أنا لعذرتنى وقلت انى محقة فى اعتقاد أن النيل قد يجف ماؤه وأن الأهرام قد تساقط فنصبح هشيما قبل أن يرضى بردية لنفسه خديعتى . »

ونطقت الفتاة بهذه الكلمات ببشاشة وثقة تامة ، وكانت عيناها مع امتلائهما بالدموع تلمعان من فرط الفرح وشدة العاطفة ، حتى أصبح وجه رودو بيس فرحا باشًّا أيضا . ثم ألقت بذراعيها حول عنق جدتها مرة أخرى وحدثتها بكل كلمة قالها بردية لها وختمت بيانها الطويل بقولها « أى جدتى ! اننى سعيدة جداً . واذا ما رافقتنا الى فارس فلن يكون أمامى من المطالب والرغبات شىء أطلبه من الآلهة الخالدة . »

قالت رودو بيس « ولكن ذلك لن يدوم طويلا فالآلهة تنظر الى الكائنات الفانيــة بعين الحسد ان هى عاشت سعيدة . ان الآلهة يا بنية تكيل لنا قسطنا من الشر بأيد مسرفة مفرطة ، ولا تكافئنا عما نعمل من خير الا بالنزر اليسير . والآن فاذهبى الى سريرك ، وانِدعُ الآلهة معاً أن يكون الخير نهاية كل شىء . لقد قابلتك صبح اليوم وكنت طفلة ، وها انى أتركك بالليل وأنت امرأة ، فاذا ما صرت زوجة رجوت أن تكون قُبلتك التى تمنحينها لى مثــل قُبلتك لى فى هذه الساعة . وغدا سأقص الأمر على كريسوس ، وهو الذى يقرر اما أن أسمح لك بانتظار عودة الأمير أو أن أطلب اليك نسيانه لتكونى زوجة طائعة لرجل اغريقى . فقرى عينا اذن ونامى هادئة البال ، فان جدتك ستسهر على راحتك فى نومك وفى يقظتك . . »

ورقدت صافو على فراشها ، وما أسرع ما نامت وهى مغرقة فى خيالها اللذيذ وأمانيها السارة . أما رودو بيس فظلت ساهرة ترقب النهــار ، وما أشرقت الشمس الا وقد تعاقبت الآراء والأفكار على عقلها ، فكانت تبسم آنا وتعبس آنا آخر .

وأرسلت عند الصبح الى كريسوس ترجوه أن يقابلها ، فأجابهــا وأدلت اليه بكل صغيرة وكبيرة من حديث صافو لها وختمت قولها بهذه الكلمات « لست أدرى

ما الذى يجب توافره من الشروط فى زوجة ملك فارسى ، ولكنى أصدقك القول بأنى أعتقد أن صافو جديرة بأن تكون زوج ملك ملوك هذا العالم . لقد كان أبوها حراً من أسرة شريفة ، ولقد سمعت أن الطفل ينسب حسب شرائع الفرس الى أبيه . وفى مصر أيضا يتمتع أبناء الملوك من الجوارى والاماء بنفس الحقوق التى يتمتع بها أبناؤهم من الأميرات زوجاتهم ، ما دام الكل قد انحدروا من صلب أب واحد . »

قال كريسوس « لقد أصغيت اليك ، ولا بد لى أن أعترف أنى مثلك لست أدرى الساعة هل أسر لتلك العلاقة أم أحزن . ان قمبيز وكاساندين أمه وأم بردية رغبا فى زواجه قبل أن يبرح فارس ، لأن الملك الى الآن لم يعقب ولدا وسيبقى عقيما . وعلى ذلك انحصر همّ أسرة كورش فى بردية فاليه سيتخلص المُلك . ومعلوم أن مؤسس دولة الفرس لم يعقب من الذكور سوى اثنين هما قمبيز وذلك الأمير خطيب حفيدتك . وهذا الأمير اليوم هو موضوع محبة الأمة الفارسية كلها كبيرها وصغيرها ومحط أملهم واعجابهم . فهو معبود الشعب ، المحبوب منه ، الكريم النبيل الجميل الفاضل الذى يستحق منهم هذا الولاء وذلك الحب . والمعروف فى الحقيقة أن الأمراء لا يتزوجون الا من بنات الأسرة المالكة وهى أسرة الاخيمينيين . على أن للفرس ميلا غير محدود لكل شىء غريب . وسيسحرهم جمال حفيدتك ، بل وسيغمضون الطرف منحازين لبردية فيسمحون له بكل سهولة بتخطى عادة من عاداتهم القديمة . ولا أكتمك أن الملك ان وافق على ذلك فلا اعتراض البتة يمكن أن يقوم من جانب الرعية . وتاريخ ايران مملوء بما فيه الكفاية من الأمثلة التى تدل على أن كثيرات من الجوارى كن أمهاتٍ لملوك . وفوق هذا فان أم الملك ، ومكانتها فى أعين القوم تقرب من مكانة الملك نفسه ، لن تعمل ما يتعارض مع سعادة أصغر أبنائها المحبوب منها . فاذا ما رأت أنه لن يسلو صافو و ينسى حبها ، وأن وجهه البسام الذى تعبد فيه صورة زوجها كورش العظيم أصبح عابساً منقبضاً ، فانى أعتقد تمام الاعتقاد أنها تقبل أن تصادق له لا على زواجه من صافو فحسب بل حتى على زواجه من امرأة اسكيثية ما دام ذلك يرد له سروره و بشاشته . وكذلك الحال مع قمبيز نفسه فانه لن يرفض طلبه ان سألته أمه اياه فى فرصة ملائمة . »

قالت رودوبيس « اذن زالت الصعاب كلها من الطريق . »

قال « ليس أمر الزواج هو الذى أخشى ، وانما أخاف ما بعده وأنا من جراء ذلك قلق . »

قالت « أتظن أن بردية اذن . . ؟ »

فاعترضها قائلا « لست أخشى من ناحيته شيئاً ، فله قلب نقى مضى عليه زمن طويل وهو مغلق عن الحب . والآن وقد خضع لسلطان الهوى فسيحب طويلا وسيكون هواه مبرحا شديداً . »

قالت « وممّ تخاف اذن ؟ »

قال « يجب أن تذكرى أنه ، وان كانت الحسناء الفاتنة زوجة بردية الذى يحبون ويكرمون ستستقبل أحسن استقبال من صحبه الرجال ، فان هناك آلافاً من السرارى المقيمات فى مقاصير نبلاء الفرس سيسعين بكل ما أوتين من ضروب السعاية والدس لاسقاط ذلك النجم الجديد الذى يسطع فى سماء البيت المالك ، بل ويسرهن كثيراً الاضرار بفتاة صغيرة غير مجربة فينغصن عليها عيشها . »

قالت « فأنت اذن مسىء الظن جداً فى نساء الفرس . »

قال « ما هنّ الا نسوة ، فهن بالطبيعة سيحسدن تلك التى تزوجت من الرجل الذى يتطلعن اليه لأنفسهن أو لبناتهن . وعدا ذلك فان نسق عيشهن السرمد النسق الخالى من العمل يسهل استحالة الحسد الى كراهية ، هذا الى أن ارضاء ميولهن الشريرة هو كل ما يمكن لهؤلاء المسكينات أن يستعضن به عن خلو قلوبهن من عاطفة الهوى وعن فقدهن الحرية . وانى أعيد عليك القول انه ما دامت صافو تمتاز عليهن بجمالها كلما زاد حقدهن عليها وحنقهن منها ، وانه حتى اذا أولع بردية غراما بها فأعرض عن اتخاذ زوجة أخرى له سنتين أو ثلاثا ، فلا يزال أمامها ساعات عصيبة تدافع فيها عن نفسها وتكافح حتى لأجهل اذا كنت أجرؤ على تهنئتك على مستقبل حفيدتك الذى يبدو لى سعيداً هنياً . »

قالت « وذاك هو نفس ما أشعر به ، وعندى أن اغريقياً بسيطاً خير لها من ابن ملك عظيم كبردية . »

وفيما هما كذلك دخل كنا كياس الحجرة ومعه بردية . فذهب هـذا تواً الى رودو بيس وطلب اليها أن تسمح له بحفيدتها زوجة ، وتكلم عن هواه الشديد وحبه لها ، وأكد لهـا أن سعادته تتضاعف ان هى تعطفت فقبلت أن تذهب معهما الى فارس . ثم التفت الى كريسوس وأخذ بيده والتمس العفو عن كتمه سعادته العظيمة هذه طول هذه المدة عن هو اليه كأبيه ، ورجاه فى الوقت نفسه أن يعيد الخطبة على رودو بيس .

فأصغى الشيخ الى لغة العواطف يتحدث بها الفتى ثم ابتسم وقال « أى بردية ! كم مرة حذرتك من الحب وقلت لك انه نار محرقة ؟ »

قال « ولكن لهيبه ساطع وجميل . »

قال « انه يؤلم . »

قال « ولكن ألمه سائغ الطعم حلو المذاق . »

قال « انه يطوح بالعقل والنهى . »

قال « ولكنه يقوى القلب . »

قالت رودو بيس « يا لهـذا الحب ! يخيل الىّ أن الفتى يتكلم بوحى ايروس ، وكأنه عاش حياته كلها يدرس لغة الهوى على أحد أساتذة أثينا الخطباء . »

قال كريسوس « ومع ذلك فان هؤلاء العشاق أقل التـلاميذ قابلية للتعليم . أقنعهم ما شئت بأن العاطفة التى تجيش بها صدورهم ليست الا اسما آخر للسم والنار والجنون والموت تجدى أنهم لا يحيدون عن القول بأنه حلو المذاق ، ويستمرئون المضى فى طريقهم لا يمنعهم مانع . »

وفى أثناء ذلك دخلت صافو متجلببة ثوباً أبيض ذا ردنين واسعين وحواف مطرزة بالأرجوان منسدلة حول جسمهـا الرقيق ، وعلى خصرها حزام من ذهب خالص ، وعلى شعرها ورد غض نضير ، وعلى صدرها أولى هدايا حبيبها وهى تلك الماسة المتألقة .

ودنت من كريسوس بمزيد التأدب والخفة والرشاقة وحيته باحنـاء رأسها له ، فأحدق عينيه طويلا فى ذلك الوجه الجميـل وتلك الملامح الفتانة . وكان كلما أطال النظر اليها كلما تجسم فى ناظريه الحنان والشفقة . ومرت عليه لحظة خيل اليه فيهـا

أنه عاد الى الصبا والشباب الأول ؛ ثم جرى الى الفتاة ، على غير قصد منه ، وقبلها بعطف فى جبينها ، ثم أخذ بيدها وقصد بها الى بردية وقال « خذها . لا بد أن تكون زوجة لك حتى ان قام الأخيمينيون عن بكرة أبيهم ينصبون لنا المكائد ويحيكون شباك الدسائس . »

قالت رودوبيس وهى تبتسم رغم تهطال دموعها « أليس لى صوت يؤخذ فى الموضوع ؟ »

ولدى سماع هذه الكلمات أخذ بردية بيمناها وصافو بيسراها وشخصا الى وجهها يرجوان ويستعطفان وهما صامتان . فانتصبت واقفة رصاحت بهما وكأنها احدى النبيات « وقاكما ايروس ، الذى قرب بينكما ، وكلأكما زيوس وآبولون . انتما الآن فى نظرى وردتان جميلتان على غصن واحد سعيدين بحبكما وأنتما فى ربيع الحياة . أما ما سيجىء لكما به الصيف والخريف والشتاء فهو مخبوء مع الآلهة . أرجو أن تبسم الآن روحا والديك يا صافو عند ما تصل اليهما أنباء ابنتهما وهما فى دار الخلود . »

* * *

بعد ذلك بثلاثة أيام ازدحم الشاطئ عند مرفأ سايس بجمهور كبير من الناس . وقد اجتمعوا هذه المرة لتوديع ابنة ملكهم ، وفى هذا الاجتماع كان يظهر على وجوه الجماهير الحاشدة ، رغم ما بذله الكهنة ، اشارات الاخلاص وعلامات الحب والولاء التى تحملها قلوبهم المخلصة لملكهم وآل بيته . فانه عند ما قضى أماسيس ولاديس حاجتهما من عناق نايتيتس لآخر مرة والدموع تغشى العيون ، وعند ما عانقت تاخوط أختها مرة أخرى وتركت العنان لدمعها يتفجر من مآقيها على مرأى ومسمع من جميع أهل سايس وكانت قد تبعت أختها منحدرة على سلم المرفأ الواسع المؤدى الى النهر ، وعند ما ملأت الريح شرع اليخت الملكي يحمل الأميرة التى اختيرت لتكون عروسا للملك العظيم فى تلك البلاد النائية — أدمعت عيون الجموع المحتشدة هناك الا نفرا قليلين انحبس الدمع فى عيونهم .

شاهد الكهنة وحدهم هذا المنظر وهم جمود لم تتحرك فيهم عاطفة. ولما أن دفعت

ريح الجنوب الشرع فسارت السفن بعيداً حاملة أولئك الأجانب الذين اختلسوا أميرتهم منهم زمجر المصريون الواقفون على الشاطئ وصخبوا ولعنوا . و بقيت تاخوط وحدها تبكي بكاء مراً وتلوح لهم بمنديلها . فلمن يا ترى كانت تلك الدموع تنهمل ؟ أكانت لرفيقة صباها ، أو كان بكاؤها على فراق ذلك الأمير البارع الحسن والجمال الذى فتنت بهواه ؟

ثم عانق أماسيس زوجته وابنته على مرأى من الجميع ، ورفع بيديه حفيده الأمير نيخوكى يروه فصاحوا عند رؤيتــه صياح الفرح والاستحسان . ولكنّ بسامتك أبا الوالد وقف جامداً لا يتحرك ولا تدمع عينــاه ، وتظاهر الملك أنه لم يره . وأخيراً اقترب نيتحوتب منه وقاده الى أبيه ، ووضع يده فى يده ، وضرع الى الآلهـة أن تبارك الملك وأسرته . فخر كل الحضور من المصريين على الأرض راكعين ؛ ورفعوا أكف الضراعة والابتهــال . فضم أماسيس اذ ذاك ولده الى صدره ، ثم لما أن أتم الكاهن الأعظم صلاته أسر الملك اليه : « ليحل السلام بيننا لأجلنا ولأجل مصر . »

قال « هل تسلمت خطاب نبنخارى ؟ »

قال ان سفينة قرصان سامىّ تطارد الآن سفينة فانيس . »

قال « فاطمئن اذن على ابنة سلفك الملك حفرع ، وهى الوارثة الحقيقية لملك مصر ، فستسافر الى تلك البلاد النائية دون مانع . »

قال «اذن فستقف عما قليل أعمال البناء فى المعبد الاغريقى الذى يشاد فى منف . »

قال « منحتنا ايزيس سلاماً وأمنــاً ، وليخيم اليسر والرخاء على أرض مصر . »

* * *

وأعدت الجالية الاغريقية فى نقراتس زينة بديعة بمناسبة سفر نايتيتس ابنــة حاميهم والمدافع عنهم . وذبحت الذبائح على مذابح آلهة الاغريق ، وأدى الناس التحية لدى وصول الزوارق النيلية الى المرفأ :

وقدمت الجالية هناك هدية العرس الى نايتيتس ؛ وهى مكونة من اطار من الذهب رصعت حوله أزهار البنفسج العطرة ؛ وقدم الهدية صافو على رأس جمع من صغار الفتيات هناك لأنها كانت أجمل فتيات نقراتس .

وعند ما تسلمت نايتيتس الهدية قبلتها فى جبينها اعترافاً بالشكر . وكانت السفن بالانتظار وذهبت نايتيتس الى احداها و بدأ البحارة يعملون فى مجاذيفهم وهم يغنون و ينشدون . وملأت الريح شراع السفينة وهتف الناس لها عند مسيرها من كل الجهات . ووقف بردية على ظهر السفينة أيضاً وأشار بيده الى خطيبته مودعاً ، فى حين جعلت صافو تصلى فى صمت الى أفروديت حامية الذين يركبون البحار . وانحدرت من عينها دمعة على خدها ، ولكن كان يرى على شفتيها ابتسامة الحب والأمل . وكانت خادمتها ميليتا مرافقة لها تحمل مظلتها ، فبكت اذ ذاك بكاءاً شديداً وعند ما رأت بضع أوراق تساقط من اكليل سيدتها نسيت دموعها لحظة ، وهمست فى أذنها قائلة « من السهل يا سيدتى العزيزة أن يدرك الانسان أنك واقعة فى شرك الهوى . انه عند ما تساقط الأوراق من اكليل عذراء يكون ذلك التساقط علامة على أن ايروس ، اله الحب ، قد لمس قلبها . »

الفصل الثانى عشر

الوصول الى بابل

بعد مضى سبعة أسابيع على مبارحة نايتيتس لبلادها كانت قافلة كبيرة مكونة من خيل محملة و بغال تجرّ مركبات وفرسان تسير فى الطريق السلطـانية الممتدة من الغرب الى بابل ، تلك المدينة الضخمة ذات الأبراج العالية التى تنـاطح السحاب فترى لعلوها من بعيد .

وأول ما يلفت النظر فى هـذه القافلة مركبة مذهبة ذات أربع عجلات مغلقة الجوانب بستـائر مندسلة من سقفها القائم على عمد من الخشب . فى هذه المركبة ، وكانوا يسمونها حرما مكسًا Harmamaxa وهى عربة السفر الأسيوية ، جلست أميرتنا المصرية على وسائد مطرزة بالذهب والديباج .

وأحاط بالعربة حراسها وهم أصحابنا الأمراء والأشراف العجم الذين مر ذكرهم بنا ، وقد عرفناهم خلال زيارتهم لمصر وكان معهم كريسوس وابنه .

وتبع هذه العربة سرب من عربات أخرى مختلفة عددها خمسون ووراءها ستمائة دابة من دواب الحمل ممتدة فى الطريق ، أما العربة الملـكية فكان يتقدمها كوكبة من الفرسان .

وكان الطريق المذكور يحاذى نهر الفرات ، ويخترق المزارع والحقول المزروعة قمحاً وشعيراً وسمسما ، ويمر وسط الحدائق وبها أشجار الفاكهة . أما أشجار النخيل يزينها البلح الأصفر فتبدو فى حلة صفراء كالذهب فكانت مبعثرة فى كل ناحية من الحقول التى كانت تروى بماء الترع والآبار .

وكانت الشمس تسطع من جو لا سحب فيه فتبعث أشعة الضوء والحرارة مع أن الشتاء كان قد حل . وكان ذلك النهر العظيم اذ ذاك غاصاً بالزوارق والسفن الشراعية من مختلف الأشكال والحجوم ، تنقل حاصلات أرمينيا العليا الى سهول العراق ،

أو سلع الاغريق وآسيا الصغرى من طاباساكوس (١) الى بابل . ومن المضخات ورافعات الماء كانت تتدفق المياه فتنعش الأرض وتحييها من مواتها ، ومنها كان يستقى سكان القرى الواقعة على جانبي ذلك النهر . وفى الحقيقة كان كل شيء فى الطريق يدل على اقتراب القافلة من قاعدة حكومة متمدينة يسوس رجالها أمرها أحسن سياسة .

ووقف الركب عند منزل مبنى من اللبن ، ويظله سقف من الأسفلت ، وتحيط به أيكة من شجر الدلب . وهنا ترجل كريسوس ودنا من مركبة الأميرة وقال لها « لقد بلغنا فى النهاية المحطة الأخيرة . وهذا البرج العالى الذى ترينه بارزاً فى الافق هو برج بعل الشهير ، وهو بعد أهرام مصر ، أحد أعاجيب الصنعة شيدته يد الانسان . وسنصل قبل الغروب الى أبواب بابل النحاسية . والآن أسألك أن تترجلى ، واسمحى لى أن أرسل جواريك الى المنزل اذ يجب عليك هنا أن تلبسى اللباس الفارسى حتى يروق لدى قمبيز منظرك . لأنك بعد قليل ستكونين أمام زوجك . انك ممتقعة اللون فمرى جواريك أن يطلين خديك بطلاء أحمر يجعلك كمن تأثر فرحاً فصعد الدم الى وجهه ففى الغالب قد يكون أول أثر تتأثر به النفس آخر أثر ، وهذا خلق قمبيز على الأخص . فاذا ما وقعت منه موقع القبول لأول نظرة ، وهذا ما لا أشك فيه أبداً ، ربحت حبه وملكت مجامع قلبه الى الأبد . أما اذا لم تروقى فى عينيه اليوم فلن ينظر اليك بعدُ نظرة عطف . لأنه خشن الطبع شرسه . فتشجعى يا ابنتى ولا تنسى ما نصحتك به . »

قالت نايتيتس وهى تمسح دموعها « أنى لى أن أشكرك يا كريسوس ، فما أنت لى الا أب ثان وناصح أمين وظهيرى فى الحياة ، كيف لى أن أشكرك على طيبتك ؟ لا تهجرنى فى أيامى المقبلة ، واذا كان طريق حياتى يؤدى بى الى الحزن والألم فكن قريباً منى لتساعدنى وترشدنى كما كنت تعمل ونحن بين الوهاد فى هذا السفر الطويل الشاق . انى اشكرك يا أبى ألف شكر . »

وبعد أن فاهت بهذه الكلمات طوقت بذراعيها عنق الشيخ وقبلته برقة وحنان . ولما دخلوا فناء المنزل قابلهم رجل طويل قوى البنية يتبعه عدد من الجوارى

(١) بلدة تجارية هامة على الفرات اتخذها اراتوستين مرصداً لقياس الارض .

الفارسية . هذا الرجل هو بوجيز كبير الخصيان وأحد أصحاب المقامات فى البلاط الفارسى . وكان وجهه الأمرد يشرق بابتسامة شائقة ، و يتدلى من أذنيه قرطان كريمان وكانت ذراعاه وساقاه وثيابه النسائية الزى الطويلة تلمع بما عليها من سلاسل وخواتم ذهبية . أما جدائل شعره المجعد المعقوص فكانت مربوطة بشريط من أرجوان وعابقة بطيب عطر قوى نفاذ .

فانحنى أمام نايتيتس بكل احترام ، وقال رافعاً يديه الغضة المحملتين بالأساور أمام فمه « ان قمبيز سيد العالم أرسلنى اليك يا مليكتى لكى أنعش فؤادك بندى تسلياته . وقد حملنى اليك ، وأنا أحقر خدمه ، ملابس فارسية . لأنه لكى تنالى الحظوة فى عينى أقدر الملوك يجب أن تقتربى من أبواب الأخيمينيين وأنت فى ملابس ميدية . وهؤلاء الاماء اللائى ترين هن جواريك ينتظرن أمرك فيحولنك من لؤلؤة مصرية الى درة فارسية . »

وظهر عندئذ رئيس هذا المنزل (خان القوافل) يحمل سلة مملوءة بالفواكه منسقة فيها خير تنسيق . وقدمه لها تحية القدوم .

فشكرت نايتيتس لكلا الرجلين بألطف عبارة ، ثم دخلت المنزل وهناك خلعت ملابسها المصرية وهى تبكى ، وسمحت للوصيفات الجديدات أن ترخى جدائل شعرها المتدلى على الجانب الأيسر لرأسها حسب عادة الاميرات المصريات وأن يلبسنها الملابس الميدية .

وفى الوقت ذاته طلب الأمراء المرافقون لها الطعام ، فهرع الخدم الى عربات المآكل ، ومنها أعدوا بعد قليل موائد وأحضروا مقاعد وأوانى ذهبية من كل نوع . ولم يمض الا القليل حتى أعد الطهاة مائدة فخمة لم ينقصها شىء حتى الزهور .

وقضى المسافرون أيام السفر وهم فى مثل هذا الترف ، لأن دوابهم حملت بكل ما يتصور من وسائل الراحة والرفاهية ، من خيام لا تنفذ الماء موشاة بالذهب ، الى مجاثى فضية للأرجل . وكان يوجد ، عدا الخبازين والطهاة والسقاة وقطاع اللحوم على المائدة ، حلاقون ومعطرون وصناع باقات الزهور . وفوق هذا وذاك كان يوجد كل ثمانيه عشر ميلا على طول الطريق نزل للقوافل تستبدل فيها الخيل المتعبة بغيرها .

أما المزارع التى كانت تحيط بتلك المنازل فقد كانت بمثابة وقاية من حر الشمس عند الظهيرة فى قيظ الصيف ، وأما المدافئ التى أمدت بها فكانت تقيهم زمهرير الشتاء فى هذه الوهاد .

وتدين مملكة الفرس فى ذلك كله الى كورش ، فهو الذى أنشأ هـذه الدور التى تشبه محطات البريد فى أيامنا الحاضرة ، ولم يدخر وسعاً فى ربط هذه الولايات النائية فى ملكه الواسع بمجموعة من الطرق المخفورة ، وبنظام بريدى متقن . وكان سعـاة البريد يستريحون فى هذه الدور ويتناوبون ، وفيها تستبدل خيولهم بأخرى ، وفيها يتسلم السـعاة الجدد حقائب الرسائل ثم يسرعون بدورهم السير مسابقين الريح حتى يصلوا الى محطة أخرى ، وهناك هم أيضاً يستريحون ويستبدلون بغيرهم . وكان هؤلاء السعاة الذين يدعونهم « أنجارى Angari » معتبرين أسرع من امتطى الخيـل فى العالم .

ولم يكد ينتهى الآكلون من أكلهم ، وكان بينهم بوجيز ، حتى فتح الباب وظهر على عتبته شبح اثار دهشة الحاضرين واعجابهم . ولم يكن هذا الشبح الواقف أمامهم سوى نايتيتس فى ملابس أميرة ميدية تتيه عجباً بشائق جمالها . ولقد علت وجهها حمرة الخجل عند ما أظهر المجتمعون اعجابهم بجمالها .

وخرت الوصيفات ، وهن لا يدرين ، على وجوههن ركعاً وجثيا أمامها حسب عادة الأسيويات ، وانحنى الأخيمينيون النبلاء لها اجلالا واحتراماً . وبدت نايتيتس للأنظار كأنها طرحت عنها جانباً خجلها وحياءها السابقين ، وذلك بخلعها عنها ملابسها المصرية البسيطة ؛ ووقفت بينهم فى زيها الجـديد الفاخر الخاص بأميرات فارس ، وكأنها دثرت جسمها بجلال الملك فصارت فى نظرهم ملكة فارسية .

والظاهر أنها سُرت لهذا الاحترام الشـديد الذى أظهره الحضور له ، فشكرت أصدقاءها المعجبين بها بحركة لطيفة من يدها ، ثم أدارت وجهها نحو كبير الخصيان ، وقالت بلهجة رقيقة تعلوها العظمة والكبرياء « لقد قمت بأداء مهمتك خير قيام ، وانى قانعـة معجبة بما جئتنى به من ملابس وما زودتنى من جوار واماء . وسوف أشكر لمولاى الملك زوجى ما أنت عليه من حزم وتبصرة . واقبل منى الآن هذه السلسلة

الذهبية اعترافاً منى بالجميل وعلامة رضاى عنك . »

فلثم الخصى طرف ثوبها ، وقبل هديتها صامتاً . ولم يعامل قط قبل الآن مثل هذه المعاملة من احدى حرم الملك اللائى عهد بهن اليه ، ولم يجد من بينهن واحدة كنايتيتس فى الأنفة وعزة النفس . وكانت نساء قمبيز وسراريه كلهن من الأسيويات ، وكن على علم بالسلطة الواسعة التى يتمتع بها رئيس الخصيان . فكن لا يدخرن وسعاً فى كسب مودته واستمالته اليهن بكل ما يستطعن من وسائل الملق والنفاق والخضوع .

وحنى بوجيز رأسه للمرة الثانية لنايتيتس شاكراً خاضعاً ، ولكنها لم تلتفت اليه بل أدارت وجهها الى كريسوس وقالت « أى والدى وأشفق أصدقائى علىّ ! ليست الكلم والعطايا بكافية لاظهار شكرى لك على ما أوليتنى من جميل . لأنه ان كانت حياتى المقبلة فى البلاط الفارسى ستكون هادئة مطمئنة ، ولا أقول سعيدة فكفانى بها هادئة مطمئنة ، فما أنا مدينة فيها لغيرك . ولكن مع ذلك اقبل منى هذا الخاتم . انه لم يترك اصبعى منذ غادرت مصر وله أهمية تفوق قيمته . لقد أعطاه فيثاغورس ، أنبل الاغريق ، الى والدتى عند ما كان مقيما بمصر يتعلم من كهنتنا . ولقد كان هذا الخاتم هدية الوداع منها . وتجد الرقم ٧ منقوشاً على فصه الحجرى البسيط . وهذا الرقم الأولى الذى لا يقبل الانقسام يمثل صحة النفس والجسد ، لأن الصحة مثله واحدة لا تتجزأ . فمرض عضو واحد مرض لجميع الاعضاء . وفكرة سيئة تسكن القلب تبيد توافق النفس كله . فاذا ما رأيت هذا الرقم فاذكر أنى أتمنى لك من صميم قلبى صحة جسدية كاملة غير مضطربة ، وأن تظل طويلا محتفظاً بتلك الوداعة التى جعلتك أفضل الرجال ، ومن ثم أصحهم جسداً ونفساً . أى أبت ! لا شكر ولا ثناء ، فانى ، ان أرجعت لكريسوس ملكه ، وأعدت له ثراءه وجاهه وسلطانه وكل ما ملك فيما مضى ، لا زلت مدينة له . أما أنت ياجيجيز فاليك هذه القيثارة الليدية ، فاذكر كلما سمعت نغمها تلك التى أهدتك اياها . وأنت يازوبيروس فخذ هذه السلسلة الذهبية ، ولقد شهدت فيك أنك أصدق الأصدقاء وأوفى الأوفياء ، وقد اعتدنا نحن المصريين أن نضع السلاسل والحبال فى أيدى معبودتنا المحبوبة

حاتحور آلهة المحبة والصداقة علامة على ما لها من الصفات الآسرة للقلوب الرابطة لها .
وأما دارا فلما كان قد درس فلسفة المصريين وعلومهم ، وبحث فى شارات السموات ذات الكواكب والنجوم ، فانى أسأله أن يأخذ هذا الخاتم الذهبى الذى نقشت عليه يد ماهرة منطقة البروج . وأما أنت يا بردية يا سلفى العزيز ، فسأعطيك أثمن ما أملكه — وهو هذه العوذة من حجر أزرق . لقد وضعتها شقيقتى تاخوط فى عنقى حينما قبلتها فى فمها آخر ليلة قبل رحيلنا . ، وقد أخبرتنى أنها تجلب لحاملها نعيم الحب وما أحلاه نعيما ! ثم بعدئذ بكت يا بردية ولست أدرى ماذا كان موضوع افكارها حينئذ . على أنى أرجو أن أكون فى اعطائى لك هذه الجوهرة الثمينة قد عملت وفق رغباتها . فاليكها اذن هدية من تاخوط ، واذكر أحيانا ألعابنا فى حدائق سايس . »

وكان كلامها الى هنا بالاغريقيـة . ثم التفتت الى الخدم الذين ظلوا واقفين من بعيد ينظرون بكل احترام ، وقالت بفارسية ركيكة « تقبلوا أنتم أيضاً خالص شكرى ، واذا ما وصلت بابل فسأهبكم ألف ستيتر (١) . »

ثم التفتت الى بوجيز وقالت « آمرك أن توزع هذا المبلغ على هؤلاء الأتباع بعد بأكر على الأكثر . » ثم نظرت الى كريسوس وقالت « هيا خذنى الى مركبتى يا كريسوس . »

فأسرع الملك الشيخ الى تلبية طلبها ، وفيما هو يستصحبها الى المركبة ضغطت على ذراعه وهمست اليه قائلة « أمسرور أنت منى يا أبى . ؟ »

قال « أقول لك الحق يا بنية انه ليس يوجد من النساء فى هـذا البلاط من تضاهيك الا أم الملك ، لأن على جبينك شارات الملكية وعلامات العظمة والأنفة الحقة . هذا الى مالك من القـدرة فى الاستفادة من تافهات الأمور والوصول بسببها الى الغايات الكبيرة . صدقينى يا ابنتى ان أصغر هدية من هداياك التى اخترتها ووهبتها لتدخل على صاحب العـقل الراجح النبيل من السرور ، أكثر مما تدخله أكداس الذهب يرمى بها عند قدميه . ولقد اعتاد الفرس أن يتهادوا بالهدايا الثمينة

---

(١) أقدم أنواع النقود كما قال هيرودوت . ويقال ان قيمته كانت تعادل نحو مائة وخمسين قرشا .

الفاخرة ، وهم يعرفون كيف يُغْنون أصدقاءهم ، ولكنك استطعت أن تعلميهم كيف يبعثون مع كل هدية فرحاً فى قلوب المهدى اليهم . فما أجملك اليوم يا بنيتى وما أحسنك! هل أنت مستريحة على الوسائد أم تريدين مقعداً أعلى من ذلك ؟ ولكن ما هذا ؟ ان سحباً من الغبار قد ثارت تجاه المدينة . لابد أن يكون قمبيز حاضراً بنفسه لملاقاتك . تشجعى يا ابنتى وحاولى قبل كل شىء أن تقابلى نظرته بمثلها . فالقليل من الناس من يستطيع أن يحتمل نظرة من عينيه البراقتين . على أنك ان أجبت النظرة بمثلها بلا خوف أو ارتباك فقد قهرته . لا تخشى شيئاً . سألت الهة الجمال أفروديت أن تزينك بأبهى جمالها وازهاه . » ثم التفت الى صحبه وقال « أيها الاخوان يجب أن نبدأ فى السير . انى لأظن أن الملك نفسه قادم الينا . »

وجلست نايتيتس شامخة الرأس فى مركبتها الفاخرة المذهبة وكانت يداها تضغطان على قلبها الخفاق . ثم اقتربت ثائرة الغبار واذ ذاك لمحت عيناها لمعان الأسلحة يسطع كالبرق فى الجو الملبد بالغيوم والعواصف . ثم انقشع الغبار وتبدد واستطاعت أن ترى أشباح القادمين شبحاً شبحاً مدة من الزمن اختفت بعده عن نظرها لالتواء الطريق وراء الأدغال والأشجار . ثم ظهرت فجأة كوكبة من الفرسان تسير بأقصى سرعة على نحو خمسمائة قدم منها واذ ذاك وضحت لها تمام الوضوح .

كانت أول صورة ارتسمت فى مخيلتها صورة جمع من الخيل المختلفة الألوان ، ومن الرجال يلمع ما عليهم من حلل أرجوانية ومن ذهب وفضة ولآلئ . كان هذا الجمع فى الحقيقة عبارة عن شرذمة من الجند بها أكثر من مائتى فارس يمتطون خيلا بيضاء مغطاة لجمها وسروجها بالريش والأزرار الفضية والأجراس والأهداب والتطريز والزركشة . وامتطى كبيرهم جواداً أسود اللون حالكه شروداً شكساً لم يكن يقوى على روضه غير راكبه لما يبدو عليه من علامات البأس والقوة التى تجعله يروض من الخيل ما هو أشد من ذلك الجواد شروداً وجموحاً . وكان ذلك الفارس ، الذى كسر من حدة جواده بثقل جسمه وعظيم قوته فجعله يرجف ويخضع ، يلبس رداء جمع لونه بين الأبيض والقرمزى ، مزركشاً بالفضة على شكل نسور وبزاة . وينتهى من أسفل باللون الأرجوانى . وكان ينتعل نعلا من الجلد الأصفر ،

وكان متمنطقاً بمنطقة من الذهب معلق بها سيف قصير يشبه الخنجر، مرصعة قبضته وجرابه بالجوهر والدر . أما ما عدا ذلك من لباسه فكان يشبه لباس بردية وقد أتينا على وصفه .فكان شال عمامته ذا لونين هما الازرق والأبيض وهما شعار الاخيمينيين ولف هـذا الشال على عمامة وضعت فوق رأس ذى شعر كثيف مجعد أسود كالأبنوس . وكانت له لحية كثة تخفى الجزء السفلى من وجهه . أما وجهـه فكان مصفراً ذا ملامح جامدة لا حراك بها غير أنه كان ينبعث من عينيـه ، وكانتا أشد سوادا من شعر رأسه وشعر لحيته ، لهب محرق . وكان يرى على جبهته من أولها لآخرها أثر جرح أصابه من سيف محارب مساجيتى .أما أنفه فقد كان أقنى وكانت شفته العليا رقيقة رفيعة . وكانت حركاته وشكله على الجملة يدلان على القوة العظيمة وينمان عن كبرياء لا حد لها .

اجتذب هذا الرجل نظر نايتيتس اليه فى الحال ، ولم تكن قد رأت فى حياتها قبل الآن رجلا مثله وكأنه قد سحرها سحراً غريباً . تبينت أن ما تراه على وجهه من علامات الكبرياء التى لا تذلل يدل على طبيعة بشرية لم تخلق الدنيا كلها — ما عداها هى — الا لخدمتها .فشعرت بالخوف يتسرب اليها ، الا أن قلبها النسائى الصادق تاق الى الجنوح اليه والركون الى قوته كما تعمل الكرمة مع القوائم التى ترتكز عليهـا . ولم تدر أناظرة هى الى أبى الشركه ذلك المعبود المخيف سيت ، أم الى آمون كبير الآلهة مشع النور وباعث الضوء .

نسيت نصيحة صديقها الشيخ غير أنها أطالت النظر الى قمبيز عند ما اقترب بجواده الشكس من مركبتها وشعرت فى الحـال أنه هو الملك وان كان لم يخبرها بذلك أحد .

ولان وجه ذلك الرجل المسيطر على نصف العالم حينما رأى نايتيتس مستمرة فى تصويب ناظريها اليه محتملة نظراته النفـاذة يدفعها لذلك دافع مجهول ، فرفع يده تحية لها ثم سار حتى وصل الى حراسها ، وكانوا قد ترجلوا ومكثوا ينتظرونه . فمنهم من رمى بنفسه فى الثرى ومنهم من أخفى يديه فى اردانه الواسعة ووقف وقفة الخشوع والتأدب ، وتلك كانت عادة الفرس .

وترجل قمبيز قفزاً من فوق جواده وتبعه فى ذلك كل من كان معه، و بسط الخدم فى أسرع من لمح البصر سجادة أرجوانية حتى لا يعلق الثرى بنعليه ، و بعدئذ بدأ يسلم على صحبه وأقار به بأن قبلهم فى أفواههم .

ثم صافح كريسوس بيده اليمنى وأمره أن يمتطى جواده و يرافقه الى العربة كى يقوم مقام ترجمان بينه و بين نايتيتس .

حمله الضباط بعد لحظة وأركبوه جواده و باشارة منه واصل الموكب سيره . وركب هو وكريسوس بجانب العربة .

ثم بدأ قمبيز الحديث قال « انها جميلة ولقد سررت منها كثيراً . أنقل الىّ أجوبتها كلها بأمانة فانى لا أتكلم من اللغات الا الفارسية والآشورية والميدية . »

سمعت نايتيتس هذه الكلمات فوعتها وفهمتها ، وسرى الى قلبها نوع من الفرح الشديد ، وقالت بصوت هادئ وقد توردت وجنتاها خجلا مخاطبة له بالفارسية الضعيفة .

« شكرا للآلهة التى جعلتنى أروق فى عينيك . اننى لست أجهل لغة مولاى فان النبيل كريسوس علمنيها أثناء رحلتنا الطويلة . على أنى أسألك يا مولاى الصفح ان كانت جملى ركيكة وعبارتى مفككة غير تامة ، فقد كان الوقت قصيرا وما جهدى الا جهد فتاة بسيطة مستضعفة . »

فظهر الابتسام على فم قمبيز ولم يكن يرى قط باسم الثغر . لقد زاده ميل نايتيتس الى اكتساب رضاه زهوا على زهو . ولما كان لم يتعود أن يرى من النساء الا الكسل والجهالة ، ولم يعرف عنهن الا أنهن لا يفكرن بغير الزينة والتجمل ودس الدسائس واشعال الفتن ، فقد ظهرت له نايتيتس ، بما هى متحلية به من علم وأدب ، عجيبة العجائب وانها تستحق منه المدح والثناء . لذلك أجاب ورضاه عنها ظاهر قائلا « انه ليسرنى أن نتكلم دون وسيط ينقل لكلينا كلام الآخر . فثابرى اذن على تعلم لغة أجدادى الجميلة وسيظل كريسوس ، وهو ممن لهم حق التشرف بالجلوس على مائدتى ، أستاذا لك يعلمك اياها . »

قال الشيخ « أمرك هذا يا مولاى يسبب لى سعادة عظيمة ، فليس هناك تلميذ

أو تلميذة أذكى ولا أكثر اعترافا بالجميل من ابنة أماسيس . »

قال الملك « لقد أكدت لي ما يشيعه النـاس عن حكمة المصريين وعلومهم . واني لأستطيع أن أعتقد من الآن أنهـا ستفهم بسرعة تعاليم مجوسنا الدينية وتحلها في سويداء قلبها . »

عندئذ خفضت نايتيتس رأسها فقد تحققت مخاوفها . انهـا سترغم على عبادة آلهة غير آلهتها .

ولكن تأثرها مر دون أن يدركه قمبيز وتابع هذا حديثـه قال « ستخبرك أمي كاسَّاندين بالفروض الواجب على زوجاتي قضاؤها . وسأقدمك اليهـا غداً بنفسي . أما الكلمات التي فلتت مني فسمعتها صدفة فاني معيـدها عليك : انني فرح بك مسرور منك ، فلا تفعلي ما يقلل حبي لك ويقصيني عنك . وسأجتهد بقدر الامكان أن أجعل بلادنا تروق في عينيك ، ولا يفوتني أن أنصحك نصيحة الصديق لالفه أن تعاملي بوجيز الذي سبقني اليك معاملة حسنة ، وأن تخضعي لارادته في كثير من الأشياء ، لأنه المشرف على دار نسائي . »

قالت « انه وان كان بوجيز هذا مشرفا على دار نسائك يا مولاي فان زوجتك غير مجبرة على طاعة مخلوق في هذه الدنيا سواك . على أنه يحسن أن تذكر أن للجنس اللطيف في بلادنا من الحقوق ما للرجال ، واعلم يا مولاي أن العظمة التي أرى أماراتها ظاهرة في عينيك هي هي التي تجيش في صدري . ان طاعتي لك كزوجي وولي أمري ستكون طاعة العبـد لسيده ، أما أن أنزل لأخطب ود خادم حقير صعلوك أو أطيع له أمراً فذلك ما لا أستطيعه ؛ وعلى الأخص اذا كان ذلك الخـادم ليس من الرجال في شيء . »

فزاد اعجاب الملك بهـا عندئذ ورضاه عنها ، فما سمع في حياته امرأة تتكلم بتلك اللهجة سوى أمه . وكانت الطريقة الناجحة التي اتبعتها نايتيتس في تعريف الملك حقه ازاءها وما نفثته في عبـاراتها من الـكياسة ، قد أصابت منه موضع حبه لنفسه واعظامه لحقه . ووجدت كبرياؤها صدى لها في خلاله الصلفة المتغطرسة ، فهز رأسه علامة الموافقة وأجاب « لافض فوك فقد أحسنت القول . اني مخصص لك

مسكنا منفصلا ، وسأرسم لك أنا نفسى دون غيرى خطط معيشتك وكيف تسلكين وسيعد اليوم لاستقبالك ذلك القصر الشيق القائم فى الحدائق المعلقة . »

قالت نايتيتس « شكرا لمولاى وألف شكر . انك لا تعرف الا القليـل عن مقدار ما غمرتنى به بهذا الأمر ، فلطالما طلبت الى شقيقك بردية أن يعيد لى حكاية هذه الحدائق البابلية . أقول الحق ان حب ذلك الملك الذى أقام ذلك الجبل المزهر الاخضر قد سرنا أكثر من كل ما فى ملككم الشاسع من عزة وجلال . »

قال الملك « غدا تستطيعين أن تدخلى مسكنك الجديد . والآن خبرينى عما رأيت أنت ومواطنوك فى رسلى اليكم وهل سررتم منهم ؟ »

قالت « وانى لك يا مولاى أن تسأل ذلك السؤال ؟ اذ من ذا الذى يرى النبيل كريسوس دون أن يحبه ؟ أو من ذا الذى لا يعجب بجمال صحبك الفتيان الشجعان ؟ لقد أصبح الكل أعزاء لدينا ، أما أخوك الجميل بردية فقد اجتذب اليه كل القلوب . ان المصريين يا مولاى لا يميلون للأجانب ومع ذلك فان الجمهور الحاشد بدت منـه أصوات الاستحسان عند ما بدا لهم وجهه الجميل . »

ولدى سماعه تلك الكلمات أظلم جبينـه ، ووخز الجواد بشدة فقفز ووقف على قائمتيه الخلفيتين ، ثم لفته بسرعة وعدا به عدوا سريعاً حتى وصل بعد قليل الى أسوار بابل .

* * *

دهشت نايتيتس لدى رؤيتها تلك المدينة الكبيرة العظيمة الفخمة ، مع أنها شبت بين معابد مصر الضخمة وقصورها الشامخة .

وبدت أسوارها للعيـان منيعة يبلغ ارتفاعها خمسة وسبعين قدماً أو يزيد ، وأما سمك هذه الأسوار فقد كان كبيراً جداً بحيث تستطيع عربتان السير جنباً لجنب على حافتها بسهولة . ومما زاد فى زينة هذه الأسوار ومنعتها مائتان وخمسون برجا من الأبراج العالية . ومع ذلك فقد كانت تلك الأسوار والأبراج غير كافية لو لم تكن بابل محصنة فى احدى جوانبها بمستنقعات يستعصى السير فيها . وكانت هذه المدينة العظيمة قائمة على ضفتى الفرات ، وكان قطرها يزيد عن أربعين ميلا . وقامت وراء

الأسوار مبان تفوق الأهرام فى الجلال والحجم ، بل وتفوق معابد طيبة .

وفتحت الأبواب النحاسية الكبيرة لاستقبال هؤلاء النبلاء ؛ فدخل منها الموكب الملكي . وحصن المدخل من الجانبين ببرج متين ، ووقف أمام كل برج من هذين كالديدبان تمثال ثور هائل مجنح له رأس انسان مهيب ذى لحية . فنظرت نايتيتس دهشة الى هذه الأبواب ، ثم ظهر على وجهها ابتسام السرور عند ما رأت الشارع الطويل الواسع مزيناً للترحيب بها .

وعند ما وقع نظر الجموع على الملك والعربة المذهبة هتفوا هتافاً عالياً ؛ ولكن لما ظهر بردية ، وهو المحبوب من الشعب ، ارتفع الهتاف حتى صار كالرعد القاصف . وكان قد مضى زمن لم ير الشعب فيه قمبيز ، لأن الملك حسب الطقوس الميدية ، كان لا يظهر للجمهور الا قليلا . عليه حسب شرائعهم أن يحكم وهو مختف عن الأنظار كالآلهة ، فكان ظهوره الفجائى للأمة بمثابة عيد من الأعياد وفرصة للمرح والسرور . وعلى ذلك فقد خرجت بابل كلها لترى الملك القاهر المخيف ، ولكى ترحب بمعبودها بردية عند عودته . وكانت شرفات المنازل غاصة بالنساء ، وكن ينثرن الزهور على رجال الموكب أو يسكبن عليهم العطور . وأما أفاريز الشوارع فقد نثر عليها الآس والريحان ، وازدانت بسعف النخل . وغرست أمام أبواب المنازل أشجار من مختلف الأنواع ، وبسطت الزرابى من النوافذ ونشرت الأعلام ، وكانت أكاليل الزهر مجدولة ومتصلة ما بين منزل وآخر . وكان الجو عبقاً بالبخور وعطر الصندل ، ووقف فى الطريق ألوف البابليين مرتدين قمصانا من التيل الأبيض ، وعليها مآزر صوفية مزركشة ، وعلى أكتافهم عباءات قصيرة ، وبأيديهم عصى طويلة بأعلاها رمان أو طيور أو ورود أو قطع من ذهب وفضة .

وكانت الشوارع التى مر منها الموكب واسعة مستقيمة ، وعلى جانبيها المنازل قائمة مبنية من اللبن ، مرتفعة وجميلة المنظر . ومن بينها وفوق قممها نتأ معبد بعل الشهير باديا يراه الناس من كل مكان . وكان سلمه الضخم كالحية الكبيرة ملتويا حول طبقاته العديدة حتى يصل الى القمة ، وفيها الهيكل المقدس نفسه .

واقترب الموكب من قصر الملك ، وهو يضاهى فى ضخامته ضخامة تلك المدينة .

وكانت أسواره مغطاة بألوان جميلة ومزينة بتماثيل مصقولة ، لآدميين وطيور وأسماك ودواب من ذوات الأربع ، وعليها رسوم لمناظر الصيد والحروب والمراكب الجليلة . وبجانب النهر جهة الشمال قامت الحدائق المعلقة ، وأما القصر الصغير فكان على الضفة الأخرى للفرات شرقا ويصله بالقصر الكبير بناء عجيب هو جسر مكين من الصخر .

واخترق الموكب ثلاثة أسوار تحيط بالقصر والجأ أبوابها النحاسية ، وهناك وقف الركب ، وحملت نايتيتس فى محفة على أعناق الرجال الى أن دخلت منزلها الجديد ، وبعد قليل قيدت الى المقاصير التى خصصت لسكناها مؤقتاً .

أما قمبيز وبردية وصحبهما المعروفون فكانوا لا يزالون وقوفا فى فناء القصر المفروش بأحسن الزرابى البابلية ، يحيط بهم ما لا يقل عن مائة من أشراف فارس ونبلائها فى أزيائهم الفخمة . وبعد فترة ارتفعت أصوات النساء . واندفعت فتاة فارسية جميلة ذات ملبس فاخر وشعر كثيف مرصع باللؤلؤ ، مقتحمة هذا الجمع ، تتبعها نساء أخر أكبر منها سنا . فاعترضها قمبيز باسما وهى تجرى نحو الرجال ، ولكنها أفلتت منه كالظبى النفور ، وتابعت جريها حتى ارتمت بعد لحظة على عنق بردية توسعه لثما وتقبيلا ، باكية مرة وضاحكة أخرى .

وركعت الوصيفات اللائى برفقة الفتاة بعيداً . أما قمبيز فحينما رأى آتوسا توسع أخاها العائد حديثاً عناقا ولثما صاح بها « عيب ما تفعلين يا آتوسا ، واذكرى أنه منذ وضع القرط فى أذنيك لم تصيرى بعدُ طفلة . لك أن تبتهجى عند رؤية أخيك بعد عودته من سفره ، ولكن بشرط أن لا تنسى أنك ابنة ملك ، وأنه لذلك ينبغى عليك أن تذكرى مكانتك حتى فى أحسن ساعات فرحك . عودى مباشرة الى أمك ، فانى أرى وصيفاتك ينتظرنك هناك . اذهبى واخبريهن أنى عفوت عن سلوكك هذه المرة اكراماً ليومنا هذا ، ولكنك ان عدت الى الظهور من غير اذن فى هذه الحجرات التى لا يدخلها أحد دون استئذان أمرت بوجيز أن يحجزك اثنى عشر يوما . اذكرى ذلك يا عديمة التفكير والتروى ، وأخبرى أمك أنى قادم اليها ومعى بردية . والآن دعينى أقبلك قبلة . لا تريدين ؟ سأرى أيتها النفور . »

وما أتم الملك كلامه حتى وثب اليها وقبض بيد واحدة على يديها وأحنى رأسها الجميل بيده الأخرى وقبلها رغماً عن مقاومتها . فصاحت من ألم ؛ ثم أسرعت تجرى باكية نحو وصيفاتها ، فعدن بها الى حجرتها .

فلما أن ذهبت آتوسا قال بردية « لقد كنت فظا يا قمبيز مع الفتاة ، فقد بكت من الألم . »

فامتعض الملك للمرة الثانية ، ولكنه كظم غيظه ، وحبس فى فمه ما كان مزمعا أن يجيبه به من الخشونة ، واكتفى بأن أجاب وهو يشير الى المنزل « هيا الى أمك فقد طلبت الىّ أن أذهب بك اليها ساعة وصولك . والنساء ، كما هى العادة ، لا يستطعن صبراً . ولقد خبرتنى نايتيتس أنك فتنت نساء مصر بحمرة خديك وجمال شعرك المجعد . فصل الى مترا ضارعا أن يبقى لك شبابك الى الأبد ، وأن يقيك شر الشيخوخة ويحفظ لك خديك أسيلين خاليين من كل تجعيد . »

قال بردية « أترمى الى أنى أعدم من الفضائل ما أتجمل به فى الكبر ؟ »

قال « ليس لى أن أفسر كلامى لأحد . هيا . »

قال « ولكنى أرجو أن تساعدنى الفرص على أن أبرهن لك على أنى لا أقل عن أحد من الفرس فضلا ورجولة . »

قال « أما عن ذلك فان فى هتاف البابليين اليوم برهانا كافيا على أنك فى غير حاجة الى أعمال تكسبك اعجابهم . »

قال « أى قمبيز ! »

قال هيا بنا الآن . اننا على أهبة الحرب مع المساجيت[1] ، وهناك تجد خير فرصة لاظهار ما أنت أهل له . »

وبعد بضع دقائق كان بردية مرتميا فى أحضان أمه العمياء . وقد كانت تنتظر قدومه وقلبها يدق ، ولقد أذهلها الفرح به بعد هذه الغيبة عن كل شىء آخر حتى عن العناية بابنها الملك الواقف بجوارها يبتسم ابتسامة مرة وهو يرقب تيار ذلك الحب

---

(١) هم قبائل كانوا قديما فى شمال آسيا شرق بحر قزوين وجنوبيه ، على تخوم فارس ، ومكانهم الان التركستان . ولقد كانوا قروم حرب وأهل بأس وشدة

الوالدى يتدفق بغزارة نحو أخيه الأصغر .

وكان قمبيز قد فسد منذ الصغر . لقد كان يجاب لكل ما يطلب ، وكان مجرد النظر والايماء منه أمرا محتما قضاؤه . ولذلك شب وهو لا يحتمل مخالفة لأمره ، وكان يغضب الغضب الشديد ان اجترأ أحد على معارضته فى أمر . وكان يعتقد أن كل من فى الوجود من آدميين خدم له وعبيد .

أما أبوه كورش الذى أخضع نصف العالم ، ذلك الرجل الذى رفعت مواهبه بلاد فارس من الصغار الى ذروة المجد ، وذلك الرجل الذى استحق بعمله اعجاب ما لا يحصى من القبائل التى أخضعها ، كورش هذا ذلك الملك العظيم لم يدخل فى أسرته نظام التربية الذى اختاره للأمم الأخرى ونجح فيه . لم ير فى قمبيز شيئا سوى أنه ملك الفرس فى مقبل الأيام فأمر رعاياه أن يطيعوه طاعة عمياء ، ناسياً أن على الذى يحكم أن يعرف مبدئيا ما هى الطاعة .

كان قمبيز كبير أبناء أمه كاساندين التى أحبها أبوه وتزوج منها وهى صغيرة . ثم رزقت بعد قمبيز ثلاث بنات ، وبعد مضى خمس عشرة سنة رزقت بردية . ففاز الأكبر من والديه بالتدلل والملاطفة واستولى الأصغر على كل حبهما ورعايتها ، وجعلته طبيعته الهادئة معبود أبويه . فنحاه حبهما وحبوا قمبيز باحترامهما . وكان قمبيز شجاعا ، وكثيراً ما تفوق على الأقران فى الحروب ، ولكن الصلف والكبر كانا من خلقه . تحترمه الرجال عن خوف ورهبة ، أما بردية فعن اجلال وحب ، فقد كسب بوداعته ورقته اخلاص صحبه ووفاءهم . وكان الشعب يخشى قمبيز ويرجف أفراده اذا ما اقترب منهم ، على الرغم من سخائه العظيم وهداياه الفاخرة التى كان يعطرها على من حوله . وأحب الشعب بردية ففيه كان الفرس يرون صورة كورش العظيم « أبى الشعب . »

وعلم قمبيز حق العلم أن هذا الحب الممنوح لبردية لم يكن ليشترى قط ، ولم يكن يكره أخاه الأصغر ، وانما ساءه وآلمه أن يرى صبيا كبردية محبوبا ومعدودا فى مقدمة الأبطال فى حين أنه لم يأت بعدُ من الأعمال الخطيرة شيئا . وكان قمبيز يرى أن كل ما لم يأنس من نفسه ميلا اليه انما هو خطأ لديه . وكان لا يمسك لسانه عن

العذل والتأنيب على كل ما لا يوافق منه الهوى . ولقد كان يخشى عظماء الفرس ذلك التأنيب و يرهبونه حتى فى أيام طفولة قمبيز .

ولقد كان من فرح الشعب بقدوم بردية ، والمحبة الزائدة التى استقبلته بها كل من أمه وأخته ، وذلك المديح العظيم الذى خصته به نايتيتس أن أيقظ فى قلبه عوامل غيرة لم تكن تسمح له بها بعدُ عجرفته وكبرياؤه . هذه الفتاة ابنة ملك قوى قادر ، يحتقر مثله كل ما هو وضيع وحقير ، قد اعترفت له بأنه سيدها ومولاها . وهى لكى تكسب حبه وعطفه لم تحجم عن المضى فى تعليم لغته ، وهذا عمل شاق . فهذه الصفات مضافا اليها ما خصت به من جمال ساحر فتنه وخلب له ، لجمعه بين الجمالين المصرى والاغريقى (فقد كانت أمها اغريقية) لم تعجز أن تروعه وتؤثر فيه تأثيرا شديدا ولكنها كانت صريحة فى تمدحها ببردية واطرائها له ، وهذا وحده كاف لتهويش ذهن قمبيز وتمهيد طريق للغيرة تتسرب منه الى فؤاده .

ولما خرج مع أخيه من مقاصير النساء سنحت له فكرة فاعتزم على الفور تنفيذها قال « سألتنى عن فرصة تظهر فيها شجاعتك وصدق رجولتك ، وانى لا أرد طلبتك . ان التابوريين قد شقوا عصا الطاعة ، ولقد أرسلت جيشاً الى حدودهم ، فاذهب الى رهاج Rhagae واستلم القيادة وأرنى هناك ما تستطيعه . »

قال بردية « شكرا لك يا أخى . وهل تأذن لى باصطحاب دارا وجيجيز وزوبيروس ؟ »

قال « لك ذلك أيضاً ، وآمل أن تؤدوا كلكم الواجب عليكم ببسالة وسرعة حتى تعودوا الينا فى ظرف ثلاثة شهور لتصحبوا الجيش العظيم ، الذى سأبعث به لتأديب المساجيت العصاة فى الربيع القادم . »

قال « غدا أسافر . »

قال « صحبتك السلامة اذن . »

قال « لئن أطال أورامزدا حياتى وعدت منصورا ، فهل تعدنى أن تجيب لى طلبة ؟ »

قال « نعم لك ذلك . »

قال « انى اذاً واثق بالنصر منذ الساعة ، ولو لقيت ألفاً من الأعداء بواحد منا . » ولمعت عينا بردية لأنه كان يفكر وقتئذ بصافو .

قال قمبيز « حسن وانى ليسرنى كثيراً أن تحقق فعالك ما نطقت به من كلمات خلابة . ولكن قف فلدىّ شيء آخر أقوله لك . انك الآن فى العشرين من عمرك ويجب أن تتزوج ، وهذه روكسانا ابنة النبيل حيدر قد بلغت سن الزواج ، ويقولون انها جميلة جداً ، وشرف نسبها يجعلها أهلا لك . »

قال « أخى ! لا تذكر أمر الزواج ، اننى . . . »

قال « ولكن يجب أن تتزوج فليس لى أبناء . »

قال « ولكنك لا زلت فى عنفوان شبابك ولن تظل عقيما . وفوق هذا فانى لا أقول انى لن أتزوج . لا تمتعض يا أخى ، فاننى الآن وأنا أريد تقديم البرهان على شجاعتى ، لا يشغل فكرى الآن شاغل من جهة النساء . »

قال « اذن تتزوج روكسانا اذا ما عدت من الشمال . ولكنى أنصحك أن تأخذها معك فى ساحة الحرب ، فالفارسى يجيد الحرب والقتال عادة اذا هو علم أن بجانب الكنوز الثمينة التى يدافع عنها حسناء فى خيمته تحتاج الى دفاعه وحمايته . »

قال « عافنى أيها الشقيق من هذا الطلب . انى أستحلفك بروح أبينا أن لا تعاقبنى بزوجة لا أدرى عنها شيئاً ، ولست أرغب فى معرفة شيء عنها البتة . زوجها من زوبيروس فهو زير نساء ، أو زوجها من دارا أو من بيسوس الذى تربطه بأبيها حيدر صلة ونسب . لست أستطيع أن أهواها ، بل انى أكون تعساً . »

فاعترضه قمبيز بضحكة عالية وقال « هل تعلمت ذلك فى مصر حيث العادة هناك أن يتزوج الرجل من واحدة ؟ الحق أقول انى نادم على أنى أرسلت صبياً مثلك الى مصر . انى لم أعتد أن يخالف لى أمر ، ولست مصغياً بعد الحرب لأى عذر تبديه . هذه المرة فقط أسمح لك أن تذهب الى الحرب دون أن تكون معك زوجة ولست مضطرك الى ما يقلل من شجاعتك ويفت فى عزيمتك حسب قولك . على أنه يظهر لى أن هناك سراً فى رفضك ما اقترحت عليك . ان كان الامر كذلك فانى جد آسف مشفق عليك . وعلى كل حال فتستطيع الآن أن تنزح الى المهمة

التى وكلتها اليك ، أما بعد الحرب فلست أريد أن أسمع منك أى اعتراض ، فأنت تعرفنى . »

قال « ربما سألتك بعد الحرب نفس الشىء الذى أرفضه الآن — ولكنى لن أتزوج من روكسانا . ليس من الحكمة أن تكره الانسان على أن يكون سعيداً ، ومن الخرق فى الرأى أيضاً أن تكرهه على أن يكون تعساً . وانى لشاكر لك اجابة طلبى . »

قال « لا تحاول أن تحصل منى دائماً على الموافقة . ما أشد فرحك ! حقاً انك لا بد أن تكون مأخوذاً بحب حسناء يضؤل بجانب جمالها جمال كل حسناء أخرى . »

فتورد بردية وأخذ بيد أخيه وقال « لا تسلنى بعد ذلك شيئاً ، واليك شكرى مرة أخرى ، فالى اللقاء . وهل تسمح لى بالسلام على نايتيتس أيضاً عند ما أذهب لوداع الوالدة وآتوسا ؟ »

فعض قمبيز شفتيه ، ورمق أخاه بنظرة الفاحص المدقق ، فلما أن وجد الفتى قد تضايق من نظرته صاح به مغضباً « ان أول واجب عليك أن تسرع الى التابورى ، فزوجتى لم تعد بعدُ فى حاجة اليك ، فان لها الآن من يعولها سواك . »

واذ قال ذلك أشاح بوجهه عن أخيه ، ومضى الى البهو الكبير ، وهو يلمع بما عليه من ذهب ولآلئ وأرجوان ، حيث وقف فى انتظار الملك أمراء الجيش ، والمرازبة ، والقضاة وأمناء بيت المال ، وكتمة السر ، والمستشارون ، والخصيان ، والحجاب ، والمخصصون بتقديم الأجانب ، والأمناء ، وحفظة خزائن الثياب ، والمهندمون والسقاة ، ونواظير الاصطبلات ، وحراس الصيد ، والأطباء ، وعيون الملك وآذانه ، والسفراء والمفوضون السياسيون من كل طبقة .

وتقدم الملك مناذون يحملون بأيديهم عصياً كالهراوات ، وتبعه سرب من حملة المراوح ، وحملة الهودج والمجنى ، ورجال يحملون الزرابى ، وكتبة يقيدون أوامره فى اللحظة التى ينطق بها ، ويدونون ما يشير به من جزاء أو ثواب ، ويسرعون باعطاء مذكرات للموكلين بتنفيذ أوامر الملك .

وقام فى وسط هذا البهو المتلألئ بما فيه من أضواء مائدة مذهبة ، تظهر لرائيها

أنها لا بد هابطة من ثقل ما عليها من الأوانى الفضيـة والذهبية ، ومن الصحاف والأقداح والقصـاع مرتبة أحسن ترتيب . أما مائدة الملك الخاصة ، وما حملته من أوان بالغة غاية الرونق والجمال ، فقد بسطت فى جهة من ذلك البهو يفصلها عنه ستائر من أرجوان تحجب الملك ، اذا جلس ، عن نظر القوم اذا ما جلسوا للشراب والسمر ولـكنها لا تحجبهم هم عن عينيه ، اذ يستطيع أن يرقب من خلالها كل حركاتهم . وكان تناول الطعام على مائدة الملك شرفا كبيراً يتطلع القوم هناك لاحرازه ، بل ان من كان يرسل له جزء من طعام الملك كان يعتبر نفسه الأغر المحجل المنظور له من جانب الملك بعين الرعاية .

فلما أن دخل الملك البهو انبطح كل الحضور تقريباً على جباههم أمامه ، واكتفى الحضور من أهل الملك بالانحناء تحية وخضوعا ، وكانوا يمتازون عن بقية الموجودين بما عصبوا به عماماتهم من عصابات جمعت بين اللونين الابيض والأزرق .

وجلس القوم فى أمكانهم بعـد أن جلس الملك فى مكانه الخاص ، وبعد ذلك بدأ القوم فى لهوهم وقصفهم . ووضع على الموائد خراف وديكة مشوية ، فلمـا أن امتلأت منهـا البطون الجائعة جيء لهم بصنوف الحلوى والمرطبات اللذيذة العجيبة التى أطلق الاغريق عليها فيما بعد « الفاكهة والحلوى الفارسية . »

ودخل العبيد بعدئذ لحمل بقايا الطعـام . وجاء غيرهم بأباريق ملأى بالخمر ، واذ ذاك ترك الملك مكانه وجلس بين القوم على رأس الخوان . وأخذ السـقاة فى ملء الأكواب المذهبة ثم شربوا منها أولا كى يتحقق القوم من أنهـا خاو من السم . فلما أن فرغت الأقداح الأولى استعرض الجلوس أحد مشاهد السكر ، الذى بعث الاسكندر المقدونى بعـد ذلك بنحو قرنين من السنين على الخروج لا عن حد الاعتدال فحسب بل أنساه الصداقة القديمة .

وكان قمبيز صامتـا على غير عادته . خالج رأسه شك فى حب بردية لنايتيتس ، اذ لماذا انفرد هو خلافا لكل عادة ، ورفض بتاتا الزواج من فتاة نبيلة حسناء فى حين أن أخاه صار فى سن يجعـل الزواج له أمراً لازماً واجب الأداء ؟ ولماذا رغب فى رؤية الأميرة المصرية قبـل مغادرته بابل ؟ ولماذا تصاعد الدم الى وجهه حين أدلى

برغبته هذه ؟ ولماذا هى أيضا أثنت عليه وتمدحت به شديدا دون أن يطلب اليها ذلك ؟

قال الملك فى نفسه « خيرا أفعل فى ابعاده فهو على الأقل لا يسرق منى حبيبتى ولو لم يكن أخى لبعثت به الى مكان لا رجعة له ولا لأحد منه . »

وفض الحفل بعد نصف الليـل ، وظهر اذ ذاك بوجيز ليقوده الى شقة النساء . فكان من عادة الخصى أن يذهب اليه فى مثـل هذه الساعة ما لم تكن الخمر عابثة به وذاهبة بكل صحوه .

قال الخصى « لقد أعيا فايديم انتظارك يا مولاى . »

قال « دعها تنتظر ! وهل أصدرت الأوامر باعداد قصر الحدائق المعلقة ؟ »

قال « غدا يكون معدا للسكنى . »

قال « وأية حجرات أعددت للأميرة المصرية ؟ »

قال « تلك التى شغلتها أميتيس ثانية زوجات أبيك . »

قال « حسن ، ويجب أن تعامل نايتيتس بأحسن مراتب الاحترام ، وهى لن تسمع أمرا يصدر منك وانما أنا الذى أصدر اليها أوامرى مباشرة . »

فانحنى بوجيز طويلا .

قال الملك « وغير مسموح لأحد بزيارتها ، حتى كريسوس ، الى أن يصدر منى أمر آخر . »

قال « لقد كان كريسوس معها هذا المساء . »

قال « وأى شأن له مع زوجى ؟ »

قال « لست أدرى لأنى لا أفهم اللسان الاغريقى . على أنى سمعت اسم بردية عدة مرات فى حديثهما . ويظهر لى أن الأميرة المصرية قد تلقت أخبـارا سيئة ، فقد كانت حزينة جدا حينما مثلت لديها أنتظر أوامرها بعد خروج كريسوس . »

قال « أحرق أهرمان لسانك . » ثم حول وجهه عن الخصى ، وسار الى مخدعه يتبع حملة المشاعل والخدم الذين كانوا فى انتظاره ليخلعوا عنه ملابسه .

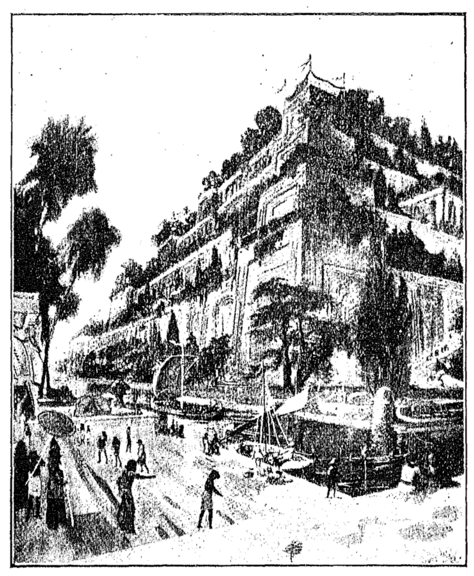
***

وفى ظهر اليوم التـالى ركب بردية وصحبه وطائفة من الخدم قاصدين الحدود .

ورافق كريسوس المقاتلة الفتيان حتى أبواب المدينة . فلما أن تبـادلوا سلام الوداع وعناقه أسر بردية الى صديقه الشيخ قائلا « أرجو ان كان لى مع الرسول القادم من مصر كتاب أن تبعث به الىّ . »

قال « وهل تستطيع قراءة الاغريقية وفهمها ؟ »

قال « سيعيننى الحب و يساعدنى جيجيز على فك رموزها . »



« الحدائق المعلقة »

نقلا عن كتاب Wonders of the Past

قال « لما أخبرت تايتيتس بسفرك سألتني أن أهديك سلامها وأن أطلب اليك أن لا تنسى مصر . »

قال « لن أنسى مصر ما حييت . »

« قال أسأل الآلهة أن تكلأك بعنايتها يا بني . كن حريصا ولا تخاطر بحياتك من غير تدبر أو تبصرة ، واذكر أن حياتك لم تعد بعدُ ملكا لك وحدك . وكن من العصاة كالأب الوديع من بنيه ، فهم لم يثوروا حبا منهم في الثورة وانما ليحصلوا على حريتهم ، والحرية أثمن ما ينشده الانسان في الوجود . واذكر أن اظهار الرحمة خير من اهراق الدماء . واعلم أن للسيف أن يقتل وللقوة أن تسود ، ولكن حظوة الحاكم لدى المحكومين وحب الرعية للراعي أجلب للفرح والسعادة . وأنه الحرب بكل ما يمكن من سرعة ، فالحرب ضلال الطبيعة وشرودها . وفي السلم يبقى الأبناء ليشيدوا بذكر الآباء ، أما في الحرب فيبقى الآباء ليندبوا ثكل الأبناء وقد ذهبوا طعمة للسيف والخنجر . وداعا يا أبنائي الأبطال ، وداعا والى الأمام والى النصر . »

الفصل الثالث عشر

نايتيتس فى منزلها الجديد

قضى قمبيز ليلته أرقا . زادت الغيرة التى اختلجت صدره حديثا رغبته فى امتلاك نايتيتس ولكنه لم يجرؤ بعد على اتخاذها زوجة لأن شريعة الفرس كانت تحظر على الملك الزواج من أجنبية قبلما تتخرج فى عادات الفرس وتتخلق بأخلاقهم وتعتنق دين زرادشت .

وبمقتضى هذه الشريعة يجب أن تمضى سنة كاملة على نايتيتس قبل أن تصبح زوجة لملك الفرس . ولكن ما هى تلك الشريعة فى نظر قمبيز ؟ لقد كان يرى أنه نفسه رب هذه الشريعة بل الشريعة عينها ، ولهذا ارتأى أن ثلاثة أشهر فقط تكفى نايتيتس لكى تقف على أسرار المجوسية وتتهذب بتعاليمها ، فيستطيع بعد تكريسها أن يدخل بعروسه .

وكرهت نفسه زوجاته الأخر بل وأحس من قلبه احتقارا لهن . ولقد كان قصر قمبيز منذ صغره غاصا بالحسان الجميلات المعتنى باختيارهن . فكان يوجد بقصره هذا حسناوات من أنحاء آسيا بين أرمنيات سود العيون ، وقوقازيات حسان المنظر ، وهنديات من ضفاف الجانج ، وبابليات مترفات ، وفارسيات صفر الشعور ، وعذارى من سهول ميديا ربات غنج ودلال . والحق ان الكثيرين من أشراف الأخيمينيين قد أعطوه بناتهم ليتخذهن زوجات له

ولقد كانت فايديم ، ابنة خاله أوتانز ، أحب نسائه اليه حتى اليوم ، أو كانت على الأقل المرأة التى يمكن أن يقال عنها انها كانت فى نظره أرفع من جارية مبيعة . لكنها صغرت أيضاً فى عينيه ، وبدت له فى ضجره وسآمته ، وضيعة من طغام الناس وخشاشهم وعلى الأخص اذا قورنت بالأميرة المصرية .

وظهرت له نايتيتس كأنها من أصل أكرم من أصول زوجاته كلهن ، ومن منبت أطيب من منابتهن . لقد كن متملقات نخورات ، وكانت نايتيتس ازاءهن كالملكة الرفيعة الشان . انهن حقرن أنفسهن فى الارتماء فوق الثرى على قدميه والوقوف منه موقف

الذلة والاستكانة . أما هي فقد كانت أمامه منتصبة القامة ، منزلة نفسها منه منزلته من العظمة والكبرياء ، فاعتزم أن يحلها محل فايديم ويرفعها الى المقام الذى كان لأمه عند أبيه كورش .

فلقد كانت كاساندين أمه الزوجة الوحيـدة التى استعان أبوه بعلمها ومشورتها ، وأما بقية نسائه فقـد كن كالصغار جهلة لا يأبهن بشيء سوى الملبس والحلى ، ولم يحذقن حياتهن الا فى الدس والا فيما لا طائل منه . أما المصرية فسترغم على حبـه وهواه ، لأنه سيكون حاميها المدافع عنهـا . نعم سيكون لها زوجاً وأبا وأخا فى غربتها هذه .

قال يحدث نفسه وكأنما ارادته أمر مقضى وقضاء محتوم « يجب أن تكون لى . خير لبردية أن يحذر ، والا فليعلم أن الموت نصيب كل من يعترض طريقى . »

***

وكذلك قضت نايتيتس ليلتها وما نامت الاغرارا .

ذلك لأن غناء النساء وزئاطهن فى الحجرات المجاورة لها داما حتى منتصف الليـل . وكثيراً ما سمعت بين هـذا اللغاط صوت بوجيز مرتفعا بين الأصوات وهو يضحك أو يمزح مع هؤلاء النسوة اللائى وكل اليه أمرهن . وأخيراً خيم السكون على أروقة هذا القصر الواسع وقاعاته ؛ فجرى بها الفكر الى بلادها البعيدة ، ومر بمخيلتهـا طيف أختها تاخوط المسكـينة التعسة وهى تكاد تذوب من شوق اليها والى بردية الجميل الذى أخبرها كريسوس بازماعه الرحيل فى الغد الى الحرب ، وربما الى الموت . وأخيراً تغلب عليها التعب من جراء سفرها الطويل الشاق فأغفت وهى تحلم بزوجها المقبل . رأت كأنه يعتلى صهوة جواده الأسود ، وقد جفل الجواد اذ رأى بردية ملقى فى الطريق فرمى براكبه من فوق ظهره وجره الى النيل وقد استحال ماؤه دما قانيا . فصاحت من فزع تطلب الغوث والمساعدة ، فعاد اليهـا صدى صياحها من الأهرام عاليا مفزعا فاستيقظت من نومها .

ولكن ما هذا الذى تسمع، وماذا عساه قد يكون ؟ ان ذلك الصراخ الذى سمعته فى الحلم يطرق الآن اذنها وهى يقظى .

فأسرعت وفتحت غلق نافذة وأطلت منهـا ، فرأت أمامها حديقة واسعة غناء بها نوافير وممرات ظليلة بما على جانبيها من شجر تامع أوراقه بما عليها من ندى البكور ، ولم تسمع غير ذلك الصوت الغريب الذى أفزعها . ثم انقطع هذا الصوت أيضاً وخفت فى جوف نسيم الصباح . و بعد ذلك ببضع دقائق سمعت لغطا بعيداً ، فلقد استيقظت المدينة لاستئناف عملها اليومى ، ثم تحول اللغط الى ما يشبه صوت البحر الهائج .

واستيقظت نايتيتس تماماً من أثر نسيم الصباح العليل ، فلم تعد الى فراشهـا ، ونظرت من النافذة فأبصرت شبحين خارجين من القصر . تبينت أحدهما فاذا به بوجيز ، أما الآخر فقد كان شبح حسناء فارسية جميلة فخمة الملابس ، وكانت هـذه تحادث بوجيز . فلما اقتربا من نافذتها توارت وراء أحد غلقيها وأصغت لأنها سمعت الخصى يذكر اسمها و يقول « لازالت المصرية نائمة . لا بد أن يكون قد أتعبها جهد هذا السفر الطويل ، وانى لأرى احدى نوافذها لا تزال مغلقة . »

قالت الفارسية « قل لى بالعجل ، أتظن أن فى مجئ هذه الأجنبية هنا ما يضر بى ؟ »

قال « أجل وأؤكد لك ذلك يا عزيزتى الحسناء . »

قالت « وما دليلك على صدق ما تذهب اليه ؟ »

قال « انها لن تؤمر ولن تنهى الا من لدن الملك لا منى أنا . »

قالت « أهذا كل ما عندك ؟ »

قال « كلا يا وردتى ، فاننى أعرف الملك ، وفى استطاعتى أن أقرأ ملامحه كما يقرأ المجوس كتبهم المقدسة . »

قالت « اذن لا بد أن نسعى فى هلاكها . »

قال « هذا يسهل قوله و يصعب فعله يا حمامتى الصغيرة . »

قالت « اليك عنى فأنت اليوم غليظ سليط . »

قال « لماذا ؟ ليس ثمت من يرانا الآن ، وأنت تعلمين أنك لا تستطيعين شيئاً بدونى . »

قالت « اذن فأسرع باخبارى بالذى تستطيعه . »

قال « شكراً لك يا عزيزتى فايديم الحسناء . يجب أن نصبر ونرقب سنوح الفرصة الملائمة . يظهر لى أن ذلك اللعين كريسوس قد أقام نفسه لحماية المصرية ، فصبراً حتى نقصيه عنها ثم ننصب لها الشراك ونحيك شباك الدسائس . » .

واذ ذاك ابتعدا فاستعصى على نايتيتس سماع تتمة الحديث . فأغلقت النافذة وهى صامتة حانقة ، ودعت جواريها ليلبسنها . لقد عرفت عدويها الآن . عرفت أن مخاطر جمة تحيط بها ، ولكنها شمخت بأنفها كبراً وعلوا اذ لماذا اختيرت هى لتكون أولى زوجات قمبيز ؟ ووضحت لنفسها أهليتها وكفاءتها عن ذى قبل ، وذلك بموازنة نفسها بهؤلاء المخلوقات الحقيرات ، واستوثقت من أن النصر سيكون لها حليفاً فى النهاية ، لأن نايتيتس كانت تعتقد اعتقاداً راسخاً فى أن للفضيلة قوة سحرية هائلة .

قالت تسأل وصيفتها وقد وقفت تمشط لها شعرها « ما هو ذلك الصوت المفزع الذى سمعته فى البكور والناس نيام ؟ » .

قالت « أتعنين الناقوس ؟ » .

قالت « لقد أيقظنى من نحو ساعتين صوت غريب مفزع . »

قالت « ذاك هو الناقوس يا مولاتى . وهو يستعمل لايقاظ الصبية من أبناء أشراف الفرس الذين يربون فى قصور الملك . وستعتادينه قريبا . ولقد مضى علينا زمن طويل لم نسمعه فيه ، على أنه فى الأعياد الكبيرة حين لا يدق نصحو من السكون الذى لم نتعوده . وسترين ، وأنت فى الحدائق المعلقة ، الصبية وهم ذاهبون كل صباح للسباحة مهما كان الجو . وهؤلاء الصبية المساكين يؤخذون من أمهاتهم اذا ما بلغوا الحول السادس ، لكى يربوا مع زملائهم الذين من طبقتهم تحت اشراف الملك ورقابته . »

قالت « وهل يبدأون بتعليمهم ترف البلاط وهم فى هذه السن الصغيرة ؟ »

قالت « كلا يا مولاتى فان حياة هؤلاء متعبة مفزعة . فهم يجبرون على النوم على الأرض الصلدة ، ويستيقظون من نومهم قبل بزوغ الشمس . طعامهم الخبز والماء مع لحم يسير ، وغير مسموح لهم أن يذوقوا الخمر أو الخضر . وأحيانا يمنعون عن الطعام والشراب بضعة أيام وذلك بقصد تعويدهم على الحرمان والفاقة . ولما

ينتقل البلاط الى أكباتانا (همدان) أو باسارجاد حيث يشتد زمهرير الشتاء ، فانهم أيضا لا يحجمون عن أخذهم للسباحة فى النهر . وهنا فى سوسا حيث يشتد الحر يدربونهم على السير فى وهج الشمس مسافات طويلة . »

قالت « وهؤلاء الصبية الذين يربونهم على هذا الشظف والخشونة يصبحون فى المستقبل رجالا مترفين ؟ »

قالت « أجل ، وتلك هى الحال دائما . والأكلة التى يطول انتظارها تكون اذا ما جاءت لذيذة المذاق سائغة الطعم . فهؤلاء الصبية يرون الفخامة والضخامة حولهم كل يوم ، وهم يعرفون حق المعرفة أنهم أهل ثراء ولكن عليهم أن يذوقوا طعم الجوع وأن يعرفوا المنع والحرمان . ومن ذا الذى يندهش اذا رآهم ، بعد أن تطلق لهم حريتهم ينغمسون فى مسرات الحياة ولهوها وترفها بشغف زائد ؟ على أنهم من جهة أخرى لا يشكون جوعا أو عطشا ان هم ذهبوا الى الحرب أو الى الصيد . ولقد تريهم يخوضون فى الطين قفزاً وهم يضحكون غير عابئين بأحذيتهم الرقيقة وسراويلهم الأرجوانية . بل انهم قد يتوسدون الصخر و يغرقون فى نومهم كأنهم نيام على فراش وثير من جيد الأصواف العربية . ويجب يا مولاتى أن تشاهدى هؤلاء الصبية وهم يأتون من الأعمال جليلها ، وعلى الأخص حين يقف الملك يرقبهم و يشاهد أعمالهم . ان قمبيز لا يبخل عليك بمشاهدة ألعابهم ان أنت طلبت اليه ذلك . »

قالت « اننى أعرف ذلك المران . ففى مصر يعلم الصبية من ذكور واناث الألعاب الرياضية ، و يدربون عليها . وان أعضائى مدربة على الانثناء والالتواء ، وذلك باستخدام العدْو والقفز والوقوف والجلوس على جملة أشكال واللعب بالكرات والأطواق . »

قالت « ما أغرب ذلك يا مولاتى ؟ اننا هنا معشر النسوة نشب على ما نريد ونهوى ، ولا نتعلم شيئاً البتة الا قليلا من الغزل والفتل والنسج . وهل حقيق يا مولاتى أن معظم المصريات يعرفن القراءة والكتابة ؟ »

قالت « نعم كلهن على وجه التقريب . »

قالت « وحق مثرا لا بد أن تكونوا أمة مجتهدة وقوما جادين . ان القليل من الفرس ، عدا المجوس والكتبة من اليهود ، من يعرفون هذه الصنعة الصعبة . ان

أولاد النبلاء يعلمون الصدق والشجاعة والطاعة واحترام الآلهة ، و يدربون على الصيد وركوب الخيل وزراعة الأشجار والتمييز بين مختلف الأعشاب. أما من كان منهم مثل النبيل دارا يرغب فى تعلم الكتابة فيجب أن يقدم طلباً بذلك لرجال المجوسية . وأما النساء فمحظور عليهن أن يلفتن أنظارهن لمثل هذه البحوث . الآن كل هندامك يامولاتى . وهذا التاج اللؤلؤى الذى أرسله لك الملك اليوم جميل يناسب شعرك الأسود . وانه لمن السهل ادراك أنك لم تتعودى لبس السراويل الكاملة الحريرية وهذه الأحذية الطويلة التى تعلو الكعبين . على أنك اذا تدربت على السير هنا فى الحجرة جيئة وذهابا مرتين أو ثلاثا فقت نساء الفرس كلهن فى المشى أيضا . »

وقرع الباب وقتئذ ودخل بوجيز وقد جاء ليذهب بها الى شقة كاساندين حيث كان قمبيز بانتظارها .

و بذل الخصى جهده فى التذلل لها والخضوع ، وتدفق من فمه طوفان من كلمات التمليق والاطراء فشبه الأميرة بالشمس ، وبالسماء ذات النجوم ، وعادًّا اياها أنها أصل السعادة و ينبوعها ، وجنة الورود والرياحين . أما هى فلم تنزل الى الرد عليه ولا بكلمة واحدة ، بل تبعته الى الملكة وقلبها يدق اضطرابا .

ولكى يحجبوا ضوء الشمس الشديد عند الظهيرة ، و يلطفوا من شدته على عينى الملكة العمياء ، وضعوا على النوافذ ستائر خضراء من الحرير الهندى . و بسطت على أرض الحجرة سجادة بابلية كثيفة أشد ملاسة من الطحلب تحت القدم. أما الجدران فقد طليت بالفسيفساء من عاج وظهر سلحفاة وذهب وفضة وأبنوس وكهرباء . وكانت المقاعد والوسائد مغطاة بالذهب وبجلود السباع ، وكان بجانب الملكة العمياء خوان مصمت من الفضة الخالصة . وجلست كاساندين على كرسى ثمين من الكهرباء . وكانت ترتدى حلة بنفسجية زرقاء مفضضة ، ووضعت فوق شعرها الأبيض الناصع نقابا من نسيج خفيف رقيق منسوج فى مصر لفت طرفيه حول رقبتها ثم ربطتهما تحت ذقنها على شكل قوس كبير وكان عمرها بين الستين والسبعين ، وكان وجهها وقد أحاط به ذلك النقاب الخفيف كاطار متماثل الخلق تمام التماثل ، أما ملامحها فقد كانت تدل على الذكاء والشفقة والخير .

وكانت عيناها العمياوان مغمضتين ، الا أن الذى يحدق النظر فيهما يخيل له أنهما مفتوحتان تنبعث منهما أشعة ضوء يشبه ضوء الكواكب الفاتر . وكانت فى جلستها تظهر قامتهـا الطويلة الفخمة ، فكانت فى مظهرها والحق يقـال جديرة بأن تكون أرملة ذلك الملك العظيم كورش .

وجلست عند قدميها على مقعد منخفض آتوسا صغرى أولادها ، وجعلت تسحب خيوطاً طويلة من مردنها (مغزلها) الذهبى . ووقف قمبيز أمامها ووقف وراءها نبنخارى طبيب العيون المصرى يكاد لا يراه أحد وهو فى ذلك الضوء الضعيف .

فلما دخلت نايتيتس تقدم قمبيز منها وقادها لأمه ، فركعت ابنة أماسيس أمام هذه السيدة المحترمة وقبلت يدها بفم الاحترام الخالص .

فقالت الملكة العميـاء وقد تلمست بيدها رأس الفتاة حتى أدركتهـا ووضعتها عليها « مرحباً بك يا ابنتى بيننا . لقد سمعت عنك كثيراً من التمدح بك ، وآمل أن أجد فيك ابنة عزيزة محبة محبوبة . »

فقبلت نايتيتس اليد الرقيقة اللطيفة مرة أخرى وقالت بصوت منخفض « كيف لى أن أشكرك على هذا التلطف . وهل تسمحين لى ، وأنت زوجة كورش العظيم ، أن أناديك أمى ؟ لطالما اعتاد لسانى هذه الكلمة الحلوة . وانى الآن بعد احجامى هذه المدة الطويلة عن ذكرها أكاد أهتز من فرح لمجرد ظنى أنى قد أقولها مرة أخرى . وسأجتهد أن أبرهن على استحقاقى لحبك وعطفك . فهـل ستكونين أنت لى كما أتوسم فى ملامحك اللطيفة ؟ انصحينى وثقفينى ودعينى أشعر أنى وجدت عند قدميك ملجأ ان أنا جد بى الشوق الى بلادى ، وأضنانى حنينى اليها ، وضعف قلبى عن احتمال الحزن أو الفرح . وبالاجمال كونى أماً لى يا مولاتى فهذه الكلمة تشمل كل شىء . »

وشعرت الملكة العمياء بالدموع الحارة تساقط على يدها ، فقبلت فى رفق جبهة الفتاة الباكية وقالت « انى أفهم مشاعرك يا بنية وأقدرها قدرها ، وستكون حجراتى مفتوحة لك دائمـاً وقلبى مستعد للترحيب بك فى كل وقت . فاحضرى الىّ ما شئت أن تحضرى ، ونادينى أماك بنفس الثقة المكينة التى أدعوك بها من كل قلبى يا ابنتى .

وستكونين بعد بضعة شهور زوجة ابنى ، وانى أسأل الآلهة أن تمنحك ما يغنيك عن الأم اذ تشعرين بأنك أنت نفسك قد صرت أما . » .

فقال قمبيز « سألت أورامزدا أن يسمع و يبارك . أشعر يا أماه أنك قد سررت من زوجى ، وانى أعلم أنها متى تعودت على أحوالنا وعاداتنا وتخلقت بأخلاقنا فانها ستكون سعيدة هنا . ولئن اجتهدت نايتيتس فى تفهم تعاليمنا الدينية فان زواجنا يتم فى ظرف أربعة شهور . » .

قالت أمه « ولكن الشريعة . . . »

قال « انني آمر أن ينتهى الأمر فى ظرف أربعة شهور ، وانى لأرغب رغبة شديدة فى رؤية من يعارض فى ذلك . طاب نهاركن . وأنت يا نبنخارى أظهر عبقريتك العامية فى معالجة عينى الملكة ، واذا سمحت لك زوجى باعتبار انك من مواطنيها فزرها غداً . سلاماً اذن . ان بردية يقرئكم سلامه وتحيته وهو فى طريقه الآن الى التابورى . » .

فكفكفت آتوسا دمعها وهى ساكتة وقالت كاساندين « لقد كنت تحسن صنعاً لو أنك تركت الفتى يستريح هنا بضعة أشهر ، وكان فى استطاعة القائد ميجابيزوس أن يخضع تلك الأمة الصغيرة . » .

قال الملك « ليس عندى أدنى شك فى ذلك ، ولكن بردية رغب فى فرصة تهيأ له ليثبت شجاعته وكفاءته فى الحروب ، ولذلك السبب أرسلته . »

قالت « أما كان يحسن أن ينتظر الحرب مع المساجيت حيث يدرك فخراً أكبر ومجدا أعظم ؟ » .

وقالت آتوسا « نعم واذا هو سقط فى هذه الحرب قتيلا فانك تكون قد حرمته من أداء أقدس واجباته وهو الثأر لأبيه من هؤلاء القوم . ».

قال بلهجة الصلف « صه يا لعينة والا علمتك ما يليق بالنساء والأطفال . ان بردية موفق الحظ فلن يسقط فى الحرب ، وسيعيش كما آمل ليستمتع بذلك الحب الذى أراه يفيض عليه منكما كالصدقات تمنح جزافا للفقراء والمحتاجين . »

قالت كاساندين « وكيف تنطق بذلك القول يا ولدى اذ أى صفات الرجولة

بعدما بردية ؟ وهل من ذنبه أنه لم تسنح له فرصة لتمييز نفسه على الأقران فى الحروب؟ انك أيها الملك وعلىّ طاعتك واحترام أوامرك ، ولكنى أوبخ فيك الابن على حرمانه أمه العمياء من أكبر فرح وأكبر سعادة بقيت لها فى شيخوختها . ولقد كان بردية ينتظر وهو مسرور حرب المساجيت ليظهر فيها مواهبه . هذا اذا لم تكن أنت نفسك قد رغبت فى غير ذلك . . . »

فاعترض قمبيز أمه قائلا وقد اصفر وجهه من الغيظ « والخير كل الخير فيما أرغب . أريد أن لا يذكر هذا الموضوع مرة أخرى . »

واذ قال ذلك ترك الحجرة مغضباً ، وذهب الى بهو الاستقبال تتبعه بطانته ورجال حاشيته ، وما كان أكثرهم ، فقد كانوا لا يفارقونه أنى ذهب وحيث وجد .

ومضت ساعة ونايتيتس وآتوسا جالستان متجاورتين عند قدمى الملكة .

وأصرت الفارسيتان بشغف لكل ما كانت تقوله صديقتهما الجديدة عن مصر وعجائبها .

قالت آتوسا « وددت لو أرى مصر فهى لا بد مختلفة عن فارس كل الاختلاف ، بل وتختلف عن كل ما رأيته حتى اليوم . ان ضفتى نهركم العظيم الذى يفوق حتى الفرات فى السعة ، ومعابدكم الفخمة بما اشتملت عليه من عمد منقوشة ، وتلك الجبال الصناعية الضخمة وأقصد بها أهرامكم حيث الملوك الأقدمون مدفونون — كل ذلك لا بد أن يكون مدهشا وجميلا . ولكن الذى سرنى فى كل ما ذكرت هو وصفك للألعاب المصرية ، حيث يتحادث النساء والرجال ما شاء الكل أن يتحدثوا . ان الولائم المصرح لنا فيها بالاختلاط مع الرجال لا تكون الا فى عيد رأس السنة وفى عيد ميلاد الملك ، وأما فيما عدا ذلك فانه محظور علينا الكلام مع الرجال ، والحق أقول انه ليس من حقنا حتى أن نرفع أبصارنا . فما أكبر الفرق بين حالنا وحالكن ؟ وددت وحق مثرا يا أمى أن أكون مصرية ، فما نحن النساء الفارسيات الا اماء أرقة . الا أنى مع كل هذا أشعر أننى ابنة كورش العظيم ، وأن لى الحق فى أن أتمتع بنفس الحقوق التى يتمتع بها معظم الرجال . ألست أنطق بالصواب ؟ أما أنا قادرة على أن أطيع كما أنا قادرة على أن آمر ؟ أليست تختلجنى نفس الرغبة

الشديدة فى المجد والعلا ؟ ألا أستطيع تعلم السباحة وركوب الخيل وشد القسى وخوض غمار الحروب ان هم علمونيها ودربونى على مثل هذا المران ؟ »

واذ قالت ذلك همت واقفة وقد أبرقت عيناها ورمت بمغزلها فى الهواء ، غير شاعرة أنها بعملها هذا قد قطعت الخيط وعقدت النسيج .

فقالت كاساندين محذرة « أمسكى عليك نفسك ولا تنسى واجبات اللياقة . يجب على المرأة أن تخضع بذلة لما يجرى به القدر عليها ، وأن لا تطمح نفسها الى تقليد الرجال فى أعمالهم . »

قالت آنوسا «ولكن هناك نسوة ينهجن نهج الرجال. ألم يبلغك نبأ الأمازونيات اللائى يسكن على ضفاف الترمودون فى طمسقيرا وفى كومانا على ضفاف الايريس ، واللائى قد أثرن حروبا عظمى وهن حتى اليوم يلبسن دروع الرجال ؟ »

قالت « ومن أنبأك ذلك ؟ »

قالت « مرضعى العجوز ستفانيون التى أسرها أبى فى سينوب وأحضرها الى باسارجاد . »

قالت نايتيتس « ولكنى أنبئك بالصحيح من ذلك . لا أنكرك أن فى طمسقيرا وكومانا يوجد عدد من النسوة يلبسن دروع الرجال ولكنهن لسن سوى راهبات ، وهن يلبسن لبس الهة الحرب التى يعبدنها كى يقدموا لعبدتها مثالا ايضاحياً لها فى شكل الآدميين . ويقول كريسوس انه لم يوجد قط جيش من الأمازونيات ، ولكن الاغريق (ولهم القدرة دائماً على تحويل أى شىء الى أسطورة من الأساطير) قد رأوا هؤلاء الراهبات فقلبوهن من عذارى مسلحات كرسن حياتهن لخدمة المعبودة الى جيش من مقاتلة النساء . »

قالت الفتاة وقد خاب ظنها « اذن هم قوم كاذبون . »

قالت نايتيتس « لست أكتمك أن الاغريق لا يحترمون فضيلة الصدق احترامكم لها ، ولكنهم لا يسمون أولاء الذين يضعون أمثال هذه الأساطير كذبة غير صادقين وانما يسمونهم شعراء . »

قالت كاساندين « وكذلك الحال عندنا يا بنية فان الشعراء الذين يتمدحون بزوجى

قد غيروا حياته الأولى وزينوها فجعلوها حياة حافلة بجليل الأعمال وعظيمها ، ومع ذلك فلم يرمهم أحد بالكذب . ولكن خبريني يا نايتيتس هل صحيح أن هؤلاء الاغريق أجمل خلقاً ممن عداهم من الأمم ، وأنهم يفهمون الفن خيراً مما يفهمه المصريون ؟ »

قالت « أما عن هـذا الموضوع فلست أجرؤ على اصدار حكم فيه . يوجد فرق عظيم بين صناعات الاغريق وفنونهم وبين صناعات المصريين وفنونهم . على أني حينما أغشى معابدنا الضخمة لأداء الصلاة لمعبوداتنا أشعر دائماً بأنه يجب عليّ أن أتمرغ فى الثرى أمام عظمة الآلهة وأضرع اليها أن لا تبيد دودة حقيرة مثلى من الوجود . أما اذا دخلت معبد هيرا فى ساموس فانى أستطيع أن أرفع يدى الى السماء وأنا منشرحة الصدر أحمد الآلهة على أنها جعلت هذه الأرض على هذا الجمال . ففى مصر كنت دائماً أعتقد حسب تعاليمنا أن الحياة هجعة ، وأننا لن نستيقظ منها الى الحياة الحقة فى مملكة أوزيريس الا ساعة الموت ، ولكنى فى بلاد الاغريق أرى انى ولدت لأعيش واستمتع بهذه الدنيا السارة الوضاءة النضرة المزهرة . »

قالت آتوسا « زيدينا من أخبار الاغريق ، ولكن يجب على نبنخارى قبل كل شيء أن يضع ضمادة جديدة على عينى أمى . »

واذ ذاك تقدم طبيب العيون ، وهو رجل طويل رزين يلبس جلباب الـكهنة المصريين الأبيض ، لكى يقوم بعمل العملية اللازمة ، فلما أن انتهى حيته نايتيتس تحية لطيفة ثم رجع وهو ساكت الى مكانه فى مؤخرة الغرفة ، وفى نفس هذه اللحظة دخل خصى ليستأذن فى دخول كريسوس ليسلم على أم الملك .

ودخل بعد برهة الملك الشيخ فقوبل بالترحاب باعتبار أنه أكبر صديق لبيت ملك الفرس وأكثر الأصدقاء تجاريبا ، فارتمت آتوسا على عنق ذلك الصديق الذى ألمت ألما شديدا لبعده عنها أثناء غيابه ، ومدت له الملكة يدها وقابلته نايتيتس كما تقابل البنت الودود أباها .

قال كريسوس « حمداً للآلهة على أنى استطعت أن أراكما مرة أخرى . ان الانسان فى شبابه ينظر للحياة كأنها متاع يقتنى ، أو كأنهـا حق مكتسب معروف ، فاذا ما بلغ سنى تـكون كل سنة يقضيهـا فى هذه الحياة كأنهـا منحة من الآلهة

لا يستحقها ، وهو لذلك واجب عليه أن يتقبلها بالشكر والحمد . »

قالت كاساندين متنهدة « انى لأحسدك على نظرك الى الحيـاة هذا النظر . ان سنى فى هذه الحياة أقل من سنيك ومع هذا فان كل يوم من أيام حياتى هذه يظهر لى كأنه عقاب لى من عند الآلهة الخوالد . »

قال كريسوس متسائلا « أو تلك التى أصغى لحديثهـا هى زوج كورش العظيم ؟ كم مضى من الزمن اذن على هذا القلب الشجاع وقد هجرته الشجاعة والثقة ؟ أقول لك انك ستستعيدين بصرك ، وستحمدين للمرة الثانية الآلهة على الشيخوخة الطيبة الصالحة . ان المريض الذى ينقه من مرضه الخطر يقدر قيمة الحيـاة عن ذى قبـل أضعافا مضاعفة ، وان ذلك الذى يستعيد البصر بعد العمى لا بد أن يكون محبوبا من الآلهة مرموقا منهـا بنظر خاص . صورى لنفسك مقدار السرور الذى يختلجك فى اللحظة الأولى التى ترى فيها عيناك مرة أخرى ضوء الشمس الساطع ، ووجوه من تحبين ، وجمال كل هذه المخلوقات . وبعـد ذلك خبرينى ألا يعادل ذلك حياة كلها عمى وظلاماً حالكا ؟ انه فى يوم شفائك تبدأين حيـاة جديدة ، حتى ان جاء وأنت متقدمة فى الشيخوخة ، وسأسمعك بنفسى تعترفين بأن صديقى صولون كان على حق . »

قالت آتوسا « فى أى شىء ؟ »

قال « فى رغبتـه أن يصحح ممنرموس الشاعر الكولوفونى شعره الذى قال فيه انه جعل حد الحياة السعيدة ستين سنة ، فيرفعه من ستين الى ثمانين . »

قالت كاساندين « كلا كلا . انه حتى ان أعاد لى الهنـا مثرا بصرى فان مثل هذه الحيـاة الطويلة تكون مهولة مفزعة . أرى انى بدون زوجى كالتـائه فى صحراء يجوبها ولا دليل يرشده ولا قصد يرتجيه . »

قال « أوليس لأبنائك اذن قيمة عندك ، وكذلك هـذه المملكة التى رقبت ظهورها ونموها ؟ »

قالت « وكيف لا ، ولكن أبنائى ليسوا فى حاجة الىّ بعد ذلك ، وحاكم هذه الأمة أصلف من أن يصغى لنصيحة امرأة . »

واذ قالت هذه الكلمات أمسكت كل من آتوسا ونايتيتس احدى يدى الملكة

وقالت نايتيتس « يجب أن ترغبي في حياة طويلة من أجلنـا نحن . اذ ما نحن وما يكون أمرنا دون مساعدتك وحمايتك ؟ » .

فابتسمت كاساندين وقالت بصوت يكاد لا يسمع « انكما على حق يا بنتيّ ، ستكونان في حاجة الى أم . » .

قال كريسوس بعد أن قبّل أطراف ثوبها « الآن تتكلمين مرة أخرى كزوج ذلك الملك العظيم كورش . ان وجودك بلا شك يحتـاج اليه ومن يدري فقد تظهر هـذه الحاجة حالا ؟ ان قمبيز كالحديد الجامد ، فالشرر ينطاير أينما يضرب . وانك لتستطيعين أن تمنعي ذلك الشرر من اشعال نار محرقة مفنية بين من تحبين ، وذاك هو الواجب عليك . انك أنت وحدك التي تستطيعين أن تنبهي الملك وتنصحيه وتحذريه ساعة أن تهم به سورة الغضب . انك في نظره كالقرن المعادل له ، وهو في حين يحتقر آراء الناس يشعر بجرح قلبه ان هو لم يحصل على موافقة أمه . أليس واجبك اذن أن تعيشي في هذه الدنيا صابرة ساكتة لكي تتوسطي بين الملك والمملكة ومن تحبين ، وبذلك تستطيعين بتعذيرك ولومك من آن لآن ، أن تخفضي من كبرياء ابنك حتى ينجو من غضب الآلهة واذلالهم له ؟ » .

قالت العمياء « انك لعلى حق ، ولكنني أشعر تماماً بأن سلطاني عليه قليل . لقد تعود أن ينفذ ارادته غير متبع نصح ناصح أو وعظ مرشد أو ارشاد واعظ ، حتى ولو كان ذلك النصح آتياً من فم أمه . » .

قال كريسوس « ولـكنه لا بد أن يسمعه على الأقل ، وهذا كثير لأنه حتى ان رفض أن يستمع للنصح فان نصائحك ستكون كالهواتف القدسية وهـذه تجعل نفسها مسموعة في مغلق نفسه ، وحافظة له من ارتكاب خطيئات كثيرة . وسأظل ماحييت حليفا لك في ذلك وشريكا ، لأنه لما أن عينني أبو قمبيز مستشاراً لابنه في القول والفعل فاني قد أجسر أحياناً على أن أقول له كلمة شديدة لأوقف بها تماديه . فهو لن ينكمش الا من لومنا ونحن وحدنا اللذين نجرؤ على ابداء رأينا له بصراحة . فلنؤد اذن واجبنا هذا بشجاعة . أما أنت فمدفوعة بحبك لابنك ولفارس ، وأما أنا فمدفوع بعامل الشكر لذلك الرجل العظيم الذي أنا مدين اليه بحياتي وحريتي . والذي

قمبيز ابن له . انني أعرف أنك تتحسرين على الحالة التي ربى وشب عليها ، ولكن مثل هذا الندم واجب تجنبه كما يتجنب المرء السم . فان علاج غلطات العقلاء انما هو اصلاح ما فات وتدبر ما فرط لا الندم حيث لا يجدى شيئاً . فالندم يهلك القلب أما الجهد الذى يبذل لاصلاح غلطة فانه يجعله يدق وينبض بنوع من العظمة الشريفة . »

قالت نايتيتس « ان الندم يعتبر فى مصر ، بين الخطيئات المميتة ، الثانى والأربعين فى المرتبة فان من وصايانا الرئيسية الحكمة القائلة : لا تهلك قلبك . »

قال كريسوس « انك بقولك قد ذكرتنى بأنه وكل الىّ أمر تعويدك على عادات الفرس وتعليمك دياناتهم ولغتهم . لقد كنت رغبت أن أنسحب الى بارين ، وهى البلدة التى منحنى اياها كورش ، وهناك فى ذلك الوادى بجباله اللطيفة أقيم مريحاً نفسى من عناء الدنيا . ولكن لأجلك ولأجل الملك سأبقى هنا ، وسأستمر فى تعليمك اللسان الفارسى . وستقوم كاساندين نفسها بتعليمك العادات الغريبة الخاصة بنساء البلاط الفارسى . ولقد أمر الملك أوروباست ، كبير كهنة المجوس ، أن يوقفك على دين ايران ويعلمك أصوله . سيكون هو الوصى الروحانى عليك فى حين انى سأكون وصيك الدنيوى . »

وكانت نايتيتس حتى هذه اللحظة فرحة باسمة فخفضت عينيها وسألت بصوت منخفض قائلة « وهل سأكفر بآلهتى وآلهة آبائى الأولين ولطالما صليت لها ؟ وهل فى استطاعتى أن أنساها ، بل وهل يجب علىّ أن أنساها . »

قالت كاساندين « أجل وانك لتستطيعين ، وانه واجبك المفروض عليك . لأن على الزوجة أن لا يكون لها أصحاب سوى أصحاب زوجها . والآلهة يا بنية هى أولى وأقدر وأخلص أصحاب الرجل ، ولذلك وجب عليك كزوجة أن تعظمها وأن تغلقى قلبك فى وجه الخرافات والآلهة الأجانب كما تغلقيه فى وجه عشاقك الجدد . »

وأضاف كريسوس « ونحن لن نسلبك آلهتك وانما سنعطيها لك بمسميات أخرى . ولما كان الصدق صدقاً سواء سماه المصريين ماع Maa أو سماه الاغريق أليثيا Aletheia كذلك يبقى جوهر الآلهة فى كل مكان وزمان غير متغير ولا متبدل . أصغى الىَّ

يا ابنتى . انى أنا نفسى حينما كنت ملكا على ليديا ضحيت الكثير ، ووهبت الكثير ، عن اخلاص الى اله الاغريق آبولون دون أن أخشى أنى بعملى هـذا قد أغضب سا ندون Sandon الهنا فى ليديا ، وهو الشمس . و يعبد اليونان الههم الأسيوى سيبيل Cybele والآن ، وقد أصبحت فارسيا ، فانى أضرع رافعا يدى الى مثرا وأورامزدا وأناحيتا . و يعبد فيثاغورس ، وتعاليمه ليست جديدة لديك ، الها واحداً هو آبولون . لأن آبولون عند الاغريق كاله الشمس منبع الضوء ، وهو أصل التوافق الذى هو فى نظر فيثاغورس أعلى من كل شىء . وأخيراً يجىء لنا ز ينوفون الكولوفونى قرينه يضحك من آلهة هومر العديدة و يسخر منها فجعل فوقها الها واحداً — وهو قوة الطبيعة التى لا يقف ابداعها وخلقها عند حد ، تلك التى تشمل الفكر والعقـل والأبدية . ففى هذه القوة يجد كل شىء لنفسه منشأ وأصلا . وهى وحدها التى تبقى دون أن يعتريها تغيير أو تبديل ، فى حين أن كل ما خلق من مادة يتجدد باستمرار و يتكامل . وما ذلك التشوق العظيم الى ذلك الكائن الذى يعاوننا فنلجأ اليـه حين تضيق بنا الحيلة وتفشل الجهود ، وذلك الميل الطبيعى والسليقة الفطرية العجيبة التى ترغب فى صديق مخلص تركن اليه فى سرائها وضرائها ولا تخشى كتمان شىء عنه ، وذلك الشكران والحمد اللذين نستقبل بهما هذه الدنيا الجميلة وكل التحف الثمينة ، الا تلك العواطف والمشاعر التى نسميها التقوى والتخشع والعبـادة . تلك يجب أن تستمسكى بها ذاكرة أيضـاً أن الدنيا لا تحكم بآلهة المصريين أو آلهة الفرس أو آلهة الاغريق . ليس هناك ثمت فاصل بينها ، وما هى الا اله واحد . وان ذلك الاله الذى لا يرى هو الذى قسم و يقسم على الناس والأمم الحظوظ ، مهما أطلق عليـه من الأسماء المتباينة أو نصب له من الأنصاب المختلفة . »

أصغت الفارسيتان الى الشيخ وقد تملكتهما الدهشة ، ولم تستطع قواهما الفكرية التى لم تمرن هذا المران على تتبع أفكاره وآرائه وفهمها . غير أن نايتيتس قد فهمته ووعت قوله تمام الوعى وقالت « كانت أمى لاديس تلميذة فيثاغورس ولقد حدثتنى عن مثل ذلك ، ويرى الكهنة المصريون أن مثل هذه الآراء كفر بالدين وانتهاك لحرمتـه ، و يرمون أولاء الذين يرون مثل هذه الآراء بأنهم يحتقرون الآلهة .

ولذلك حاولت قمع هذه الآراء وطردها من مخيلتى . بيد أنى الآن اعتزمت أن لا أقاومها بعد . ان ما يعتقده كريسوس الطيب الحكيم لا يمكن أن يكون شراً أو كفراً وجحوداً . فليجيء أور وباست انى على استعداد لأن أصغى الى وعظه وتعاليمه . سأتخذ من آمون كبير آلهتنا فى طيبة أورامزدا ، ومن ايزيس أو حاتحور أناحيتا . أما بقية آلهتنا الذين لا أجد لهم مماثلا فى ديانة الفرس وآلهتهم فانى سأطلق عليهم اسم المعبودات . »

فابتسم كريسوس وكان يخيل اليه وهو يعرف عناد المصريين فى لصوقهم بما يأخذونه عن تقاليدهم وطقوسهم — أن سيكون من الصعب على نايتيتس هجران آلهة بلادها وتركهم . لقد فاته أن أمها اغريقية ، وأن بنتى أماسيس قد تعلمتا شيئاً من فلسفة فيثاغورس . كذلك لم يدرك مقدار رغبة نايتيتس فى ارضاء زوجها وملكها . على أن أماسيس نفسه ، وهو الذى يجل الفيلسوف السامىّ ويكبر رأيه ، والذى كثيراً ما خضع الى التأثير الهيليني ، والذى يمكن أن يسمى بحق المصرى الحر التفكير والرأى . ذلك الرجل قد يستبدل الحياة بالموت ، ويفضل الأخير عن أن يتخذ من آلهته العديدة الها واحداً .

قال كريسوس وقد وضع يده على رأسها « انك لنعم التلميذ القابل للتعليم . ومكافأة لك على ذلك سيسمح لك أن تزورى كاساندين كل صباح أو تستقبلى آتوسا فى الحدائق المعلقة من العصر الى الغروب . »

فقابلت آتوسا هذه الأنباء المفرحة بكل سرور وقابلتها الفتاة المصرية بابتسامة الشكر ومعرفة الجميل .

وقال كريسوس « وأخيراً لقد أحضرت بعض كرات و بضعة أطواق معى من سايس حتى تستطيعا أن تتلهيا على الطريقة المصرية . »

قالت آتوسا وهى دهشة « كرات ؟ وماذا نستطيع عمله بتلك الأشياء الخشبية الثقيلة ؟ »

قال كريسوس ضاحكا « ليس فى ذلك ما يقلق بالك ، فالكرات التى ذكرت ليست سوى لعب جميلة صغيرة مصنوعة من جلود الأسماك أو من المطاط ومملوءة

بالهواء . وأن طفلا فى الثانية من عمره ليستطيع أن يقذف بها من غير عناء . على أنه ليس من السهل عليك أن ترفعى واحدة من تلك الكرات الخشبية التى يلعب بها أبناء الفرس . وأنت يانايتيتس أراضية عنى الآن ؟ »

قالت « وأنى لى أن أفيك حقك من الشكر يا أبت ؟ »

قال « والآن فاليك الخطة التى رسمتها لك ، ولقد قسمت لك وقتك على مقتضاها . ففى الصباح تزورين كاساندين وتتجاذبين أطراف الحديث مع آتوسا وتصغين الى تعاليم أمك النبيلة . »

وهنا حنت العمياء رأسها مصادقة على قوله وتابع الحديث فقال :

« وعند الظهر أحضر اليك لأعطيك درساً فى اللغة الفارسية ، وسنتكلم أحياناً عن مصر وعن أحبابك فيها ، وانما سيكون كلامنا دائما بالفارسية . انك تميلين الى مثل هذا الحديث أليس كذلك ؟ »

فابتسمت نايتيتس . ثم قال « وسيحضر اليك أوروباست مرة فى كل يومين ليعلمك دين الفرس . »

قالت « سأبذل كل ما فى وسعى كى أقف على ذلك الدين بسرعة ولو انى سأنصب كثيراً فى ذلك . »

قال « وعند العصر لك أن تجلسى الى آتوسا وتبقين معها ما شئت فهل هذا يسرك ؟ »

قالت وهى تقبل يد الشيخ « شكرا لك يا كريسوس . »

الفصل الرابع عشر

مولد الملك

وفى اليوم التالى انتقلت نايتيتس الى قصر الحدائق المعلقة ، وهناك بدأت حياة ذات نسق مستديم ، ولكنها كانت حياة عمل سارة . ويرجع الفضل فى ذلك الى الخطة التى رسمها كريسوس فكانت تحمل كل يوم فى محفة مغلقة مسدولة الستائر ويذهب بها الى كاساندين وآتوسا .

وبدأت نايتيتس تشعر بسرعة أن الملكة العمياء كالأم المحبة المحبوبة ، وكانت لها آتوسا المرحة الطروب بمثابة عوض عن أختها تاخوط أيام كانت تلعب واياها على ضفاف النيل . وما كانت تحلم بوجود رفيقة لها خيراً من تلك الفتاة التى أنستها برقتها ولطفها تحنانها الى وطنها وشوقها الى قومها ، بل وأبعدت عن قلبها السآمة والضجر . وكان مرح آتوسا يسطع على نايتيتس فيضىء مغلق نفسها ، ويقلل من أثر خلقها الجدى الرزين فى حياتها . وفى الوقت ذاته كانت سجايا آتوسا الفياضة بالنبل والفضل وحدة الشباب تخف وتهدأ وتنتظم متأثرة بخلق نايتيتس وطبيعتها الجدية ذات التفكير .

ولقد سر كريسوس من تلميذته ورضيت كاساندين عن بنتها الجديدة ، وكان أوروباست يرفع يومياً من قدر نايتيتس ، ويفخم فى ذكائها وكياستها لقمبيز . ولم يمض الا زمن قصير حتى أجادت الفارسية . وكان قمبيز لا يزور أمه الا اذا كان يؤمل أن يرى نايتيتس عندها ، وكان يعطرها دائما بهداياه الفاخرة من ملابس فخمة ولآلئ ثمينة . وكان أكبر برهان على حبه لها وكلفه بها تعففه وكفه عن زيارتها فى دارها بالحدائق المعلقة . وفى هذا السلوك ما يدل على أنه أراد أن يدمج نايتيتس ضمن العدد الصغير من زوجاته الشرعية ، وتلك ميزة لم يتمتع بها الا القليل من الأميرات الموجودات فى دار نسائه .

لقد ألقت نايتيتس الحسناء الرزينة رقية سحرية غريبة على هذا الرجل القوى الشكس الشرس ، فكان مجرد وجودها كافياً لالانة قلبه ولى ارادته العنيدة .

وكان يمكث الساعات يرقب لعبها مع أختـه لا تفارق عينه حركاتها الرشيقة . وحدث ذات مرة أن الكرة شردت فسقطت فى المـاء فما كان من الملك الا أن قفز وراءها غير عابئ بما قد يصيب ملبسه الفاخر من وسخ أو قذر ، فصاحت نايتيتس به فزعة عند ما أدركت قصده أن يرجع ، الا أن قمبيز جاء يسلمها الكرة وقطرات الماء تساقط منها وهو يقول « حذار أن تحيد منك الكرة مرة أخرى والا اضطررتنى أن أفزعك ثانية » وخلع فى الوقت نفسه من حول رقبته سلسلة من الذهب مرصعة باللآلئ وقدمها للفتاة وقد توردت وجنتاها خجلا ، فاستقبلتها منه شاكرة اياه بنظرة كشفت عمـا يكنه فؤادها من الحب لزوجها المقبل .

وأدرك كل من كريسوس وكاساندين وآتوسا أن نايتيتس قد أحبت الملك . ولقـد استحال خوفهـا السابق من ذلك الرجل الصلف الشديد المراس الى اعجاب شديد . شعرت أنها لا بد مائتـة ان هى حرمت منه . وظهر هو لها كأنه اله عظيم مطلق الارادة ، وخيل لها أن فى رغبتها أن يكون الملك لها وحدها نوع من الجسارة وانتهاك الحرمات المقدسة . وصار الوصول الى تلك الغاية ، والحصول على تلك الأمنية ، أجمل فى نظرها من عودتها الى بلادها واستعادة حياتها الأولى مع أولئك الذين كانوا حتى الساعة أحب الناس اليها .

وكانت نايتيتس تكاد لا تشعر بشدة حبها له وقوة العاطفة عندها ، واعتقدت أن خفقان قلبها عند مجئ الملك لم يكن الا من جراء خوفهـا منه لا من التشوق الى رؤيتـه مرة أخرى . ولقد استكشف كريسوس حقيقة أمرها وغناها على شيخوخته أحدث أغانى أناكريون ، وكان قد تعلمها فى سايس من ابيكوس فتصاعد الدم الى وجنتيها وتلك هى الأغنية :

« نقرأ اسم الجواد الطائر مكتوبا على جنبه بحروف من نار ، ونعرف مقـاتلة الشرق متى يضعون العمائم على رؤوسهم ، أما العاشق ففى عينيه البراقتين يكون السبيل الى قلبه ، فان فيهما نرى الفتحة الصغيرة التى أسقط الهوى منها قبس ناره . »

وعلى هذه الحال من اللعب والعمل ، والمزح والجد ، والحب المتبادل مرت الاسابيع والشهور بنايتيتس . ولقـد بر القوم بما أمرهم به قمبيز من أن تكون الأميرة

المصرية سعيدة فرحة فى بلاده . وما كاد زمن المد الكامل (يناير وفبراير ومارس) ينتهى فى العراق ، وهو الذى يلى شهر ديسمبر الممطر ، وأعلن قمبيز اقامة الاحتفال بالعام الجديد فى اعتدال الليل والنهار ، وما بدأت تسطع شمس مايو فى السموات ، الا وشعرت نايتيتس وهى فى بابل كأنها تعيش فى بلادها . ولقد علم أهل فارس أجمع ان الأميرة المصرية الفتاة قد حلت تماماً محل فايديم ابنة أوتانز عند الملك ، وأنها ستكون بلا شك أولى بل وأحب زوجاته اليه .

وضؤلت مكانة بوجيز عند الشعب ، لأنه صار من المعلوم لكل فارسى أن قمبيز لا يزور شقة الحرم ، وما كان رئيس الخصيان مديناً فى مكانته هذه وأهميته الا الى نساء الملك اللائى كن يجبرن على سؤال قمبيز كل ما يريده بوجيز لنفسه ولغيره . فلم يمض يوم الا ويجتمع فيه ذلك الرجل المحزون بفايديم المهجورة المنبوذة للتآمر والبحث عن أنجع الوسائل لهلاك نايتيتس . على أن كل ما كان يحاك من دسائس دقيقة ومكائد بعيدة الغور ، كان يفشل أمام شدة حب الملك وأمام الحياة البريئة الطاهرة التى كانت عروسه تقضيها .

وكانت فايديم ، لجزعها وحزنها وحبها لأن تثأر لنفسها ، تدفع بوجيز دائما الى أن يعمل عملا جازماً ، وتستحثه بكافة الطرق الا أنه كان على العكس منها ينصحها بالتمهل والروية .

وبعد مضى عدة أسابيع جاءها وهو طرب مسرور وقال « لقد وصلت الى استنباط خطة فيها هلاك المصرية ، وانى متأكد من نجاحها كتأكدى من أن اسمى بوجيز . عند عودة بردية يا درتى تكون قد دنت ساعة عملنا . »

واذ قال ذلك فرك كفيه الغليظتين الناعمتين ، وابتسم ابتسامته الثقيلة المعروفة ، وظهر عليه كأنه قد أتى من الأعمال العظيمة ما يستحق عليه أن يفرح ويفخر . ولم يظهر لفايديم شيئا البتة عن سر خطته بل اكتفى بأن رد على أسئلتها الكثيرة بأن قال « خير للمرء أن يضع رأسه بين فكى سبع من السباع من أن يدلى بسره الى امرأة . اننى أعرف تمام المعرفة مبلغ شجاعتك ، ولكنى فى الوقت ذاته أنصحك أن تذكرى أنه وان كان الرجل يبرهن على شجاعته بالعمل فان المرأة تبرهن على شجاعتها

بالطاعة . فأطيعى واستمعى الى كلماتى هذه وانتظرى النتيجة بصبر وثبات . »

واستمر نبنخارى طبيب العيون يعالج الملكة وكان يحجم عن محادثة الفارسيين احجاماً جعله عندهم مضرب الأمثال فى السكون والعبوس . وقد سمح له مرزبان بابل بعد اذن الملك أن يصعد الى أحد الأبراج العاليـة الموجودة فى أسوار المدينة واسمه تريتانتخميس كى يرصد الكواكب ليلا ، أما نهاره فكان يقضيه فى حجرات الملكة يفحص وهو ساكن صامت ملفات كبيرة من ورق البردى ، وكان يسمى هذه الملفات كتاب أنحوتس أو الامبريس المقدس .

وكان الـكهنة الكلديون — وهم أقدم فلكيي فارس — قد سمحوا له أن يرصد النجوم من قمة معبد بعل الكبير وهو مرصدهم ، الا أنه رفض ذلك بتاتاً مفضلا المكان الأول . ولما أن هم أوروباست بأن يوضح له الساعة الشمسية البابلية الشهيرة التى أدخلها أناكسيماندر الميليسى فى بلاد الاغريق أشاح بوجهه عن المجوسى ضاحكا وهو يقول . « نحن نعرف ذلك قبل أن تعرفوا معنى كلمة ساعة . »

ولقد أظهرت نايتيتس عطفا كثيرا على نبنخارى ولكنه لم يكن يجد فيها ما يسرى عن نفسه ، وظهر أنه كان يتعمد اجتنابهـا . وقد سألته مرة ان كانت قد أساءته أو أضجرته فقال « انك لدىّ بمثابة الغريب . اذ كيف لى أن أعرف أولئك المواطنين الذين ينسون بسرعة وفرح أحبابهم وآلهتهم وعادات بلادهم ؟ »

وأدرك بوجيز شعور نبنخارى من هذه الناحيـة ، وحاول كثيرا أن يضمه اليه والى فايديم حليفاً ، الا أن الطبيب رفض ما كان يعرضه الخصى عليه وما كان يقدمه من ملق وهدايا ، وما كان يبديه من علامات الاحترام والوقار .

وما كان يحضر أحد الرسل (الانجارى وهم سعاة البريد) الى البـلاط يحمل الرسائل للملك ، الا ويسرع بوجيز ليستكشف ويستطلع هل وصلت أخبـار من التـابورى . وأخيراً ظهر ذلك الرسول المرجو حاملا معه الأنباء ، بأن العصاة قد أخضعوا وأن بردية على وشك العودة .

مر بعـد ذلك ثلاثة أسابيع كان يجىء خلالها يومياً رسل تعلن اقتراب مجىء الأمير المنتصر ، فزينت الشوارع والطرق مرة أخرى ، ودخل الجيش الظافر من أبواب

بابل . وكان بردية يشكر الجموع المحتشدة الفرحة بمقدمه ويحييهم . ولم يمض غير وقت قليل الا وكان الفتى مرتميا فى أحضان أمه .

واستقبل قمبيز أخاه بفرح شديد ظاهر وأخذه الى حجرات الملكة فى الوقت الذى علم بوجود نايتيتس فيها .

ولقد تأكد من حب الفتاة المصرية له و بدا لعينيه أن غيرته الأولى لم تكن الا محض خبل وجنون ، ورغب فى أن يهيء لبردية فرصة يوقفه فيها على مقدار ثقته بعروسه .

وكان الهوى قد لطف من خلق قمبيز ، فصار لا يضجر من عمل الخير والتصدق على الفقراء . وسكن غضبه فترة كانت الغربان والحدأ آت الجياع فيها يحلقن فى الجو عبثاً حول المكان الذى علقت فيه رؤوس أولئك الذين حكم عليهم بالموت ، كى يكون منها رداع ونذير لبقية أتباع هؤلاء المقتولين المصلوبين .

وكان نفوذ الخصيان الدساسين (وهم قوم لم يدخلوا قصور كورش الا بعد ضم ميديا وليديا وبابل، اذ كانوا يشغلون فى هذه الممالك كثيراً من المناصب فى البلاط وفى الحكومة) آخذاً فى التناقص ، وفى الوقت ذاته كان نفوذ نبلاء الأخيمينيين يتزايد لأن قمبيز كان يرجع فى أمور الدولة الى استشارة النبلاء ، وكان قليلا ما يستنير برأى هؤلاء الخصيان .

لذلك لم يمض طويل زمن حتى كان كل من الشيخ هستاسب (أبو دارا وحاكم فارس وابن عم الملك) ، وفارناسب جد قمبيز لأمه ، وأوتانز خاله وحموه ، وأنتافرنز وأسباتين ، وجوبرياس ، وحيدر ، والقائد ميخابيزوس أبو زبيروس ، والسفير المفوض بركساسب ، والنبيل كريسوس ، والمحارب القديم الشيخ أراسب — كل هؤلاء كانوا فى بلاط قمبيز وضمن حاشيته وهم زهرة الأرستوقراطية الفارسية القديمة .

وكان جميع أشراف الدولة ومرازبة الولايات الفارسية وكبار دساتير (كهنة) المجوس من كل بلد يجتمعون فى بابل احتفالا بعيد ميلاد الملك . وكان هذا العيد فى نظر الفرس أكبر الأعياد ، وكانوا يسمونه العيد الكامل .

وكان عمال الحكومة ونواب البلاد يفدون على بابل قاعدة الملك زرافات

ووحدانا ، من جميع الولايات ، يحملون الهدايا الفاخرة ، ويجنون فى أفئدتهم الدعوات الصالحة للملك ، وكانوا يحضرون أيضاً ليشتركوا فى تقديم الضحايا العظيمة من خيل وظباء وثيران وحمر تذبح الألوف منها وتقدم للآلهة .

وفى هذا العيد كان الملك يهب الهبات والعطايا ، وكان مسموحاً لكل رجل أن يسأل الملك طلبته ، وكان الملك يكاد لا يرد طلبة أحد . وكان الفرس فى كل مدينة من مدنهم يعيدون هذا العيد ويحتفلون على حساب الخزانة الملكية . وقد أمر قمبيز أن يعلن أن زفافه على نايتيتس سيكون فى اليوم الثامن بعد عيد ميلاده ، وأن يدعى الى حفل الزفاف كل رجالات الدولة ووجوهها .

وماجت شوارع بابل بالأجانب ، وغصت القصور ذات القناطر والعمد الكائنة على ضفتى الفرات بالناس ، وازينت جميع الدور بزينة العيد .

وكانت حماسة تلك الجموع الكثيفة — ذلك الخليط من بنى الانسان الذى يمثل الدولة فى مجموعه والذى كأنه جاء معه بجميع انحاء البلاد — تبعث فى نفس الملك فرحاً وحبوراً .

لقد أرضيت كبرياؤه ، وخفف حبه لنايتيتس كل ما كان يشعر به فى قلبه من الصلف والعجرفة . واعتقد للمرة الأولى فى حياته أنه سعيد كل السعادة ، فأطلق العنان لكرمه وأكثر من هباته ، لا لأنه يشعر أن ذلك من واجبه كملك بل لأن البذل فى نفسه مدعاة من دواعى السرور .

ولم يستطع ميجابيزوس الا أن يتمدح التمدح الكثير بفعال بردية وصحبه ، فما كان من قمبيز الا أن عانق المقاتلة الفتيان ، ومنحهم خيلا وسلاسل من ذهب ، ودعاهم « اخوانه » وذكر بردية بوعده له أن يمنحه طلبته ان عاد منتصراً .

أطرق بردية اذ ذاك وحول نظره الى الأرض ، وحار فى أول الأمر فى العبارة التى يصوغ فيها طلبه ، فقال الملك ضاحكا : « أنظروا أيها الاخوان كيف يحمار وجه البطل الفتى خجلا كالفتاة ! يظهر لى أن علىّ أن أمنحه شيئاً هاما ، وعلى ذلك يحسن أن يتمهل حتى يوم عيد ميلادى . فاذا ما جلسنا للعشاء وبثت الخمر فيه الشجاعة همس فى أذنى اذ ذاك ذلك الذى يخشى الآن ذكره . سل الكبير من الأمور

يا بردية فانني أنا نفسي سعيد وأحب أن يكون كل اخواني سعداء مثلي . » .

فابتسم بردية وكان ذلك جوابه . ثم ذهب الى أمه لأنه لم يكن قد أفضى اليها بعد بمكنون قلبه ، ولم يخبرها بما يشغل باله ، ولم يبح لها بالذي يرجوه و يتمناه .

وكان يخشى أن يقابل بالرفض البات ، ولكن كريسوس أفسح له المجال اذ حدث كاساندين بالأمر وذكر لها الشيء الكثير عن صافو وعن فضائلها ومحاسنها ولباقتها وحذقها ، وأغرق فى اطرائها حتى أن نايتيتس وآتوسا ظنتا أن لا بد أن تكون الفتاة قد أعطته جرعة سحرية خلبته بها . فخضعت كاساندين بعد مقاومة قصيرة الى رجوات ابنها ، وما كان أكثر حبها له وحنوها عليه .

قالت العمياء « امرأة اغريقية تكون الزوج الشرعية لأمير فارسى ! ذاك ما لم نسمع به قط . ترى ما الذى سيقوله قمبيز وكيف لنا أن نحصل على موافقته ورضاه ؟ »

قال بردية « أما عن ذلك فاطمئني يا والدتى . انني واثق من موافقة أخى على ذلك بقدر ما أنا واثق من أن صافو ستكون فى دارنا زينة لها وفخراً . »

قالت كاساندين « لقد أخبرني كريسوس الكثير عن هذه الفتاة ، وانى ليسرني أنك اعتزمت أخيراً أن تتزوج . ولكنى مع ذلك لا أرى هذا القران خليقا بأحد أبناء كورش . وهل غاب عنك أن الاخيمينيين قد يرفضون أن يعترفوا بابن اغريقية ملكا عليهم فى المستقبل ان ظل قمبيز دون أن يعقب أولادا ؟ »

قال « أمى . أننى لست أخشى شيئاً لأن قلبي لا يعلق بالتاج و يستمسك بالملك . على أنه فى الحقيقة كم من ملوك فارس كانت أمهاتهم أقل حسبا من صافو . انني واثق تمام الوثوق أنه حين يرى أهلى تلك الدرة الثمينة ، التى وجدتها على ضفاف النيل ، لن يجسر أى واحد منهم على لومى وتأنيبى . »

قالت كاساندين « كل ما أرجو من الآلهة أن تكون صافو كنايتيتس . انني أحبها وأحنو عليها كما لو كانت ابنتى ، وكان ثديى سقاءها ، و بطنى وعاءها ، وحجرى فناءها . وانى لأبارك اليوم الذى حضرت فيه الى بلادنا وحلت فى ديارنا . ان أشعة الضوء التى تنبعث من عينيها قد اذابت بحرارتها قلب أخيك الصخرى . كذلك قد أوجدت بالشفقة تملأ قلبها ، والرقة تسيل منها ، جمالا ونوراً فى ديجور عماى وفى خريف

أيامى . ولقد كانت رزانتها وجدها ووقارها سبباً فى تحويل أختك آتوسا من صبية نزقة الى فتاة هادئة رزينة . نادهما انهما تلعبان فى الحديقة وسنخبرهما بالصديقة الجديدة التى ستكسبانها بسببك . »

قال بردية « عفوا يا أمى انى أرجوك أن لا تخبريهما شيئاً حتى نكون على ثقة من موافقة الملك . »

قالت « صدقت يابنى يجب أن نخفى رغبتك هذه لكى ننقذ نايتيتس وآتوسا من خيبة أمل ليست مستحيلة الوقوع . أن أملا براقا خلبا لا ينال أصعب احتمالا من حزن غير منتظر . وعلى ذلك فلننتظر حتى يوافق أخوك الملك ، وانى أسأل الآلهة أن تباركنا وتبعد عنا كل شر . »

وفى صباح يوم عيد ميلاد الملك قدم الفرس ضحاياهم على ضفتى الفرات حيث أقيم مذبح كبير فضى على تل صناعى . وعلى هذا المذبح أشعلت نار عظيمة تصاعد منها لهب ودخان عطر نحو السماء . وكان يوقد هذه النار بل ويزيدها اشتعالا بعض كهنة المجوس بالقائهم فيها قطعاً من خشب الصندل ، أنيقة الشكل والقطع ، ويحركونها بالمحادج .

وكانت رؤوس هؤلاء الكهنة معصوبة بقماش (هو البيتى دهانا Paiti-dhana) أطرافه تغطى أفواههم ، وعلى ذلك تقى النار الطاهرة من دنس أنفاسهم الآدمية النجسة . وكانت الضحايا تذبح فى مرعى قريب من النهر ، وتقطع لحومها قطعاً قطعاً ، ثم تملح وتوضع على حشائش لينة من عساليج البرسيم ، وزهور الآس والريحان ، وأوراق الغار ، حتى لا يمس الأرض المقدسة — وهى الحسناء العليلة الصابرة ابنة الاله أورامزدا — جسم ميت أو دام .

اقترب أوروباست كبير الكهنة من بيت النار ، ورمى فيه شحماً جديداً فارتفع اللهب فى الهواء . واذ ذاك ركع الفرس مخفين وجوههم معتقدين أن النار صاعدة الى ربهم الأعلى خالق الخلق وأبى الناس . ثم أخذ المجوسى بعدئذ هاونا ووضع فيه بعض أوراق وعيدان العشب المقدس وهو الهوما (عصيره نوع من الخمر أخذه الفرس عن القبائل الآريه) ثم صار يسحقها حتى أخرج منها عصيراً أحمر هو طعام الآلهة فى

عرف الفرس ، وألقى به فى اللهب .

و بعد ذلك رفع يديه نحو السماء ، وقرأ من الكتب المقدسة دعاء طويلا فى حين استمر الكهنة الآخرون يطعمون النار و يزيدون لهبها وذلك بما كانوا يضعونه فيها من شحم جديد . وكان أورو باست فى دعائه يستنزل بركة الآلهة على كل شىء طيب طاهر وعلى الأخص الملك وملكه . ويمدح الطيبات من نور وحياة وصدق وأعمال شريفة ، وكذلك الطيبات من الارض وهى المعطى العام ، وطيبات الماء الباعث على الحياة وطيبات الفلزات اللامعة والمراعى والأشجار والمخلوقات البرئية . ثم انتقل بعدئذ الى لعن السيئات وهى الظلام والكذب — وهو خادع الناس الماكر بهم — والمرض والموت والخطيئة والبرد القارس والحر اللافح المخرب والنجاسة الكريهة والهوام الممقوتة . لعن هذه السيئات مع مبدعها المسىء أهريمان . وعند نهاية دعائه اشترك كل الحضور فى دعاء العيد وهو . « ان الطهر والمجد قد بذرت بذورهما فى أولئك الذين طهرت قلوبهم وخلصت نياتهم واطمأنت نفوسهم . »

وانتهى حفل الذبيحة هذا بصلاة الملك ، و بعدئذ ركب قمبيز بلباسه الفاخر عربة فخمة يجرها أربع جياد بيض من كرام الخيل مزدانة بالياقوت والعقيق والكهرباء وسارت بهم العربة الى أن وصل الى قصره ، وهناك حملوه الى بهو الاستقبال حيث كان بانتظاره وفود البلاد وكبار الضباط .

وما كاد الملك يغادر مكان الذبيحة هو وحاشيته حتى انتقى الكهنة لأنفسهم خيار لحم الذبائح تاركين النفاية للشعب الحاشد . ولقد كان الفرس يعتقدون أن آلهتهم تحتقر الذبيحة أن تقدم طعاما ، وانما كانت تقبل أرواح الحيوانات المذبوحة . وكان معظم الفقراء ، وعلى الأخص الكهنة منهم ، يقتاتون بلحوم الذبائح الكثيرة التى كان يقدمها الملك .

أما صلاة ذلك المجوسى فهى أنموذج صلوات الفرس أجمعين . وكان محظورا على الرجل أن يسأل الآلهة شيئاً لنفسه هو وحده ، اذ أن كل نفس تقية ورعة تضرع وتطلب استنزال البركات والخير على الأمة كلها ، فكل فرد جزء من المجموعة . أفليس اذن لكل فرد نصيب فى الخير الذى يصيب البلاد كلها ؟ ولكنهم كانوا يؤمرون

على الأخص بالصلاة لأجل الملك الذى تتجسم فيه المملكة ، والذى هو رمزها وظلها . والى هذا الخضوع والاستسلام وتضحية الفرد فى سبيل المجموع يرجع الفضل فى عظمة فارس ومجدها .

ولقد كانت تعاليم كهنة المصريين تعد الفراعنة آلهة ، فى حين أن ملوك العجم فى نظر المجوس لم يبلغوا مرتبة الآلهة ، بل كانوا يدعونهم « أبناء الآلهة » ومع هذا فان سلطة أولاء كانت أكثر اطلاقاً وحرية من سلطة الفراعنة ، وسبب ذلك أن ملوك الفرس كانوا أحكم من أن يخضعوا لسلطان كهنتهم ، فى حين أن الفراعنة كما رأينا ان لم يكونوا خاضعين للكهنة خضوعاً مطلقاً فهم لا يحيدون عن أمرهم فى جليلات الأمور .

ولم يكن معروفاً فى آسيا أن المصريين يرفضون كل دين غريب عن دينهم ولا يحتملون بقاءه فى بلادهم . فلقد سمح كورش للبابليين بعد فتح بلادهم وادماجها فى مملكة الفرس أن يعبدوا آلهتهم . فظل اليهود واليونان من سكان آسيا الصغرى ، وبالاختصار كل الأمم التى أخضعها قمبيز ، متمسكين بعبادة آلهتهم وبما ورثوا عن آبائهم الأولين من عادات وأخلاق .

ومن ثم كانت ترى بجانب المذبح الكبير نيران أخرى ضئيلة قربانية ، توقد تحية لمختلف الآلهة ، ويشعلها قوم جىء بهم من البلاد المقهورة المغاوبة على أمرها فى هذا العيد الكبير ، عيد ميلاد الملك .

فكانت المدينة ترى من بعيد كأنها أتون ضخم ، يتصاعد الدخان منه وينتشر فوق الأبراج مخفياً ضوء الشمس المحرقة فى شهر مايو .

وفى الوقت الذى بلغ فيه الملك القصر كان الناس الذين جاءوا ليشتركوا فى هذا العيد قد ألفوا من أنفسهم موكباً طويلا لا ترى نهايته ، ثم سار ذلك الموكب فى شوارع بابل المستقيمة قاصداً قصر الملك .

ونثر فى الطرقات الريحان وسعف النخل والورد والخشخاش وزهر الأولياندر وأوراق الحور الفضية وأكاليل الزهور ، وكان الجو عطراً بالبخور ومختلف العطور الشيقة ، وكانت الزرابى والأعلام تماوج بين الدور وترفرف فوقها .

والموسيقى أيضاً كانت تصدح بأنغامها : فمن بوق مبدى ذى صوت شديد عال الى ناى فريجى ذى نغم هادئ مشج ، ومن صنوج وقيثارات لليهود الى دفوف وآلات وترية يونانيـة ، ومن طبول سورية الى أخرى آرية وأبواق حرب مرتفعة . على أن هذه الأصوات كلها لم تكن شيئاً مذكوراً بجانب صيحات البابليين فى مرحهم ، وهم لم يخضعوا للفرس الا منذ بضع سنين . ولكنهم كانوا كغيرهم من الأسيويين يسرون للأغلال توضع فى أعناقهم ما دام الخوف من ظالمهم وقاهرهم لا يزال يتغلغل فى نفوسهم.

ولقد خلب الألباب وخدر المشاعر والحواس ما رآه القوم من ألوان زهية وعطور شذية ، وذهب لامع ولؤلؤ ساطع ، وخيل تصهل ، وقوم يصيحون و ينشدون .

وما كانت رسل البـلاد تفد الى بابل وأيديهم خاوية ، فكانوا يجيئون ومعهم خيول جميلة ، وفيـلة كبيرة ، وقردة مضحكة ، وكراكد وجواميس مزدانة بأحلاس وأهداب ، وجمال من ذات السنامين علقت فى رقابها الكثة الشعثاء أطواق من ذهب ، وعجلات محملة بأحسن الأخشـاب المطعمة بالعاج ، ومنسوجات من خير الأنواع ، وصناديق ملأى بالتبر والسبائك ، وأوانى فضيـة وذهبية ، وزهور نادرة الوجود لكى تزرع فى حدائق الملك ، وحيوانات غريبـة لأجل المرابى أهمها الوعول وحمر الوحش والقردة والطيور النادرة الوجود . وكانت الطيور تربط فى شجرة مورقة فتطير بين أغصانهـا . — تلك هى أنواع الهدايا التى كانت تقـدم الى ملك الفرس العظيم فى يوم ميلاده .

ولقد كانت هذه الأشياء بمثابة الجزية التى تفرض على الأمم المغلوبة . وكانت توزن بعـد أن يراها الملك ، ويقوم بتثمينها أمناء بيت المال والكتبة ، ثم يعلن عنها سواء أكانت وافية كاملة أم ناقصة فتعاد الى حيث جاءت . وفى هذه الحالة يكلف مقدموها البخلاء بمضاعفتها فيما بعد .

ولم يجد الملك فى وصوله الى القصر عناء ، اذ كان يوسع الطرق له جماعة من الجند وحملة السياط الواقفين على جانبى الطريق .

ولئن كان موكب الملك الى مكان الذبيحة ، حيث اقتيد وراء عجلته مائة من الخيل المرخنة المسرجة ، فخما ، وكان منظر سير المفوضين وراءه رائعاً ، فان حجرة

العرش كانت أفخم ما رأته العين وأروع ما صنعته يد الانسان . ففي المؤخرة ، على مدرج ذى ست درجات يحرس كلا منها كلبان من ذهب خالص ، قام العرش وكان من الذهب الابريز . وعلى هذا العرش أقيمت قبة من أرجوان تحملها أربعة عمد ذهبية مرصعة بالحجارة الكريمة . وعلى القبة قرصان مجنحان هما رمزان للروح والعقل .

ووقف حملة المراوح ، وهم من كبار رجال البلاط ، خلف العرش ، ووقف على الجانبين أولئك الذين نعموا بحظوة الجلوس على مائدة الملك ، وكذلك أقاربه وأصدقاؤه وكبار أمراء الجيش وكهنة المجوس وخصيانه .

وكانت جدران البهو وسقفه مغطاة بصفائح ذهبية مصقولة ، وكانت أرضه مفروشة بالزرابى الأرجوانية .

ووقف بجانب الأبواب الفضية ثيران مجنحة . أما الحرس الملكى فوقف فى فناء القصر ، وكانت ملابس رجال الحرس مكونة من دروع ذهبية تعلوها مآزر أرجوانية . ووضعوا على رؤوسهم الطرابيش الفارسية العالية . وأما أجربة سيوفهم فكانت من الذهب تسطع بما عليها من اللآلئ ، وأما حرابهم فكانت مزدانة أواخرها بتفاح من ذهب وفضة . وكان بين جند الحرس « فرقة الخوالد » تمتاز عن بقية الجند برواء المنظر وجرأة المخبر . ولقد سميت كذلك لأنه كان ان سقط واحد منهم قتيلا فى حرب ، أو مات موتا طبيعياً ، استعيض عنه بآخر فيظل عدد أفرادها ثابتاً لا ينقص. وكان عدد أفرادها عشرة آلاف مقاتل على الدوام .

ووقف ضباط يحملون بأيديهم عصياً قصيرة عاجية ليكونوا كالحجاب يعلنون عن مجئ الأجانب القادمين ثم يقدمونهم . وجعل أولئك الضباط يقودون وكلاء البلاد ومفوضوها الى البهو فالعرش حيث يركعون على الأرض ، كأنهم يقبلونها ، مخفين أيديهم فى أردان ثيابهم . وكانت تكم أفواههم عند الكلام فى حضرة الملك مخافة أن تدنس أنفاسهم شخص الملك الطاهر .

وكانت شدة قمبيز ورقته فى حديثه لهؤلاء الوفود والمفوضين تختلف باختلاف خضوع موفديهم وسخائهم فيما يقدمون للملك من الجزية المقطوعة عليهم . وظهر قبيل المؤخرة وفد من اليهود ، على رأسه رجلان جليلان لكل منهما لحية طويلة

وملامح شاذة غريبة .

وارتدى أولهما رداء الارستقراطيين فى بابل ، وارتدى ثانيهما حلة أرجوانية غير موصولة الأطراف ، علقت بحوافيها جلاجل وسجف ، وحزمت عند الصدر بحزام جمع بين الأزرق والأحمر والأبيض . وعلى كتفيه كساء أزرق ، وعلق حول عنقه كيس صغير به الأوريم والتميم مرصعة باثنى عشر حجرا كريما رصفت فى ذهب ونقشت عليها أسماء أسباط بنى اسرائيل . وكان هذا الرجل حاخام اليهود الاكبر تبدو على وجهه علامات الجد والتفكير ، وعلى رأسه عمامة بيضاء يتدلى طرفا شالها على كتفيه .

فقال الملك مخاطباً أول الرجلين « يسرنى أن أراك مرة أخرى يا بلتشاصار ، فلم تمر ببابى منذ وفاة أبى . »

فانحنى الرجل بملء الخضوع وأجاب « ان عطف مولاى الملك ليبعث السرور فى نفس عبده وخادمه . ولئن رضيت يا مولاى أن تجعل شمس عطفك تضىء علىّ ، وأنا خادمك الحقير ، فتنازل اذن واسمح باجابة طلبة قومى البائسين الذين أذن لهم أبوك العظيم فى العودة الى الأرض المدفونة فيها أجداث آبائهم . وهذا الشيخ الماثل بجانبى هو يوشع كبير كهنة الهنا لم تثنه مشاق السفر وطوله عن المجىء الى بابل ، ليسأل مولاى الملك هذه المنة وجها لوجه . فليكن وقع كلامه على أذنيك ساراً يامولاى وليحل ملتمسه من قلبك محلا مثمراً . »

قال الملك « انى عالم بما تريده منى ، فهل أخطىء أيها الكاهن ان قلت ان الملتمس بشأن بناء الهيكل فى بلادكم ؟ »

قال الكاهن بملء الطاعة والخضوع « لا يمكن أن يخفى شىء عن عينى مولاى . ان عبيدك فى أورشليم راغبون فى التمتع بمشاهدة طلعة مولاهم ، وهم يضرعون اليك بلسانى أن تتعطف عليهم فتشرفهم بزيارة أرض آبائهم ، وتأذن لهم بالبناء كما سمح لهم أبوك طيب الهنا ثراه . »

فأجاب الملك باسما « لك دهاء بنى قومك ، وانك لتفهم كيف تحسن اختيار الوقت الملائم وتجيد انتقاء الكلمات المناسبة لعرض طلبك . انه فى يوم عيد ميلادى

أجد من الصعب علىّ أن أرفض طلباً يقدمه الى رعاياى المخلصون ، ولذلك فانى أعد أن ازور أورشليم وأرض آبائكم فى أول فرصة ممكنة . »

قال « انك بذلك سوف تدخل السرور على قلوب عبيدك ، وان كرومنا وأشجار زيتوننا ليزيد نتاجها لدى اقترابكم منها ، وان أبوابنا لتشمخ باستقبالك بل ان بنى اسرائيل لترتفع أصواتهم بالتهليل والتعظيم سرورا بقدمك ، ويتضاعف سرورهم حين يحيونك مهندسا لبناء الهيكل . . . »

قال قمبيز « كفى أيها الكاهن كفى ؛ فان مطلبكم الأول سوف يجاب كما قلت لانى طالما اشتقت لزيارة مدنكم : صور الغنية ، وصيداء الذهبية ، وأورشليم بما فيها من خرافات غريبة . ولكنى ان أنا أذنت اليوم باقامة البناء فما الذى يبقى اذن لأمنحكم اياه فى عامى المقبل ؟ »

قال الكاهن « ان عبيدك لن يضايقوك مرة أخرى بطلباتهم ، ان أنت منحتهم هذا الملتمس ، لكى يتموا بناء هيكل لربهم الذى يعبدون . »

قال قمبيز « يا لهؤلاء القوم ، قوم فلسطين ، ما أغربهم ! لقد سمعت أنكم تؤمنون باله واحد ليس له شبيه ولا مثيل ، بل روح لا ترى ولا تدرك . فهل تظنون اذن أن ذلك الكائن الموجود فى كل مكان فى حاجة الى دار يسكنها ؟ حقا ان ذلك الملاك الروحانى لا يمكن أن يكون الا مخلوقا حقيرا ضعيفا ، ان هو احتاج الى غطاء يقيه الريح والمطر ومأوى يقيه الحر الذى هو نفسه قد خلقه وأبدعه ، لئن كان الهكم كالهنا حاضرا فى كل مكان ، فخروا أمامه سجدا واعبدوه كما نعمل نحن فى كل مكان ، وكونوا على ثقة من أنكم مسموعون منه دائما أبدا . »

قال الحاخام الأعظم « ان اله اسرائيل يسمع قومه فى كل مكان . لقد استمع الينا أيام أنحلنا الرق تحت حكم الفراعنة البعيدين عنا ، ولقد سمع بكاءنا على ضفاف أنهار بابل ، فاختار أباك ليكون أداة انقاذنا . وهو سيسمع اليوم صلاتى ويستجيب لدعائى ويرقق من قلبك علينا أيضاً . أيها الملك القادر ، امنح عبيدك مكانا عاما للذبيحة تستطيع فيه قبائلنا الاثنى عشر أن تقصده وتتجمع فيه ، ومذبحا على سلمه يستطيعون أن يصلوا جماعة ، ومنزلا فيه يؤدون طقوسهم الدينيـة . انه لأجل

ذلك الاذن يصدر به أمرك الكريم نستمطر من الهنا الرحمة على رأسك ، ونستنزل اللعنة على رؤوس أعدائك . »

وقال بلتشاصّار وكان أغنى يهود بابل وأنبلهم ، المحترم المعظم فيهم ، الذى أحسن كورش معاملته وكان يستشيره ما بين آن وآخر « ايذن يا مولاى لبنى قومى ببناء هيكلهم . »

قال الملك « وهل تظلون مسالمين مطمئنين ان أنا منحتكم هذه الطلبة ؟ ان أبى قد أذنكم بالبدء فى العمل ، بل وأمدكم بوسائل اتمامه . وقد عدتم الى وطنكم فرحين متحدين . فلما أن بدأتم العمل دب بينكم دبيب النزاع والشحناء والجدل والمخاصمة ، وجاءت الكتب تترى ممهورة بامضاء سادة سوريا وعظمائها يلتمسون فيها من أبى أن يأمر بايقاف عمل البناء ، ولقد طُلب الىَّ أخيراً مثل هذا الطلب . فاعبدوا الهكم أين وأنى شئتم ، ولكنى بما أنى أرغب فى سلامكم ورفاهيتكم فانى لا أستطيع أن أوافق على المضى فى العمل الذى يشعل نار التنافر والبغضاء بينكم . »

قال بلتشاصّار « وهل من دواعى سرورك فى هذا اليوم أن تسترد ما وهبنا أبوك اياه بموجب صك . »

قال « بموجب صك ؟ »

قال « أجل وهو محفوظ فى سجلات الدولة . »

قال « عليكم بايجاده واطلاعي عليه . واذن فانى لست آذنكم بتكملة البناء فقط ، بل أساعدكم أيضا عليه ، لأن ارادة أبى مقدسة عندى كأنها أوامر الهية . »

قال بلتشاصّار « وهل تسمح لنا بالبحث فى دار السجلات فى اكبتانا ؟ ان الصك بلا ريب موجود هناك . »

قال « قد أذنت لكم ولكنى أخشى أن لا تجدوا شيئاً . وقل لقومك أيها الحاخام انى مسرور من رجالهم المسلحين الدين أرسلوهم ليشتركوا فى حرب المساجيت ، وأنبئهم أن كبير قوادى ميجابيزوس قد أثنى عليهم كثيراً . وانى لأرغب أن يبرهنوا على شجاعتهم كما برهنوا ايام حروب أبى . وأنت يا بلتشاصّار ، انى داعيك منذ اليوم لحضور حفل عرسى ، وانى مكلفك أن تخبر صاحبيك ميشاخ وعبدنغو وهما

أعظم يهود بابل بعدك أنى منتظرهما الليلة ليتناولا طعام العشاء على مائدتى . »

قال بلتشاصّار منحنيا « سألت الله اسرائيل أن يمنحك البركة والسعادة . »

قال الملك « دعاء أتقبله منك لأنى لست أحتقر الهكم وقوته العظيمة . كلمة أخرى يا بلتشاصّار . لقد عوقب كثيرون من اليهود لسبهم آلهة البابليين فنبه قومك وحذرهم . انهم انما يجلبون لأنفسهم كراهية الفرس و بغضائهم ، وذلك بخرافاتهم العنيدة السخيفة وعجرفتهم فى اظهار أن الههم هو الاله الحق . فاسلكوا مسلكنا ، وانهجوا منهجنا ، ولنكن لكم مثلا . اننا راضون قانعون بايماننا وعقائدنا تاركون الغير يتمتعون بعقائدهم وايمانهم فى سكون وسلام . وأقلعوا عن اعتباركم أنفسكم خيرمن على وجه الأرض : على أنى مع ذلك معجب بكم لأنى أستطيب فى نظرى الكبرياء المبنية على احترام النفس . ولكن احذروا أن تذهب بكم كبرياؤكم مذهباً بعيداً ، وتستحيل الى فخر كاذب وعجب مائن . فذلك وضيع حقير . استودعكما الآلهة اذن وكونا على ثقة من عطفى على قومكم . »

وانصرف اليهوديان فشليين ولكنهما لم ييأسا لأن بلتشاصّار كان واثقاً من وجود الصك بين سجلات الدولة فى أكبتانا .

وتقدم على أثر الوفد وفود أخرى من سوريا ومن اغريق أيونيا . وأخيراً دخل وفد مؤلف من رجال ، بشعو المنظر ، يرتدون جلود الحيوانات ، وتنطق وجوههم بأنهم ليسوا من أهل بابل . وكانت مناطقهم وأربطة أكتافهم من ذهب خام مصبوب ، أما أغلفة قسيهم وفؤوسهم وأطراف حرابهم وزخرف طرابيشهم العالية المصنوعة من الفرو فكانت أيضاً من ذهب خالص . وفى مقدمتهم رجل بلباس فارسى تدل ملامحه وشكله على أنه واحد من هؤلاء القوم .

فنظر الملك الى هذا الوفد بعين الاستغراب ، ثم أظلم وجهه واكفهر وصاح بالحاجب المخصص بتقديم الوفود اليه « ماذا يريد هؤلاء القوم منى ؟ ان هؤلاء القوم ، اذا لم يخطىء ظنى ، جماعة المساجيت الذين سوف أصب عليهم جام غضبى وانتقامى فأجعلهم يرجفون . قل لهم يا جوبرياس ان جيشا جرارا مجهزا يعسكر فى سهول ميديا وهو متأهب لان يرد سؤلهم بأطراف الأسنة وشفار السيوف . »

قال جوبرياس مطأطئاً رأسه « لقد وصل هؤلاء يامولاى صباح اليوم خلال تقديم الضحايا والقرابين ، ومعهم أحمال كبيرة من أنقى الذهب يسترضونك بها . وهم حينما سمعوا أن عيداً عظيماً سيقام تحية لك فى يوم ميلادك ، أقدموا وألحفوا فى الطلب كى يسمح لهم بالمثول لديكم ، حتى يعرضوا بأنفسهم الرسالة التى حملهم اياها قومهم ليقوموا بتقديمها اليك . »

فانفرجت أسارير الملك ، و بعد أن أطال النظر فحصاً وتدقيقاً فى أطولهم قامة ، وكان ملتحياً قال « أدن بهم منى ، فانى فى شوق لمعرفة ما يريده قتلة أبى . »

فبدرت من جوبرياس اشارة تقدم على أثرها أطول المساجيت وأكبرهم سناً ، ودنا من العرش ، ثم بدأ يتكلم بصوت عال مرتفع بلغة قومه . وكان يصحبه رجل فى زى فارسى ، أسره كورش فى الحرب فتعلم الفارسية أيام أسره ، وجاء لينقل كلام خطيب هؤلاء القوم الرّحل جملة جملة الى الفارسية . قال « نحن جد عارفون أيها الملك العظيم أنك ناقم من المساجيت قتلهم لأبيك فى حرب عوان ، أثارها هو وحده على قوم ما أساءوا اليه قط . »

فاعترضه الملك قائلا « ان أبى كان محقاً فى انزال العقاب بكم لأن ملكتكم طوميريس اجترأت على رفض الزواج منه . »

قال المساجيتى « ومع ذلك فلا يحمُ غضبك أيها الملك ان قلت لك ان أمتنا كلها وافقت على هذا الرفض واستحسنته . ان الطفل منا ليدرك أن كورش العظيم ما أراد أن يضم ملكتنا الى زوجاته الا لكى يضم بلادنا اليه ، فقد كان طمعه فى توسيع نطاق ملكه أشعبياً ، وكان تعطشه الى ذلك لا تروى له غلة . »

سكت قمبيز واستمر الرجل فى حديثه قال « لقد ابتنى كورش جسراً على نهر أراكس وهو الذى يحد بلادنا ، فلم نأبه لذلك ولم نحزن . وأرسلت طوميريس كلمتها اليه أن يفر على نفسه هذه المشقة ، لأن المساجيت اعتزموا اما أن ينتظروه وهم سكون فى بلادهم تاركين طريق النهر حراً له ، واما أن ينازلوه فى بلاده . ولكن كورش عملا بنصيحة كريسوس ملك ليديا المخادع ، كما بلغنا بعدُ من بعض أسرى الحرب ، قرر أن ينازلنا فى ديارنا وأن يقهرنا بخدعة من خدع الحرب . ومن ثم أرسل

لنا فرقة صغيرة من جنده ، يسهل تشتيت شملها بل وهلا كها بسهامنا وحرابنا ، وسمح لنا أن نأسر فرقه هذه دون أن يُطلق سهم واحد . فاعتقدنا اننا كسرنا ذلك الغازى العنيد شر كسرة ، واحتفلنا بانتصارنا على طول ضفتى النهر . ولكننا سممنا بذلك الشراب اللذيذ الذى تدعونه خمراً ، وتخدرت أعصابنا ، فغلبنا النوم على أمرنا . فانقض علينا جنده ، وذبحوا العدد الأكبر من مقاتلتنا ، وأسروا معهم كثيرين منا وكان من بين هؤلاء الأسرى سبارجاب ابن ملكتنا ، وكان فتى شجاعاً مقداماً .

« وسمع الفتى وهو فى أسره أن أمه رضيت بعقد صلح معكم لتفديه من الأسر فسأل أن يفكوا عنه قيده ، فلما أن أجيب الى ذلك واستطاع أن يحرك يديه ، اختطف سيفاً وأغمده فى صدره قائلا انني أضحى بنفسى فى سبيل حرية بلادى وشعبى .

« وما كدنا نسمع أيها الملك نعى الأمير الفتى الذى أحببناه حباً شديداً على هذه الصورة ، حتى جمعنا كل قواتنا التى أبقت عليها سيوفكم . وهرع كبارنا وصغارنا ، شيوخنا واحداثنا ، الى أسلحتهم كى يثأروا للأمير سبارجاب وقدموا أنفسهم قرباناً لحرية المساجيت محتذين حذوه . فالتقى الجيشان ، فهزمتم وسقط كورش فى ميدان الوغى قتيلا . ولما أن رأت طوميريس جثته غارقة فى بحر من الدماء صاحت قائلة : ايه أيها الغازى الجشع والفاتح الطماع ، أراك شبعت الآن من سفك الدماء . — ثم طلعت علينا الفرقة المكونة من زهرة نبلائكم ، والتى تدعونها فرقة الخوالد ، فأجلانا رجالها عن مواقعنا ثم حماوا جثة أبيك من بين صفوفنا المتراصة . وكنت أنت نفسك فى المقدمة تقودهم وأنت تحارب كالأسد الرئبال . انى لأعرفك جد المعرفة ، وهذا الجرح الذى أراه فى وجهك يزينه كأنه ضمادة من أرجوان ، أو اشارة فخر وشرف ، انما كان من سيفى هذا المعلق على جانبى . » .

وعندئذ ضج المستمعون خوفا على حياة ذلك الرجل المتكلم الجسور ، ولكن قمبيز ظهر عليه السرور وهز رأسه تصديقاً لقول الرجل وقال « أجل وأنا أيضاً تبينتك الآن وعرفتك ، فلقد كنت تمتطى جواداً أحمر ذا سرج ذهبى . وسترى أن الفرس يعرفون كيف يحيون البسالة . طأطئوا رؤوسكم أيها الاخوان أمام هذا الرجل ، فما رأيت صارما أحد من صارمه ، ولا باعاً أشد من باعه . ومثل هذه البسالة تستحق

التحية والاجلال من كل الشجعان ، سواء كانت عند الصديق أو عند العدو . وأنت أيها المساجيتى ، فانى أنصح لك أن تعود تواً الى بلادك وأن تعد العدة للحرب . ان مجرد تذكرى لقوتك وشجاعتك يزيد تشوقى وحنينى الى تذوقها مرة أخرى . ان العدو الشجاع ، وحق مثرا ، خير بكثير من الصديق الخوار الضعيف . ولك أن تعود الى بلادك آمناً مطمئناً ، ولكن حذار أن تظل هنا طويلا قريباً منى . انى أخشى أن تثور ثائرتى فيهيج فى قلبى حب الأخذ بثار أبى ، فأقلبك على غرة شر منقلب . »

فابتسم ذلك البطل ابتسامة مرة وقال « ان المساجيت يرون أن أباك قد أُخذ بثاره أخذاً شديداً ، لأن ابن مولاتنا الملكة ، وهو رمز آمال كل قومه وموضع اعجابهم، قد سال دمه من أجل أبيك ، وهو لا يقل عن كورش بأى حال عظمة ومجداً . ولقد خضبت ضفاف نهر أراكس بدماء خمسين ألفاً من مواطنى ، فى حين أن خسارتكم بلغت ثلاثين ألفاً . ولقد جار بنا مثلكم ببسالة وشجاعة ، ولكن دروعكم كانت خيراً من دروعنا فى مقاومة سيوفكم وسهامكم ، اذ اخترقت دروعنا وملابسنا الجلدية . وأخيراً قتلتم ملكتنا ، وتلك كانت أشد ضرباتكم . » .

فاعترضه قمبيز قائلا « طوميريس قتلت ؟ أتريد أن تقول ان الفرس قد قتلوا امرأة ؟ أجبنى فوراً ما الذى أصاب ملكتكم ؟ . » .

قال « ان طوميريس ماتت منذ عشرة أشهر من شدة حزنها على ولدها الوحيد فلى الحق اذن أن أقول انها ذهبت ضحية حربكم فكانت هى أيضاً من جملة من أخذتموهم بثار أبيك . » .

قال قمبيز متأثراً على وفاتها « لقد كانت من عظيمات النساء وفضلياتهن . لقد بدأت أعتقد أن الآلهة قد أخذت على عاتقها أن تثأر من قومكم لدم أبى المهدور . غير أنى أقول لك انه مهما كانت خسائركم فادحة فان سبارجاب وطوميريس وخمسين ألفا من المساجيت لا يمكن أن يعدلوا ملكا فارسيا ، وعلى الأخص اذا كان هذا الملك هو كورش . »

قال « ان الموت فى نظر مواطنىّ يسوى بين الناس أجمعين ، فتعدل روح الملك روح العبد الرقيق . لقد كان أبوك عظيما ولكننا قاسينا الهول بسببه . ان روايتى لم تتم

فصولها بعد فاسمع : بعد وفاة طوميريس دب دبيب الشقاق بين المساجيت . وادعى رجلان منا أن لهما حقا واحدا فى الملك ، فانحاز نصف الأمة الى أحدهما وانحاز النصف الثانى الى الآخر ، وتصادم الفريقان فتخاذل جيشنا وقل عدده بسبب تلك الحرب الأهلية و بسبب الوباء الذى عقب الحرب مباشرة . وأصبحنا عاجزين عن منازلة جيوشكم ، ولذلك جئنا نقدم أحمال الذهب ترضية وثمنا للسلم بيننا و بينكم . »

قال قمبيز « اذن تخضعون بدون حرب ؟ لا أكتمك أنى كنت أتوقع غير ذلك من أبطال وقروم حرب مثلكم . وان فى عدد جيوشى المرابطة فى سهول ميديا ما يثبت ذلك . ولكننا لانستطيع أن نذهب الى الحرب وليس أمامنا من نحارب . سأصرف الجيش ، وسأرسل اليكم مرزبانا من عندى . فمرحبا بكم اذن من رعايا جدد اندمجوا فى مملكتى واستظلوا برايتى . »

وعند هذه الكلمة اصطبغ وجه ذلك المحارب بحمرة الغضب ، وقال بصوت يرجف من التأثر « انك مخطىء أيها الملك ان أنت وهمت أننا فقدنا شجاعتنا القديمة . نحن نعلم أن البقية الباقية لنا من أمتنا التى أجهدتها الحرب والأوبئة لا تستطيع الثبات أمام جيوشكم الجرارة المسلحة أحسن تسليح . تلك حال أمة المساجيت نعلنها بكل حرية وشرف وإباء . بيد أننا نعلن فى الوقت نفسه أننا انتوينا أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ، شأننا من قديم ، ولن نقبل أبدا علينا مرزبانا من قبلك ينهى و يأمر فينا ، ويستن لنا من القوانين ما شاء . أراك غضبت أيها الملك ، ولكنى استطيع احتمال نظرة الغضب التى توجهها الىّ ، بل وأعيد عليك مرة أخرى قولى هذا ان شئت . »

قال قمبيز « واليك جوابى ، لك أن تختار واحداً من اثنين : اما الخضوع لتاجى فتندمجون فى المملكة الفارسية تحت اسم ولاية المساجيت ، وعلى رأسكم من قبلى مرزبان يسوس أمركم ، ويحكم بلادكم ، تستقبلونه بالتجلة اللائقة بمن يمثلنى ، واما أن تقفوا منى موقف الأعداء ، وفى هذه الحالة ترغمون بالقوة على الاذعان لشروطى التى أقدمها لكم الآن عن طيب خاطر . انكم اليوم تستطيعون أن تحصلوا على وال من قبلى يعطف عليكم وعلى بلادكم ، أما بعد اليوم فلن تجدوا منى غير غاز لبلادكم ، فاتح لمدنكم ، منتقم منكم أشد انتقام . فاختر لنفسك ماتحاولها ، وفكر قبل أن تدلى الىّ بالجواب . »

قال « لقد فكرنا قبل ذلك ووزنا كل شئ وقدرناه قدره ، ونحن الأحرار ، أبناء الصحارى والقفار ، نفضل الموت على ذل ورق بعدهما العار كل العار . فاسمع ما قضاه مجلس شيوخنا وأرسلنى به اليك : ان المساجيت قد صاروا من الضعف بحيث لا يستطيعون الوقوف أمام الفرس لينازلوهم ، لا عن خطأ ارتكبناه وانما عن مصائب فادحة أنزلها بنا الهنا وهو الشمس . ونحن نعرف أنكم جيشتم ضدنا جيشا عرمرما مسلحا ، ولهذا فنحن على استعداد لأن نشترى منكم السلم والحرية بجزية سنوية ندفعها لكم . فان أبيتم الا اذلالنا بقوة السلاح فلن يكون لكم من وراء ذلك الاخراب عظيم محقق . اذ فى اللحظة التى يقترب عندها جيشكم من نهر أراكس نكون قد رحلنا بنسائنا وأبنائنا لنبحث لنا عن مكان آخر نقيم فيه . ولا يفتكم أنه ليست لنا مساكن ثابتة مثل مساكنكم ، بل نحن قوم جوالون على ظهور الخيل ، لا نستريح الا فى الخيام وتلك نضربها حيث شئنا . وأما ما لدينا من ذهب ونضار فسنحمله معنا وسنخفى أو نتلف كل المناجم الجديدة التى قد تجدون فيها شيئا من كنوز بلادنا . ونحن نعرف كل بقعة يوجد فيها الذهب ، وفى استطاعتنا أن نعطى منه الكثير ان أنت منحتنا السلم والأمن والحرية . وان أنت أقدمت على غزو اقليمنا فلن تكسب شيئا سوى صحراء قفراء قاحلة وعدوا لن تصل اليه أيديكم — عدوا قد يصير قويا بمر الزمن الكافى لاستعادة قواه بعد تلك الخسارة العظيمة التى أضعفت صفوفه . والليالى قد يلدن كل عجيبة . فاتركنا فى أمننا وحريتنا ، ونحن فى مقابل ذلك مستعدون أن نقدم لك كل سنة خمسة آلاف حصان من كرام الخيل الصحراوية وأسرعها ، عدا الجزية السنوية التى ندفعها ذهبا . ونبقى بعد ذلك للأمة الفارسية عونا على كل عدو قادم ، أو خطر داهم . »

وبعد ما فرغ من كلامه لم يرد عليه قمبيز بل أطرق يفكر مليا ثم أجاب « سننظر فى الأمر هذه الليلة ونحن على موائد الشراب ، وغداً تسمع منى الجواب لتحمله لقومك . كن ياجوبرياس فى خدمة هؤلاء القوم ، وأحسن معاملتهم ووفهم حقهم من الاكرام . وخذ لذلك المساجيتى الذى جرحنى فى وجهى نصيباً من خير طعام مائدتى . »

الفصل الخامس عشر

خطاب من مصر

كانت نايتيتس خلال هـذه الحوادث جالسة وحدها فى قصرها القائم وسط الحدائق المعلقة ، غارقة فى أشد أفكارها المحزنة . وكانت قد ذهبت مع باقى نساء الملك لتحضر الذبيحة وتشترك معهن ، وحاولت أن تصلى لآلهتها الجدد فى الفضاء والهواء الطلق أمام بيوت النار ، وبين أصوات الأغانى والتراتيل الدينية الغريبة لديها .

ورآها لأول مرة سكان مقاصير الحرم ، وبدلا من أن يرفعن أبصارهن نحو السماء صوبنها نحوها خلال الحفل كله .

هوش ذهنها وأزعج بالها نظرات رصيفاتها اليها بعين الحسد والفضول ، وزاد فى اضطرابها صوت الموسيقى العالى المنبعث من المدينة . طوحت بها أفكارها الى سكون المعابد الكبيرة فى مصر ، ذلك السكون الذى يبعث فى النفس روعة ومهابة ، وجرى بها الخيال الى آلهتها وكانت مخلصة فى عبادتها لها منذ الصغر وهى بجانب أمها وأختها . وكانت كلما تاقت نفسها فى هذا اليوم الى الصلاة تستمطر بها البركة والرحمة على ملكها المحبوب منها ، تذهب جهودها عبثاً . وهى فى الحقيقة لم تستطع أن تحرك فى نفسها عاطفة العبادة .

وجثت كاساندين وآتوسا بجانبها مشتركتين فى ترتيل تلك الأدعية التى كانت فى نظر نايتيتس كأنها أصوات جوفاء .

ولا يمكن انكار أن كثيراً من هذه التراتيل من أجود الشعر وأمتنه ، لولا تبذلها بكثرة تداولها وتعاقب ذكر الخير والشر والفضائل والمقابح فيها . وكان نساء الفرس يُعلّمن هذه الأناشيد الدينية منـذ الصغر . ويدربن على اعتبارها أعلى وأقدس ما عداها من أشعار الفرس وأناشيدهم . وكانت أولى صلوات الفرس مصحوبة بمثل هذه التراتيل ، ولذلك كانت عزيزة لديهم تستثار بها عواطفهم الدينية . شأنها فى ذلك شأن

كل ما نأخذه عن آبائنا ونحن فى طور الطفولة ، ونتلقفه على اعتبار أنه مقدس واجب احترامه ، فتطبع به نفوسنا وتلصق به ما لها من فكاك .

على أن الأمر لم يكن كذلك مع نايتيتس ، اذ أن معرفتها وصحبتها بأحسن شعراء الاغريق كانت قد أفسدت عليها قلبها من هذه الناحية . وأما ما كانت تتعلمه فى فارس ، وتجد فى تعلمه صعوبة وضجرا ، فلم يعلق بعد بقلبها فيصير قطعة منها ، ولذا فانه بينما كانت كاساندين وآتوسا تؤديان تلك الطقوس الدينية عن سلاسة وسهولة وتعتبرانها من اللزوميات الطبيعية لهما ، كانت نايتيتس تجهد ذهنها فى تذكرها مخافة أن يقف على جهلها بها أترابها من نساء الملك اللائى يترصدنها غيرة منها وحنقا .

وقبل الذبيحة ببضع دقائق تسلمت أول خطاب من مصر ، فتركته على خوان زينتها وملبسها دون أن تقرأه ، وكانت تفكر فيه كلما حاولت الصلاة لآلهتها الجديدة وذهب بها الظن كل مذهب ، وجعلت تحدس مضمونه وما اشتمل عليه من الأخبار . فكيف حال أبويها وكيف احتملت تاخوط أختها فراقها وفراق ذلك الأمير الذى تدلهت بهواه ؟

وانتهت الحفلة ، وعانقت نايتيتس كاساندين وآتوسا ، وتنفست الصعداء كأنها أنقذت من خطر داهم . ثم نادت على حملة محفتها ، وعادت الى مخدعها ، وأسرعت شغفة الى خوانها الموضوع عليه الخطاب . وكان فى انتظارها أولى وصيفاتها ، وهى تلك الفتاة الصغيرة التى قابلتها عند وصولها من سفرها وألبستها الملابس الفارسية لأول مرة ، فاستقبلتها بابتسامة ذات معان سرعان ما استحالت الى نظرة اندهاش واستغراب عند ما رأت سيدتها تمسك بالخطاب دون أن تلقى نظرة واحدة على الملابس واللآلىء التى كانت موضوعة على الخوان .

وفضت نايتيتس غلاف الخطاب بسرعة ، وجلست الى تلاوته ، واذا بالوصيفة تقترب منها ضامة يديها قائلة « وحق مثرا يامولاتى لقد أعيانى فهم أمرك . انك اما أن تكونى بك وعكة واما أن تكون بهذا المظروف الكريه الرمادى اللون بعض السحر الذى جذبك اليه فجعلك لاترين شيئاً سواه . ضعيه جانباً يامولاتى وانظرى الى تلك الهدايا الفاخرة التى بعث بهـا اليك الملك (نصره أورامزدا) حينما كنت تحضرين

الذبيحة . انظرى الى ذلك الثوب الأرجوانى العجيب ذى الخطوط البيضاء والحوافى الفضية الثمينة ، والى ذلك التاج المرصع بالماس . ألا تعرفين لهذه الهدايا معناها الراقى ؟ ان قمبيز يلتمس ، والرسول يقول يلتمس لا يأمر ، أن تلبسى هذه التحف الليلة فى حفلة الوليمة . ما أشد كدر فايديم اليوم وما أشد لوعة أترابها من نساء الملك ، اذ لم يقدم لهن مثل تلك الهدايا . انه حتى الآن لم يأذن لغير كاساندين بلبس الثوب الأرجوانى والماسات ، وهو بارساله هذه الهدايا اليك يضعك فى مستوى أمه ، ويعلن أمام العالم أجمع أنك أولى زوجاته . ايذنى لى يا مولاتى أن ألبسك هذه الملابس الجديدة الجميلة . ما أجمل ما ستكونين فيها ، وما أشد غيظ النساء الأخرى وما أكثر حسدهن ! بودى لو أستطيع الوجود فى البهو حين تدخلين فيه . تعالى يامولاتى اخلعى عنك رداءك البسيط فألبسك (من باب التجربة فقط) ما يليق بملكة الفرس الجديدة . »

فأصغت نايتيتس الى كلام الفتاة ، وأظهرت بابتسامة اعجابها بهذه الهدايا . ولم تكن نايتيتس الا انثى لها كل مشاعر المرأة فسرها ما رأته أمامها من الحلل والحلى . ألم يكن مهديها هو ذلك الذى ملكته فؤادها وأحبته أكثر من الحياة نفسها ! وألم تكن تلك الهدايا برهاناً واضحاً على أنها نزلت من قلب الملك منزلة لم تنزلها جميع زوجاته من قبل ، ودليلا واضحا على أن قمبيز قد علقها وأحبها حباً صردا خالصاً . فسقط الخطاب الذى تشوقت لقراءته على الأرض غير مقروء ، ووافقت على رغبة الفتاة فى الباسها دون أن تبدر من فمها كلمة . وفى برهة وجيزة استكملت نايتيتس زينتها ، وزادتها الحلة الأرجوانية الملكية جمالا على جمالها ، وجعلها ذلك التاج الساطع هيفاء القد ممشوقته ، وبدا جسمها أطول من حقيقته . ولما أن نظرت فى المرآة الفلزية الموضوعة على منضدة لباسها ظهرت لها صورتها لأول مرة وعليها جلال الملك ، وعلت وجهها مسحة جديدة . خيل اليها كأن جانبا من عظمة زوجها وكبريائه قد انعكست عليها . وخرت الوصيفة جاثية على غير قصد منها حينما اصطدمت عيناها ، المبتسمين اعجابا المأخوذتين بسحر جمال مولاتها ، بنظرات نايتيتس الحادة التى أسرت برائع حسنها قلب أقوى الملوك ، فوقع فى حبالة هواها .

ومرت فترة على نايتيتس وهى تنظر الى الفتاة الجاثية أمامها ، وسرعان ما تورد وجهها الجميل خجلا فأنهضتها فى رفق وقبلتها فى جبينها وأعطتها سوارا من ذهب . ولما أدركت بعدئذ أن خطابها ملقى على أرض الغرفة أظهرت لخادمتها رغبتها فى الانفراد فأسرعت ماندين فى الخروج لترى الخدم والجوارى ، اللاتى هن أقل منها مرتبة ، الهدية الفاخرة التى منحتها سيدتها اياها . اما نايتيتس فقد رمت بنفسها على كرسى من العاج وضع أمام خوان زينتها . وكانت عيناها تلمعان وقلبها يدق من شدة فرحها ثم صلت صلاة قصيرة تشكر بها المعبودة حاتحور الحسناء ، وهى أحب معبوداتها اليها ، وبعدئذ قبلت السلسلة الذهبية التى منحها اياها قمبيز يوم خاض فى الماء ليحضر اليها الكرة . وأخيراً فضت غلاف الخطاب وهى معتقدة أنها بلغت غاية ما تتمنى من السعادة . وقالت لنفسها وهى تجلس على وسائدها الأرجوانية « ما أسعدنى وما أشد سرورى ! انى واثقة يا خطابى المسكين أن كاتبك لم يكن يظن قط أن نايتيتس تؤجل قراءتك ربع ساعة وأنت ملقى على الأرض . »

وبدأت تقرأ الخطاب ، وهى على هذه الحال من الفرح والسرور . ولكن وجهها تجهم بعد مدة وجيزة ، وما جاءت على آخره حتى سقط الخطاب من يدها مرة أخرى على الأرض .

وغصت عيناها النجلاوان بالدموع ، ومن لحظة مضت دفع سحرهما الوصيفة الى الركوع عند قدمى مولاتها . وسقط رأسها على اللآلئ الموضوعة على المنضدة ، وكان ذلك الرأس من لحظة مرتفعا شامخا . وتفجر الدمع من مآقيها وتناثر على اللؤلؤ والماس وسقط التاج من فوق رأس الأميرة المصرية وقد أغمى عليها .

وهذا نص الخطاب : —

« من لاديس زوجة أماسيس وملكة مصر العليا والسفلى الى ابنتها نايتيتس عروس ملك الفرس العظيم .

« ليس من خطئنا يا ابنتى العزيزة أنك ظللت هذه المدة الطويلة دون أن تصلك أخبار منا ، اذ أن السفينة التى أرسلنا اليك فيها كتبنا قد أوقفتها سفن

السامِيين الحربية أو بعبارة أخرى سفن لصوص البحار ، واقتادتها الى مرفأ أستباليا (١)

« ان زهو بوليقراط وصلفه يتزايدان بنجاحه المستمر فى كل مشروعاته . ومنذ أن انتصر على اللسبيين والميليسيين الذين بذلوا كل ما فى وسعهم ليقفوا نهبه وسلبه لم تنج سفينة من اغارة سفنه وقرصانه عليها .

« ولقد مات بيزاستراتس ، وتوثقت عرى الصداقة بين أولاده و بين بوليقراط ، وليجداميس فى حاجة اليه اذ أنه لا يستطيع حكم نا كسوس دون مساعدة السامِيين . ولقد انحاز اليه مجلس الامفكتيون الاغريق وذلك لتنازله عن جزيرة رهينيا الى آبولون فى ديلوس . وعاثت سفنه الخمسون ببحارتها البالغين عشرين الفا فسادا فى كل أمم البحار ، ولم تجسر أمة على مهاجمته لأن حصون قلعته ومرفئه لا يمكن اقتحامها ، فى حين أنه هو ذاته محوط بحرس منظم خير تنظيم .

وستصبح ساموس بفضل نزوح التجار الى الغرب الأقصى ، و بفضل سفن القرصان تلك ، أغنى جزر البحر الأبيض المتوسط ، وسيصير بوليقراط أقوى الرجال الا اذا حسدته الآلهة كما يقول أبوك ونقمت منه هذا الحظ السعيد فأعدت له سقوطا فجائياً سريعاً .

« ولقد خشى أماسيس ذلك فنصح الى بوليقراط باعتباره صديقاً له من قديم أن يحرم نفسه الى الأبد أعز ما لديه من التحف ارضاء للآلهة . فانتصح بوليقراط بهذه النصيحة ، وألقى فى البحر ، من قمة برجه المستدير ، المقام على قلعته ، خاتمه الثمين الذى كان يمهر به أوراقه ، وكان جذعا من عقيق نادر كبير الجرم يحمله دلفينان صنعه ثيودوروس ونقش عليه صورة قيثارة ، هى رمز الحاكم .

« و بعد مضى ستة أيام وجد طاهى بوليقراط هذا الخاتم فى جوف سمكة . فأرسل على الفور ينبئنا بأمر ذلك ، ولكن أباك بدلا من أن يبتهج بذلك هز رأسه فى حزن وقال انه تحقق من أنه يستحيل على أى انسان أن ينجو من القدر المقدور عليه . وفى نفس هذا اليوم زهد فى صداقة بوليقراط وكتب اليه يقول انه سيحاول أن ينساه ، حتى يفر على نفسه ألم رؤية صديقه وقد نزلت به نازلة وفجعته فجيعة .

---

(١) قلعة بوليقراط الحصينة فى ساموس .

« فضحك بوليقراط من هذه الرسالة ، وأعاد المكاتيب التى سلبتها قرصانه من سفينتنا مصحوبة بتحيته ، وسترسل لك الخطابات منذ اليوم عن طريق سوريا .

« قد تسألينى عن سبب اخبارى لك بهذه القصة الطويلة التى قد لا تصادف منك الهوى مثل ما يصادفه غيرها من أنباء البلاد . ولكنى أجيبك على ذلك بأنى أريد اعدادك لتلقى أخبار أبيك . فهل تبينت فى تلك الاجابة المحزنة من هو أماسيس المرح الضحوك المتهاون ؟

« واأسفاه يا ابنتى ان لزوجى أن يحزن لما هو فيه ، وان عينىّ لم يجف لهما دمع منذ فارقتنا . فوقتى أمضيه بجانب فراش أختك المريضة ، واما فى تسلية أبيك وقيادته . وفى الليل أغتنم الفرصة لأكتب اليك هذه الأسطر مع أنى فى حاجة الى النوم .

« وها هن الممرضات يقطعن علىّ الكتابة اذ ناديننى الآن لأذهب الى تاخوط أختك ورفيقة صباك .

« لطالما تناديك وهى فى بحرانها من أثر الحمى ، وكم هى تحتفظ بتمثالك الشمعى العجيب ، الذى يشهد لا على علو كعب الاغريق فى الفن فحسب بل وعلى مهارة يد ثيودوروس التى أبدعته وسوته . وغدا سيرسل الى ايجينا كى يعمل غيره من الذهب لأن الشمع الرخص قد تلف من لمس أختك له دائما بيديها وشفتيها الساخنتين المحترقتين .

« والآن استعدى ياابنتى واستجمعى كل قواك لأنى علىّ مسامعك ما يحتاج سرده لكل قوى ذهنى — لأخبرك بالمأساة ، بل بالفاجعة الأليمة التى أنزلتها الآلهة بنا وفجئت بها بيتنا .

« ظلت تاخوط تبكى بعد سفرك بكاء متواصلا ثلاثة أيام متوالية . وذهب عبثاً كل ما بذلنا من الوسائل فى تسليتها ، من كلام ونصح وهبات وصلوات ، ولم ينفع فى تخفيف حزنها أو تحويل فكرها . وفى اليوم الرابع انقطع بكاؤها ، وجعلت تجيب على أسئلتنا بصوت خافت وكأنما خضعت لنصحنا أخيراً ، ولكنها صارت بعدئذ تمضى أكبر جزء من النهار وهى جالسة صامتة أمام منسجها . وكانت أصابعها ، مع حذقها الذى تعرفينه ، اما أن تقطع الخيوط التى تجتهد فى نسجها ، أو تقف ساعات طويلة

ساكتة وهى ملقاة فى حجرها ، وتغرق فى أفكارها وأحلامهـا . وكانت ملح أبيك ونكاته عديمة التأثير فيها ، ولطالما كانت تضحك منها ، واذا أردتُ أن أتمشى معها بالحجة والبرهان رأيتها تصغى الىّ وهى فى حيرة شديدة وتردد أشد .

« فاذا ما لثمت جبينها ورجوتها أن تعود الى نفسها نفرت منى وعلت وجهها حمرة الخجل الشديد ، ثم رمت بنفسها بين ذراعىّ ، ثم بعدئذ تجلس ثانيـة الى منسجها وتبدأ فى سحب الخيوط بشغف شديد . فما يمضى على ذلك نصف ساعة حتى تجدى يديها قد سقطتا فى حجرها وسكنتا ، وترى عينيها قد أحدقتا فى الأرض أو فى الهواء أو فى السماء وتبدو كالنائمة الحالمة . واذا ما اضطررناها للاشتراك معنا فى التلهى بأية لعبة من الألعاب نجدها تدور بعينيها بين الحضور ضجرة ضائقة ذرعا بكل ما يجرى أمامها .

« ولقد أخذناها معنا فى الحج الكبير الى بوباستيس ، وفى هذا الحج كما تعرفين يطرح المصريون شيئاً من جدهم ووقارهم ، وفيه يبدو النيل وضفتاه كأنهما ملعب كبير يقوم فيه السكارى بتمثيل روايات اسرافهم وترفهم . فلما أن رأت لأول مرة جمعاً من الناس قد تركوا لأنفسهم العنان فى المرح والتلهى ولم يتقيدوا بشىء البتة ، استيقظت من شرود أفكارها العميقـة ، ثم جعلت تبكى ثانيـة كما كانت تبكى فى الأيام الأولى من فراقك . وما كان أمر بكاءها هذه المرة !

« فعدنا بها أدراجنا الى سايس والحيرة والحزن يكادان يقتلاننا .

« ولم تكن فى مظهرها تشبه انساناً بائداً بل كانت كأنهـا احدى الآلهة . ثم صار هـذا يتزايد يوماً عن يوم حتى خيل لنا أنها صارت أطول من حقيقتها ، وصار لون وجهها أبيض يكاد يكون شفافاً مع نضرة بسيطة فى خديها . وأستطيع أن أشبه لك تلك النضرة بورقة ورد حديثة ، أو بأول ضوء الشمس عند شروقها . أما عيناها فلا تزالان صافيتين براقتين ، وكأنما هما تنفذان الى ما وراء السموات والأرض .

« ثم أخذتهـا أعراض حمى فارتفعت درجة حرارة رأسهـا ويديها . وأصابت أعضاءها الرخوة قشعريرة طفيفة ، فأرسلنـا فى طلب تحتمس أشهر طبيب باطنى فى طيبة .

« فأنفض الرجل رأسه لدى رؤيتها وأنذرنا بأن داءها عضال . ومنعها من الغزل والنسج وحظر عليها الكلام ، وأعطاها جرعات كثيرة مختلفة الأنواع . ولقد بحث الكهنة الاطباء فى مرضها ، وعملوا لأجلها الرقى والتعاويذ ، ورصدوا النجوم ، واستوحوا الآلهة بعد أن ذبحوا لها من ذبائح وقدموا من تقدمات . وأرسل لنا كاهن حاتحور من جزيرة فيلا عوذة مقدسة ، وأرسل لنا كاهن أوزيريس من أبيدوس خصلة من شعر المعبودة نفسها مربوطة بالذهب ، وقدم نيتحوتب كبير كهنة معبودتنا نيث ذبيحة كبيرة للمعبودة كى تعيد لأختك صحتها .

« ولكن لم يجد شيئاً طب الأطباء ولا تعاويذ الكهنة . وأخيراً أعلن نيتحوتب أن طوالع تاخوط لا تنبئ الا عن أمل يسير فى نجاتها . وفى هذه الأثناء مات ثور منف المقدس ، ولم يعثر الكهنة فى أحشائه على قلب ، ففسروا ذلك بأنه دليل على نزول خطب بالبلاد . ولم يعثروا حتى اليوم على عجل أبيس جديد ، وهم يعتقدون أن الآلهة ساخطة على مملكة أبيك . وأعلن هاتف بطو أن الآلهة الخالدة لن ترضى أبداً عن مصر ما لم تطهر أرضها السوداء من هياكل الآلهة الكاذبة ، وما لم ينف من مصر كل عبّادها .

« لقد تحقق من تلك النبؤات وياللأسف ثلاث . فوقعت تاخوط فريسة لحمى خبيثة أرقدتها تسعة أيام وهى بين الحياة والموت ، ولا تزال فى غاية الضعف تحمل من مكان الى مكان ولا تستطيع أن تحرك يداً أو قدماً .

« وأثناء سفرنا الى بوباستيس التهبت عينا أماسيس أبوك كما كان يحدث ذلك مراراً . وبدلا من أن يريح عينيه استمر يزاول عمله كالعادة من شروق الشمس الى الظهر ، ولم يترك سرير أختك لحظة لما اشتد عليها المرض رغم رجواتنا وضراعتنا اليه . ولكنى لا أذهب معك الى ذكر الصغائر يا ابنتى . لقد ساءت حال عينيه يوما عن يوم ، وفى نفس اليوم الذى وصلتنا الأخبار فيه بوصولك سالمة الى بابل ذهب بصرهفأصبح يعيش فى ظلمات ودياجير .

« وصار الرجل المرح النشيط شيخاً هرماً مكتئباً عاجزاً عن عمل أى شىء منذ ذلك اليوم . أثر فيه موت أبيس وتلك النبؤات والطوالع المحزنة ، وأظلت سعادته

غمامة ذلك الظلام المستديم الذى يعيش فى ديجوره ، ولقـد سبب له شعوره بعجزه عن أن يخطو خطوة بمفرده ترددا وشكا ، وعما قليل سيكون ذلك الملك الجسور المستقل آلة فى أيدى الـكهنة ينفذون بها كل ما يريدون .

« ونرينه الآن منقطعاً فى هيكل نيث للصلاة والتقدمات ، وقد أمر عدداً من البنائين ببناء قبر تحفظ فيه مومياه وأخذ غيرهم فى هدم الهيكل الذى بدأ الاغريق فى بنائه لالههم آبولون فى منف . وهو يقول أن ما حل به وبابنته من المصائب والمحن عقاب حق أنزلته به الآلهة الخالدة .

« وأصبحت زيارته لتاخوط فى مرضها خاوا من كل ساوى وتعزية ، فهو بدلا من تشجيعها برفق أراه يحاول اقناعها بأنها هى أيضاً تستحق عقاب الآلهة . وهو يبذل كل ما أوتى من فصاحة و بيان لغوايتها واغرائها بأنه يجب عليها أن تنسى هذه الدنيا بالمرة ، وأن تسعى فقط لـكسب حب أوزيريس وعطف القضاة فى العالم المقبل عالم الأبدية ، وذلك بالصلاة والتقدمات بلا انقطاع . وهو على هذه الصورة يعذب الفتاة المسكينة المريضة ، لأنها لم تفقد بعد حبها للحياة . وربما كان لا يزال فىّ من التعاليم الاغريقية ما أستكثره على ملـكة مصرية ، ولـكننى فى الحقيقة أرى أن الموت طويل الأمد وأن الحياة قصيرة ؛ ومن ثم لا أستطيع الا أن أرمى حتى أعقل الناس بالجنون ، ان هم قَصَروا نصف هذه الحيـاة القصيرة على الاشتغال بأمور ذلك العالم المظلم عالم الأرواح .

« وها اننى أقاطع فى الـكتابة للمرة الثانية . لقـد جاء تحتمس أكبر أطبائنا ليستفسر عن صحة المريضة ، وأمله فيها ضعيف . ويبـدو عليه أنه مندهش من أن بنية تاخوط ، على ضعفها الشديد ، تحتمل المرض وتقاوم الموت طويلا . لقـد قال أمس : كان يجب أن تموت من أمد بعيد ، لولا أن لها ارادة حديدية وحنينا الى شىء يدفعها الى البقاء فى هذه الحياة وفى ذلك تعب لها واجهاد . وهى لو طرحت عنها جانباً تشبثها بالحياة لدب اليها الموت كما يدب النوم الينا . ولـكن اذا تحققت رغبتها فانها قد تظل فى الحيـاة بضع سنين أخرى (وهذا يكاد يكون بعيد الاحتمال) ، أما اذا

ظلت مدة أخرى قصيرة دون أن تتحقق لها رغبـة فانها لا شك قاضية نحبها واردة حياض المنية .

« فهل عندك علم بالذى تحن اليه هذا الحنين وتشتاق اليه هذا الشوق القاتل ؟ ان تاخوط قد أرخت لنفسها العنان فسمحت لبردية الجميل ، أخى زوجك ، أن يسحرها بجماله و يخلب لبها . ولست أقصد بذلك أن أقول انه قد استخدم فى سبيل ذلك السحر والسحرة . كما يعتقد الكاهن أمنمان ، كى يظفر بقلبها . لأنه من السهل جدا أن يمتلك شاب ، أقل جمالا من بردية ، قلب عذراء بريئة لا تزال نصف طفلة . ولطالما دفعت بى عواطفها الفياضة وتغيرها العظيم الى اعتقاد أن ما بها راجع الى تأثيرات قوة خارقة فوق متناول بنى الانسان . ولقد لاحظت قبل سفرك بقليل أن تاخوط قد أغرمت ببردية وتدلهت بهواه . وكنا نظن فى مبدأ الأمر أن ما نزل بهـا راجع الى فراقك أنت ، ولكن حينما آل أمرها الى ما رأيت من شرود الفكر قال ابيكوس ، وكان لا يزال فى بلاطنا ، ان الفتاة لا بد أن تكون واقعة تحت تأثير عاطفة شديدة أخذت عليها كل سبيل

« وفى ذات يوم بينما كانت جالسة شاردة الفكر بجانب منسجها سمعتـه يغنيها بصوت هادىء أغنية الحب الصغيرة التى قالتها صافو وهى : —

لا أستطيع يا أمى أن أرمى الوشيعة (١) مرة أخرى فان قلبى مفعم بالشوق والحنين ، ونفسى ضجرة مكتئبة ، وذلك من حبى لفتى رأيته فى أمسى الدابر . ولذا فان روحى أبدا تطير :

الى الذى نام عن ليلى وأسهرنى ... ومن اليـه على الأيام تحنانى
ومن أكاتمه وجدى وأوهمه ... أن اقترابى وبعـدى عنه سيان
ومن غذائى ذكراه وان بعدت ... أوطانه ونأت بى عنه أوطانى

« فامتقع لونها وسألته قائلة : أتلك الأغنية من انشائك ؟

« فقال لها : كلا بل قالتها صافو منذ خمسين سنة .

« فقالت تاخوط مرددة كلماته وهى ذاهلة : منذ خمسين سنة ؟

« فقال ابيكوس معترضاً اياها : الحب فى كل زمان هو الحب ، ولقـد أحبت

---

(١) هى « المكوك » فى آلة الحياطة .

النساء فيما خلا من الأيام والسنين ، وسيحبين عشرات آلاف السنين المقبلة كما أحبت صافو منذ خمسين سنة .

« فابتسمت الفتاة المريضة ابتسامة الرضى والموافقة . ومنذ ذلك الوقت وأنا كثيراً ما أسمعها وهى تغنى بصوت خافت تلك الأغنية الصغيرة كلما جلست الى منسجها . ولقد تحاشينا بتاتاً أن نوجه لها أى سؤال قد يذكرها بالذى تهواه . غير أنها فى بحرانها كانت تردد على شفتيها المحترقتين من الحمى اسم بردية . فلما أن أفاقت مرة من غشيتها خبرناها بما قالته فى هذيانها وبحرانها ، واذ ذاك باحت لى بكل ما فى قلبها ، وأوقفتنى على خبيئة أمرها ، وقالت وهى رافعة عينيها نحو السماء كالقديسة أو النبيئة : أنا واثقة أنى لن أموت قبل أن أراه ثانية .

« واشتاقت الى الصلاة فى الهيكل فحملناها اليه . فلما أن فرغت من صلاتها عدنا بها محمولة ، فمررنا ببعض أطفال يلعبون فى فناء الهيكل فرأت تاخوط بنتا صغيرة تحدث رفيقاتها بأشياء وهى جادة ، فأمرت حملة محفتها أن ينزلوها وينادوا الطفلة اليها . فسألتها : ما الذى كنت تقولين ؟ قالت : كنت أحدث أترابى بشىء عن شقيقتى الكبرى . قالت فى رفق : وهل لى أن أسمعها مثلهن ؟ قالت : لقد عاد الينا بطاو خطب أختى من طيبة مساء أمس على غير انتظار . ولقد فجئنا عند طاوع نجم ايزيس ، وصعد على سطح المنزل حيث كانت أختى كريماما تلعب لعبة الداما مع أبى . وقد أحضر لها معه اكليل العرس الجميل المذهب .

فقبلتها تاخوط ، وأعطتها مروحتها الثمينة . وعند ما خلوت واياها ابتسمت لى وقالت : انك تعرفين يا أمى العزيزة أن كلمات الأطفال التى ينطقون بها فى أفنية الهياكل كأنها من عند الآلهة ، أو هى قول وحيهم . واذن فلئن كانت الطفلة حدثتنى بالحقيقة ، فانه لا بد آت الينا ، ألم تسمعى أنه سيحضر معه اكليل العرس ؟ اننى واثقة تماما يا أمى أننى سأراه مرة أخرى .

« ولقد سألتها أمس هل تريد أن ترسل اليك شيئاً ، فكلفتنى أن أبعث اليك بقبلاتها وأهديك عاطر تسليماتها ، وأن أقول لك انها سوف تكتب اليك متى أصبحت قادرة على الكتابة وأنها ستكتب لك طويلا فلديها الكثير من الأخبار التى تريد

أن تحدثك بها . وقد أعطتنى تلك الورقة الصغيرة التى تجدينها طى هذا ، وهى لك وحدك وقد بذلت جهداً كبيراً فى كتابتها اليك .

« وعلىّ الآن أن أتم رسالتى اليك لأن الرسول بانتظارها منذ وقت غير قليل .

« كنت أود لو أنى أحمل رسالتى اليك أخبارا سارة ، ولكن الأحزان فى طريقى أينما سرت . فأخوك يتزايد خضوعه للكهنة وطغيانهم يوما عن يوم ، وهو يدير أمر المملكة بالنيابة عن أبيك الأعمى تحت ارشاد نيتحوتب . وأماسيس لا يتدخل فى شىء ويقول انه لا يهمه سواء أحل محله وريثه فى حياته أم بعد مماته .

« وهو لم يحاول منع بسامتك من القبض على ولدى فانيس فى دار رودو بيس ، وسمح له أن يخابر أبناء المائتى ألف جندى الذين هاجروا الى الحبشة فى عهد بسامتك الأول ، بسبب تفضيل مرتزقة الاغريق عليهم . فاذا ما رضى هؤلاء الجند العودة الى وطنهم ، فان مرتزقة الاغريق يفصلون من عملهم فى الحرس الملكى على الفور ، و يقصون من البلاد ولكن المفاوضات فشلت تماما ، واستاء الاغريق شديدا لمعاملة بسامتك لولدى فانيس ، وهدد أرسطوماكس بمغادرة مصر ومعه عشرة آلاف من خيرة جنده ولدى سماعه أن ابن فانيس قتل بأمر بسامتك طلب اعفاءه من الخدمة . ومنذ ذلك الوقت اختفى السبرطى ، وليس يعلم أحد الى أين ذهب . ولكن مرتزقة الاغريق قد بهرتهم الرشوة التى قدمت اليهم فظلوا فى مصر حتى اليوم .

« ولم يقل أماسيس فى سبيل ذلك كلمة واحدة ، ولم يحرك ساكنا ، بل كان ينظر الى الحادثات تجرى أمامه وهو ساكت غارق فى صلواته منقطع اليها مكثر من تقديم الضحايا والذبائح للآلهة ، فى حين دأب أخوك على اثارة نفوس كل رعاياه ، أو تنزل الى تهدئه ثائرتهم بوسائل لا تتفق مع شرف الملك وكرامته . ولقد أكد لى أمراء الجيش من مصريين واغريق ، وكذلك حكام الولايات على اختلاف مراتبهم أن حال الدولة فى الوقت الحاضر قد أصبح لا يحتمل . وليس يدرى أحد شيئاً من أمر أخيك ملك مصر اليوم بالنيابة . فهو يأمر اليوم ما نهى عنه أمس . ومثل هذا الحكم لا بد أن يفصم العروة الوثيقة المتينة التى تربط حتى اليوم ما بين شعب مصر و بين الملك .

« وداعا اذن يا ابنتى ، وفكرى فى صديقتك المسكينة ، وفكرى فى أمك ،

يسامحى أبويك ان سمعت يوماً ما طالما أخفياه عنك . وصلى لتاخوط واذكرينا الى كريسوس وصحبه من نبلاء الفرس وشبابهم الذين تعرفنا بهم ، وأبلغى بردية تحية تاخوط . وقولى له أن يتقبل تحياتها كأنها الوصية الأخيرة توصى بها فتاة أضناها هواه ، وعما قليل تدركها الوفاة . وددت لو أن باستطاعتك أن تبعثى اليها بما يحقق لها أنه لا يزال يذكر من ان تنساه .

« وداعاً ثم وداعاً ، وآمل أن تكون السعادة نصيبك فى بلدك الجديد . وداعاً ، وداعاً فقد لا تلتقى بعدُ الوجوه . »

الفصل السادس عشر

مكيدة بوجيز

تجيء المحزنات تترى بعد الأفراح كما يجيء اليوم الممطر المعتم بعد اليوم المشمس الزاهي .

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

كانت نايتيتس تشعر بالسعادة وهي تفكر في هذا الخطاب قبل قراءته ، فاذا به يصب في كأس سعادتها مرارة جعلته كالعلقم . فدمر في لحظة واحدة أحد عناصر حياتها السارة — لقد أفسد عليها ذكراها لبلادها العزيزة ، ورفاق طفولتها السعيدة ، فكأنه عصا سحرية مستها فحرمتها كل سعادتها .

وجلست وهي في ملابسها الأرجوانية الملكية تبكي ، ناسية كل شيء الا حزن أمها ، ومصاب أبيها ، ومرض أختها . لقد اختفى ذلك المستقبل المزهر المملوء بالحب والسرور والسعادة ، وكان من لحظة يلوح أمامها في روائه وبهائه . لقد نسيت عروس قمبيز محبها الصابر المشتاق اليها ، ولم تستطع ملكة فارس الجديدة أن تفكر في شيء عدا أحزان الأسرة المالكة في مصر .

ومر عليها زمن طويل وهي على هذه الحال من الحزن والذهول الى أن جاءت ماندين وصيفتها لالباسها وتزيينها . فلما أن رأتها كذلك قالت في نفسها « انها نائمة وفي الامكان تركها كذلك ربع ساعة أخرى تستريح فيها . لقد أنصبها ذهابها في الصباح لحضور الذبيحة ، ولا بد اذن أن تستعيد جمالها ورونقها لحضور وليمة المساء حيث يكسف جمالها جمال من عداها من النساء هناك كما يكسف القمر ضوء الكواكب . »

ثم خرجت من الحجرة غير ملحوظة من سيدتها . وكانت نوافذ الحجرة تطل على الحدائق المعلقة ، فالمدينة العظيمة ، فالنهر ، فذلك السهل البابلي الفخم . ونزلت الى الحديقة .

وأسرعت دون أن تتلفت حولها ، الى سياج ورد لكى تقطف منه بعض الورود؛ وكان نظرها لا يبرح سوارها الجديد المرصع بالحجارة الكريمة التى كانت تلمع وقتئذ فى ضوء الشمس ، فلم تر رجلا فى لباس فخم ثمين واقفاً يرقب نوافذ الحجرة التى جلست نايتيتس فيها تبكى ، ويتلصص ويتسمع . فلما أن قوطع فى تلصصه وتسمعه أدار وجهه نحو الفتاة ، وحياها بصوت مرتفع .

ففزعت الفتاة عند ما تبينت أن الواقف أمامها لم يكن سوى الخصى بوجيز وقالت « ليس من الأدب يا سيدى أن تفزع فتاة مسكينة مثلى بمثل هذه الطريقة . وحق مثرا لولا أنى رأيتك قبل أن أسمع صوتك لأغمى علىّ . قد لا أوخذ بصوت امرأة أسمعه على غرة منى ، ولكن وجود رجل هنا لا يقل فى غرابته عن وجود أوزة فى صحراء قاحلة . »

ضحك بوجيز من ذلك ، مع أنه فهم اشارتها البذيئة عن صوته العالى ، وأجاب وهو يفرك يديه الغليظتين « حقاً انه من الصعب جداً على حمامة صغيرة وجميلة مثلك أن تسكن فى مثل هذا الركن المنعزل ، ولكن على رسلك يا عزيزتى فان سيدتك عما قليل ستصبح ملكة ، واذ ذاك تبحث لك عن زوج جميل صغير السن . انك عندئذ قد تجدين السكنى معه فى هذه العزلة أجلب الى السرور من المكث مع المصرية الحسناء . »

قالت بغلظة « ان سيدتى جميلة فى نظر من يعنيهم جمالها ، هذا الى أنى لم أسأل أحداً قط أن يوجد لى زوجاً . اننى أستطيع العثور على زوج دون مساعدتك أنت أو غيرك . »

قال « من يدرى ؟ ان مثل هذا الوجه الجميل ليتصيد رجلا كما يتصيد الدود السمك . »

قالت « ولكننى لم أحاول بعد أن أصطاد لى زوجاً وعلى الأخص من طرازك . »

قال ضاحكا « هذا مفهوم تسهل معرفته . ولكن خبرينى يا عزيزتى لماذا أنت قاسية علىّ فى معاملتك لى ؟ هل آذيتك فى شىء ؟ ألم أكن السبب فى حصولك على المركز الذى تشغلينه الآن ، ثم ألم أكن واياك من الميديين ؟ »

قالت « لم يبق الا أن تقول لى أيضاً اننا آدميان ، وان لنا فى كل يد خمسة أصابع ، ولكل منا أنف يتوسط وجهه . ان نصف القوم هنا من أهل ميديا ، ولو كان لى من الصحب ما لى من المواطنين لكنت فى غدى احدى الملكات . أما عن مركزى هنا فلم تكن أنت صاحب الفضل علىّ فيه لأن أوروباست كبير مجوسنا هو الذى قدمنى الى الملكة الكبيرة كاساندين وهو الذى أوصى علىّ ، وما علمت قبل الآن أن ارادة بوجيز أمر مطاع أو قانون نافذ . »

قال « ماذا تقولين ياعزيزتى الحسناء ؟ ألا تعرفين أنه لا يمكن أن تعين وصيفة هنا دون رضى منى وموافقة ؟ »

قالت « أعرف ذلك كما تعرفه ولكن . . . »

قال مقاطعاً « انكن أيتها النسوة لا تحفظن عهداً ولا تعرفن جميلا ولستن أهلا لعطفنا وشفقتنا . »

قالت « أرجو أن تذكر أنك تخاطب فتاة من أسرة طيبة . »

قال « أعلم ذلك أيتها الصغيرة ، وأعلم أن أباك كان مجوسياً وأمك ابنة مجوسى . وافاهما الأجل وهما فى مقتبل العمر ، فتركت فى كنف الكاهن المجوسى أكزاباتيز أبى أوروباست وربيت مع ولديه . وأعلم أيضاً أنك حينما لبست القرط فى أذنيك قد أغرم بك جوماتا أخو أوروباست ، وافتتن بجمال خديك الورديين ، ورغب فى الزواج منك مع أنه كان فى الحول التاسع عشر . ليس ثمت ما يدعو الى تورد وجنتيك فجوماتا اسم جميل . جوماتا وماندين ! ما أحسن وقع الاسمين معاً على الأذن ! ماندين ! جوماتا ! لو كنت من الشعراء لدعوت البطل فى قصائدى جوماتا ودعوت حبيبته ماندين . »

قالت ماندين وقد تصاعد الدم الى وجهها وخبطت الأرض بقدمها « اننى ألح فى أن تضع حداً لمزاحك هذا . »

قال « ولمَ أنت غاضبة ؟ ألأنى أقول ان للاسمين معاً رنة جميلة ؟ أولى بك أن تغضبى من أوروباست الصلف الذى بعث بأخيه الى رهاج ، وبعث بك الى البلاط لكى ينسى كل منكما زميله . »

قالت « ذاك قذف فى حق المحسن الىّ وتلك فرية لا أراضاها . »

قال « قطعت الآلهة لسانى ان أنا كنت أتكلم بغير الصدق . ان أوروباست قد فرق ما بينك وبين أخيه لأن له فى جوماتا مقاصد أخرى لا تنتهى عند تزويجه من فتاة يتيمة ، ابنة مجوسى خامل الذكر . وانه ليرضى مثل أميتيس أو مينيسك أن تكون زوجاً لأخيـه . وما كانت مثلك يا ماندين لتقف حجر عثرة فى سبيل أطماعه ومقاصده البعيـدة . وقد أقول فيما بيننا انه يرغب فى أن يعين نائباً عن الملك حينما يذهب الملك لمحاربة المساجيت ، وسيسعى جهـده وبأية وسيلة فى الارتبـاط مع الأخيمينيين رباط نسب وزواج . ولما كان الرجل متقدماً فى السن فان أمر زواجه هو بعيد الاحتمال ، ولكن أخاه صغير وجميل ، ولقـد غالى الناس فى ذلك فقالوا انه يشبه الأمير بردية . »

قالت « هذا حقيقى ، لأنى حينما ذهبت لاستقبال مولاتى رأيت بردية أول مرة من نافذة بنـاء المحطة فظننته جوماتا . انهما يشبهان بعضهما تماماً حتى ليخيل لمن يراهما أنهما توءمان ، هذا الى أنهما أجمل رجال الدولة . »

قال « ما أشـد احمرار وجهك ياوردتى الجميلة ! ولكن الشبه بينهما ليس كبيراً جداً كما تزعمين ، فانى عند ما كنت أحادثه اليوم . . . »

فاعترضته قائلة «جوتاما هنا ؟ هل رأيته حقيقة أو أنت تريد مداعبتى والسخرية منى ؟ »

قال « وحق مثرا أيتها الحسناء لقد قبّلته فى جبهته هذا الصباح ، وقد دفعنى الى التحدث كثيراً بالكآبة قلبـه . ولست أكتمك أنى حينما رأيت عينيـه الزرقاوين وشعره المجعد الذهبى وملامحه الجميلة الجذابة وخديه الأسيلين اللذين يشبهان فى توردهما الخوخ الأحمر ، شعرت من نفسى بميل أسرنى اليه ، وأحسست من نفسى القدرة على عمل المستحيلات لأجله . أمسكى عليـك خجلك وحياءك وتورد وجنتيك يا رمانتى الصغيرة حتى أدلى اليك بكل شىء ، فلعلك تكونين فى المستقبل ازاء بوجيز المسكين أقل قسوة منك اليوم . سترين أن له قلباً طيباً يفيض عطفاً على الجميلات من بنات وطنه الشديدات الكلم . . . . »

قالت مقاطعة وهى منه على دَخَل « اننى غير واثقة منك بل انى أحذرك وأحذر هذا اللسان الناعم الملمس . على أنى لست أدرى ما الذي صنعته أنا لأستحق منك كل هذه العناية . »

قال وقد أراها شريطاً أبيض مطرزة حواشيه بالذهب « وهل تعرفين هذا ؟ . »

قالت وهى دهشة « تلك أخرى هداياى له . »

قال « لقد سألته هذه الأمارة لأنى حدست أنك قد لا تصدقين ، ومن ذا الذى سمع بسجين يحب سجانه ؟ »

قالت « اذن أسرع وقل ما الذى يريده منى رفيق صباى القديم ؟ أنظر . ان الجو من جهة الغرب بدأ يضيء ، والليل قادم ، وعلىّ أن أرتب ملابس سيدتى وحليها فهى ستحضر وليمة الليلة . »

قال « حسن فلن أعيقك كثيراً بعد ذلك . واذا كنت لا تريدين أن تعتقدى أنى قد أركب المخاطر من جراء صداقتى لك وولائى ، فاعلمى اذن أننى أتقدم اليك بهذه الخدمات فى سبيل شئونك الغرامية لأنى انما أريد أن أطامن من نخوة أوروباست وأكسر من زهوه وأخضعه لسلطانى . انه يهدد باسقاطى من منزلتى التى لى عند الملك ، فاعتزمت رغم مكايده ودسائسه وخططه ومؤامراته أن أزوجك من جوماتا . فغداً مساء بعد طلوع نجم الشعرى Tistar سيجىء حبيبك لرؤيتك ، وسأبعد الحراس حتى يتمكن من المجىء دون أن يتعرض لخطر . وسيمكث معك ساعة يحدثك فيها بمستقبله معك . ولكن اذكرى أن الزمن ساعة واحدة فقط . انه مما لا يحتاج الى دليل أن مولاتك ستكون من قمبيز أحب نسائه ، واذ ذاك تساعدك على الزواج منه لأنها بك معجبة وعنك راضية ، وهى سترى أنه ما من شىء تكافئك به على اخلاصك ومهارتك أحب اليك من ذلك . » ثم قال مازحاً متهكما شأنه فى حديثه « اذن غداً مساء عند مايظهر ذلك النجم يبدأ نجمك السعيد بارسال أشعته عليك . لم خفضت نظرك ؟ لم لا تجيبين ؟ هل أسكت فمك الجميلَ معرفةُ الجميل ؟ أجيبى هل هذا هو السبب ؟ حسن يا حمامتى الصغيرة آمل أن لا تسكتى هذا السكوت ان سنحت لك فرصة التمدح ببوجيز عند مولاتك الملكة القديرة . وأى جواب اذن منك أوصله لجوماتا

الجميل ؟ أأقول له انك ما نسيته ، وانك تسرين لرؤيته ؟ أراك ترددين وتتوانين . حسن . انني آسف جد الأسف ، وسأذهب فالظلام ينشر أجنحته علينا . عليّ أن أفحص ملابس النساء لأجل وليمة عيد ميلاد الملك . آه نسيت أن أذكر لك شيئاً . ان جوماتا مغادر بابل غداً ، لأن أوروباست خشى أن تسنح له فرصة يراك فيها فأمره أن يترك رهاج بعد انتهاء الوليمة مباشرة . ماذا ؟ لازلت ساكتة ؟ حسن انني اذن لا أستطيع مساعدتك ولا مساعدة صاحبك المسكين . سأبلغ من أوروباست ما أريد دون مساعدة منك ، وامل من صالحكما بعد ذلك أن ينسى كل منكما صاحبه . سعد ليلك . »

لقد كان كفاح الفتاة مع نفسها شديداً صعباً . ظنت أن بوجيز يخدعها ، وقام فى نفسها هاتف يهتف بها محذراً أن ترفض مقابلة حبيبها . أطاعت داعى الواجب والحذر وأوشكت أن تصيح به « قل له لا أستطيع مقابلته » لولا أن لمحت عينها الشريط الذى زينت بيدها حوافيه وحواشيه ، ثم أهدته الى حبيبها . لمعت أمام عينها وذهنها صور الطفولة الزاهية ، فتبينت بعض فترات سعادتها السارة المسكرة ، فتغلب القلب على العقل ، وأبعد الهوى من فؤادها كل ريب ، وتلاشى الحرص والحذر . فقالت قبل أن يتم بوجيز سلامه عليها ، وعلى الرغم منها ، وقد فرت فزعة الى القصر كالظبى الغرير الخائف النافر « سأنتظره ، سأنتظره . »

وبعدها سار بوجيز مسرعاً يخترق الممار المزهرة فى الحدائق المعلقة ، ثم وقف عند حاجز وهناك فتح بحذر باباً سرياً فى أرض الحديقة يؤدى الى سلم سرى لولبى مبنى فى جوف أحد العمد الضخمة القائمة عليها تلك الحدائق المعلقة ذات الطباق . ولعل موجد هذا السلم أراد من بنائه أن يصل الى حجرات نسائه غير مرئى من شاطئ النهر . فتحرك الباب بسهولة حول مفصليه وفتح . فلما أغلقه بوجيز ورمى فوقه بعضاً من القش وقواقع النهر وأصدافه المخلوعة من مماشى الحديقة ، اختفت آثار الباب وضاعت معالمه ، وصار من الصعب على أى انسان تبينه . ففرك الخصى اذ ذاك يديه المحليين باللآلئ ، وابتسم كعادته ، وقال يخاطب نفسه « لن تفشل حيلتى ، ولا بد من نجاح خطتى . لقد أمسكت بتلابيب الفتاة ، وحبيبها رهن أمرى وأشارتى .

وها هو السلم السرى على حاله من الجودة ، ونايتيتس تبكى بكاء مراً فى يوم عيد عام ، وستتفتح زهور الزنبقة الزرقاء مساء باكر . ايه . ايه . ان خطتى ناجحة ، وحبائلى لا بد صائدة ، وغداً أيتها الهرة المصرية الجميلة سيسقط مخلباك المخمليان فى الفخ الذى ينصبه لك الخصى المسكين الحقير ، الذى أبيت أن تأتمرى بأمره ورفضت أن يكون له عليك أدنى سلطان . »

وقدحت عيناه شرر الضغينة والحقد وهو يحدث نفسه بهذا الحديث ، ثم أسرع يريد الخروج من الحدائق .

وعند ما أدرك السلم الكبير قابل خصياً آخر اسمه نريجلسّار ، وهو حارس الحدائق المعلقة وأكبر بستانى فيها ، فسأله « كيف حال الزنبقة الزرقاء ؟ »

قال البستانى وقد تحمس عند ذكر زهرته القائم بأمرها « ان طلعها يتكشف على خير ما يكون ، وغداً كما قلت عند طلوع نجم الشعرى يتم تفتحها وتستكمل بهاءها . وستسر بها مولاتى المصرية لأنها مغرمة بالزهور . وهل لى أن أسألك أن تخبر الملك وكل الأخيمينيين أن هذه الزهرة العجيبة قد نمت وأزهرت ، وذلك لعنايتى بها وقيامى على خدمتها ؟ انها لا تستكمل جمالها الا مرة واحدة فى كل عشر سنوات فقل ذلك للأخيمينيين النبلاء وأحضرهم معك الى هنا . »

قال بوجيز ضاحكا « لك ذلك ، وأظن أنه ما من حاجة لاخبار الملك فانى لا أتوقع مجيئه الى الحدائق المعلقة قبل زواجه من المصرية . وسيجئ بلا ريب بعض الأخيمينيين فان لهم ولعاً بفلاحة البساتين ، وهم لا يرضون أن يحرموا من رؤية ذلك المنظر الغريب . وربما نجحت فى احضار كريسوس معى . انه لا يفهم شيئاً فى هذه الزهور ، ولا يهيم بها هيام الفرس ، ولكن فى استطاعته أن يدلى برأى فى الموضوع وذلك لما له من الآراء الصائبة فى تقدير كل شىء جميل . »

وأراد البستانى المتحمس أن يطيل الكلام تمدحا بزهرته ، ولكن بوجيز تركه بعد أن هز له برأسه هزة الرضى ، ثم نزل على السلم . وكانت بانتظاره عجلة من خشب فجلس فيها بجوار السائق ، وكانت الخيل مزدانة بسروج تتدلى منها سجف وجلاجل وألهب السائق الخيل حتى أوصل بوجيز بسرعة الى باب حديقة منزل الحُرُم .

وكان ذلك اليوم يوم حركة وجلبة فى دار نساء قمبيز . ولكى تبدو النساء فى أبهى مظاهرهن ، أمر بوجيز أن يؤخذن الى الحمامات قبل ظهورهن فى الوليمة ، ومن ثم ذهب على الفور الى الجناح الذى توجد فيه حمامات النساء .

وسمع وهو على بعد من تلك الحمامات ضوضاء يتخللها صياح وضحك وكلام وجلبـة . وهناك فى حجرة الاستحمام الواسعة كان يوجد ما يزيد عن ثلاثمائة امرأة يسرن ويلعبن فى سحابة كثيفة من البخار ، وكانت درجة الحرارة مرتفعة جداً . وكانت جسومهن العارية الى النصف تسير فوق أرض الحمام الساخنة ، فكن كجمع من الأطياف المتعددة ألوانهـا . وكانت ملابسهن الحريرية مبللة ولاصقة بجسومهن الرقيقـة ، والمـاء الساخن يتساقط عليهن من علٍ كالمطر ، فاذا ما أدرك الأرض استحال بخاراً .

وكنت ترى الحسان جماعات وأسرابا لا يقل عدد المجموعة منهن عن عشرين ينتحين ناحية من الحمام وفيها يتبادلن الحديث والمجون . وكنت ترى فى جهة أخرى اثنتان من نساء الملك تتشاتمان كالصبية الصغار . وكنت ترى من بين هؤلاء النسوة من تصيح بملء صوتها لأن أخرى لطمتها بحذائها الأقحوانى الصغير . فى حين كنت ترى أخرى راقدة فى كسل وخمول تفكر كأنها جثة هامدة ملقاة على أرض الحمام الساخنة الندية . وجلس من بينهن ست أرمنيـات يغنين أغنية حب وقحة بلسان بلادهن ، وكانت أصواتهن ظاهرة واضحة . وجلست بضع فارسيات يغتبن نايتيتس ويشتمنها ، حتى ليكاد السامع لهن يعتقـد أن المصرية الحسناء ليست سوى غول مخيف من تلك الغيلان والمخوفات التى تخوف بها الأطفال .

وجاءت بعض الجوارى العاريات يخطرن بين ذلك الجمع ، حاملات فوق رؤوسهن ملابس جافة دافئـة ، جعلن يرمينها على جسوم سيداتهن . وكانت تتعالى صيحات الخصيان الواقفين على حراسة الأبواب والذين كانوا يطلبون الى النساء أن يسرعن ، وامتزجت هذه الصيحات بنداء بعضهن على جواريهن اللائى لم يكن قد وصلن بعد ، فأحدثت مع العطور القوية والبخار الساخن مناظر متعددة الألوان تخلب الألبـاب وتذهل العقول .

و بعد ربع ساعة كان منظر نساء الملك يباين ذلك المنظر تماماً .

لقد اضطجعن كالورود بللها الندى ، غير نائمات بل صامتات غارقات فى أحلامهن على نمارق فاخرة مرصوفة حول جدران غرفة الاستراحة الواسعة . وكانت العطور السائلة لا تزال قطراتها ترى على شعرهن المبلل المتموج ، واشتغل جمع من الجوارى الخفيفات الحركة فى مسح نقط الماء بمناشف صغيرة مصنوعة من صوف الجمال الناعم ، ومن خصائص هذه المناشف أن تسحب الماء الذى يكون قد نفذ إلى مسام الجلد فسكن فيها .

ثم طرحت الجوارى على جسومهن الجميلة المتعبة دُثرا حريرية ، و بذل الخصيان كل جهد فى منع أى ضوضاء تحدثها بعض النزقات الشكسات منهن ، حتى لا يُقطع على الباقى منهن لذيذ أحلامهن وهنى نومهن .

ولم تنجح جهود هؤلاء الخصيان المبذولة فى هذا السبيل مثل ما نجحت فى ذلك اليوم ، لأن كل واحدة منهن تعلم أن من تجسر على احداث ذلك الشغب يكون جزاؤها الحرمان من حضور الوليمة .

ومكثن كذلك فى ضجعتهن هذه ساعة كاملة ، وهن غارقات فى خيالهن هذا ، الى أن غيّر من رقدتهن هذه دقة ناقوس ، فتبدل الحال غير الحال .

قفزت النسوة الهاجعات من فوق الوسائد والنمارق ، ودخل المكان سرب من الجوارى قمن بتعطير هؤلاء الحسان ودهنهن وجدل شعورهن وعقصها وتزيينها بما وضعن فيها من لؤلؤ وماس . وجئ لهن بثياب حريرية وصوفية من مختلف الألوان مزركشة أنخر زركشة ، وكذلك جئ لهن بأحذية مرصعة بالأحجار الكريمة فألبسنها أقدامهن الرقيقة اللينة ، ثم ربطت الجوارى خصور النسوة بمناطق من ذهب خالص.

فلما جاء بوجيز كان العدد الأكبر من هؤلاء النسوة فى أبهى زينتهن ، وكان ما عليهن من حلى ولآلئ يعادل ثروة مملكة كبيرة .

وقابل النسوة بوجيز بأصوات عديدة مرتفعة ترحيباً به وسروراً بمقدمه . وأحاط به نحو عشرين منهن شبكن أيديهن وجعلن يرقصن حول حارسهن المبتسم ، و يغنين أغنية ألفت بين جدران قسم الحرم تمدحا بفضائله . وكان من عادة الملك فى مثل

هـذا اليوم أن يجيب كلا من زوجاته الى طلب معقول تطلبـه . فلما أن انفضت حلقة الراقصـات من حوله وفككن أيديهن أقبل على بوجيز جمع آخر يقبلن يديه ، ويمررن أيديهن بخديه مداعبـة وملاطفة ، ويهمسن فى أذنيه بمطالبهن الكثيرة ، ويتملقنه كى يحصلن منه على الوساطة لهن لدى الملك . وابتسم طاغية النسوة هـذا وأغلق أذنيـه عن سماع كلامهن ، ودفعهن عنـه بالضحك والتنكيت واعدا أميتيس الميـدية بمجازاة استر الفينيقية ، وكذلك واعدا استر ما وعد به أميتيس ، وواعدا بارميس بمجموعة من الجواهر والحلى أجمل من مجموعة باريساتيس وواعدا تلك كذلك . ولكنه رأى أن الامر سيطول شرحه ، وأن من المستحيل أن يتخلص من هؤلاء الطالبات الملحفات ، فنفخ فى صفارة صغيرة ذهبية فكان لصوتها أثر سحرى على ذلك الجمع الشديد الرغبة والتوقان . فسقطت فى لحظة الأيدى المبسوطة المرتفعـة ، وسكنت الأقدام الصغيرة المتعثرة ، وكمت الافواه المتفتحة واستحالت تلك الضجة الشديدة الى سكون أشد .

فمن تعصى منهن صوت الصفارة كانت تتعرض الى جزاء محقق مهما كان أمرها فقد كان لهذه الصفارة من المفعول ما للكلمات « أسكتن بأمر الملك » أو كأنما قرأ عليهن قانون التجمهر . بل لقد كان أثرها اليوم أشد من المعتاد . ولقد ظهر من ابتسام بوجيز ابتسامة الرضى أنه قد لاحظ عليهن ذلك ، فتكرم عليهن بنظرة القانع بساوكهن ، ووعدهن بعبارات خلابة أن يبذل كل ما له من نفوذ لدى الملك لارضاء حماماته البيض الصغار العزيزات لديه ، وبعدئذ طلب اليهن أن يقفن صفين طويلين .

فأطعنه خاضعات لنظراته المتفحصة كما يخضع الجند وهم فى صفوفهم أو كما يخضع العبيد لباعتهم ومشتريهم .

وأظهر رضاه عن زينة معظمهن ولباسهن ، آمراً هذى أن تزيد الخضاب الأحمر فى وجهها ، ومشيراً على تلك بأن تزيد من كمية المسحوق الأبيض كى تبدو للناظرين أكثر صحة وعافيـة ، وناصحاً لأخرى أن تغير ضفر شعرها ، ولافتاً غيرها أن تزجج حاجبيها أو تزيد من تحمير شفتيها .

فلمـا أن انتهى من ذلك ترك البهو ، وذهب الى فايديم وقد أفردت لها حجرة

خاصة بمعزل عن حجرات غيرها من السرارى لأنها احدى الزوجات الرسمية للملك.

وكانت لهذه الحسناء الحظوة الأولى عند الملك ، وهى من بنات الأخيمينيين . نبذها الملك بعد مجئ الاميرة المصرية ، فجلست تنتظر بوجيز بفارغ الصبر .

وكانت ترتدى حلة فاخرة تكاد تنوء من ثقل ما عليهـا من الحلى والجواهر . ويتدلى من التاج الموضوع على رأسها نقاب سميك مطرز بالذهب والديباج ، وعليه شعار الأخيمينيين الأزرق والأبيض . وهى جميلة على رغم ضخامة عضلاتها وقوتها ، وذلك من خصائص الشرقيات لأن نهج حياتهن فى دورهن يبعث على الكسل والخمول . وانبثق من تحت التاج شعرها الأصفر الذهبى الجميل المجدول بسلاسل دقيقة من الفضة والذهب ، ثم تدلى على صدغيها .

فوقفت لتستقبل بوجيز، وهى ترجف من شدة تطلعها الى تنسم أخباره . ونظرت فى المرآة ثم لفتت وجههـا بسرعة عنها ، وأحدقت عينيها طويلا فى الخصى ، وسألته بحدة قائلة « أمسرور أنت منى ؟ وهل سيعجب الملك بى ؟ » .

فابتسم بوجيز ابتسامته المعروفة وقال « انك دائماً موضوع سرورى فما أشبهك بطاووس ذهبى ، وسيعجب بك الملك ان أمكنه أن يراك كما كنت من لحظة . لقد كنت حقاً آية فى الجمـال حين قلت هل سيعجب بى لأن العاطفة قد أحالت زرقة عينيك الى سواد كسواد الليل ، ولأن شفتيك التوتا من الحقد فظهرت ثناياك من بينهما بيضاء كالثلج على قنن الجبال . » .

فوافق هذا التملق والمديح هوى منهـا ، واجتهدت أن يبدو وجهها كما بدا لحاز اعجاب بوجيز ، وقالت « خذنا الساعة اذن الى المهرجان ، لأنى أحس من عينى أنهما ستكونان أشد سواداً وأكثر لمعاناً ، وستبرق ثناياى كثيراً حينما أرى الفتاة المصرية جالسة فى المكان الذى يجب أن يكون لى . »

قال « انها لن تمكث فيه طويلا . » .

قالت « وكيف ذلك ؟ هل خطتك ناجحة اذن ؟ بوجيز لا تخفها عنى . سأكون فى صمتى كالقبر ، سأساعدك . . . »

قال « كلا فلا أستطيع أن أخبرك عنها شيئـاً ، غير أنى أقول لك ، لكى أجاو

فى عينيك ظلام ليلتك القادمة ، انى حفرت لعدوتنا الحفرة . فاذا أطاعتنى فايديم فيما أنا طالبه منهـا زدت أملا ورجاء فى أن أرد لها مكانها القديم بل ومكاناً أرقى منه . » .

قالت « خبرنى بالذى علىّ أن أعمله . انى مستعدة لكل شىء . » .

قال « ما أحسن ما تقولين وما أشجع ! لأنت كاللبؤة جرأة وقوة واقداماً . انك ان أطعتنى فلا بد من نجاحنـا ، وكلما كان العمل شاقاً كلما كان الجزاء كبيراً ، وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم . لا أريد أن تجادلينى وتحاجينى فيما سأقوله لك ، فليس لدينا دقيقة واحدة من الوقت نضيعهـا . اخلعى عنك هذه الحلى العديمة الجدوى ، ولا تبقى غير السلسلة التى أهداكها الملك عند زواجه منك . والبسى رداء بسيطاً قاتم اللون بدلا من ذلك الرداء الزاهى ، واذا ما خرجت ساجدة أمام كاساندين فانحنى بخضوع وذلة أمام الأميرة المصرية أيضاً . »

قالت « محال هذا . »

قال « لا أريد أن تخالفينى . اخلعى عنك هذه الحلى فى الحال ، وانى لأضرع اليك أن تعملى ذلك . عندئذ تكونين قد نهجت طريق الصواب . لن ننجح الا اذا أطعتنى . ما أشد بياض جيدك ونحرك ! ان أجمل فارسية لتظهر كاسفة اللون بجوارك . »

قالت « ولكن . . . »

قال « ولما يجىء دورك فى سؤال الملك طلبتك قولى انك لا ترغبين فى شىء ، لأن شمس حياتك قد أفلت وقل ضوءها . »

قالت « نعم هذا أعمله . »

قال « واذا سألك أبوك عما بك فابكى بكاء شديداً . »

قالت « وسأعمل هذا أيضاً . »

قال « وهكذا حتى يرى جميع الأخيمينيين أنك تبكين . »

قالت « ان فى ذلك اذلالا كبيراً . »

قال « فليكن ، وما ذلك الا وسيلة ترتفعين بعدها لا محالة . وأزيلى الصباغ الأحمر من خديك وضعى الأبيض بدلا منه . ليكن وجهك أصفر بل وشديد الصفرة . »

قالت « أجل اذ أنى سأكون فى حاجة لاخفاء احمرار وجهى حين يتورد خجلا . انك يا بوجيز تسألنى أمراً مروعاً مخيفاً ، ولكنى سأطيعك ان أنت ذكرت لى سبباً . »

قال مخاطباً احدى الجوارى « أيتها الفتاة أحضرى لمولاتك جلباباً آخر أخضر ضارباً فى سواد . »

قالت فايديم « اذن سأبدو كالاماء . »

قال « ان الجمال الحق يكون أروع فى الأطمار البالية . »

قالت « سوف يكسف جمال المصرية جمالى . »

قال « ينبغى أن يفهم كل الحضور أنك لا تقصدين الموازنة بينك و بينها ، واذ ذاك يقولون لئن كانت فايديم أجهدت نفسها فى التجمل والزينة كما أجهدت المصرية المتعجرفة نفسها لكانت أجمل منها كثيراً . »

قالت « ولكنى لا أستطيع أن أنحنى أمامها . »

قال « وذلك ما لا بد لك منه . »

قالت « انك انما تريد اذلالى وتحقيرى . »

قال « يالك من بلهاء قصيرة النظر . أصغى اذن الى حججى وأطيعى . اننى انما أريد أن أهيج الأخيمينيين ضدها . فكم يكون مبلغ غيظ جدك انتافيرنز وأبوك أوتانز حينما يريانك تركعين على الأرض أمام أجنبية ؟ ان كبرياءهما المتلومة وعظمتهما المهينة ستضمانهما الى صفك ، ولئن أبى عليهما شرفهما ونبلهما أن يتصديا لامرأة فانهما على الأقل لا يبخلان عن مساعدتنا ان كنا فى حاجة الى المساعدة . فاذا ما سرت فى الطريق الذى رسمته لك ، ثم هلكت المصرية بعدئذ ، فان الملك سوف يذكر وجهك الحزين الأصفر وذلتك ونسيانك نفسك ، فيعوضك عن ذلك خيرا . وسيطلب اليه الأخيمينيون ، بل والمجوس كلهم ، أن يتخذ له ملكة من بين أهله وعشيرته . ومن هى تلك التى تجسر على أن تفخر بأنها أرفع منك حسباً وأعلى نسباً فى كل بلاد فارس ؟ بل من هى تلك التى تستطيع أن تلبس الأرجوان الملكى الا فايديم حمامتى الجميلة ، ووردتى النضرة ؟ فعلى هذا الأمل الذى نرجو تحقيقه يجب أن لا نخشى بعد

بعد الآن ذلا متعمداً وضعة تافهة ، ويجب أن نكون أقل خوفاً من ذلك الرجل الذى يريد تعلم ركوب الخيل فى حين أنه يخشى الوقوع من فوق ظهر جواده . »

قالت وقد خيل اليها أنها صارت ملكة فارس « انى طائعة انى طائعة . »

قال الخصى « اذن أصبح النصر لنـا محققاً ، وها عيناك أراهما تبرقان فتظهران سوداوين كما أريد يامليكتى . وسيراك قمبيز كذلك بعد أن يكون لحم المصرية الرخص الأملس قد أصبح طعاماً للكلاب وللطيور ، و بعد ما أسبقه الى حجراتك كى يغشاها لأول مرة بعد هذه الغيبة الطويلة . . . والآن يا أرمورجيز قل لبقية الحرم أن يتأهبن لاعتلاء المحفات والهوادج . انى سابقهن الى هناك لأريهن أما كنهن . »

* * *

كان البهو المعد للوليمة نيراً مضيئاً جعل الليل نهاراً بل أشد نوراً ، فقد أضيئت ألوف الشموع والمصابيح ، وجعلت أشعتها تنعكس على ألواح الذهب التى غطيت بها الجدران . وقام فى وسط ذلك البهو خوان طويل محمل بأقداح وصحاف وأوان وأباريق وأكواب ومباخر ، وكلها من فضة وذهب — فما كان أجمله منظراً يحير الأبصار ولا يخطر ببال انسان !

قال كبير القهارمة ، وهو من كبار رجال البلاط ، يخاطب ساقى الملك ، وهو من الأسرة المالكة « سيكون الملك هنا بعد قليل ، فهل كل أباريق الخمر مملوءة ؟ وهل ذقتموها ؟ وهل أعددتم الأكواب وفرغتم الزقاق التى بعث بها بوليقراط ؟ »

فقال الساقى « أجل وكل شىء معد . ولقد ذقت النبيذ الاغريقى فوجدته خيراً من كل نبيذ تذوقته فى حياتى ، وعندى أن النبيذ السورى لا يصح أن يوازن به . وما عليك الا أن تذوق ثم تحكم . »

واذ ذاك قال ذلك أخذ بيمينه كوبة صغيرة ذهبية من فوق الخوان ، ورفع بيساره ابريقاً ذهبياً مملوءاً خمراً ثم أداره فى الهواء ، وصب منه النبيذ بمهارة فى فوهة الآنيـة الصغيرة ، فلم تشذ منه نقطة واحدة مع أن السائل وهو ساقط كوّن منحنياً كبيراً . وقدم الكوبة وهى موضوعة على أطراف أصابعـه الى كبير القهـارمة ، وانحنى وهو يقدمها بملء التأدب والتأنق واللباقة .

فاحتسى هذا الـكأس وذاق طعم النبيذ وقال وهو يعيد الـكوبة « اننى أوافقك على رأيك فى هذا النبيذ ، فهو فى الحقيقة فاخر سائغ الطعم وقد تتضاعف حلاوته اذا قدم بتلك اللباقة الفائقة المنقطعة النظير. لقد صدق غير الفرس اذ يقولون بأنه لا سقاة كسقاة الفرس . »

قال وقد قبل جبين صديقه « شكراً لك على هذا التمدح بى . نعم اننى معجب فخور بمركزى الذى لا يرفع الملك اليه الا أصدقاءه وصحبه . ولكن المكث هنا فى بابل طويلا فى ذلك الحر الخانق يضايقنى كثيراً ، فهل سنرحل صيفاً الى اكبتانا أو باسارجاد ؟ »

قال « لقد كنت أحادث الملك اليوم فى هذا الصدد ، وكانت رغبته أن لا يبرح بابل قبل حرب المساجيت أى لا يريد مغادرتها الا الى ميدان الحرب . غير أن بعثة اليوم قد غيرت الأمور ، ومن المحتمل أن لا تكون ثمت حرب ، وعندئذ تذهب الى سوسا بعد زواج الملك بثلاثة أيام — أى بعد اليوم بأسبوع . »

قال الساقى « الى سوسا ؟ انها أقل حرارة من هنا ، وعدا هذا فان قصر ممنون سيعاد بناؤه . »

قال « لقد قال مرزبان سوسا ان القصر الجديد قد تم بنـاؤه ، وهو يفوق كل القصور رواء وبهاء . فلما سمعه قمبيز قال : اذن سنقصد سوسا بعد العرس بثلاثة أيام . اننى أريد أن أرى الأميرة المصرية أننا نفهم فن العمارة ونحسنه كآبائها الأولين . وهى قد اعتادت الاقامة فى جو حار على ضفاف النيل ، وسوف لا تجد فى سوسا أنها حارة كما تريد . — يظهر لى أن الملك مغرم بهذه الأميرة غراماً شديداً . »

قال « بلى انه مغرم بها . وقد أصبح لا يكترث بنسـائه الأخرى ، وهو يريد أن يتخذها ملـكة . »

قال « ولكن هذا ظلم ، فان فايديم من أسرة الأخيمينيين أولى بذلك ، لأنها أقدم وأحق من سواها . »

قال « لاشك فى ذلك ، ولـكن ما يريده الملك لا بد أن يكون حقاً وعدلا . »

قال « ان ارادة الملك ارادة الله . » .

قال « لافض فوك . ان الفارسى الصميم من يقبل يد ملكه وان كانت غمست في دماء ابنه وفلذة كبده »

قال « ان قمبيز أمر باعدام أخى ، ولست أحمل له فى نفسى أى ضغن من أجل ذلك ، كما انى لست أحمل للآلهة فى قلبى ضغنا لحرمانهم اياى من أبوىّ . — أيها الخدم ارفعوا الستائر فالمدعون قادمون . انتبهوا أيها الكلاب وأحسنوا أداء ما عليكم من الأعمال . الى الملتقى يا أرتبازوس فسيكون عملنا الليلة كثيراً وشاقاً . »

الفصل السابع عشر

الكأس المسمومة

ذهب القهرمان الكبير لاستقبال المدعوين عند دخولهم ، وقادهم كلا منهم الى مكانه المخصص له ، يساعده فى ذلك بعض الأشراف من رجال البلاط بين وزراء وأمناء .

وعندما استوى الكل فى مقاعدهم سمع صوت أبواق معلنة قدوم الملك . فلما أن دخل البهو نهض كل الحضور واستقبلوه هاتفين بصوت كالرعد « النصر للملك » وجعلوا يكررون الهتاف مرات متوالية .

وكان الطريق المؤدى الى مقعده مفروشاً بالأبسطة والزرابى الأرجوانية ، ولم يكن لأحد أن يسير عليه سوى الملك وأمه كاساندين . وتقدمت الملكة العمياء يقودها كريسوس ، وجلست فى الصدر على كرسى أعلى قليلا من كرسى قمبيز الذهبى المجاور لها . وجلست زوجات الملك المعترف بهن على اليسار ، وجلست نايتيتس بجواره ويليها آتوسا ثم فايديم وكانت صفراء الوجه تلبس لباساً بسيطاً ، وجلس بوجيز بجانب فايديم . وبعد ذلك جاء أوروباست كبير الكهنة ومعه بعض جهابذة المجوس ، ثم مرازبة الولايات العديدة (وكان بينهم بلتشاصار) وعدد من رجالات فارس وميديا وبعض الخصيان ، وكلهم يشغلون مناصب عالية فى حكومة قمبيز .

وجلس بردية على يمين الملك يليه كريسوس فهستاسب فجوبرياس فأراسب فغيرهم من الأخيمينيين جلوساً حسب رتبهم وأعمارهم . أما السرارى فقد جلسن فى مؤخرة المائدة ، وبعضهن وقفن فى مواجهة قمبيز ، وجعلن يشنفن الآذان ما بين آن وآن بأغانيهن وموسيقاهن . ووقف وراءهن جمع من الخصيان همهم مراقبتهن حتى لا يرفعن أبصارهن الى الرجال .

ووجه قمبيز أولى نظراته الى نايتيتس وقد جلست بجواره كأبهى وأجمل ملكة

فى الوجود ، الا أنها كانت فى الأرجوان الجديد الذى ارتدته ممتقعة اللون جداً .

فالتقى النظران ، وشعر قمبيز أن مثل النظرة التى رمته بها لا تصدر الا ممن أخلصت له الحب . على أن غرامه بها جعله يشعر بأن هناك ما يقلقها ويضجرها ، اذ بدت على فمها أمارات الحزن ، وكأن سحابة غم خفيفة لم يرها سواه تخيم على محياها فحرمتها هدوءها العادى وبشاشتها التى تنم عنها عيناها . حدّث قمبيز نفسه قال « سأسألها فيما بعد عما حدث ، اذ ليس يحسن بى أن أدع رعاياى يعرفون شدة حبى لهذه الفتاة . »

وقبّل أمه وأخته وأخاه وأقاربه المقربين فى جباههم ، ثم تمتم دعاء قصيراً شكر فيه الآلهة على شفقتها ورحمتها ، ضارعا اليها أن تجعل العام الجديد عام سعد وخير وبركة عليه وعلى رعاياه . وبعدئذ أعلن عن المبلغ الكبير الذى اعتزم توزيعه على رعاياه بمناسبة عيد مولده ، وأخيراً أمر الحجاب أن يجيئوا له بجماعة الطالبين السائلين الراجين أن يحصلوا من الملك فى يوم عيده على طلباتهم المعقولة .

ولما كان كل طالب قد ألزم بعرض طلبه على كبير الأمناء فى اليوم السابق لكى يتحقق من قبوله فقد تلقى الجميع اجابات مرضية . وأما الطلبات التى قدمها النساء فقد فحصها الخصيان بنفس الطريقة ، وهؤلاء أيضاً جئن أمام مليكهن ومولاهن يتقدمهن بوجيز ، ولم يكن جالساً منهن سوى كاساندين أم الملك .

وتقدم هذا الموكب النسائى نايتيتس وآتوسا ، وتبعهما على الفور فايديم وحسناء أخرى لبست أفخم لباس ، وصحبت فايديم امتثالا لأمر بوجيز لكى يجعل حزن الزوجة المنبوذة ظاهرا واضحا .

وقلق كل من انتافيرنز وأوتانز ، كما توقع بوجيز ، لدى رؤيتها وهى ممتقعة اللون فى مثل هذه الملابس الحقيرة وسط هذا الحفل العظيم .

وكان قمبيز على علم بتبذير فايديم واسرافها فى الملبس ، فلما رآها واقفة أمامه وهى بهذا الزى الحقير صفراء اللون ، امتعض ودهش وأظلم جبينه . ثم سألها فى عنف وقد انحنت أمامه قائلا « ما معنى هذه الملابس الحقيرة تلبسينها على مائدتى وفى يوم عيدى ؟ أنسيت أن من عادات بلادنا أن لا تظهر المرأة أمام الملك من غير

زينة ؟ حقاً لولا أن اليوم عيد ميلادى ، ولولا أنى أحمل فى صدرى بعض الاحترام والولاء لك لأنك ابنة أعز مواطنينا لكنت أمرت الخصيان بارجاعك الى قسم الحرم ، كى تتاح لك الفرصة للتفكير فى أمرك وأنت فى وحدتك . »

فسهلت هـذه الكلمات الأمر على تلك المرأة التى أكل قلبها الحقد والغيظ ، فجعلت تولول بحرقة رافعة يديها وعينيها الى مولاها الغاضب عليها ، ضارعة اليه بشكل حوّل غيظه الى رحمـة وشفقة فأنهضها من فوق الأرض وهو يسائلها « ألك مسألة تسألينيها ؟ »

قالت وهى تحاوره متنهدة باكية « وماذا عساى أطلب وقد آذنت شمس حياتى بالغروب ؟ »

فهز قمبيز كتفيه وسألها ثانية « أليس لك اذن ما تطلبين ؟ لقد تعودت منك أن أجفف لك دموعك بالعطايا والهبـات ، فسليني اليوم ما شئت من ذهب يعوضك الألم . »

قالت « ليس لفايديم اليوم من الرغبات شيء ، اذ لمن تتجمل هى باللآلئ اذا كان ملـكها وزوجها يشيح بوجهه عنها . »

قال قمبيز مغضباً وقد لفت وجهه عنهـا « اذن فليس لدى ما أعمله لك . » ثم تركها جاثية بين النساء .

ولقد كان بوجيز مصيباً فى نصحه لفايديم أن تخضب وجهها بالأبيض ، لأن خديها كانا تحت هذا الطلاء يضطرمان من نار الغيظ والعار . ولـكنها ، على الرغم من كل شيء ، كبحت ثورة عواطفها ، وأحنت رأسها احتراماً لنايتيتس وأم الملك ، ثم أطلقت لدموعها العنان فانحلبت عيناها بغزارة على مرأى من كل الأخيمينيين .

وكظم كل من أوتانز وانتافيرنز غيظهما لرؤيتهما فايديم فى هذه الذلة ، بل لقد حباها كثير من الأخيمينيين بنظرات عطفهم . فى حين أن نفوسهم كانت حانقة على نايتيتس ناقمة منها حب قمبيز لها .

وانتهت الطقوس المعتادة ، وبدأ المدعوون يتناولون الطعام ، فجيء لقمبيز برمانة كبيرة تبلغ فى حجمها رأس الصبى الصغير ، وضعت فى سلة ذهبيـة وأحيطت

بفاكهة أخرى من مختلف الانواع . فكانت السلة وما فيها زينة للناظرين .

ورآها قمبيز فأعجب بكبر جرمها وجمالها النادر ، ونظر اليها نظرة الخبير وقال « فى أرض من نبتت هذه الرمانة ؟ »

قال كبير المجوس الكاهن أو روباست « فى أرض خادمك أوروباست يا مولاى ، اذ أنى درست فلاحة البساتين عدة سنوات . وقد اجترأت بجثت بهذه الرمانة ، وهى أجمل ما وصلت اليه جهودى ، لأضعها عند قدمى مولاى الملك . »

قال الملك « شكراً لك . ان هـذه الرمانة أيها الصحب ستساعدنى على اختيار الرجل الذى أضع أمر البلاد بين يديه ، اذا ما دعتنا حرب لهجرة الوطن . فوحق مثرا ان الرجل الذى يربى شجرة صغيرة ، ويعنى بهـا هذه العناية ، ليستطيع من الامور ما هو أعظم وأكبر . ما أفخم هذه الرمانة ! حقا لم ير انسان مثلها قبل الآن أشكرك ثانية يا أوروباست . ولما كان شكر الملك غير وقف على كلمات جوفاء فقط ، فانى أنادى بك منذ الآن نائباً عنى فى الدولة من أقصاها الى أقصاها ، ما دامت البلاد فى حالة حرب . فلن يطول بنا أيها الصحب هذا الحلم فى تلك الراحة المستكينة . أن الفارسىّ منا ليكتئب ان هو حرم من لذة الحروب . »

فعـلا ضجيج الاستحسان بين صفوف الأخيمينيين وهتف الجمع من جديد « النصر للملك » ونسى أولئك القوم ، بمثل هذه السرعة ، غيظهم الناجم من عطفهم على المرأة التى تنتسب اليهم وأهاجهم ذكر الحرب ، وأثارتهم الشهرة الخالدة التى تكون للمنتصر ، وأكاليل المجد التى ينالونها بما تبذله أيديهم من صنوف القتال ، وحركت نفوسهم ذكريات أعمالهم العظيمة الماضية .

وكان الملك نفسه أكثر اعتدالا فى يومه هذا منه فى كثير من أيامه الأخرى ولكنه شجع صحبه والمدعوين على الشراب وسط مظاهر السرور والفرح البادية عليهم ومنهم . وسره أيضاً ذلك الجمال الفاتن الذى كان يشاهده فى وجه الأميرة المصرية الجالسة بجواره ، الممتقعة اللون كثيراً ، المنهوكة القوى من الجهود التى بذلتها فى يومها هذا ، وما تعانيه من ثقل ذلك التاج الفارسى الموضوع على رأسها . وماذا بقى لقمبيز أن يحصل عليه ؟ ألم تمنحه الآلهة كل ما يمكن لانسان أن تتوق نفسه اليه وتشتهيه ؟

وفوق هذا وذاك ألم تغدق عليه نعمة الحب والاستمتاع بالهوى والغرام ؟ وظهر عليه وهو يخاطب أخاه كأن عناده قد استحال الى سلاسة وطواعية ، وأن خشنته قد تحولت الى رقة . قال « الىّ أيها الشقيق فهل نسيت وعدى . ألاَ تدرى أنك اليوم أكثر تأكداً من الحصول على كل مسألة تسألنيها ؟ هذا حق لك فاقرع كأسك وتشجع ، ولا تسلنى اليوم شيئاً تافهاً حقيراً فانى فى يوم سعدى أعطى الكثير وأمنح العظيم ، واعلم أنى اذا ما وقفت منك على طلبتك أطلبتكها مادام فى وسعى قضاؤها . يخيل الىّ أن فى الأمر سراً . اقترب منى اذن ، انى لمتشوق متلهف على معرفة ما يريده زين شباب الفرس وأسعدهم حظاً ، راغب فى الوقوف على تلك الطلبة التى تخجل من ذكرها كالحسناء حين تتورد وجنتاها . » .

فاقترب بردية من أخيه ، وخداه متوردان من شدة التأثر ، وأسر اليه فى أذنه قصة غرامه باختصار . وكان أبو صافو حبيبته قد دافع عن بلده فوشيا ضدغزو جيوش كورش لها ، فذكر الفتى هذه الحادثة لأخيه ، وكأنه يقول له ان الفتاة التى أحبها ابنة اغريقى شجاع من نسل شريف . وهو فى ذلك لم يعد الحق ، ولكنه أخفى عنه أن أباها هذا قد اقتنى ثروته الطائلة من التجارة . وكان الفرس يحتقرون مهنة التجارة ولم يسمحوا لأى منهم بالاشتغال بها ، أما أهل البلاد المغزوة فكانوا يسمحون لهم بها . وأخبر أخاه بجمالها وأدبها ، وكان على وشك أن ينادى كريسوس ليستشهد به على صحة أقواله ، لولا أن قمبيز اعترضه بأن قبّله فى جبينه ، وقال له « أرانى فى غير حاجة لان تزيدنى على ما قلت شيئاً يا بردية . فأطع داعى هواك وأعمل ما يأمرك به قلبك . اننى أنا أيضاً أعرف سطوة الحب والهوى ؛ وسأساعدك حتى تحصل على موافقة الوالدة أيضاً . »

فارتمى بردية على قدمى أخيه يوسعهما لثماً وتقبيلا ، وقد غلب عليه الفرح ، ولكن قمبيز أنهضه برفق ثم نظر الى الجمع وعلى الأخص الى نايتيتس وكاساندين وقال « اصغوا الىّ يا أهلى و يا أصدقائى ، ان شجرة كورش المباركة ستفرع فرعاً جديداً لأن بردية انتوى أن ينهى حياة العزوبة هذه ، وهى الحياة التى لا ترضى بها الآلهة . وسيتركنا الفتى العاشق بعد قليل الى بلادك يانايتيتس ، ليعود منها بدرة

أخرى يجيء بها من ضفاف النيل . »

فاعترى نايتيتس دوار برأسها ، فصاحت آتوسا بها « ما بك يا أخية ؟ » وجعلت تنضح وجهها ببعض الماء ، وتسقيهـا بعض الخمر الموجودة لتنعشها فتستفيق ، بعد أن سقطت فى ذراعى آتوسا .

فاستعادت نايتيتس قواها وأفاقت ، فقالت كاساندين العمياء « ما الذى حدث؟ »

قالت نايتيتس وهى واجفة مضطربة « الفرح — السعادة — تاخوط . »

وأسرع قمبيز كأخته الى مساعدة الفتاة المغمى عليهـا . فلما رآها قد استعادت بعض الحس طلب اليها أن تحتسى كأسا من النبيذ ، لتستعيد كل قواها ، وأعطاها الـكأس بيده ، وعاد الى حديثه الأول فقال « ان بردية عائد الى بلادك يا زوجتى ، الى نقراتس على النيل ، فى طلب حسناء هى حفيدة من تدعونهـا رودوبيس وابنة محارب شريف من أهل فوشيا ، لتكون زوجة له . »

قالت العمياء « ما هذا ؟ »

وسألت آتوسا و بلهجتها بعض العذل والتأنيب « ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟ »

وناداها كريسوس محذراً قائلا « نايتيتس ! » ولكن تحذيره جاء بعد فوات الأوان ، اذ وقعت الـكأس التى قدمها الملك اليها من بين يديها ، وسمع الكل صوت وقوعها على الأرض ، فاتجهت أنظارهم الى الملك وهم مأخوذون لأنه قفز من فوق مقعده ، وقد علت وجهه صفرة الأموات ، وشفتاه ترجفان من الغيظ ، وقبضته ترتعش من شدة الغضب .

فنظرت نايتيتس الى حبيبها مستعطفة ، ولـكنه كان يخشى النظر الى عينيهـا الساحرتين الجميلتين ، فأشاح بوجهه عنها ، وصاح بغلظة قائلا « خذ النساء الى حجراتهن يا بوجيز . كفانى ما رأيت منهن . فلنبدأ الشراب . طاب ليلك يا أماه ، وحذار أن ترضعى الأفاعى دماء قلبك . وأنت أيتهـا المصرية ، نامى هنيئا ، واضرعى للآلهة أن تهبك قوة أكثر من ذلك تخادعين بها الناس ، وتخفين بها عواطفك . وأنتم أيها الصحب غداً نركب للصيد والقنص . أريد بعض نبيذك أيها الساقى ، فاملأ القدح الـكبير وذقه كى تخبره . أننى أخاف اليوم من كأس مسمومة تدس الىّ . والناس أجمع

يعرفون ، كبارهم والصغار ، أن بمصر الداء والدواء والسم والترياق . »

وغادرت نايتيتس البهو ، وهى ترجف فى مشيتها تكاد لا تدرى كيف غادرته ، وصحبها بوجيز يحث حملة محفتها على سرعة المسير بها .

فلما وصلوا بها الى الحدائق المعلقة ، أسلمها بوجيز الى الخصى القائم بالخدمة ، ثم استأذن فى الانصراف ، لا بلهجة الاحترام كالعادة بل بلهجة التهكم المر ، قائلا وهو يفرك يديه فى غير تأدب واحتشام « أى هرة النيل البيضاء ! فكرى ما شئت بهدية الجميل وحبيبته المصرية ، وقولى ألديك رسالة لذلك الفتى الجميل الذى أزعجتك قصة هواه هـذا الازعاج الشديد ؟ فكرى قليلا ، واعلمى أن بوجيز المسكين يقبل مع السرور أن يكون وسيطا بينك وبينه . ان بوجيز المسكين الوضيع ليذوب أسى وحزنا حينما يرى شجرة سايس الورقاء ، الشامخة المتعجرفة المزهوة بنفسها ، تجتث من جذورها. ان بوجيز هذا نبى من عند الآلهة، وهو يتنبأ لك اما بعود سريع الى مصر واما بضجعة هادئة فى ثرى بابل الأسود . وان بوجيز الرقيق القلب ليسأل لك نوما هادئا هنيا . وداعا أيتها الزهرة المتفتحة المتساقطة ، وداعا أيتهـا الأفعى الناعمة الملمس التى لدغت نفسها فأدمت جسمها ، وداعا أيتهـا الصنوبرة الساقطة من شجرتها الطويلة فهوت من عليائها الى أسفل سافلين . »

قالت الأميرة مغضبة ساخطة « كيف تجرؤ على مخاطبتى بهذه الوقاحة ؟ »

فاجابها التعس وهو يتبسم « شكرا لك والف شكر . »

قالت تهدده « سأشكو من مسلكك هذا . »

قال « ما أجملك فى تهديدك ! »

قالت « أغرب عن وجهى فلست فى حاجة اليك . »

قال وكأنه يسر فى اذنها كلمات الحب ونفثات الهوى « اننى عبد مولاتى وعلىّ طاعتها . »

فتراجعت من اشمئزازها وخوفهـا من تلك الكلمات المفزعة الشديدة ، ولما أن وعت ماحوتها من التهديد ، لفتت عنه وجهها ودخلت الدار مسرعة ، ولكنه صاح بها يقول « لاتنسى أيتها الملكة الحسناء ، واذكرينى منذ اليوم فما بعد ، فان كل

ما ستجيء به الأيام القليلة المقبلة انما هو تذكار المحبة يقدمه اليك بوجيز المسكين الذى تزدرين . »

فلما غابت عن نظره غير لهجته ، وخاطب الحراس بلهجة الآمر الناهى الشديد القاسى ، مستحثاً اياهم أن يضربوا على الحدائق المعلقة رقابة شديدة ، قائلا : « موت محقق أكيد لكل من يسمح منكم لكائن من كان غيرى بالدخول الى هذه الحدائق . لا تسمحوا بذلك لاحد . اذكروا ما أقول . لا تسمحوا لأحد ، حتى رسل الملكة كاساندين أوآتوسا أو أى واحد من رجال البلاط العظام أن تطأ أقدامهم هذه العتبات . واذا رغب كريسوس أو أوروباست فى مخاطبة الأميرة المصرية فارفضوا رفضاً باتاً . أتفهموننى ؟ اننى أعيد عليكم أن كل من سئل منكم فأجاب ، أو رشى ليخالف ذلك فارتشى وقبل ، فلن تطلع عليه شمس غده . ليس لأحد أن يلج هذه الحدائق دون اذن شفوى منى تسمعونه بآذانكم . واخالكم تعرفوننى حق المعرفة . واليكم هذه النقود الذهبية ، ولا تنسوا أن عملكم أصبح أكثر صعوبة عن ذى قبل . واذكروا دائما ، وها انى أقسم بمثرا ، اننى لن أغتفر أبداً لأيكم ذنبا ان هو أهمل أو خالف أمرى فأذنب . »

فطأطأ الرجال رؤوسهم بملء الطاعة والخضوع ، معتزمين تنفيذ الأمر ، لأنهم يعرفون أن بوجيز فى تهديداته جاد غير هازل ؛ وتوقعوا أمرا جللا لأن الخصى الشحيح لا يصرف مالا من جيبه دون أن يكون هناك سبب وجيه .

وعاد بوجيز محمولا الى بهو المهرجان على نفس المحفة التى حملت نايتيتس .

وتركت نساء الملك المكان ، ولكن السرارى بقين فى أماكنهن واقفات يغنين أغانيهن المملة ذات النغم الواحد النسق ، وليس من يستمع لأغانيهن بسبب الضجة التى يثيرها المجتمعون فى قصفهم .

وانتشى الشاربون فنسوا أميرتنا المصرية واغماءها . وكانت الضجة تزداد عند احتساء كل كأس جديدة . فنسوا حرمة المكان الذى هم فيه مجتمعون ، ونسوا فوق هذا أنهم بحضرة قمبيز مليكهم القادر الجبار .

ولعبت بهم الخمر فجعلوا يزعقون ، ويعانقون بعضهم فى لطف أكسبتهم الخمر

اياه . وكم كانت الخمر تصرع حديثى العهد بشربها فيحملهم الخدم الى منازلهم ، أما أولئك المعتادون على شربها فجعلوا يترعونها من القنانى والأباريق لا من الكؤوس فكان الواحد منهم يرفع الآنية على فمه فلا يضعها الا وقد كرع آخر نقطة فيها .

وجلس الملك على رأس الخوان أصفر كالموتى ، يحدق النظر فى كأس الخمر كأنه غير شاعر بما يدور حوله ، ولكنه كان يهز قبضته مهدداً عند ما يرى أخاه بردية .

فلم يوجه اليه حديثاً ، ولم يجب له عن سؤال . وكلما كان يطيل الاطراق كلما كان يزداد اعتقادا بخداع نايتيتس له — فكأنها ادعت حبه فى حين أن قلبها عالق ببردية تتدله فى هواه . لقد هزأوا به واتخذوا منه ألعوبة يلهون بها . وما كان أبعد الأمانة والصدق والاخلاص فى نظره عن قلب تلك الكافرة بحبه الجاحدة لهواه ، فان مجرد علمها بحب بردية لفتاة أخرى قد سلب منها نهاها ، وأفقدها كل قوى المداهنة والنفاق ، فحرمها الحس والشعور وأغمى عليها .

ولما غادرت نايتيتس البهو قال أوتانز أبو فايديم « يظهر أن المصريات يستطبن حب أخى الزوج أما الفارسيات فلا يسرفن فى عواطفهن اذ هن يستبقين كل حبهن لأزواجهن فقط . »

فتظاهر قمبيز بأنه لم يسمع هذه الكلمات ، وسد عينيه وأذنيه كى لا يسمع لغط المدعوين وهمسهم ولا يرى نظراتهم . وكل ذلك أيد لديه أنه خدع وسخر منه .

وخطر بباله أن بردية لم يكن ليشاركها فى خيانتها ونكثها ، وانها هى التى أحبته فحدث ما حدث لأنها لم تستطع أن تؤمل أن يهواها هو أيضا . ولو قامت لدى قمبيز أقل شبهة فى أخيه لقتله على الفور . ولكن بردية برىء لم يشترك فى غش أخيه وخدعه وجلب التعاسة والشقاوة اليه . غير أنه على كل حال السبب فى كل ما حدث ، فتحركت فى صدره عوامل الحقد والضغن بعد هدوئها . فما كان أشبه قمبيز بالمريض حين ينتكس فيصير فى حالة من المرض أخطر من حالته الأولى . وهكذا كان شأن ذلك الغضب الذى أثير من جديد ، فانه كان أشد مما اشتمل عليه قلبه من قبل .

ففكر طويلا فى نوع الجزاء الذى ينزله بتلك الخائنة ، ولكنه لم يصل الى استنباط عقاب يلائم جرمها ، ووجد أن موتها لا يطفىء غلة انتقامه ، فحق عليها اذن

أن تعانى ما هو أقسى من الموت وأشد وقعاً .

فهل يعيدها لمصر مهينة محتقرة ؟ كلا . أنها تحب بلادها ، وهى ستقابل من أبويها بأذرع مبسوطة وصدور منشرحة . أو هل يأمر بسجنها بعد أن تعترف له بجرمها ، لأنه اعتزم استنطاقها وارغامها على الاعتراف ، أو هل يدفع بها الى بوجيز ليتخذ منها أمة خادمة لسرار يه ونسائه ؟ لقد وصل الى القصاص الصائب ، نعم فلتعاقب كذلك تلك المرأة الخائنة المرائية التي اجترأت على العبث به — وهو الملك القوى القادر — حتى تكفر عن آثامها وجرائمها .

ثم جعل يحدث نفسه قال « كذلك يجب أن لا يظل بردية هنا . قد تتوافق الأضداد ، وقد تجتمع النار بالماء ، أما نحن الاثنين فلا توافق بيننا . انه سعيد الحظ مسرور ، وأنا دائما تعس محزون . و بعد يوم أو بعض يوم يقتسم أبناؤه ملكي و يلبسون تاجي : ولكني لا زلت الملك على هذه الأمة ، وما دمت كذلك فلأبرهن لهم انني الملك حقاً . »

فأضاء صلفه ، وغروره ، وشعوره بأنه صاحب سطوة وقوة ، مغلقَ قلبه كما يضيء البرق الساطع حلكة الظلام ، فنبه من تفكيره ، وكأنه انتقل الى حياة جديدة . ثم رمى بكأسه الذهبية على أرض البهو بكل قوته فتحطمت وتناثر منها الخمر كالمطر وصاح بهم « كفى فلننه هذه الثرثرة ، ولنضع حداً لتلك الضجة الجوفاء ، وهيا فلنعقد مجلس الحرب ونحن ثماون بنشوة الخمر كما ترون ، ولننظر فى أمر الجواب الذى علينا أن نبعث به الى أمة المساجيت . هات رأيك يا هستاسب فأنت أكبرنا سناً . »

وهستاسب هذا أبو دارا وكان شيخا متقدما فى السن . قال « الظاهر لى أن رسل هؤلاء القوم الجوالين لم يتركوا لنا أمر الخيار ، فليس فى مقدورنا أن نثير حربا على بلاد كلها صحارى ومجاهل . والآن وجيشنا معبأ ومستعد لكل حرب ، والآن وقد ظلت سيوفنا طويلا فى أغمادها ، فلا بد لنا من حرب نشهرها نخوض غمارها ونشحذ فيها سيوفنا ، ولكننا نريد أعداء أبطالا ، أشياخ حرب ، أهلا لعدائنا وحربنا ، وليس أسهل علينا من ايجاد هؤلاء الأعداء . »

فعلا صياحهم لدى هذه الكلمات ، وسكت كريسوس حتى سكت الضجيج ثم قال

« انى واياك ياهستاسب شيخان متقدمان فى السن ، ولكنك فارسى صميم لن تتلمس السرور فى غير الحرب واراقة الدماء . أراك تتوكأ من جراء شيخوختك على تلك العصا التى هى رمز مرتبتك فى الجيش وشارة القيادة ، ولكنك مع هذا تتكلم كأنك شاب يجرى فى عروقه دم الشباب الحار . انى أجاريك القول ان من السهل ايجاد الأعداء ولكن الحمقى هم وحدهم من يسعون فى تلمس العداء وايجاد الأعداء . واعلم أن الرجل الذى يسعى فى خلق أعداء له كالوغد الذى يبتر أعضاءه ويشوه جسمه . ولئن ناصبنا قوم عداءهم ، فلنذهب لملاقاتهم ومواجهتهم كما يلقى العقلاء أرزاءهم وما ينزل بهم من مصائب بالشجاعة والصبر ، فحذار أن نبدأ قوما بحرب ظالمة تمقتها الآلهة . يجب علينا أن نتريث حتى اذا نزل بنا شر أو حاق بنا ظلم ، قمنا للنصر أو الموت ، للصدر أو للقبر ، ونحن شاعرون بأننا على حق وأننا ندفع بالقوة عن ذلك الحق . »

فقوطع كريسوس بأصوات الاستحسان ، وكانت فترة قليلة ، ضاعت بسرعة بين صيحات القوم « انهستاسب محق . فلنبحث لنا عن أعداء ، فلنوجد هؤلاء الأعداء » .

ثم جاء دور بركساسب فى الكلام فقال « فلنتبع نصيحة صاحبينا الشيخين النبيلين . فلن نتلمس العداء والأعداء عملا بقول كريسوس ، وانما فى الوقت نفسه نتبع نصح هستاسب ونعلن مطالبنا ، ونجهر بالعداء لكل من لا يقبل عن طواعية وسرور الدخول فى حظيرة دولتنا العظيمة التى شادها لنا أبو الأمة كورش العظيم . فمثلا نسأل الهند أن تعترف بقمبيز ملكا عليها ، فان كان جوابها الرفض كان ذلك دليل عدم وفائها لنا ، وكل من يمقتنا صار من أعدائنا . »

قال زوبيروس « ذلك لا يجدى شيئا ، وأرى أن نطلب الحرب بأى ثمن . »

وقال جوبرياس « أما أنا فانى من رأى كريسوس . »

وقال النبيل أرتبازوس « وأنا أيضا أرى رأيه . »

وقال أراسب وشيوخ أسرة انتافيرنز وغيرهم من صحب كورش ومعاصريه « ونحن من رأى هستاسب . »

وصاح ميجابيزوس أبو زوبيروس وقد لطم بقبضته المائدة بشدة ، فتلاطمت الكؤوس الذهبية وتدحرجت ، قال « بل نطلب الحرب مهما كلفتنا ، ولكن لا مع

المساجيت الذين يفرون من ساحة الوغى . »

وقال أوروباست كبير الكهنة « لا يليق بنا أن نشهر حربا لا معنى لها على المساجيت ، فقد انتقمت الآلهة منهم لموت كورش . »

وجلس قمبيز مدة وهو ساكن هادىء يرقب فى فتور وبرود حمية قواده وجنده وأخيراً انهض وصاح يخطبهم بصوت كالرعد القاصف ، قال «سكوتا واستمعوا لملككم . »

فكان لكلماته هذه على الجمع الثملين بالخمر وقعا خلبهم وسحرهم ، لأنهم ، حتى الذين لعبت الخمر برؤوسهم ، أنصتوا طائعين وهم لا يشعرون . فخفض صوته واستمر فى حديثه قال « لم أسألكم عن رغبتكم فى السلم أو فى الحرب ، لأنى أعلم أن كل فارسى يفضل تعب الحروب على راحة لا يكون من ورائها مجد وفخار ، ولكنى أردت الوقوف منكم على رأيكم فى الجواب الذى نرد به على رجالات المساجيت ومحاربيهم فهل ترون أنكم أخذتم بثأر أبى ، وهو الذى تدينون اليه كلكم فيما نلتم من عظمة ومجد ، وهل أخذتم بدمه ؟ »

فكان جوابهم على ذلك همهمة تؤيد قوله ، قوطعت بأصوات حادة تؤيد الضد وعند ذلك سألهم الملك سؤاله الثانى قال « هل نقبل الشروط التى عرضها علينا مفوضوهم ، ونمنح السلام لهذه الأمة التى نكلت بها الآلهة وهجرتها ؟ » فوافق الكل على ذلك .

وتابع قمبيز حديثه قال « ذاك ما رغبت فى معرفته . وغدا عند ما نفيق من هذه الخمر نهيج كعادتنا ، فنبحث من جديد فيما نكون اعتزمناه ونحن سكارى . فاترعوا الخمر ليلكم كله ، وغدا عند صياح الطائر المقدس پارودار (الديك) تجدونى بانتظاركم عند باب معبد بعل للذهاب للصيد . »

وعند ما أتم الملك كلامه غادر البهو مشيعا بهتاف عال « النصر للملك » . وكان بوجيز قد سبقه ، وهناك فى الفناء الخارجى وجد أحد غلمان البستانى المشتغل فى الحدائق المعلقة ، فسأله بوجيز عن الذى جاء به الى هذا المكان .

فقال الغلام « جئت فى شىء للأمير بردية . »

قال « لبردية ؟ هل سأل الأمير أباك أن يرسل اليه بعض البزور أو الزهور؟ »

فهز الغلام رأسه باسما ، فاستطرد بوجيز السؤال بحرص زائد قال « اذن أرسلك اليه شخص آخر ؟ »

قال « نعم . »

قال « ان المصرية اذن أرسلتك برسالة الى سلفها ؟ »

قال « ومن أنبأك بذلك ؟ »

قال « لقد حدثتنى نايتيتس بشأنها . فأعطنى الرسالة وسأسلمها للأمير حالا . »

قال « لم أومر أن أسلمها لأحد غير الأمير نفسه . »

قال « سلمنيها فهى فى يدى آمن منها فى يدك . »

قال « لست أستطيع . »

قال « أطعنى والا — »

وفى هذه اللحظة خرج الملك ، ففكر بوجيز قليلا ثم نادى بأعلى صوته على حملة السياط الواقفين عند باب القصر ، وأهاب بهم أن يقبضوا على الغلام .

فسأل قمبيز « ماذا هنا ؟ »

قال الخصى « لقد بلغ من وقاحة هذا الغلام أن يجىء الى هنا حاملا رسالة من زوجتك نايتيتس الى أخيك بردية . »

فخر الغلام على قدمى الملك متمرغا فى الثرى .

فنظر اليه قمبيز ثم عرته صفرة كصفرة الموتى ، و بعدئذ التفت الى الخصى وسأله « وما الذى تريده الأميرة المصرية من أخى ؟ »

قال « يقول الغلام انه أمر أن لا يسلم ما أوتمن عليه الا لبردية . »

ولدى ذلك نظر الغلام الى الملك مستعطفا ، وأخرج من صدره ملفاً من ورق البردى .

فخطف قمبيز الملف من بين يديه ، ولكنه خبط الأرض بقدميه من شدة الغيظ عند ما رأى أن الكتاب مكتوباً بالاغريقية وهو لا يفهمها .

ثم تمالك نفسه ونظر الى الغلام نظرة أرعبته ، وسأله عن الذى أعطاه الخطاب .

فقال الغلام « انها المجوسية ماندين يا مولاى وصيفة المصرية . »

قال « لأخى بردية ؟ »

قال « انها قالت لى أعط هذا الخطاب للأمير الجميل وتجده هناك فى المهرجان ، وأبلغه تحية مولاتى نايتيتس ، وقل له . . . »

وهنا خبط الملك بقدمه الأرض من حنقه فارتاع الغلام وأتم حديثه ببطء قائلا « وكان الأمير يسير معك يا مولاى فلم أتمكن من التحدث اليه . وأنا الآن بانتظاره هنا لأن ماندين وعدتنى أن تعطينى قطعة ذهبية ان أنا أديت ما طلبت منى خير أداء . »

فصاح الملك وقد ظن أنه خدع بشكل مزر قبيح « وذلك لم تفعله . كلا . أنك فى الحقيقة لم تفعله . اقبضوا أيها الحراس على هذا الغلام . »

فتوسل الغلام وضرع ، ولكن عبثاً كان يحاول ، لأن حملة السياط كانوا قد قبضوا عليه بأسرع من لمح البصر ، ولم يصغ قمبيز الى توسلاته سائرا الى مخادعه حتى وصلها .

وتبع بوجيز مولاه وهو يفرك كفيه الغليظتين و يضحك فى سره . وتقدم الخدم ليخلعوا عنه ملابسه ، فأمرهم وهو مغضب أن يتركوه على الفور .

واذ خرجوا من لدنه نادى بوجيز وأسر اليه « منذ الآن صارت المصرية والحدائق تحت رقابتك ، فقم على حراستها خير قيام ، وحذار أن يراها انسان أو تصلها رسالة دون علم منى ، ففى ذلك حياتك . »

قال « واذا أرسلت اليها كاساندين أو آتوسا ؟ »

قال « اصرف رسلهم ، وأعلن الجميع أن كل مسعى يبذل فى سبيل مقابلة نايتيتس أو مكاتبتها أعتبره عداء موجها لشخصى . »

قال « وهل لى أن أسأل مولاى أمرا ؟ »

قال « لم تحسن اختيار الوقت للسؤال »

قال « اننى أشعر بوعكة فمر غيرى أن يحرس الحدائق غداً . »

قال « كلا ، واليك الآن عنى . »

قال « انى أحس بحمى تتمشى فى جسمى ، وقد غشى علىّ اليوم ثلاث مرات . فاذا تسنى لأحد وأنا فى هذه الحال أن . . . »

قال « ومن يستطيع أن يقوم مقامك ؟ »

قال « كاندول الليدى ضابط الخصيان . فهو نقى كالذهب ، صلب لا ينثنى . وراحة يوم واحد لى تعيد لى قوتى ، فارحمنى يا مولاى . »

قال « ما أتعس حظ الملك فى خدمه ! ليحل كاندول محلك غداً ، ولكن شدد عليه الأمر وقل له ان أقل أهمال يعرض حياته للخطر . والآن فانصرف . »

قال « كلمة أخرى يا مولاى . غدا ليلا فى الحدائق المعلقة تتفتح الزنبقة الزرقاء النادرة المثال . ويرغب فى رؤيتها كل من هستاسب وانتافيرنز وجوبرياس وكريسوس وأوروباست وجمهرة من رجال البلاط المشتغلين بفلاحة البساتين ، فهل يسمح لهم بزيارة الحدائق بضع دقائق ؟ ان كاندول سوف يراقبهم مراقبة شديدة ويمنع التواصل بينهم و بين المصرية . »

قال « نعم وليفتح كاندول عينيه أن هو رغب فى الحياة — اذهب . »

فانحنى بوجيز أمامه وخرج من لدنه ؛ وأعطى بضع قطع ذهبية للخدم الذين حملوا المشاعل أمامه . وشعر بسرور ما بعده سرور ، اذ حدث كل شىء حسب هواه ، بل وفوق ما كان يأمل و يرجو . فقضى على نايتيتس قضاء مبرما ، وصارت حياة كاندول معلقة بيديه ، وهو قرنه الذى يكره وندّه المزاحم الذى يمقت .

وقضى قمبيز ليله وهو يسير فى حجرته جيئة وذهابا ، وقد عزم على أن يقسو على نايتيتس حتى تعترف بجرمها ، ثم ترسل الى شقة الحرم تخدم السرارى والقيان هناك : أما بردية الذى أفقده سعادته المبتغاة فلابد أن يبعث به الى مصر على الفور وعند عودته يعينه مرزبانا على احدى الولايات النائية . ولم يرد قمبيز أن يأثم بقتل أخيه ، ولكنه كان يعرف فى نفسه الحدة فخشى أن يقتله فى ساعة غضب تعرض ، وعلى ذلك رأى أن يقصيه بعيدا ليكون بمأمن من ثورة عواطفه .

وبعد شروق الشمس بساعتين امتطى قمبيز جواده الجموح ، وتقدم أتباعه سابقا اياهم بمسافة طويلة ، وكانوا عديدين يلبسون الدروع ويحملون السيوف والحراب والقسى استعدادا للصيد فى الأحراش القريبة من بابل ولقد كان من عاداتهم فى الصيد أن يبدأوه بأن يطلقوا سربا من الكلاب ، يبلغ الألف عدا أو يزيد .

الفصل الثامن عشر

القبض على بردية وصحبه

انتهى الصيد على ما يشتهى الملك ، وامتلأت العجلات بما اقتنصه من الخنازير البرية ، ثم سيقت وراء جماعة الصيادين الى القصر . وعند ما اقترب هؤلاء من الأبواب تفرقوا شيعاً الى مساكنهم ليخلعوا عنهم لباس الصيد الفارسى البسيط ، وهو مصنوع من الجلد ، وليرتدوا بعدئذ ملابس البلاط الميدية الفاخرة .

وكبح قمبيز ثورة نفسه أثناء الصيد ، وأمر أخاه أمرا ظاهره الشفقة أن يرحل الى مصر فى اليوم التالى ليقابل صافو ويعود واياها الى فارس . وفى الوقت ذاته خصه بخراج باكترا ورهاج وسينوب كى يقوم بأود داره الجديدة ، وخص زوجته صافو بكل خراج بلدتها فوشيا كى تصرفه على زينتها وحاجاتها الخصوصية .

فلم يكن من بردية الا أن شكر بفم الاخلاص الحق لأخيه كرمه وتعطفه ، فقابل قمبيز هذا الشكر ببرود وفاه ببضع كلمات الوداع له ، ثم أدار اليه ظهره وجد فى أثر واحد من حُمُر الوحش .

ودعا بردية ، وهو عائد من الصيد ، أصدقاءه المقربين اليه وهم كريسوس ودارا وزوبيروس وجيجيز الى وليمة يقيمها لهم قبل سفره .

فوعد كريسوس أن يوافيهم لأنه قد سبق منه الوعد أن يرى الزنبقة الزرقاء عند طلوع نجم الشعرى . وكان قد ذهب الى الحدائق مبكراً هذا اليوم ليزور نايتيتس فمنعه الحراس من الدخول ، ورأى أن الزنبقة قد تهيئ له فرصة رؤية تلميذته العزيزة ومخاطبتها . وكان شديد الرغبة فى مقابلتها لأنه لم يفهم معنى لسلوكها فى اليوم السابق ، وأقلقه ما رأى من وضعها تحت مثل هذه الرقابة الشديدة .

وجلس الأخيمينيون جذلين يتحدثون معاً عند الشفق تحت كرمة ظليلة فى حدائق الملك ، ومن حولهم النافورات تتدفق منها المياه . وشاركهم فى الحديث

أراسب ، وهو من كبار رجالات الفرس ، وكان من أصدقاء الملك كورش ، وشرب قسطا وافرا من خمر الأمير .

قال الأعزب العجوز « ما أسعدك يا بردية ! فانك نازح الى البلاد المشمسة الذهبيـة لتعود بالمرأة التى تهواها ، فى حين أنى أنا التعس العجوز أرانى أقترب من قبرى دون أن يكون لى زوجة وأبناء يندبوننى ويبكوننى ، ويصلون للآلهة ضارعين يستنزلون رحمتها على روحى المسكينة . »

قال زوبيروس وهو يرفع كأسه « ولم تفكر فى ذلك ؟ صدقنى انه ليست توجد قط امرأة ، مهما كانت أخلاقها ، لا يندم زوجها ، مرة فى كل يوم على الأقل ، على أنه اتخذ لنفسه زوجة . فسرّ عن نفسك يا صاحبى ، واذكر أن ذلك كله خطؤك أنت فلئن كنت تظن أن باستطاعة الزوجة اسعـادك فلم لا تنهج نهجى وتسلك سبيلى ؟ اننى فى الثانيـة والعشرين من عمرى ولى فى دارى خمس زوجات حسان وسرب من السرارى الجميلات . »

فابتسم أراسب وفى نفسه غصة .

وقال جيجيز « وما الذى يمنعك من الزواج الآن ؟ ان علامات الشباب تلوح عليك ، وفيك من الشاب قوته وشجاعته وصبره ومثابرته . وفوق هذا فانك من أقارب الملك المقربين اليه . أقول لك يا أراسب انه باستطاعتك أن يكون لك عشرون من صغار الفتيات الحسان . »

قال أراسب « عليك نفسك وشؤونك الخاصة . ولو أنى كنتك ما انتظرت حتى أبلغ العقد الثالث من عمرى لأتزوج . »

قال جيجيز « منعنى من الزواج وحى الآلهة . »

قال « حديث خرافة ، اذ كيف يصغى رجل حساس الى نبوءة أو وحى ؟ ان الآلهة لن تكشف المستقبل للانسان الا بالأحلام . وددت لو أنك اتعظت بما حصل لأبيك ، وكيف كانت الطريقة المعيبة التى خدع بهـا الـكهنة الـكاذبون أصـدق أصدقائهم . »

قال « ذاك ما لا تستطيع فهمه يا أراسب . »

قال « وما أنا راغب أبدا فى تفهمه ، لأنك يا بنىّ انما تعتقد فى مهابط الوحى هذه وأنت لا تدرك من أمرها شيئاً ، فتدعو كل شىء يصعب عليك استيعابه معجزة وذلك لقصور فهمك ونظرك . وانك لتثق فى كل ما يظهر لك فيه شىء من الاعجاز أكثر من وثوقك فى الحق الصراح البسيط الواضح الماثل أمامك . ان وحيا كاذبا ونبؤة خادعة قد دفعا بأبيك الى الخراب والدمار ، ومع ذلك فلا زلت ترى فى الوحى انه عجيب معجز . فان أنت وضعت كل ثقتك فيما تسميه وحياً أو نبؤة هيأت للخرافة سبيل سلبك السعادة والهناء . »

قال « هذا كفر يا أراسب ، وهل على الآلهة من لوم اذا نحن لم ندرك خبىء كلامها ؟ »

قال « بالتأكيد ، لأنه ان أرادت الآلهة خيرنا منحت عقولنا القوة الكافية لاستكناه معنى كلامها . والا فما الذى أنا مصيبه من كلام جميل مزوق اذا كان بلغة غريبة لا أفهمها ؟ »

قال دارا « دعانا من هذه المناقشات الجوفاء ، وهيا خبرنا يا أراسب كيف أنك ، وأنت تهنىء كل رجل يتزوج ، تعرض نفسك للوم الكهنة وتقريعهم ، مستخفاً بكل حفلات الأنس والسرور ، مشتوما من النساء مكروها منهن ، وكل ذلك لأنك اخترت لنفسك أن تعيش وتموت وأنت أعزب ؟ »

فأطرق أراسب مفكراً ثم أنفض رأسه واكترع جرعة كبيرة من قدحه وقال « لدىّ فى ذلك أسباب أيها الصحب ، ولكنى لا أستطيع ذكرها . »

فصاحوا به أجمعين « بل قلها ، قلها . »

قال « كلا يا أبنائى فلست أستطيع ذكرها ، والحق انى لا أستطيع . انى أشرب هذه الكأس نخب صافو الحسناء الفاتنة ، وهذه الكأس الأخرى نخب طالعك السعيد يا عزيزى دارا . »

فصاح بردية مسروراً وهو يقرب الكأس من فمه « ألف شكر لك يا أراسب . »
وتمتم دارا وهو مطرق تعلوه الكآبة « أعرف أنك تحب لى الخير كله . »
قال أراسب الشيخ وقد آلمه اكتئاب الفتى « ما هذا يا ابن هستاسب ؟ ان

هذه الكآبة منك غير مستملحة فى مثل ظرفنا الحاضر ، ولن يستطيبها عاشق خاطب يشرب نخب أعز الناس عنده وأحبهم لديه . أليست ابنة جوبرياس الصغرى أنبل فتيات الفرس بعد آتوسا ؟ وأليست هى جميلة حسناء ؟ »

فكان جواب دارا على ذلك « ان لأرتستون ابنة جوبرياس من الذكاء والسجايا ما هو خليق بابنة الأخيمينيين . » وكان مقطب الجبين وهو يلفظ هذه الكلمات .

قال « فان أنت أردت أكثر من ذلك كنت ممن يستعصى على الناس ارضاؤهم . »

وعندئذ رفع دارا كأسه ، وجعل يحدق فى الخمر .

فصاح أراسب « أقسم ان دارا قد مس قلبه الهوى ، وأنا متأكد من ذلك كتأكدى من أن اسمى أراسب . »

قال زوبيروس « حقاً انكم جماعة من المجانين . أحدكم يحتفظ بالعزوبة رغم أنها مخالفة لكل عادات الفرس ، وثانيكم يمنعه من الزواج هاتف أو نبؤة ، وثالثكم وهو بردية يعتزم القناعة من دنياه بزوجة واحدة ، ورابعكم دارا كانه (دستور) كاهن مجوسى يرتل فى جنازة لأن أباه قال له انه سوف يحظى بأجمل فتيات فارس وأعرقهن نسباً . »

قال أراسب « ان زوبيروس محق فدارا لا يحمد للآلهة ما قدرته عليه . »

وظل بردية يحدق النظر الى صاحبه الذى أشبعه أخوانه لوماً وتقريعاً ، وشعر أن مزاحهم قد أقلقه ، وأحس بسعادته هو نفسه تتضاعف ، فضغط على يد دارا وقال « ان أسفى على عدم حضور عرسك لشديد ، وآمل عند رجوعى أن أجدك قد رضيت بما اختاره لك أبوك . » .

فقال دارا « ربما أكون قد استطعت أن أختار زوجة ثانية وثالثة فى ذلك الوقت . »

قال زوبيروس « ألا فلتستجب الآلهة قولك . ان الأخيمينيين قد ينقرضون بسرعة ان هم نهجوا نهج جيجيز وأراسب . وليس ثمت ما أقول ازاء زوجتك المختارة يا بردية ، غير أن الواجب يدعوك أن تتزوج من ثلاث دفعة واحدة حتى يبقى نسل

أبيك كورش العظيم فى هذا الوجود دون أن ينقرض . »

قال بردية « انى أكره تعدد الزوجات ، ونحن بذلك نضع أنفسنا فى مستوى أحط من مستوى النساء ، وذلك لاننا ننتظر منهن أن يبقين أمينات لنا طول حياتنا فى حين أننا ، وقد تقيدنا باحترام فضيلتى الصدق والولاء قبل كل فضيلة ، نقسم اليوم لهذه بأننا نهيم بها هياما ليس بعده هيام ثم نعيده لأخرى فى اليوم التالى . »

قال زوبيروس « هراء ما تقول يا بردية . ولقطعُ لسانى أهْون عندى من الكذب على رجل ، ولكن نساءنا أهل مكر وخداع فليس لنا بد من مقابلة كيدهن بمثله . »

قال بردية « ولكن الاغريقيات لسن من النوع الذى ذكرت ، فانهن يعاملن بشكل غير الذى ألفناه . ولقد حدثتنى صافو عن واحدة اسمها بنيلوب مكثت تنتظر زوجها عشرين سنة حافظت فيها على ولائها له واخلاصها فى حبه ، رغم اعتقاد الكل أنه مات ، ورغم أنه كان يقصدها فى دارها كل يوم خمسون من عشاقها . »

قال زوبيروس ضاحكا « ان زوجاتى لن ينتظرننى طول هذه المدة . ولا أكتمكم الحق ، اننى لن أحزن ان أنا عدت الى دارى بعد هذه العشرين سنة فوجدتها قفراء خالية . ذلك لأنى أستطيع حينئذ أن أتخذ لى من النساء زوجات جديدات صغارا حسانا بدلا من هؤلاء الخائنات ، اللائى تقدمن فى السن . وما أسفى الا لأنه لا يتسنى لكل امرأة أن تجد لها عاشقاً يهرب واياها ، وان نساءنا ليفضلن زوجا يغيب عن البقاء بلا زوج . »

قال أراسب « بودى لو تسمع زوجاتكم ما تقولون . »

قال « انهن اما أن يعلنّ الحرب علىّ فى الحال ، واما أن يستتب الأمر بينهن فيصطلحن بعد خصامهن ، وهذا شر من سابقه . »

قال « وكيف يكون ذلك شراً من سابقه . »

قال « تقول كيف ؟ ! يظهر لى أنك لست من أهل التجاريب المحنكين . »

قال « اذن فأدل الينا بتجاريبك ، وحدثنا بأسرار حياتك الزوجية . »

قال « حباً وكرامة . من السهل أن تتخيلوا أن خمس زوجات فى دار واحدة

لا يمكن أن يعشن هادئات مسالمات كما تعيش خمس حمامات فى قفص واحد . وزوجاتى ، عفت الآلهة عنهن ، فى عراك مستمر وحرب مستديمة . ولكنى دربت نفسى على ذلك ، وأصبحت ألذ بنزعاتهن الشيطانية هذه . ولقد اصطلحن منذ سنة وحل الوئام محل الشقاق ، ولقد كان يوم صلحهن أشأم أيامى كلها . »

قال « انك تمزح . »

قال « بل انى جاد فيما أقول . ففى ذات يوم مكنهن الخصى اللعين القائم على حراستهن من رؤية أحد تجار الجواهر من بلدة صور . فاختارت كل منهن مجموعة من هذه اللآلئ غالية الثمن . ولما دخلت المنزل جاءتنى منهن سوداب تطلب مالا تشترى به هذه اللآلئ ، فلم يكن منى الا الرفض لارتفاع الثمن . وتلتها فى ذلك كل واحدة منهن على حدة تطلب المال اللازم لها ، فكان جوابى الرفض . ثم خرجت قاصدا البلاط . فلما عدت ثانية ليلا وجدتهن جالسات معاً يبكين ويتصافحن ، قائلات انهن سواء فيما يقاسين ، تاعسات بائسات . وقمن كلهن فى وجهى دفعة واحدة ، وكن من زمن فى عداء وشحناء ، وقهرننى على أمرى بما وجهن الى من سباب وتهديد ، فما وسعنى الا أن تركت لهن الحجرة . ومن ثم لم يسمحن لى بالدخول عليهن ، وأوصدن أبوابهن فى وجهى ، واستأنفن فى الصباح عويلهن وبكاءهن . ففررت منهن مرة أخرى ، وخرجت الى الصيد مع الملك ، فلما عدت ، وكان قد أعيانى التعب والجوع والبرد — اذ كنا فى الربيع ، وكان البلاط فى اكبتانا ، والثلج يغطى الأورونت فلم أجد ناراً فى الموقدة للدفء ، ولم أجد طعاما آكله . تحالفن علىّ كى يتسنى لهن عقابى ، فأطفأن النيران ، ومنعن الطهاة من الطهى . ومما زاد الطين بلة أنهن أخذن تلك اللآلى ولم يرددنها للرجل . وما كدت آمر الخدم باشعال النار واعداد الطعام حتى جاءنى ذلك الرجل الوقح تاجر الجواهر يسألنى ماله . فرفضت للمرة الثانية وبقيت ليلة أخرى فى عزلة عنهن ، فلما تنفس الصبح بذلت مالا كثيرا فى سبيل الصلح . ومنذ ذلك الحين صرت أخشى الوفاق بين زوجاتى كما أخشى الشيطان وشروره ، وأصبحت مخاصماتهن تلذ لى وانى لأنظر اليها بفرح عظيم . »

قال بردية « ما أتعسك يا زوبيروس ! »

قال « ولم أنا تعس ؟ أقول لك انني أسعد منك حظا ، فزوجاتي صغيرات فاتنات . فان تقدمن في السن فما الذي يمنعني من الزواج من غيرهن أجمل منهن وأفتن ؟ — أيها العبد ، أحضر بعض المصابيح فالشمس تختفي في الأفق ، والخمر تفقد طعمها اذا لم يكن خوانها مضاءاً نيراً . »

وهنا سمع صوت دارا ، وكان قد ترك هذه الحلبة وذهب الى الحديقة ، يقول « تعالوا اسمعوا البلبل يشدو شدوا جميلا . »

فاعترضه أراسب قائلا « وحق مثرا انك عاشق يا ابن هستاسب . ان سهم الحب لا بد أن يكون قد نفذ الى قلب ذلك الذي يهجر الخمر والشراب ليستمع الى البلبل . »

قال بردية « هنا أنت محق يا أبت فيما تقول ، فالبلبل طائر العشاق عند كل الأمم ، لأن الحب هو الذي منحه هذا الصوت الجميل . قل يا دارا في أي الحسان كنت تفكر عند ما خرجت الى الحديقة تصغي الى صوت البلبل ؟ »

قال « لم أكن أفكر في أي حسناء ، وانك لتعلم عني ولعي برصد النجوم ، وقد ظهر نجم الشعرى الليلة بشكل فخم جعلني أترك الخمر لأرقبه . أما البلابل فقد كان غناؤها عالياً عفت سماعه فسددت أذني . »

قال أراسب ضاحكا « ولكنك مع ذلك فتحت لسماعه أذنيك ، يدل على ذلك ما بدا عليك من السرور . »

قال دارا وقد أضجره ذلك المزاح « كفى مزاحا . حقاً انني أرجوكم أن تتركوا ذلك التعريض والتلميح عن أشياء لا يهمني التحدث بها . »

قال أراسب خافضا صوته « ما أقل حرصك يا دارا فقد فضحت نفسك في الحقيقة . ولئن كنت حقيقة غير عاشق مدنف لضحكت بدلا من اظهار الكدر والاستياء . على أني لا أستثيرك بعد ذلك — قل لي ما الذي قرأت في نجومك ؟ »

وعند ذلك رفع دارا بصره نحو السماء ، ونظر فيها الى مجموعة من النجوم الساطعة ونادى زو بيروس صحبه وهو يرقب دارا قائلا « ان شيئا هاما يحدث في العلا هناك . خبرنا يا دارا بالذي رأيت الآن في السموات . »

قال « لست أرى ما يسر . لدىّ ما أقوله لك وحدك يا بردية . »

قال « ولم لى وحدى ؟ إن أراسب لا يهمه من أمر غيره شيء ، وليس عندى من الأسرار ما أكتمه على بعضكم . »

قال « لا زلتُ — »

قال « بل تكلم . »

قال « كلا بل أريد أن تتبعنى الى الحديقة . »

فأشار بردية برأسه للآخرين وكانوا لا يزالون جلوسا يشربون الخمر ، ووضع يده على كتف دارا ، وخرج به الى خلوة فى ضوء القمر الأبيض الساطع . وهنالك أخذ دارا بيد صديقه وقال « هذه هى المرة الثالثة وأنا أشاهد فى النجوم أشياء تشير بما لا يسرك . ان نجم نحسك يزداد اقترابا من نجم سعدك ، وان المبتدىء فى علم الفلك ورصد النجوم ليستطيع أن يدرك أن خطبا جللا يترصدك . فحذار يا بردية وسافر اليوم الى مصر ، فان النجوم حدثتنى أن الخطر الذى يتهددك هنا على شاطىء الفرات لا خارج البلاد . »

قال « وهل تعتقد اعتقاداً جازماً فى صدق النجوم ؟ »

قال « بلى فهى لا تكذب قط . »

قال « من الحمق اذن أن يسعى الانسان لتجنب ما تنذر به . »

قال « نعم فليس فى مقدور الانسان أن يهرب من القدر المقدور عليه . ولكن هذا القدر كالمعلم الذى يدرب تلاميذه على الضرب بالسيف ، وانّ أحب تلاميذه اليه هم أولاء الذين لهم من المهارة ما يستطيعون به اتقاء ضرباته . فسافر يا بردية لمصر اليوم . »

قال « ولكنى لا أستطيع السفر فلم أستأذن أمى وآتوسا فى السفر . »

قال « ابعث لهما برسالة تودعهما فيها ، واطلب الى كريسوس أن يوضح لهما سبب سفرك بهذه السرعة . »

قال « انهما ترميانى بالجبن . »

قال « بل من الجبن أن تخضع لأى انسان ، ومن الحكمة أن يتجنب

الانسان الخطر . »

قال « انك تخالف نفسك يادارا . فما الذى يقوله معلم السياقة الى من يهرب من تلاميذه ؟ »

قال « ولكنه يسر من الحيلة التى بها يستطيع شخص بمفرده أن ينجو من قوة كبيرة . »

قال « واذا كانت هذه القوة الكبيرة ستتغلب فى النهاية ، فما هى الفائدة التى تنجم عن محاولتى تجنب خطر تقول عنه أنت نفسك انه لايمكن تجنبه أو اقصاؤه ؟ انى أخلع ضرسى فى الحال ان هو آلمنى ، بدلا من تعذيب نفسى أسابيع بتأجيل العملية المؤلمة كالجبان أو كالمرأة فكلاهما يصبر على الألم حتى اللحظة الأخيرة . باستطاعتى أيها الصديق أن أواجه الخطر الداهم بشجاعة وصبر ، وخير الأخطار عندى أعجلها مجيئاً لأنى أكون فى هذه الحال قد عرفت الخاطر ثم اطرحته . »

قال « انك لا تعلم شدة هذا الخطر . »

قال « أو تخشى على حياتى يا دارا ؟ »

قال « كلا . »

قال « خبرنى اذن بالذى تخشاه علىّ . »

قال « ان نيتحوتب كبير كهنة المصريين الذى كنت أرصد النجوم معه أراد أن يستطلع معى طالعك ذات مرة ، وهو يعلم من أمر السموات ما لا يعلمه أى رجل آخر ، وقد أخذت عنه الكثير ، ولست أخفى عنك أنه لفت نظرى اذ ذاك الى الأخطار التى تهددك الآن . »

قال « ولماذا لم تخبرنى ؟ »

قال « وكيف لى أن أزعجك مقدماً ؟ ولكنى الآن أحذرك فقد قاربك الخطر . »

قال « شكراً لك . سأكون على حذر . لقد كنت فيما مضى لا أصغى لتحذيرك لو أنك أدليت الىّ ، أما الآن فانى أحب صافو وأشعر أن حياتى ليست لي وحدي فأتصرف فيها كما أريد ، شأنى فيما مضى منها . »

قال « انني أقدر هذه العواطف وأفهمها . »

قال « تفهمها ؟ اذن لقد أصاب أراسب فيما قال ، فلا نكران بعد اليوم . »

قال « انه حلم لا أمل فى تحقيقه . »

قال « ومن هى تلك المرأة التى ترفض طلبك ؟ »

قال « ترفض ! »

قال « لم أفهمك بعدُ يا أخى أتقصد أن تقول انك ترهب امرأة ، وأنت أشجع من صاد وأقوى من صارع وأعقل شباب الفرس ؟ »

قال « بردية ! هل لى أن أخبرك بما لم أخبر به أحداً حتى أبى ؟ »

قال « نعم ، تكلم . »

قال « انني أهوى ابنة كورش العظيم ، أحب آتوسا شقيقتك وشقيقة الملك. »

قال « أنت تهوى آتوسا ؟ ألم أخطئ فهم ما قلت ؟ شكراً للآلهة على ذلك . لست بعد الآن معتقداً شيئاً فى نجومك ، لأنه بدل الخطر الذى هددتنى به قد صادفتنى سعادة غير منتظرة . عانقنى يا أخى ، وحدثنى بكل قصتك لعلى أجد ما أساعدك به فيصبح ذلك الحلم حقيقة ملموسة . »

قال « انك تذكر أننا قبل أن نسافر الى مصر ، انتقل البلاط كله من أكبتانا الى سوسا . وقد وكلوا الىّ حراسة مركبة أم الملك وأخته ومركبات نسائه . وعند بلوغنا الممر الضيق فوق الأورونت كباجوادا مركبة أمك وأختك ، فسقط الجوادان وهوت معهما المركبة فى تلك الهاوية . ولما رأيناها تختفى فيها فزعنا فزعاً شديداً ، وألهبنا خواصر خيلنا حثاً وهمزاً وطرنا بها حتى بلغنا المهوى بأسرع ما يمكن . وكنا ننتظر بالطبع أن نرى المركبة مهشمة بمن فيها ، ولكن الآلهة قد بسطت عليها حمايتها ، فهناك وجدنا المركبة وقد تهشمت عجلاتها محمولة على أغصان شجرتى سرو كبيرتين ، نبتت جذورهما القوية بين شقوق الصخور وعلت أطرافها العليا حتى بلغت أرض ذلك المضيق .

« وبأسرع من لمح البصر قفزت من فوق جوادى الى قمة احدى الشجرتين وانحدرت عليها بسرعة ، فمدت الىّ أمك وشقيقتك ذراعيهما تطلبان النجدة والغوث

ولقد كانا فى خطر شديد مفزع لأن جوانب المركبة تهشمت من أثر الصدمة فكانت تنذر بالانقصاف ما بين لحظة وأخرى ، ومن ثم يهوى من بداخلها لا محالة الى أعماق تلك الهاوية المظلمة التى كانت تبدو ، وهى فاغرة فاها لالتهام الضحيتين الكريمتين كأنها مقر للشياطين .

« ولبثت فترة أمام تلك المركبة المهشمة وهى معلقة فوق الهاوية مهددة بالسقوط فى كل لحظة ، وهناك لأول مرة التقى نظرى بنظرة من أختك ترجو بها وتتوسل . فأحببتها منذ تلك اللحظة ، ولكننى كنت فى ذلك الوقت مشغولا بانقاذهما عن كل شيء آخر ، فلم أفكر بما اختلج فؤادى من حبها وما جرى مجرى دمى فى مفاصلى . فأسرعت برفعهما من المركبة التى لم تلبث أن هوت بعد ذلك بدقيقة فتحطمت فى الهاوية . ولا يخفاك أنى قوى العضل ، ولكننى أعترف لك بأنى بذلت كل قوتى فى الاحتفاظ باتزانى أنا والسيدتين حتى لا نسقط فى الهاوية الى أن أدليت لنا الحبال من عل . فتعلقت آتوسا بعنقى ، واستندت كاساندين على صدرى تحملها ذراعى اليسرى ، وبيدى اليمنى شددت الحبل حول جسمى شداً محكما ، ثم نشلنا ونحن على هذه الحالة . وبعد بضع دقائق وجدت نفسى فى الطريق ومعى أمك وأختك .

«وبعد ماضمد المجوس جراحى من أثر الحبل الذى لففته حولى أرسل الملك فى طلبى ، وأعطانى السلسلة التى ألبسها الآن ووهبنى خراج ولاية بأسرها ، وبعدئذ ذهب بى الى أمه وأخته وهناك شكرتانى طويلا ، وسمحت لى كاساندين أن أقبل جبينها ، وأعطتنى كل ما كانت تحمل من لؤلؤ ودر وقت الحادثة هدية منها الى زوجتى التى سأختارها . أما آتوسا فقد خلعت خاتما من أصبعها ووضعته فى أصبعى بيدها ، ثم قبلت يدى مدفوعة بتأثرها الشديد — وانك لتعلم مقدار حسنها وجمالها . ومنذ ذلك اليوم الذى أعده أسعد أيام حياتى لم تقع عينى على أختك حتى مساء أمس عند ما جلسنا متقابلين على المائدة . لقد التقت عينانا فلم أر سواها ولم تر سواى واخالها لم تنس الرجل الذى أنقذها . أما كاساندين . . . »

قال بردية « ان أمى ليسرها أن تكون زوج ابنتها ، وانى أوافق على ذلك كل الموافقة . أما من حيث الملك فان على أبيك أن يطلب اليه ذلك . انه عمنا وله أن

يخطب ابنة كورش لابنه . »

قال « ولكن أنسيت رؤيا أبيك ؟ ان قمبيز لا يزال يسترينى بسبب تلك الرؤيا . »

قال « لقد مضى على ذلك زمن طويل كاف لنسيانها . ولقد رأى أبى فى منامه قبل موته أن لك أجنحة ؛ فأضله السحرة والعرافون زاعمين أنك سوف تعتلى العرش مع أنك لم تكن قد بلغت بعدُ اذ ذاك الثامنة عشر من عمرك . ولقد بقى قمبيز يذكر هذه الرؤيا حتى أنقذت أمى وأختى ، فقال له كريسوس ان ذلك هو تفسير الرؤيا ، اذ لم يكن لغير دارا أو النسر ذى الجناحين أن يكون له من القوة ما يستطيع به أن يحوم وهو معلق مربوط فوق مثل تلك الهاوية . »

قال « ولكنى أذكر أيضاً أن قمبيز لم يقبل هذا التفسير ، لأنه يرى فى نفسه أنه النسر الوحيد فى فارس . مع ذلك لم يشأ كريسوس أن يواطئه على زهوه وخيلائه . »

قال « لقد أذكرتنا بكريسوس ، ترى أين هو طول هذه المدة ؟ »

قال « فى الحدائق المعلقة ، ويظهر أن أبى وجوبرياس قد أعاقاه هناك . »

وفى هذه اللحظة سمع صوت زوبيروس وهو يقول « هذا حسن ؛ وانى أسميه أدبا وتلطفاً من بردية اذ يدعونا الى الشراب ثم يتركنا ويجلس بعيداً عن ضيفانه ويتحدث بأسراره . »

قال بردية « ها نحن حاضران يا أخى فأمسك عليك لسانك . » ثم قبض على يد دارا وقال « لقد سرنى أنك تهوى آتوسا . وسأمكث هنا حتى بعد باكر غير مبال بالكواكب تهددنى بأخطار الدنيا كلها . وغداً أسبر غور آتوسا من جهتك فاذا ما جرى كل شيء مجراه الحق سافرت تاركا دارا ذا الجناحين الى ملكه وسلطانه . »

واذ قال بردية ذلك ولج الكرمة وبدأ دارا يرصد النجوم مرة أخرى . وكان كلما طال تحديقه فيها كلما ظهر الحزن والجد على وجهه . فلما رأى نجمة الشعرى تختفى تمتم قائلا « مسكين يا بردية . » وفيما هو ذاهب الى اخوانه وقد نادوه رأى نجما

جديداً ، فأطال تفرسه فيه قليلا ، فاستحال تجهم وجهه الى ابتسامة الظفر والانتصار وخيل اليه أن جسمه استطال فوضع يده على قلبه وتمتم يقول « أبسط جناحيك يا دارا فسيكون طالعك طالع سعد . » ثم عاد أدراجه الى أصحابه .

و بعد قليل جاء كريسوس الى الكرمة فنهض الكل لتحيته ، فلما وقع بصره على وجه بردية فى ضوء القمر وقف صعقاً .

فقال جيجيز آخذاً بيد أبيه « ما الذى حدث يا أبى ؟ »

قال « لا شىء ، لا شىء » وكان صوته يكاد لا يسمع . ثم دفع ابنه عنه واقترب من بردية وأسر اليه قائلا « ألا تزال هنا أيها التعس ؟ فر فى الحال ، ولا تبق بعد ذلك لحظة . ان حملة السياط قادمون فى أثرى ، وأؤكد لك أنك ان لم تهرب سريعاً كلفت نفسك حياتك جزاء جريمتك . »

قال « ولكنى يا كريسوس . . . »

قال « انك دست على شريعة البلاد وقوانين المملكة ، وأقل ما يقال فيك أنك نلت من شرف أخيك وأهنت حرمته . »

قال « انك تتكلم . . . »

قال « فر . انج بنفسك . أقول لك اهرب فى الحال . فانه مهما كانت زيارتك للحدائق المعلقة بريئة فانك لا تزال فى خطر عظيم . انك تعلم طباع قمبيز الشكسة فكيف جاز لك بكل بلاهة أن لا تطيع أمره ؟ »

قال « لست أفهم ما تقول . »

قال « لا عذر ولا اعتذار . اهرب . ألست تعلم أن قمبيز من زمن يغار منك ، وأن زيارتك للمصرية هذه الليلة . . . »

قال « لم تطأ قدماى على أرض الحدائق المعلقة منذ أن سكنت فيها نايتيتس . »

قال « لا تضف أكذوبة على جريمتك . انى . . »

قال « ولكنى أقسم لك . . »

قال « أتريد أن تنفى عن نفسك جرماً اجترمته من غير تدبر بأن تضيف الى جريمتك جريمة أخرى هى الحنث فى اليمين ؟ ان حملة السياط قادمون فاهرب . »

قال « بل انى باق هنا مصر على قسمى . »

قال « لا شك أن بعقلك خبلا . لقد رأيتك بنفسى منذ ساعة فى الحدائق المعلقة ، ورآك معى هستاسب و بعض الأخيمينيين . »

وكان الدهش قد أخذ من بردية كل مأخذ ، فابتعد على غير ارادة منه ، ولكنه لما سمع ذلك وقف فى مكانه وصاح باخوانه قائلا « ان كريسوس يقول انه رآنى منــذ ساعة فى الحدائق المعلقة ، وأنتم تعلمون أنى لم أفارقكم منذ الغروب ، فاشهدوا اذن أنه لا بد أن يكون ثمت شيطان قد خدع صاحبنا وأصدقاءه . »

فقال جيجيز « أقسم لك يا أبى أن بردية لم يترك حديقته هذه منذ ساعات . »

وقال أراسب وزو بيروس ودارا بصوت واحد « ونحن على ذلك مصادقون . »

فقال كريسوس مغضباً موبخا عاتباً « انكم تريدون خداعى ، فهل تظنون انى أعمى أو مجنون ؟ أتظنون أن شهادتكم هذه تدحض قول مثل هسناسب وجو برياس وأرتفرنز والكاهن الأعظم أوروباست ؟ انه بالرغم من هذه الشهادة الباطلة التى لا تبررها أية صداقة فان بردية سيكون جزاؤه الموت ان هو لم يفر الآن . »

قال أراسب « ألا فلتهلكنى الآلهة ان صح أن بردية كان فى الحدائق المعلقة قبل ساعتين . »

وقال جيجيز « لا تدعنى بعد الآن ابناً لك ان كانت شهادتى هذه باطلة مزورة . »

أما دارا فقــد كان على وشك الاستشهاد بالكواكب لولا أن بردية وضع حداً لهذه الضجة بأن قال على الرزانة والهدوء « ان الجند قادمون الى الحديقة للقبض علىّ ، ولن أحاول الهرب لانى برئ ولأن هروبى يزيد فى اتهامى . وانى أقسم بروح أبى وعينى أمى العمياوين ونور الشمس النقى انى لم أكذب عليك يا كريسوس . »

قال كريسوس « وهل لى أن أصدقك رغم عينىّ اللتين لم تخدعانى قط ؟ ولكنى صدقتك يا بنى لأنى أحبك وأميل اليك ، ولست أدرى أبرئ أنت أم مذنب ، وانما الذى أدريه أنه يجب عليك أن تهرب حالا . أنت تعرف قمبيز . وهذه مركبتى لدى الباب بانتظارك ، فلا تأخذك على خيلها رحمة وانج بنفسك . أنظر الى الجنـد

كيف يتباطأون فى القدوم اليك ، كأنهم عالمون بشدة الخطر المحدق بك ويريدون أن يفسحوا المجال أمامك كى تهرب . فأسرع ما استطعت والا هلكت وضاع لنا ولك كل أمل فى النجاة . »

وعند ذلك دفع دارا صديقه وصاح به « فر يابردية واذكر انذار النجوم لك . »

فوقف بردية ساكنا ثم أنفض رأسه الجميل ودفع أصحابه عنه بلطف وقال « اننى ما هربت قط فى حياتى ، ولذلك فانى ماض فيما ارتأيت لنفسى . ان الجبن فى نظرى أيها الاخوان شر من الموت ، وانى لأفضل معاناة الظلم عن المهانة وسوء السمعة . هو ذا الجند القادمون . مرحبا بك يا بسكن . انك قادم للقبض على ، أليس كذلك ؟ أمهلنى لحظة أودع فيها اخوانى . »

وكان بسكن هذا من ضباط كورش القدماء ، وكان قد علم بردية الرماية والطعان وحارب بجانبه فى حرب التابورى ، وكان يحبه كابنه . فاعترضه قائلا « لا حاجة لك بتوديع أصدقائك ، لأن الملك ، وهو ثائر كالمجنون ، قد أمرنى بالقبض عليك وعلى كل من يكون معك . »

ثم زاد على ذلك بصوت خافت « ان الملك قد تملكه الغضب فجعل يهذى ، وهو معتزم قتلك ، فيجب أن تهرب . ورجالى أطوع لى من بنانى وسيأتمرون بكل ما آمرهم به . وهم لن يتعقبوك ان هربت . وانك لتعلم اننى بلغت أرذل العمر ، وان فارس لتخسر القليل ان طاحت رأسى ثمنا لعصيانى . »

قال بردية آخذا بيديه « شكرا أيها الصديق ، ولكنى لا أستطيع قبول ماتقدمه لى لأنى برئ ، ولأنى أعلم أن قمبيز على حدته وتسرعه غير ظالم . هيا أيها الاخوان فان الملك سيحاكمنا الليلة على الفور فى مثل هذا الوقت المتأخر . »

الفصل التاسع عشر

الحكم بالاعدام

بعد ساعتين من ذلك كان بردية وصحبه واقفين أمام الملك ، الجالس على كرسيه الذهبى ، أصفر الوجه غائر العينين . ووقف وراءه طبيبان وبأيديهما كل أنواع الأجهزة الطبية من أسلحة وأوعية ، اذ أن قمبيز كان قد عاد الى صوابه منذ بضع دقائق بعد أن وقع فريسة نوبة صرع شديدة من تلك النوبات التى كانت تعتريه فتنهك عقله وجسمه . ولم تجئه هذه النوبة منذ وصول ، نايتيتاس ، ولكنها انتابته اليوم بشدة نظراً للتهييج الفكرى الذى أصابه .

ولو أنه لقى برديه قبل ذلك بساعات لقتله بيده ، ولكن نوبة الصرع هدأت ثائرته ، وان تكن لم تبرئه من غضبه ، فأصبح فى حالة يستطيع فيها أن يستمع لما يقال من الجانبين ، جانب الاتهام وجانب الدفاع .

ووقف عن يمين العرش هستاسب أبو دارا ، وجوبرياس حموه ، وانتافيرنز جد فايديم التى انتبذها الملك وأحل نايتيتاس محلها ، وأوروباست كبير الكهنة ، ثم كريسوس . ومن ورائهم وقف بوجبز كبير الخصيان ، وعن يسار العرش وقف بردية مغلول اليدين ثم أراسب ودارا وزوبيروس وجيجيز ، ووقف فى المؤخرة بضع مئات من الموظفين والنبلاء .

وبعد صمت طويل رفع قمبيز عينيه ، وألقى على أخيه نظرة غاضبة ، وقال بصوت مكتئب « خبرنا يا كبير الكهنة ما جزاء من يخدع أخاه ، ويثلم شرفه ، ويناوىء ملكه ، ويشين قلبه بأسود الأكاذيب . »

فتقدم أوروباست عند ذلك وقال « عند ما تتحقق ادانة مثل هذا الشخص يكون جزاؤه فى هذه الدنيا موت ، ودينونة مخيفة لروحه على جسر شنفات[1] .

---

(١) كان الشائع فى دين الفرس أن الارواح تقاد فى اليوم الثالث بعد الموت الى جسر شنفات حيث تحاكم ، فتصعد الصالحة الى عليين وتهبط الشريرة فى جهنم الى أسفل سافلين .

وذلك لأنه داس على القوانين والأوامر . وهو بارتكابه جرائم ثلاث قد فقد كل رحمة من قبل القانون الذى يقضى برد حياة المجرم اليه ان كان وقع فى الخطيئة مرة واحدة حتى ان كان هذا الرجل عبداً حقيراً . »

قال « اذن لقد استحق بردية الموت ، فخذوه أيها الجند واقتلوه . ابتعدوا به عنى . صه أيها التعس ، فلست مصغيا بعد الآن لذلك اللسان الناعم المرائى ، بل ولست أنظر مرة أخرى الى تينك العينين الخادعتين الخائنتين ، فانهما شيطانيتين تغويان بنظراتهما الساحرة كل انسان . امضوا به أيها الجند واقتلوه . »

فتقدم بسكن لينفذ الأمر ، وعندئذ انطرح كريسوس على قدمى الملك ولامست جبهته الأرض ، ورفع يديه قائلا « سعد الملك وطالت أيامه ونجحت مقاصده ، وأطالت الآلهة بقاءه وحفظت له عرشه . أى مولاى ! لا تسد أذنيك عن سماع كلمات الشيوخ ، واذكر أن أباك العظيم كورش قد جعلنى مستشارك . انك أمرت بقتل أخيك لكننى أوصيك أن لا تكون أسير غضبك وسجين أهواء الغيظ ، فمن واجب الملوك الحكماء يا مولاى أن يتبينوا الأمر قبل الحكم وانفاذه فحذار أن تسفك دم أخيك فيتصاعد منه دخان يرتفع الى السماء ، ويصبح سحابة تجعل أيام القاتل مظلمة حالكة وتصب على رأسه صواعق انتقام مهلكة . على أنى أعرف عنك يا مولاى الرغبة فى العدل لا الميل الى القتل ، فكن اذن كالقضاة يستمعون للخصوم ثم يصدرون الحكم . فان فعلت ذلك وثبت على المجرم اجرامه واعترف به ، فان دخان دمه يصعد الى السماء ظلا ظليلا لا سحابة سوداء قاتمة ، وتكسب بذلك شهرة القاضى العادل لا سخط الآلهة ومقتهم . »

فأصغى قمبيز الى كريسوس دون أن يعترضه ، ثم أشار الى بسكن فتراجع ، وأمر بوجيز أن يعيد اتهامه .

فانحنى الخصى أمام الملك وقال « اضطررت بسبب المرض أن أترك المصرية والحدائق المعلقة لعناية زميلى كاندول ، الذى أضاع حياته بسبب اهماله . وعند المساء شعرت بتحسن فى صحتى ووجدت نفسى خيرا منى فى الصباح ، فسرت تواً الى الحدائق لأرى هل كل شيء سائر كما يجب وعلى مقتضى الأوامر ، ولأشاهد تلك

الزهرة العجيبة عند ما تتفتح هذه الليلة . وقد أمر مولاى الملك — نصرته الآلهة — بتشديد الرقابة على المصرية لأنها اجترأت على أن ترسل الى النبيل بردية . . . »

فقاطعه الملك قائلا « صه وتكلم فى الموضوع . »

قال الخصى « دخلت الحديقـة وكان نجم الشعرى آخذا فى الظهور ، ومكثت هناك قليلا مع هؤلاء الأخيمينيين النبلاء ، وكان برفقتهم الـكاهن الأعظم والملك كريسوس ، وكنا نرقب تفتح الزنبقـة الزرقاء العجيبة الجمال والرواء . ثم ناديت بعدئذ زميلى كاندول وسألته بحضور هؤلاء الشهود العدول الأشراف هل كل شىء على ما يرام فأكد لى أن الأمر كذلك ، وأضاف اليه أنه قادم من لدن نايتيتيس ، وأنها مضت نهارها فى البكاء ، وأنها لم تذق طعاما ولا شرابا . فدفعنى خوفى عليهـا أن تسوء حالها الى أن أرسل كاندول فى طلب طبيب ، وكنت على وشك أن أترك الأخيمينيين النبلاء لأتحقق بنفسى حالتها الصحية ، واذ ذاك رأيت فى ضوء القمر شبح رجل . وكنت من الضعف بحيث لا أستطيع الوقوف ، فلم أجد أحداً قريبـاً منى سوى البستانى . أما رجالى فـكانوا بعيدين عنا يحرسون المداخل العديدة .

« فصفقت بيدى لأستدعى بعضهم فلم يحضر ، فاقتربت أنا نفسى من البناء تحت حماية هؤلاء الاشراف . وكان الرجل واقفا بالقرب من نافذة الشقة التى بهـا الاميرة المصرية . وبينما نحن كذلك صفر صفيرا منخفضا ، فظهر فى الحال شبح امرأة وضحت تمام الوضوح فى ضوء القمر ، وقفزت من النافذة وجاء بها نحونا . فلم أصدق عينى عند ما استكشفت أن ذلك الرجل لم يكن غير النبيـل بردية . وكان يحجبها عنـا شجرة تبين كبيرة على أننـا تمكنا من رؤيتهما بكل وضوح عند ما اجتـازانا على بعد أربع خطوات منـا . وفيما أنا أردد فى فكرى هل لى الحق فى القبض على ابن كورش نادى كريسوس بردية فاختفى الشبحان فجأة وراء شجرة سرو وليس سوى بردية يا مولاى من يستطيع أن يوضح لنا الطريقة العجيبة فى اختفائه ، وذهبت بعد ذلك تواً لتفتيش المنزل فوجدت المصرية منطرحة على مقعد فى مخدعها فاقدة الرشد . »

أصغى الكل الى هذه الحكاية وهم فى حيرة كبيرة ، وقرض قمبيز على أنيابه من

الغيظ ، وسأل بصوت متهدج قائلا « أتصادق على كلام الخصى يا هستاسب ؟ »

قال « بلى . »

قال « ولم لم تقبض على ذلك الذى عصى أوامرى ؟ »

قال « ما كنا يا مولاى شرطة ، وانما نحن جند أهل حرب ونزال . »

قال « بل قل انك تعنى بكل حقير فى الدولة أكثر مما تعنى بمولاك الملك . »

قال « معاذ الآلهة يا مولاى . اننا نحترم مولانا الملك ونمقت اليوم بردية بقدر ما كنا نحب فيما مضى البرىء ابن كورش العظيم . »

قال « وهل تبينت بردية تماماً ؟ »

قال « أجل يا مولاى . »

قال « وأنت يا كريسوس هل يسعك أن تنقض ذلك ؟ »

قال « كلا . بل أقول انه خيل الىَّ أنى رأيت أخاك فى ضوء القمر واضحاً كما أراه الآن ، ولكنى أعتقد أنه لا بد أن نكون قد خدعنا بآخر يشبه أخاك تمـام الشبه . »

واذ قال ذلك اصفر بوجيز ، غير أن قمبيز هز رأسه كأن الفكرة لم ترق لديه وقال « ومن أصدق بعـد الآن اذا كانت عيون خير رجالى تخدعهم ، ومن ذلك الذى يتطلع الى منصب القضاء اذا كانت شهادة أمثالكم لا تعتبر شهادة يعول عليها ؟ »

قال « هنـاك بينات وشهود أخرى لا تقل قوة ومتانة عما رأيت من بينات وشهود ، وذلك يثبت أننا كنا مخطئين مخدوعين . »

قال وقد خبط الأرض بقدمه « وهل من يجرؤ على أن يشهد لصالح ذلك الاثيم الموغل فى الاجرام ؟ »

فصاح أراسب ودارا وجيجيز وزو بيروس بصوت واحد قائلين « نحن نشهد . أنا . نحن . »

قال قمبيز « خانة حقراء مارقون . » واذ رأى عين كريسوس تحذره خفض صوته وقال « ما الذى عندكم من البينات لصالح صاحبكم هذا ؟ حذار مما ستنطقون ،

عقاب شاهد الزور . »

فقال أراسب « نحن نعرف ذلك جد المعرفة ، ونحن مستعدون أن نقسم بأننا ما تركنا بردية وما غادرنا حديقته لحظة واحدة منذ عدنا من الصيد . »

وقال دارا « وأنا دارا بن هستاسب أشهد الحق ، لا حانثا فيه ولا آثما ، ان أخاك برىء من هذه التهمة . فلقد رقبت معه طاوع نجم الشعرى ، وهو النجم الذى ظهر حسب قول بوجيز عند فرار بردية من الحدائق . »

فحملق هستاسب فى ولده وهو مأخوذ دهش ، واختلجه شك لدى سماعه هذه الكلمات ، وجعل قمبيز ينظر متفحصاً طورا الى شهود النفى وطورا الى شهود الاثبات ولم يستطع تصديق أولاء أو هؤلاء ، ولم يصل الى رأى حاسم .

وظل بردية حتى هذه اللحظة صامتا ينظر بحزن الى يديه المغلولتين ، فانتهز فرصة هذا السكوت وقال بعد أن حنى رأسه احتراماً وخضوعاً « هل يسمح لى مولاى الملك بالكلام ؟ »

قال « تكلم . »

قال « لقد أخذنا عن أبينا أن نسعى وراء كل طاهر طيب فقط ، ولم تشب حياتى حتى هذه الساعة شائبة شائنة أو رجس من عمل الشيطان . فلئن كنت تعرف عنى أنى اشتركت فى شر أو فحش أو ايذاء فلك الحق فى أن لا تصدق لى قولا ، ولئن كنت لا تجد فىّ وفى أعمالى غلطة واحدة فحق عليك اذن أن تصدق قولى . ثم اذكر أن ابن كورش يفضل الموت على الكذب . اننى لأعترف أنه لم يقف قاض مثل هذا الموقف المحير المدهش . فخير رجالات الدولة يشهد البعض منهم على البعض الآخر ، الصديق يشهد على صديقه والأب على ابنه . ولكنى أقول لك لو أن الفرس أجمعهم قاموا قومة واحدة ضدك ، وأقسموا بأغلظ الأيمان أن قمبيز قد أتى هذا الامر القبيح أو ذاك ، ثم قلت أنت انك لم ترتكب شيئاً ، فاننى أنا بردية أرمى فارس كلها بالكذب وأصيح بالفرس أجمعين : لستم شهودا عدولا وما أنتم الا كاذبين . لأقرب الى البحر أن يلفظ من جوفه ناراً من أن يسمح ابن كورش للسانه أن يخوض فى الاكاذيب : لا . لا . اننى واياك يا قمبيز من شرف

المولد وكرم المحتد بحيث لا يصح لغيرك أن يشهد ضدى ، بل ولا يصح لغيرك أن يشهد عليك . »

فلان وجه قمبيز عند سماعه هذه الكلمات ، وتابع أخوه القول قال « ولذا فانى أقسم لك بمثرا وبكل الملائكة الأطهار انى برىء . وددت لحياتى العدم والفناء من هذه الدنيا ان كنت أكذب حين أقول لك : ان قدماى ما وطئتا أرض الحدائق المعلقة منذ عودتى من التابورى . »

وكان صوت بردية ثابتاً رزيناً ولهجته حين أقسم كانت لهجة التأكيد ، فأمر قمبيز أن تفك عنه قيوده فى الحال ثم قال بعد تفكير قليل « اننى أميل الى تصديقك لأنى لست أحتمل أن أتخيل فيك أن تكون أسوأ النـاس وأردأهم وأبعدهم عن الانسانية . وغداً نستشير المنجمين والعرافين والكهنة فلعلهم يستطيعون استكشاف الحقيقة . أترى بصيصا من النور فى هذا الظلام يا أوروباست ؟ »

قال « ان عبـدك يا مولاى يظن أن شيطانا قد تشكل بصورة بردية ليهلك أخاك ويلطخ نفسك الطاهرة بدم ابن أبيك . »

فهز قمبيز رأسه واستصوب الجميع مقال أوروباست . وكان الملك على وشك أن يمد يده لمصافحة أخيه لولا أن حال بينه وبين ذلك دخول أحد حمـلة العصى يحمل خنجراً أسلمه الى الملك . وكان قد وجده أحد الخصيان تحت نوافذ مخدع نايتيتس . فتفرس قمبيز فى الخنجر ، وكانت قبضته مرصعة بالياقوت والفيروز . فلمـا أن تبينه امتقع وجهه ، ورمى به على الأرض بعنف أمام بردية فتنـاثرت حجارته الكريمة ، وتساقطت منه .

ثم صاح وقد تملـكته نوبة غضب شديدة « هذا خنجرك أيها التعس ، ولقد طعنت به صبح اليوم الخنزير الذى رميته . وأنت يا كريسوس تعرف هذا الخنجر لأن أبى أخذه من خزائنك فى ساردس . لقد ثبت أخيراً اجرامك أيها الكاذب الخاتل ، فالشياطين ليست فى حاجة الى أسلحة . ومثل هذا الخنجر لا يوجد فى كل مكان ولا يلتقط من كل مكان . أراك تبحث عنه وتناديه فى منطقتك . لك أن تصفار نخنجرك ليس موجوداً فيها ، أليس كذلك ؟ »

قال « أجل لقد أضعته . لابد أن يكون قد سقط منى أو أن عدوا . . . »

قال مقاطعاً « شد وثاقه ثانية يا بسكن . خذه الى السجن . الا بعداً للخائن ، ألا سحقا للحانث فى يمينه الحالف زوراً . غدا يجب أن يشنق . الموت عقاب الحنث بالايمان . أعناقكم أيها الجند أضربها ان فر منكم هؤلاء . لست أريد سماع شيء بعد الآن . عنى أيهـا الأنذال الائمة الخائنون . وأنت يا بوجيز أسرع الى الحدائق المعلقة ، وأحضر المصرية الىّ . ولكن قف ، لا تذهب . لست أريد أن أرى هذه الحية الرقطاء مرة أخرى . لقد قارب الفجر أن ينبثق ، وغداً عند الظهر تجلد علنا على قارعة الطريق حتى تموت . واذن أنا . . . »

وهنا انتابته نوبة صرع شديدة ، فسقط على الأرض مغشياً عليه . وفى تلك اللحظة العصيبة دخلت كاساندين البهو يقودها القائد ميجابيزوس الشيخ ، لأنهـا سمعت بما حدث فغـادرت حجرانها غير عابئـة بتأخر الوقت ، وقامت لفورها لتستكشف الحقيقة ، وتمنع ابنهـا عن التسرع فى الحـكم . وكانت واثقة تماماً من براءة بردية ونايتيتس ، وان تعذر عليها تفسير ما حدث . ولقد حاولت غير مرة أن تحادث نايتيتس فلم تستطع ، وأخيرا ذهبت بنفسها الى الحدائق المعلقة ولكن الحرس أبوا عليها الدخول .

وأسرع كريسوس لاستقبالها وقص عليهـا ما جرى ، تاركا كل التفصيلات المؤلمة ، مؤيداً لها اعتقادها فى براءة المتهمين ، وبعد ذلك ذهب بها الى سرير الملك .

لم يدم الاغماء طويلا هذه المرة . وكان الملك ينـام على سريره الذهبى مغطى بدثار من الحرير المطرز بالذهب ، أصفر الوجه تعبـاً . فجلست أمه العمياء بجواره ، ووقف كريسوس وأوروباست عند قدميه ، والأطباء الأربعة فى ناحية من الحجرة يتشاورون ويتباحثون همساً فى حالة المريض .

وشرعت كاساندين تستعطفه وتسترضيه متوسلة اليه أن لا يخضع لعاطفة الغضب وأن يذكر أن لمثل هذه السورة فى صحته أثراً سيئاً .

فقال الملك وهو يبتسم ابتسامة مرة « أجل يا أماه انك محقة ، فانه يجب علىّ أن أتخلص من كل شيء يثـير غضبى . وجب أن تموت المصرية ، ووجب أن يلحق

أخي الخائن بعشيقته . »

وبذلت كاساندين كل ما أوتيت من فصاحة لحمله على الاعتقاد ببراءة المتهمين ولتهدئة غيظه وغضبه ، غير أن كل ما بذلته من توسل ودموع ونصائح والدية لم يزحزحه عن عزمه قتل من سلبوه سعادته وهدوءه .

وأخيراً قطع عليها ندبها بقوله « أشعر أنني متعب منهوك جداً ، ولست أستطيع احتمال هذا العويل والندب بعد ذلك . لقد قامت الأدلة على اجرام نايتيتس وادانتها وشوهد رجل وهو يغادر مخدعها في ظلام الليل ، ولم يكن هـذا الرجل لصا بل كان أجمل فتى في فارس كلها ، وهو هو الرجل الذي اجترأت أن ترسل له خطابا بالأمس . »

قال كريسوس وقد اقترب من السرير « وهل عرفت محتويات ذلك الخطاب؟ »

قال « كلا فهو مكتوب بالإغريقية . لقد استعملت الخائنة في كتابهـا لغة لا يعرف أحد في بلاطي قراءتها . »

قال « هل تأذن لي بقراءة هذا الخطاب . »

فأشار قمبيز الى صندوق صغير من العاج وضع فيه ذلك الـكتاب المشئوم وقال « انك واجده هناك فاقرأه ، ولـكن اياك أن تخفي أو تغير كلمة واحدة ، لأنني غداً سأدعو لقراءته مرة أخرى رجلا من تجار سينوب . »

وعند ذلك انتعشت آمال كريسوس ، وخيل اليه أنه عاد للحيـاة مرة أخرى حينما أمسك الورقة بيديه . فلمـا قرأها غصت عيناه بالدموع وقال ، بصوت خافت « ما كانت خرافة باندورا الا حقيقة واقعة . لست بعد الآن أحمل في نفسي ضغناً لهؤلاء الشعراء الذين شنوا الغارة في شعرهم على النساء . واأسفاه انهن جميعاً كاذبات خائنات . يا لخداع الآلهة لنا يا كاساندين ! لقد منحتنا الآلهة نعمة التقدم في السن لترانا عراة كالشجر في فصل الشتاء ، ولتثبت لنا أن ما ظنناه ذهبـا نفيسا لم يكن الا معدنا خبيثاً ، وان ما خلناه ترياقا لم يكن الا سما زعافا . »

فعلا نحيب كاساندين ، وشقت ثيابها ، وأطبق قمبيز قبضته حينما قرأ له كريسوس ما يأتي : —

« من نايتيتس ابنة أماسيس ملك مصر الى بردية بن كورش العظيم . أريد

أن أدلى اليك بأخبار هامة لا أستطيع الادلاء بهـا لغيرك . ولهذا أرجو أن أراك غدا فى حجرات أمك . واعلم أن فى وسعك عزاء قلب حزين أضناه الهوى ، فتمنحه لحظة سرور قبل الموت . عندى الكثير من الأخبار أريد البوح بها اليك ومنها بعض الأنباء المحزنة . أعيد عليك أنه لا بد لى أن أراك سريعاً . »

وهنـا ضحك الملك ضحكة يأس سحقت قلب أمه ، فانحنت عليه تقبله فمنعها قائلا « انه لشرف مشكوك فيه يا أماه أن أكون أحد بنيك ومن تعزين . ان بردية لم ينتظر أن ترسل اليه هـذه المرأة الخادعة تدعوه مرة أخرى ، ثم شان نفسه بالقسم الغموس . وقد لحق بسببه صحبه ، وهم زهرة شبابنا ، عار لا يمحى . وبسببه صارت أحب بناتك اليك . . . ولكن لا . ان بردية لم تكن له يد فى افساد هذه المرأة الخبيثة الشيطانية . لقد كانت حياتها كفراً وجحودا وخداعاً ، وسيعلم الناس من موتها أن قمبيز يعرف كيف يعـاقب . والآن اليكم عنى لأنى أريد أن أظل وحدى . »

وما كادوا يتركون الحجرة حتى نهض من سريره واقفا ، وجعـل يروح و يغدو فى الحجرة كالمجنون ، وظل كذلك الى أن سمع أول صيحات الديك . والديك مقدس عند الفرس . فلمـا أشرقت الشمس ارتمى على سريره مرة أخرى ، وكان فى نومه أقرب الى المغشى عليه منه الى النائم .

* * *

وفى خلال ذلك كتب بردية فى سجنه خطابا الى صافو يودعها فيه ، وجلس هو وصحبه ومعهم الشيخ أراسب يحتسون النبيذ .

قال زو بيروس « فلنمرح ففى اعتقادى أنه حان حيننا ودنت منيتنا . أراهن بحياتى أننا غدا سنكون فى عداد الأموات ، فاحمدوا الآلهة أن ليس لكل منـا الا عنق واحد . ولو كان لكل منا اثنان ما كنت أحجم عن الرهان ، بقطعة أوقطعتين من الذهب ، على بقائنا فى هذه الحياة . »

قال أراسب « لقد صدق زو بيروس ، فلنمرح الليلة ولنبعد عن أعيننا الكرى فتبقى مفتوحة ، اذ أنها عن قريب سوف تغمض الى الأبد . »

قال جيجيز « ليس لأحدنا أن يحزن للقاء حتفه وهو برىء براءتنا ، فاملأ أيها الساقى الأقداح . »

قال زوبيروس وقد رأى دارا وبردية يتحدثان « بردية ودارا معاً ! لقد عدتما الى أسراركما مرة أخرى . الينا ، الينا وشاركانا فى احتساء الخمر . ما رغبت وحق مثرا قبل اليوم فى الموت ، ولكننى الآن أتطلع الى عزريل وأرحب بمقدمه لأنه سينتزع منا أرواحنا معاً . ان زوبيروس ليفضل الموت مع صحبه عن أن يعيش دونهم . »

قال دارا « ولكن المهم الساعة أن نحاول تفسيراً لما حدث . »

قال زوبيروس « سيان عندى مت بتفسير لما حدث أو بدونه ، ما دمت أعلم أنى برىء وأنى لا أستحق عقاب شهادة الزور . اجتهد أن تجيئنا بأقداح من ذهب يا بسكن ، فان الخمر غير سائغة الطعم فى هذه الكؤوس النحاسية . ان قمبيز بلا شك لا يرغب أن نشكو عوزا فى أواخر ساعاتنا ، وان كان قد منع آباءنا وصحبنا من زيارتنا . »

قال بردية « ليس الفلز هو الذى يكسب الخمر المرارة ، وانما الموت الذى ينتظرنا هو الذى أكسبها هذا الطعم . »

قال زوبيروس « كلا فلست محقا فيما تقول . أرانى نسيت أن الشنق يحدث الوفاة . » واذ قال ذلك غمز جيجيز وأسر اليه قائلا « كن فرحا بشوشا بقدر ما تستطيع ألا ترى أن بردية آلم لفراق هذه الحياة الدنيا ! ماذا تقول يا دارا ! »

قال « أقول انى أظن أن رأى أوروباست هو الصواب المعقول — ان شيطانا قد تشكل بصورة بردية وزار المصرية لكى يكون من وراء ذلك هلاكنا . »

قال « هراء وجنون . لست أصدق مثل ذلك . »

قال « ولكن ألا تذكر أسطورة الشيطان الذى ظهر للملك قاووس بشكل أحد المغنيين المطربين الحسان الوجوه ؟ »

قال أراسب « نعم أذكرها ، ولطالما طلب كورش أن تُغنّى له هذه الأسطورة فى الولائم حتى أنى استظهرتها ؟ أتريد سماع القصة ؟ »

فصاح به الكل « أجل ، أجل ، نريد استماعها . »

فسكت أراسب لحظة ثم ابتدأ في ذكرها ، بين غناء وترديد ، مخبرا اياهم كيف أن قاووس هذا أصبح ملكا كبيرا خضع له العالم أجمع ، وكيف أنه شمخ بأنفه كبرا وعاوا وعتوا حينما خضع له العالم وحينما رأى الكنوز والتحف مكدسة حول عرشه ، بين سلاسل ذهبية ، وعقود لؤلؤية ، وتاج ذهبي درى يلمع ويسطع ، وخيل هي أكرم الخيل جئ له بها من طاسير Thasir . فلما أن جلس يوماً للشراب في أيكة من الورود غشيت بالذهب ، ظهر لأحد رجال حاشيته عفريت في شكل مغن واستأذنه في الدخول على الشاه قائلا « انني مغن من ماسندران[1] ، فان راق للشاه أن يسمح لي بالاقتراب من عرشه فليأمر . » فأمره قاووس أن يقترب ويأخذ مكانه بين جماعة المغنيين المنشدين . فمثل اذ ذاك أمام الملك ، ثم ضرب على قيثارته وغنى غنوة عن أرض ماسندران الجميلة قال : —

« شكراً لبلادي ماسندران ، فالخيرات في مراعيها والبركات في جنانها حيث الورود والرياحين دائمة الازهار ، وحيث الطواليب وشقائق النعمان غضة متفتحة فوق تلالها . شكراً لبلادي فهواؤها أبدا نقي ، وحقولها دائما خضراء ، وربيعها مستديم لا يطرده صقيع البرد ولا حرارة القيظ . شكراً لبلادي فالبلابل دائم الغناء فيها ، والوعل دائم العدو في أرضها فوق تلالها وبين وديانها ، والهواء عبق بشذى العطور ، والعين لاترى فيها الا زهيّ الألوان . وفي أنهارها تجرى مياه حلوة يبعث أريجها في القلوب فرحا وسرورا ، ويزهر سوسنها خلال بهمان وآدور وفروردين ودى (مايو ومارس ويوليه وابريل) ، فلا تذوى له نضرة ولا يذبل ولا يموت . اما ضفاف أنهارها وجداولها فيانعة خضراء طول السنة ، فيها يجد الصياد البزاة والصقور سهلة المنال قريبة الصيد . شكراً لبلادي فاللآلئ منثورة في طولها وعرضها ، وذهبها وحريرها مبعثران في كل مكان ، وكهنتها يلبسون أكاليل من ذهب ، ويلبس أشرافها مناطق نسيجها الذهب الدقيق . وهي في الجملة مرتع السرور ، فمن داس أديم تربتها لقي أعظم سرور في هذا العالم . »

« فوعى قاووس هذه الكلمات ، وأسرع الى ماسندران ، وهناك قهرته الشياطين ، وأفقدته البصر . »

قال دارا « ولكن البطل العظيم رستم جاء وهزم ارشنج ومن معه من الشياطين ثم أطلق سراح الأسرى ، وأرجع البصر لكل من فقده وذلك بأن قطر لهم في عيونهم من دم الشياطين المذبوحة . وكذلك سيكون الحال معنا أيها الاخوان .

---

(١) مقاطعة في شمال ايران خصبة التربة اشتهرت بأنها مأوى الشياطين.

سيتك اسارنا ، وستتفتح عينا قمبيز وعيون آبائنا العميان المخبولون ليروا براءتنا . أصغ يا بسكن ! انه ان كنا حقا سنعدم فاذهب الى المجوس والكاذبين ونبنخارى المصرى ، وقل لهم عنى : أولى بهم أن يتركوا بعد الآن رصد النجوم ، لأن هذه نفسها قد برهنت لدارا أنها كاذبة مخادعة . »

قال أراسب « أجل فلطالما قالت ان الرؤى ليست الا نبؤات حقة . وقبل أن يسقط أبراداتاس قتيلا فى معركة سارديس رأت بانثيا فى نومها أن قد أصابه سهم ليدى . »

قال زوبيروس « ما أقساك يا أراسب اذ تذكرنا الساعة بأن الموت فى ساحة الوغى أشرف من أن تضرب أعناقنا على هذه الصورة . »

قال « لقد صدقت وانى لاعترف أننى رأيت الكثير من أنواع الموت ، وكلها فى نظرى أفضل من ذلك الموت الذى ينتظرنا — بل وأفضل فى الحقيقة من الحياة نفسها . ايه يا ابتاه لقد مر زمن كانت الأمور تجرى فى مجرى خير من مجراها الحالى . »

قال دارا « أذكر لنا شيئا عن ذلك الزمن . »

وقال زوبيروس « وقل لنا لماذا لم تتزوج فلن يضيرك أن نبوح بسرك فى الآخرة . »

قال « لا سر ولا شىء . وكان بوسعكم أن تقفوا على ما تريدون منى الآن من أحد آبائكم . أصغوا الىّ اذن . كنت فى صغرى ألهو بالنساء وأمرح معهن ، وكنت أضحك من الحب وأسخر من فكرته . وحدث يوماً أن بانثيا ، وهى أجمل نساء عصرها ، وقعت أسيرة فى أيدينا . فوكل كورش أمرها الىّ لأنى طالما فخرت بأن قلبى منيع مصون مغلق عن الحب . وكنت كل يوم أراها ، فعلمت أيها الاخوان أن الحب أقوى من ارادة الرجل ، بل ويغلبه على أمره . ولقد رفضت هى كل ما كنت أقدمه لها ، وأغرت كورش باقصائى عنها ، وأن يرضى زوجها أبراداتاس حليفاً له . فلما نشبت الحرب وأوقد كورش نارها ، وأراد زوجها الجميل أن يخوض غمارها لنصرة حليفه ، حمّلته هذه المرأة الأمينة ذات العقل الراجح بكل ما تملك من لؤلؤ ودر ،

قائلة له ان مسلك الشرف الذى سلكه كورش فى معاملتها وهى أسيرة لا يمكن أن يقابل بغير الولاء المكين له و بذل كل شجاعة و بطولة فى نصرته . فوافقها أبراداتاس ، وحارب من أجل كورش كالأسد الرئبال حتى سقط فى الميدان مستشهدا كالأبطال . فقتلت بانثيا نفسها بجوار جثته . ولما سمع خدمها بذلك قصدوا قبرها وهناك انتحروا حزنا على سيدتهم . ولقد بكى كورش طويلا ذينك الزوجين الشريفين وحزن عليهما كثيرا ، وأقام لهما ضريحا فى سارديس ذكرى لها ، وكتب عليه هذه الكلمات البسيطة (ذكرى لبانثيا وابراداتاس أشد أتباعى ولاء واخلاصا .) ومن ثم تستطيعون أن تدركوا يا أبنائى أن الرجل الذى أحب هذه المرأة لا يمكنه أن يعنى أو يفكر بغيرها . »

فأصغى الكل وهم سكوت ، وظلوا واجمين فترة بعد أن أتم أراسب حديثه ، وأخيراً رفع بردية يديه الى السماء وقال « عفوك يا أورامزدا العظيم ، لم لا تمنحنا ميتة شريفة مجيدة كابراداتاس؟ لم تقدر علينا هذه الميتة المخزية كأننا قتلة سفاكون للدماء؟ »

واذا كريسوس يدخل عليهم مغلول الأيدى يقوده حملة السياط . فهرع اليه صحبنا يستفسرون ويسألون . وذهب بردية لمعانقة من كان له مرشدا ومعلما زمنا طويلا . غير أن وجه كريسوس البشوش كان عابسا متجهما ، وكانت عيناه تنمان عن حزن وكآبة ، وكان منظره فى الجملة يهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور . فدفع عنه الأمير بفتور وقال بصوت يرجف ولهجة صارمة « دع عنك يدى أيها الغر المفتون فما كنت مستحقا منى ذلك الحب الذى أشعر به نحوك . لقد خدعت أخاك ، وغررت بصحبك ، وخنت عهد تلك الفتاة المسكينة التى تنتظرك فى نقراتس ، وسممت قلب ابنة أماسيس البائسة التعسة . »

أصغى بردية اليه فى سكون ، ولكنه حين سمع كريسوس يقول له « خدعت » أطبق يديه وخبط الأرض بقدميه ، وصاح به مغضبا « لولا سنك أيها الشيخ ، وضعفك و بقية من الاحترام وعرفان الجميل أحفظها لك بين جنبى ، لكانت هذه الكلمات الجارحة آخر كلماتك . »

سمع كريسوس قول بردية الذى دفعه الغضب اليه فلم يتحرك وأجاب « هذه

الحماقة تدل على أن الدم الذى يجرى فى عروق قمبيز يجرى فى عروقك أنت أيضا . أحرى بك أن تندم على ما ارتكبت من آثام ، وأن تسأل صاحبك الشيخ عفوه ورضاه عنك ، لا أن تضيف نكران الجميل الى جرائمك المزرية . »

واذ ذاك زال عن بردية الغضب ، وسقطت يداه المنقبضتين الى جانبيه ، وعلت وجهه صفرة كصفرة الموت. فالآن هذا الحزن العميق قلب الشيخ وخفف من غضبه ، ولقد كان حبه لبردية شديدا فكاد يعانق بردية المذنب كما كان يعانق بردية البرىء ، ولكنه أمسك بيده ونظر اليـه كما ينظر الوالد الى ابنه الجريح فى الميدان ، وقال « خبرنى أيها المسكين المفتون كيف أن قلبك النقى الطاهر قد خضع بسرعة الى الشر ومال عن طريق الخير ؟ »

فارتجف بردية ، وتصاعد الدم الى وجهه المصفر ، وسحقت هذه الكلمات قلبه ، وكفر لأول مرة بعدل الآلهة . وما وسعه الا أن قال انه ضحية قدر قاس شديد ، وانه يرى نفسه كالحيوان المطارد المحرج سدت عليه المسالك والمنافذ ؛ فوقف يستمع صراخ الصيادين ونباح الكلاب وقد أحدق به الكل .

وكانت نفسه حساسة تشبه فى رقتها نفس الطفل الصغير ، فلم يستطع احتمال ضربات القدر الشديدة . وكان قد درب جسمه وعضلاته على مقابلة الأعداء جسما لجسم ، فلم يعلمه أساتذته كيف يقابل شدائد الحياة ومرائرها . وهل كان يظن أحد أن قمبيز و بردية قد يقعان عرضة لشدة قاتلة ؛ وهل كان يخطر ببال أحد عنهما الا أنهما يمرحان أبدا فى بحبوحة السعادة ، و يكرعان كأس السرور حتى الثمالة ؟

ولم يحتمل زو بيروس أن يرى صديقه غرقا فى دموعه ؛ فأنحى على كريسوس لوما وتأنيباً لظلمه وقسوته . ونظر جيجيز الى أبيه يرجو و يستعطف ، ووقف أراسب بينهما كى يذب عن الفتى و يدفع عنه غضب الشيخ وتماديه فى ايذائه والنيل منه ، وهو قد أفعم قلبه حزنا وهماً . وأما دارا فانه لازم الصمت مدة وجعل يرقبهم ثم اقترب من كريسوس بكل تأن وتؤدة وقال « انكم ماضون فى ايلام بعضكم البعض والمتهم لا يدرى بنوع تهمته ، والمدعى لا يستمع لدفاع المتهم عن نفسه . فقل يا كريسوس ، بحق الصداقة التى بيننـا حتى اليوم ، ما الذى دفعك لأن تحكم على

بردية هذا الحكم القاسى ، فى حين أنه لم يمض طويل وقت عليك كنت تعتقد فيه براءة بردية ؟ »

فأدلى الشيخ اليهم فى الحال بما طلبه دارا . قال لهم انه رأى خطابا من نايتيتس مكتوباً بخطها ، وفيه تعترف لبردية مباشرة بحبها له ، وتسأله أن يقابلها فى خلوة . أما شهادة عينيه وأعين أكبر رجالات الدولة ، والخنجر الذى وجد تحت نوافذ نايتيتس ، فلم تكن عنده دليلا قاطعاً على ادانة بردية ، ولكن وقع هذا الخطاب على قلبه كان كالصاعقة ، فذهب بالبقية الباقية من ثقته فى عفاف النساء وطهرهن .

وختم كلامه قائلا « لقد تركت الملك وأنا معتقد تمام الاعتقاد أن هناك علاقة غير شريفة بين صاحبكم و بين الأميرة المصرية ، التى كنت أعتقد أن قلبها مرآة للطيبة والشرف والجمال فقط . فهل تجدوننى مخطئاً فى لومى ذلك الذى لطخ هذه المرآة النقية ، وشان معها نفسه وكانت لا تقل عنها نقاوة وطهراً ؟ »

قال بردية وهو يضرب كفاً على كف « وأنى لى أن أثبت براءتى ؟ لو أنك كنت تحبنى حقاً لصدقتنى ، ولو أنك كنت حقيقة تعنى بأمرى . . . »

قال كريسوس « اننى فى محاولتى انقاذ حياتك منذ بضع دقائق قد دفعت بحياتى الى العطب . فاننى حين سمعت أن قمبيز قد اعتزم موتك تماماً أسرعت اليه ، وألححت فى الرجاء . ولكن ذهب كل رجاء لى عبثا ، فاجترأت على تأنيبه وتعنيفه بشدة وهو فى حالة غضب شديدة ، فانقطع حبل صبره الواهن ، وأمر الجند وهو فى سورته تلك أن يضربوا عنقى فى الحال . فقبض علىّ جف ، وهو أحد حملة السياط على الفور . واذ كان الرجل مدينا لى بالكثير أرجأ التنفيذ الى الصباح ، و بذلك أبقى على حياتى ، معتزماً اخفاء أمر تأجيل التنفيذ . وكم أنا مسرور يا أبنائى لأنى لن أعيش بعدكم فسأموت بجانب المذنب وأنا البرىء الذى لم يجترم جرماً . »

فأثارت هذه الكلمات الأخيرة مثاراً آخر للخلاف .

وظل دارا ساكنا هادئا وسط هذه الجلبة . وأعاد ثانية حكاية المساء كلها ليبرهن على أنه من المستحيل على بردية أن يكون قد ارتكب هذه الجريمة المتهم بها . ثم دعا المتهم ليدرأ عن نفسه تهمة الخيانة ونكث العهود ، فدفع بردية عن نفسه كل فكرة

ترمى الى وجود صلة بينه وبين نايتيتس ، ودعم حججه المقنعة بيمين محرجة ، فتزعزع اعتقاد كريسوس فى ادانته ثم زال بتاتا . ولما أن أتم بردية كلامه تنفس كريسوس طويلا ، كأنما ألقى عن عاتقه حملا ثقيلا ، ثم ضم الفتى الى صدره .

ولكنهم لم يستطيعوا الوصول الى حقيقة ما حدث ، غير أنهم أجمعوا الرأى كلهم على أن نايتيتس أحبت بردية وانها كتبت اليه هذا الخطاب طوعا لسوء نواياها ومقاصدها .

وقال دارا « ان كل من رآها ساعة أعلن قمبيز أن بردية قد اختار لنفسه زوجة لا يشك لحظة فى أنها تهواه . ولقد سمعت أبا فايديم يقول حين سقط الكأس من يدها انه يرى أن للمصريات غراما يهوى أشقاء أزواجهن . »

وفيما هم يتحدثون أشرقت الشمس فأضاءت أشعتها سجنهم .

ملك الفرس

نقلا عن كتاب Historian's History of the World

فهمهم بردية يقول « ان مثرا يريد أن يزيد موتنا شدة . »

قال كريسوس « كلا بل انه يضىء سبيلنا الى الأبدية شفقة منه وحنانا علينا . »

الفصل العشرون

ظفر بوجيز

أما البرئية التى كانت سبباً فى كل تلك المتاعب والصعاب فقد مر عليها منذ وليمة عيد الميلاد ساعات كلها تعاسة وشقاء . و بعد تلك الكلمات القاسية التى شيعها بها قمبيز من المهرجان لم تسمع شيئاً عن حبيبها الغاضب أو عن أمه أو أخته . فلم يمض يوم منذ مجيئها الى بابل الا وكانت تقضيه مع كاساندين وآتوسا ، ولكنها اذا ما رغبت فى الذهاب اليهما لكى توضح لهما سر سلوكها الغريب فى تلك الليلة ، فان حارسها الجديد كاندول كان يمنعها بنانا من أن تغادر مخادعها . وكانت تظن أن خلاصة وافية واضحة للخطاب الذى جاءها من مصر تذهب بكل تلك المأساة ، وتعيد الأمور الى مجاريها . ولقد خيل لها أنها رأت قمبيز ماداً نحوها يده يسألها الصفح عن تسرعه وعن غيرته الجنونية . وسرى اذ ذاك الى قلبها نوع من السرور لدى تذكرها جملة سمعتها مرة من ابيكوس وهى « كما أن الحمى تكون أشد وطأة على الرجل البدين القوى منها على الأعجف الضعيف ، فكذلك الغيرة يكون فتكها بقلب العاشق الواله أشد منه بالخلىّ الذى مس الهوى قلبه مسا سطحيا . »

فاذا كان هذا الرجل الخبير بالحب محقاً فان حب قمبيز لها لا بد أن يكون شديداً ، والا ما كانت تصل الغيرة الى قلبه بهذه السرعة و بهذه الشدة . ولقدشاب هذه الثقة فى حب قمبيز لها أفكارٌ محزنة عن بلادها ، و بعض الشعور بويل قادم ومصاب داهم ، فلم تستطع لنفسها فكاكا من هذه الآلام . وجاء وقت الظهيرة ، وتوسطت الشمس كبد السماء تبعث فى الجو أشعتها المحرقة ، ولكن لم يصلها نبأ عمن أخلصت لهم الحب والولاء ، فاعتراها قلق شديد جعل يتزايد كلما اقترب الليل . وعند الغروب جاءها بوجيز وأخبرها ، وهو يتهكم تهكما مرا ، أن خطابها الذى أرسلته لبردية وقع فى يد الملك ؛ وأن ابن البستانى الذى كلف بايصاله قد أعدم . فلم تستطع أعصاب الأميرة ، وكانت ثائرة مضطربة متعبة ، احتمال هذه الضربة الجديدة

فأغمى عليها . وقبـل أن ينصرف بوجيز حملها وهى فاقدة شعورها الى مخدع نومها ، وأغلق عليها الباب اغلاقا محكما .

ووقف بعد ذلك بزمن قصير رجلان ، شيخ وفتى ، عنـد الباب السرى الذى فحصه بوجيز من يومين . فولج منـه الفتى ووقف الشيخ رابضا عنـد سور القصر . ثم شوهدت يد تشير الى الفتى من النافذة ، فأطاع الاشارة وقفز الى الطنف ثم دخل الى الحجرة و بعـدئذ تبودلت كلمات الغرام ، وسمع اسما جوماتا وماندين يترددان همسا . أما القبـلات والوعود فكانت تعطى وتؤخذ وأخيراً صفق الشيخ بيديه ، فأطاع الفتى وعانق وصيفة نايتيتس وقبّلها مرة أخرى ، ثم قفز من النافذة الى الحديقة وأسرع فى سيره ماراً بالقادمين لرؤية الزنبقة الزرقاء ، فولج هو وزميله الباب السرى المفتوح ثم أغلقاه بدقة وتواريا .

وأسرعت ماندين الى الحجرة التى اعتادت سيدتها أن تقضى فيها ليلها . وكانت ماندين قد وقفت تماما على عاداتها ، وعرفت انها فى كل مساء عنـد طلوع النجوم فى السماء اعتادت أن تذهب الى النافذة المطلة على الفرات ، وهناك تصرف الوقت محدقة نظرها الى النهر تارة والى السهل أخرى ، وانها فى هذا الوقت لا تكون فى حاجة لخدمتها ، ولذا فقد أمنت ماندين أن يراها أحد فى هذه الشقة ، وشجعها على انتظار حبيبها فيها اعتمادها على حماية كبير الخصيان لها .

وما كادت تستكشف أن مولاتها فى اغماء حتى سمعت لغطاً يملأ الحديقة ، وأصوات رجال وخصيان مختلطة ، ثم صوت البوق نفخ فيه لتنبيه الحراس . فخشيت فى مبـدأ الأمر أن يكون حبيبها قد انكشف أمره ، ولكن ظهور بوجيز فجأة وقوله لها بصوت منخفض انه فر آمنـاً مطمئناً ، جعلها تنـادى الوصيفات الاخر وكانت قد أمرتهن بالذهاب الى حجرات النساء خلال المقابلة ، فعدن اليها ثانية ، وأمرتهن أن يحملن مولاتهـا الى سريرها ، و بدأت تعالجها بكل أنواع العلاج التى تعرفهـا كى ترد اليها شعورها . وما كادت نايتيتس تفتح عينيها حتى دخل بوجيز يتبعه اثنان من الخصيان وأمرهما أن يقيدا يديها الرقيقتين وذراعيها الجميلين بالقيود والأغلال .

خضعت نايتيتس ولم تفه بشيء حتى لدي مخاطبة بوجيز لها قائلا لدى مغادرته

الحجرة « قرى عينـاً فى محبسك يا حمامتى الصغيرة المسجونة . لقد أخبروا مولاى الملك زوجك أن خطافاً ملـكياً كان يمرح ويلهو فى برجك . وداعاً واذكرى بوجيز المسكين المعذب حين ترطب برودة الأرض حرارة جسمك . أجل يا حمامتى الصغيرة فالموت يعلمنـا كيف نتبين أصدقاءنا الحقيقيين ، ولذا فانى لن أتركك تدفنين فى كيس خشن من الكتان بل فى ملاءة من الحرير الناعم الأملس . وداعاً يا عزيزتى . »

فارتجفت الفتاة المسكينة المنكوبة لدى سماعها هذه الكلمات ، ولما خرج الخصى سألت ماندين أن تخبرها بمعنى ذلك كله . فقالت لها الفتاة — بارشاد بوجيز — ان بردية جاء خفية الى الحدائق المعلقـة ، وقد رآه عدد كبير من الأخيمينيين حينما كان يهم بالدخول من احدى النوافذ : وقد علم الملك بخيانة أخيه ، والناس يخشون أن تدفعه غيرته الى ما لا تحمد عقباه . وكانت دموع الفتاة تهطل أثنـاء حديثها فظنت نايتيتس أن بكاءها دليل اخلاصها وعطفها عليها ، فسرها منها ذلك .

ولما انتهى الحديث نظرت نايتيتس الى قيودها نظرة اليأس والقنوط ، ومضى عليها بعد ذلك زمن طويل قبل أن تدرك هول موقفها . ثم قرأت ثانيـة الخطاب الوارد اليها وكتبت على ورقة صغيرة هاتين الكلمتين « انى بريئة . » وبعدئذ طلبت الى وصيفتها الباكية أن تسلم ، بعد موتها ، الخطاب والورقة الى أم الملك . ثم أمضت ليلهـا ساهرة ، وبدأ الليل لها طويل الأمد لا نهاية له . وأخيراً ذكرت أن فى صندوق عطورها وزينتها نوعاً من دهان لتحسين بشرة الوجه ، وهذا الدهان سم زعاف اذا أخذ منه مقدار كاف . فأمرت باحضار هذا السم وعزمت وهى هادئة أن تتناوله قبيل أن يبدأ الجلاد بالتنفيذ فيهـا . ومن ثم بدأت تستشعر من نفسها سروراً حين جعلت تفكر بساعتها الاخيرة ، ساعة أن تفارق هذه الحياة . قالت فى نفسهـا « حقـاً انه قاتلى ، ولكنه يقتلنى بسبب هواه لى . » ثم خطر لها أن تكتب اليـه وتعترف له بكل حبها له . ولكنه لا بد أن يتسلم الخطاب بعد موتهـا حتى لا يظن أنها انما كتبته طمعاً فى النجاة بحياتها . وكان أملها فى أن ذلك الرجل الصلب الذى لا يلين قد يبكى عليها ويندبها ، اذا ما جاء على آخر اعترافاتها بهواه ، باعثاً على سرورها .

وعلى الرغم من قيدها الثقيل استطاعت أن تكتب له ما يأتى « ليس لقمبيز أن يتسلم خطابى هذا الا بعد موتى . وانى ما أردت به سوى أن أخبره أننى أحببته أكثر من الآلهة ومن الدنيا — أجل بل وأكثر من الحياة ، وأنا لازلت فى مقتبلها. وأما كاسانديت وآتوسا فلى عليهما أن تذكرانى و تترحما علىّ . وستعلمان من الخطاب الوارد لى من أمى أننى بريئة ، وأننى من أجل أختى المسكينة تاخوط رغبت فى لقاء برديه . ولقد أخبرنى بوجيز أنه قدبت فى أمر موتى ، ولكننى سأقتل نفسى اذا ما اقترب الجلاد منى . وانى أرتكب هذه الخطيئة يا قمبيز ضد نفسى كى أنقذك من اتيان أمر شائن فيه منقصة لك . » .

ثم أعطت هذه الورقة والخطاب الوارد لها من أمها الى ماندين الباكية ، ورجتها أن تعطيها الى قمبيز وانما بعد موتها . وبعد ذلك جثت راكعة تصلى لآلهة آبائها مبتهلة اليهم أن يصفحوا عنها و يغفروا لها ردتها وكفرها بهم . »

وتوسلت اليها ماندين أن ترفق بضعفها وتتلمس الراحة بالنوم فأجابتها « أرانى فى غير حاجة للنوم فليس لى من اليقظة ، كما تعلمين ، الا قليل . » .

ولما عاودت الصلاة وانشاد أغانيها المصرية القديمة ، توجه قلبها شيئاً فشيئاً الى آلهة آبائها الذين أنكرتهم بعد جدل يسير . ولم تكن صلواتها تخلو من اشارة الى الحياة بعد الموت ، فى العالم الباقى ، فى مملكة أوزيريس حيث يحكم الاثنان والاربعون قاضياً على الروح بعد أن تكون قد خبرتها المعبودة تحوت ، الهة الصدق ، التى تشغل منصب الكاتب المسجل فى السماء . فهناك تستطيع أن تمنى نفسها بملاقاة من أحبت ثانى مرة فى حالة ما يبقى جسمها ، وهو مرتع روحها ، محنطاً مصوناً بعيداً عن الفساد ، الا اذا لم تبرر روحها للقضاة مسلكها فترغم على التقمص داخل جسوم حيوانات أخرى مختلفة . ولقد فزعت أيما فزع لشرط بقاء الجسد بعد الموت وقد انطبع فى ذهنها منذ الصغر أن مصير الروح يتوقف على حفظ الجسد ، وهو ذلك الجزء الذى يبقى من الانسان فى هذا العالم بعد الوفاة . وتمكنت منها العقيدة المخطئة التى بسببها بنيت الاهرام ونحتت الصخور ، فسرت فى مفاصلها رعدة عند ما خطر لها أن جثتها سوف ترمى ، حسب الطقوس الفارسية ، فى العراء تنهشها

الكلاب الجائعة والبزاة من الطيور الجارحة ؛ وهكذا تلعب بها قوى الفناء والعدم فتحرم روحها من كل أمل لها فى الحياة الأبدية الباقية . و بعدئذ خطر لها ان تثبت اخلاصها لآلهة آبائها مرة أخرى فتجثو أمام ملائكة النور هذه الذين يعيدون أجساد الموتى الى عناصرها الأولى و يقاضون الروح فقط . ولذا بسطت يديها الى الشمس العظيمة الكبيرة ، التى بدت بأشعتها الذهبية الشبيهة بالسيوف الضباب الذى كان يعلو نهر الفرات . ثم فتحت فاها لتغنى الاناشيد المجوسية الجديدة تمدحاً بمترا . ولكن صوتها خانها هذه المرة . فبدلا من أن ترى مثراً رأت الهها العظيم رع الذى طالما عبدته فى مصر ، و بدلا من أن تغنى أنشودة مجوسية طفقت تغنى أنشودة مصرية اعتاد كهنة المصريين أن يحيوا بها الشمس المشرقة . وهذه هى الانشودة : —

« خروا سجداً وجثياً أمام أكبر الآلهة ، ابن السماء ، رع العظيم ، اركعوا له فهو بما رزق من قدرة يخلق نفسه ، فيتلقاه الصبح كل يوم مولوداً جديداً . المجد لرع الذى يسبح فى السموات فوق البحار فينشر الخصب والسعادة والرفاهية . أنت الذى خلقت كل هذه الكائنات فى الارضين والسموات ، وأنت الوصى الذى يبعث بأشعته الفاترة الحياة الى أصحاب القلوب النقية الطاهرة . المجد لك أيها المعبود رع ! انك حين تسير بأشعتك فى السموات ذات الزرقة الصافية ، ترجف كل الآلهة لدى اقترابك خشية وسروراً منك يا رع ، يا ابن السماء . » (١)

بعثت هذه الانشودة العزاء والسلوى فى قلبها . ولما أن نظرت الى الضوء الضئيل الذى لم تكن أشعته تكفى لان تبهر بصرها جرى بها الفكر الى أيام طفولتها الاولى ، فتجمع الدمع فى عينيها . ثم أطلت بعدئذ على السهل الواسع الممتد أمامها ، فرأت الفرات بموجاته الصفراء يشبه النيل ؛ ورأت قرى كثيرة تبدو ، كما هو الحال فى مصر ، من بين حقول الحنطة المكتظة اليانعة ؛ ورأت المزارع غاصة بأشجار التين . وكانت أحراش الصيد الملكية فى الجهة الغربية من الحدائق المعلقة ، فاستطاعت أن ترى فيها أشجار السرو والبندق ممتدة على مسافة طويلة . وكان الندى يلمع على نصال الأوراق والحشائش ؛ وكانت الطيور تغنى وهى جاثمة فى الايكات والادغال المحيطة بأعشاشها ؛ وكان النسيم ، ما بين آن وآن ، يهب فيحمل اليها أرج الورود والرياحين ويعبث بأعالى أشجار النخيل الرفيعة القائمة لزازاً على ضفتى النهر وفى الحقول التى يخترقها .

---

(١) نقلا عن نقوش وجدت فوق قبر فى لوحة محفوظة بمتحف برلين .

ولطالما أعجبت بهذه الاشجار الجميلة ، فقارنتها براقصات حينما رأتها وقد أمسك الريح بنواصيها فجعل جذوعها الهيفاء تتمايل ذات اليمين وذات الشمال . ولطالما قالت فى نفسها انه لا بد أن يكون مسكن العنقاء بين هذه النخيل . و يقول الكهنة انها تجىء مرة فى كل خمسمائة عام الى معبد رع فى هليو بوليس ، وهناك تلقى بنفسها فى لهب البخور المقدس لكى تنبعث مرة أخرى من بين الرماد حية تسعى أجمل مما كانت ، ثم تطير بعد ثلاثة أيام الى وكرها ناحية المشرق . وفيما هى تفكر بهذا الطائر مؤملة أن تنبعث هى مرة أخرى من بين رماد شقائها الى فرح جديد وسعادة مجيدة ، طار نحوها طائر كبير ذو زغب لامع براق من جوف شجرة السرو القائمة التى كانت تحجب عن بصرها قصر الرجل الذى أحبته والذى هو سبب شقاوتها ، ثم حلق الطائر فى الجو ، وارتفع الى عاو شاهق ، وأخيراً حط رحله على نخلة قريبة من نافذتها . ولم تكن قد رأت من قبل طائراً كهذا الطائر ، فوسوست لها نفسها أن هذا الطائر ليس من الطيور العادية ، لأن قدمه ربطت بسلسلة ذهبية قصيرة ، ولأن ذيله يبدو كأنه حزمة من أشعة الشمس لا من ريش مختلف الألوان . واذن فلا بد أن يكون هذا الطائر هو « بنو [1] » طائر رع ، فجثت مرة أخرى ، وأنشدت فى خشية وخشوع الأنشودة القديمة تحيى بها العنقاء ولم تحول عنها بصرها ، قالت :

« فى العلا فوق رؤوس الفانين الذاهبين تحملنى أجنحتى لاسبح فى الجو . خلقنى خالق الخلق لكى ترى الكائنات الحية فى صورة من صوره الزاهية ، فصورنى متعة للناظرين كالرياحين اليانعة المزهرة فى بقاع الارض . وحبانى أكثر رونقاً وضياء من كل ضوء ، ولكنه أخفى عن الناس حقيقتى كى لا يعرفونى ، وذلك لانى أعرف ما كان وما سيكون . ألست روح رع الخالدة ؟ » [٢]

أصغى الطائر الى غنائها وهو يحنى رأسه الصغير ذى الزغب المتمارج فى تؤدة وسكون ، وجعل يحركه من جهة الى أخرى . وفى اللحظة التى انتهى فيها انشادها طار بعيداً عنها . فنظرت نايتيتس اليه وهى تبتسم . وما كان هذا الطائر الا أحد عصافير الجنة قطع السلسلة التى كانت تربطه باحدى أشجار البستان ، فظنته العنقاء طائرها المقدس . فسرى الى قلبها اطمئنان النجاة بروحها فى العالم المقبل ، وظنت أن الاله رع قد أرسل طائره اليها ، وأن روحها بعد موتها ستتقمص جسم ذلك

(١) اسم العنقاء بالمصرية القديمة . (٢) نقلا عن الفصل الثالث والثمانين من كتاب الموتى .

الطائر . فما أكثر احتمالنا للمصائب والأرزاء ما دام بريق الرجاء والأمل يلمع أمام عيوننا ، فاذا لم تجئنا هذه السعادة المبتغاة المتمناة طال انتظارنا اليها و يكون لذلك الانتظار ذلك الطعم السائغ وتلك الحلاوة المعروفة . وهذا الشعور كاف فى نفسه ، فهو يشمل نوعاً من السرور يستطيع الحلول محل الحقيقة . ولقد كانت نايتيتس متعبة مكدودة ، ولكنها اضطجعت على فراشها تحدوها الآمال البراقة ونامت على الرغم منها نوماً لا تشوبه الأحلام والرؤى ، دون أن تمس السم .

والشمس المشرقة فى الجملة تروح قلوب المحزونين الذين قضوا ليلهم فى البكاء ، ولكن ضوءها النقى يحل ضيفاً ثقيلا على النفوس الآثمة والضمائر المجرمة التى تستطيب الظلام وتتعشقه . وظلت ماندين يقظة خلال نوم نايتيتس يبكتها ضميرها أشد تبكيت فكم كان يسرها أن يتأخر شروق شمس ذلك اليوم الذى سيكون فيه هلاك أرق الحسان وأشفقهن عليها ، وكم كان يلذ لها أن تمضى بقية حياتها فى ليل داهم وظلام قاتم لو أنها بذلك تستطيع أن تسترد ما كان منها فكأنه لم يكن .

ولقد رمت الفتاة الطيبة الخرقاء نفسها بأنها قاتلة نفساً بريئة ، فاعتزمت غير مرة أن تعترف بالحقيقة كلها لتنقذ نايتيتس ، ولكن حبها للحياة وخوفها من الموت كانا فى كل مرة يتغلبان على قلبها الضعيف . ففى اعترافها موت محقق لها ، وهى تعتقد أنها خلقت للحياة ، هذا الى آمال كثيرة يجيش بها صدرها ، فبدا لها القبر مرعباً مفزعاً . رأت أنها تستطيع البوح بالحقيقة كلها لو كان جزاؤها السجن المؤبد فقط ولكن المسألة مسألة حياة وموت ، فهى اذن لا تستطيع إنفاذ هذا العزم ، وعدا ذلك هل اعترافها ينقذ فى الحقيقة نايتيتس وقد قضى عليها بالموت ؟

ألم تقم هى نفسها بايصال رسالة لبردية على يدى ذلك الصبى المسكين ابن البستانى ؟ لقد انكشف أمر هذه الرسالة السرية ، وفى هذا ما يكفى لهلاك نايتيتس حتى اذا لم يكن لها هى ، ماندين نفسها ، ضلع فى الموضوع . فما أمهرنا معشر الآدميين فى تلمس المعاذير لتبرير خطايانا وآثامنا !

وعند شروق الشمس كانت ماندين راكعة بجوار سرير مولاتها تبكى بكاء مراً وقد أدهشها أن نايتيتس استطاعت أن تنام هادئة هذا الهدوء .

كذلك لم ينم بوجيز كبير الخصيان ليله ؛ ولكنه قضى ليلة من أسعد لياليه . فلقد أعدم ، بأمر الملك ، زميله كاندول المكروه منه لاهماله ، ولاتهامه أنه قبل رشوة قدمت اليه . ونايتيتيس لم تسقط من عليائها فحسب بل حكم عليها بموت شائن . هذا الى أنه صدم نفوذ أم الملك صدمة شديدة . وسره فى النهاية اعتقاده أنه فاق بدهائه كل رجالات الفرس وأنه نجح فى كل خططه وصار يرجو أنه بعزيزته فايديم سيصبح مرة أخرى بوجيز صاحب الحول والطول كما كان . وكذلك صادف هواه حكم الموت على كريسوس وعلى أصحابه الأبطال الفتيان ، لانهم قد يكونون يوماً أداة لكشف دسائسه واعلانها للملأ .

ولما تنفس الصبح غادر مخدع الملك وذهب الى فايديم . ولم تذق هذه الفارسية المتعجرفة طعم الراحة ؛ وكاد يقتلها الانتظار ، لان اشاعة ماحدث كانت قد وصلت الى القصر وتسربت اليها فى حجراتها .

واضطجعت على وسادة من أرجوان فى حجرة لباسها وزينتها ، وكان عليها قميص من الحرير ، وبقدميها حذاء أصفر مرصع بالفيروز واللؤلؤ . وذلك كان لباسها فى تلك الساعة ووقف حولها عشرون وصيفة ، فلما أن سمعت صوت بوجيز صرفتهن وقامت لمقابلته ، ثم غمرته بسيل من أسئلتها التى كانت تدور حول عدوتها نايتيتيس .

قال بوجيز وقد وضع يده على كتفها « على رسلك يا حمامتى الصغيرة ، فاذا لم تهدئى كالجرذ الصغير حين أدلى اليك بقصتى ، واذا لم نوقف هذا التيار الجارف من الاسئلة كففت عن التحدث اليك فلا تعرفين من قصتى شيئاً البتة . أجل يا ملكتى الذهبيـة ، لدىّ فى الحقيقة كثير من الاخبار ، فاذا أنت قاطعتنى كلما حلا لك أن تقاطعينى فانى غير منته من سرد هذه الاخبار حتى الغد . أيها الحمل الصغير ، لازال علىّ الكثير من العمل فى يومى هذا . سأحضر أولا شهر المصرية على أتان ، وثانياً علىّ أن أشهد مصرعها . . . أرانى أذكر قصتى سلفاً . علىّ أن أبدأها ثانية . وسأسمح لك أن تصيحى وأن تضحكى وأن تصرخى فرحاً ما شئت أن تصرخى ، ولكنى أمنعك كل المنع وأحظر عليك بتاتاً أن تسألينى سؤالا واحداً حتى أتم لك حديثى وبعد ذلك أرانى مستحقاً منك كل ملاطفة . الآن أشعر بانفراج أسارير ى

وأحس أنى أستطيع البدء فى الحديث . حكى أنه كان فى فارس ملك عظيم له عدة زوجات ، غير أنه كان ينزل فايديم من قلبه منزلة لم تكن لسواها من أترابها . ففى ذات يوم خطر له أن يطلب يد ابنة ملك مصر ، فأرسل أخاه فى وفد كبير الى سايس يخطبها الى أبيها . . . »

قالت فايديم وقد عيل صبرها « ما هذا الهراء ؟ أريد الآن أن أعرف ما حدث . »

قال « صبراً ، صبراً أيتها الريح المندفعة . انك ان قاطعتنى مرة أخرى تركتك وذهبت الى الأشجار أسر لها حديثى . أريد أن لا تأبى علىّ سرورى بذكر ظفرى وانتصارى مرة أخرى . انى حين أقص عليك هذه القصة أشعر بالسرور ، كالمثال يرمى بمطرقته ثم يطيل النظر الى عمله وقد تم واكتمل . »

فاعترضته فايديم مرة أخرى قالت « لست أستطيع الاصغاء الى ما أنا به عليمة يكاد يقتلنى الانتظار ، ويزيد وطأته علىّ كل خبر جديد يجئ به الخصيان والجوارى . أنا الآن محمومة تماماً — لست أستطيع صبراً . فاطلب الىّ ما شئت ، وانما أنقذنى من هذه الحيرة الفظيعة ، وسأستمع فيما بعد لقولك ليالى وأياماً ان شئت . »

فابتسم بوجيز لدى سماعه ذلك ابتسامة الرضى والسرور ، ثم فرك كفيه وقال « ما كان أكثر سرورى حينما كنت أرى ، وأنا طفل ، سمكة تتلوى على الصنارة وها انى أرانى قد اصطدتك أيتها السمكة الذهبية وها انى أراك عالقة بنهاية الخيط وما أنا بمستطيع تركك تفلتين حتى أشبع من املالك واضجارك . »

فنهضت فايديم قائمة من فوق الوسادة التى أشركت بوجيز فى الجلوس عليها ، وخبطت الأرض بقدميها سالكة مسلك الطفل الشكس العنيد . فزاد ذلك فى سرور الخصى ، ففرك كفيه مرة أخرى وأغرق فى الضحك حتى انحلب الدمع يجرى من عينيه فوق خديه الغليظين ، واحتسى غير كأس واحدة من النبيذ نخب صحة الحسناء المعذبة ، ثم بدأ قصته قال « لم يفتنى أن قمبيز أرسل أخاه بعد عودته من مصر لمحاربة التابوريين ، وكان ذلك بدافع الغيرة المحضة . وقد بدا لى أن تلك الأميرة العاتية ، التى لا تتلقى منى أمراً ، لا تكترث لبردية الجميل ذى الشعر

اللطيف الا بقدر ما يكترث اليهودى للحم الخنزير ، أو المصرى للفول (١) لكننى عزمت على تغذية غيرة الملك ، واتخاذها وسيلة لغل يد هذه المرأة الوقحة العاتية فقد ظهرت بوادر نجاحها فى اقصائنا عن الملك وابعادنا عن قلبه . وجعلت أفكر فمر على فى ذلك زمن طويل قبل أن أصل الى وسيلة ناجحة .

« وأخيراً حل عيد رأس السنة ، واجتمع كل كهنة المجوس فى بابل . وظلت المدينة فى أفراحها ثمانية أيام . وكان الأمر كذلك فى البلاط ، فلم يكن لدىّ من الوقت ما أبذله فى استنباط الخطط . وكدت أيأس من النجاح لولا ان دفعت الآلهة فى طريقى بشاب كأنه خلق لأجل تنفيذ مآربى خاصة . وهذا الشاب هو جوماتا أخو أوروباست جاء بابل ليحضر الذبيحة فى عيد رأس السنة . وكنت رأيته مرة فى دار أخيه يوم أرسلنى الملك اليه برسالة . وجوماتا هذا شديد الشبه لبردية ، فخيل الىّ انى أرى طيفاً أو خيالا . فلما أنهيت أمرى مع أوروباست صحبنى الفتى الى مركبتى ، ولم أبد دهشتى لهذه المشابهة العجيبة ، وتأدبت معه فى الحديث والمجاملة ورجوته أن يزورنى . فجاءنى فى مساء ذلك اليوم ، وأحضرت له أجود خمرى ، وألححت عليه أن يشرب ، وجربت — لا لأول مرة — أن للخمر صفة تفوق كل الصفات : انها تجعل الرجل الصامت ثرثاراً . اعترف لى الفتى أن أشد ما استحثه على المجىء الى بابل لم يكن لاجل حضور الذبيحة بل لاجل فتاة هى كبيرة وصيفات الاميرة المصرية . وقال لى انه أحبها منذ الطفولة ، ولكن أخاه الطموح يرمى الى أبعد من ذلك ، ففرق ما بينه وبين ماندين بأن اختارها للمنصب الذى تشغله . ثم رجانى أن أدبر له خطة لمقابلتها . فأصغيت اليه اصغاء المشفق عليه ، وأبديت له أن دون ذلك مصاعب ومتاعب ، وسألته أخيراً أن يحضر الىّ فى اليوم التالى فقد يجد من الأمور ما يسهل حصوله على طلبته . ولقد جاءنى وأخبرته انى قد أستطيع تدبير الأمر وانما بشرط أن يطيعنى طاعة عمياء ، فيعمل كل ما أريد منه دون أن يوجه لى سؤالا . فوعدنى ذلك ، وعاد الى رهاج كطلبى ، ولم يحضر الى بابل الا أمس ، وجاء

---

(١) اتفق شيشرون وفيثاغورس وديودوروس على أنه حرم على المصريين فى ذلك العهد أكل الفول .

سراً الى دارى وفيها أخفيته . وعاد بردية من الحرب منصورا ، فرأيت أن أثير غيرة الملك مرة أخرى ، وأهلك المصرية بضربة واحدة . ولذلك أهجت غيظ ذويك بأن جعلتك تظهرين أمام الناس ذليلة منبوذة ، وهكذا مهدت الطريق لتنفيذ الخطة ولقد ساعدتنى الظروف مساعدة غريبة . فغير خاف عنك تصرف نايتيتس فى الوليمة ولكن غاب عنك أنها فى نفس تلك الليلة أرسلت غلام البستانى الى القصر برسالة الى بردية . ولكن الغلام كان غبياً فقبض عليه ، وأعدم فى نفس تلك الليلة بأمر الملك الذى جن من الغيظ . ولقد عنيت بأن جعلت نايتيتس فى عزلة تامة ، بعيدة عن كل تواصل مع أصدقائها فكأنها تقيم فى عش طائر السِمّرْج[1] وما بقى بعد ذلك فأنت تعرفينه . »

قالت « ولكن كيف نجا جوماتا ؟ . »

قال « من باب سرى لا يعرفه أحد سواى ، وقد أبقيته مفتوحاً لهذه الغاية . ولقد تم كل شىء حسب ما أردت ، وفضلا عن ذلك فقـد نجحت فى الحصول على خنجر بردية ، وكان قد فقده فى الصيد فألقيته تحت نافذة نايتيتس . ولكى آمن جانب الامير خلال هذه الحوادث ، وأمنعه من مقابلة الملك أو أى شخص آخر تكون شهادته هامة ، طلبت الى التاجر كولايوس أن يكتب خطاباً بالاغريقية لبردية يرجوه فيه باسم حبيبته صافو أن يحضر منفرداً الى أول محطة خارج الفرات عنـد ظهور نجم الشعرى . فأطاعنى كولايوس ، وكان وقتئـذ ببابل يتجر بالأقمشة الميليسيه ، لأنه يرغب فى استرضائى اذ كنت أشترى منه كل الأقمشة الصوفية اللازمة لنساء البلاط ولكن هذا الخطاب فقد لأن الرسول لم يحسن التدبير . لقد صرح لى أنه سلم الخطاب الى بردية ، ولكن ليس هناك أدنى شك فى أنه أعطاه لشخص آخر ولعله جوماتا . وراعنى قليلا سماعى أن بردية قضى الليل فى مجلس خمر مع أصدقائه . ولم يكن فى الاستطاعة تدارك ما فات ، وأيقنت أن شهوداً كأبيك وهستاسب وكريسوس وانتافيرنز قد ترجح شهادتهم على شهادة دارا وجيجيز وأراسب ، فأولاء شهود اثبات وهؤلاء شهود نفى . وهكذا تم الأمر وفق المرام . فقد حكم على السادة الشبان بالموت

---

(١) هو طائر الفرس الخرافى المذكور فى قصة زهراب ورستم . أنظر كتاب الملوك للفردوسى .

واذ تجاسر كريسوس على اغلاظه القول للملك فقد حكم عليه هو أيضاً بالموت ، وهذه الساعة آخر ساعاته . أما الاميرة المصرية فقد كتب رئيس كتبة الملك الحكم الآتى الصادر على المصرية ، فاسمعى ياحمامتى وامرحى وافرحى

« تعاقب نايتيتس ، ابنة ملك مصر ، الزانية الفاسقة ، جزاء جرائمها الشنيعة الممقوتة ، بأقصى شدة يبيحها القانون وذلك بأن تركب معارضة على أتان ، و يطاف بها كل شوارع بابل ، حتى يرى الجميع أن قمبيز يعرف كيف يعاقب ابنة ملك بنفس الصرامة التى يعاقب بها القضاة والولاة أحقر صعلوك — وعلى بوجيز كبير الخصيان تنفيذ هذا الحكم .

بأمر الملك قمبيز

اريابين رئيس الكتبة

وما كدت أضع هذا الحكم فى أحد ردنى ثوبى حتى دخلت أم الملك فى البهو مسرعة تقودها آتوسا وثيابها ممزقة وتلا دخولها بكاء وعويل وندب ثم تأنيب وتهديد فرجاء وتوسل . ولكن الملك ظل جامداً لا يلين ؛ حتى لقد خيل الىّ أن كاساندين وآتوسا لا بد لاحقتان بكريسوس و بردية الى العالم الثانى ، لولا أن روح أبيه كورش قد حالت دون أن تمتد يد الابن وهو فى أشد حالات غضبه الى أمه . ولم تفه كاساندين خلال ذلك بكلمة واحدة عن نايتيتس ، و بدا لى كأنها جد واثقة من اجرامها . ولو كنا نحن مكانها لما اعتقدنا غير ذلك . وليس ثمت ما نخشاه من ناحية جوماتا العاشق المفتون ، فلقد اكتريت ثلاثة رجال لكى يعدوا له حماماً بارداً فى الفرات قبل أن يعود الى رهاج . وستلقى الاسماك والديدان فرصة يطربن فيها و يمرحن . »

ثم أتبع حديثه بقهقهة شاركته فايديم فيها وأغرقته بكل ما فى وسعها من كلمات التمليق والاطراء التى أخذتها عن لسانه اللين الناعم . ثم علقت بيديها الجميلتين فى رقبته سلسلة ثقيلة مرصعة باللآلىء اعترافاً منها بجميله وعلامة لرضاها عنه .

الفصل الحادى والعشرون

شاهد جديد

قبل أن تتوسط الشمس فى كبد السماء كانت أخبار ما جرى وما سيجرى تملأ بابل كلها . فكانت الشوارع والطرقات تموج بالناس ، ينتظرون بفارغ الصبر رؤية ذلك المشهد الغريب ، مشهد عقاب احدى نساء الملك بعد أن ثبتت عليها تهمة الخيانة والفسوق . واضطر حملة السياط لبذل كل ما فى وسعهم لكى يحافظوا على النظام بين تلك الجموع الحاشدة الذاهلة . ثم ذاع أيضاً خبر الحكم على بردية وصحبه بالاعدام ، فهاجت خواطرهم ، واستحالت أفراح الذين لا يزالون سكارى بخمرة العيد وما تلاه من أيام الى غموم واحزان . لقد كانوا فى يومهم غيرهم فى أمسهم.

وسارت جماعات من السكارى تصيح « سيعدم اليوم بردية الطيب ابن كورش » فسمعت النساء صياحهم هذا وهن فى عقر دورهن قابعات فى خدورهن ، فسخرن من حراسهن ، ونسين براقعهن ، واندفعن فى الطرقات يجرين وشاركن الرجال فى أحزانهم وصراخهم . لقد أضاع سرورهن ، الناجم عن رؤيتهن واحدة من جنسهن تذل بعد عز وتهان بعد احترام ، سماعهن بأن بردية الأمير المحبوب حكم عليه بالموت . فكنت ترى الرجال والنساء والأطفال هائجين صاخبين لاعنين ، يثير بعضهم البعض الآخر فتعلو صيحات الحنق والاستياء . وخلت المصانع من العمال ، وأغلق التجار حوانيتهم ، وأما طلبة المدارس والموظفون الذين منحوا عطلة أسبوع احتفالا بعيد الملك فقد علا صياحهم كل صياح ، وجعلوا يندبون ويعولون وهم لا يدرون لماذا يبكون .

واشتد الزحام فلم يستطع حملة السياط الاستظهار على الجمهور ، ولذلك أضيف اليهم فرقة من الحرس . فعند ما رأى الناس دروعهم اللامعة وحرابهم الطويلة اصطفوا على الجانبين ليفسحوا للجند الطريق ، حتى اذا ما غابوا عن أبصارهم تجمعوا واختلطوا مرة أخرى ..

و بلغ الزحام أشده عند باب بعل الشهير المؤدى الى الطريق الغربى ، لأنهم علموا أن الأميرة المصرية ستمر من هذا الباب مطرودة من المدينة منكلا بها أشنع تنكيل . وكان هو الباب الذى دخلت منه الى بابل عند قدومها من مصر . وهناك وقف عدد كبير من حملة السياط كى يفسحوا الطريق للمسافرين القادمين الى المدينة وقل من ترك المدينة فى ذلك اليوم ، لأن حب الاستطلاع كان لدى القوم أشد من مشاغلهم ولهوهم . أما أولئك الذين قدموا من الريف فقد وقفوا بالقرب من الباب عند ما سمعوا بالذى جذب الجمهور الى تلك الناحية .

وكاد النهار ينتصف ، ولم تبق الاساعات قلائل على التنكيل بنايتيتس . واقتربت قافلة من الباب وهى جادة فى سيرها . وفى مقدمتها مركبة (حرما مكسا) تجرها أربعة جياد مزدانة بجلاجل وأهداب ، تتبعها أخرى ذات عجلتين ، وخلفهما ثالثة تقل الأمتعة وتجرها البغال . وجلس فى الاولى رجل حسن الطلعة مهيب يناهز الخمسين من العمر وعليه لباس رجال البلاط الفارسى ، وبجانبه رجل آخر أكبر منه سناً يلبس رداء طويلا أبيض اللون ، وجلس فى الثانية عدد من العبيد يلبسون جبباً بسيطة وعلى رؤوسهم قبعات لها حافات عريضة ، وبجانب هذه المركبة ركب عجوز بلباس خدام الفرس . وقد تكبد سائق المركبة الاولى عناء شديداً فى شق طريق لخيله وسط هذا الجمهور . وعند الباب أكره على الوقوف فأهاب ببعض حملة السياط لمساعدته ، وصاح بكبير الشرطة وقد جاء ومعه بعض جنده « أفسحوا الطريق لنا فلا يصح أن يتأخر بريد الملك ، واننى هنا أقود مركبة شريف فى وسعه أن يجعلكم تندمون على كل دقيقة تعيقونه فيها . »

قال الضابط « هون عليك يا بنى . ألست ترى أن الخروج من بابل أسهل من الدخول اليها . ومن ذلك المسافر فى مركبتك ؟ »

قال « شريف معه جواز من الملك . أقبل الينا وأسرع وأفسح لنا طريقاً . » .

قال « ولكن ليس يظهر على قافلتكم شارات الملكية . »

قال « وما شأنك وهذا ؟ ان الجواز .... »

قال « يجب أن أراه اذن قبل السماح لكم بدخول المدينة . »

وكان يريد من قوله هذا أن يتحقق من أمر ذلك المسافر الذى رابه كثيراً .

وفيما الرجل ذو الرداء الفارسى يبحث فى ردنية عن الجواز التفت الضابط لبعض صحبه وأشار الى تلك القافلة الصغيرة وقال « أرأيتم مثل هذه القافلة العجيبة ؟ لا بد أن يكون أمر هؤلاء الأغراب عجباً ، وانى لواثق من ذلك وثوقى من نفسى . والا فلماذا يسير كل هؤلاء فى خدمة رجل يحمل جوازاً من الملك ، ويرتدى لباس من لهم حق الجلوس على مائدة الملك ؟ »

وعندئذ سلم المسافر الذى استريب الى الضابط ملفاً صغيرا من الحرير معطرا بالمسك ، ومختوماً بختم الملك ، و به امضاؤه خطها بنفسه .

فأخذ الضابط الجواز وفحص الختم وقال متمتما « كل شيء فيه قانونى » و بعد ذلك بدأ يفحص الاسماء ، فما كاد يقرأ الحروف الأولى حتى رمى المسافر بنظرة حادة ، وأمسك بعنان الخيل ، وقال « أيها الجند أحيطوا بالمركبة واحرسوها فهذا المسافر محتال مخادع . »

واذ تأكد ان هرب المسافر مستحيل ذهب اليه مرة أخرى وقال « انك تحمل جوازا ليس لك ، فان جيجيز بن كريسوس الذى انتحلت اسمه سجين وسيعدم اليوم . وأراك لا تشبهه فى أى شيء ، وستندم على استعمالك جوازا باسمه . أخرج من مركبتك واتبعنى . »

فلم يطع المسافر الأمر بل رجا الضابط ، بفارسية ركيكة ، أن يدخل المركبة لأن لديه أخبارا هامة يريد أن يسرها اليه . فتلكأ الرجل لحظة ، ولكنه حين رأى ثلة أخرى من حملة السياط قادمة أشار اليهم أن يقفوا أمام الخيل الجازعة ، ثم قفز الى داخل المركبة .

وعندئذ نظر اليه الغريب وهو يبتسم وقال « والآن أترانى محتالا مخادعا ؟ »

قال « كلا فان علامات النبل تبدو عليك رغم أن لهجتك تدل على أنك لست فارسياً . »

قال « اننى اغريقى ، ولقد جئت لأؤدى لقمبيز خدمة هامة . وجيجيز صديقى ، وقد أعارنى هذا الجواز حينما كان بمصر لأستخدمه اذا جئت فارس . واننى مستعد

أن أبرر سلوكى هذا أمام الملك ، وليس ثمت ما أخشاه . بل على العكس فالاخبار التى أحملها اليه تبعثنى على توقع الخير الكثير منه . خذنى الى كريسوس فيكفلنى وبرد اليك رجالك الذين أرى أنك فى شديد الحاجة اليهم اليوم . اليك هذه القطع الذهبية وزعها بينهم ، وقل لى عاجلا ما الذى صنع صديقى جيجيز حتى استحق الموت ، وما سبب هذا التجمهر وذلك الاضطراب ؟ »

وكانت لغة الغريب كما أسلفنا فارسية ركيكة ، ولكن لهجته كانت لهجة صدق شريفة ، وكانت عطاياه كبيرة ، فأحس ذلك الضابط ، ربيب الاستبداد ، انه لا بد جالس بحضرة أمير كبير ، أو قائد عظيم ، فأطبق يديه على صدره احتراما . وبعد أن اعتذر عن سلوكه قص عليه بسرعة كل ما حدث وساعده على سرد دقائقها أنه كان قائما بعمله فى البهو الكبير وقت سؤال المعتقلين فى الليلة السابقة . فأصغى الاغريقى شديداً الى حديث الرجل ، وكان يهز رأسه هزة الشك كلما كان الرجل يقص عليه أن ابنة أماسيس وابن كورش خائنان كاذبان . ولقد أحزنه شديدا حكم الموت على كريسوس ، وظهرت على وجهه علامات الحزن ، غير أن ذلك لم يدم طويلا اذ انفرجت أسارير وجهه وجعل يفكر تفكيرا عميقا . وتلا هذا التفكير ظهور البشر والسرور على وجهه . فدل بذلك على أنه قد وصل فى تفكيره الى نتيجة مرضية . وذهب عنه بسرعة عبوسه ، وقهقه بصوت عال ، ولطم جبهته وهو فرح طروب ، ثم أمسك بيد الضابط المندهش مما يرى وقال « أيسرك انقاذ بردية ؟ »

قال « سرورا ما بعده سرور . »

قال « حسن ، وأنا أكفل لك هبة من المال لا تقل عن ألف ذهباً لو أنك مكنتنى من مقابلة الملك قبل تنفيذ الحكم فى أول المحكوم عليهم . »

قال « وكيف تسألنى ذلك وما أنا الا ضابط صغير ؟ » .

قال « يجب عليك ، يجب عليك . » .

قال « ولكنى لا أستطيعه . » .

قال « اننى أعرف جد المعرفة أن من الصعب جداً ، بل ويكاد يكون مستحيلا أن يحظى غريب بالمثول لدى الملك ولكن أمرى لا يحتمل تأجيلا ، لأنى أستطيع

اثبات براءة بردية وصحبه . أتسمعني ؟ انني أستطيع اثبات ذلك . فهل بعد هذا تستطيع تمكيني من مقابلة الملك ؟ »

قال « وكيف يمكنني ذلك ؟ »

قال « لا تسل وانما افعل . ألم تقل ان دارا أحد هؤلاء المحكوم عليهم بالموت ؟ »

قال « بلى . »

قال « واني أعرف أن أباه رجل ذو مكانة عالية في الدولة . »

قال « انه الأول في الدولة بعد أبناء كورش . »

قال « خذني اليه في الحال ، وهو سيرحب بي اذا ما علم أني قادر على انقاذ ولده . »

قال « انك رجل مدهش أيها الغريب ، وانك لتتكلم وأنت واثق من نفسك بحيث . . . . »

قال « بحيث انك تشعر بميل لتصديقي . أسرع إذن وناد بعضا من رجالك كي يفسحوا لنا طريقا ويسيروا في حراستنا حتى القصر . »

وليس شيء ، كالشك ، أسرع في اخترام النفوس والعقول من أمل في تحقيق رغبة مبتغاه ، وعلى الأخص اذا كان باعث هذا الأمل شخص من الموثوق منهم .

فصدق الضابط هذا المسافر الغريب ، ثم رفع صوته وأهاب برجاله قائلا « ان هذا الشريف قد جاء قاصداً أن يثبت براءة بردية وصحبه ، وعلينا أن نذهب به الى الملك على الفور ، فاتبعوني أيها الرفاق وشقوا له طريقا وسط هذا الزحام . »

وظهرت عندئذ ثلة من الحرس فذهب ذلك الضابط الى قائدها ، ورجاه أن يوصل هذا الغريب الى القصر ، وشاركه الجمهور الحاشد في الرجاء بصيحات عاليات.

وامتطى المسافر خلال ذلك جواد خادمه وسار يحرسه أولئك الجند .

وانتشر خبر ذلك بسرعة البرق في المدينة ، وسرى كالنسيم العليل يهب في الجو القائظ . وما كان الركب يتقدم الا وتفسح له الجماهير الطريق المرور ، وتعالت صيحات الفرح والسرور فكان الركب في سيره أشبه بمواكب الغزاة الفاتحين .

و بعد قليل وصلوا الى القصر ، وقبل أن تفتح لهم الأبواب النحاسية الموصدة

ليدخلوا ظهر ركب آخر يسير متباطئا . وكان يتقدمه شيخ أبيض الشعر ممزق الثياب علامة الحداد ، يمتطى جواداً صبغ بالأزرق ، واجتث شعره وقطع ذنبه . ذلك كان هستاسب جاء يسأل العفو لولده .

ففرح الضابط لمرآه ، وجثا على الثرى أمامه وهو يصيح من فرح وذراعاه مطبقان وأطلعه على ما طمأنه به الغريب .

فأشار هستاسب الى الغريب يستوضحه فطأطأ رأسه احتراماً دون أن يترجل ، ثم صادق على كلام الضابط . فاطمأن هستاسب أيضا ورجا الغريب أن يتبعه الى القصر وأن ينتظر على باب الملك ، فى حين دخل هو اليه يتقدمه كبير الحجاب .

وكان قمبيز وقتئذ مضطجعا على وسادة أرجوانية وهو أصفر الوجه كالموتى . وكان أحد السقاة جاثيا على الأرض عند قدميه ، يجمع ما تبدد من قطع كأس مصرية ثمينة ، رمى الملك بها الأرض من ضجره لأن ما كان فيها من شراب لم يرق لديه . ووقف على بعد من الملك جمع من رجال البلاط كان يبدو على وجوههم خوفهم الشديد من غضب الملك ، فرأوا أن يقفوا بعيدين عنه بقدر الامكان . وكان ضوء النهار شديدا ، وحر بابل فى شهر مايو ينبعث من النوافذ المفتوحة ولم يكن يسمع فى هذه الغرفة الكبيرة الا أنين كلب كبير رفسه قمبيز رفسا موجعا ، لأنه اجترأ على مداعبة سيده . فلم يعكر صفو هذا السكون المهيب الا ذلك الأنين . وقبل أن يدخل هستاسب ، يتقدمه كبير الحجاب نهض قمبيز قائما من فوق الوسادة ، لأنه لم يحتمل عليها هجوعا ، ولأنه شعر أن الألم والغيظ يكادان يخنقانه . فلفت نباح الكلاب نظر قمبيز الى الخروج الى الصيد ، وما كان ألزمه لمخه المعذب المتعطش للسلوى .

فصاح برجال حاشيته « هيا بنا نخرج للصيد » فأسرع مدربو الكلاب ونواظير الاصطبلات ورجال الصيد لتنفيذ أمره . فقال لهم « سأمتطى جوادى — البرق — فأعدوا الشواهين ، وأخرجوا الكلاب كلها ، ومروا كل قادر على استعمال الرمح أن يحضر . سنطهر كل المرابى مما فيها . »

وبعد ذلك رمى بنفسه ثانية على وسادته كأن هذه الكلمات أنهكته ، فلم يلاحظ دخول هستاسب عليه لأن عينيه اتجهتا الى الذرات المتطايرة فى أشعة الشمس الداخلة

من النافذة .

فلم يجرؤ هستاسب على مخاطبته ، ولكنه اعترض مسار الأشعة فلفت بذلك نظر قمبيز اليه .

فرماه قمبيز فى مبدأ الأمر بنظرة الغضب ، و بعدئذ سأله وعلى فمه ابتسامة مرة قائلا « ماذا تريد منى ؟ »

قال « النصر للملك ! ان عبدك عمك المسكين جاء يلتمس منك الرحمة . »

قال « اذن فانهض واليك عنى ، فأنت تعرف أننى لا أرحم الخونة الحالفين كذباً و زوراً . خير لك أن يموت ولدك من أن يبقى عديم الشرف . »

قال « ولكن اذا كان بردية بريئا ، ودارا . . . »

قال « وهل تجرؤ على أن تسأل النصفة من حكم أجريته ؟ »

قال « حاشاى أن أفعل ذلك ، وكل ما يصدر عن الملك هو عين الحكمة والصواب ولا يمكن الرجوع فيه ، ولكن لا رال . . . »

قال « صه فلست أريد سماع القصة تجرى على لسانك مرة أخرى . اننى أشفق عليك كأب ، ولكن هل جلبت لى تلك الساعات القلائل الماضية أى فرح ؟ اننى حزين لأجلك أيها الشيخ ولكن قدرتى على رد عقابه ضئيلة بقدر قدرتك على استرداد جرمه . »

قال « ولكن اذا كان بردية بريئاً حقيقة — اذا كانت الآلهة . — »

قال « أو ظننت أن الآلهة تعضد الخونة المارقين ؟ »

قال « كلا يامولاى ، ولكن ظهر شاهد جديد . »

قال « شاهد جديد ؟ اننى لأبذل ، عن طيب خاطر ، نصف مملكتى لمن يقنعنى ببراءة رجال تربطنى واياهم روابط شديدة . »

قال « النصر لمولاى ، عين الدولة ! ان اغريقيا ينتظر خارج الباب ، ويظهر عليه من مسلكه وشكله أنه من أشرف رجال قومه . »

فضحك الملك ضحكة غيظ مرة وقال « اغريقى ! لعله من أقارب الحسناء المتدلهة بهوى بردية ! وما الذى يعرفه مثل هذا الاغريقى الغريب من شؤون أسرتى ؟

انى أعرف أولئـك المتسولة الاغريق جد المعرفة ، وأعرف أن لهم من السماجة ما يجعلهم يتدخاون فى كل شىء ، ويظنون أنهم يستطيعون خديعتنا بحيلهم الماكرة . كم دفعت لهـذا الشاهد الجديد يا عماه ؟ ان الاغريقى ليقدم على الـكذب بنفس السهولة التى يقدم بها المجوسى على قراءة التعاويذ . وأعرف أيضاً أنهم يقدمون على كل شىء فى سبيل الحصول على الذهب . حقاً انى شغف برؤية شاهدك . ناده ، ولئن أراد خديعتى وغشى فأولى به أن يذكر ، انه ان كانت رأس أحد أبناء كورش على وشك أن تطوح فان رأسا اغريقية لا يكون أمامها من فرص النجاة الا القليل . »
واذ قال الملك ذلك لمعت عينـاه من الغضب ، ولكن ذلك لم يمنع هستاسب من أن يرسل فى طلب الاغريقى .

وقبل أن يدخل ربط الحجاب على فمه القماش العادى ، وأمروه أن يجثو أمام الملك . فتقدم بهيئة شائقة هادئة شريفـة ، وحدجه الملك بنظراته الحادة النفاذة ، فسجد على الارض واضعاً وجهه عليها مقبلا اياها حسب العادة الفارسية .

وتأثر الملك من مظهره اللطيف ، ومن شممه وهدوئه ساعة احتماله نظر الملك اليه ، فلم يشأ قمبيز أن يظل على الارض طويلا فى سجوده ، وسأله بلهجة لا شك فى أنها كانت لهجة مسالمة قال « من أنت ؟ »

قال « شريف اغريقى ، واسمى فانيس ، وبلدى أثينـا . وقد شغلت عشر سنين منصب قائد المرتزقة من جند الاغريق فى مصر ، ولم تكن مدة خدمتى خلواً من الفخر عارية من المجد . » .

قال « أو أنت الرجل الذى لحسن قيادته يدين المصريون بانتصاراتهم فى قبرص ؟ » .

قال « نعم أنا ذلك الرجل . » .

قال « وما الذى جاء بك الى فارس ؟ »

قال « مجد اسمك يا قمبيز ورغبتى فى وقف حياتى وتجاربى على خدمتك . »

قال « ألذلك وحده ؟ كن صادقاً واذكر أن أكذوبة واحدة تكلفك حياتك فلنا نحن معشر الفرس آراء عن الصدق تخالف آراء الاغريق . » .

قال « ان الكذب يا مولاى مكروه لدى أيضاً . وهو ان لم يكن فيه الا تحريف القويم وافساد الصالح لكفى به فى عينى بشعاً قبيحاً . » .

قال « اذن تكلم . »

قال « وهناك سبب آخر أيضاً لمجيئى ، وسأدلى به الى مولاى فيما بعد . وله علاقة بأشياء ذات أهمية عظمى تحتاج فى بحثها الى وقت طويل ، أما اليوم . . . »

قال « وأنا اليوم أريد سماع شيء جديد ، فامض معى الى الصيد ، لقد جئت فى أنسب الاوقات ، فلم أكن أحوج فيما مضى الى التلهى منى اليوم . » .

قال « سأمضى معك الى الصيد بكل سرور لو . . . »

قال « لا شرط على الملك . وقل هل أنت متمرن على الصيد مراناً شديداً ؟ »

قال « كثيراً ما اصطدت السباع فى صحراء ليبيا . »

قال « اذن فاتبعنى . »

وزال من الملك ، خلال تفكيره فى الصيد ، كل ما كان يشعر به من ضعف ، وكأنه بعث الى الحياة من جديد . وفيما هو على وشك ترك البهو رمى هستاسب نفسه مرة أخرى على قدميه ومد يديه وقال « أيموت ابنى وأخوك وهما بريئان ؟ استحلفك بروح أبيك الذى كان يعتبرنى أوفى أوفيائه وأخلص خلصائه أن تسمع لحديث ذلك النبيل الغريب . »

فوقف قمبيز صامتاً وعبس وجهه مرة أخرى وقال مهدداً وعيناه تلمعان مشيراً الى الاغريقى « أدل الىّ بكل ما تعرف ، واذكر أن فى كل كلمة كاذبة تقولها تحكم على نفسك بالموت . »

سمع فانيس تهديده وهو هادئ لم يتحرك وأجاب مطأطئاً رأسه أثناء كلامه « ليس مستطاعاً اخفاء شيء عن الشمس وعن مولاى الملك . وأية قدرة تلك التى بها يستطيع آدمى بائد أن يخفى الحقيقة عن ملك قادر مثلك ؟ لقد قال النبيل هستاسب اننى قادر على اثبات براءة أخيك ، وأنا أقول اننى أرجو وآمل أن أنجح فى تأدية عمل كبير جليل كهذا العمل . لقد سمحت لى الآلهة باستكشاف أثر قد يكون فيه استجلاء ما غمض من حوادث الأمس . بيد أنه لك أنت نفسك يا مولاى أن

تقرر هل آمالي هذه بها شيء من الزهو والغطرسة ، وهل شكوكي التي تجسمت لديّ بسهولة قد قامت على غير أساس أم لا . واذكر مع ذلك أن رغبتي في خدمتك صادقة ، وانني ان كنت خدعت فخطأي مغتفر . واعلم أنه لا شيء أكيد في هذه الدنيا ، وأن كل انسان قد يعتقد العصمة والصواب فيما يبدو له أنه أكثر من غيره صدقاً واحتمالا . »

قال الملك « انك تحسن القول وتذكرني . . . لعنة الآلهة عليها . تكلم . تكلم وانته بسرعة . انني أسمع نباح الكلاب في الفناء . »

قال « لقد كنت بمصر يوم جاء الوفد الفارسي لأخذ نايتيتس . ولقد تعرفت بكريسوس وابنه في دار رودوبيس وهي مواطنتي النابهة الكيسة الشهيرة ، ولقد أسعدني الحظ برؤية أخيك وصحبه مرة أو اثنتين عرضاً . ولا زلت أذكر جمال وجه الأمير الفتى تماماً ، حتى أني لما ذهبت بعد ذلك الى مصنع المثّال الكبير ثيودوروس في ساموس تبينت ملامحه في الحال . »

قال « هل رأيته في ساموس ؟ »

قال « كلا ، ولكن ملامحه الجميلة تركت أثراً عميقاً في ذاكرة ثيودوروس حتى انه استعارها في تزيين رأس تمثال آبولون الذي اتفق معه الالكمانيون على صنعه لمعبدهم الجديد في دلفي . »

قال « انك بدأت قصتك بما لا يصدق أبداً . اذ كيف يتسنى لانسان تصوير ملامح شخص في حين أنه غير ماثل أمامه ؟ »

قال « انني أقتصر في اجابتي على ذلك بأن ثيودوروس قد أتم تمثاله الجميل ، واذا رغب مولاي برهاناً على مهارته فان الرجل يستطيع أن يرسل بكل سرور صورة أخرى . . . »

قال « ليست لي رغبة ما في ذلك . امض في حديثك . »

قال « وفي أثناء اجتيازي لبلادكم ، تمكنت ، بفضل النظم التي وضعها أبوك طيبت الآلهة ثراه ، أن أقطع المسافات الشاسعة بسرعة غريبة ، اذ كنت أستبدل الخيل بغيرها في كل ستة عشر أو سبعة عشر ميلا . . . »

قال « ومن سمح لك وأنت غريب أن تستخدم خيل البريد ؟ »

قال « الجواز الذى أعطانيه ابن كريسوس حين اضطرنى ، لانقاذ حياتى ، أن أستبدل واياه الثياب . »

قال الملك وقد ابتسم بعد عبوسه لأول مرة « ان الليدىّ قد يفوق الثعلب فى الدهاء والحيلة ، وقد يفوق السورى ليدياً ، ولكن الأغريقى كفء لهما معاً بل ويعدلهما . لقد قص علىّ كريسوس هذه القصة . . . مسكين كريسوس . . . » وظهر العبوس على وجهه عندئذ فأمرّ يده على جبينه كأنما أراد أن يلين بها خطوط الهم الظاهرة فيه .

ومضى الأثينى فى حديثه قال « ولم أجد ما يعوقنى فى طريقى حتى صبح اليوم ففى الساعة الأولى صباحاً أعاقنى عن السير حادث غريب . » .

وعندئذ اشتد انتباه الملك فى الاصغاء ونبه الاثينى ، وكان يتكلم الفارسية بصعوبة ، الى أنه ليس هناك من الوقت ما يضيعه .

قال الاثينى « بلغنا المحطة التى قبل الاخيرة ، ورجونا أن نكون فى بابل عند شروق الشمس . وكنت أفكر فى حياتى الماضية الثائرة الحافلة بالحوادث ، فخطرت ببالى ذكريات الشرور التى ارتكبت ولم يقتص من فاعليها ، فلم أستطع النوم . ونام الشيخ المصرى الذى بجوارى نوماً هادئاً تتخلله الأحلام اللطيفة . أخمده رنين جلاجل السرج السرمد النسق ، ووقع حوافر الخيل ، وخرير مياه الفرات . وكان السكون عجيباً والليل جميلا ، وكان القمر مشرقاً والكواكب ساطعة ، فاستضاء الطريق أمامنا واستنار فكأننا لم نكن فى ليل بل فى وضح النهار . ولم نكن قد رأينا حتى الساعة الأخيرة عجلة واحدة أو عابر سبيل أو فارساً ممتطياً جواداً . وكنا قد سمعنا أن كل سكان البلاد المجاورة قصدوا بابل ليشتركوا فى الاحتفال بعيد مولدك ، وليروا فى دهشة فخامة بلاطك ويستمتعوا بجودك وسخائك . وأخيراً سمعت وقع حوافر خيل وأصوات جلاجل ، وبعد ذلك بقليل سمعت صوت استغاثة واضحاً ظاهراً . فاعتزمت فى الحال أمراً ، وأمرت خادمى الفارس أن يترجل ، وقفزت مكانه فوق سرجه ، وأوصيت سائق المركبة التى فيها خدمى أن لا يترك البغال ، ثم اختبرت

خنجرى وتلمست سيفي وهما فى جرابيهما ، وبعدئذ وخزت الجواد واندفعت به أجرى صوب الصوت . وكان الصراخ يعلو لحظة عن أخرى . وما هى الا دقائق حتى كنت أمام منظر مفزع . رأيت ثلاثة رجال بشعو المنظر يجرون شاباً فى لباس المجوس الأبيض من فوق جواده ، وهم يلكمونه على رأسه لكمات شديدة . وعند وصولى اليهم كانوا على وشك طرحه فى الفرات ، ولا يفوتنى أن أذكر أن ماء النهر فى هذه الجهة يغمر النخيل وأشجار التين القائمة فى الطريق الكبير . فصحت بهؤلاء الانذال صيحة الحرب الاغريقية الخاصة بى ، وكم رجف منها الاعداء وفزعوا ، وهجمت على القتلة السفاكين . ومثل هؤلاء يا مولاى جبناء ، لأنه فى اللحظة التى رأوا فيها واحداً منهم قد جرح جرحاً مميتاً أركنوا الى الفرار . فلم أتبعهم ، ولكنى انحنيت فوق الفتى المسكين لأفحصه وكان قد جرح جرحاً بليغاً : وأنى لى يا مولاى أن أصف لك مقدار فزعى عندما تبينت أنه لم يكن غير أخيك بردية ؟ نعم لقد كانت ملامحه هى تلك التى رأيتها أولا فى نقراتس ، ورأيتها ثانياً فى مصنع ثيودوروس . لقد كانت . . . »

قال هستاسب مقاطعاً « مرحى ، مرحى ، ما أعجب ما تقول ! »

وقال الملك « ذلك أكثر من أن يصدق . حذار أيها الاغريقى ، واعلم أن يدى تصل الى البعيد . انى سأطلب البرهان على صدق حكايتك . »

قال فانيس وقد انحنى أمام الملك « لقد اعتدت يا مولاى أن أتبع نصح فيلسوفنا الحكيم فيثاغورس ، وربما تكون شهرته قد وصلت الى مسامع مولاى . ومن عادتى دائماً أن أنظر قبل أن ينطق لسانى فيما اذا كان ما سأقوله يسبب لى فى المستقبل حزناً وألماً أم لا . »

قال الملك « أن لقولك وقعاً طيباً على الأذن ، ولكنى عرفت وحق مثرا امرأة كانت تتكلم دائماً عن ذلك المعلم الكبير ، ولكنها فى أعمالها كانت أكثر تلاميذ أهريمان ، اله الشر ، وفاء وصدقاً . انك تعرف الخائنة الغادرة التى سنعدمها اليوم ونبيدها كما نبيد أفعى سامة . »

قال فانيس وقد رأى الألم يتجسم فى ملامح الملك « هل يسمح لى مولاى أن

أذكر له حكمة أخرى من حكم ذلك الاستاذ الكبير ؟ »

قال « قل » .

قال « لا تكاد الطيبات تجيء حتى تذهب وتضيع ، وعلى ذلك فاحتمل نصيبك بالثبات والصبر . لاتعترض واذكر أن الآلهة لا ترمى على عاتق رجل حملا ينوء به . ولئن كان لك قلب مجروح فلا تمسه الا بقدر ما تمس عينا مرمودة ، فليس لمرض القلب الا علاجان اثنان هما الأمل والصبر . »

أصغى قمبيز الى هذه الجملة المأخوذة من حكم فيثاغورس الذهبية ، وابتسم بكآبة لدى سماعه كلمة الصبر . ولكن طريقة الاثينى فى الكلام قد سرته فسأله أن يتابع الحديث .

فانحنى فانيس بملء الطاعة والخضوع وقال « حملنا الشاب المغشى عليه الى مركبتى ، وجئنا به الى أقرب محطة ، وهناك فتح عينيه ، ونظر الىّ دهشاً ، وسألنى عن نفسى وعما حدث له . وكان ناظر المحطة واقفاً بجانبه ، ولذا اضطررت أن أجيبه بأن اسمى جيجيز حتى لا أثير الشكوك حول الجواز الذى بيدى ، فقد كان الوسيلة الوحيدة التى كنت أستطيع بها الحصول على خيل جديدة ولكن الجريح كان يعرف جيجيز ، فهز رأسه وقال بصوت ضعيف « لست الرجل الذى ذكرت » . ثم أطبق عينيه ثانية وانتابته حمى شديدة .

فضمدنا جراحه وعصبناها ، ولقد ساعدنى فى ذلك خادمى الفارس الذى كان ناظراً على اصطبلات أماسيس ، والذى رأى بردية ، وكذلك الشيخ العجوز المصرى المرافق لى . وأكد لى خادمى أن الجريح انما هو أخوك بردية . فلما أن غسلنا الدم الذى فوق وجهه أقسم ناظر المحطة أيضاً انه لا يشك أبداً فى أنه هو الابن الاصغر لأبيك كورش . وفى الوقت نفسه تلمس صاحبى المصرى جرعة من صندوق الأدوية الذى لا يمكن لمصرى أن يسافر بدونه . ولقد أتى الدواء بالعجب العجاب ، لأن الحمى هدأت بعد بضع ساعات ، وعند شروق الشمس فتح الجريح عينيه مرة أخرى فانحنينا أمامه على زعم أنه أخوك ، وسألناه هل نحمله الى القصر فى بابل . فأبى ذلك

ورفضه رفضاً شديداً ، وأكد لنا بأقوى العبـارات أنه غير الرجل الذى نظن ، بل هو .. »

فاعترضه الملك قال « ترى من يكون ذلك الرجل الذى يشبه بردية مثل هذا الشبه ؟ أسرع بالاجابة فانى فى تشوق عظيم لمعرفته . »

قال « لقد قال انه أخو كبير كهنتكم ، وان اسمه جوماتا ، واننا نستطيع التأكد من ذلك من الجواز الذى يحمله فى أحد ردنيه . فبحث الناظر عن ذلك الجواز ، وقرأه فتأكد من صحة قول الجريح . ثم تملكه دور آخر من أدوار الحمى و بدأ يهرف و يقول كلاماً مفككاً . »

قال « وهل تبينت شيئاً من حديثه ؟ »

قال « نعم لان كلامه كان يحوم حول نفس الموضوع . وكانت الحدائق المعلقة هى كل شىء يشغل فكره . و يظهر لى أنه لا بد قد نجا من خطر شديد ، ولعله قابل هناك حبيبته وهى امرأة اسمها ماندين كان على وعد اللقاء معها هناك . »

قال قمبيز بصوت منخفض « ماندين ، ماندين ! ان لم أكن مخطئاً فهذا اسم كبرى وصيفات ابنة أماسيس . »

لم تفت هذه الكلمات أذنى الاغريقى الحادتين ، ففكر لحظة ثم قال بصوت عال وعلى فمه ابتسامة « فك أسار المعتقلين أيها الملك ، وانى لاقول ان بردية لم يكن بالحدائق المعلقة ، وها هى رأسى أضعها بين يدى مولاى رهناً على ذلك . »

فبهت الملك لهذا الكلام غير أنه لم يتكدر ، فان مظهر هذا الاثينى الحر الطليق أحدث فى نفس الملك ما يحدثه النسيم العليل . لقد كان النبلاء فى بلاطه ، بل وأقاربه المقربون ، ينحنون اذا ما اقتربوا منه و ينذلون و يتملقون . ولكن هذا الاغريقى وقف أمامه شامخ الرأس منتصب القامة ؛ ولم يجرؤ الفرس قط أن يخاطبوا ملكهم بغير ذكر ألوف كلمات التمليق المزوقة المنمقة ، أما الاثينى فقد كان بسيطاً فى قوله صريحاً لم يداور ولم يحاور بل طرق الموضوع مباشرة . هذا الى أن كلامه كان مصحوباً بشىء من اللباقة والبيان ولطيف الاشارة جعل الملك يدركه تماماً على الرغم من ركاكة فارسيته ، و يفهمه خيراً مما يفهم خطب قومه البليغة الكثيرة الكناية

والمجاز . لقد كان كل من فانيس ونايتيتس الشخصين الوحيدين اللذين جعلاه ينسى أنه الملك ، ويشعر فى مكالمتهما أنه انما يخاطبهما مخاطبة الندللند لا مخاطبة الملك المستبد لرعاياه الصعاليك ، الذين لم يخلقوا الا لارضاء ميوله وأهوائه . ذلك كان الأثر الذى أنتجته الأنفة والشمم وشعور الانسان بحقه فى الحرية فى ذهن الملك المستبد العاتى . غير أنه كان بجانب ذلك شيء آخر ساعد على كسب رضى قمبيز عن الأثينى . لقد بدا له أن مجيء هذا الرجل قد يرد له الكنز الذى اعتقد أنه أضاعه . ولكن كيف يصح أن تقبل حياة جوال غريب ضماناً لأبناء أكبر رجالات دولة الفرس ؟ ومع ذلك فلم يكدره ذلك الطلب ، بل انه على العكس لم يستطع الا أن يبسم اعجاباً بشجاعة هذا الاغريقى الذى حرر نفسه خلال تحمسه من ذلك القماش الذى وضع فوق فمه وذقنه ، فصاح قائلا « وحق مثرا أيها الاغريقى ليظهر لى أنك لست الا رسول خير وسلام لنا . لقد قبلت طلبتك ، واذا فرض أن المعتقلين ستثبت عليهم الادانة رغم شهادتك فانك لابد قاض حياتك كلها فى بلاطى وفى خدمتى . أما اذا كنت قادراً على اثبات صحة ذلك الذى تتوق نفسك اليه توقاناً شديداً جعلتك أغنى بنى وطنك . »

فأجاب فانيس بابتسامة ظهر منها أنه يرفض ذلك العطاء السخى وسأل قائلا « هل يسمح لى بتوجيه بعض الأسئلة الى مولاى و بعض رجال حاشيته ؟ »

قال « لك أن تتحدث وتسأل ما شئت . »

وفى هذه اللحظة دخل ناظر الصيد يلهث ، وهو أحد أولئك الذين لهم شرف الجلوس على مائدة الملك يومياً . فقد بذل جهده فى الاسراع باعداد كل شيء ، ثم أعلن للملك ذلك .

فكان جواب الملك « فليقف كل شيء . لست أدرى هل سنذهب اليوم الى الصيد أم لا . أين يسكن ضابط الشرطة ؟ »

فخرج داتس وهو المسمى « عين الملك » مسرعاً من الحجرة ، وعاد بعد بضع دقائق ومعه الضابط المطلوب . وكان منصب داتس هذا فى تلك الأيام يعادل منصب وزير الداخلية فى أيامنا هذه . وألقى فانيس خلال ذلك على الأشراف الحاضرين

بضع أسئلة خاصة ببعض النقط الهامة .

واذ دخل الضابط وجثا على الأرض سأله الملك قائلا « ماذا عندك من أخبار المعتقلين ؟ »

قال « النصر للملك ! انهم ينتظرون حتفهم بهدوء لأنهم يرون أن الموت بأمر الملك حلو المذاق . »

قال « ألم تسمع شيئاً من حديثهم ؟ »

قال « نعم يا مولاى . »

قال « هل اعترفوا بجريمتهم خلال محادثاتهم ؟ »

قال « ليس يعرف ما فى الصدور غير مثرا . لو أنك يا مولاى تسمع حديثهم لاعتقدت ببراءتهم مثلى أنا خادمك الحقير الضعيف . »

ثم نظر الضابط الى الملك نظرة الوجل الخائف ، اذ خشى أن تثير هذه الكلمات غضب الملك . غير أن قمبيز ابتسم له بدلا من لومه وتعنيفه ، ولكن خاطراً فجائياً مر بذهنه فانقبضت له أساريره ثانية ، وسأل بصوت منخفض قائلا « متى نفذ اعدام كريسوس ؟ »

وهنا ارتعد الرجل لهذا السؤال ، وتصبب العرق على جبينه وارتج عليه فلم ينطق بغير هذه الكلمات « انه . . . لقد كان . . . ظننت : . . »

فاعترضه الملك وقد ظهرت له بارقة أمل قائلا « ما الذى ظننته ؟ أيمكن أنك لم تنفذ أوامرى فى الحال ؟ قل هل كريسوس باق على قيد الحياة ؟ تكلم . أجبنى بسرعة . »

فتلوى الرجل عند قدمى مولاه كالدودة ، وأخيراً قال وهو يتلعثم رافعاً يديه نحو الملك ضارعاً « الرحمة يا مولاى الرحمة ! اننى رجل فقير مسكين ، ولى من الأبناء ثلاثون خمسة عشر منهم . . . »

قال الملك « أريد أن أعرف هل كريسوس باق على قيد الحياة أم صار فى عداد الأموات . »

قال « انه حى يرزق . لقد خدمنى كثيراً ، ولم أكن أظن أننى أخطئ فى

السماح له بالبقاء حياً بضع ساعات حتى . . . . »

قال الملك وقد تنفس الصعداء « كفى ، كفى ، لن تعاقب هذه المرة على عدم طاعتك ، وسيعطيك أمين بيت المال ألفاً ذهباً لأن لك مثل هذا العدد الكبير من الأبناء . والآن قم الى المعتقلين فى سجنهم ، ومر كريسوس بالحضور الينا ، وقل لزملائه أن يتشجعوا ان كانوا أبرياء . »

قال « ان مولاى الملك ضوء هذا الوجود وبحر الرحمة . . »

قال « ليس هناك ما يدعو الى ايقاف بردية وصحبه بعد الآن . لهم أن يروحوا ويجيئوا فى فناء القصر وحجراته ما شاءوا ، وعليك أن تقيم الحرس والرقباء عليهم . وأنت يادانس اذهب فوراً الى الحدائق المعلقة ومر بوجيز أن يؤجل تنفيذ الحكم فى الأميرة المصرية ، وعدا ذلك فانى أريد أن يذهب الرسل الى محطة البريد التى ذكرها الاثيني ، وأن يحضر الجريح الى هنا مخفورا . »

وكان « عين الملك » على وشك المضى غير أن فانيس أعاقه قائلا « هل يسمح لى مولاى الملك بملاحظة واحدة ؟ »

قال « تكلم . »

قال « يظهر لى أن كبير الخصيان فى وسعه أن يدلى الينا بالحقيقة الخالصة ، فان الجريح أثناء بحرانه وهذيانه ذكر اسمه مراراً مع اسم الفتاة التى يظهر انه يهواها . »

قال الملك « اليه يادانس وأحضره على الفور . »

قال فانيس « وكذلك كبير الكهنة أورو باست أخو جوماتا يجب أن يحضر أيضاً ، ومااندين كذلك اذ قد ظهر أن لها دخلا فى الموضوع . »

قال الملك « ومااندين يا داتس . »

قال فانيس « واذا استطاعت نايتيس أن . . »

وعند ذلك أصفر الملك ، وسرت فى جسمه رعدة شديدة . ما كان أشد شوقه لرؤية حبيبة قلبه مرة أخرى . غير أن ذلك الرجل القوى كان يخشى نظرات التأنيب والتوبيخ تصوبها اليه هذه المرأة ، ولقد عرف القوة السحرية الكامنة فى عينيها . ولذا أشار لداتس أن يخرج وقال « أحضر بوجيز ومااندين ، أما الأميرة المصرية

فلنبق فى الحدائق المعلقة تحت الرقابة الشديدة . »

فانحنى الأثينى احتراماً كأنه يريد أن يقول « ليس لأحد هنا الحق أن يأمر سوى الملك . »

و بدا السرور على محيا قمبيز ، وجلس ثانية على مقعده الأرجوانى واضعاً يده على جبهته ناظراً الى الأرض ، وجعل يفكر تفكيراً عميقاً . لقد أبت أن تزول من مخيلته صورة المرأة التى أحبها هذا الحب الشديد ، فظهرت له المرة تلو الأخرى أكثر وضوحاً . و بدأ يرسخ فى ذهنه أن هذا الوجه الصبوح لا يمكن أن يخدعه — وأن نايتيتس لا بد أن تكون بريئة . وأخذت آماله تنتعش من جديد . انه لو ظهرت براءة بردية فكل خطأ يمكن تداركه . وفى هذه الحالة يذهب الى الحدائق المعلقة ، و يمسك بيدها و يصغى الى دفاعها عن نفسها . لئن أمسك الحب بناصية رجل فى ابان شبابه فانه يجرى و يلتوى فى جسمه كله كأنه وريد من أوردته ، ولن يمكن أن يذهب هذا الحب عنه الا اذا فارقته الحياة .

وأيقظ دخول كريسوس قمبيز من حلمه . فرفع الشيخ وكان قد انطرح عند دخوله على الأرض جاثياً أمامه ، ثم أنهضه وقال « لقد آذيتنى وأسأتنى ، ولكنى سأكون رحيما شفيقاً . اننى لم أنس أن أبى وهو على سرير موته قد أوصانى بأن أتخذك صديقاً وناصحاً أميناً . فها هى حياتك أردها اليك هبة منى ، وانس غضبى كما أريد أنا أن أنسى عدم احترامك لى . يقول هذا الرجل انه يعرفك ، وانى أريد أن أعرف رأيك فيما سيقوله لك من الأخبار . »

فأدار كريسوس وجهه وهو متأثر شديد التأثر ، و بعد أن سلم على الأثينى ورحب به سأله أن يعيد عليه تفصيل ما جرى أو الأسباب التى بنى عليها رأيه .

وكان كريسوس يظهر عليه الجد كلما مضى الاغريقى فى الحديث فلما أن انتهى منه رفع كريسوس يديه الى السماء قائلا : —

« صفحك أيتها الآلهة الخالدة وعفوك ان كنت استربت عدل أحكامك . أليس ذلك مدهشاً معجزاً يا قمبيز ؟ . ان ابنى عرض نفسه مرة لخطر عظيم كى ينقذ حياة ذلك النبيل الأثينى الذى أرسلته الآلهة الينا ليرد الجميل عشرة أمثاله . لو أن

فانيس قتل فى مصر لرأينا الساعة أبناءنا يعدمون . »

واذ قال ذلك عانق هستاسب ، فكلاهما كان يختلج صدره شعور واحد . لقد كان ولداهما فى عداد الموتى وقد بعثا للحياة الآن .

ولقد راقب الملك وفانيس وكل الأشراف الحاضرين ذينك الشيخين ، وشعروا نحوهما بعطف شديد . ومع أن الأدلة المثبتة براءة بردية مبنية على الحدس والظن فانه لم يشك أحد فيها بعد ذلك لحظة . لئن كان الاعتقاد فى اجرام رجل طفيفاً فان المدافع عنه يجد آذاناً مصغية لدفاعه .

الفصل الثاني والعشرون

البراءة

أدرك الأثيني بقريحته الوقادة كيف جرت الأمور في ذلك الحادث المحزن ، ولم يفته أن الحقد كان له دخل في المسألة . اذ كيف تسنى أن يوجد خنجر بردية في الحدائق المعلقة ان لم تكن يد الخيانة والغدر قد وضعته هناك .

وفيما هو يدلى الى الملك بآرائه جيء بأوزباست الى البهو . فنظر اليه الملك مغضباً وسأله دون أن يمهد لسؤاله بكلمة « هل لك أخ ؟ »

قال « أجل يا مولاى ، فهو وأنا الباقيان من أسرة عدد أفرادها ستة ، وكان أبواى . . . »

قال « هل أخوك أصغر منك أم أكبر ؟ »

قال « انى كبير اخوتى وأخى صغيرهم ، وقد كان أخى هذا مصدر سرور لأبى في شيخوخته . »

قال « ألم تلاحظ شبهاً ظاهراً بينه و بين أحد أفراد أسرتى ؟ »

قال « نعم يا مولاى فجوماتا يشبه أخاك بردية حتى لقد سماه أقرانه في مدرسة الكهنة في رهاج بالأمير . »

قال « وهل كان في بابل من وقت قريب جداً ؟ »

قال « لقد كان هنا آخر مرة يوم عيد رأس السنة . »

قال « أصدق ما تقول ؟ »

قال « ان خطيئة الكذب يتضاعف عقابها لمن كان يلبس أرديتي ويشغل منصبي . »

فظهر الغيظ والغضب عندئذ على وجه الملك وقال « ومع هذا فأنت تكذب لقد كان جوماتا هنا ليلة أمس ، فاستعد اذن للقصاص . »

قال « ان حياتي ملك لمولاى الذى له كل شيء ، ومع هذا فاني كرئيس الكهنة

أقسم بالاله الكبير العالى المتعالى ، الذى خدمته وعبدته عبادة خالصة نحو الثلاثين سنة ، اننى لا أعلم شيئاً عن وجود أخى أمس فى بابل . »

قال « ان على وجهك سمة الصدق . »

قال « انك تعرف يا مولاى أننى لم أفارقك لحظة خلال ذلك العيد الكبير كله . »

قال « أجل أعرف ذلك . »

واذ ذاك فتح الباب ، وفى هذه المرة أدخلت ماندين وهى ترجف من الخوف ، فألقى عليها كبير الكهنة نظرة دهش واستفهام ، فأدرك الملك أنها لا بد متصلة به لذلك لم يعرها التفاتاً ، وقد سقطت عند قدميه جاثية راجفة ، وقال « هل تعرف هذه ؟ »

قال « نعم يا مولاى ، وأنا الذى ساعدتها فى الحصول على منصب كبيرة الوصيفات لابنة أماسيس ، سألت أورامزدا أن يغفر لها خطاياها . »

قال « وما الذى دعاك وأنت كاهن أن تسدى الى هذه الفتاة هذه اليد ؟ »

قال « لقد مات أبواها بنفس الوباء الذى قضى على اخوتى . وكان أبوها كاهناً محترماً وصديقاً لاسرتنا ، فتبنينا الفتاة الصغيرة ، ذاكرين الكلمات الحكيمة القائلة : انك ان أمسكت عن مساعدة رجل طاهر القلب ، وقبضت يدك بعد وفاته عن اعانة أرملته و بنيه الأيتام ، اذن فلتقذف بك الأرض الطاهرة الى سقر و بئس المقر : ولهذا صرت ولى أمرها و ربيتها مع أخى الصغير حتى التحق بمدرسة الكهنة . »

فتبادل الملك وفانيس نظرة التثبت مما حدث وسأله « ولم لم تبقها معك بعد ذلك ؟ »

قال « انها حين تسلمت قرطيها رأيت من الأنسب أن أبعد مثل هذه الفتاة الصغيرة من دارى ، وأن أبعث بها الى مكان تستطيع فيه أن تكسب قوتها . »

قال « وهل لم تر الفتاة أخاك بعد أن كبرت ؟ »

قال « نعم يا مولاى . لقد كنت سمعت لجوماتا عند كل مرة يجيئنى بمقابلة الفتاة كما يقابل الأخ أخته ؛ ولكنى ، عندما استكشفت أن حب الشباب الحار بدأ يحل محل صداقة الطفولة السابقة ، قويت عندى الرغبة فى ابعادها من منزلى . »

قال الملك « لقد عرفنا ما فيه الكفاية » . ثم أشار بهزة من رأسه أن ينتحى

مكاناً ، ثم نظر الى الفتاة الجاثية ، وقال بلهجة الآمر « انهضى . »

فنهضت ماندين وهى ترجف من الخوف ، وكان وجهها النضر بميعة الشباب أصفر كوجوه الموتى ، وأزرقت شفتاها من شدة الخوف .

قال الملك « حدثينا بكل ما تعرفين عن حوادث الأمس ، واعلمى أن أكذوبة واحدة فيها هلاكك . »

فارتجفت ركبتا الفتاة بشدة حتى كادت تقع ، وسلبها الخوف قوة النطق فأخرس لسانها .

قال قمبيز « ان اصبرى حداً . »

ففزعت ماندين وزادت صفرة وجهها ولم تقو بعد على النطق . واذ ذاك تقدم فانيس وطلب الى الملك الغاضب أن يسمح له باستجواب الفتاة لأنه وثق تماماً أن الخوف وحده هو الذى كم فاها ، وأن كلمة طيبة قد تعيد لها الطمأنينة فتحل عقدة لسانها .

فسمح لها قمبيز بذلك . وقد كان الأثينى على حق فانه ما كاد يطمئن ماندين واضعاً يده على رأسها ، مخاطباً اياها فى لطف ورقة ، حتى انساب مغلق دمعها ، وبكت ما شاءت أن تبكى ، وزالت عنها تلك الرقية السحرية التى حبست لسانها ، فبدأت تقص حكايتها وهى تتنهد . ولم تخف شيئاً واعترفت أن بوجيز قد سمح لها بمقابلة جوماتا ، بل وساعدها على ذلك . وختمت كلامها قائلة « اننى أعلم أننى أضعت حياتى ، وأننى منكودة الحظ ناكرة للجميل . غير أنه ما كان يحدث شىء من هذه المساوىء لو أن أوروباست سمح لأخيه أن يتزوج منى . »

فلم يستطع الحضور ، ومن بينهم الملك ، وهم فى هذا الموقف الا أن يبتسموا لدى سماعهم الفتاة ينطق الهوى لسانها بهذه الكلمات التى تلاها وابل من التنهدات .

ولقد انقذت ابتسامة الملك حياتها . ولكن قمبيز ما كان يبتسم بعد سماعه مثل هذا الحديث لو لم تكن ماندين قد أدركت بتلك الغريزة الفطرية وهى سرعة الخاطر التى تتدارك النساء عند حاول الخطر ، كيف تلمس نقطة الضعف منه ، وتستخدمها لصالحها . لهذا أطالت فى شرح سرور نايتيتس الذى أبدته ساعة تسلمت هدايا

الملك ، وأطنبت فى ذلك اطناباً لا لزوم له .

قالت « لقد لثمت سيدتى هداياك يا مولاى ألف مرة . ولطالما قبلت باقة الزهر التى جمعتها لها بيديك منذ بضعة أيام . ولما بدأت تذبل زهور هذه الباقة ، جعلت تأخذ كل زهرة على حدة ، وتنشر تويجاتها بعناية تامة ثم تضعها بين غطاءين من الصوف . وحملت بيديها الرقيقتين صندوق زينتها وعطورها على الرغم من ثقل وزنه ، ووضعته فوقها كى تجف ، و بذلك تحفظها لديها ذكرى لرقك وتلطفك معها يا مولاى . »

ولما أن رأت أسارير قمبيز تنفرج رويدا رويدا لدى هذه الكلمات تشجعت ومضت فى الحديث تسند لسيدتها كلمات حب وغرام لم تفه بها أبدا ، معترفة أنها هى نفسها سمعت نايتيتس أكثر من مائة مرة تردد فى نومها كلمة « قمبيز » بلهجة عذبة رقيقة فيها كل العطف . وختمت اعترافها بالبكاء وطلب الرحمة .

فنظر اليها الملك نظرة الاحتقار الشديد ولكن دون أن تتملكه سورة الغضب ثم لكزها بقدمه قائلا « اغربى عن وجهى يا أخس النساء . أولى بدمك أن يخضب فأس الجلاد . أغربى عن وجهى . »

ولم تكن ماندين فى حاجة الى أمر آخر كى تخرج مسرعة . لقد كان لكلماته « أغربى عن وجهى » وقع موسيقى فى أذنيها ، فاندفعت تجرى بين أفنية القصر ثم الى الشوارع وهى تصيح كمن بها مس قائلة « ها أناذا حرة لم أعتقل ، ها أنذا مطلقة السراح . »

ولم تكد تترك البهو حتى دخل داتس — عين الملك — يحمل أنباء ان كبير الخصيان قد اختفى ولم يمكن العثور عليه . وانه كان فى الحدائق المعلقة ثم اختفى منها على صورة غريبة ، وأن الاوامر صدرت باحضاره حياً أو ميتاً . وأخفى عن الملك هياج الشعب فى المدينة .

فازداد غضب الملك لذلك ، وهدد الضابط بأقصى عقاب ان لم يجد بوجيز حتى صباح الغد .

وعلى أثر ذلك دخل البهو خصى من قبل أم الملك يطلب الاذن لها بمقابلة الملك .

فأظهر قمبيز فى الحال الرغبة فى اجابة طلب أمه ، ومد يده لفانيس كى يقبّلها ، وكان ذلك شرفاً عظيما لا يحصل عليه الا اولئك الذين ينعمون بالجلوس على مائدة الملك ، ثم قال « أطلقوا سراح المسجونين ، وأنتما أيها الوالدان الوالهان المتعبان اذهبا الى ولديكما وأكدا لهما شفقتى وعطفى عليهما . وأظن أن فى الامكان أن توجد لكل منهما ولاية تقيمة عليها مرزبانا تعويضاً عن اعتقالهما هذه الليلة خطأ . أما أنت يا صديقى الاغريقى فانى مدين لك ديناً كبيرا . وابراء لذمتى من هذا الدين ، واستبقاء لك معى فى بلاطى ، أرجو أن تقبل منى مائة وزنة (١) ذهباً تقبضها من خزائنى . »

قال فانيس وقد انحنى « ان هذا المبلغ كبير علىّ يا مولاى وأكاد لا أحسن استعماله . »

قال الملك وهو يبتسم له ابتسام الولاء والاخلاص « اذن فأسئ استعماله ، وسنتقابل عند العشاء . »

ثم ترك البهو تصحبه بطانته .

* * *

وكان الحزن يخيم وقتئذ على حجرات أم الملك . لقد تأثرت بما فى كتاب نايتيتس الى بردية فحكمت بخيانتها وعدم أمانتها لزوجها ، وقضت ببراءة ولدها براءة تامة . ولكن أنى لها بعدئذ أن تثق بمخلوق ، وها هى ترى أن نايتيتس التى ظنت فيها أنها جمعت فى شخصها كل الفضائل النسائية قد برهنت على الخيانة والدعارة ، وظهر لها أيضاً أن أشرف شباب الفرس كاذبون حانثون فى ايمانهم .

لقد كانت نايتيتس لديها فى عرف المائتة ، وكان بردية وكريسوس ودارا وجيجيز وأراسب ، وهم أولاء الذين تجمعهم بهم صلة القربى والود ، فى عرف البائدين الهالكين أيضاً . ومع ذلك لم ترخ العنان لحزنها ، رغبة منها فى ايصاد قلب ولدها الغضوب عن اليأس القاتل .

---

(١) الوزنة تعادل ٢٢٥ جنيها تقريبا .

أما آتوسا فكانت كمن فقدت حواسها ومشاعرها حينما سمعت حكم الموت يصدر على القوم. فذهب عنها حجاها ، وأفلت من يدها قياد نفسها ، وكانت تعلمت من نايتيتس كيف يكون الحجا والوقار ؛ وعاد اليها نزقها القديم بل وتضاعف .

فنايتيتس صديقتها الوحيدة ، وبردية أخوها الذى أحبته من كل قلبها ، ودارا الذى أصبحت تشعر نحوه أنه ليس من أنقذ حياتها فحسب بل الشخص الذى منحته قلبها وحبته بهواها الاول ، وكريسوس الذى تعلق به كما تعلق بأبيها — كل هؤلاء ستفقدهم فى يوم واحد ، وهم كل من أحبت .

فشقت ثوبها ، وقطعت شعرها ، وقالت ان قمبيز وحش قاتل ، وان كل من يعتقد فى اجرام مثل هؤلاء القوم ليس الا معتوناً مجنوناً . ثم انسجم دمعها ، وعلا صراخها للآلهة ضارعة مبتهلة أن ترحم الضعفاء وترفق بهم . وبعد ذلك جعلت تستحلف أمها أن تستصحبها الى الحدائق المعلقة كى تسمع دفاع نايتيتس عن نفسها وعن سلوكها .

فحاولت كاساندين أن تهدئ من ثائرة الفتاة ، وأكدت لها أن كل محاولة تبذل بقصد زيارة الحدائق المعلقة ذاهبة سدى . واذ ذاك ثارت آتوسا ثانيـة فاضطرت أمها أن تنهرها وتأمرها بالسكوت . واذ أوشك الفجر أن يطلع أرشدتها الى مخدع نومها.

أطاعت الفتاة أمها غير أنها بدلا من أن تذهب الى سريرها جلست فى نافذتها تطل على الحدائق المعلقة . وغصت عيناها بالدموع ثانية حينما جرى بها الفكر الى صديقتها — الى أختها — وهى تقيم وحدها فى هـذا القصر مهجورة منبوذة تنتظر ميتة شائنة . ثم لمعت عيناها الدامعتان المتعبتان فجأة كأن خاطراً قوياً خطر ببالها ، وبدلا من أن تطيل التحديق فى الفضاء أمامها نبتت ناظريها على جسم أسود يتحرك نحوها قادماً من ناحية مسكن نايتيتس . وصار الجسم يكبر ويبدو شيئاً فشيئاً وأخيراً حط رحله على شجرة سرو تجاه نافذتها . فذهب عن وجهها الجميل الحزن وولى دفعة واحدة ، وقفزت صائحة وهى تتنفس الصعداء « ها هو الهوماى[1]، طائر السعد ! لا بد أن يتغير كل شىء ، وسيأتى بعد الضيق الفرج ! »

---

(١) عصفور الجنة فى لغة الفرس .

ولقد كان هـذا الطائر هو نفس عصفور الجنـة الذى بعث فى قلب نايتيتس عزاء وسلوى ، وها هو الآن قد بث فى فؤاد آتوسا أملا جديداً ورجاء واسعاً .

فأطلت من النافذة تريد أن ترى هل يوجد أحد فى الحديقة ، ولما أيقنت أنه ليس فيها سوى البستانى الشيخ قفزت من النافذة الى الحديقة وهى ترجف كالظبى ، واقتطفت بعض الورود وبعض عساليج السرو ثم حملتها الى الرجل وكان يرقب عملها وهو يهز رأسه دهشاً مرتاباً .

واقتربت منه ملاعبة تخط بأصابعها خديه ثم وضعت الزهور فى يديه السمراوين وقالت « هل تحبنى يا سباسيز ؟ »

قال وهو يقبل طرف ثوبها « مولاتى ! »

قالت « اننى مصدقة اياك يا صاحبى القديم ، وسأريك مقدار ثقتى فيك . أخف هذه الزهور ، وحافظ عليها ، واذهب تواً الى قصر الملك ، وقل انك جئت بالفاكهة وهناك تجد أخى بردية المسكين ومعه دارا ابن النبيل هستاسب سجينين فى السجن القريب من ثكنة فرقة الخوالد . فتدبر فى كيفية ايصال هـذه الزهور اليهما ومعهـا تحيتى الخالصة . »

قال « ولكن الحراس لن يسمحوا لى بمقابلة السجينين . »

قالت « اليك هذه الخواتم ارشهم بها . »

قال « سأعمل كل ما فى وسعى . »

قالت « اننى أعلم من قبـل أنك تحبنى يا سباسيز . أسرع بربك وعد الىّ سريعاً . »

فمضى الرجل مسرعاً ونظرت اليـه آتوسا وهو يجرى وقالت لنفسها « سيعلمان الآن أننى أحببتهما حتى النهاية . فالورد معناه انى أحبك ، وعساليج السرو الخضراء معناها انى صادقة الود ثابتة الحب . »

وبعد ساعة عاد اليها الشيخ حاملا لها من بردية خاتمه ، ومن دارا منديلا حريراً مغموساً فى الدم .

فأسرعت آتوسا للقائه ، واغرورقت عيناها بالدموع حينما أخذت منه ذينك

التذكارين ثم جلست تحت شجرة باسقة وجعلت تقبـل الخاتم تارة والمنديل تارة أخرى وهى تقول « خاتم بردية معناه أنه يفكر فىّ ، ومنديل دارا الملطخ بالدم معناه أنه مستعد أن يبذل دم قلبه لأجلى . »

وابتسمت آتوسا اذ قالت ذلك وجعلت تبكى هادئة عن ذى قبل عند تذكرها صاحبيها وحظهما السيء ، وان كان بكاؤها مراً .

***

بعـد ذلك ببضع ساعات جاء رسول من قبل كريسوس يحمل نبأ براءة بردية وصحبه ، و يعلن كذلك براءة نايتيتس من جميع التهم التى وجهت اليها .

فأرسلت كاساندين فى الحال الى الحدائق المعلقـة تطلب حضور نايتيتس الى حجراتها . وأسرعت آتوسا تجرى ، مطلقة العنان لفرحها كما أطلقته لحزنها ، تريد أن تلقى محفة صاحبتها وصارت تجرى متنقلة بين وصيفاتها ، من واحدة لأخرى ، وهى تصيح قائلة « انهم كلهم أبرياء لن نفقد واحداً منهم — ولا واحد . »

ولما أن ظهرت المحفة أخيراً وعليها صديقتها العزيزة صفراء كالموتى تفجر حزنها ورمت بذراعيهـا حول نايتيتس وهى هابطة ، وأوسعتها لثما وتقبيلا وملاطفة حتى أدركت أن قوى صديقتها واهنة ، وأن ركبتيها لا تستطيعان حملها ، وأنها فى حاجة الى من يسندها و يكون أقوى من آتوسا الضعيفة .

ورمقت نايتيتس ذلك الجمع الذى يشمل كل من أحبتهم بنظرات المشتاق المضطرب ، وأخيراً تبينتهم واحداً واحداً وأمرّت يدها على جبهتها المصفرة كما لو كانت تريد ازاحة نقاب منسدل على وجهها ، ثم ابتسمت لـكل وأطبقت عينيها مرة أخرى . ظنت أن ايزيس قد أرسلت لها هذا المنظر السار الجميل فرغبت أن تحتفظ به فى مخيلتها بكل ما أوتيت من قوة .

فنادتها آتوسا باسمها جادة متلطفة ففتحت عينيهـا مرة أخرى فلم تر الا تلك النظرات الودودة الصادقة التى ظنت أنها انما أرسلت اليهـا فى حلم من الأحلام . نعم هذه آتوسا — وتلك هى التى اتخذتها أما ، وهنـاك وقف الرجل الذى تهواه لا ذلك الملك الغاضب . ورأت شفتيه تتحركان ، وعينيـه عليها تسكنان ضارعا

متوسلا قال « أفيقى يا نايتيتس أفيقى . لست جانيـة ولا آثمة . كلا لا يمكن أن تكونى كذلك . » فحركت رأسها حركة لطيفة ، وانطبعت على فمها ابتسامة سارة هى أشبه شىء بالنسيم العليل يهب فى البكور زمن الربيع على الورود النضرة اليانعة.

قال الملك ثانية « انها بريئـة وحق مثرا . محال أن تكون مجرمة آثمة . » ثم نسى نفسه والواقفين حوله وجثا بجوارها على ركبتيه .

واذ ذاك حضر طبيب فارسى ودلك جبهتها بزيت عطر واقترب نبنخارى وهو يتلو الرقى والتعاويذ وجس نبضها ، ثم هز رأسه و بعث فى طلب جرعة من صندوق أدويته . فأعادت هذه اليها شعورها كاملا . واستوت على الوسائد بصعوبة وشكرت لصاحبتيها ملاطفتهما لها ، ثم التفتت الى قمبيز وقالت « كيف استطعت يا مولاى أن ترجم فىَّ مثل هذه الظنون ؟ » ولم يكن فى لهجتها شىء من التأنيب بل فيهـا حزن عميق فأجاب قمبيز فى لطف قائلا « عفواً وسماحاً . »

وعندئذ ظهر على عينى كاساندين العمياء علامات شكرها لولدها على تنـازله ونكران نفسه وقالت « وانا أيضاً يا ابنتى فى حاجة لعفوك ورضاك . »

قالت آتوسا معجبة فرحة وهى تقبـل شفتى صديقتها « أما أنا فما شككت فيك قط . »

قالت كاساندين « ان خطابك لبردية قد هز ثقتى فى براءتك . »

قالت نايتيتس « ومع ذلك فقد كان بسيطاً وطبيعياً . اليك هذا الخطاب يا أماه لقد جاءنى من مصر ، وسيقوم لك كريسوس بترجمته ، وفيه بيـان كل شىء . نعم لا يبعـد أنى لم أكن حازمة فى بعض ما مضى . وأنت يا مولاى سل الملكة أمك تخبرك بكل ما تريد الوقوف عليـه . وانى لأرجو منكم أجمعين أن لا تطيلوا عذل أختى المريضة المسكينة ، وان لا توسعوها لوما وتأنيبا . انه متى لمس الحب قلب فتاة مصرية فانها تلقى المنون ولن تجد السلوى الى قلبها سبيلا . أرانى خائفة . ان نهايتى لابد قريبة . لقد كانت الساعات الأخيرة مهولة مفزعة ، فلقـد قرأ ذلك الرجل الفظيع بوجيز حكم الموت علىَّ وما كان أرهبه حكما دفع السم الى يدى . أواه ، قلبى ، قلبى ! »

واذ قالت ذلك سقطت بين ذراعى كاساندين .

فأسرع اليها نبنخارى وأعطاها بعض نقط أخرى وهو يقول « هكذا ظننت . لقد شربت سما ولن يمكن انقاذ حياتها ، وغاية ما تستفيده من هذا الترياق انه قد يطيلها اياما قلائل . »

ووقف قمبيز بجواره أصفر لا حراك به يتبع بنظره حركات الطبيب . و بلت آتوسا بدموعها جبين صديقتها .

قال نبنخارى « أحضروا بعض اللبن الى ، وجيئونى بصندوق أدويتى الكبير ، وعلى الوصيفات أن يحملنها من هنا لأن الراحة ضرورية لها قبل كل شيء . »

فأسرعت آتوسا الى الحجرة الملاصقة ، وقال قمبيز للطبيب دون أن ينظر الى وجهه « أما من رجاء ؟ »

قال « ان السم الذى تعاطته لا بد محدث الوفاة . »

واذ سمع الملك ذلك دفع نبنخارى عن نايتيتس وصاح به « لا بل ستعيش . تلك ارادتى . أيها الخصيان ادعوا أطباء بابل واجمعوا الكهنة والسحرة . أريد أن لا تموت . هل تسمعون ؟ يجب أن تحيا . اننى الملك واننى آمر بذلك . »

ففتحت نايتيتس عينيها كأنما تريد اطاعة حبيبها ومولاها . ثم استدار وجهها ناحية النافذة ، وكان لا يزال عصفور الجنة بسلسلته الذهبية جاثما على شجرة السرو هناك . فوقعت عيناها أولا على حبيبها وعاشقها ، وقد سقط على ركبتيه بجوارها يقبل يدها اليمنى بشفتين ملتهبتين . فقالت وهى تبسم « يا لهذه السعادة العظيمة ! »

ثم رأت الطائر فأشارت اليه بيسراها وقالت « انظروا ، انظروا الى العنقاء ، الى طائر رع . »

واذ قالت ذلك أطبقت عينيها وانتابتها حمى شديدة .

الفصل الثالث والعشرون

الشيخ رهب

أحضر بركساسب ، وهو رسول الملك وأحد كبار رجال البلاط ، جوماتا حبيب ماندين ، وكان يشبه بردية شبهاً عظيماً ، الى بابل وهو مريض مثخن بالجراح . ومكث فى حبسه الانفرادى ينتظر الحكم عليه . أما بوجيز الذى دفع به الى الجريمة فلم يعثروا له على أثر رغم المساعى التى بذلها رجال الشرطة . وقد سهل عليه سبيل الهرب ذلك الباب السرى الموجود فى الحدائق المعلقة ، وساعده على الاختفاء احتشاد الجماهير فى شوارع بابل . ووجد الشرطة فى داره كنوزاً كثيرة وتحفاً ثمينة . وجدوا فيها صناديق ملأى بالذهب واللؤلؤ ، ساعده منصبه على الحصول عليها بسهولة ، فأعيدت الى الخزانة الملكية . على أن قمبيز كان يود لو دفع عشرة أمثالها فى سبيل القبض على ذلك الخائن الأثيم .

وما كان أشد خيبة أمل فايديم اذ أمر الملك بانتقال كل نسائه وخصيانه الى سوسا ، ما عدا أمه وآتوسا ونايتيتس المحتضرة ، وكان ذلك بعد ظهور براءة المتهمين بيومين اثنين . وقد أقيل عدد كبير من الخصيان من مناصبهم ، فالقد كان على هذه الطغمة أن تكفر عن خطايا ذلك الرجل الهارب من القصاص وعن آثامه .

فعهد أوروباست بالمناصب الخالية كلها الى بعض المجوس من رجاله ، وكان قد تسلم منصبه كنائب عن الملك بعد أن ثبت للملك أنه لم يكن له أدنى علم بالجريمة التى اجترمها أخوه . أما المظاهرة التى قام بها الجمهور تكريماً لبردية فلم يصل خبرها الى أذنى الملك الا بعد أن تفرق الناس بزمن . وعلى الرغم من جزعه على نايتيتس الذى شغل كل مشاعره أمر باجراء تحقيق دقيق عن كل ما حدث ومعاقبة رؤساء المتظاهرين ، فلقد عد ذلك برهاناً على محاولة بردية اكتساب عطف الشعب عليه وكان باستطاعة قمبيز أن يظهر عدم ارتياحه لبردية بعمل حاسم يعمله جهاراً لولا أنه استشعر من نفسه أنه أولى من أخيه بطلب عفوه . على أنه مع ذلك لم يستطع أن

يبعد عن ذهنه أن بردية ، مع براءته مما نسب اليه ، كان السبب فى كل ما حدث من الحوادث الأليمة. وكذلك لم يستطع صد رغبته فى ابعاده عن طريقه بقدر ما يمكن ولذلك وافق على رغبة أخيه فى السفر تواً الى نقراتس .

فودع بردية أمه وأخته وسافر بعد خروجه من السجن بيومين . وصحبه جيجز وزوبيروس وركب كبير يحمل هدايا قمبيز الى صافو . وبقى دارا فى فارس . منعه عن السفر حبه لآتوسا ؛ ولأن اقترانه بأرتستون ابنة جوبريس ، طبقاً لارادة والده كان قريباً .

وترك بردية صديقه دارا وهو حزين مكتئب ، ونصحه أن يكون فى منتهى الحزم مع أخته آتوسا . وكان بردية قد حدث أمه بسر دارا فوعدت أن تساعده عند الملك .

ولئن صح أن يتطلع أحد الى ابنة كورش فلن يكون غير ابن هستاسب لأنه من سلالتها ، وحق الملك بعد بيت كورش يكون لبيت هستاسب الذى يعتبر نفسه أول نبيل فى الدولة بعد الأسرة المالكة . وكان على هذا الاعتبار يحكم فارس ، وهو رأس تلك الأمبراطورية الضخمة ، واليها ينتسب الملك نفسه . وعلى ذلك فان دارا ، عدا ماله من الميزات الشخصية ، أكثر طلاب يد آتوسا ملاءمة . ولكن . يجسر أحد ، مع كل ذلك ، على أن يسعى عند الملك فى هذا الامر . وهو فى مثل تلك الحالة الفكرية المتجهمة التى دفعته اليها تلك الحوادث الأخيرة قد يرفض ولئن رفض كان رفضه باتا قاطعاً لا يمكن الرجوع فيه . ولهذا اضطر بردية الى ترك فارس وهو قلق على مستقبل ذينك الاثنين العزيزين لديه .

ووعد كريسوس أن يتوسط فى الأمر عند سنوح الفرصة . وقبل أن يغادر بردية فارس عرفه بفانيس .

وكان الفتى قد سمع الكثير عن الأثينى من صافو ، فقابله مقابلة ودية جداً ؛ وسرعان ما اكتسب قلب الرجل الذى بدأ يشير عليه باتباع ما دلته عليه تجاريبه الكثيرة . وأردف ذلك بأن سلمه كتاباً الى ثيوبومبس الميليسى المقيم فى نقراتس ؛ وختم فانيس حديثه معه سائلا اياه أن يسمح له بمحاوة معه . *

ولما عاد بردية الى اخوانه كان محياه مغشياً بسحب الأفكار ولكن سرعان ما ذهب عنه القلق فجعل يمزح معهم وهو يشرب معهم الخمر قبل سفره . وفى الصباح التالى قبل أن يمتطى ظهر جواده جاءه نبنخارى يلتمس منه ايصال كتاب الى أماسيس وكان فيه شرح مستفيض لكل ماحل بنايتيتس وكل ما عانته ، وختمه بهذه العبارة :

« وهكذا بعد ساعات قليلة ستنتهى حياة هذه المنكودة الحظ ضحية أطماعك وما آربك بالسم الذى ألجأها اليأس الى تعاطيه . وهكذا تطمس الأهواء الجائرة للملك القادر المستبد كل معالم السعادة فى حياة الانسان الضعيف وتمحوها كما تمحو الاسفنجة الصور عن اللوح . وعبدك نبنخاري ينحل جسمه فى بلاد الغربة محروما من وطنه وممالك ، وتموت المنكودة الحظ ابنة أحد ملوك مصر بيدها ميتة شائنة بطيئة . وستمزق الكلاب والجوارح جثتها شر ممزق حسب الطقوس الفارسية . فالويل ثم الويل لكل من يسلب الأبرياء سعادتهم فى الدنيا وراحتهم فى القبر . »

ووعد بردية بايصال هذا الكتاب وهو لا يدرى من محتوياته شيئا . و بعدئذ خرج وسط هتاف الشعب من باب المدينة بعد أن كوّم الحجارة عنده تبعاً لخرافة(١) فارسية لكى يضمن لنفسه سفرا سعيدا ، ثم غادر بابل .

وعندئذ عاد نبنخارى أدراجه الى مكانه بجوار سرير نايتيتس . فما كاد يصل الى الابواب النحاسية التى تصل بين حدائق قسم الحرم وأفنية القصر الكبير حتى اقترب منه رجل مسن ذو حلة بيضاء . فلما رآه قلب نبنخارى رعبا ، وفزع كأنما ذلك الشيخ الهزيل روحا جاءت من عالم الارواح . فلما أن تبين من وجه الرجل ابتسامته التى يعرفها هو أسرع الخطى نحوه ، وأمسك بيده يصافحه و يسلم عليه بشغف واخلاص لم يرهما الفرس فيه، وخاطبه بالمصرية قائلا « وهل أستطيع تصديق عينى ؟ أنت فى فارس ياهيب (٢) ؟ لقد كنت أتوقع أن تنقض السماء على الارض وما كنت أتوقع أن أسعد برآك على ضفاف الفرات . فقل لى بحق أوزيريس ما الذى أغراك

(١) خرافة كانت مرعية لدى الفرس تيمنا برجوع المسافر سالما .

(٢) هو ايبيس « كركى » وكثيرا ما كان المصريون يتسمون باسماء الحيوانات المقدسة .

أيهـا الكركى الضئيل على هجر وكرك الدافئ على ضفة النيـل ومكابدة عناء هـذا السفر الطويل الينا فى مشارق الارض ؟ »

وكان الرجل خافضا رأسه خلال ذلك ويداه متدليتان على جانبيه ، فلما أن فرغ من حديثه رفع وجهه اليه وعليه آيات الفرح الشديد ، ثم امس صدره بأصابع مرتجفة ، وبعدئذ جثا على ركبته اليمنى واضعا يده اليمنى على صدره ورافعا الاخرى الى السماء وقال « شكرا لك يا ايزيس العظيمة ، فقد كلأت برعايتك السائح الجوال وسمحت له أن يرى سيده ثانية وهو فى صحة وعافيـة وأمن وسلام . أى بنى ما كان أشد شوقى اليك ! توقعت أن أراك ضعيفا مهزول الجسم كالمحكوم عليه يرجع من المحاجر والمنفى . ظننت أنى أراك محزون القلب بائسا فاذا بى أراك معافى نضر الوجه سمين الجسم كما كنت دائما . لو أن هب العجوز المسكين كان مكانك لقضى نحبه من زمن بعيد . »

قال « أجل أيها الصديق ما شككت فى ذلك قط . وانى كذلك ما غادرت بلادى عن رضى وطواعيـة ، لا وما تركتها بغير كبير ألم وشجو . ان هؤلاء الأجانب كلهم ليسوا الا أبناء سيت إله الشر ، ولن توجد الآلهة الأخيار الرؤوفة فى غير مصر وعلى غير ضفاف النيل المقدس المبارك . »

قال « لا أعرف أنه ميمون مبارك . »

قال « انك تخيفنى يا أبى هب فماذا حدث اذن ؟ »

قال « ماذا حدث ؟ ! ما كان أجمل مجرى الأمور ! ستسمع عنهـا الكفاية . أو تظن أننى أترك دارى وعيالى ، وأنا فى هذا السن وقد كدت أبلغ الثمانين ، كأنى شريد اغريقى أو طريد فينيقى ، وأجىء الى هذه البلاد لأعيش بين أولئك الأجانب عنى الذين لا آلهة لهم (أهلكتهم الآلهة أجمعين) — أقول هل كنت أتجشم ذلك لو أننى استطعت البقاء بمصر . »

قال « تخبرنى اذن بكل شىء . »

قال « فيما بعد ، فيما بعد . أما الآن تخذنى الى دارك ، وانى لن أبرحها ما دمنا فى أرض الشيطان ، أرض تيفون هذه . »

قال هب ذلك ووكده حتى أن نبنخارى ابتسم وقال « هل أساءوك الى هـذا

الحد أيها الشيخ ؟ »

قال « سحقا لهم ومحقا ! سلطت الآلهة عليهم الأوبئة وريح السموم . ليس من بنى تيفون مثل هؤلاء الفرس فى الصغار وعدم المنفعة . يدهشنى أنهم ليسوا جميعا حمر الشعور مجذومين . لقد مضى علىّ يومان يا بنى وأنا فيما ترى من جحيم ، ولقد اضطررت أن أقيم ذلك الوقت كله بين هؤلاء الكفرة الفجرة . ولقد قالوا لى انه ليس باستطاعة أحد أن يراك ، وانه غير مسموح لك أن تبارح سرير نايتيتس . مسكينة هذه الفتاة ! لطالما قلت أن هذا الزواج لن ينتهى بالخير . ولقد كان الجزاء الأوفى لأماسيس أن بنيه كانوا سبب تعبه وشقائه . وهو يستحق ذلك لمحض سلوكه مع الملك فقط . »

قال « عيب وعار أيها الرجل . »

قال « هراء وسخف . يجب أن ينطق الانسان أحيانا بما يختلج صدره . اننى أمقت الملك ينصب علينا وليس يعرف أحد من أين جاء . أما كان يسرق البندق من أبيك وهو طفل صغير ، وكان يخطف لوحة الاسماء من فوق أبواب الدور ؟ لقد كنت أرى فيه اذ ذاك انه لا يصلح لشىء وانه لمن العار أن يسمح لمثل هذا الشخص أن . . . »

قال « رويدك ايها الشيخ . لسنا كلنا من معدن واحد ، ولئن وجد فرق ضئيل بينك و بين أماسيس ، وانتما صغيران ، فانت المليم الآن وانت شيخ كبير ، لانه تخطاك بمثل هذه المراحل . »

قال « لقد كان ابى وجدى خادمين فى الهيكل ، وما كان طبيعيا ان انسج على غير منوالهما (١) »

قال « انك محق فى ذلك فهذا ما يقضى به قانون العشيرة . وكان واجبا على أماسيس ، اتباعا لهذا القانون ، أن لا يتخطى أن يكون ضابطا فى الجيش فقط . »

قال « المسألة ترجع الى الضمير ، وليس فى الناس من له ضمير اسلس من ضمير اماسيس المتوثب على الملك . »

---

(١) كان الابن فى الغالب يرث مهنة أبيه .

قال « ها أنت تحيد ثانية . ذلك عيب ياهب وعار ما بعده عار . انني أحفظ لك ، من نحو خمسين سنة ، ان كل كلمة منك كانت شتما وسبابا . واني لاذكر ، وأنا طفل ، كيف كنت تحقد عليّ ، وها هي حدة طبعك توجهها الى الملك الآن . »

قال « ولكنه يستحق ذلك . ليتك تعرف الآن كل شيء . لقد مضى عليّ اليوم سبعة شهور حين . . »

قال مقاطعاً « ليس في وسعي التمهل لاستماع حديثك الآن . وعند طلوع الثريا في السماء سأرسل لك عبداً يقودك الى حجراتي . فابق اذن حيث أنت الى أن يجيئك رسولي ، اذ يجب عليّ أن أذهب للمريضة . »

قال « يجب ؟ حسن جداً . فاذهب اذن واترك هب العجوز المسكين هنا كي يموت . لست أستطيع قط المكث ساعة واحدة بين هؤلاء القوم . »

قال « وما الذي تريده مني الآن ؟ »

قال « أريد أن اكون بجوارك طول اقامتك في فارس . »

قال « وهل أساء الفرس معاملتك لهذا الحد ؟ »

قال « نعم أساءوني ، واني لأعاف التفكير في ذلك . لقد أرغموني على أن آكل معهم في وعاء واحد ، وأن أقطع خبزي بنفس السكين الذي يقطعون به خبزهم . ولقد قدم لهم أحد سفلتهم ، وقد اقام بمصر سنوات عدة وجاء معنا ، كشفا ذكر فيه كل الاشياء والفعال التي نعتبرها نحن دنسة نجسة . ولقد أخذوا مني موساي حين هممت بحلق ذقني . وقبلت جبهتي فتاة ماكرة قبل أن أستطيع منعها . لا تضحك مني ، وسيمضي شهر على الأقل قبل أن أتطهر من كل هذه الأرجاس والأدناس . ولقد تعاطيت مقيئاً ، فلما بدأ يفعل فعله سخروا مني وهزأوا بي . على أن ذلك لم يكن كل ما أصابني من هؤلاء ، فلقد ضرب صبي أحد الطهاة ، لعنة الآلهة عليه ، أمامي قطة مقدسة ضربة مميتة . وطلب أحد المشتغلين بخلط المراهم الى بيبرس ، وقد علم انني كنت خادماً عندك ، أن يسألني هل أستطيع مداواة أمراض العيون أيضاً ، فأجبت بالايجاب . وأنت جد من يعرف انه خلال ستين سنة يكاد يكون من

غير الممكن ان لا يأخذ الانسان شيئاً عن مولاه . وقام بيبرس بيننا بوظيفة المترجم فطلب اليه ذلك الماكر أن يقول لى انه قلق جداً من جراء مرض مخيف فى عينيه . فلما سألته عن مرضه قال ساخرا منى انه لا يستطيع أن يتميز الاشياء فى الظلام . »

قال « ما كان أحراك عندئذ ان تخبره بأن خير علاج لهذا المرض أن يضيء شمعة . »

قال « انى أكره أولئك المكرة المحتالين . ان ساعة أقضيها بينهم فيها قضاء على . »

قال « لا بد أنك كنت فى نظر القوم غريب الاطوار بينهم . لا بد أن تكون قد أضحكتهم منك لأن الفرس فى الجملة أهل ظرف وأدب . جربهم ثانية مرة واحدة . يسرنى أن أستصحبك معى هذا المساء ، ولكنى لا أستطيع أخذك الى دارى قبل ذلك . »

قال « لم يخب ظنى ، فلقد تغيرت أنت أيضاً كغيرك . لقد مات أوزيريس ، وعاد سيت اله الشر يحكم هذا العالم مرة اخرى ويسود فيه . »

قال « سعد وقتك الآن ، وسينتظرك خادمى الاثيوبى العجوز نبيوننف هنا عند ظهور الثريا فى السماء . »

قال « أهو ذلك الخادم الماكر الذى لا استطيب رؤيته ؟ »

قال « نعم هو . »

قال « ما أحسن أن يبقى الانسان ثابتاً لا يتغير ! انى لأعرف الكثيرين ممن لا ينطبق عليهم ذلك ، ومن هم بدلا من التفرغ لما اختصوا به يتعدون حدودهم فيتطلعون مثلا الى مداواة الأمراض الباطنية ثم يأمرون خادمهم الهرم الفانى . . »

قال « أمسك عليك لسانك وانتظر صابرا حتى المساء . »

وكانت لهجة الطبيب اذ قال ذلك جادة باتة أثرت الاثر المرجو . فحنى الرجل رأسه طائعاً وقبل أن يتركه مولاه قال « لقد جئت الى هنا تحت كنف فانيس القائد السابق لمرتزقة الاغريق فى مصر ، وهو شديد الرغبة فى أن يتحدث معك . »

قال « ذاك يتعلق به ، وهو يستطيع أن يحضر الىّ . »

قال « وأنت لن تترك هذه الفتاة المريضة ذات العينين الحادتين ؟ »

قال « هبْ ! »

قال « أردت أن أقول ان بعدستى عينيها الباورتين ظلاما . وهل لفانيس أن يحضر هذا المساء ؟ »

قال « أريد أن أخلو به هذه الليلة . »

قال « وهكذا أنا أيضاً كنت أريد . غير أن الاغريقى يود لقياك بسرعة ، وهو يعرف كل ما عندى من الاخبار تقريباً . »

قال « وهل كنتما تثرثران اذن ؟ ان من كثر كلامه كثر سقطه . »

قال « كلا — وانما — »

قال « لطالما ظننت فيك أنك أهل للثقة . »

قال « وانى لكذلك . ولكن هذا الاغريقى يعرف الكثير مما أعرفه . وأما ما لا يعرفه . . »

قال « فماذا تم بشأنه ؟ »

قال « لقد استخلصه منى وأكاد لا أدرى كيف استخلصه ولولا أننى البس هذه العوذة التى تقينى شر العين الحاسدة الفاحصة لاضطررت . . . . »

قال « أجل ، أجل ، اننى أعرف الاثينى ، ولذا فانى مسامحك . فليحضر معك هذا المساء . أرى الشمس تغرب وليس عندى ثمت من الوقت ما أضيعه ، فقل لى بالاختصار ما الذى حدث ؟ »

قال « فلنبقه الى المساء . »

قال « كلا اذ لا بد أن أقف على مجمل ما حدث قبل أن ألقى الاثينى. حدثنى بايجاز . »

قال « لقد سلبت . »

قال « أهذا كل ما عندك ؟ أجب . »

قال « نعم . »

قال « فالى اللقاء اذن . »

قال « ولكن يا سيدى نبنخارى . . »

فلم يسمع الطبيب له نداء ، ثم توارى عنه داخل باب قسم الحرُم الذى أغلق خلفه.

* * *

عند ظهور الثريا فى السماء كان نبنخارى جالساً وحده فى احدى الغرف الفخمة المخصصة لسكناه، وكانت فى الجانب الشرقى من القصر قريبة من حجرات كاسانديـن . وذهبت عن وجهه تلك البشاشة التى استقبل بها خادمه ، وحل مكانها ذلك العبوس الذى دعا الفرس أهل الدماثة والطلاقة الى تسميته بالرجل العابس المتجهم .

لقد كان نبنخارى أحد الكهنة المصريين الصميمين ، وهم تلك الطغمة التى لا تميل الى مزاح أو لهو ، والتى لا يفوتها مرة أن تظهر أمام النـاس بمظهر الرصانة والوقار . فاذا ما خلوا لأنفسهم وأهليهم طرحوا عنهم تلك القيود وأطلقوا لأنفسهم العنان فى المرح والسرور .

وهو وان كان يعرف فانيس من سايس الا أنه استقبله بأدب جاف ، و بعد التحية الاولى أمر هب أن يتركهما على انفراد .

قال الاثينى « لقد جئت أتحدث اليك فى بعض أمور هامة جداً . »

قال « وانى لأعرف هذه الأمور . »

قال فانيس وهو يبتسم ابتسامة من لا يصدق « وانى لأشك فى ذلك . »

قال « لقد اضطهدك بسامتك فى مصر وطردك منها شر طرد ، فجئت الى فارس كى تتخذ من قمبيز آلة لانتقامك من بلادى . »

قال « انك مخطئ فلست أحمل فى قلبى ضغناً لبلادك ، وانما أنا موتور من أماسيس و بيته . »

قال « الملك والحكومة فى مصر سواء ، وانك لتعرف ذلك تماماً . »

قال « بل بالعكس فان التجارب والمشاهدات دلتنى على أن الكهنة يعتبرون أنفسهم أنهم والحكومة سواء أيضاً . »

قال « واذن تكون قد بززتنى فى العرفان ، الى الآن كنت أظن ملوك مصر مطلقين . »

قال « وهم كذلك ولكن نسبياً لأنهم يعرفون كيف يحررون أنفسهم من سلطة طغمتك . وأماسيس الآن خاضع للكهنة . »

قال « نبأ غريب . »

قال « وانك لتعرفه من زمن . »

قال « هل هذا رأيك ؟ »

قال « بلا شك ، ومن المحقق عندى أن أماسيس نجح مرة — أتسمعنى ؟ — أقول انه نجح مرة فى اخضاع هؤلاء الحكام لامره . »

قال « من النادر أن تصلنى أخبار من بلادى ، وانى لست أفهم ما تقوله . »

قال « وانى مصدقك ، لأنك ان عرفت ما أقصد ثم استطعت أن تقف مكانك هادئاً لا تطبق قبضة يدك ولا تقرض على أنيابك فانك تكون كالكلب لا يرتفع له صوت الا اذا رفس فلا يكون منه الا أن يلعق يد رافسه . »

فاصفر وجه الطبيب وقال « انى أعرف أن أماسيس أساءنى وسبنى ، ولكنى فى الوقت نفسه أرانى مضطراً لاخبارك أن الانتقام لا يكون سائغ الطعم ان أنا تقاسمته مع أجنبى . »

قال « نعمَ ما تقول . ولكن انتقامى لا أستطيع الا أن أقارنه بكرمة كثرت عناقيدها حتى لم أعد استطيع قطفها بنفسى . »

قال « ولقد جئت هنا لتستأجر عمالا صالحين لقطفها . »

قال « أجل وانك قد أصبت كبد الحقيقة . وانى حتى الساعة لم يساورنى يأس فى انك مشاركى فى قطف هذه العناقيد . »

قال « انك مخطئ ، فلقد انتهى عملى . ان الآلهة قد تسلمته عنى وقامت به . وها هو أماسيس قد عوقب أشد عقاب على نفيه لى من بلادى ، واقصائى عن أصدقائى وتلاميذى ، وارسالى الى هذه الارض الدنسة . »

قال « لعلك تقصد بذلك فقده البصر ؟ »

قال « ربما . »

قال « اذن فلم تسمع أن بتامون ، وهو أحد رفاقك ، قد نجح فى ازالة السحابة

التي غشيت انسانى عينيه ، فرد له بصره ؟ »

ففزع المصرى لذلك وقرض على أنيـابه ولكنه استعاد فى لحظة كل نفسه وأجاب « اذن فلقد عاقبت الآلهة الوالد فى اشخاص ابنائه . »

قال « على أية صورة ؟ ان بسامتك نعم من يقوم مقام أبيه وهو فى حاله الحاضرة ، وتاخوط مريضة ولكنها تصلى وتضحى مع أبيهـا بما فيـه الكفاية ، وأما نايتيتس فانني واياك نعرف ان موتها لن يؤثر فيه كثيراً . »

قال « حقاً لم افهم مرادك بعد . »

قال « هذا طبيعى ما دامت تظن انى اعتقد ان المريضة الحسناء ابنة أماسيس. »

ففزع المصرى ثانية واستمر فانيس فى حديثه دون ان يظهر انه لاحظ فزعه ، قال « انى اعرف أكثر مما تظن . ان نايتيتس ابنـة حفرع المخلوع . ولقد رباها أماسيس كأنها ابنتـه ، وذلك : أولا لكى يجعل المصريين يعتقدون أن حفرع مات ولم يعقب أبناء ، وثانياً لكى يحول بينها وبين حقهـا فى العرش . وأنت تعرف أن للنساء الحق فى اعتلاء عرش الفراعنة . »

قال « وهذه كلها محض أوهام وظنون . »

قال « بل حقائق أستطيع اثباتها ببراهين قاطعة ، فلا بد أن يكون من بين الأوراق التى أحضرها خادمك فى صـندوق صغير بعض رسائل بخط أبيك سنفر الطبيب الجراح الشهير . »

قال « لئن كان الامر كما تقول فإن هذه الخطابات تكون ملكا لى ، وهى فى حيازتى ، ولست أحس من نفسى ميلا الى التفريط فيها أضف لذلك أنك ان جبت فارس كلها من أقصاها الى أقصاها لما وجدت من يستطيع حل رموز كتابة أبى وفك معانيها . »

قال « اسمح لى أن أشير الى خطأ وقعت فيه . فأولا هذا الصندوق فى حيازتى الآن ، وانى وان كنت احترم حقوق الملكية الا أنى أؤكد لك أننى فى مثل حالتى الحاضرة لا أرد لك الصندوق الا بعـد أن أكون قد استفدت من محتوياته فى تحقيق أغراضى . وثانياً فان الآلهة قد بعثت الى بابل رجلا يستطيع قراءة كل أنواع

الكتابة المعروفة لدى الكهنة المصريين . ولعلك كنت تعرف فيما مضى شخصاً اسمه نيوفيس ، أليس كذلك ؟ »

فاصفار وجه المصرى ثالث مرة وقال « وهل أنت متأكد من أن هذا الرجل لا يزال حياً يرزق ؟ »

قال « لقد كنت أتحدث معه البارحة . ولقد كان الرجل ، كما تعرف ، كبير كهنة هليوبوليس . وهناك تعمق فى علومكم ووقف على أسراركم . ولما أن وفد على مصر مواطنى فيثاغورس الحكيم ، ثم خضع لبعض طقوسكم ، سمح له بحضور الدروس التى كانت تلقى فى مدارس الكهنة . فاستمال اليه ، بذكائه النادر وقريحته الوقادة ، قلب نيوفيس الكبير هذا ، فعلمه كل العلوم المصرية وأوقفه على أسرار حكمتهم [1] ، فاستخدمها فيثاغورس بعد ذلك لصالح الناس . ولقد كنت أنا وصديقى رودوبيس من تلاميذه ، ولنا كبير الشرف بذلك ، فلما أن علم بقية كهنتكم أن نيوفيس قد باح بالاسرار المقدسة حكم عليه قضاة الكهنوت بالموت ، وأن يكون ذلك بدس سم له مستخرج من نواة الخوخ . فعرف الرجل ما اعتزموا عليه ، وهرب الى نقراتس ، وهناك وجد ملجأ أميناً فى دار رودوبيس التى طالما سمع فيثاغورس يتمدح بها . وانك لتعرف أن الملك قد أمن دارها فلا تنتهك لها حرمة ففى هذه الدار قابل أنتمينيداس ، أخا الشاعر ألكايوس اللسبى ، وكان قد نفاه بيتاكاس الحكيم حاكم ميتيلين . فقصد بابل ومن ثم التحق بجيش نبوخذنصر ملك آشور . فأعطاه انتمينيداس كتباً الى الكلدانيين ، وسافر بها نيوفيس الى الفرات وأقام هناك ، واضطر أن يبحث له عن عمل لكسب قوته فقد ترك مصر فقيراً معدماً وهو الآن يعول نفسه وهو فى هذه السن المتقدمة مستخدماً فى ذلك ما آتته الآلهة من العلم الواسع فى الفلك ، اذ جعل يعاون الكلدانيين فى حساب أرصادهم الجوية من برج بعل . وقد ناهز نيوفيس اليوم الثمانين ، ومع ذلك فلا زالت قواه الفكرية

---

(١) لم يوقف الا على القليل من تلك الاسرار ، فقد كان الكهنة يتكتمونها ويكتبونها على أوراق البردى بلغة لا يفهمها أحد سواهم . وكان رأس حكمتهم وأولى عقائدهم السرية الايمان بالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

كما هى فى المضاء . ولما رأيته أمس وسألته المساعدة أبرقت أساريره فرحاً ، وحينما وعدنيها لمعت عيناه من شدة السرور . وقد كان أبوك أحد قضاته ، ولكنه لا يحمل لك فى قلبه ضغناً بل انه حملنى اليك تحيته . »

وكان نبنخارى خلال هذا الحديث مطرقاً ، فلما سكت فانيس رماه بنظرة حادة وقال « وأين أوراقى ؟ »

قال « انها لدى نيوفيس ، وهو يبحث فيها عن الورقة التى أريدها . »

قال « توقعت أن أسمع منك ذلك . والآن أرجو أن تتفضل فتصف لى ذلك الصندوق ، الذى أحسن رهب صنعاً باحضاره معه الى فارس . »

قال « انه مصنوع من الابنوس . »

قال نبنخارى وقد تنفس الصعداء « ان هذا الصندوق لا يشمل الا قليلا من كتابات أبى ومذكراته . »

قال « وفى ذلك ما يكفى لاغراضى . ثم انى لا أدرى هل تعلم انى قد بلغت لدى قمبيز مكاناً عالياً أم لا . »

قال « ذلك أمر يخصك أنت وحدك . وانى أستطيع أن أوكد لك أن الاوراق التى ربما تكون أنفع لك من الحاضرة قد تركت فى مصر . »

قال « ولقد كانت فى صندوق كبير من خشب الجميز المصبوغ . »

قال « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال « اصغ جيداً لما أقول يا نبنخارى — لانى استطيع ان أخبرك (وما انا ممن يحلفون فقد حظر علينا استاذنا الكبير فيثاغورس القسم) ان هذا الصندوق نفسه بما فيه قد احرق فى ايكة معبد نيث فى سايس بأمر الملك . »

وكان فانيس يتكلم ببطء وتؤدة مؤكدا كل مقطع يخرج من فمه . والظاهر ان الكلمات اثرت فى المصرى ، واضاءت امامه كالبرق اللامع ، فاستحال هدوؤه الى غيظ حاد شديد ، فاحمر خداه واتقدت عيناه ، ولكن سرعان ما استجمع قواه فما هى الا دقيقة حتى خمدت هذه العاطفة الشديدة واصفرت وجنتاه الملتهبتان . ثم قال بهدوء وبرود « انك تريدنى على أن أبغض صحبى وقومى فتربحنى حليفاً مؤيداً لك .

انني أعرفكم تماما معشر الاغريق . انكم دساسون مراؤون خادعون ، لا تحجمون عن الكذب والغدر والخيانة وما الى ذلك من الصغائر الشائنة ، ان كان ذلك يصل بكم الى أغراضكم . »

قال « انك تحكم عليّ وعلى مواطنى على النسق المصرى القديم — وهو أننا أجانب عنكم ، فلا بد أن نكون اذن قوم شر وسوء . ولكنى أقول لك أن ظنونك هذه المرة فى غير موضعها . أدعُ هب يحدثك أ كنتُ صادقاً فى قولى أم كاذبا . »

فاظلم جبين نبنخارى حين دخل هب طوعا لندائه ، وقال له بلهجة الآمر « ادنُ منى . »

فأطاعه هب هازا كتفيه .

قال نبنخارى « قل هل رشاك ذلك الرجل ؟ نعم أو لا . يجب أن أعلم الحقيقة فان ذلك قد يؤثر فى مستقبلى ان خيرا وان شرا . انك خادم أمين ، وانى مدين لك بالشىء الكثير ، ولذا فانى أعفو عنك ان كنت أخذت بخداع هذا الرجل وريائه . ولكنى أريد الحقيقة . انى استحلفك بأرواح آبائك التى صعدت الى أوزيريس أن تدلى بها الىّ . »

فاستحال لون وجه الشيخ من صحمة الى صفرة لدى سماعه هذه الكلمات وجاشت نفسه ، واضطرب تنفسه ، وانحدر الدمع من عينيه بعد أن حاول حبسه فلم يستطع ، ثم قال بين غاضب ومنتحب « ألم أقل من قبل أنهم سحروه بل وأضاعوه فى بلاد الشر هذه ؟ يرمينى بما يظن أنه هو نفسه يستطيع اتيانه . أجل اغضب ما شئت فما ذلك بضائرى ، ولا اهتم له الا قليلا . وما الذى يهم شيخا مثلى خدم سادته بأمانة وشرف نحو ستين عاماً ، ان رماه هؤلاء السادة بعد ذلك بانه شرير محتال خائن بل وقاتل أيضاً ما دام ذلك يرضيهم . »

ثم انحلبت عيناه فجرى الدمع منهما غزيرا على وجنتيه رغما منه .

فتأثر فانيس ، فوضع يده على كتفه وقال موجها الحديث الى نبنخارى « ان هب مخلص صادق أمين . ولك أن ترمينى بالخبث والمكر والاحتيال لو أنه أخذ منى فلسا واحدا . »

ولم يكن الطبيب بحاجة الى توكيد فانيس ، فهو قد خبر خادمه تماما ويستطيع أن يقرأ فى وجهه براءته واضحة صريحة كأنهـا مكتوبة على صفحات كتاب . فقال له فى رقة وهو يقترب منـه « لم أقصد عذلك يا هب ، وما كنت أظن انك تتكدر لمجرد سؤال بسيط كهذا . »

قال « وهل توقعت منى أن أسر لمثل هذه التهمة الشائنة ؟ »

قال « لا ، وما أردنا اتهامك وعلى كل حال يمكنك الآن أن تحدثنى بكل ما حدث فى دارى منذ تركتها . »

قال « وما أحلى هذا الحديث ! انى اذا فكرت فيه صار فمى كالعلقم . »

قال « تقول انى سُرِقت ؟ »

قال « نعم لقد سرقت ، ولم يسرق قبلك أحد بهذه الكيفية . ولقد كنا نتلمس بعض العزاء لو أن السارقين كانوا من اللصوص[1] قطاع الطرق ، اذ لو كان الامر كذلك لاستطعنا أن نسترد منهم أثمن ما سرقوا وما كنا بعـد كل هذا أيأس من سرق غير أنه لما . . . »

قال نبنخارى معترضا « تكلم فى الموضوع فوقتى قصير محدود . »

قال « أعرف ذلك وأرانى لا أستطيع فى فارس أن أعمل ما يرضى الناس . ليكن ما شئت فانت سيدى ولك أن تأمر وتنهى ، وما أنا الا خادم علىّ طاعتك . . . لقد حدث هذا الامر المعيب كما قلت حينما جاء الوفد الفارسى الى سايس فى طلب نايتيتس فلفتوا اليهم الانظار حتى اذا رآهم مصرى حملق فيهم كانهم ضوار عجيبة . وكنت يومئذ جالسا على برج البعوض عند غروب الشمس ألعب مع حفيدى الصغير ، أكبر أولاد ابنتى بانير ، وهو صبى لطيف نابه قوى لبق جرىء لا تتناسب صفاته هـذه مع صغر سنه . وكان الماكر اذذاك يخبرنى كيف أن أباه قد أخفى حذاء أمه[2] وكنت

---

(١) يقول ديودوروس انه كان للصوص رئيس يسترد منه المتاع المسروق بعد أن تدفع له ربع قيمته . ولعل سبب ذلك يرجع الى أن كل مصرى كان ملزما فى ذلك العهد بتقديم نفسه كل سنة لرجال الضبط ليفسر لهم طريق معيشته وكيف يكسب قوته .

(٢) يقول باوتارخ ان المصريين كانوا يرون فى المشى حفاة منقصة ، ولذلك كان الازواج يخفون أحذية نسائهم كى يلزمن دورهن .

أضحك من كل قلبي لان ابنتي كانت لا تريد أن يجلس أحد بنيهـا معي مخافة أن أتلفهم كما تزعم هي ، ولذا سرني أن يسخر منها ويهزأ بها . واذ أنا في مداعبة وملاعبة مع الصبي اذا بي أسمع قرعا عنيفا على الباب ، حتى لقد خيل الي أنه لا بد أن تكون النار قد اشتعلت بالدار ، فدفعت بالصبي بعيداً وقمت أعدو وهبطت على السلم مسرعا وأنا أقفز فوق درجه آخذا في كل قفزة ثلاثا وفتحت الباب . فدخل الدار عنوة ودون استئذان جمع من خدمة المعبد ورجال الشرطة ، وكان عـدد الداخلين لا يقل عن خمسة عشر . ولقد دفعني بيخي ذلك الوقح الذي تعرفه ، وهو من معبد نيث ، ثم أغلق البـاب من الداخل ، وأمر رجال الشرطة أن يضعوا القيود في يدي وقدمي ان أنا رفضت اطاعتهم . فتملكني الغضب بالطبع ولم أحسن الخطاب معهم — وانك لتعرف أن ذلك طبعي حينما يستفزني الغيظ — فما كان من أمر ذلك الرجل ، واقسم لك بالمعبود تحوت العـالم بكل شيء انني أقول الحق ، الا أن أمرهم بتصفيد يديّ ومنعي انا الشيخ هب من الكلام ، وأن يخبروني ان الكاهن الاعظم قد خول له أن يأمر بجلدي خمسا وعشرين جلدة ان أنا أبيت طاعتهم . ثم اراني خاتم الكاهن الاعظم فأيقنت انه لا بد لي من اطاعة ذلك الماكر الخبيث طوعا او كراهية . وماذا كان امره المتواضع المعتدل ؟ لا شيء سوى أن أعطيه كل الأوراق المكتوبة التي تركتها انت . ولكن الشيخ هب لم يكن من البلاهة بحيث يقع في الفخ بهذه السهولة مع ان بعض من هم أخبر مني بالامور ظنوا بي سوءا كأن اقبل الرشوة وكأن اكون واحدا من الحمير . أتدري ما الذي صنعت اذن ؟ تظاهرت بالخضوع لدى رؤيتي خاتم الكاهن الاعظم ، ورجوت بيخي بكل أدب أن يفك قيد يدي ، وقلت له اني سأحضر المفاتيح . فحلوا القيد وأسرعت على السلم صاعدا قافزا على درجه خمسا خمسا ثم دفعت باب حجرة نومك فانفتح ودفعت أيضا بالصبي وكان واقفا بجواره الى داخل الحجرة ، ثم أغلقت الباب من الداخل . وشكرا لساقي الطويلتين فقـد سبقت بهما القوم حتى كان لدي من الوقت ما استطعت فيـه أن أحمل الصندوق الاسود الذي أوصيتني بالاحتفاظ به وأن أضعه في يدي الفتى . ثم أدليت به من الشباك الى الطنف ،

والطنف كما تعلم يحيط بالدار ويؤدي الى الفناء الداخلي ، وأمرته ان يضع الصندوق في برج الحمام. وبعدئذ فتحت الباب كأن لم يحدث شيء ، وقلت لبيخي ان الغلام كان ممسكا بفمه سكينا ، وان ذلك سبب اسراعي في الصعود ، واني عاقبته بأن حبسته في الطنف . فانخدع ذلك الحيوان وسألني ان يجوس في الدار . فعثر أولا على الصندوق الكبير المصنوع من خشب الجميز الذي أوصيتني بالاحتفاظ به أيضا ، ثم ملفات البردي الموضوعة فوق مكتبك ، واستمروا في تنقيبهم حتى أخذوا كل ورقة مكتوبة في الدار ولم يفرقوا بين ورقة وأخرى بل وضعوا كل ما عثروا عليه في الصندوق الكبير ، ثم حملوه وخرجوا هابطين على السلم . اما الصندوق الاسود الصغير فانه بقي محفوظا في برج الحمام . ان حفيدي هو اذكى صبي في سايس كلها .

« واذا رأيتهم هابطين ومعهم الصندوق عاودني غيظي ، وكنت أحاول كبحه ، فقلت لهؤلاء الحمقى انني لا بد رافع شكواي لأولي الأمر بل والملك نفسه أن استلزم الأمر ذلك . ولولا وجود أولئك الفرس الأغراب وجوسهم خلال المدينة كي يقفوا على ما فيها لكنت أثرت عليهم الجمهور . وفي مساء ذلك اليوم قصدت صهري ، وهو كما تعلم موظف في معبد نيث ، ورجوته أن يبذل كل جهد كي يقف على ما تم بشأن الأوراق . ولم ينس الفتى بعد البائنة الطيبة التي وهبتها لابنتي بانيرعندز واجه منها ، فقد جاءني بعد ثلاثة أيام وأخبرني أنه قد رأى صندوقك الجميل وهو يحترق بما فيه من الملفات حتى استحال رماداً . فاستأت لذلك كثيراً ، ومرضت من الأرق الذي أصابني ، ولم يمنعني مرضي من أن أبعث لولاة الأمور بشكوى كتابية . ولقد رفض الملاعين أن ينظروا في شكواي — واخال ذلك راجعاً الى كونهم من طغمة الكهنة أيضاً — وعند ذلك أرسلت التماساً الى الملك فكان نصيبه الرفض أيضاً ، وهددوني تهديداً شديداً ، وقالوا لي انهم سيوجهون الى تهمة الخيانة العظمى ان أنا ذكرت هذه الأوراق مرة أخرى . وناهيك بقطع لسان من تثبت عليه هذه التهمة ، ولما كنت أقدر لساني حق قدره لم أشأ أن أخطو بعد ذلك خطوة أخرى . ولكنني كنت أشعر أن الأرض تحترق تحت قدمي فلم أستطع البقاء في مصر ، ورغبت في لقائك لأخبرك بما آذوك به ولأستغيث بك ، فأنت أقوى من خادمك

المسكين ، لكى تنتقم لنفسك . وعدا هذا فقد أردت أن أرى الصندوق الأسود سليما بين يديك مخافة أن يغتصبوه عنوة . ولذا هجرت بلادى وتركت أحفادى وأنا طاعن فى السن ، وجئت الى هذه الأرض الأجنبية أرض الشر والاثم . وما كان أحذق فتاى الصغير اذ قال لى عند ما قبلته مودعاً : ابق معنا ياجدى، فانى لن أقبلك مرة أخرى ان دنسك الاجانب . — وأما بانير فانى أبلغك تحيتها القلبية ، وقد طلب الىّ صهرى زوجها أن أخبرك أنه علم أن الامير بساماتك ولى العهد هو وزميلك بتاهون هما سبب ذلك الحادث المشئوم . ولما كنت أخشى السفر فى البحر نزحت مع قافلة أعراب متاجرة حتى بلغت تدمر ، وهى محطة النخيل الفينيقية فى الصحراء ، ومن ثم الى كارشيميش الواقعة على الفرات مع بعض التجار من صيدا وكارشيميش هذه محل تلاقى الطريقين من ساردس وفينيقيا . وفيما أنا جالس متعب فى الغابة الصغيرة أمام الصحراء وصل مسافر مع خيل البريد ، فتبينته فاذا هوالقائد السابق لمرتزقة الاغريق فى مصر . »

فاعترضه فانيس قال « وأنا أيضاً سرعان ما تبينت فيك ذلك العجوز الشكس الذى اعترضنى غير مرة . ولطالما ضحكت منك لدى رؤيتى اياك تعنف الصبية اذ كانوا يجرون وراءك فى الطرقات كلما رأوك تسير ماشياً وراء سيدك حاملا صندوق الأدوية والعقاقير . ولقد ذكرت ، اذ رأيتك ، نكتة قالها الملك حينما كنتما يوماً مارين معاً أمامه قال : ان هذا الشيخ يذكرنى مرآه ببومة بشعة عجوز يتبعها سرب من الطيور الصغيرة المناوشة ، وأما نبنخارى فكان يبدو كمن له زوج معنفة ستجازيه يوماً ما على مداواته عيون الناس بأن تطمس له احدى عينيه . »

قال الشيخ هب « ياللبذاءة ! » ثم أتبع ذلك بطوفان من الشتائم واللعنات .

وأصاخ نبنخارى الى حديث خادمه وهو صامت مطرق . وكان لونه يتغير بين آن وآخر ، ولما سمع أن أوراقه التى صرف فى كتابتها ليالى وأياماً قد أحرقت أطبق قبضتيه ، وجعل يرجف كأن برداً قارساً قد أصابه .

ولم تفت الأثينى أية حركة من حركاته ، فهو يفهم الطبيعة البشرية ويعلم أن الدعابة قد تكون أشد أثراً فى النفس من الاهانة الشديدة . فانتهز الفرصة وأدلى

بتلك الدعابة الطائشة التى قالها أماسيس فى احدى ساعات لهوه ومرحه . والقد صح حدس فانيس ، فانه ما كاد ينتهى من كلامه حتى ضغط نبنخارى بيده على وردة كانت موضوعة فوق خوان أمامه ففتتها وتناثرت قطعاً . وما كان أشد سرور فانيس لذلك ، ولكنه لم يشأ أن يبسم ابتسامة الظفر والرضا ولم يرفع بصره عن الارض واستمر فى الحديث قال « والآن فلنختم حوادث سفر السيد هب . لقد دعوته الى صحبتى فى ركوب العجلة ، فرفض دعوتى أولا وأبى أن يجلس بجانبى على وسادة واحدة لانى أجنبى لا آلهة لى ، ثم رضخ أخيراً . ولقد سنحت له فرصة فى المحطة الأخيرة فانتهزها وأظهر للملا أنه أخذ عنك وعن أبيك كثيراً من عمليات العلاج الناجعة ، وذلك فى معالجته أخا أورو باست . ووصل فى النهاية سالماً الى بابل . ولما لم نستطع أن نعثر عليك فيها نظراً لان مواطنيك قد تعاطت سما ، خرقا منها وجنوناً ، سعيت فى الحصول له على مسكن فى القصر الملكى نفسه . وانك لتعرف ما تم بعد ذلك . »

فحنى نبنخارى رأسه موافقاً وأشار الى هب أن يخرج ، فأطاع الرجل وخرج وهو يهدر ويتمتم بصوت منخفض . فلما أغلق الباب وراءه اقترب نبنخارى — وهو الطبيب الذى مهنته مداواة المرضى — من الجندى فانيس وقال « أخشى أيها الاغريقى بعد كل هذا أن نعجز عن أن نكون حليفين . »

قال « ولم لا نكون ؟ »

قال « لأنى أخشى أن يكون انتقامك هيناً بسيطاً ان أنا قارنته بنوع الانتقام الذى أريده أنا . »

قال « أما من هذه الناحية فليس ما يدعو الى جزعك . فهل فى وسعى الآن أن أدعوك حليفى ؟ »

قال « أجل وانما بشرط واحد . »

قال « وما هو ؟ »

قال « أن تمكننى من مشاهدة نتائج الانتقام بعينى . »

قال « كأنك تريد أن تقول انك راغب فى مرافقة قمبيز وجيشه الى مصر ؟ »

قال « بلى ، واذا ما رأيت أعدائى يذرفون الدمع رازحين فى المهانة والذل صحت بهم قائلا : أيها الجبناء ! ان الذى سبب لكم كل هذا الشقاء وأنزل بكم هذا البلاء انما هو الطبيب نبنخارى المحتقر المزدرى المبعد من بلاده . — أواه ! أوراقى تضيع وكتبى تحرق ! لقد كان لى فيها نعم العوض عن زوجى وولدى اللذين فقدتهما . لقد كان فيها ما يجب أن يعيه مئات الناس لكى ينقذوا الاعمى من دياجير الليل الذى يعيش فيه ، ولكى يحفظوا للبصر أجمل منحة تمنحها الآلهة لبنى الانسان ، ولكى يستبقوا له زينة جمال الخلقة البشرية ، مستقر الضوء والهدى ، الا وهى العين المبصرة . والآن وقد أحرقت كتبى فكأن حياتى عبث وعيشى هباء وسدى . ان السفلة باحراقهم كتبى قد أحرقونى معها ، يا لكتبى وأوراقى ، يا لضيعة المسعى وخيبة الرجاء ! »
ثم جعل يبكى بكاء مراً بصوت عال .

فاقترب منه فانيس وأمسك بيده وقال « لقد لطمك المصريون لطمة أيها الصديق ، أما أنا فقد آذونى وأساءوا معاملتى . لقد اقتحم لصوص خزائنك فاستلبوها أما أنا فقد أحرق بعضهم دارى عمداً فصارت رماداً ، وصعقوا قلبى فأصبح هشيما . أتدرى يا صاحبى ما الذى عانيته أنا وقاسيته من أعمالهم ؟ انهم فى حكمهم علىّ وطردهم اياى من مصر لم يعملوا الا ما لهم الحق فى عمله فلقد كنت حسب قوانينهم ونظمهم الدينية جانياً أثيما . ولقد كنت أغتفر لهم كل ما أتوه ضدى أنا شخصياً من الاعمال لانى أحببت اماسيس كما يحب الرجل صديقه ، ولكن الشقى مع معرفته ذلك اذن لهم أن يرتكبوا ضدى أمراً اداً بشعاً شنيعاً — أمراً يأبى الانسان مجرد التفكير فيه . فانساوا بالليل خلسة كالذئاب الى دار امرأة مستضعفة ، وهناك قبضوا على ولدين لى ابنتى وابنى الصغيرين — وهما موضع اعجابى وسرورى وعزائى فى حياة الغربة والتجوال . فهل تحدس ما الذى صنعوه بهما ؟ لقد سجنوا البنت ليحولوا حسب زعمهم دون الوشاية بمصر لقمبيز . أما الولد — ابنى الهادئ الجميل ، ابنى الوحيد — فانه أعدم بأمر بسامتك ، وربما كان ذلك بعلم أماسيس أيضاً . ولقد ذبل قلبى وجمد وتقلص من ألم النفى والحزن . أما الآن فانى أشعر أنه يتمدد — انه يدق الآن دقات الفرح والسرور لان هناك أملا فى الانتقام قد اختلج فيه . »

واذ أتم الاثيني حديثه قابلت نظرات نبنخارى المحرقة عيني الاثيني البراقتين ثم مد له يده وقال « نحن حليفان »

فأمسك الاغريقي يده الممدودة وقال « ولكن أول ما يجب علينا بعد الآن أن نحصل على حب الملك ونكسب رضاه . »

قال « سأعيد لكاساندين بصرها . »

قال « وهل في مقدورك هذا ؟ »

قال « ان العملية التي أزالت عن أماسيس عماه كانت من نتائج استكشافاتي . ولقد سرقها بتاهوتن من أوراقي المحروقة . »

قال « ولماذا لم تظهر عبقريتك قبل الآن ؟ »

قال « لأني لم اعتد أن أمنح أعدائي العطايا والهبات . »

فارتجف فانيس لدى سماعه هذه الكلمات ولكنه استعاد نفسه بسرعة وقال « وأنا واثق من كسب مودة الملك أيضاً . واليوم غادر مفوضو المساجيت بابل الى بلادهم وقد منحهم قمبيز السلم و . . . . »

وقبل أن يتم حديثه فتح الباب واندفع منه أحد خصيان كاساندين الى الحجرة قائلا « ان الاميرة نايتيتس تحتضر . اتبعني في الحال فليس لديك من الوقت دقيقة واحدة تضيعها . »

وعند ذلك سلم الطبيب على حليفه الجديد ، ومضى مع الخصي الى سرير المليكة العروس المحتضرة .

الفصل الرابع والعشرون

موت نايتيتس

كانت أشعة الشمس تحاول أن تخترق الستائر الكثيفة التي كانت منسدلة على نافذة حجرة المريضة . ولم يفارق نبنخاري سريرها ، فكان أحياناً يجس نبضها وأخرى يدهن جبهتها وصدرها بزيوت عطرية ، ثم يجلس ويغوص في لجج الذهول والتأمل . وبدت نايتيتس كأنها غرقة في نوم عميق بعد نوبة من نوبات التشنج . ووقف عند مؤخرة سريرها من ناحية قدميها ستة من أطباء الفرس يقرأون الرقى والتعاويذ بصوت منخفض ، مؤتمرين بأمر نبنخاري وقد تبينوا فيه سعة العلم والاطلاع ولذا أوقفوه بجانب السرير من جهة الرأس .

وكان في كل مرة يجس فيها نبض المريضة يهز كتفيه ، وسرعان ما كان يقلده رفاقه الفارسيون فيهزون هم أيضاً أكتافهم . وكانت الستائر ترفع ما بين آن وآخر وينبثق من خلالها وجه جميل يرشق الأطباء بنظرات الاستفهام ، فلا يجاب بغير هزة الأكتاف هذه فيعود أدراجه . ذلك الوجه هو وجه آتوسا . ولقد اجترأت غير مرة على الدخول تكاد لا تلمس البساط وهي تمشي ، وكان البساط من الصوف الميليسي الكثيف ، ثم اقتربت خلسة من سرير صديقتها وقبلت جبهتها في هوادة ولطف وعرق الموت فوق جبينها كاللؤلؤ المنثور . الا أن نبنخاري في كل مرة كان يرمقها بنظرة معنفة فتعود الى الغرفة المجاورة حيث كانت أمها جالسة في انتظار ما سيكون .

وغادر قمبيز حجرة المريضة عند شروق الشمس لما رأى نايتيتس قد نامت ؛ ثم امتطى جواده وركب في معيته فانيس وبركساسب وأوتانز ودارا وعدد من رجال الحاشية أيقظوهم من رقادهم ، وذهب الجميع الى نزهة في وادي الصيد . ولقد علمته التجارب أنه حين يمتطي صهوة جوادشكس عنيد ينسى آلامه ويتغلب على كل عواطفه

واضطرب نبنخارى لدى سماعه وقع حوافر الخيل فى الطريق . وقد رأى فى غفوته أن قمبيز اقتحم بلاده على رأس جيش كبير ، ورأى النار تلتهم مدنها ومعابدها وأبصر بأهرامها الكبيرة تساقط هشيما تحت ضربات يده القوية . ورأى النساء والاطفال رقوداً بين الخرائب المختنقة بالدخان ، وسمع صيحات مفزعات عاليات تتصاعد من بين القبور ، وشاهد المومى تتحرك كالأحياء ، وكان كل هؤلاء — بين كهنة ومقاتلة ونسوة وصبية ، الأحياء منهم والأموات — يذكرون اسم نبنخارى ويلعنونه باعتباره خائناً لبلاده . فسرت الى قلبه رعشة شديدة نبض من جرائها نبضاً أشد من نبض الدم الذى يجرى فى عروق الفتاة المحتضرة بجانبه . ورفعت الستار مرة أخرى ، وانسلت آتوسا الى الحجرة ووضعت يدها على كتفه ، ففزع ثم استيقظ . وكان قد مضى عليه ثلاثة أيام وثلاث ليال وهو ملازم سرير المريضة باستمرار ، فكان من الطبيعى أن تنتابه مثل تلك الاحلام وهو منهوك مكدود .

وعادت آتوسا حذرة الى أمها ، وخيم على حجرة المريضة سكون عميق ، وجعل نبنخارى يفكر فى حلمه ، قال لنفسه انه على وشك أن يصير خائناً آثماً ، ثم مرت أمام مخيلته تلك المشاهد التى رآها فى حلمه ولكنها مرت سراعاً ولم يبق لديه الا مشهد واحد غير تلك المشاهد لصق به لا يريد فكاكا . خيل اليه أنه يرى أماسيس الذى سخر منه ونفاه ، وبسامتك والكهنة الذين أحرقوا أوراقه . خيل اليه أنهم وقوف بجانبه يرسفون فى أغلالهم الثقيلة ، وينظرون اليه طالبين الرحمة تجيئهم عن يديه . فتحركت شفتاه يريد لهم الاغلاظ فى القول . ولكن لم يكن هذا مكان ذلك القول الغليظ الذى همت به شفتاه . وبعد ذلك مسح ذلك الرجل الصلب دمعة انحدرت من عينيه ، اذ تذكر تلك الليالى الطوال التى قضاها ساهراً فى ضوء مصباحه الضئيل والقلم فى يده يكتب به آراءه وتجاربه بخط هيروغليفى جميل . وكان قد استكشف علاج كثير من أمراض العين التى جاء عنها فى كتب تحوت المقدسة انها لا تبرأ . ولما كان يعلم أن أقرانه قد يتهمونه بالمروق والكفر ان هو أقدم على تصحيح الكتب المقدسة أو تعديلها ، فقد رأى أن يسمى كتابه « أبحاث

أخرى فى علاج أمراض العين للمعبود العظيم تحوت[1] استكشفها حديثاً طبيب العيون نبنخارى » وعزم على أن يهدى كتبه الى مكتبة طبية ، آملا أن يكون من بين تجاريبه ما قد ينفع الخلف فيخرجون منه ما يخفف آلام المرضى . ذاك ما كان يبغى من جزاء عن تلك الليالى الطوال التى ضحى فيها راحته خدمة للعلم . وكان يرغب فى تخليد ذكره بعد وفاته وتمجيد العشيرة التى ينتمى اليها . ولكنه يرى الآن كيف أن قرنه القديم بتامون وقف بجانب ولى العهد فى أيكة المعبودة نيث ، يلهو واياه برؤية النار تلتهم كتبه بعد ما سلب منها استكشافه لطريقة عملية أخذ الماء الازرق من العين وكيف أن اللهب الأحمر أضاء وجهى الخبيثين وهما يضحكان تشفياً فتصاعد نحو السماء كأنما يطلب الانتقام . و بعد ذلك جره الخيال الى أماسيس فرآه وهو يتسلم خطاب أبيه من الكاهن الأعظم ، وخيل اليه أنه يسمع الملك يسخر منه بكلماته المعهودة فنهلل لذلك وجه نيتحوتب تهلل الابتهاج والظفر . وأوغل نبنخارى فى الذهول وشرود الفكر حتى اضطر أن ينبهه أحد زملائه الفرس الى أن المريضة قد استيقظت ، فأجابه بهز رأسه مشيراً وهو يبتسم الى عينيه المتعبتين من السهر ، ثم جس نبض المريضة وسألها باللغة المصرية كيف كان نومها .

قالت بصوت خافت يكاد لا يسمع « لست أدرى ، وانما خيل الىّ انى كنت نائمة ولكننى مع ذلك رأيت وسمعت كل ما حدث ودار فى هذه الحجرة . ولقد كنت من الضعف بحيث لم أستطع أن أتحقق أفى يقظة كنت أو فى نوم عميق . قل ألم تجئ آتوسا هنا غير مرة ؟ »

قال « أجل . »

قالت « و بقى قمبيز مع كاساندين حتى الشروق ، ثم خرج وامتطى جواده ركش وذهب الى وادى الصيد ؟ »

قال « وكيف عرفت ذلك ؟ »

---

(١) كانت كل العلوم تنسب للاله تحوت الذى قيل عنه أنه كتب ستة مجلدات فى الطب . وتتضمن بردية ايبرس كثيراً من العلاجات .

قالت « لقد رأيته . »

فنظر نبنخارى دهشا الى عينيها البراقتين وتابعت هى الحديث قالت « ولقد جاءوا بعدد كبير من الـكلاب فى الفناء الموجود خلف هذا القصر . »

قال « يحتمل أن يكون الملك قد أمر بأن يعدوها للصيد كى يخفف عنه لوعة رؤيتك مريضة تتألمين . »

قالت « كلا كلا . اننى أعلم معنى كل ذلك فلقـد علمنى أوروباست أن الـكلاب يؤتى بها الى كل فارسى يموت لكى تدخل فيها شياطين الموت . »

قال « ولـكنك يا مولاتى لا تزالين حية و . . . . »

قالت « ولـكننى أعرف تماما أنه قد حان حينى واقتربت منيتى . بل وأعرف أنه لم يبق لى الا بضع ساعات أقضيها فى هذه الحيـاة ، حتى وان لم أكن رأيتك أنت وزملاءك تهزون أكتافكم كلما نظرتم الىّ . ان هذا السم قتّال مميت . »

قال « انك تتكلمين كثيراً يا مولاتى وهذا يؤذيك . »

قالت « دعنى أتكلم يا نبنخارى ، ولابد لى أن أسألك يدا تسديها قبـل موتى . »

قال « انى عبد مولاتى . »

قالت « كلا يا نبنخارى بل كن صـديقى وكاهنى . قل ألم يغضبك منى أنى صليت لآلهة الفرس ؟ ولكن ثق أن معبودتى حاتحور كانت ولا زالت أحب الآلهة الى قلبى . أرى من وجهـك أنك عفوت عنى — اذن عدنى انك لا تسمح قط لـكلابهم وبزاتهم أن تمزق جسدى وتنهش لحمى . ان مجرد التفكير فى ذلك مرعب مخيف . عدنى أنك تحنط جثتى وتزينها بأبهى التمائم والعوذات . »

قال « ان سمح الملك بذلك . »

قالت « انه بالطبع سيسمح به وكيف يستطيع قمبيز أن يرفض طلبى الأخير؟»

قال « اذن فسأبذل فى سبيل ذلك كل ما أوتيت من علم . »

قالت « شكراً لك . ولى حاجة أخرى أريد أن أسألك قضاءها . »

قال « هات ما عنـدك واختصرى فزملائى الفرس يشيرون الىّ أن آمرك بالسكوت . »

قالت « ألا تستطيع ابعادهم من هنا لحظة يعودون بعدها ؟ »

قال « سأحاول ذلك . »

ثم ذهب نبنخارى الى المجوس وخاطبهم بضع دقائق . فغادروا الحجرة بعد أن ادعى ، لـكى يتخلص منهم ، أنه لابد من عمل رقية هامة لا يحضرها الا الشخصان المقصودان ، وانه سيعطيها ترياقاً جديداً سرياً .

فلما أن خلا المـكان لها تنفست نايتيتس الصعداء وقالت « الآن امنحنى بركتك الـكهنوتية على سفرى الطويل الى العـالم الثانى ، ثم أعدّنى لرحيلى الى أوزيريس . »

فجثا نبنخارى بجانب سريرها ، وأنشدها بصوت منخفض التراتيل الدينية ، وجعلت نايتيتس ترددها بعده بملء الخشوع والابتهال .

ولقد قام الطبيب مقام أوزيريس ربّ العـالم الثانى ، وقامت نايتيتس مقام الروح تقدم اليه حسابها .

فلما أن تمت هذه الطقوس شعرت كأن حملا ثقيلا أزيح من فوقها ، ولم يستطع نبنخارى أن يخفى تأثره وهو ينظر الى هذه الفتـاة المنتحرة . شعر أنه أنقذ روحا وردها الى دينه والى آلهة بلاده ، وانه ادخل السرور على قلب فتاة من مخلوقات الآلهة وهى فى آخر ساعات احتضارها . وفى تلك اللحظات الاخيرة تغلبت فيـه عوامل الرحمة والخير على كل ما عداها من عواطف القسوة والشر ، ولكنه لما تذكر ان سبب شقاء هذه الفتاة الحسناء انما يرجع الى أماسيس وحده تجهم وجهه وظللت جبينه ثانية سحابة من تلك السحب السود النـاجمة عن تذكر مافات . فصمتت نايتيتس برهة بعدها التفتت نحو صديقها الجديد وقد انطبعت على فمها ابتسامة سارة وقالت « انى بعد الآن واجدة الرحمة فى قلوب قضاة الموتى . أليس كذلك ؟ »

قال « هكذا أرجو وآمل . »

قالت « وقد التى تاخوط أمام عرش أوزيريس ومعها أبى ؟ . »

قال « أن أباك وأمك ينتظرانك هناك . الآن وأنت فى ساعاتك الأخيرة باركى أبويك اللذين انحدرت منهما والعنى أولئك الذين سلبوك أبويك وعرشك وحياتك . »

قالت « لم افهم مرادك بعد . »

قال وقد نهض على قدميه محملقا فى وجه الفتــاة المحتضرة ونافثا القول بشدة « العنى أولئك الذين سلبوك أبويك وعرشك وحياتك أيتها الفتــاة . العنى أولئك الأشقياء فان اللعنــة سوف تساعدك على كسب شفقة قضاة الموتى وتمهد لك الرحمة أكثر من كل ما تعملين من مبرات وصدقات . »

فنظرت نايتيتس قلقة الى وجهه الساخط الحانق ، وقالت وهى متلجلجة طائعة مستسلمة « انى العنهم . »

قال « اولئك الذين سلبوا أبوىّ ملكهما وحياتهما . »

قالت مرددة بعــده « أولئك الذين سلبوا أبوى ملــكهما وحياتهما . » ثم صرخت قائلة « أواه ! قلبى ، قلبى ! » وسقطت على سريرها متعبة مكدودة .

فانحنى نبنخارى فوقها ، وقبل أن يعود زملاؤه الاطباء قبل جبينها برفق وقال « انها تموت حليفة لى . ان الآلهة تستمع الى دعاء الذين يموتون وهم ابرياء . وانى ، بشن الغارة على مصر ورفع الســلاح فى وجهها ، سوف انتقم للمظالم التى وقعت على الملك حفرع والتى وقعت علىّ . »

ولما فتحت نايتيتس عينيها مرة أخرى بعد ذلك ببضع ساعات كانت كاساندين ممسكة يدها اليمنى ، وكانت آتوسا راكعة عند قدميها ، وكان كريسوس واقفا عنــد مقدم السرير من جهة الرأس يحاول بما أوتيه من قوة المشيب الواهنة أن يسند جسم الملك الضخم وكان قد غلبه الحزن على أمره فجعل يترنح كالسكران . واذ رأت الفتاة المحتضرة هــذا الجمع أبرقت عيناها سروراً . وما كان أجملها فى احتضارها ! بل ما كان أفتنها وأخلبها فى تلك اللحظة ! فاقترب قمبيز وقبَّلها منها فى شفتيها ، وكانت برودة الموت قد ادركتهما . وتلك كانت القبــلة الأولى — وكانت الأخيرة . وانبثق من عينيها دمعتان كبيرتان ، وجعل النور يظلم فيهما بسرعة ، فرددت بصوت

منخفض اسم حبيبها قمبيز فى لطف ورقة ، وسقطت بين ذراعى آتوسا وقد فارقتها الحياة .

***

سنمسك عن ذكر بيان مفصل لما تم فى بضع الساعات التى تلت ذلك ، فلن يكون عملنا سارا مقبولا اذا نحن شرحنا كيف أنه باشارة من كبير الأطباء الفرس خرج الكل من الحجرة بسرعة ما عدا نبنخارى وكريسوس ، وكيف أن الكلاب أدخلت فى الحجرة ووجهت رؤوسها نحو الجثة كى تطرد شيطان الموت ؛ وكيف أنه بعد موت نايتيتس مباشرة نقلت كاساندين وآتوسا ووصيفاتهما الى دار أخرى كى لا يصيبهن دنس من الجثة ، وكيف أطفئت النار [1] فى القصر حتى يحال بينها ، وهى العنصر الطاهر ، وبين شياطين الموت الدنسة ، وكيف قرئت الرقى والتعاويذ ، وكيف كان يطهر كل شخص وكل شىء لامس الجثة جملة تطهيرات بالماء والسوائل اللاذعة .

وفى مساء ذلك اليوم انتابت قمبيز نوبة من نوبات الصرع القديمة . وبعد ذلك بيومين أذن لنبنخارى أن يحنط جثة نايتيتس حسب الطقوس المصرية تنفيذاً لوصيتها الأخيرة . واطلق الملك العنان لحزنه فمزق لحم ذراعيه وشق ثيابه وذر التراب على رأسه وعلى فراشه . فاضطر أقطاب الدولة الى مجاراته ، وقام الجند للحراسة وأعلامهم ممزقة وطبولهم صامتة ملثمة . ولفت طبول فرقة الخوالد وصنوجهم بالسواد . أما الخيل التى كانت فى خدمة نايتيتس وكذلك خيول البلاط فقد صبغت جسومها بالأزرق وقطعت ذيولها . وارتدى أهل البلاط ألبسة الحداد وهى أردية سمراء قاتمة مشقوقة حتى المناطق ، وأرغم الكهنة المجوس على الصلاة ثلاثة أيام وثلاث ليال سوياً دون انقطاع وجعلوا يرتلون الأدعية على روح المتوفاة ، المفروض أنها تنتظر الحكم الأبدى عليها عند جسر شنفات فى الليلة الثالثة من الوفاة .

ولم يستطع الملك ولا كاساندين ولا آتوسا الا الخضوع لعمل التطهيرات اللازمة . وقد قرأوا هم أنفسهم الأدعية والصلوات على روح الفقيدة كما لو كانت من الصق أقربائهم ، فى حين بدأ نبنخارى فى مكان خارج أسوار المدينة فى تحنيط

(١) كانت النار تطفأ بعد الوفاة تسعة أيام زمن الشتاء وما لا يقل عن شهر زمن الصيف .

جثتها أحسن تحنيط وأكثره أكلافا ، متبعاً فى ذلك أدق قواعد الصنعة . فأخرج المخ من أنفها ، وملأ الجمجمة بالتوابل المطهرة ، ثم اخرج امعاءها وملأ جثتها كذلك بالمطهرات العطرية حتى اذا ما اتمها تركها لتبقى بعد ذلك منقوعة فى محلول الصودا سبعين يوماً ، فاذا ما انصرمت هذه المدة لفها بأربطة من البيسوس (وهو كتان ناعم) مرشوش بالصمغ . وتلك كانت أغلى طريقة للتحنيط وأكثرها اكلافا .

وظل قمبيز تسعة أيام وهو كالمجنون . فكان يثور أحياناً ، ويسكن أخرى غارقاً فى ذهول . ولم يسمح لأحد بالاقتراب منه حتى أقاربه وحتى الكاهن الأعظم . وفى صبح اليوم العاشر أرسل الى رئيس القضاة السبع يأمره أن يرأف فى حكمه على جوماتا بقدر ما يمكن ، فقد سألته نايتيتس وهى تحتضر أن يبقى على حياة ذلك الفتى المنكود الحظ .

وبعد صدور أمره بساعة قدم الحكم اليه كى يصادق عليه وكان كما يأتى : —

« النصر للملك . لما كان قمبيز ، عين الدنيا وشمس الصلاح والتقوى ، قد أمرنا ، بموجب رحمته التى عرضها السموات والتى لا تنفد كماء الخضم ، أن نعاقب جوماتا المجوسى على جريمته عقاب الأم الحنون لاعقاب القاضى الشديد الحكم ، فقد رأينا نحن قضاة الدولة السبعة أن نمنحه حياته التى أضاعها جرمه . واذ كانت حياة خيرة رجالات الدولة وأنبلهم معرضة للخطر بسبب نزق هذا الفتى وحماقته ، وكان من الجائز عقلا أن يسىء استعمال ما فيه من مشابهة عجيبة لبردية النبيل الذى أحسنت اليه الآلهة فصورته أحسن تصوير فيقع بسببه اجحاف وظلم بالأبرياء الصالحين ، فقد رأينا أن نشوه خلقه حتى يسهل فى المستقبل التمييز بين هذا الصعلوك الحقير وبين ذلك الأمير العظيم . لذلك نعلن بأمر الملك حكمنا على جوماتا القاضى بصلم أذنيه تشريفاً للبررة الاطهار وشهراً للأئمة الأشرار . »

فصادق قمبيز على الحكم فى الحال ، ونفذ فيه فى نفس اليوم .

ولم يجسر أوروباست أن يشفع لأخيه مع أن هذا العقاب المشين قهر قلبه الطموح الكثير الاطماع والآمال أكثر من حكم الاعدام . وخشى أن يقل نفوذه

ويتأثر سلطانه بسبب وجود أخيه المصاوم الاذنين ، فأمره أن يغادر بابل على الفور الى بيت له فى الريف على جبل أراكادريس .

ووقفت امرأة مقنعة تلبس لباساً رثا ، خلال بضعة الأيام الماضية ، ترقب بالليل والنهار البـاب الـكبير للقصر . ولم يزحزحها من مكانها تهديدات الديدبان ، ولا النكات الخشنة التى كان يقولها لها خدام القصر . ولم تترك واحداً من صغار الموظفين يمر دون أن تسأله بشغف أولا عن صحة الأميرة المصرية وثانياً عما أصاب جوماتا . فلما أن أخبرها يوماً بالحكم أحد موقدى المصابيح فى القصر ، وكان ثرثاراً ، اعتراها تهييج غريب وأوسعت الرجل لثما وتقبيـلا . فدهش لها ، وظن أن بعقلها دخلا ، وتصدق عليها ببعض الصدقات . فرفضت المال وظلت فى مكانها تقتات بما كان يتصدق به عليها أهل الخير من الخبز . وبعد ذلك بأيام ثلاثة خرج جوماتا نفسـه معصوب الرأس فى عجلة مقفلة . فأسرعت تجرى نحوها ، وسارت فى محاذاتهـا ، وصاحت بالسائق أن يقف فأوقف البغال وسألها عن الذى تريده . فما كان منهـا الا أن خلعت عنها نقابها للفتى الجريح المسكين ، وبدا له وجهها الجميل وقد تصاعد الدم فيـه . فصاح جوماتا اذ عرف حبيبته صيحة فاترة استعاد بعدها قواه وشعوره وقال « ما الذى تريدين منى يا ماندين ؟ »

فرفعت يديها اليه ضارعة متوسلة وقالت « لا تتركنى يا جوماتا . خذنى معك . اننى قد صفحت عن كل ما جلبت لى ولمولاتى المسكينة من الشـقاء والبؤس . اننى أهواك هوى شديداً ، وسأعنى بك وأقوم بتمريضك كأنى أحقر الخادمات . »

فقـام برأس جوماتا عراك قصير الأمد . وكان على وشك أن يفتح لها باب العجلة ، فيضم بين ذراعيه ماندين حبيبته الأولى ، لولا أن طرق أذنيه صوت وقع حوافر خيل قادمة ، فالتفت ناحيـة الصوت فرأى عجلة أخرى ملأى بكهنة من المجوس وكثير منهم صحبه ورفاقه فى مدرسة الـكهنة . فاستشعر من نفسه خزيا وعاراً ، وخشى أن يراه أولئك الفتيان الذين كان يشمخ بأنفه عليهم كبرا وتعالياً لسبب أنه شقيق الكاهن الأكبر ، فرمى لماندين كيساً مملوءا بالذهب كان أخوه قد أعطاه له قبل سفره ، ثم أمر السائق أن يسير بمنتهى السرعة . فعدت البغال عدْوا سريعاً .

فلم يكن من ماندين الا أن رفست الـكيس بقدميها ، وأسرعت تجرى وراء المركبة حتى ادركتها وعلقت بها . فأمسكت احدى العجلات بثوبها فأوقعتها فقامت من سقطتها وأسرعت تجرى وراء البغال بقوة اليائس حتى أدركتها ، وكانت المركبـة تصعد فوق مرتفع أدى الى تقليل سرعتها ، ثم قبضت على لجامها . وعندئذ ألهب السائق البغال بسوطه ذى الاذناب الثلاثة فوقفت على قوائمها الخلفية فأوقعت الفتاة على الأرض ، ثم اندفعت تجرى فمرت بها . واخترقت أخرى صيحات ألمها جراح الرجل المصاوم الاذنين كما تخترق الحراب الحادة الصدور .

* * *

وفى اليوم الثانى عشر بعد وفاة نايتيتس خرج قمبيز للصيد على أمل ان الاخطار مع لهو الصيد قد تنسيه آلامه . فاستقبله وجوه الدولة وكبـار رجال البلاط بهتاف كالرعد وتحيات عاليات أجابهم عليها بالشكر . وقد أحدثت أيام حزنه هذه على قلتها تغيراً كبيراً فى رجل كقمبيز لم يتعود مقاساة الآلام ، فكان وجهـه أصفر ، وشعره الأسحم أغبر . أما شعوره بالقدرة والغلبة فقد ذوى وذبل وكان يطالعه الناظر اليه فى عينيه . ألم يجرب ، وما كان أمرها تجربة ، أن هناك ارادة أقوى من ارادته ، وأنه لم يكن بوسعه أن يمد أجل أحقر المخلوقات متى حان حينها فى حين أن فى استطاعته سلبها حياتها بكل سهولة ؟

وقبل المضى للصيد استعرض قمبيز ركب صيده ، ثم نادى جوبرياس وسأله عن غياب فانيس .

قال « ان مولاى الملك لم يأمر . . . »

قال « انه ضيفى وسيبقى بمعيتى أبدا ، فاعلم ذلك ولا تنسه . »

فانحنى جوبرياس وعاد الى القصر ، ثم رجع بعد نصف ساعة ومعه فانيس وانضم الاثنان الى الركب الملكى .

واستقبل الاثينى خير استقبـال من كثيرين من الحاضرين ، وقد يبدو ذلك غريباً اذا نحن ذكرنا أن رجال البلاط هم أكثر الناس حسداً ، وأن المقرب للملك يكون دائماً عرضة لاثارة الاحقـاد عليه والضغائن . غير أن فانيس كان قد شذ عن

تلك القاعدة . فلقد لقى الاخيمينيين بكل بساطة وجلاء ، ولقد أثار آمالا كثيرة بما كان يشير اليه من وقوع حرب هامة منتظرة . ولطالما أثلج الصدور وشرح القلوب بنكات وملح شيقة لم يسمع الفرس بمثلها من قبل . ولذلك لم يكن من بين الحضور الا نفر قليلون لم يرقهم ظهور هذا الرجل . ولما ابتعد هو والملك عنهم فى مطاردة احد حمر الوحش جاهروا كلهم بأنهم لم يروا من قبل رجلا مثله فى الثقافة والكمال . فلقد كان من دواعى اعجاب القوم به تلك الطريقة التى انتهجها فى اظهار براءة المتهمين ، وتلك الرقة واللباقة اللتين أظهرهما فى كسب ميل الملك اليه ، وتلك المهارة التى استطاع بها تعلم الفارسية فى مثل ذلك الوقت القصير . هذا الى أنه لم يكن يوجد بين القوم ، حتى الاخيمينيين منهم ، من يفوقه فى جمال الوجه وتماثل الشكل . وعدا هـذا فقد برهن لهم فى ركوب الخيل أنه من خير من ركبوها ، وفى عراكه مع دب أنه مقدام فذ وصياد ماهر . وجعل القوم يتحدثون خلال عودتهم من الصيد بأمره ، ويتمدحون بصفاته النادرة العجيبة .

قال أراسب « اننى أوافقكم تماماً على أن هذا الاغريقى الذى برهن عرضاً على أنه من خير الجنود المدربين ليس شخصاً عادياً . غير أنى واثق أيضاً انكم ما كنتم مادحيه نصف هذا المديح لو أنه لم يكن أجنبياً عنكم ، حديث العهد بكم ، ولكل جديد فرحة . »

وحدث أن فانيس كان متوارياً وراء عوسج كثيف يحجبه عنهم فسمع كلام أراسب . فلما أن أتم هـذا كلامه خرج من الدغل وقال وهو يبتسم « لقد فهمت ما قلت يا صاحبى وانى شاكر لك رأيك الحسن فىّ ولقد سررت من الجملة الاخيرة أكثر مما سررت من الجملة الأولى ، لأنها أثبتت عندى صحة رأيى فى الفرس من حيث أنهم أكرم الناس فى العالم أجمع — انهم يتمدحون بفضائل الأمم الاخرى تمدحهم بفضائلهم هم أنفسهم بل وأكثر . »

فابتسم المستمعون لحديثه وسروا لملاحظته الملأى بالمداهنـة وتابع هو حديثه قال « فاليهود مثلا ما أكثر اختلافهم عنكم ! انهم يظنون أنهم أصفيـاء الآلهة ، وبذلك يعرضون أنفسهم لاحتقار العقلاء ولكراهية النـاس أجمعين . ويلى أولاء

المصريون . اخالكم لا تعرفون شيئاً عن عناد هؤلاء الناس وسخفهم . فلو أن الامر ترك لكهنتهم — ويتمتع هؤلاء الكهنة بقسط كبير من السلطة — لما أبقوا على أجنبى بل وما سمحوا لأجنبى واحد أن يدخل بلادهم . والمصرى الصميم منهم ليفضل الانتحار جوعاً عن أن يأكل فى وعاء واحد مع فرد منا . وعدا ذلك ففى تلك البلاد أشياء مدهشة عجيبة لا يراها الانسان فى بلاد سواها . على أنه من الواجب علىّ عدلا أن أقول ان مصر هى أغنى بلاد تطلع الشمس عليها ، وأرضها خير الارضين خصباً ونماء . وان من يُملَّك على هذا القطر لايحسد الآلهة على مالها من خيرات و بركات . أما فتحها والاستيلاء عليها فلعب لا يستلزم أكثر من جهد الصبى . ذلك لأن السنين العشر التى قضيتها فيها أكسبتنى معلومات واسعة عن طبيعة الأمور فيها ، وانى لأعلم أن جيوشهم كلها لا تكفى لمقاومة فرقة واحدة كفرقة الخوالد عندكم . من يدرى ما سيجىء به المستقبل ؟ ربما ذهبنا سوياً الى سياحة فى بلاد النيل يوماً من الأيام . انى أرى أن سيوفكم السمهرية قد طال عليها المكث وهى فى أغمادها ساكنة كسول . » .

فتلقى القوم هذه الكلمات المقصودة المنتقاة بهتاف الاستحسان حتى أن الملك نفسه أدار جواده ليستفهم عن السبب . فأجاب فانيس بسرعة قائلا « ان الاخيمينيين قد أطربهم تفكرهم فى احتمال وقوع حرب فى القريب العاجل . »

فسأله الملك وقد ابتسم لأول مرة بعد هذه الأيام الكثيرة قائلا « أى حرب تعنى ؟ »

قال فانيس غير مهتم « انما نحن نتكلم بوجه عام عن امكان حدوث مثل ذلك . » ثم اقترب من الملك وخاطبه بلهجة استرعت سمعه لما فيها من الجد والعاطفة قائلا « حقاً أيها الملك انى لم أولد فى مملكتك هذه الجميلة واحداً من رعاياك ، ولا أستطيع أن أفخر ببطول معرفتى وقديم صداقتى بأقوى ملوك الأرض ، ولكنى لا يسعنى مقاومة فكرة مبالغ فيها ، وربما كانت فكرة خاطئة ، وهى أن الآلهة قدرت لى عند ولادتى أن أكون صديقك الحق . وما كانت عطاياك الفاخرة ونعمك التى تغمر بها رعاياك هى التى دفعتنى اليك ، كلا فلست فى حاجة اليها لأنى بين قومى وعشيرتى

من السراة المترفين ، وليس لى ولد أو وارث يرثنى فأوصى له بثروتى . لقد كان لى قبلا ابن لطيف جميل . أرانى شططت فما كنت أريد التحدث عن هذا . . . أمستاء مولاى من تبسطى معه فى الحديث ؟ »

قال الملك « وماذا بحديثك يسيئنى سماعه ؟ » ولم يكن الملك خوطب قبل الآن بمثل هذه اللهجة . فشعر بميل عظيم الى فانيس ، وأحس بما يجذبه اليه ويقربه منه .

قال « انى الى اليوم كنت مراعياً أن حزنك قدسى لا يصح لى مسه . ولكن قد حان الوقت الذى أوقظك فيه منه ، وأضرم فى قلبك ناراً جديدة . فاسمع يا مولاى ما لا بد مؤلمك سماعه . »

قال « ليس لى الآن بعد كل ما مضى ما أحزن لأجله وآلم له . »

قال « ان ما سأدلى به اليك الآن لن يؤلمك بل انه سيثير غضبك . »

قال « انك تدهشنى بما تقول . »

قال « انك يا مولاى قد خدعت وتلك الفتاة الحسناء التى قضت نحبها منذ أيام وهى فى ربيع حياتها شر خدعة . »

فلمعت عينا قمبيز ورمق الأثينى مستفسراً .

قال فانيس « ان أماسيس ملك مصر قد جرؤ على العبث بك وأنت سيد العالم . لم تكن هذه الفتاة الوديعة ابنته ، وان تكن هى نفسها تعتقد ذلك . انها . . »

قال « هذا مستحيل . »

قال « قد يبدو لك ذلك ، غير أنى لا أنطق الا بالصدق والحقيقة الخالصة . لقد حاك أماسيس شبكة من الاكاذيب أراد أن لا يوقع الدنيا فيها فحسب ، بل ويوقعك أنت أيضاً فى حبالتها يا مولاى . ان نايتيتس التى لم تلد أمم أجمل منها ابنة ملك حقاً ، ولكن هذا الملك ليس أماسيس المغتصب المختلس ، بل حفرع ملك مصر الشرعى هو أبو تلك الدرة بين الحسناوات . اعبس يا مولاى ما شئت ، فلك الحق فى ذلك ، ان من أصعب الامور أن يخدع الانسان أصدقاؤه وحلفاؤه . »

فوكز قمبيز جواده بمهمزه ، وبعد صمت دام لحظات قصده فانيس لكى يجد

كلامه منفذاً الى قلب الملك فيؤثر فيه ، قال الملك « زدنى من الأخبار ، أريد الوقوف على كل شيء . ايه . »

قال « لقد قضى حفرع فى السجن عشرين سنة فى سايس بعد خلعه ، وكانت زوجته قد ولدت منه ثلاثاً قضوا نحبهم كلهم . ثم حملت منه وأوشكت أن تلد فى نهاية العشرين سنة تلك . فسر سروراً لا مزيد عليه ، وأراد أن يقدم الضحايا والقرابين للمعبودة باخت ، وهى التى يزعم المصريون انها تسبغ عليهم نعمة الابناء . وحدث وقتئذ أن أحد رجال حاشيته واسمه باتاريس فاجأه ومعه جمع من العبيد وقتله ، وذلك لأن حفرع كان قد أمر ، فى احدى ساعات غضبه ، بجدع أنفه . فأمر أماسيس فى الحال باحضار أرملته المسكينة الى قصره ، وأسكنها شقة بجوار الشقة المقيمة فيها زوجه الملكة لاديس . وكانت هذه أيضاً على وشك أن تلد . وماتت أرملة حفرع بعد أن ولدت بنتاً ، وبعد ذلك بيومين ولدت لاديس أيضاً . وها نحن الآن قد وصلنا الى فناء القصر ، فان سمح مولاى أحضرت له تقرير الطبيب الذى ساعد على هذا الخداع ، لأقرأه له . فقد وقع عدد كبير من مذكراته فى يدى ، ولذلك حوادث وظروف سأقصها على مولاى فيما بعد . ويقيم الآن فى بابل كبير كهنة هليوبوليس السابق ، واسمه نيوفيس ، وهو يعرف كل أنواع الكتابات الشائعة بين مواطنيه . ولا ريب فى أن نبنخارى سيرفض أن يساعدنا على كشف خداع يجر الخراب على بلاده . »

قال « انى منتظرك هنا بعد ساعة ومعك الرجل الذى ذكرت ، وأريد أن يحضر أيضاً كريسوس ونبنخارى وكل الأخيمينيين الذين زاروا مصر . أريد التأكد والوثوق قبل أن أقدم على عمل ما . هذا الى أن شهادتك وحدها لا تكفى لأنى أعلم من أماسيس أنك تحمل له ولأسرته ضغنا فى صدرك . »

وفى الميعاد المحدد اجتمع الكل أمام الملك طوعا لأمره .

وكان نيوفيس هذا ، كبير الكهنة السابق ، رجلا يبلغ الثمانين من عمره ، تنم عيناه الصافيتان عن نجابة وذكاء . وكان أصلع الرأس لا أثر للشعر فيه ، فكأنما رأسه أشبه شيء بجمجمة من العظام المكسوة باللحم لا رأس رجل حى . وكان يحمل

فى يده النحيلة المهزولة ملفاً كبيراً من ورق البردى . وأجلسوه على كرسى لأن عضلاته واضلاعه الهشة لم تكن لتسمح له بالوقوف حتى فى حضرة الملك . وكان ثوبه أبيض ناصع البيـاض كالثلج ، فكأنه لا يزال كاهناً فى هليوبوليس . ولـكن الثوب كان مرقعاً ممزقاً من جميع جهاته . والظاهر على الرجل أنه كان أهيف القد طويل القامة ، وان يكن فى حالتـه الحاضرة محنياً متقلصاً منكمشاً ، أثر فيـه تقدم السن والاملاق والهم فجعله يبـدو ، على غير حقيقته ، قصيراً كالقزم اذا قورن جسمه برأسه .

ووقف نبنخارى بجواره يرتب له الوسـائد ، وبالغ فى احترامه لا لأنه كاهن كبير متعمق فى الاسرار والعلوم الكهنوتية فقط بل ولتقدمه فى السن ، اذ كان المصريون يعتبرون ذلك من أقدس الواجبات . ووقف على يساره فانيس فكريسوس فدارا فبركساسب .

وجلس الملك على عرشه ، وكان وجهه منقبضاً مكفهرا حين قطع على الحضور سكونهم بهذه الكلمات حيث قال « هذا الأغريقى النبيل الذى أشعر بانه صديق مخلص قد أدلى الىّ بأخبار هامة غريبـة . انه يقول ان أماسيس قد خدعنى أسوأ خداع وأحطه ، وان زوجتى التى قضت نحبها لم تكن ابنته بل ابنة سلفه حفرع . »

فلغط الحضور دهشين متعجبين .

قال الملك « وهذا الشيخ قد حضر الساعة لـكى يثبت لنا ذلك الخداع وتلك المخاتلة . »

فأشار نيوفيس اشارة الموافقة على ذلك .

قال الملك « وسأوجه اليك أول أسئلتى يا بركساسب .. هل قيـل لك بوضوح وجلاء عند تسلمك نايتيتس انها ابنة أماسيس ؟ »

قال « نعم يا مولاى ، ولقـد حدث أن نبنخارى تمدح بتاخوط وجمالها الى ولاتى كاسانداين قائلا انهـا أجمل التوءمتين ، غير أن أماسيس أصر على ارسال نايتيتس الى فارس . ولقـد ظننت اذ ذاك أنه بوضع درته الثمينة تحت كنفك أراد أن يقيدك برباط خاص ، فتشـكر له صنيعه . هذا الى أنه لما بدا لى أن نايتيتس

تفوق أختها لا في الجمال فقط بل في السجايا ونبل الخلال رغبت عن طلب يد تاخوط الى خطبة نايتيتس . وانك لتذكر يا مولاى أنه قال فى خطابه انه يستودعك أجمل بنتيه وأحبهما اليه . »

قال الملك « نعم تلك كانت كلماته . »

وقال كريسوس تصديقاً لكلام بركساسب « ولقد كانت نايتيتس بلا مراء أجمل الأختين وأنبلهما . ولكنى فى الحقيقة أدركت وأنا بمصر ان تاخوط كانت موضع اعزاز أبويها . »

وقال دارا « نعم هذا صحيح لا شك فيه ، وانى أذكر أن أماسيس فى احدى جلسات مرحه وشرابه قال مرة يمزح مع بردية : لا تطل النظر الى عينى تاخوط ، فانك لو كنت الها من الآلهة ما سمحت لك بأخذها معك الى فارس — فبدا القلق على وجه بسامتك ، وقال لأبيه : أبت اذكر فانيس . »

قال الملك « فانيس ! »

قال الاثينى « أجل يا مولاى فان أماسيس ادلى الىّ بسره حيث كان ثملا ، واذن اراد بسامتك بقوله هذا ان يحذره حتى لا يفلت لسانه مرة أخرى . »

قال الملك « قص على القصة كما حدثت . » .

قال « لما عدت من قبرص الى سايس منصوراً أولم لى أماسيس وليمة عظيمة فى البلاط ، وأكرمنى اكراماً لا مزيد عليه لأنى ضممت الى ملكه صقعاً غنياً . بل انه عانقنى أمام شعبه مع أنى نجس فى عيونهم . وكان كلما زاد فى الشرب زاد فى اكرامى . ولما ذهبت به مع بسامتك الى مخدعه استوقفنى عند مخدع بنتيه وقال : هنا تنام ابنتاى . انك ان طلقت زوجتك أيها الأثينى زوجتك من نايتيتس . أريد أن تكون صهرى . ولهذه الفتاة سر يا فانيس ، فهى ليست من صلبى . — واذ ذاك وضع بسامتك يده على فم أبيه ليحول دون تكملة الحديث ، ثم أمرنى بكل خشونة أن أذهب الى مخدعى . وهناك فكرت فى الأمر ملياً فحدست يومئذ ما تبين لى فيما بعد أنه الحق الصراح بدلائل قاطعة . والآن ألتمس من مولاى أن يأمر هذا الشيخ فيترجم من يومية الطبيب صنفر ما يشير الى هذه القصة . »

فهز قمبيز رأسه موافقاً ، و بدأ الشيخ يقرأ بصوت مرتفع لم يكن يتوقع منه ، قال « فى اليوم الخامس من شهر توت دعيت الى الملك ، وكنت أتوقع منه هذه الدعوة لأن الملكة كانت فى المخاض . و بمساعدتى سهل عليها الأمر فولدت بنتا ضعيفة . وما كادت الطفلة تسلم الى الظئر (المرضع) حتى قادنى أماسيس الى ما وراء ستار كانت تقسم حجرة نوم زوجه ، وهناك وجدت طفلة أخرى تبينت فى الحال انها بنت أرملة حفرع التى ماتت أمامى فى اليوم الثالث من هذا الشهر . فقال لى الملك مشيراً الى هذه الطفلة . ليس لتلك الطفلة أبوان ، ولما كان الدين ينص على وجوب العطف على اليتامى يتركون ولا عائل يعولهم فانى أنا ولاديس قد اعتزمنا أن نتبناها ونحن لا نريد أن يعلن هذا للناس أو للبنت نفسها ؛ ولذا أسألك أن تحتفظ بهذا السر ، وأن تكتب تقريراً تقول فيه ان لاديس قد أتأمت فان فعلت ذلك منحناك خمسة آلاف خاتم ذهب ، وزدناك خمس هذا المبلغ كل سنة ما دمت حياً . فأطعت وأنا صامت ، وأخرجت من كانوا فى المخدع الى خارجه ، ثم دعوتهم بعد قليل وأخبرتهم أن لاديس قد ولدت بنتا أخرى . وسميت بنت أماسيس الحقيقية تاخوط ، والأخرى المتبناة نايتيتس . » .

وعند ذلك غادر قمبيز عرشه وجعل يسير جيئة وذهاباً فى البهو ، واستمر نيوفيس فى حديثه قال « اليوم السادس من شهر تحوت — فى هذا اليوم بقيت فى دارى طلباً للراحة من عناء أعمال الليلة الماضية ، وفى الصباح جاءنى خادم يحمل الذهب الذى وعدت به وخطاباً من الملك يسألنى فيه أن أحضر له طفلة ميتة كى يحتفلوا بدفنها الاحتفال اللائق كأنها ابنة الملك حفرع . فبذلت مجهوداً عظيما عند تسلمى الخطاب ، ولم تمض علىّ ساعة من التسلم حتى عدت ومعى جثة مولودة ولدتها سراً فتاة مسكينة فى دار عجائز النسوة اللائى يسكن عند مدخل مدينة الأموات . ولقد جلبت لها هذه الولادة العار والخزى والحزن ، ولكنها مع ذلك لم ترد أن تسلمنى الجثة الا بعد أن تعهدت لها بتحنيطها ودفنها على أفخم منهاج ثم وضعت الجثة فى صندوق أدويتى الكبير ، وحمله هذه المرة ولدى نبنخارى بدلا من خادمى هب الى الحجرة التى ماتت فيها أرملة حفرع . وسيكون الاحتفال بجنازة الطفلة فخماً عظيما . وانى لأود

لو أستطيع اخبارها بالنصيب العظيم الذى ستناله ابنتها . ودعا أماسيس اليـه ولدى نبنخارى على الفور . »

فلما ذكر اسم نبنخارى مرتين على مسمع قمبـيز سأل « هل طبيبنا نبنخارى هو الشخص المذكور فى هذه الورقة ؟ »

قال فانيس « نعم يامولاى فنبنخارى هذا هو ابن صنفر الذى أبدل الاطفال. »

ولم يرفع الطبيب بصره وكان وجهه كالحا مكفهرا .

فأخذ قمبيز ملف البردى من يدى نيوفيس ونظر الى الكتابة التى فيه ثم أنفض رأسه وذهب الى نبنخارى وقال « انظر الى هذا الخط وقل هل هو خط أبيك ؟ »

فجثا نبنخارى ورفع يديه فأعاد الملك سؤاله عليه قال « انى أسأل هل هـذا خط أبيك ؟ »

فتلجلج قائلا « لست أدرى — هل — فى الحقيقة . . »

قال الملك « أريد أن أعرف الحقيقة فأجب بنعم أو لا . »

قال « هو خطه يا مولاى ، ولـكن . . » .

قال « انهض وثق من عطفى . ان الاخلاص للملك زينـة الرعية ، ولكن لا تنس انى الملك هنـا . لقد أخبرتنى كاساندين انك فى الغد ستجرى لها عمليـة دقيقة كى ترد لها بصرها ، فألست فى هذا تجازف كثيراً ؟ »

قال « أجل وانا فى ذلك معتمد على علمى ومهارتى يا مولاى . »

قال « سؤال آخر . أكنت عالمـاً بهذا الخداع ؟ »

قال « نعم كنت أعلمه . » .

قال « ورضيت لى أن أظل فى هذا الخطأ غافلا ؟ »

قال « لقد أرغمت على أن أقسم على الـكتمان ، والقسم . . . » :

قال « والقسم مقدس . قم يا جوبرياس باعطاء هـذين المصريين نصيباً من طعامى . أراك أيها الشيخ نيوفيس فى حاجة الى غذاء أجود من غذائك . »

قال « لست احتاج بعد الهواء الذى استنشقته يامولاى لغير كسرة خبز وجرعة ماء كى لا أموت من سغب أو عطش ، ورداءاً نظيفاً لأحسن فى عينى الآلهة وعينى

نفسى ، وحجرة صغيرة آوى اليها فلا أكون عالة على أحد . لم أكن قط فيما مضى أغنى من الآن . »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « انى على وشك ان اهبك مملكة بأسرها يا مولاى . »

قال « اراك تتكلم بالالغاز . »

قال « انى بما ترجمت اليوم من كلمات صُنُفر قد برهنت أن عروسك المتوفاة ابنة الملك حفرع . وينص قانوننا على أن لبنت الملك أن تعتلى سرير الملك اذا لم يكن للملك ابن أو أخ . فاذا ماتت ولم تعقب أبناء كان زوجها الوارث الشرعى لعرشها . وما أماسيس الا مغتصب للملك ، وما عرش مصر الا ملك لابنة حفرع ومن يرثها . وان بساماتك ليسقط له كل حق فى التاج عند ما يظهر لحفرع أخ أو ابن أو بنت أو صهر . ولذلك أستطيع أن أحيي فيك يا مولاى ملك مصر المقبل وعزيز وادى النيل . »

فابتسم قمبيز راضياً مسروراً وتابع نيوفيس حديثه قال « لقد طالعت فى النجوم أيضاً أن هلاك بساماتك واعتلاؤك عرش مصر مقدوران . »

قال الملك « وسنبرهن على صدق طوالع هذه النجوم . أما عنك أيها الشيخ فهل من طلبة امنحكها ؟ انى آمرك أن تسألنى ما تريد . »

قال « ليأمر مولاى لى بما يوصلنى الى بلادى ، وليأذن لى أن أسير برفقته الى مصر ، فانى أرجو ان تكون وفاتى فيها . »

قال « لك علىّ ذلك . والآن اتركونى أيها الصحب ، وادعوا كل من له شرف الجلوس على مائدتى أن يحضر قصف الليلة ، فسنعقد مجلساً حربياً على المدام لأنى أظن أن حربا نثيرها على مصر أشهى الىّ من حرب المساجيت . »

فكان جواب الحضور على ذلك هتاف يصم الآذان « النصر للملك » ثم غادر الجمع البهو ، ونادى قمبيز على مهندميه وسألهم لأول مرة بعد وفاة نايتيتاس أن يبدلوا ثياب الحزن التى يرتديها بأفخر ثيابه الملكية .

* * *

وذهب كريسوس وفانيس الى الحديقة الكائنة بالجهة الشرقية من القصر الملكى، وكانت هذه الحديقة غاصة بأيكات الاشجار وبالزهور والنافورات وجبيلات فيها الرياحين والزهور. وكان فانيس فرحا مسروراً، أما كريسوس فكان مكتئباً تذهب به الأفكار كل مذهب.

قال كريسوس « هل فكرت فى جذوة النار التى أشعلتها فى العالم ؟ »

قال « انما الأطفال والحمقى هم الذين يعملون دون تفكير . »

قال « ولكنك نسيت أولئك الذين تخدعهم العواطف وتغويهم . »

قال « انى لست من هؤلاء . »

قال « ومع ذلك فالانتقام أشد العواطف هولا . »

قال « أجل وانما ان استغل وهو فى ثورته . أما انتقامى فهو فاتر بارد كقطعة الحديد هذه . وانى لأعرف واجبى . »

قال « وان أكبر واجبات الرجل الصادق تضحيته مصلحته وسلامته وحياته فى سبيل بلاده . »

قال « أعلم ذلك . »

قال « ولكن يظهر لى أنك نسيت أنك تقدم بلادك مع مصر لقمة سائغة للفرس . »

قال « هنا لست أتفق معك فى الرأى . »

قال « وهل تعتقد أنه حينما يتملك الفرس بقية سواحل البحر الأبيض المتوسط يتركون بلادك الاغريقية الجميلة آمنة مطمئنة . »

قال « بالطبع لا يتركونها، ولكنى أعرف قومى ومواطنىّ . انى اعتقد أنهم قادرون تماما على احرازهم النصر ان هاجمتهم جيوش البرابرة، وانى لواثق أن شجاعتهم وعظمتهم ستتضاعفان عند اقتراب الخطر . فالخطر يوحد شعوبنا المنقسمة، ويجعل منها أمة عظيمة واحدة تكون شؤما وخراباً على الطغاة الظالمين . »

قال « لا أستطيع المحاجة معك فلست أعرف من مجرى الأمور فى بلادكم شيئاً غير أنى أعتقد فيك أنك عاقل لا تدفع بأمتك الى الدمار تحقيقاً لاطماع شخصية .

انه لمن الفظيع البشع أن تتعـذب شعوب بأسرها من جراء جريمة رجل واحد حتى ان كان هذا الرجل من الملوك المتوجين . والآن هل لك أن تخبرنى بالسبب الذى أثار فيك عاطفة الانتقام ؟ »

قال « اصغ الىَّ اذن ولا تحاول بعدُ أن تثنينى عن عزمى . انك تعرف بسامتك وارث عرش مصر ، وتعرف رودوبيس أيضاً . والأول عدوى لجملة أسباب ، والثانية صديقة كل أغريقى وعلى الأخص أنا . فلما أكرهت على مغادرة مصر هددنى بسامتك بأن يوقع بى ، وقد أنقذ ابنك جيجيز حياتى . و بعدذلك ببضع أسابيع وفد على نقراتس ولداى كى يتبعانى الى سيجيوم . فتكرمت رودوبيس وشملتهما بعنايتها وأخذتهما تحت كنفها ، غير أن بعض الأشرار وقف على السر وأفشاه الى الأمير . فحوصرت دار رودوبيس وفتشت ، فعثروا على ولدىَّ وقبضوا عليهما . وكان اماسيس قد فقد بصره ، واطلق الأمر لابنه الشقى يعمل ما يريد فاقدم على . . . »

قال « على قتل ولدك الوحيد ؟ »

قال « لقد قلتها . »

قال « وماذا جرى لابنتك ؟ »

قال « لا زالت أسيرة عندهم . »

قال « وقد يؤذونها ان سمعوا أنك . . . . »

قال « فلتمت . خيرلى أن أغيب فى القبر ولا أبناء لى من أن أموت ولم أنتقم »

قال « فهمتُ ، ولست ألومك بعد ذلك فيجب أن يؤخذ بدم الغلام . » .

واذ قال ذلك ضغط الشيخ يد الأثينى فجفف هـذا دمعه وتمالك نفسه وقال « هيا بنا الآن الى مجلس الحرب فليس ثمت من يشكر لبسامتك أفعـاله الذميمة كقمبيز ، فالرجل السريع العواطف لم تخلقه الآلهة لـكى يكون أداة سلم . » .

قال « وعندى أن أوجب واجبـات الملك أن يعمل لخير بلاده . ولـكن بنى آدم من المخلوقات العجيبـة . انهم يتمدحون بالسفاحين أكثر من تمدحهم بأهل الخير المحسنين ، فـكم من قصائد صاغها الشعراء تمدحاً بأخيل Achilles ، فهل حلم واحد منهم أن يكتب قصيدة تمدحاً بحكومة بتاكاس الرشيدة ؟ »

قال « ان اراقة الدماء تستلزم من الشجاعة أكثر مما يستلزمه زرع الاشجار . »

قال « ولكن الاحسان والعقل يكابان الجروح لا يزيدانها . لدى سؤال واحد أرغب فى توجيهه اليك قبل أن نذهب الى البهو . هل يتمكن بردية من البقاء فى نقراتس اذا علم أماسيس بنوايا قمبيز ومقاصده ؟ »

قال « بالطبع لا . غير أنى أعددته لذلك ونصحته أن يتخفى وينتحل اسما مستعاراً . »

قال « وهل وافق على ذلك ؟ »

قال « يبدو لى أنه يميل الى اتباع نصيحتى . »

قال « ولكن يحسن على كل حال أن نرسل اليه رسولا يحذره . »

قال « سنستأذن الملك فى ذلك . »

قال « اذن هيا بنا فانى أرى عجلات النقل محملة بالأنبذة والخمور وقد تركت المطبخ قاصدة البلاط . »

قال « وكم من الناس نعولهم مائدة الملك فى اليوم ؟ »

قال « نحو الخمسة عشر ألفاً . »

قال « اذن فليشكر الفرس الآلهة على أن ملكهم يأكل مرة فى كل يوم[1] . »

---

(١) كان مطبخ قمبيز يكلفه يومياً نحو التسعين الف جنيه

الفصل الخامس والعشرون

مرصد بردية

بعد مضى ستة أسابيع على الحوادث الماضية كانت كوكبة صغيرة من الفرسان تحث السير نحو أبواب مدينة سارديس .

وكان الركب ، من آدميين ودواب ، يغشاه العرق والتراب . وكأن الخيل وقتذاك قد علمت أنها اقتربت من مدينة فيها الاصطبلات بنواظيرها فبذلت في السير منتهى جهدها ، غير أن سرعتها لم تكن لترضى رجلين اثنين في لباس فارسي تقدما هذه الكوكبة وعليهما سيماء القلق والضجر .

وكان الطريق الملكي العام منساباً بين حقول تربتها سوداء طيبة صالحة للحرث والزرع ، غرست فيها أشجار من مختلف الأنواع . ويخترق هذا الطريق سلسلة جبال طمولاس التي غرس بسفحها شجر الزيتون والليمون والدلب والتوت والعنب والتي نبت على جانبيها شجر الشربين والسرو وأدغال من شجر البندق . أما أشجار التين بما عليها من ثمر ، والنخيل بما حملت من بلح ، فقد كانت ترى مبعثرة هنا وهناك في الحقول. وأما الغابات والمراعي فقد كانت غاصة بزهور زاهية الألوان عطرة الشذى. وكان الطريق يمر بأخاديد وجداول جففتها حرارة شمس الصيف بعض التجفيف . وكان المسافر يجد في كل مكان آباراً محفورة على جانبي الطريق ومغلقة باحكام ، وبجانبها مقاعد لمن أنهكتهم متاعب السفر ومظلات من الزهور . أما أشجار الدلفى (الأوليا ندر) فكانت مورقة مزهرة في الأماكن الرطبة الظليلة ، وأما أشجار النخيل الرفيعة الهيفاء فقد كانت تتماوج حيث تكون حرارة الشمس أشد ما يمكن . وتظل هذه المناظر اللطيفة سماء شديدة الزرقة لا سحب فيها يحدها من الافق الجنوبي قمم جبال طمولوس الثلجية ، ويحدها من جهة الغرب سلسلة تلال سيبيلوس التي كان لونها من بعيد يضرب في زرقة . .

وانحدر الطريق الى الوادي ماراً خلال غابة صغيرة من شجر البتولا كانت

جذوعها ملتوية حتى القمم بالكروم تتدلى منها عناقيد العنب .

وقف الركب عند لفتة فى الطريق لأن أمامهم فى وادى حرموس الشهير تقع مدينة سارديس الذهبية قاعدة ليديا ومقر ملكها كريسوس فى سالف أيامه .

وظهر من سطوح منازلها العديدة المسقفة بالبوص صخرة سوداء منحدرة ، وأقيمت فوقها مبان رخامية بيضاء كانت ترى على مسافات شاسعة . وما كانت هذه المبانى غير القلعة التى دار حول أسوارها المثلثة الطبقات ، قبل ذلك بقرون ، الملك ميليس ومعه أسد لكى يجعل القلعة منيعة حصينة . ولم تكن الصخرة القائمة عليها القلعة منحدرة من جهة الجنوب . ولذلك بنى فوقها من هذه الجهة منازل ودور . أما قصر كريسوس فقد قام جهة الشمال وسط الرمال الذهبية لنهر باكتولوس ذى المياه الضاربة الى الحمرة — فكان فى نظر المسافرين المعجبين به كالبقعة الجرداء وسط المراعى الخضراء . ولقد غمرت مياهه مكان السوق العامة تجرى متجهة نحو الغرب ، ومن ثم يدخل النهر فى واد جبلى ضيق وهناك تلطم مياهه أسوار سيبيل .

وكانت الحدائق الغناء الواسعة ممتدة نحو الشرق ، وكان فى وسطها بحيرة جيجاوس تمخر فى مياهها قوارب لطيفة ويطفو على سطحها الأوز العراقى الناصع البياض . وكانت البحيرة مضيئة تلمع كالمرآة .

وعلى مسافة قصيرة من البحيرة كان يوجد عدد كبير من الربى الصناعية هى تلال مخروطية تعد احدى أعاجيب الصنعة بعد أهرام مصر وأسوار بابل وأبراجها . وكانت مدافن ملوك ليديا ، ولا تزال آثارها باقية الى وقتنا هذا ، بجوار ساردیس وكان يمتاز من هذه التلال ثلاثة منها يلفت حجمها وارتفاعها الانظار اليها .

قال دارا ، وكان على رأس هذا الركب ، يخاطب بركساسب سفير قمبيز ورسوله « ترى ما تلك الاكوام الأرضية الغريبة المنظر ؟ »

قال بركساسب « هى مقابر ملوك ليديا الغابرين ، وقد أقيم الأوسط منها ذكرى للزوجين الاميرة بانثيا والأمير أبراداتاس[1] ، وأما أكبرها ، وهو القائم على اليسار ، فانه أقيم تذكاراً للملك ألياتس أبى كريسوس ، بناه التجار والميكانيكيون

(١) قص أراسب حديثهما فى الفصل التاسع عشر .

والبنات لملكهم السابق ، وانك لتجد مكتوبا على الأعمـدة الخمسة القائمة على القمة مقدار اشتراك كل من هؤلاء فى العمل . وكانت البنات أكثر العمال عملا فيـه اذ الشائع ان جد جيجيز كان صديقهم المحبوب منهن . »

قال « اذن فلابد أن يكون الحفيد يختلف كثيراً عن أجداده القدماء . »

قال « أجل وهذا ما يدعو الى العجب الكثير لأن كريسوس نفسـه كان فى شبابه ينفر من النساء مع أن الليديين فى الجملة كانوا منصرفين الى مثل هذه الملاهى . أترى أسوار هذا الهيكل البيضاء القائم هناك وسط أيكته المقدسة ؟ انه هيكل معبودة سارديس ، وهى المعبودة سيبيل أو ماع كما يسمونها . وهناك فى تلك الايكة أماكن مستترة يجتمع فيها شباب ساردیس تكريماً للمعبودة كما يقولون . »

قال « كما هو الحال عندنا فى بابل فى عيد ميليتا . »

قال « وتجد مثل ذلك أيضاً فى شواطئ قبرص . فانى لما رسوت هناك عند عودتى من مصر قابلنى سرب من الفتيات الحسان ثم قدنى باغانيهن ورقصهن والدق على دفوفهن الى الايكة المقدسة لمعبودتهن . »

قال « اذن لن يتذمر زوبيروس من مرض بردية . نعم وهو سيقضى من الزمن فى أيكة المعبودة سيبيل أكثر مما سيقضيه بجوار سرير المريض . ما أكثر سرورى برؤية ذلك الصديق المرح مرة أخرى . »

قال « انه سيبعد عنكم نوبات الاكتئاب التى كنتم عرضـة لها فى هذه الأيام الأخيرة . »

قال « انك محق فى لومى على هذا الاكتئاب وكان يجب علىّ أن لا أخضع لنوباته ، ولكن ذلك لم يكن بغير سبب وعلة . يقول كريسوس ان الناس قد يضيق بهم التنفس اذا ما كانوا كسالى ضعافا لا يقوون على مكافحة السأم والضجر . وانى لأعتقد أنه صادق القول . غير أنه لا يجرؤ أحد على اتهـامى أنا دارا بالضعف أو البلادة . انى اذا لم أستطع حكم العالم فانى على الأقل أستطيع أن أكون سيد نفسى . »

واذ قال دارا ذلك انتصبت قامتـه فوق سرجه فنظر اليـه رفيقه دهشاً وقال

« حقاً يا ابن هستاسب انى أعتقد أنك قد خلقت لأمر عظيم ، فلم يكن من باب الصدفة أنك حينما كنت طفلا صغيراً جعلت الآلهة كورش العظيم يرى فى نومه تلك الرؤيا التى دفعته الى أن يأمر بالعناية بك والاحتفاظ عليك آمنا سالما . »

قال « ومع هذا فلم تظهر أجنحتى بعد . »

قال « حقيقة لم تظهر لك أجنحة جسمانية ملموسة وانما ظهرت لك أجنحة عقلية نفسية . أيها الفتى ان مستقبلك وعر محفوف بالخطر ، وانك لتسير فى طريق شائك . »

قال « وهل المخلوقات المجنحة أن تخشى السقوط فى أى هاوية ؟ »

قال « بكل تأكيد أن خانها جلدها . »

قال « ولكننى أشعر من نفسى بالقوة . »

قال « غير أن من هم أقوى منك سيحاولون قص جناحيك . »

قال « فليعملوا ان استطاعوا ، فلست أطمع فى غير حق ولست أثق الا بطالعى ونجمى . »

قال « أتعرف اسمه ؟ »

قال « لقد ظهر ساعة مولدى واسمه أناحيتا (الزهرة أو فينوس) . »

قال « أرانى أعرف بالأمور منك . ان الاطماع الكبيرة الوثابة هى الشمس التى تضىء أشعتها لك الطريق وتسيطر على أعمالك . فحذار . لقد حاولت سلوك هذا الطريق مرة ، وهو يؤدى اما الى الفخار واما الى العار ، ونادراً ما يؤدى الى السعادة. والشهرة والفخار للطموح صاحب الاطماع الكبيرة لكالماء الملح للعطشان كلما شرب منه ازداد عطشاً . ولقد كنتُ فيما مضى جنديا صغيراً وها أنى اليوم سفير قمبيز العظيم . وأما أنت فما الذى تستطيع أن تطمح اليه ؟ ليس فى الدولة كلها رجل أعلى منك قدراً غير ابناء كورش . . . . أو تخدعنى عيناى ؟ لابد أن يكون هذان الفارسان القادمان للقائنا ومعهما كتيبة من الفرسان هما جيجيز و زوبيروس . ان ذلك الأنجارى (ساعى البريد) الذى غادر الخان قبلنا لابد أن يكون أخبرهما بمجيئنا . »

قال « نعم وانظر الى صاحبنا زوبيروس كيف يلوح لنا بسعف النخل مشيرا الينا . »

قال « أيها الرفاق اقطفوا لنـا بعضاً من أغصان هذه الأدغال . أسرعوا . سنجيب على سعف النخل الأخضر بأغصان الرمان الارجوانية . »

و بعد قليل تعانق الأصدقاء وانضم الركبان معا وسارا فى شوارع تلك المدينة المزدحمة خلال البساتين المحيطة ببحيرة جيجاوس ، اذ كانت هذه البساتين متنزه سارديس . وكانت الشمس قد قاربت الغروب . و بدأ نسيم بارد يهب فى الجو. وكان سكان المدينـة يخرجون زرافات ووحدانا من الأبواب ليستمتعوا بالهواء الطلق . وكانت جنود الفرس بما على رؤوسهم من خوذ مزدانة ، وجنود ليديا بما على رؤوسهم من عمامات اسطوانية ، يتبعون الفتيـات اللاتى كن متجملات جدلات شعورهن ورصفت فيها الزهور . أما الأطفال فكانت مراضعهم تقودهن الى البحيرة ليروا فيها الأوز وهن يطعمن . وجلس تحت شجرة رجل عجوز أعمى ينشد قصائد محزنة على انغام الجاديس ، وهى القيثارة الليدية ذات العشرين وترا ، والتف حوله جمهور يستمع لغنائه . وجعل الفتيان يتلهون بلعب الـكرة ولعبة الدبابيس التسعة والنرد ، وكانت صغار الفتيات يصحن اذا ما وقعت الـكرة على احداهن أو كادت تسقط فى الماء .

لم تلتفت انظار القادمين لهذا المنظر الجميل ، ولقد كانوا يستطيبونه لو أنهم رأوه فى وقت آخر غير هذا . لـكنّ همهم كان محصوراً فى السؤال عن بردية وعن مرضه و برئه .

وعنـد الأبواب النحاسية لقصر كريسوس السابق قابلهم أوروتيز مرزبان ساردیس وعليه رداء فخم مزدان أجمل زينة . وكان ذلك المرزبان رجلا ذا روعة تبرق عيناه الضيقتان النفاذتان السوداوان تحت حاجبيه الـكثيفين . وكانت ولايته من أهم وأغنى الولايات فى الدولة كلها . أما قصره بما احتواه فكان يضاهى قصر قمبيز فخامة وجلالا وثراءا ، وان كانت نساؤه وخدمه أقل من نساء قمبيز وخدمه . ومع ذلك فقد استقبل المسافرين عند أبواب القصر عدد عظيم من العبيد والحرس والخصيان وكبار الموظفين فى أبهى حلة وأفخم لباس .

وكان قصر المرزبان لا يزال حافظاً لروائه و بهائه أيام كان كريسوس يقطنه ، فكان أفخم قصر يقطنه ملك . و بعد فتح ساردیس أخذ من ذلك القصر أكبر جزء

من الكنوز والتحف ، ثم بعث به الى خزائن كورش فى باسارجاد . فلما ان انقضت فترة الارهاب التى تلى الفتح أظهر الليديون كثيراً من كنوزهم وتحفهم التى كانت مخبوءة ، واستعادوا فى أيام كورش وقمبيز الآمنة المطمئنة بمالهم من حذق ومهارة مكانتهم الاولى ، فأصبحت سارديس مرة أخرى من أثرى مدن آسيا الصغرى بل والعالم كله .

ومع تعود دارا وبركساسب على جلالة الملك وضخامته فقد أدهشهما جمال قصر المرزبان وبهاؤه . أعجبتهم الاعمال الرخامية ونالت استحسانهم فلم يروا مثلها فى بابل أو سوسا أو اكبتانا (١) حيث استعيض عن الرخام المصقول بالطوب الأحمر وخشب الأرز .

وهناك وجدوا بردية مضطجعاً على وسادة فى البهو الكبير أصفر الوجه ، فمد اليهم ذراعيه .

وتناول الصحب طعام العشاء على مائدة المرزبان ، ثم ذهبوا بعد ذلك الى حجرة بردية الخاصة كى يستمتعوا بالحديث وكى يكونوا أحراراً فيه .

فكان أول حديث دارا لبردية بعد جلوسهم ان سأله « كيف أصابك هذا المرض الخطر يا بردية ؟ »

قال بردية « لقد كنت سليما معافى كما تعلمون حين تركنا بابل ، ثم وصلنا جرماء وهى بلدة صغيرة على نهر سنجربوس ، دون أن يصيبنا شىء . وكان السفر طويلا فجهدنا له كثيراً وقاسينا من حرارة الشمس المحرقة الكثير وامتلأت جسومنا بالغبار . وكان النهر يجرى قريباً من المحطة ، وكانت موجاته ترى رائقة مبرقة يغرى منظرها على السباحة ، فلم تمض دقيقة حتى ترجلت أنا وزوبيروس وخلعنا ملابسنا وقفزنا الى النهر . وقد قال لنا جيجيز وقتئذ اننا تهورنا ، غير أننا كنا معتادين كثيراً على مثل

---

(١) لم يكن قد بنى بعد قصر برسبوليس الشهير ، ولعله بنى فى عصر دارا . وقد بنى جزء منه بالحجارة السوداء جىء بها من جبل راشمد ، وبنى الجزء الآخر بالرخام . أما قصر سوسا فقد بنى بالطوب الاحمر ، وبنى قصر اكبتانا من خشب عليه الواح من ذهب : وكان سقفه من آجر صنع من فلزات ثمينة .

ذلك دون أن يصيبنا أذى ولطالما استمتعنا غير مرة بالسباحة فى الماء البارد الاخضر وتركنا جيجيز نعمل ما نريد ومكث ينتظرنا وهو هادئ ساكن كعادته حتى انتهينا من السباحة ، و بعد ذلك قفز الى النهر . و بعد ساعتين كنا على ظهور خيلنا مرة أخرى مجدين فى السير مسرعين كأنما نريد النجاة بحياتنا وكنا نستبدل الخيل فى كل محطة متخذين من ليلنا نهاراً .

« واقتربنا من ابسوس وهناك بدأت أشعر بألم شديد فى الرأس والأطراف . وخجلت أن أذكر شيئاً عن ألمى وظللت منتصب القامة فوق سرجى حتى وصلنا الى باجيس حيث تستبدل الخيل . و بينما أنا اعتلى صهوة جوادى فقدت مشاعرى وخانتنى قواى وسقطت على الأرض مغميا علىّ لاحراك بى . »

قال زو بيروس متمما « أجل ولقد كان فزعنا لذلك عظيما . غير أنه من حسن الحظ أن جيجيز كان معنا فاننى أنا أيضاً قد فقدت صوابى . أما هو فقد ظل محتفظا بقواه ومشاعره ، و بعد أن أبدى لنا شعوره ببضع كلمات لم تكن حسنة الوقع على السمع سلك مسلك القائد البصير الحازم — ولقد منينا بطبيب أبله جاءنا مسرعا وقال ان بردية قد فارق الحياة ، فكان جوابى على ذلك أن ألهبته بالسوط . »

قال المرزبان ضاحكا « ولم يعترض الرجل على ذلك اذ رأى أنك أمرت له بقطعة ذهبية عن كل جلدة نالها . »

قال « نعم فان حدتى تكلفنى الكثير أحيانا . ولأعد الى حديثى . لما فتح بردية عينيه أرسلنى جيجيز الى ساردس كى أبحث عن طبيب ماهر وعن احدى عجلات السفر . وقبل أن أصل الى أبواب المدينة بساعة لم يستطع جوادى الثالث متابعة السير ، فاعتمدت على ساقىّ وعدوت بأسرع ما يمكننى . ولا بد أن يكون القوم قد ظنونى مجنوناً . وأخيراً رأيت رجلا ممتطيا جوادا ، وكان تاجراً من كلاينى ، فجررته من فوق سرجه وقفزت مكانه ، وقبل أن يتنفس صبح اليوم التالى عدت ومعى أحسن أطباء ساردس ، وجئت بأحسن عجلات أوروتيز . وجئنا بالمريض الى هذا القصر ولم نسرع فى السير لكى يرتاح المريض ، وهنا تملكته حمى شديدة ووقع فى بحران فجعل يهذى ويهرف بكل هراء ممكن ، ولشد ما تفزعنى ذكرى هذه الساعات حتى

يندى جبيني بالعرق كلما مرت بخاطرى . »

فأمسك بردية بيد صديقه وقال لدارا « انني مدين بحياتي له ولجيجيز ، فلم يتركاني لحظة الا اليوم حين ذهبا لاستقبالكم . واني لشاكر أيضاً لاوروتيز فضله ، بل ان شكرى له ليتضاعف لاني سببت له فوق عنايته بي كدراً وانزعاجا . »

قال دارا « وكيف كان ذلك ؟ »

قال « ان لدى بوليقراط ، صاحب ساموس الذى سمعنا اسمه يتكرر في مصر ، أحسن طبيب أنجبته اليونان . فلما كنت هنا راقدا وأنا مريض كتب الى ديموسيد الطبيب واعدا اياه الوعود الكثيرة الخلابة ان هو جاء الى ساردیس مباشرة . فقبض القراصين من رجال بوليقراط الذين يغشون كل شواطئ اليونان على الرسول وأوصلوا الخطاب الى بوليقراط . ففضه وأعاد الرسول قائلا ان ديموسيد موظف عنده ينقده أجراً ، فاذا كان أوروتيز في حاجة اليه وجب عليه أن يسأل بوليقراط نفسه . فخضع صديقنا الكريم اكراما لي ورجاه أن يرسل طبيبه الى ساردیس : »

قال بركساسب « حسن ثم ماذا ؟ »

قال « فأرسله بوليقراط المتغطرس على الفور . وقد أبرأني علاجه كما ترون ، وغادرنا منذ بضعة أيام محملا بالعطايا والهبات . » .

قال زوبيروس « أستطيع أن أفهم من ذلك أن بوليقراط يجب أن يكون طبيبه قريباً منه . وأؤكد لك يا دارا أنه ليس من السهل الحصول على مثله ، فهو جميل الطلعة ماهر قوى الجسم محسن محب للخير . وددت لو رأيته كيف غلبني بسرعة عند ما صارعني مع اني لست ضعيفاً خوارا . وفوق هذا فالرجل راوية يستطيع أن يحدثك بقصص شهيرة من تلك القصص التي تجعل قلب الانسان يرقص في جوفه طرباً لسماعها . »

قال دارا وهو يبتسم لتحمس صديقه « لقد عرفنا رجلا له كياسة هـذا الرجل ولباقته ، وما الأثيني فانيس الذى أثبت براءتنا ببعيد . » .

قال « ان الطبيب ديموسيد من كروتونا وهي بلد لا بد واقع في الغرب . » .

قال « أوروتيز « وهى كأثينا يسكنها الاغريق . أوصيكم أيها الصحب أن

تحذروا أولئك القوم . انهم مكرة مخادعون أهل أثرة وأنانية ، كما انهم أقوياء أهل جد صُبح الوجوه . » .

قال زو بيروس « ان ديموسيد كريم مخلص . » .

قال دارا « وكريسوس نفسه يرى أن فانيس ليس رجلا قادراً فحسب بل ومن أهل الفضل والنبل أيضاً . » .

قال بردية توكيداً لكلام دارا « لطالما تمدحت صافو بالاثيني غير أنه يحسن بنا أن نقلل من ذكر أولئك الاغريق ، فانهم بعنادهم وشكاستهم قد سببوا لاوروتيز تعباً ونصباً حتى انكم لتجدونه يكرههم كثيراً . » .

قال المرزبان « والآلهة تعلم ذلك أيضاً . ان استتباب النظام والأمن في بلدة اغريقية واحدة أصعب بكثير منه في كل البلاد الواقعة بين دجلة والفرات » .

وفيما يتكلم أوروتيز ذهب زو بيروس الى النافذة وقال « لقد ظهرت الكواكب في السماء وبردية متعب منهوك ، فأسرع يا دارا وهات ما عندك من أخبار البلاد »

فوافق ابن هستاسب وبدأ يقص الحوادث الماضية . وقد حزن بردية لدى سماعه ما حل بنايتيتس ونهايتها المروعة المحزنة . أما التزوير الذى ارتكبه أماسيس فقد أدهشهم جميعاً . وقال دارا بعد صمت قليل « عند ما وضح لنا نسب نايتيتس استحال قمبيز رجلا غيره . فعقد مجلساً حربياً وظهر على المائدة بثيابه الملكية الفاخرة بدلا من ملابس الحداد . وانكم لتستطيعون أن تتصوروا الفرح العظيم الذى أثارته فكرة الحرب مع مصر . ، لقد استطابها الكل حتى ان كريسوس نفسه ، وهو كما تعلمون أحد محبى أماسيس وأحد القائلين بفكرة السلام الداعين اليها ما دامت مستطاعة ، لم يقل كلمة واحده ازاء ذلك . وفى صباح اليوم التالى ، كما هى العادة ، أمعنا الفكرة ونحن مستيقظون فيما عقدنا النية عليه ونحن سكارى . وبعد أن عرضت جملة آراء طلب فانيس الاذن بالكلام فاذن له وطفق يتكلم نحو الساعة . وما كان أعذب حديثه ! لقد كانت كل كلمة تخرج من فمه كأنها صادرة مباشرة من الآلهة . ولقد تعلم لغتنا فى وقت قصير جداً ، وأجادها اجادة مدهشة ، وكان الكلام يسيل من فمه كالشهد . فكان آنا يستبكى الحضور فينحدر الدمع من كل عين ، وآنا كان

يثيرهم فيصيحون صيحات الفرح ثم يعقبونها بصيحات غضب مفزعات . وكان فى اشاراته وحركاته كالراقصة الحسناء أشربت مهابة الرجولة وفتوة الشجعان . لست أستطيع أن أعيد قوله فما أحقر كلماتى بالنسبة لكلماته ، ولكأنى أدق لكم طبلا بعد أن تسمعكم السماء رعداً . ولما وافق الحضور بالاجماع على اعلان الحرب متأثرين بفصاحته وسحر بيانه بدأ يتكلم مرة أخرى ذاكراً أحسن الطرق وأنجع الوسائل المؤدية الى النجاح . » .

وهنا اضطر دارا الى السكوت لأن زوبيروس أخذته هزة السرور فانقض على دارا يعانقه . ولم يكن بردية ولا جيجيز ولا أوروتيز بأقل منه سروراً وسأله الكل أن يتم حديثه .

قال « يجب أن يكون جيشنا على حدود مصر فى شهر فاروادن (مارس) لان فيضان النيل يبدأ فى شهر موررداد (يوليه) وقد يعوق تقدم المشاة من جيشنا . وفانيس الآن فى طريقه الى العربان كى يتأكد من مساعدتهم لنا فيمدون جيشنا بالماء وبالادلاء يتقدمون جيشنا وسط أراضيهم الجدباء القاحلة ، ثم يشخص بعدئذ الى قبرص التى أخضعها فيما مضى لأماسيس فيبذل الجهد هناك لكى تنضم الينا . ولما كان أمراء هذه الجزيرة ، بسبب توسطه ، قد سمح لهم بالاحتفاظ بتيجانهم فانهم سيستمعون عن طواعية لنصحه ويعملون برأيه . وبالاختصار فان الاثينى لم يهمل شيئاً ، وهو يعرف كل طريق وكل ممر كأنه الشمس نفسها . هذا الى أنه قد أرانا صورة الدنيا على لوحة من النحاس . » .

فهز أوروتيز رأسه وقال « ان عندى مثل هذه الصورة ، فان ميليسياً اسمه هيكاتوس(١) قضى حياته فى الأسفار وفى الاستكشاف رسمها وأهدانيها مقابل أن

---

(١) هو أبو الجغرافيا كما ان هيرودوت ابو التاريخ . أصلح خريطة انكسماندر ووضع كتابه الشهير « سياحة حول العالم » فاعجب به معاصروه الاقدمون ، ولسوء حظ العلم أن هذا الكتاب قد فقد ماعدا أجزاء صغيرة جداً منه . ويؤكد هيرودوت أن هيكاتوس هذا كان ملما بكل أجزاء الامبراطورية الفارسية ، وانه سافر الى مصر أيضاً . ولد عام ٥٥٠ قبل الميلاد أى فى العصر الذى حدثت فيه حوادث هذه القصة . على أن الخرائط الجغرافية وجدت قبل ذلك ، وأقدمها خريطة لمناجم الذهب رسمها أحد كهنة المصريين وهى محفوظة فى المتحف المصرى فى تورين .

أهبه حرية المرور . »

قال زو بيروس وهو لا يستطيع أن يفهم معنى صورة الدنيا « أى خيال ذلك الذى يوجد فى أدمغة الاغريق ؟ »

قال أوروتيز « غداً أريك اللوحة النحاسية ، ويحسن الآن أن ندع دارا يتم لنا حديثه . »

قال دارا « وهكذا ذهب فانيس الى بلاد العرب وجاء بركساسب موفداً اليك يا أوروتيز لكى يأمرك أن تجهز من الجيوش ما تستطيعه ، وعلى الأخص من اليونانيين والكاريين الذين قبل فانيس أن يتولى قيادتهم ، بل وجاءك أيضاً ليقترح شروطاً لمحالفة مع بوليقراط . »

قال أوروتيز وقد تجهم وجهه « مع ذلك القرصان ! »

قال بركساسب غير مظهر أنه لاحظ التجهم فى وجه أوروتيز « نعم هو نفسه فان فانيس نال وعداً من هذا الرجل صاحب تلك العمارة البحرية العظيمة ، وأرى أن سفارتى تنبئ عن نجاح . »

قال « ان فى سفن الفينيقيين والسوريين واليونان الكفاية ، وهن قادرات على الاستظهار على العمارة المصرية . »

قال « انك محق فيما تقول ولكن اذا شهر بوليقراط حربه علينا فلسنا بمستطيعين الثبات فى البحر . وأنت نفسك تقول انه المتسلط على البحر الايجيني : » .

قال « ومع ذلك فلا زلت غير موافق على الدخول فى محالفة مع مثل هذا اللص . »

قال « اننا نريد حلفاء أقوياء وبوليقراط قوى فى البحار . انه سوف يجئ وقت اخضاعه لنا بعد أن نكون قد استفدنا منه فى اخضاع مصر . اننى أرجو فى الوقت الحاضر أن نكبح جماح عواطفنا ، وأن لا نضع نصب أعيننا الا أمراً واحداً هو نجاحنا فى خطتنا العظيمة هذه . واننى مخول من قبل الملك أن أخاطبك باسمه وأن أريك خاتمه توكيداً لذلك . »

فخضع أوروتيز أمام تلك الشارة ، شارة حكم الفرد المطلق ، وقال « وما الذى يريده قمبيز منى ؟ »

قال « انه يأمرك أن تستخدم كل ما فى وسعك من الوسائل كى تتحالف مع بوليقراط ، و يأمرك كذلك أن ترسل بأسرع ما يمكن جيوشك لكى تنضم الى الجيش الرئيسى فى سهول بابل » . فانحنى المرزبان وغادر الحجرة وعلى وجهه مسحة الغيظ والقهر .

ولما أن خفت صدى وقع أقدامه بين عمد الفناء الداخلى للقصر قال زو بيروس « مسكين هذا الرجل . يصعب عليه أن يلقى بوليقراط المتغطرس ، الذى طالما أساء اليه ، لقاء الصديق الى الصديق . اذكروا مثلا حكاية الطبيب . »

فاعترضه دارا قائلا « انك كثير التسامح . لست أميل لأوروتيز هذا . فليس يحق له أن يقابل أوامر الملك على هذه الصورة . ألم تره وهو يعض شفتيه حتى أدماهما حين أظهر له بركساسب خاتم الملك ؟ »

قال بركساسب « أجل انه شكس صلب عنيد . لقد غادرنا بسرعة لأنه لم يستطع كبح غضبه أكثر من ذلك . » .

قال بردية « لا زلت آمل منك أن تكتم سلوكه هذا عن أخى لأن الرجل أحسن معاملتى . »

فانحنى بركساسب موافقاً غير أن دارا قال « علينا أن نقيم عيناً على الرجل يرقب أعماله ، فاننا ، هنا فى هذه البلاد البعيدة عن قاعدة الملك و بين أمم معادية لفارس ، نريد حكاماً أكثر استعداداً لطاعة ملكهم من أوروتيز هذا . أتراه ظن نفسه ملكا على ليديا ؟ »

قال زو بيروس « أتكره المرزبان ؟ »

قال دارا « أظننى كذلك . انى كثيراً ما أنفر من بعض الناس لاول نظرة ، بل وقد يتملكنى وسواس من جهتهم . وفى النادر أكاد لا أجد فيما بعد أسباباً تحملنى على تغيير اعتقادى . لقد كرهت أوروتيز هذا قبل أن أسمعه يتكلم ، واذكر أنى شعرت بنفس هذا الشعور نحو بسامتك ، مع أن أماسيس نزل من قلبى منزلا لطيفاً . »

قال زو بيروس ضاحكا « لا شك فى أنك تختلف عنا كل الاختلاف . والآن

أرجوكم أن تتركوا أوروتيز وذكره اكراماً لى . لقد سررت من ذهابه لاننا صرنا نستطيع أن نتكلم بحرية عن البلاد وساكنيها . كيف حال كاساندين ؟ وكيف حال معبودتك آتوسا ؟ وكريسوس أيضاً كيف هو ؟ وكيف حال زوجانى ؟ ستكون لهن فى القريب العاجل زميلة جديدة . لقد عزمت أن أطلب الى أوروتيز فى الغد يد ابنته الحسناء . لقد تبادلنا كلام الحب والغرام بأعيننا وأطلنا فيه ، ولست أدرى أكنا نتكلم بالفارسية أو السورية ، وانما الذى أعلمه أننا كنا نتبادل أعذب الحديث وأشهاه . »

فضحك الصحب وطربوا وشاركهم دارا قال « والآن اليكم أحسن الأنباء أجلت ذكرها لأنها خير ما أحمل اليكم . استمع الى يا بردية . ان النبيلة كاساندين أمك قد برئت من عماها ورد لها بصرها ثانية . نعم فما أقوله هو الحق . . ومن أبرأ علتهـا وشفاها ؟ ومن عساه قد يكون غير ذلك العجوز نبنخارى الشكس الغضوب الذى أصبح اليوم أظرف منه بالأمس . صه وهدئوا أنفسكم ودعونى أتم لكم حديثى والا فقد يتنفس الصبح ولا ينـام بردية . وعندى أنه يحسن أن نفترق الآن فقد سمعتم أهم الأنباء وخير ما يجعلكم تحلمون به وأنتم نيام . ماذا ! لا تريدون ؟ اذن سأمضى فى الحديث ولو أنه ، وحق مثرا يدمى قلبى .

« سأبدأ بالملك . لقد ظهر عليه أنه نسى حزنه على نايتيتس طول اقامة فانيس فى بابل . وهو لم يسمح للاثينى أن يفارقه لحظة فكأنما هما رستم وجواده ركش . على أن قمبيز لم يكن لديه من الوقت ما يصرفه فى التفكير فى حزنه وآلامه لأن فانيس كان دائمـاً يتحفه بكل جديد يسرى عن نفسه بما أوتيـه من مهارة ولباقة . ولقد ملنا اليـه نحن كلنا أيضاً وغبطناه ، فلم يكن بوسع أحد منا أن يحسده على ما أوتى من مواهب . ولطالما كان الدمع ينحلب من عينيه كلما جلس منفرداً تجرى به الفكر الى تذكر ولده . فكان مرحه مع الملك أدعى الى العجب يا بردية بل والى الاجلال والاكبار ، لأنه كان دائماً يجتهد فى ايصال السرور الى قلب الملك . ففى كل صباح يذهب مع قمبيز برفقتنا الى الفرات لنشاهد أبناء الاخيمينيين فى مرانهم . فلما رآهم راكبين بأقصى سرعة بين كثبان الرمل يضربون بنبالهم القدور الموضوعة فوقهـا فتتهشم ، أو يتراشقون بالكرات الخشبية فيحيدون عنهـا برشاقة ، اعترف بأنه

لا يستطيع تقليدهم فى تلك الألعـاب وذلك المران . ولـكنه فى الوقت ذاته تقدم فينا يطلب أن ندخل فى مباراة فى رمى الحراب والطعن بها وفى المصارعة . وترجل بسرعة وخلع عنه ملابسه فصار عارى الجسد ، وما كان أسوأ ذلك وأشده عاراً — اذ أن تعرية الجسم عندنا عيب وعار فى حين أن الاغريق يعتقدون أنه لاشيء فى الوجود أجمل من جسم الانسان العارى — وما كان أشد سرور الصبية حين رأوه يصرع أستاذهم كما لو كان ريشة . ولقد تغلب أيضاً على كثير من اخواننا المتبجحين الأدعياء ، وكاد يتغلب علىّ لولا أنه كان متعباً منهوكا . وانى أؤكد لكم أننى أقوى منه بكثير لأنى أستطيع أن أحمل أثقالا كبيرة لا يستطيع هو رفعها ، ولكنه رشيق الحركات سريعها كثعبان البحر ، وله حيل غريبة ومهارة فائقة يستطيع بهما أن يتغلب على خصمه . وساعده عراؤه فى ذلك مساعدة عظيمة . ولولا أن هـذه التعرية لا نستطيبها لـكنا دائماً نتصارع ونحن عراة الاجسام ، مدهونة بشرتنـا بالزيوت كما يعمل الاغريق اذ يتدهنون بزيت الزيتون . وقد تغلب علينـا أيضاً فى رمى الرمح ؛ غير أن الملك ، وأنتم تعرفون أنه يفخر دائماً بأنه أحسن الرماة فى فارس ، قد رمى السهم وأجاد . ولقد سر فانيس من عادتنا القاضية بأنه فى كل مباراة يلزم المغلوب بتقبيل يد الغالب . وأخيراً أرانا نوعاً جديداً من المران وهو الملاكمة . ولقد أبى أن يجرب مهارته فى ذلك الامع عبد من العبيد ، ولذلك أرسل قمبيز فى طلب أضخم رجل بين الخدم وأقواهم — وهو خادمى بيسوس — وهو مارد يستطيع أن يمسك بالساقين الخلفيتين لأى جواد ويقبض عليهما بشـدة بحيث يرجف الجواد ولا يستطيع حراكا . هذا الرجل الضخم الجثـة الأطول قامة من فانيس هز كتفيه احتقاراً اذ علم أنه سيلاكم نبيـلا أجنبياً صغير الجسم كفانيس . وكان صاحبنا بيسوس متأكداً من الفوز عليه ، فوقف ازاء خصمه وصوب اليه لـكمة تكفى لقتل أحد الفيلة . فحاد عنها فانيس بمهارة ؛ وفى الوقت ذاته لطم ذلك المـارد بقبضة يده العارية لطمة شديدة تحت عينيه خرج الدم من بعدها يجرى من أنفه وفمه ، وسقط ذلك المـارد على الارض وهو يصيح من الألم . وحينما رفعوه من فوق الأرض كان وجهـه كالقرعة ازرقّ لونها فى خضرة . ولقد أغرب الصبية فى الضحك من تشويه

وجهه ، فى حين أننا أعجبنا بمهارة ذلك الاغريقى وسررنا على الاخص برؤية الملك وقد سرى عنه ، ولاحظنا السرور طالما كان فانيس يغنى أغانيه الاغريقية وينشد ألحان الرقص على نغم القيثار .

« وفى أثناء ذلك برئت كاساندين وهذا بالطبع أدى الى تبديد جزء غير قليل من حزن الملك .

« ولم يمض الا القليل حتى طابت نفوسنا وتبدل حزننا فرحا فانتهزت الفرصة وكنت على وشك أن أطلب الى الملك يد أختـه لولا أن فانيس سافر فجأة الى بلاد العرب ، ومن ثم تغير كل شيء .

« فانه لم يكد يخرج من أبواب بابل حتى عادت الى الملك هواجسه وهمومه ، فوجم لا يكلم أحداً . واستعان بالخمر على تبديد هذه الأحزان ، فكان يشرب كثيراً من خمر سوريا القوى العتيق ، وجعل يحتسيه حتى فى البكور . فلا يرخى الليل سدوله حتى تكون الخمر قد لعبت برأسـه ، فيسقط من شدة السكر ، ثم يحمل الى سريره . فاذا طلع النهـار استيقظ وبرأسـه دوار وبأعضائه تشنج . ثم يغرق نهاره فى ذهول شديد كأنه ينتظر شيئاً ، فاذا جن الليل جعل ينادى نايتيتس ويردد اسمها . ولقـد خشى الأطباء عليه وقلقوا على صحته ، فلما جهزوا له دواء وبعثوا به اليه رمى به على الأرض . ولقد صدق كريسوس اذ قال وقد رأى الملك مرة يرمى الدواء : أيها المجوس والكلديون ! عليكم قبل أن تحاولوا شفاء مريض أن تبحثوا عن موضع الداء فيـه . فهل تبينتم مرض الملك ؟ كلا . اذن فانى مخبركم بالذى يؤلمه . انـ به مرضاً داخلياً وجرحاً دامياً . فأما الأول فهو السآمة والضجر ، وأما الثانى ففى القلب . والاثنين خير من يعالج الأول — أما الجرح فلست أعرف له طبيباً مداوياً . ومثل هذا الجرح اما أن يندمل من تلقاء نفسه واما أن يظل دامياً حتى يدفع بالمريض الى القبر .

« ولقد قال أوتانز اذ سمع هذه الكلمات : اننى أعرف علاجا للملك . يجب علينا أن نحثه على طلب نسائه ، أو ابنتى فايديم على الأقل فتعود ثانيـة من سوسا . ان الحب خير من يبدد هذه السآمة ويزيد فى سرعة جريان الدم فى العروق : فعلمنا أنه على حق وطلبنا اليه أن يذكر الملك بنسائه المبعدات . ولقد اجترأ على عرض ذلك

عليه حينما كنا على مائدة العشاء ، ولكن عرضه رفض بشدة حتى افقد ألمنا للرجل .
و بعد ذلك بزمن قليل أرسل قمبيز صبح يوم يطلب كل المو بيديين والكلدييين من السحرة والعرافين ، وأمرهم أن يفسروا له رؤيا غريبة رآها فى نومه . قال انه رأى نفسه جالساً فى سهل مجدب قاحل ، لا ينبت فيه حتى العشب . فلم يستطب رؤية ذلك المكان الذى يشبه الصحراء ، وبدأ يبحث عن غيره أكثر منه صلاحية وملاءمة ، واذا بآتوسا قد ظهرت وأسرعت تجرى دون أن تراه الى عين ماء نبعت فى هذه التربة اليابسة وكأنها انبثقت بقوة سحرية . وفيما هو يحدق النظر فيما حوله وهو دهش لاحظ أنه فى كل مكان كانت تطأ فيه قدما أخته فى تلك التربة القاحلة تخرج من جوف الأرض شجرة بطم ثم تتحول فى نموها الى شجرة سرو عالية تناطح قمتها السحاب . ولا تنسوا أن ملوك فارس يأكلون من ثمر البطم عند تتويجهم . ولما أراد أن يكلم آتوسا صحا من نومه .

« فتشاور السحرة فيما بينهم وفسروا الحلم هكذا : ان آتوسا سوف تكون ناجحة موفقة فى كل أعمالها .

« فرضى قمبيز بهذا التعبير ، ولكنه فى الليلة التالية رأى فى نومه نفس الرؤيا مرة أخرى ، واذ ذاك هدد القوم بالموت ان هم عجزوا عن اجادة التفسير . ففكروا مليا وأخيراً قالوا أن آتوسا ستصبر ملكة وستكون أما لملوك قادرين .

« فاقتنع الملك فى الحقيقة بهذا التفسير ، وابتسم ابتسامة غريبة حين كان يقص علينا رؤياه . وفى اليوم ذاته أرسلت كاساندين فى طلبى ، وسألتنى أن لا أفكر قط بابنتها ان كنت أقدر لحياتى معنى .

« وعند مغادرتى حديقة الملكة أبصرت بآتوسا وراء دغل من شجر الرمان ، فأشارت الىّ ، وذهبت اليها . وفى هذه الساعة نسينا الخطر والحزن وودعنا بعضنا وداعا أبدياً . وها أنتم الآن قد عرفتم كل شىء ، وها انى الآن انتزع من نفسى كل رجاء وأمل فى الحصول على فاتنتى الحسناء اذ كل رجاء وأمل جنون فى جنون . ولا بد لى أن أبذل كل ما فى وسعى لكى أملك قياد نفسى بالحزم والشدة فلا يصيبنى ما أصاب الملك من ذهول من أجل امرأة .

« وذاك هو نهاية القصة — تلك النهاية التي توقعناها حينما بعثت الي آتوسا وردة وأنا مستسلم لحكم الموت ، فجعلتني أسعد مخلوق . ولو لم أكن بحت بسري لكم يوم ظننا أن منيتنا قد دنت لدفن سري معي في قبري . . . ولكن ما الذي أنا قائله ؟ على أني معتمد عليكم في حفظ سري ، سائل اياكم أن لا ترمقوني بنظرة التحسر والتوجع . اخالني لا زلت أحسد على حالي ، لأني سعدت في حياتي كلها ساعة واحدة ، وكانت سعادتي فيها تعدل بؤس قرن من القرون . اليكم شكري ولأتم لكم بسرعة بقية الحديث .

« بعد أن فارقت آتوسا أرغمت على الزواج من أرتستون ابنة جوبرياس ، وهي جميلة حسناء وفي وسعها أن تسعد أي انسان غيري . وفي اليوم التالي لزواجي منهـا وصل بابل رسول يحمل الينـا الأنباء عن مرض بردية ، فأعملت الفكر في الحال ، ورجوت الملك أن يسمح لي بالسفر اليك للقيـام على تمريضك ، ولكي أحذرك من الخطر الذي يهدد حياتك في مصر . واستأذنت عروسي رغم كل احتجاجات أبيها ، وذهبت مسرعا مع بركساسب وواصلنا السير دون أن نستريح لحظة حتى وصلنا اليك يا بردية . وسأصحبك أنت وزوبيروس الى مصر ، لأن على جيجيز أن يكون برفقة السفير الى ساموس كي يقوم بالترجمة . وهذا أمر الملك ، وقد كان منفرج الأسارير في بضعة الأيام الماضية لأن استعراض الجيوش التي وفدت على بابل قد سري عن نفسـه ، وعدا هذا فان الكلدانيين العرافين أكدوا له أن الكوكب السيار أدار (المريخ) الخاضع لأمر معبودهم شانون ، آله الحرب ، يعـد الفرس بالنصر . فمتى تكون قادراً على السفر يا بردية ؟ »

قال « غدا ان شئت ، ولقد قال الاطباء أن سفر البحر يفيـدني والمسافة التي نقطعها برا الى أزمير قصيرة . »

قال زوبيروس « وأنا أستطيع أن أوكد لك أن شفاءك على يدي صافوسيكون أسرع منه على أيدي أطباء العالم كلهم . »

قال دارا بعد اطراق قليل « واذن فلنبدأ سفرنا بعد ثلاثة أيام فعلينا الكثير من الأعمال قبل البدء في السير . أذكروا أننا ذاهبون الى ما يصح أن نسميه ببلاد

الأعداء . ولقد فكرت طويلا فى الأمر ، ويبدو لى أنه يجب على بردية أن يظهر كأنه بائع بسط من بابل وأنا أمثـل أخاه ، أما زوبيروس فيظهر كأنه بائع صباغ ساردیس الأحمر . »

قال زوبيروس « ألا يمكن أن نكون جنـدا ؟ انه لشائن أن نتنكر تحت لباس الباعة أهل النفاق والمداهنة . وماذا لو دخلنا مصر بلباس جنود ليدية مدعين أننا هربنا تجنباً للمحاكمة فالقصاص قاصدين الانتظام فى سلك جنود الجيش المصرى ؟»

قال دارا « هذا أفضل فاننا الى الجند أقرب مظهراً منا الى الباعة . »

قال جيجيز « ما كانت المظاهر والأشكال بالدليل المرشد على حقيقة الرجال . وهاهم كبار تجار الاغريق وأصحاب السفن يروحون و يغدون معجبين بأنفسهم فخورين وكأن العالم ملك لهم . على أنى مع ذلك لست أجد فى اقتراح زوبيروس غضاضة . »

قال دارا مستسلماً « فليكن الأمر كذلك ، وعلى أوروتيز اذن أن يجيئنا بملابس ضباط ليديين برتبة تاكسيارك . »(١)

قال جيجيز « بل يحسن أن ترتدوا فى الحال ملابس ضباط برتبة شيليارك(١) فهى ملابس فاخرة على ما أرى . ولاحظوا أن مظهركم الفتىّ قد يثير الشبهات . »

قال « ولكننا لا نستطيع الظهور بزى الجند العاديين . »

قال « نعم ، وما رأيكم فى لباس الضابط برتبة هيكا تنتارك ؟ »(١)

قال زوبيروس ضاحكا « حسن . كل شىء تريدونه جائز الا أن نكون باعة . وهكذا فلنرحل بعد ثلاثة أيام . ويسرنى أنى سأجد فى هذه الأيام الثلاثة الوقت اللازم لكى أتأكد فيه من أمر ابنة المرزبان الصغيرة ، ولكى أزور أيكة سيبيل . والآن فعم مساء يا بردية ، ولا تنهض من سريرك مبكراً ، فماذا تقول صافو ان أنت قدمت اليها بخدين مصفرين ؟ »

---

(١) كان الجيش الفارسى مقسما تقسيما عشريا ، فالفرقة عشرة آلاف رجل . والارطة الف ، والطابور مائة . وكانت رتبة تاكسيارك فيه تعادل رتبة يوزباشى ، أما الهيكا تنتارك فقائد المائة ، والشيليارك فقائد الالف . على أن رتبة الشيليارك فيما بعد عصر قمبيز كانت تعد رتبة عالية عند الفرس ، وكان صاحبها يعد الثانى فى المرتبة بعد الملك .

الفصل السادس والعشرون

الاصدقاء الثلاثة فى مصر

بزغت الشمس على ربى نقراتس . وكان الوقت صيفاً شديد القيظ ، وكان فيضان النيل قد بدأ يغمر ضفتيه ويغطى حقول المصريين وحدائقهم بالماء . وكان المرفأ غاصاً بمختلف الزوارق والسفن . فكنت ترى السفن المصرية راسية هناك ، وبها سكان المستعمرات الفينيقية وفدوا على نقراتس من شواطئ الدلتا ، وجاءوا معهم بالمنسوجات من مالطة ، وبالفلزات والاحجار الكريمة من سردينيا ، وبالخمر والنحاس من قبرص وكانت سفن الاغريق الشراعية محملة بالزيت والنبيذ والمصطكاء ، وبها مصنوعات فلزية وأصواف من شالسيس . وكنت ترى زوارق فينيقية وسورية ذات شرع ملونة أزهى الألوان ، محملة بالبضائع من حرائر أرجوانية ولآلئ ومتبلات وأوان زجاجية وزرابى وأخشاب أرز لبنانية — لاستعمالها فى أعمال البناء فى مصر لندرة الخشب فيها — فيفرغون ما بهذه الزوارق ثم يحملونها بالذهب والابنوس والعاج وريش النعام والاحجار الكريمة والعبيد والاماء السود — وتلك كانت تحف اثيوبيا ومنتجاتها . وعدا هذا فقد كانوا يأخذون الحنطة المصرية فقد كانت ذات شهرة عظيمة ، والعجلات المنفية (نسبة الى منف) ، وسجفاً من سايس وأرق أنواع البردى وأكثرها نعومة . وكان قد مضى الزمن الذى يجرى فيه البيع والشراء بطريق المبادلة فقط ، ولم يكن تجار نقراتس ينقدون فى الغالب الذهب الخالص ثمناً لبضائعهم بل كانوا يأخذون عنها عوضاً من الفضة .

وكانت المخازن قائمة حول مرفأ هذه المستعمرة الاغريقية ، ولم تكن توجد الا بضعة أماكن يذهب اليها كسالى البحارة ، حين يغريهم ما بها من أنغام الموسيقى وأصوات الضحك ، وما كان يصوب لهم من نظرات الغوانى المتبرجات المخضبات الوجوه وأحاديثهن . وكنت ترى العبيد ، ما بين بيض وسود ، والمجذفين والواقفين على الدفة غادين رائحين هنا وهناك وقد تزيوا بمختلف الأزياء فى حين ارتدى

ربابنة السفن أزياء اغريقية أو فينيقية ذات ألوان زاهية . وكانوا يصدرون الاوامر لبحارتهم ويساومون السلع للتجار . أما رجال الشرطة المصريون فقد كانوا يفضون كل نزاع يحدث بعصيهم الطويلة ، وما أسرع ما كان يحضر حراس المرفأ الاغريق اذا حدث مثل ذلك . وكان كبار التجار فى تلك المستعمرة الميليسية يعينون هؤلاء الحرس .

وبدأ الزحام يخف من الميناء لان ساعة افتتاح السوق قد دنت ، ولم يرد أحد من الاغريق السادة أن يتخلف عن السوق فى هذه اللحظة . على أنه قد تخلف ساعتئذ عدد غير قليل أخذوا بمنظر سفينة سامية جميلة البناء هى « الاوكيا Okeia » لها مقدم طويل يشبه عنق الأوزة ، وضع فى أوله تمثال المعبودة حيرا Hera ، وكانت السفينة تفرغ ما بها من بضائع . غير أن الذى لفت نظر الجمهور على الاخص ثلاثة شبان ، صبح الوجوه بلباس ضباط ليديين ، تركوا السفينة يتبعهم عدد من العبيد يحملون أمتعتهم .

لا شك أن القراء الكرام قد عرفوا أن أولاء هم أصحابهم الفتيان الثلاثة دارا وبردية وزو بيروس . فسأل أجملهم أحد رجال الشرطة الواقفين بالمرفأ عن منزل ثيوبومبس الميليسى لأنهم مضطرون لمقابلته .

فتقدمهم الرجل ، على الفور ، وفى أدب ولطف ، شأن الأغريق ، وسط السوق وكانت السوق وقتئذ قد أعلن افتتاحها بأن دق ناقوس معلنا ذلك الافتتاح — وسار بهم الى منزل أنيق هو منزل صاحبنا ثيوبومبس الميليسى المعدود من كبار القوم فى نقراتس وأغناهم .

ولم ينجح صحبنا الثلاثة فى شقهم طريقاً لهم وسط السوق دون صعوبة وتأخر . ولقد كان من السهل عليهم تجنب لجاجة باعة الأسماك الوقحين ودعوة القصابين والخبازين وباعة الخضر والامعاء المحشوة وباعة الخزف . غير أنهم لما وصلوا الى الجزء المخصص لبائعات الزهور صفق زو بيروس من فرط سروره طربا مسحورا بجمال هذا المنظر .

وجلست ثلاث فتيات يأخذ جمالهن بمجامع الألباب ، وقد اتشحن بالبياض

الشفاف تزين حوافيه أهداب ملونة ، وكن يجمعن الورود وزهور البنفسج والليمون ليتألف منها طاقات زهر منفردة . وتوجت رؤوسهن الجميلة بأكاليل من الزهور أيضاً فكن أشبه شيء بأزرار الورد . واذ رأت احداهن الفتيان قادمين تقدمت منهم وقالت وهي رافعة احدى طاقات الورد بصوت شهي رقيق « اشتروا وردي أيها الحسان الوجوه لكي تزينوا به شعور حبيباتكم . »

فأخذ زوبيروس الزهور وأمسك بيد الفتاة وقال « انني جئت من بلد بعيد أيتها الحسناء وليس لي حبيبة في نقراتس ، ولذا فدعيني أزين شعرك الذهبي بهذه الورود وأضع هذه القطعة الذهبية في يدك الصغيرة البيضاء . »

فضحكت الفتاة سروراً ورأت زميلتها تلك الهدية الجميلة ، وكانت قطعة الذهب في ذلك العهد شيئاً كبيراً ، وقالت « وحق ايروس ان سادة مثلكم لا يعدمون حبيبات . هل أنتم أخوة أشقة ؟ »

قال « كلا . »

قالت « ذاك ما يدعو الى اشفاقي عليكم لاني أنا وهاتين أشقة . »

قال « وتظنين أننا نستطيع بكم أن نكون أزواجا ثلاثة ؟ »

قالت « قد أكون ظننت ذلك ولكني لم أقله . »

قال « وأختاك ؟ »

فتضاحكن كأنهن يرين في أنفسهن القصور عن مثل هذا الشرف وتلك الصلة ، ثم قدمن لدارا وبردية ورودا أخرى .

فتقبلا ما قدم لهما ، ونقد كلٌّ معطيته قطعة من الذهب . ولم يسمحن لهم بالذهاب حتى ضفرن لهم أكاليل الزهر على رؤوسهم .

وسرت في الوقت ذاته أنباء ذلك الجود العظيم ، وانتشرت بين الفتيات الكثيرات اللاتي كن يبعن الأشرطة والاكاليل والزهور بجانب هؤلاء . فبادرن يعرضن الورود على هؤلاء الأجانب ، وصحبنها بنظرات وكلمات رجاء المكث والابتياع منهن .

وزوبيروس ، ككثيرين غيره من شباب نقراتس ، يقبل بسرور دعوتهن

لأن معظم هؤلاء الفتيات كن جميلات ولم يكن من الصعب كسب قلوبهن وحبهن . ولكن دارا استعجله المسير ، ورجا بردية أن يمنع ذلك الفتى النزق من المكث معهن أكثر من تلك المدة . و بعد أن مروا بمكاتب الصرافين و بالمقاعد الحجرية ، التى جلس عليها المصريون فى العراء والهواء الطلق يتشاورون و يتكلمون ، وصلوا الى دار ثيو بومبس .

فقرع دليلهم الأغريقى الباب بمقبضه الفلزى ، واذ ذاك ظهر عبد فى الحال . وكان رب الدار فى السوق ، فقاد الزوار كبير الخدم ، وهو شيخ مسن قضى حياته كلها فى خدمة ثيو بومبس ، الى قاعة الجلوس وسألهم أن يتكرموا بالانتظار حتى يعود مولاه .

فجلسوا . وفيما هم معجبون بما يرون من النقوش التى على الجدران وعلى بلاط الحجرة جاء ثيو بومبس ، وقد مر بنا ذكره فى دار رودو بيس ، عائداً من السوق يتبعه سرب من العبيد يحملون ما اشترى . ولم يكن يعيب كبار الأغريق أن يتنزلوا للشراء من الأسواق ومعهم عبيدهم ، ولكن كبار العقيلات ما كن يستطعن الخروج الى الاسواق والظهور فيها ، وكن اذا أردن ابتياع شيء أرسلن جواريهن الى الاسواق لابتياعه لهن .

واستقبل الرجل ضيفانه بأدب جم ، وسألهم أمرهم معه . واذ ذاك أعطاه بردية الملف الذى تسلمه عند سفره من فانيس . فلم يكد ثيو بومبس أن يأتى على آخره حتى انحنى الى الأمير قائلا « وحق زيوس ، أبى القرى والضيافة ، ان ذلك لأكبر شرف يناله بيتى . العبد وما ملكت يداه يا مولاى لك ، وانى لأرجو أن تسأل صاحبيك أن يقبلا التقدمة التى أستطيعها . وانى لأسألك الصفح عنى لعدم تبينى اياك على الفور وأنت فى هذا الزى الليدى . يبدو لى أن شعرك أقصر ولحيتك أكثف مما كانتا عليه عند مغادرتك لمصر . وهل أكون صادق الحدس اذ ظننت أنكم تروون ان تبقوا متنكرين ؟ الامر كما تريدون ، فخير المضيفين من يترك لضيفانه الحرية التامة . الآن قد تبينت صديقيك ، ولقد تنكرا وقصا شعرهما أيضاً . حقاً انى أستطيع أن اقول انك أنت يا صاحبى الذى اسمه . . »

قال « اسمى دارا . »

قال « انك أنت يا دارا قد صبغت شعرك بالصباغ الاسود ، أليس كذلك ؟ . من هذا ترون أن ذاكرتى لم تخنى . غير أنه ليس فى ذلك ما يدعو الى فخر كبير ، لأنى رأيتكم غير مرة فى سايس ، ورأيتكم كذلك هنا عند مجيئكم ولدى رحيلكم . تسألنى يا مولاى الامير هل يمكن استكشاف أمرك فى الجملة ؟ كلا بالتأكيد . فان ذلك الزى الغريب ، والتغيير الحادث فى شعرك ، والصباغ الذى فى حاجبيك كل ذلك قد غيرك تغييراً عجيباً . اسمحوا لى أن أغيب لحظة ، اذ يظهر لى أن لدى خادمى العجوز رسالة هامة يريد اخبارى بها . »

وبعد بضع دقائق رجع قائلا « كلا كلا أيها الصحب النبلاء ، انكم لم تسلكوا فى دخولكم نقراتس الطريق الذى يلائم تنكركم . لقد مزحتم مع بائعات الزهور ، ودفعتم لهن ثمناً لورودهن لا كما يدفع الضباط الليديون الذين فى زيكم والهاربون من الجيش ، بل كما يدفع الأمراء الذين أنتم منهم . ان نقراتس كلها تعرف الشقيقات الثلاث الحسنان الفقيرات ، وهن استفانيون وكوريس وايرين ، اللائى طالما اقتنصن بزهورهن القلوب ، واللائى بجمالهن وسحر نظراتهن قد أغوين الكثيرين من شباننا فابتززن أموالهم من جيوبهم . وفى كل سوق تقام يجىء الشبان لزيارة هؤلاء البائعات ، فتجرى اتفاقات بين أولاء وهؤلاء ، فيأخذون فيما بعد غير قطعة من تلك النقود الذهبية . ولم يجر العرف بين أولئك الشبان أن يدفعوا لهن ما دفعتم ثمناً لبعض الورود . فما كان أسخاكم وأكرمكم . لقد تمدحت الفتيات بكم وبعطاياكم وقد أرين ذهبكم الأحمر الى خاطبى ودهن . ولما كانت الاشاعة كالمعبودة تبالغ فى الحقائق وتجعل من ضب تمساحاً فان حديثكم وصل الى القائد المصرى الموكل بحفظ النظام فى السوق ، وجاءته الأنباء عن وصول بعض المقاتلة من الليديين نثروا الذهب عن سعة على بائعات الزهور . فأثار هذا الحديث الظن والوسواس فى قلب الرجل ، فأرسل الينا ضابطاً يسأل من أين جئتم وما هو الغرض من سياحتكم هنا . فاضطررت الى مخادعته والكذب عليه ، وقلت له انكم من سراة سارديس تركتموها هرباً من وقيعة المرزبان . واذ رأيت مع الضابط كاتب الجوازات جاء اليكم

الالتحاق بالجند المرتزقة فى خدمة الملك ، واعداً اياه بأجر جزيل ، فاقتنع وآمن بحديثى . وانكم من حداثة السن بحيث لا يمكن لأى كان أن يقدر أو يحدس انكم موكلون برسالة سرية . »

وما كاد الاغريقى الثرثار يتم كلامه حتى دخل عليهم الكاتب ، وكان رجلا نحيفاً خشن المظهر متشحاً برداء أبيض ، ووقف أمام أصحابنا وسألهم من أين جاءوا وما الغرض من مجيئهم .

فلصق الشبان بعزمهم الأول ، وقالوا انما هم ضباط ليديون ، وسألوه أن يمدهم بجوازات وأن يدلهم على أسهل الطرق التى بها يحصلون على الدخول فى زمرة جند الملك . فلم يتلكأ الرجل بعد كفالة ثيوبومبس وسلمهم الأوراق اللازمة . وكان جواز بردية كما يلى :

« سمرديس بن ساندون من سارديس ، عمره اثنان وعشرون سنة ، طويل القامة ممشوق القد ، حسن الوجه ، مستقيم الانف ، عالى الجبهة يتوسطها أثر جرح صغير — مصرح له أن يقيم فى مصر ، فى الجهات التى يخول القانون المصرى السكنى فيها للاجانب ، بعد أن قدم الكفالة اللازمة .

« باسم الملك — ساخونس الكاتب »

وتسلم كل من دارا وزوبيروس جوازاً بهذه الصورة .

ولما ذهب الكاتب فرك ثيوبومبس كفيه وقال « والآن وقد انتهى كل شىء يمكنكم أن تقيموا فى مصر آمنين مطمئنين لو أنكم استمعتم لنصحى واتبعتموه بدقة . احتفظوا بهذه الجوازات كأنها حبات قلوبكم وحدقات عيونكم ولا تتركوها أبداً . ثم انى أدعوكم لتناول الطعام ؛ وهل لكم أن تخبرونى ، ان راق لكم ، هل الخبر الذى ذاع وملأ الاسماع صحيح أم باطل كالعادة . لقد وصل زورق من كولوفون يقول ركابه يا بردية ان أخاك الأقوى يعد العدة لحرب يثيرها على أماسيس . »

* * *

وفى مساء ذلك اليوم قابل بردية حبيبته صافو . وكانت المفاجأة شديدة أثارت دهشة صافو وفرحها ، فانعقد لسانها عن الكلام برهة . ولما أن خلا بها فى أيكة

الياسمين ، التي طالمـا ظللتهما أوراقها المزهرة تسترهما عن أعيان الرقباء ، تعانقا فى رقة ولطف ، ومكثا طويلا صامتين ذاهلين عن كل شىء والهوى يتكلم . لم يبصرا القمر ولا النجوم وهى دائبة فى حركتها الصامتة فى ليلة الصيف الحارة ، بل لم يسمعا الصيدح الغرد وهو يردد تغريده الشبيه بنغم القيثار ونداءه « ايتيس ، ايتيس . » كلا ولم يشعرا بالندى يتساقط بغزارة على رأسيهما الجميلين كما يتساقط على الزهور المنتشرة حولهما .

وأخيراً أمسك بردية بيدى صافو ونظر الى وجهها طويلا كأنما يريد أن يطبع فى مخيلته صورتها ويدمغها فيها حتى لا يمحوها الزمن . ثم أطرقت برأسها حين بدأ يتكلم قال « لقد كنت فى أحلامى يا صافو أجمل مخلوقة صورها أورامزدا ، وها انى أراك فى صحوى فاذا بك أجمل مما كنت أراك فى لذيذ أحلامى . »

فرمقته بنظرة شكر على هذه الكلمات ، فاقترب منها وقال « أ كنت تفكرين فىّ . »

قالت « بلى وفيك وحدك . »

قال « وهل رجوت أن ترينى ثانية ؟ »

قالت « أجل ، لقد كنت أتوقع قدومك كل ساعة . وأحيـاناً كنت أذهب الى الحديقة عند الصبح وأولّى وجهى شطر مقامك فى الشرق ، فأرى طائراً قادماً من ناحيتك ، فأشعر باختلاج فى عينى اليمنى ، فأتفاءل خيراً . وكنت اذا رتبت صندوق ملابسى فوجدت اكليل الغار الذى احتفظت به تذكاراً منك لانك كنت جميل المنظر فيـه — ومليتا تقول ان أمثـال هذه الاكاليل تساعد على الاحتفاظ بالحب الصادق — كنت أصفق بيدى طرباً ، وكنت أقول فى نفسى : انه اليوم لا بد قادم : ثم أسرع الى النـيل وأشير بمنديلى لكل قارب يجىء ، ظنـاً منى أنه يحملك الىّ . ولكنك لم تحضر فكنت أعود الى الدار حزينة مكتئبة ، وأجلس الى الموقدة فى حجرة النساء وأغنى وأنا محدقة النظر فى النـار حتى تحضر جدتى وتنبهنى من ذهولى وهى تقول : أصغى الىّ يا ابنتى . ان كل من يحلم نهاراً يأرق ليلا فيستيقظ عند الصبح وقلبه حزين ورأسه متعب وأعضاؤه مكدودة . ما كان النهار

للنوم يا ابنتى ، بل علينا أن نعيش نهارنا وعيوننا مفتوحة فلا تمر بنا ساعة دون أن يكون لنا فيها عمل ما . والماضى ملك الموتى ، ولا يتواكل على المستقبل الا البله المعتوهون . أما العقلاء فلا يلصقون الا بالحاضر الماثل أمامهم الفتىّ دائماً . وهم بالعمل يزيدون كل المنح المختلفة المتعددة التى أغدقها عليهم زيوس وآبولون وبالاس وقبريص . اذ بالعمل تنهض هذه المنح وتكتمل وتنبل حتى تتوافق المشاعر والاعمال والكلمات والآراء توافق أنغام القيثارة . انك لن تستطيعى أن تخدمى الرجل الذى أسلمته كل قلبك — والذى فى حبك الشديد له تظهرين أنك أرقى بكثير مما أنت — ولن تستطيعى أن تبرهنى على شدة استمساكك بهذا الحب بأحسن من رفع مستوى عقلك ، وتجميله بكل ما فى وسعك من قوة . ان كل فضيلة طيبة تتعلمينها انما هى هدية أو تقدمة منك للذى أحببته أكثر من سواه ، حتى اذا ما أسلمت اليه قياد نفسك منحته فى الوقت ذاته كل ما تحليت به من فضائل . ولن يستطيع أى انسان أن يحرز نصراً فى الاحلام والرؤى . واعلمى أن الندى الذى تنتعش به زهور هذه الفضائل هو العرق الذى يتصبب من جبين الرجل :. بهذه النغمة كانت تخاطبنى جدتى ، واذ ذاك كنت أنفض وأصحو من غفلتى وذهولى وأنا خجلة يعاونى الخزى والاستحياء ، فأترك الموقدة اما الى قيثارتى لأتعلم غنوة جديدة ، واما الى معلمتى أستمع لحديثها الحلو — ومعلمتى هذه أرجح عقلا من كثير من الرجال ، كذا مر بى الوقت ، فكان كالماء السريع أو كالنيل ينساب بلا انقطاع بين المزارع والحقول فيجلب مع أمواجه مناظر متغيرة — فآنا يحمل زورقاً ذهبياً ترفرف فوقه أعلام سارة ، وآنا يقذف تمساحاً مخيفاً أسود اللون . »

قال « واخالنى الآن واياك جالسين فى الزورق الذهبى . وددت لو أن أمواج الزمن يقف سريانها ، وأن هذه اللحظة تبقى أبد الآبدين . ما أكمل حديثك وأوفاه أيتها الحسناء ، وما أحسن تفهمك وتذكرك لتلك التعاليم الجميلة التى باعادتك اياها تزيدينها جمالا على جمال . أعترف لك يا صافو اننى بك فخور مزهو ، ففيك ألمس الكثير مما يجعلنى ، فى نظرى ، أغنى من أخى مع أنه يملك نصف العالم . »

قالت « أبى تفخر وتزهو وأنت ابن ملك عظيم وأجمل فتيان أسرتك ؟ »

قال « ان أ كبر ما تطيب له نفسى ظنك فىّ أنى أهل لحبك . »

قالت « حدثينى أيتها الآلهة كيف يستطيع قلبى الصغير أن يسع هـذا الفرح الكبير دون أن ينفجر . ان قلبى لكالاناء المغلق يغص بأنق الذهب وأ كثفه . »

قال « ولكن هناك قلباً آخر يعينك على احتماله ، وهو قلبى الذى يعينه من جديد قلبك ويؤيده . وبهذا التأييد أستطيع أن أسخر من كل شر تجئ به هـذه الدنيا أو يتمخض عنه هذا الليل . »

قالت « قف لا تثر حسد الآلهة ، فلقـد تغيظهم سعادة الآدميين وتسيئهم . ولقد مرت بنا أيام حزن شديدة منذ غادرتنـا ، فان ولدىْ فانيس — وكانا صبياً له جمال ايروس وصبية حسناء موردة الخدين كأنها سحابة أضاءتها الشمس فى البكور فأشعت نوراً خفيفاً رقيقـاً — كانا قد وفدا علينا وقضياً بيننا بضعة أيام ما كان أسعدها . وكانت جدتى كلما نظرت اليهما زادت سروراً وشباباً ، أما أنا فقد منحتهما كل قلبى ، وان كان قلبى فى الحقيقـة ملكا لك وحدك . غير أن القلوب كما تعـلم مصنوعة صنعاً عجيباً . انها كالشمس التى ترسل أشعتهـا فى كل مكان ولا تفقد حرارتهـا ولا ضوءها كلما زاد اشعاعها فتعطى لكل حقه منها . هكذا أحببت هذين الصغيرين حباً جماً . وفيما نحن جلوس ذات ليلة مع ثيو بومبس فى حجرة النساء فوجئنا بضجة عالية ولغب شديد . ووصل خادمنا العجوز الامين كناكياس الى الباب فى اللحظة التى أزيلت فيها مزاليجه من الضغط الواقع عليه ودخل الجند علينا متدافعين من باب البهو الى الرواق بعد أن هشموا الأبواب . فأرتهم جدتى أمر أماسيس الذى أمّن دارنا فجعلها ملجأ أميناً . ولكنهم ضحكوا منهـا ساخرين وأرونا ورقة معهم مبصومة بختم ولى العهد ، وبها أمر يشدد علينـا بتسليم ولدى فانيس فى الحال الى أولئك الجند الغلاظ . وعنف ثيو بومبس الجند على خشنتهم قائلا لهم ان الصغيرين انما جاءا من كورنث وليست لهما صلة بفانيس ولكن ضابط الجند هزأ به وسخر منه ، ودفع جدتى بعنف ، ثم دخل بالقوة فى شقتها الخاصة حيث كان الصغيران نائمين آمنين ، وجراهما من سريريهما الى قارب مكشوف سار بهما الى المدينـة الملكية وسط هواء الليل البارد . و بعد بضعة أيام من ذلك سمعنا بموت الولد ، و يقال انه قتل بأمر

بسامتك ، أما البنت الصغيرة ، وما أجملها وأقربها الى قلبي ، فلا تزال ملقـاة في حجرة ضيقة مظلمة تبكي أباها وتندبنـا معه وتكاد تموت غما وحسرة . فقل أيها الحبيب أليس من المؤلم أن تلينا أحزان كهذه فتذهب بسرورنا وسعادتنا ؟ أن عينيّ لتبكيان فرحا وحزنا في آن واحد ، وان شفتي اللتين كانتا من لحظة تضحكان معك هما اللتان تدليان اليك بتلك القصة المحزنة . »

قال « انى أشاركك الألم أيتها الحبيبة ، وهـذا الألم يجعل يدى تنقبض من الغيظ بدلا من أن تغص عيناى بالدموع . سوف ينتقم لهذا الصبي الذى احببته وتلك الصبية التى تجلس فى محبسها المظلم تبكي وتعول . صدقيني فلن يفيض النيـل مرة أخرى قبل أن يدخل مصر جيش قوى يطلب الترضية عن هذا القتل . »

قالت « أى حبيبي ما أشد بريق عينيك ! انى لم أرك من قبـل أجمل منك الآن . نعم ، نعم ، يجب أن يثأر للولد ولن يكون الآخذ بالثأر أحدا سواك . »

قال « كأنى بحبيبتى صافو قد أصبحت تحب الحرب أيضاً كالجند . »

قالت « أجل ، فالنساء يطلبن الحرب اذا ما سادت الفوضى وعمت القسوة . وانهن ليطربن كل الطرب اذا ما وقع القصاص العـادل بمرتكبي أمثال هذه الجرائم الشنيعة . قل هل أعلنت الحرب بالفعل ؟ »

قال « لم تعلن بعدُ . غير أن الجيوش تلو الجيوش تفد على وادى الفرات لتندمج فى جيشنا الرئيسى . »

قالت « لقد فارقتنى شجاعتى بسرعة كما عاودتنى بسرعة . انى لأرجف لمجرد كلمة الحرب . فكم أم تفقد بنيها ، وكم حسناء تضع على رأسها وشاح الترمل ، وكم وسادة تبللها دموع الحسان عند ما تفقد كل منهن درعها ودعامتها فى هذه الحياة ! »

قال « ولكن الرجل يستكمل رجولتـه فى الحرب ، ففيها يتمدد قلبـه وتقوى ذراعه . وليس ثمت من يسر لها أكثر منك حين يعود بعلك من الميدان ظافراً منصوراً . وان على الزوجة الفارسية على الأخص أن تفرح لمجرد فكرة الحرب ، فان شرف زوجها وشهرته أعز لديها من حياته . »

قالت « اذن فاذهب الى الحرب وخض غمارها ، وستكاؤك صلواتى وأنت تصلى نارها . »

قال « وسيكون النصر حليف من هم على حق . سندحر جيش فرعون أولا ، ثم نطلق سراح ابنة فانيس الصغيرة . . »

قالت « وأرسطوماكس ، ذلك الشيخ الشهم الذى خلف فانيس بعد فراره ، قد اختفى ولا يدرى أحد أين مقره . ولكن الناس يقولون ان ولى العهد اما أن يكون قد سجنه فى حجرة ضيقة مظلمة ، لأنه هدد بالثأر للوحشية التى عومل بها ولدا فانيس واما — وهو الأسوأ ان صح — أن يكون قد نفاه الى أحد المحاجر البعيدة . وكان المسكين قد نفى من بلاده ، لا بسبب خطأ ارتكبه ، وانما بسبب كراهية اعدائه له وحقدهم عليه . على أنه فى اليوم الذى اختفى فيه وفدت علينا بعثة من اسبرطة تستدعى أرسطوماكس الى يوروتاس حاملا كل شارات الشرف الذى بوسع بلاد الأغريق أن تمنحه اياها ، وذلك لان ولديه قد أكسبا بلادهم شهرة عظيمة . وجاءت سفينة مزدانة بالزهور والأكاليل تبحث عن الرجل ، وكان على رأس تلك البعثة ابنه الشجاع الشهم الذى حلقت شهرته الآفاق . »

قال « اننى أعرف ذلك الرجل الحديدى . لقد بتر ساقه بيده تجنباً لعار كان سيلحقه . سننتقم له وحق نجم أناحيتا الذى أراه قد بدأ يشرق فى المشرق . »

قالت « هل طال بنا السهر أيها الحبيب ؟ لقد مر الوقت بى كما يمر النسيم العليل يقبل جبهتى . ألا تسمع نداء ؟ انهم ينتظروننا وعليك أن تكون بدار صاحبك قبل الفجر . فالى الملتقى أيها الحبيب البطل . »

قال « الى الملتقى أيتها الحبيبة ، ولن تمضى خمسة أيام الا ويتم زفافنا ونسمع تراتيله . أراك ترجفين كأننا ذاهبين الى حرب لا الى حفلة زفاف . »

قالت « انما أرجف من فرط السرور . وجرت العادة أن يرجف الانسان عند انتظاره لأمر جلل . »

قال « اصغى . ان رودوبيس تنادى المرة الثانية . فلنذهب . ولقد سألت ثيوبومبس أن يشاركها فى اعداد كل شىء لعرسنا كالمتبع . وسأبقى فى داره متنكراً

حتى أستطيع أن أذهب بك الى بلادى كزوجتى المحبوبة . »

قالت « وانى سأتبعك الى حيث تريد . »

* * *

وفى اليوم التالى بينما كان الصحب الثلاثة يسيرون فى حديقة مضيفهم قال زوبيروس « لقد بت ليلى أحلم بجمال حبيبتك يا بردية . ما أسعدك يا أخى . لقد خيل الىّ أن ليس بعد جمال زوجى الجديدة المقيمة بسارديس جمال ، حتى رأيت صافو فأصبحت زوجى فى نظرى كالبومة . ولو استطاع أراسب أن يرى صافو لاضطر أن يعترف أنها تفوق حتى بانثيا فى الحسن والجمال . لم تخلق الآلهة قبلها حسناء أجمل منها . ان أورامزدا مسرف مبذر ، وكان بوسعه أن يوزع جمال صافو على حسان ثلاث . ما كان أرق صوتها وأعذبه اذ قالت لنا بالفارسية : ليل سعيد . »

قال بردية « لقد أجهدت فى غيبتى نفسها فى تعلم الفارسية على يدى زوجة تاجر سجاجيد بابلى ، وهو أحد أهالى سوسا ويقيم فى نقراتس . وقد أرادت بذلك مباغتتى فأدهش لها . »

قال ثيوبومبس « انها فتاة مجيدة . ولقد كانت المرحومة زوجتى تحبها كأنها ابنتها . وكانت ترغب فى أن تزوجها من ولدنا الذى يدبر أعمالنا فى ميليتس Miletus ولكن الآلهة أرادت غير ذلك . ما كان أكثر سرورها لو أنها عاشت لترى زينة العرس على باب رودوبيس . »

قال زوبيروس « وهل العادة هنا أن يزدان بيت العروس بالزهور ؟ »

قال ثيوبومبس « أجل ولك اذا ما رأيت على بابٍ زهورا حكمت بأن بالدار عروسا . وغصن الزيتون علامة على أن المولود ذكر ، وشريط الصوف يعلق فوق باب بيت يدل على أن المولود أنثى . أما دلو الماء يوضع أمام الباب فهو علامة على حدوث وفاة . . لقد دنت ساعة العمل فى السوق أيها الصحب وأرانى مضطرا لتركم لأن عندى أعمالا هامة أريد انجازها . »

قال زوبيروس « انى مصاحبك لأنى أريد أن آمر باحضار بعض طاقات زهر لدار رودوبيس . »

قال الميليسى ضاحكا « اخالك تريد أن تحادث بائعـات الزهور مرة أخرى . تعال فليس مجد انكارك ، ولك أن ترافقنى ان شئت وانما لا تكن كريما كأمس . ولا تنس أنه اذا جاءت مصر أخبار عن الحرب فان تخفيك وتنكرك يكون خطراً عليك . »

ثم البس الخدم الأغريقىّ نعله ، وقصد السوق يصحبه زوبيروس . و بعد بضع ساعات عاد ووجهه منقبض الاسارير مع أنه دائم الابتسام ، ولقد كان من السهل على من يراه أن يدرك أن أمرا جللا قد حدث .

قال يخاطب دارا وبردية وكانا قد بقيا فى الدار « لقـد وجدت فى البلد حركة شديدة ، ذلك أن أماسيس مشرف على الموت . فاجتمعنا فى السوق كى نسوى أعمالنا ، وكنت على وشك بيع كل المخزون من بضاعتى بأثمان مرتفعة فينالنى منها ربح عظيم أستطيع أن أشـترى به سلعاً أخرى حينما تهبط الاسعار بسبب الحرب المنتظرة — ومن ثم تعـلم أن وقوفى من زمن على نيـة أخيك من حيث الحرب قد أفادنى كثيرا — لولا أن ظهر كبير الجنـد بيننا معلناً أن أماسيس ليس مريضاً مرضاً خطراً فحسب ، بل ان أطبـاءه قد قطعوا كل أمل فى شفائه ، وانه هو نفسه شعر أن نهايته قد اقتربت . وعلينا نحن الأجانب المقيمين فى مصر أن نأخذ الاهبة لذلك فى كل وقت ، ونعد أنفسنا لمواجهـة التغيير العظيم الذى سيصيب أعمالنـا ومصالحنا . ان موت أماسيس سيكون أكبر خسارة تصيبنا نحن الأغريق ، فقـد كان طوال حياته صديقاً لنا ، يكرمنا كلما استطاع لذلك سبيلا ، فى حين أن ابنه عدو لدود لنا يمقتنا مقتاً شديداً ، وسوف يعمل كل ما فى وسعه لطردنا من مصر . لو كان أبوه سمح له بذلك ، أو لو أنه هو نفسه لم يكن يشعر بالخدمات العظيمة التى تقوم بها مرتزقة الاغريق من الجنود لكنا طردنا من زمن بعيد . ان نقراتس بما بها من معابد مكروهة منه ، فاذا مات أماسيس فانها سترحب بجيش قمبيز أحسن ترحيب ، لأنى جربت بنفسى فى بلدى ميليتس أنكم معشر الفرس تحترمون الأجانب وتحافظون على مصالحهم وحقوقهم بينكم . »

قال بردية « سوف أعنى بأن يترك لكم أخى حريتكم وامتيازاتكم القديمة دون

تغيير ، بل وسأسعى لديه ليمنحكم امتيازات أخرى جديدة . »

قال الاغريقي « آمل أن يسرع أخوك فى حضوره لمصر ، فاننـا واثقون أن بسامتك سيأمر بهدم معابدنا التى يكرهها بأسرع ما يمكن . وعدا هذا فقـد أوقف من زمن بعيد بناء مكان الذبيحة التى شاده الاغريق فى منف . »

قال دارا « ولكننا رأينا هنا بعد أن تركنا المرفأ عددا من المعابد الفاخرة . »

قال « نعم هنا الكثير منها — هوذا زوبيروس قادم يحمل له الخدم أيكة من باقات الزهور وراءه ، وهو يضحك من كل قلبـه . لا بد أن يكون قد لها مع بائعات الزهور وداعبهن . طاب نهارك أيها الصديق . اخال أن الأخبار المحزنة التى تملأ نقراتس لم تزعجك كثيراً . »

قال « انى أود أن يعيش أماسيس مائة عام . ولكنه اذا مات فان القوم ينصرفون عنا الى الحادث الجديد . قل متى نذهب الى دار رودوبيس ؟ »

قال « عند ما يجن الظلام . »

قال « اذن فسلها أن تقبل منى هذه الزهور . لم يكن يخطر لى قبـل الآن أن عجوزا تشغلنى . ان كل كلمة تقولها لها فى أذنى وقع الانغام الموسيقية . وهى وان كانت فى كلامها جادة حكيمة الا أن لكلامها عنـدى وقع الملح المفرحة . ولكنى لست مستصحبك هذه المرة يا بردية . وأنت يا دارا علام عزمت ؟ »

قال « لست أريد أن تفوتنى فرصة التحدث مع رودوبيس . »

قال « حسن ولست ألومك على ذلك . لقد خلقتم للعـلم والعرفان ، أما أنا فقد خلقت ميالا للهو واللعب والمرح . فماذا تقولون يا أصحابى فى اعفائى الليلة من ملازمتكم ؟ انكم ترون . . . »

فاعترضـه بردية قائلا « انى أعرف كل شىء . لقـد رأيت بائعات الزهور فى ضوء النهار وتريد أن ترى ماذا نكون صورتهن فى ضوء المصابيح ليلا . »

قال زوبيروس جادا « صدقت ، فانى من هـذه الوجهة لست أقل من دارا تطلعا وتشوقا الى ارتشاف كؤوس العلم . »

قال « ونحن نسأل لك أحسن متعة مع الشقيقات الثلاث . »

قال « لا . لا . لا تقل الثلاث فان استيفانيون صغراهن هى التى استملحها فيهن . »

* * *

غادر بردية ودارا وثيو بومبس دار رودو بيس عند متوع النهار . وقضى السهرة معهم سيلوسون أحد نبلاء الاغريق ، نفاه من بلاده أخوه الطاغية بوليقراط ، وعاد برفقتهم الى نقراتس حيث أقام فيها منذ سنوات كثيرة .

وقد أمد بوليقراط أخاه هذا فى منفاه بالمال الوفير ، فكان منزله أبهى منزل فى نقراتس . وكان مشهوراً بالاسراف فى الكرم ، كما كان مشهورا لقوته وذكائه وفطنته . وكان سيلوسون هذا جميل الطلعة أيضاً ، معروفاً فى نقراتس بتأنقه فى الملبس حتى لقد بارى شبان نقراتس بعضهم فى تقليده فى أزيائه . ولم يكن الرجل متزوجاً وكان يصرف ليله فى دار رودو بيس ، وهذه أطلعته على سر خطبة حفيدتها .

وقد قر رأى الجماعة فى هذه الليلة على أن يتم الزواج سراً بعد أربعة أيام . وكان بردية فيما مضى قد عقد خطبته على صافو بأن أكل معها سفرجلة (١) فى نفس اليوم الذى قدمت هى فيه الضحايا والقرابين لزيوس وحيرا والمعبودات الأخرى التى تحمى الأزواج . واتفق على أن تقام وليمة العرس فى دار ثيو بومبس على اعتبار أنها دار الزوج (٢) . أما هدايا العرس التى أحضرها الأمير فقد أرسلها الى دار رودو بيس ، وأصر بردية على انكار حق وراثة عروسه فى تراث أبويها متنازلا عنه الى رودو بيس رغم اباثها ذلك ورفضها اياه .

ورافق سيلوسون الصحب الى دار رودوبيس . وفيما هو على وشك أن يتركهم قطع سكون الليل ضجيج عال فى الطريق عقبه مرور كتيبة من الجند تقود رجلا الى

---

(١) كان العروسان فى أثينا يرغمان تبعاً لتعاليم سولون أن يأكلا سفرجلا قبل حفلة الزفاف ويظهر أن السفرجل فى عرف الاغريق علامة الحب والرباط الزوجى المتين .

(٢) ليست هناك بينات مقطوع بها من حيث تحتيم اقامة حفلة الزفاف فى بيت الزوج أو الزوجة والمشهور أن الحفلة كانت أحياناً تقام فى بيت الزوج وأحياناً فى بيت الزوجة . وكانت العادة المتبعة أن تحمل العروس من منزلها فى مركبة ومعها جوقة تغنى ما يسمونه « غنوة المركبة » ويتقدم الموكب خدم اناث يحملن مشاعل موقدة .

السجن . وكان السجين ثائراً مغضباً ، يتكلم باغريقية ركيكة لم يفهمها الجند فلم يعوا أقسامه وأيمانه ، فكان ذلك مدعاة لزيادة غضبه وحدته .

واذ سمع دارا وبردية الصوت أسرعا ناحيته فاذا بهم يرون زو بيروس .

فأوقف ثيو بومبس وسيلوسون الجند وسألاهم عما فعل أسيرهم . فعرفهما ضابط الجند ، وفى الحقيقة كان كل سكان نقراتس كباراً وصغاراً يعرفون التاجر الميليسى وشقيق بوليقراط ، وأجابهما على الفور بعد أن سلم عليهما بأن الفتى الأجنبى الذى يقودونه الى السجن قد ارتكب جريمة القتل .

فانتحى ثيو بومبس بالضابط جانباً ورجاه أن يطلق سراح الاسير واعداً اياه وعوداً كثيرة ، غير أن الرجل لم يذعن له ولم يسمح لهم الا بالكلام مع أسيره . وعلى ذلك طلب الصحب الى زو بيروس أن يخبرهم بما حدث ، فسمعوا منه القصة التالية : زار الفتى النزق بائعات الزهور عند الغسق وظل عندهن حتى الفجر . وما كاد الباب يغلق وراءه بعد خروجه من دارهن حتى وجد نفسه محاطاً من جميع الجهات بعدد من الشبان يحتمل أنهم كانوا ينتظرونه ، لأنه كان فى صباح ذلك اليوم قد تخاصم مع واحد منهم ادعى أنه خطيب استفانيون . ولكن الفتاة كانت تضايقت من ذلك الدعى وسألته أن يتركها هى وزهورها وشكرت لزو بيروس نهره للرجل وتهديده اياه باستعمال القوة . فلما وجد زوبيروس نفسه محاطاً من جميع الجهات استل سيفه ، وشتت بسهولة شمل مهاجميه لانهم لم يكونوا مسلحين بغير العصى ولكن حدث صدفة أنه جرح ذلك العاشق الغيران اذ كان أشد المهاجمين غضباً وثوراناً ، وكان الجرح بليغاً جندله على الأرض . وجاء الجند على صياح الجريح وهو يقول « اللص ، القاتل » دون انقطاع ، وقبضوا على الجانى . لكنه لم يشأ أن يخضع لهم بسهولة ، ولذا اندفع عليهم بحسامه المسلول فشق لنفسه طريقاً بينهم وكاد يفلت منهم لو لم تطلع عليه كوكبة أخرى من الحراس . فلم يفزع منهم بل هجم عليهم أيضاً وشق جمجمة واحد منهم وجرح آخر فى ذراعه ، وفيما هو يسدد سيفه لآخر شعر بحبل ألقى بغتة حول عنقه ، وجعل الحبل يضيق شيئاً فشيئاً حتى ضاق تنفسه وسقط مغشياً عليه . ولما أفاق وجد نفسه مقيداً ، وعلى الرغم من اظهار

جوازه ثم انتسابه الى ثيو بومبس قد أكره على السير معهم .

ولما أن أتم حديثه لم يستطع الميليسى أن يخفى استقباحه لما حدث ، وقال لزو بيروس ان غرامه بالحرب والقتال قد يجر عليه أوخم العواقب . ثم التفت الى الضابط ورجاه أن يقبل ضمانه الشخصى و يترك الأسير . غير أن الرجل أبى ذلك كل الاباء قائلا انه يخسر حياته ان هو أقدم على ذلك ، لأن القانون المصرى يقضى على كل من يتستر على جريمة قتل بالاعدام جوعاً وعطشاً وضرباً بالسياط . وحتم وجوب تسليم الجانى لينال جزاءه . وكان آخر ما قاله « لقد قتل مصرياً ، وعلى ذلك وجب أن يحاكم أمام محكمة مصرية عليا . وانى ليسرنى أن أقدم لك كل ما فى وسعى من الخدم وانما فى غير هذه المسألة . »

وفى خلال ذلك كان زو بيروس يرجو صاحبيه أن لا يهتما أو يتكدرا لأمره . قال وقد طلب بردية أن يحسر اللثام عن نفسه ليطلقوا سبيله « وحق مثرا انى أطعن نفسى بخنجرى دون تمهل أوروية ان أنتما فعلتما ذلك فسلمتما نفسكما لأولئك الكلاب من المصريين . ان خبر الحرب قد ذاع فهل تظنان أن بسامتيك اذا بلغه وقوع مثل هذا الصيد الثمين فى شباكه يتركه ؟ انه يرتهنكما عنده بالطبع . لا ، لا ، ياصاحبىّ . الوداع . وليباركما أورامزدا ، ولا تنسيا صديق الصبا زو بيروس الخفيف الروح الطروب الذى عاش ومات فى الحب والحرب . »

وعندئذ أهاب الضابط بجنده أن يسيروا بأسيرهم ، وما هى الا دقائق حتى غاب زو بيروس عن الانظار .

الفصل السابع والعشرون

الزفاف

استحق زو بيروس الموت حسب الشريعة المصرية .

وحين بلغ صديقيه ذلك اعتزموا الذهاب الى سايس ليبذلا جهدهما فى انقاذه بالحيلة والخديعة . وعرض عليهما سيلوسون مساعدته ، وكان له أصدقاء هناك فضلا عن انه يجيد اللغة المصرية .

وتنكر بردية ودارا بأن صبغا شعر الرأس والحاجبين ،ولبسا قبعتين[1] من اللباد من ذات الحافة العريضة ، وكان تنكرهما تاما بحيث لم يستطيعاهما نفسهما تبين وجهيهما . وأمدهم ثيوبومبس بملابس اغريقية عادية . وبعد مضى ساعة على القبض على زو بيروس قابلا سيلوسون على شاطئ النيل ، واستقل الكل أحد قوار به بعد أن ملأه بشرذمة من عبيده . وبعد سياحة قصيرة ساعدهم الريح فيها بلغوا سايس ، وكانت كالجزيرة وسط مياه الفيضان ، قبل أن تتوسط شمس هذا الصيف كبد السماء .

وهناك على مسافة من المدينة رست بهم السفينة فنزلوا منها وساروا مشياً على الاقدام خلال الحى المخصص للعمال والصناع . وكان هؤلاء وقتئذ مشغولين فى أعمالهم على الرغم من شدة وهج الشمس وحرها . فكان الخبازون منهمكين فى عملهم وسط أفنية مخابزهم العارية يعجنون الدقيق الناعم بأيديهم أما الخشن فبأرجلهم . وكانت الارغفة المتعددة الاشكال والحجوم تخرج من الأفران مستديرة الشكل ، وكذلك الفطائر البيضية الشكل والمصنوعة على شكل غنم وقواقع وقاوب . وكانت هذه توضع فى سلال يحمل الصبية منها ثلاثا أو أربعاً أو خمسا ويذهبون بها سراعاً الى زبائنهم المقيمين فى الأنحاء الأخرى من المدينة . وكان قصاب يذبح ثوراً أمام داره بعد

(١) أول من لبس القبعات اللبادية اتقاء أشعة الشمس هم الاغريق . ثم تبعهم الرومان . ولما كان ضوء الشمس فى مصر شديداً يخطف الابصار فمن المعقول كثيراً أن يكون الاغريق الذين أقاموا بمصر اختاروا هذه القبعات ذات الحوافى العريضة غطاء لرؤوسهم .

أن قيد أرجله ، وجلس رجاله يشحذون مداهم لكى يقطعوا بها لحم عنز برى .
وجلس الاساكفة المرحون على مقاعدهم ينادون المارة . أما النجارون والخياطون والتجارون الدقيون والنساجون فكانوا جميعهم مشغولين فى أعمالهم العديدة . وأما نساء هؤلاء الصناع فكن قد خرجن الى الأسواق يبتعن منها ما يردن ، ومعهن أولادهن العراة يقدنهم بأيديهن . ووقف هناك بعض الجنود يتلكأون بجوار بائع البيرة (١) والنبيذ .

ولكن صاحبينا لم يلتفتا الا قليلا لما كان جارياً فى الشوارع التى اخترقاها فى مرورهما ، وكانا يتبعان سياوسون وهما صامتان .

وعند ما وصلوا الى مخفر الحرس اليونانيين سألهم أن ينتظروه . وتقدم سياوسون فلقى ضابط النوبة فى ذلك اليوم ، وكان لحسن الحظ من معارفه ، وسأله هل يعلم شيئاً عن متهم بالقتل جيء به من نقراتس الى سايس صبح هذا اليوم .

قال الاغريقى « نعم فلم تمض ساعة على وصوله ، وقد وجدوا فى منطقته كيساً مملوءاً ذهباً فاتهم بأنه جاسوس فارسى . وأظنك سمعت أن قمبيز يعد العدة لحرب مع مصر . »

قال « هذا محال . »

قال « بل هى الحقيقة . وقد عرف فرعون ذلك اذ وفدت على بياوزة أمس قافلة من تجار العرب تحمل معها هذه الأنباء . »

قال « ولكنه خبر مكذوب باطل بطلان التهمة المأخوذ بها ذلك الفتى الليدى المسكين . انى أعرفه جيداً وانى لحزين لأمره . فهو من نخبة أشراف ساردیس يقد برحها خوفاً من المرزبان أوروتيز ، اذ قام بينهما شجار . وسأوقفك على التفاصيل كلها حين تجيء الى نقراتس . انك بالطبع باق بضعة أيام هنا ثم تجيء ومعك بعض صحبك . لقد بعث لى أخى خمراً فاقت فى نظرى كل ما ذقته من الخمور ، وهى بلا شك شراب السلسبيل مزاجه من تسنيم . وانى مصارحك أنى سأحجم عن تقديمها

(١) كانت البيرة المصرية معروفة عند القدماء وكانوا يسمونها هاك hek غير أنهم لم يكونوا يستطيبونها كثيراً . وكان الاغريق يسمونها زيتوس

لمن لا يدانونك احكاماً ودقة فى حكمهم على مثل هذه الأمور . »

فطابت نفس هذا القائد لدى سماعه هـذه الكلمات وقبض على يد سياوسون وقال « وحق الكلب أيها الصديق اننا لن ننتظر حتى تعيد علينـا الطلب مرة أخرى . وسننشط الى احتساء خمركم حتى تمتلئ منها البطون . وكم يكون سرورنا عظيما لو انك جئت لنا بالمغنية أرشيديس الطائرة الصيت ، والشقيقات الثلاث بائعـات الزهور ، و بعضاً من الفتيات اللاتى يجدن الضرب على القيثار كى يشاركننا فى شرب الخمر وتناول العشاء معنا . »

قال « حسن ، وقد ذكرنى كلامك هذا بأن بائعات الزهور أولاء كن السبب فى سجن ذلك الليدى المسكين ، اذ هاجمه أبله غيران تجاه دارهن ومعه بعض رفاقه ، فدافع الفتى عن نفسه . . »

قال « وأوقعه على الأرض ؟ »

قال « أجل ولم ينهض بعدها . »

قال « لا بد أن يكون الفتى من خيرة الملاكمين . »

قال « بل له سيف ماض . »

قال « ولقد كان ذلك خيراً له . »

قال « بل كان شرا عليه ، لأن القتيل مصرى . »

قال « ياسوء الحظ . أخشى أن تكون نتيجة ذلك سيئة . ان الأجنبى الذى يقتل مصريا يكون موته محققاً كمن يوضع الحبل حول عنقه . فالمجرمون فى مصر المحكوم عليهم بالاعدام يشنقون فى الغـالب . غير أن صاحبك الليدى سيعيش بضعة أيام لأن الكهنة مشغولون جداً فى الصلاة لأجل الملك المحتضر حتى أنهم لا يجدون من الوقت ما يسمح لهم بمحاكمة الجناة المجرمين . »

قال « انى على استعداد لأن أبذل الكثير لانقاذ هذا الفتى فانى أعرف أباه . »

قال « مع أنه لم يعمل الا الواجب عليه ، اذ على الرجل أن يدافع عن نفسه . »

قال « وهل تعرف أين هو مسجون ؟ »

قال « بالطبع أعرف . هناك اصلاحات يجرونها فى السجن الكبير ، ولذلك

سجنوه فى المخزن الذى يفصل ما بين مخفر الحرس المصرى والايكة المقدسة لمعبد نيث . ولقد رأيتهم يسجنونه هناك وأنا قادم من دارى . »

قال « ما كان أشجعه ! أتظن أنه يستطيع الافلات لو أننا ساعدناه ؟ »

قال « كلا فذلك مستحيل بتاتا ، لأنه مسجون فى حجرة سقفها مرتفع ، والنافذة التى فيها تطل على الأيكة المقدسة . وأنت تعلم أن هذه محاطة بسور ارتفاعه عشرة أقدام ، وعدا هذا فانها مخفورة كأنها خزائن المال ، وعلى كل باب اثنان من الحراس . أما الجهة الوحيدة الخالية من الحراس فى مدة الفيضان فهى التى تنكسر الأمواج على أسفلها . ان عبدة الحيوانات هؤلاء أحرص من ذئب وأروغ من ثعلب . »

قال « يا أسفا عليه . اذن يجب أن نترك الفتى وشأنه . سلاما ياديمونيس ولا تنس دعوتى . »

ثم عاد سياوسون مسرعا الى صاحبيه وقد أعياهما الانتظار .

وأصغيا بلهفة الى اخباره ، فلما أن أتم وصف السجن لهما قال دارا « انى اعتقد أن قليلا من الشجاعة كاف لانقاذه وزو بيروس سريع الحركة كالقط قوى كالدب ، ولقد فكرت فى خطة . »

قال سياوسون « فلنسمعها ، واسمح لى أن أبدى رأيي فى امكان انفاذها . »

قال « نبتاع سلماً من الحبال ونشترى قوساً ونشابا وخيطا ونضع ذلك كله فى قارب نسير به عند الغسق الى جهة السور الخالية من الحراس ، فتساعدانى على تسلقه آخذاً معى ما ابتعناه . وهناك أصوت كالنسر ، فيتنبه زو بيروس فى الحال لأن ذلك الصوت من مصطلحاتنا من عهد الحداثة كلما خرجنا للصيد . و بعدئذ أطلق السهم بالخيط الى داخل المخزن — وانى حذقت الرماية فلم يشرد لى سهم قط فى حياتى — وأقول له أن يربط ثقلا فى طرف الخيط و يدليه الى ، فأربط به السلم ، و يسحبه زو بيروس ثم يربط السلم فى مسمار من الحديد أرسله اليه حذراً من عدم وجود مسمار عنده . ثم ينحدر عليه الى و يذهب معى بسرعة الى جزء السور الذى تنتظرانناعنده ومعكم القارب حيث تكون سلماً أخرى مقامة هناك فنهبط الى القارب ، واذ ذاك ننجو به . »

قال بردية « خطة محكمة . »

قال سيلوسون « ولكنها خطرة . ولئن ضبطنا فى الأيكة المقدسة لأوقع بنا عقاب صارم . فالكهنة يقيمون هناك حفلات ليلية غريبة لا يحضرها غير المتعمقين فى العلوم اللاهوتية . واعتقد أن ذلك يحدث فى البحيرة ، وهذه تبعد عن سجن زوبيروس بمسافة . »

قال دارا « وذاك فى مصلحتنا . والآن فلنعد الى النقطة الأساسية . يجب أن نرسل فى الحال الى ثيو بومبس لكى يؤجر لنا زورقا سريعاً وأن يعده للاقلاع على الفور . فلقد وصلت مصر أنباء استعداد قمبيز ، وسوف يعاملوننا كجواسيس ، ولن يتركوا زوبيروس ولا منقذيه يفرون ان هم استطاعوا ذلك . واذن يكون من الاجرام والتسرع أن نعرض أنفسنا لخطر دون أن يكون هناك أدنى منفعة . وعليك يا بردية أن تقوم بنفسك باداء هذه المهمة . وأن تزف الى صافو اليوم لأنه لا بد لنا من مغادرة نقراتس غدا ، وليكن ما يكون . لا تخالفنى يا صاحبى وأخى . أنت تعرف خطتنا ، وأنت تعلم أن واحدا منا يكفى لتنفيذها ، وسيكون نصيبك منها نصيب المشاهد الرائى . ولما كانت الفكرة فكرتى فقد انتويت القيام بها وحدى . سنتقابل غدا وسيظلنا أورامزدا برعايته فهو يكلأ صداقة الأطهار . »

ولم يخضع بردية لهما الا بعد مشقة ، وقد تغلبا عليه بالرجاء الشديد فترك الأمر لهما ، وسار الى النهر قاصدا نقراتس. أما دارا وسيلوسون فقد ذهبا ليشتريا الادوات اللازمة لتنفيذ خطتهما .

ولكى يصل بردية الى المحل الذى تؤجر فيه الزوارق مر بمعبد نيث ، فعانى بعض الصعوبة لأن جمعا كثيفاً احتشد أمام أبوابه . وتابع سيره حتى وصل الى المسلات القريبة من الباب الكبير ذى القرص الشمسى المجنح . وهناك منعه خدم المعبد من التقدم ، لأنهم كانوا يخلون الممشى الذى فيه تماثيل ابى الهول استعدادا لموكب قادم . ثم فتحت الأبواب الكبيرة واندفع بردية تحت ضغط الزحام رغما عنه الى الصف الأول . فرأى موكباً فخماً خارجاً من المعبد لفت نظره ، ولم يكن يتوقع رؤية وجوه كثيرة يعرف أصحابها ، وغاص فى لجة من الافكار فلم يشعر بأن

قبعته قد سقطت من تدافع الناس . وعلم من حديث جنديين من مرتزقة اليونان كانا واقفين خلفه أن أسرة أماسيس جاءت الى المعبد تصلى للآلهة كى تنقذ الملك المحتضر .

وكان على رأس الموكب كهنة متجملون بأفخم الحلى ويرتدون ألبسة طويلة بيضاء وجلود النمر ، يتبعهم رجال البلاط وهم يمسكون عصيا من الذهب ربط عند نهاياتها ريش الطاووس وزهور اللوتس الفضية . ويتبع هؤلاء طبقة الباستوفورى ، وهم الكهنة الذين وظيفتهم حمل الحيوانات المقدسة وتماثيل للآلهة فى الحفلات الدينية ، وكان على اكتافهم بقرة من ذهب هى الحيوان المقدس للمعبودة ايزيس . ولما انحنى الشعب أمام هذه العلامة المقدسة ظهرت الملكة لاديس ، وكانت تلبس لباس الكهنة وعلى رأسها وشاح ثمين عليه القرص المجنح ، وأمسكت فى يدها اليسرى آلة موسيقية هى السستروم Sistrum تستعمل فى العبادة وأنغامها تطرد تيفون اله الشر و بيدها اليمنى بعض زهور اللوتس . وتبعتها زوجة الكاهن الاعظم وابنته وأخته وهن بنفس لباسها وزينتها ولكن أقل فخامة منها . و بعد ذلك جاء ولى العهد وهو فى ملابسه الملكية الفخمة كأمير وكاهن ، ووراءه أربعة كهنة فى ثياب بيضاء يحملون تاخوط على محفة مكشوفة . وكان الحر وتأديتها للعبادة والصلاة بجد قد أجهداها فاحمر وجهها بعض الحمرة وغصت عيناها الزرقاوان بالدموع وهى تنظر الى السستروم التى لا تستطيع يداها الضعيفتان المهزولتان أن تحملاها .

ولغط الجمهور بالدعاء للملك المحتضر لأنه كان محبوباً ، و بدا على وجوه الحضور بكل جلاء مايستشعرونه من العطف على الشباب يوقده المرض وهو فى ابانه . ذلك كان حال ابنة أماسيس المريضة الواهنة التى مرت بهم محمولة فى محفتها على الأكتاف . وكم عين أدمعت على الحسناء المريضة لدى رؤيتها . وظهر على تاخوط أنها أدركت ذلك لأنها حولت بصرها عن الآلة الموسيقية الى الشعب تشكره . ثم شحب لونها فجأة واصفار صفرة فاقعة ، وسقطت الآلة من يديها على الافريز الحجرى بالقرب من قدمى بردية ، وكان لوقوعها صوت مسموع . فشعر أنها تبينته ، فخطر فى باله أن يختفى بين الجمهور ، غير أن هذا الخاطر لم يدم غير لحظة اذ تغلبت عليه فى

النهاية عواطفه النبيلة ، فانحنى والتقط الآلة ناسياً الخطر المحدق به من جراء مجازفته ثم قدمها للأميرة .

فنظرت اليه تاخوط نظرة متفحصة قبل أن تأخذ السستروم الذهبية ثم قالت له بصوت منخفض يكاد لا يسمعه غيره « أو أنت بردية ؟ بحق أمك عليك أو لست بردية ؟ »

فقال بصوت منخفض كصوتها « نعم أنا هو صديقك بردية . »

ولم يستطع أن يزيد على ذلك شيئاً لأن الكهنة دفعت به الى الجمهور . فلما عاد الى مكانه الأول لاحظ أن تاخوط ، وقد بدأ حملتها يسيرون بها ثانياً ، تبحث ببصرها عنه . وقد عاود وجنتاها لونهما . وكانت عيناها اللامعتان تحاولان أن تقابلا عينيه فلم يحول نظره عن عينيها ، فرمت اليه زهرة لوتس ، وانحنى ليأخذها ثم شق لنفسه طريقا وسط الزحام لأن ذلك السلوك المتسرع فيه قد لفت أنظار الناس .

وبعد ذلك بربع ساعة كان بردية فى زورقه الذى سيقله الى صافو والى حفلة الزفاف . وكان قد اطمأن تماماً على زوبيروس اذ كان فى نظره كأنه نجا من سجنه ، وشعر على الرغم من الاخطار المحيطة به المهددة له بهدوء وسعادة غريبين يكاد لا يعرف لهما سبباً .

وفى تلك الساعة حملت الأميرة المريضة الى القصر ، وأزيلت عنها تلك الزينة التى ضايقتها ، وحملت وسادتها الى طنف من أطناف القصر كانت تفضله عن سواه فى تمضية أيام الصيف الحارة ، وكان هذا الطنف مغطى بالمظلات وبزهور مورقة تحجب عنه الشمس .

ومن هذا الطنف كانت تستطيع أن ترى الفناء الخارجى للقصر وكان مزروعاً بالأشجار . أما فى ذلك اليوم فقد كان الفناء غاصاً بالكهنة ورجال البلاط والقواد وحكام الولايات . وكانت وجوه الحاضرين تنم عن هم وحيرة — لقد كانت ساعة أماسيس الاخيرة قريبة جداً .

ولم تكن تاخوط ترى فى مكانها ، ولكنها كانت تصغى وهى مهمومة هماً شديداً فكانت تسمع كثيراً مما يقولون . والآن وقد توقع القوم موت الملك فقد كان الكل

حتى الكهنة أنفسهم ، يتمدحون بذكره ويترحمون على أيامه . ولقد أثنوا كلهم على حكمته وبعد نظره فى وضع الخطط ورسم طرق الحكم ، وعلى كده المتواصل واعتداله الذى كان دائماً يظهره وسرعة خاطره . قال أحد الولاة « أنظروا كيف نجحت مصر خلال حكم أماسيس ! » وقال أحد القواد « وانظروا أى مجد أحرزته جيوشنا لما فتحت قبرص وحاربت الليبيين ! » وقال أحد الكهنة المنشدين فى معبد نيث « وانظروا ما أفخم ما زين معابدنا ، وما أكثر ما أدى من التعظيم والتبجيل لمعبودة سايس ! » وقال كاتب سر الحكومة « وما كان أمهره فى حفظ السلم بين الدول العظمى ! » وقال أمين بيت المال وقد مسح دمعة انحدرت من عينيه « وما كان أقدره على تفهم ادارة الدخل ! انه منذ أيام رمسيس الثالث لم تكن خزائن المال ملاى كما هى الآن . » وقال رجل البلاط « ان ميراث بسامتك لميراث كبير عظيم . » وقال القائد « أجل غير أننا نخشى أن لا يبدله فى حرب مجيدة . انه يخضع للكهنة خضوعاً كبيراً . » وقال الكاهن المنشد « كلا انك مخطئ فى هذا ، فقد أظهر من زمن أنه يحتقر نصيحة أخلص خدمه . » وقال الوالى « ان خلف هذا الوالد سيجد من الصعب عليه أن يحصل على رضا الناس أجمع . فليس لكل واحد ذكاء أماسيس وحظه السعيد وحكمته العظيمة . » فقال القائد متنهداً « وان الآلهة تعلم ذلك كله ! »

وعند ذلك انهمر الدمع من عينى تاخوط . لقد كانت هذه الكلمات مفسرة لما كانوا يسعون فى اخفائه عنها . انها ستفقد أباها سريعاً .

فبعد أن وضح لها الأمر ، وأدركت أنه من العبث أن تسأل خدمها وممرضيها أن يحملوها الى أبيها المحتضر ، أشاحت بوجهها لا تريد الانصات لحديث رجال الحاشية تحتها . وجعلت تنظر الى السستروم التى وضعها بردية فى يدها والتى أحضرتها معها الى الطنف عساها أن تجد فيها عزاء . وكأنها وجدت فيها طلبتها . فقد بدا لها كأن صوت هذه الأوتار المقدسة قد انتقل بها الى دنيا أخرى مشمسة ضاحكة .

واعتراها ذلك الذهول الذى يعترى الناس فى ساعاتهم الأخيرة ، فجعل هذه الساعات لديها حلوة مستطابة بما رأته فيها من الاحلام اللذيذة السارة .

فقالت ، فيما بعد ، الجوارى الواقفات حولها لطرد الذباب ان تاخوط لم تكن فى ساعة ما أجمل منها فى تلك الساعة .

وأدركها الوسن وهى على تلك الحال فظلت نائمة نحو ساعة . و بعدها تعسر عليها تنفسها ، وتملكها سعال هز صدرها هزاً ، فانبثق الدم الاحمر القانى يجرى من بين شفتيها على ردائها الابيض . فاستيقظت وظهر عليهـا اليأس والحيرة عندما رأت الوجوه المحدقة بها . وجاءت أمها لاديس فى تلك اللحظة فكان مجيئها باعثاً لها على الابتسام فابتسمت وقالت « أماه لقد رأيت حلماً جميلا . »

قالت لاديس متسائلة « اذن لقد أفادتك زيارتك المعبد ؟ » ثم رأت الدم على شفتيها فارتجفت لرؤيته .

قالت « كل الافادة يا أمى لأنى رأيته ثانياً . »

فنظرت لاديس الى الممرضات نظرة كأنهـا تسائلهن « هل فقدت مولاتكن المسكينة شعورها ؟ » ففهمت تاخوط معنى النظرة ، وقالت بجهد وتعب ظاهرين « تظنين أنى شاردة الفكر أهرف يا أمى ؟ كلا بل أؤكد لك انى رأيتـه حقيقة وكلمته . ولقد رد الىّ السستروم اذ سقطت من يدى على الارض ، وقال انه كان ولا يزال صديقى . ثم أخذ منى زهرة اللوتس التى كانت معى واختفى . لا تظهرى اليأس والاندهاش يا أمى ، فما أقوله لك هو الحق الصراح . لم يكن قط حلم نائم أو رؤيا غاف . وهنـاك رأته أيضاً تيوتروت الممرضة أتسمعين ؟ . لا بد أن يكون قد جاء سايس لأجلى ، واذن لا تكون نبؤة الطفلة الصغيرة فى فناء المعبد نبؤة كاذبة . والآن أرانى لست أشعر بشىء من المرض ، ولقد رأيت فى الحلم أننى نمت فى حقل منزرع خشخاشاً مزهراً ، وكانت حمرة وجهى قانية كحمرة دم الحملان تقدم للذبيحة وكان بردية جالساً بجوارى ، ونايتيتس راكعة بالقرب منى تغنى أغانى عجيبة على آلة الغناء النبلا Nabla المصنوعة من العاج .وسرى فى الهواء صوت جميل جعلنى أشعر كأن هوروس Horus ، إله الصبح والربيع ورب الحشر ، كان يقبلنى . أقول لك يا أمى انه عما قليل يعود ، واذا ما تعافيت اذن — اذن — أواه يا أماه ما هذا ؟ انى أموت ، انى أموت . »

فجثت لاديس بجوارها ، وجعلت تقبل عينيها المغمضتين بشفتين مضطرمتين وفقدت عينا الفتاة بريقهما اذ أذبلهما الموت .

وبعد ذلك بساعة كانت لاديس بجوار فراش آخر — هو فراش زوجها المحتضر .

وكان وجه الملك قد غيرته الهموم وشوهته الامراض ، وكان العرق البارد يتصبب على جبينه . وأمسكت يداه المرتعشتان السباع الذهبية القائمة على ذراعى كرسيه الذى كان جالساً عليه .

ولدى دخول لاديس عليه فتح عينيه ، وكان ينبعث منهما الذكاء والحدة فكأنه لم يفقد بصره .

قال بجفاء « لم لم تحضرى تاخوط لى ؟ »

قالت « انها مريضة أدنفتها العلة وعانت كثيراً من الآلام حتى أنها .... »

قال « حتى أنها قضت نحبها . وذلك خير لها فالموت ليس عقاباً . انه نهاية الحياة وغرضها — هو النهاية التى نصل اليها دون سعى وانما بالآلام والاسقام . وليس من يعرف شدة هذه الآلام غير الآلهة . لقد اصطفاها أوزيريس لنفسه لأنها بريئة طاهرة . وكذلك ماتت نايتيتس أيضاً . أين خطاب نبنخارى ؟ — انه يقول فيه بهذا الصدد : لقد قضت على حياتها بيدها ، وماتت وهى تستنزل اللعنات عليك وعلى من يلوذ بك . أما طبيب العيون نبنخارى المسكين المنفى المسخور منه المسروقة أوراقه المغتصب المنهوب فهو يبعث اليك والى مصر بهذا النبأ ، وانه لنبأ حق أكيد ككراهيته لك : أصغ الى هذه الكلمات بابسامتك واذكر كيف أن أباك وهو على فُراش موته يقول لك ان كل ظلم يحصل من جرائه الظالم على درهم من السرور فى هذه الدنيا ، يحمل له على فراش موته من الندم وتوبيخ الضمير ما يقدر بالقناطير المقنطرة . ستقطع مصر مرحلة مخيفة من الذلة والضعة من أجل نايتيتس ، فان قمبيز بعد العدة لحرب يثيرها علينا . سيكتسح مصر كما تكتسحها العواصف اللافحة تهب من الصحراء ، وسيذهب الكثير من الأعمال التى قضيت نهارى وليلى بل وبذلت حياتى فى ايجادها . مع هذا لم تكن حياتى عبثاً . لقد كنت أباً ومصلحاً محسناً لامة عظيمة مدة أربعين عاماً وسيذكر الابناء والاحفاد

أماسيس ويتحدثون بأنه كان ملكا عظيما حكيما دمث الأخلاق رقيق المشاعر . وسيقرأون اسمى منقوشاً على المبانى العظيمة التى أقمتها فى سايس وطيبة وسيتمدحون بعظمة سلطانى . لن يدينني أوزيريس ولا قضاة الآخرة الاثنـان والأربعون . وستجد إلهة الصدق التى تزن أعمالى أن حسناتى يزدن عن سيئاتى ، والحسنات يذهبن السيئات . »

وهنا تنهد الملك تنهداً عميقاً وسكت مدة ثم نظر برقة الى زوجته وقال « لاديس لقد كنت لى زوجة أمينـة فاضلة . وانى لأشكرك على ذلك ، وأسألك الصفح عن كثير . لطالما اختلفنا فى الرأى ، فلم يفهم أحدنا زميله . ولقد كان من السهل علىّ فى الحقيقة أن أعود نفسى على طرائق الفكر الأغريقية أكثر من تعويدك ، وأنت الأغريقية ، على تفهم آرائنا المصرية . انك تعرفين حبى للفن الاغريقى ، وتعرفين كيف أنى كنت أسر برفقـة صديقك فيثاغورس الذى تعمق فى علومنا وتثقف بآرائنا وعقائدنا وأخذ عنا الكثير منها . لقد وقف على الحكمة البعيدة الغور الموجودة فى شرائعنا وعقائدنا التى أحترمها أنا أكبر احترام . وقد حذر أن لا يستخف بالحقائق التى عنى كهنتنا كثيراً باخفائها عن الناس . فالناس يخضعون عن طواعية لكل ما لا يستطيعون ادراك كنهه ، ويستسلمون لكل من يهذبهم ويثقف عقولهم . ولكن أما كان خيراً وأولى وأنبـل أن نعلم الناس كى يفهموا هذه الحقائق ، فنرفع مستواهم العقلى بدلا من النزول بهم الى الدرك الأسفل ؟ حقيقة قد لا يجد الكهنة بعد ذلك خداما طائعين ولكن الآلهة تجد فيهم بعـد تنوير عقولهم قوماً أكثر استعدادا وصلاحية للعبادة . ويلمس العقل الأغريقى صعوبة كبرى فى عبادة العجماوات من الحيوان ، وعندى أن عبادة الخالق فى مخلوقاته أخلق بالانسان من عبادته فى تمثال له صيغ من حجر . وعدا هذا فان آلهة الأغريق عرضة لكل ضعف بشرى ، وانى فى الحقيقة كنت أجعل حياة ملكتى تعسة لو أننى اتبعت فى حياتى نسق حياة الهها العظيم زيوس . »

وعند هذه الكلمات ، ابتسم الملك ثم تابع حديثه قال « وهل تعرفين يالاديس سبب ذلك ؟ انه يرجع لتفضيل الأغريق جمال الشكل عن كل جمال عداه ، وعلى

ذلك فهم لا يستطيعون فصل الروح عن الجسد الذى يرون فيه أنه أجمل تكوين فى الوجود ، وهم يقولون ان الروح الجميلة لا بد أن تحل فى الجسد الجميل . واذن فآلهتهم ليسوا سوى بشر مثلنا بلغوا غاية الرقى الانسانى ، فى حين أننا نعبد قوة غير منظورة تعمل فى الطبيعة وفى أنفسنا بقوة غير مادية ، ولا تنسى أن فى الانسان انطوى العالم الاكبر . وللحيوان مكانه بيننا و بين الطبيعة ، تسيطر على أعماله وحركاته القوانين الطبيعية الأبدية ، فى حين أن المسيطر على أعمالنا وحركاتنا القوانين الوضعيـة . فأما القوانين الطبيعية فهى من عمل الآلهة ، وأما القوانين الوضعيـة فهى من عمل الانسان . وأين هو ذلك الانسان الذى يتابع السعى أبدا كالحيوان لبلوغ الحرية التى هى أثمن مافى الوجود ؟ أين هو ذلك الانسان الذى يحيا مثل حياة الحيوان المنتظمة المنسقة المتوافقة تمضى عليها السنون والأجيال دون أن تلقى تهذيبـاً أو تثقيفاً ؟ »

وهنا ضعف صوت الملك فاضطر أن يستريح بضع لحظات ثم تابع الحديث قال « أعرف أن نهايتى قريبة ، فلأ كف عن الحديث فى مثـل هذه الأمور . وأنت يا بنى ووارثى فى هذا الملك إستمع الى رغباتى الأخيرة وسر على مقتضاها فهى نتيجة تجاربى . ولكن وا أسفاه لطالمـا رأيت أن قوانين الحياة يسنها رجل لآخر عديمة الجدوى ، فعلى كلٍ أن يكتسب من تجاربـه ، اذ الخسائر والمضار تجعله حريصا والتعليم التلقائى يجعله حكيما عاقلا . وها أنت يا بنى مقدم على اعتلاء منصة العرش وأنت فى سن النضوج والكمال ، فكان لك من الزمن وظروف الأحوال ما يجعلك تفرق بين الحق والباطل ، و بين النافع والضار ، وما يجعلك تحسن الموازنة بين كثير من الأشياء . ولذلك فانى مقـدم على نصحك وأنا أخشى أن أقدم لك النصيحة خالصة بيدى اليمنى فتتلقاها بيدك اليسرى .

« وقبل كل شىء أقول لك انه على الرغم من عماى فان حيادى ازاء ما كان يجرى من الأعمال خلال الاشهر الماضية كان ظاهريا فقط . اذ أنى تركتك وشأنك وأنا أرجو لك الخير . حدثتنى رودوبيس مرة بأسطورة من أساطير معلمها ايزوب . قالت حدث أن مسافراً قابل فى طريقه رجلا فسأله كم يمضى عليه من الزمن قبل

أن يصل الى أقرب بلد ، فقال له الرجل : جد فى السير ، جد فى السير. قال : ولكنى أريد أن أعرف قبل ذلك متى أصل الى البلد : قال : جد فى السير ، جد فى السير : فترك المسافر الرجل بعد أن أغلظ له القول . ولكنه لم يسر طويلا حتى ناداه الرجل ثانياً وقال له : ستكون هناك بعد ساعة ، انى لم أستطع اجابة سؤالك الا بعد أن علمت سرعة سيرك :

« فطبقت فى نفسى هذه الأسطورة عليك يا ولدى وأنا ساكت لأرى بأى شكل ستسيردفة الحكم . وقد علمت ما رغبت فى معرفته واليك نصيحتى . اختبر بنفسك كل شيء . اذ أنه من واجب كل رجل ، وعلى الأخص الملك ، أن يقف بنفسه وقوفاً تاماً على كل ما يقع بشعبه من خير أو شر . وأنت يا بنى قد اعتدت أن ترى بعيون غيرك وتسمع بآذانهم بدلا من أن تذهب بنفسك الى البواطن وترجع الى الاصول . أنا واثق أن مستشاريك الكهنة لا يرغبون فى غير الخير ، ولكن ... أرجوك يا نيتحوتب أن تتركنا منفردين لحظة . »

فلما خرج الكاهن قال الملك « أقول ان الكهنة لا يرغبون فى غير الخير ولكن لأنفسهم فقط . غير أننا لم نكن ملوكا على الكهنة وطبقة الأشراف فقط ، بل انما نحن ملوك على جميع طبقات الأمة . لا تصغ الى مشورة هذه الطبقة الصلفة وحدها واقرأ بنفسك كل طلب يقدم اليك . واذا ما عينت ولاة مخلصين للملك محبوبين من الرعية أمكنك أن تعرف حاجات الأمة ورغائبها . وليس من الصعب أن تحسن الحكم ان أنت عرفت اتجاه الشعور فى البلاد . واختر للمناصب الحكومية رجالا قادرين صالحين . ولقد قسمت الدولة — كما تعلم — الى مديريات ، وسننت قوانين عادلة أثبت الزمن صلاحيتها ، فلا تغير التقسيم والصق بهذه القوانين واركن اليها . ولا تثق بأى شخص — كائناً من كان — يضع نفسه فوق القانون ، فحكم القانون دائماً أبداً أعدل من حكم الأفراد ، وان من يدوسه ويتخطاه يستحق الجزاء الشديد . والشعب المصرى يفهم ذلك تماماً ، وأفراده مستعدون لتضحية أنفسهم من أجلنا ان هم رأوا استعدادنا نحن أيضاً لاخضاع ارادتنا للقانون . انك لا تعنى بالشعب . وانى لأعرف أن صوت الشعب غير مستحب لآذان الملوك .

ولكن هذا الصوت لا ينطق بغير الحقائق البحتة ، ولا يقول غير الحق الصراح ، وليس أحوج الى سماع الحقائق من الملوك . إعلم أن الفرعون يتخذ من الكهنة ورجال الحاشية مستشارين يسمع كثيراً من كلمات الملق والنفاق ، فى حين أن الفرعون الذى يجيب الأمة الى مطالبها ورغباتها يعانى الكثير من أولئك المحيطين به ، ولكنه يشعر بالهدوء والطمأنينة فى قلبه ، وتتمدح بذكره الأجيال القادمة . لا أنكر أنى أخطأت ولكن المصريين سيبكوننى كأنى واحد عرف حاجاتهم وسعى كالأب الشفيق فى خيرهم ونفعهم . ان الملك الذى يعرف واجباته يسهل عليه اكتساب حب الرعية ، أما الذى يسعى لاحراز مديح الاشراف فقط فهو ملك ناكر للجميل ، ومحال أن يفوز ملك برضى الاثنين

« أعيد عليك مرة أخرى ان الملوك والكهنة انما وجدا لخدمة الشعب ، ولم يوجد الشعب لخدمة ملوكه وكهنته . احترم الدين لذاته ، ولأنه أعظم وسيلة للحصول على طاعة المحكومين لحاكمهم ، ولكن فى الوقت ذاته أظهر لحفظته ومذيعيه انك تنظر اليهم لا باعتبارهم دعائم له وانما باعتبارهم خدم للآلهة . الصق بالقديم فالدين يأمر بذلك وانما لا تغلق أبواب المملكة فى وجه كل جديد يفضل ذلك القديم . ان الذين لا خلاق لهم هم الذين يهملون أساطير الأولين ، ولا يعنى بالجديد وحده الا البله المجانين ، أما ذوو العقول الضيقة أصحاب الميزات والمنافع الخاصة فهم الذين يعلقون بالقديم وحده و يعلنون أن التطور جريمة . وأما العقلاء فانهم يستمسكون بكل قديم ثبتت صلاحيته و يزيلون من طريقهم كل مشوه مبتور ، ويختارون الصالح مهما كان مصدره . فسر على هذا النمط يا بنى . سيحاول الكهنة أن يصدوك عن التقدم ، ولكن الاغريق من جهة أخرى سيساعدونك و يدفعون بك الى الأمام . فاختر لنفسك هذا الفريق أو ذاك الفريق ، وانما حذار من التردد والتقلب . حذار أن تخضع اليوم لفئة وغدا لأخرى ، فالرجل يقع على الارض ان هو رام الجلوس بين كرسيين . فليكن أحد الحزبين صديقاً لك ، وليكن الآخر عدواً . ان محاولتك أن ترضيهما كليهما تجعلهما يشتركان فى معارضتك ومقاومتك . واعلم أن أبناء آدم يكرهون من يظهر الرفق بأعدائهم و يشفق عليهم . وفى الاشهر القليلة الماضية التى

توليت الحكم خلالها منفرداً به قد أسأت الطرفين بترددك الحقير . وان الرجل الذى يتقدم ثم يتقهقر كالطفل يتعب سريعاً فلا يحرز نجاحاً . واتخذنى مثلا فقد شجعت حتى الآن — الى أن شعرت بدنو أجلى — الاغريق ونصرتهم ، وعاديت الكهنة وخذلتهم . ففى شبابى وربيع أيامى كنت أرى الاغريق أنفع لى ، أما فى شيخوختى وخريف أيامى حيث الموت منى قريب فانى فى حاجة الى رجال يستطيعون أن يمدونى بجواز أسافر به الى العالم الآخر . وان الآلهة لتغفر لى عجزى عن ترك المجون وكلماته حتى فى ساعاتى الأخيرة قبل مماتى . لقد خلقتنى الآلهة ميالا الى المجون ، فليأخذونى الى رحابهم كما أنا . لقد عشت ضحوكا فلأمت كذلك ضاحكا . ولقد كان اعتلائى عرش مصر ضحكا فى ضحك ، وفركت كفىّ طرباً عند ما صرت ملكا . أما أنت يا بنى فأمرك خطير ، واعتلاؤك العرش ليس لهواً بل عين الجد ، فكن على حذر . والآن علىّ بنيتحوتب فانه لا زال عندى بعض الشىء أريد أن أقوله لكما معاً . »

فلما أن دخل الكاهن مد الملك يده اليه وقال « اننى أتركك يا نيتحوتب ولست أحمل لك فى قلبى ضغناً ، ولو أنى لا زلت أرى فيك أنك فى كهنوتك خير منك فى خدمة ملكك . وسيكون بسامتك فى اتباع آرائك أكثر منى طواعية واستماعاً لها ، ولكنى أريد وألح عليكما الحاحاً شديداً فى مسألة ابقاء الجند المرتزقة من الاغريق . لا تسرحاهم حتى ينتهى الحرب مع الفرس ، وتختم على ما نأمل بنصرة مصر . ان نبؤاتى السابقة صارت لا تغنى فتيلا الآن . والموت اذا اقترب اكتأبنا وخارت عزيمتنا ، ورأينا الاشياء تسود فى نظرنا . اننا بدون الجند المرتزقة سنضيع لا محالة وبهم لن يكون النصر مستحيلا . فكونا واسعى الحيلة ، وأظهرا للأغريق أنهم وهم يحاربون لنصرة مصر انما يحاربون لأجل حرية بلادهم . وأن قمبيز اذا انتصر لن يقنع بمصر وحدها ، فى حين أن هزيمته قد تحرر أعناق مواطنيهم فى أيونيا من الرق الذى هم فيه . أظن أنك متفق معى فى ذلك يا نيتحوتب لأنك لا تحمل فى قلبك الا الحب والخير لمصر . — والآن ابدأ فى صلاتك وقراءة الأدعية . أشعر أننى تعب منهوك القوى . لا بد أن يكون أجلى قد دنا . ليتنى أنسى نايتيتس المسكينة !

ترى هل كان لها حق فى لعننا ؟ سألت قضاة الموتى ، وسألت أوزيريس ، أن يرفق بنا ويشفق على أرواحنا . اجلسى بجوارى يالاديس ، وضعى يدك على جبينى الملتهب وانت يا بسامتك أقسم أمام هؤلاء الشهود الحاضرين أن تحترم زوج أبيك كما لو كنت لها ابنا وكانت لك أما . مسكينة أنت يا زوجى . أسرعى الىَّ وانحنى عنى أمام عرش أوزيريس ، اذ ماذا لك فى هذه الدنيا وقد صرت أرملة ومات بنوك ؟ لقد ربينا نايتيتيس كأنها ابنتنا ، ومع ذلك فقد عوقبنا من أجلها عقابا قاسياً . غير أن لعنتها لا تستكن الا على رأسينا نحن فقط ، وليست تنصب على رأسك أنت يا بسامتك ولا على رؤوس ابنائك . علىَّ بحفيدى . أتلك التى أحس بها دمعة ؟ ربما كانت . حسن ان الأشياء الصغيرة التى عود الانسان نفسه عليها يكون من الصعب على النفس فى الجملة انتزاعها . وقبيح عادة منتزعة . »

* * *

واستقبلت رودوبيس هذا المساء ضيفاً جديداً هو كالياس بن فونيباس وقد مر بنا ذكره فى بدء قصتنا فهو الذى جاء بأنباء الألعاب الاولمبية .

وكان هذا الأثينى قد عاد توا من بلاده ، ولم تستقبله رودوبيس استقبالها لصديق قديم مجرب فحسب بل وأدلت اليه بسر زواج صافو .

أما عبدها العجوز كناكياس فكان قد طوى علم الاستقبال منذ يومين ، ولكنه كان يعرف أن سيدته ترحب بكالياس كل الترحيب ، ولذلك سمح له بالدخول فى حين أبى دخول أحد غيره .

وكان لدى الأثينى الكثير من الأخبار . فلما أن خرجت رودوبيس لعمل من أعمال البيت استصحب صافو الى الحديقة ، وجعل يمازحها ويداعبها منتظرين معاً قدوم حبيبها بردية . ولكن بردية لم يحضر . وبدأ الجزع يظهر على صافو ، فنادى كالياس مليتا ، وكانت تنظر صوب نقراتس وهى لا تقل جزعا عن سيدتها ، وسألها أن تحضر الآلة الموسيقية التى أحضرها هو معه ، وهى قيثارة كبيرة مصنوعة من الذهب والعاج .

فلما أن ناولها الى صافو قال وعلى ثغره ابتسامة « ان مخترع هذه الآلة العظيمة

هو الشاعر العبقرى أنكريون ، صنعها خصيصاً لأجلى . وهو يدعوها بار بيتون Barbiton ، ولاوتارها أنغام شجية . ولقد حدثت هذا الشاعر بالكثير عنك فوعدنى أن ينشئ غنوة لك يهديك اياها ، وقد بر بوعده وها هى :

« ليتنى كنت مرآة تضيئنى ابتسامتك القاسية ، فيكون جسمى كله كقلبى تنعكس عليه صورتك أنت وحدك .

« أو ليتنى كنت أيتها الحبيبة الرداء الذى يضم جمالك الساحر فتسبح طياته الشفافة فوقك وتعلق بكل عضو من أعضائك .

« أو ليتنى كنت موجة فى جدول صغير فأجلو محاسنك الكاملة ، أو أطفو كالعطر فوق شعرك ثم أروح النفس باستنشاق عبيرك الشذى .

«وددت لو كنت الجزء الدافئ من صدرك فأحس بتنهداته . أو كنت كتلك اللآلئ التى يكسف بياض جيدك سناها ، فاستمتع مثلهن وأنكسف كسوفهن .

« والا فماذا تريدين لمحبك أنكريون أن يكون ؟ انه يرضيه أن يكون أى شئ تتنزلين لمسه . يسعده أن يكون لقدميك نعلا يرى فى انتعالك اياه سعادة ما بعدها سعادة ! »

« ترى أناقمة أنت من الشاعر تهوره ؟ »

قالت « وأنى لى ذلك ؟ يجب أن يترك للشعراء بعض الحرية . »

قال « وعلى الأخص مثل ذلك الشاعر . »

قالت « الذى يختار مثلك ماهرا فى صنعة الغناء والانشاد لكى يستظهر شعره . »

قال « يالك من صغيرة مداهنة ! كان للناس ، قبل اليوم بعشرين سنة ، بعض الحق فى التمدح بصوتى والاشادة بأسلوب غنائى ، أما اليوم . . . »

قالت « أراك تحاول أن تستخلص منى مديحاً آخر لك ، فاعلم اذن أنك لن تنجح فى اغتصاب كلمة أخرى واحدة . غير أنى أريد أن أعرف هل هذه البار بيتون كما تسميها — بأنغامها الهادئة الرقيقة تصلح لغير أغانى أنكريون ؟ »

قال « بالطبع . خذيها وعالجى أوتارها بنفسك ثم دقى عليها . لست أخشى الا على أناملك الرقيقة فقد تجد هذه الاوتار صعبة المراس . »

قالت « لا أستطيع الغناء ، فانى جزعة على تأخر بردية . »

قال « أو بعبارة أخرى ان تشوقك اليه قد حبس صوتك . لعمتك الشاعرة اللسبية الكبيرة صافو غنوة شعرية فيها وصف دقيق لمثل الحالة النفسانية التى يحتمل

أن تكونى فيها الآن . فهل تعرفينها ؟ »

قالت « لست أعرفها . »

قال« اذن استمعى الىّ أغنيك اياها فهى أحب الاغانى الى . يخيل للانسان أن ايروس نفسه هو الذى كتبها لا عمتك صافو . وها هى :

« مبارك كالآلهة الخوالد ذلك الفتى الذى يجلس بجوارك جلسة المغرم الواله . ويسمعك تتحدثين الحديث الشهى ، ويراك تبسمين ابتسامتك الحلوة .

« ذاك ما حرم روحى الراحة ، وأثار فى صدرى لواعج الاشجان ، فانى حينما نظرت اليك أذهلنى الهوى فانقطع تنفسى واحتبس صوتى .

« وسرعان ما أضاء صدرى وتلألأ ، اذ سرى لهب خفى سريع خلال جسمى الحى ، وغشى عينى السادرتين ظلام حالك ، وطن فى اذنى لغط أجوف .

« ثم تصبب عرق فتمشت قشعريرة فى مفاصلى ، وثار دمى من أهوال الحب ، وما ألطفها أهوالا ، ففات نبضى أن يدق ، ووقعت مغشياً على ، وفاضت روحى الى بارئها . »

« فماذا ترين الآن فى هذه الغنوة ؟ وحق هرقل يا ابنتى ما أشدشحوب وجهك هل أثرت فيك كلمات الشعر هذه ؟ أو هل أخافك ذلك التشبيه الذى ينطبق على قلبك المشتاق الذى أضناه الحنين ؟ هدئى روعك يا بنيـة . ترى ما الذى حدث فأعاق حبيبك ؟ »

واذ ذاك سمع صوت يقول « لم يحدث شيء » وفى بضع ثوان كانت صافو بين ذراعى حبيبها .

ونظر اليهما صامتا مبتسما مأخوذا بجمال هذين العاشقين .

قال الأمير بعد أن عرّفته بكالياس « أريد أن أرى جدتك فى الحال ، فلم يعد فى الامكان أن يتاخر زفافنا أياما أربعة . يجب أن يتم زفافنا اليوم ، فان فى كل ساعة نتأخرها خطراً عظيما . هل ثيوبومبس موجود هنا ؟ »

قالت صافو « أظنه هنا ، ولست أرى سبباً يدعو جدتى الى هذا الغياب داخل البيت . ولكن ما هذا الذى تقوله بخصوص زواجنا ؟ يخيل الىّ . . . . »

قال « فلنلج الدار أولا أيتها الحبيبة ، فانى أتوقع حدوث أنواء وعواصف . أنظرى الى الجو تجديه شديد الاكفهرار ، وهو حار لا يطاق . »

قالت « عجل اذن فى الدخول ، الا اذا شئت أن يقتلنى الجزع . وليس ثمت ما يدعو الى تخوفك من عاصفة ، فمنذ طفولتى لم أر برقا أو رعدا حدث فى مصر فى مثل هذا الوقت من السنة (١) . »

قال كالياس ضاحكا « سترين جديدا اليوم ، اذ قد سقطت نقطة مطر كبيرة على رأسى الأصلع ، وطيور النيـل كانت تحوم على وجه الماء حين جئت اليكم . وهاهى سحابة تحجب القمر . ادخلى بسرعة والا أصابك البلل . أيها العبد اذهب وقدم حملا أسود لآلهة العالم السفلى (٢) . »

ووجدوا ثيو بومبس جالساً فى حجرة رودوبيس كما توقعت صافو ، وكان قد قص على رودو بيس نبأ القبض على زو بيروس ، ثم مسير بردية وصاحبيه لأجل انقاذه .

وفيما هما يتحدثان والجزع آخذ منهما كل مأخذ ظهر لهما بردية على غرة فانقذهما مما هما فيه . ثم ذكر ما حدث فى الساعات الماضية و رجا ثيوبومبس أن يبحث فى الحال عن سفينة تقلع به و بصاحبيه من مصر .

قال كالياس « أن ما تطلبـه ميسور فالزورق الذى جاء بى الى نقراتس اليوم يستطيع السفر فى البحر ؛ وهو راس بالميناء وهو منذ الساعة رهن أمرك . وليس علىَّ سوى أن أبعث بكلمة الى الربان فيكون البحارة فى أماكنهم ، و يكون كل شىء معدا للابحار . ولا تظن أنى أسدى اليـك يداً بل انى على العكس شاكر لك هذا الشرف العظيم الذى أوليتنيه بقبولك زورقى . يا كنا كياس قل لخادمى الواقف بانتظارى فى البهو أن يأخذ قاربا و يذهب الى الميناء ، و يطلب الى ربان سفينتى أن يعدها للسفر . أعطه خاتمى هذا وهو يخول له عمل كل ما يراه لازما . »

قال بردية « وخدمى وعبيدى ؟ »

قال ثيوبومبس « ان كنا كياس يمكنه أن يخبر كبير خدمى فيذهب بهم الى

(١) الانواء فى مصر نادرة الحدوث ، وقد حدث نوء فى مصر ايام كان ابسيوس بها . وقال هيرودوت بنزول مطر فى صعيد مصر فى هذا التاريخ ، واعتبر نزوله احدى المعجزات .

(٢) كان من عادة الاغريق أن يقـدموا حملا اسود للعواصف لانها كانت تعتبر من ضمن آلهة العوالم السفلى .

سفينة كالياس . »

قال بردية وقد أعطى الخادم خاتمه « واذا ما رأوا هذا أطاعوه من غير تردد . »

فخرج كنا كياس بعد أن أدى التحية ، وتابع الامير حديثه قال « والآن أيتها الوالدة لى طلبة عندك أرجو قضاءها . »

قالت رودو بيس وهى تبتسم « أكاد أعلم ما هى . تريد أن يتم زفافك بسرعة وانى لأرانى عاجزة عن معارضة رغبتك . »

قال كالياس « أمرنا عجيب . اثنان منا فى خطر داهم ومع ذلك فهما يتخذان من هذا الخطر تلهياً واستمتاعاً . »

قال بردية وقد ضغط على يد صافو دون أن يراه أحد « وربما كنت محقاً فيما تقول . » ثم التفت الى رودو بيس وسألها أن لا تتأخر بعد اليوم فى وكل كنزها اليه وايداعه عنده ، فهو خير من يعرف قيمة ذلك الكنز ويحتفظ عليه .

فانتصبت رودو بيس واقفة ووضعت يمناها على رأس صافو ويسراها على رأس برديه وقالت « أى ولدىّ . جاء فى احدى الاساطير أن فى أرض الورود بحيرة زرقاء تارة تنحسر موجاتها فتكون هادئة ، وطوراً تطفو فتكون هائجة متلاطمة . ومرة يكون طعم مائها حلواً كالأرى ، وأخرى مراً كالعلقم . ولسوف تدركان مغزى هذه الأسطورة فى أرض الزواج الوردية ، فستمر بكما ساعات هدوء وقلق ، وساعات حلوة وأخرى مرة . لقد كانت حياتك ياصافو ، اذ كنت طفلة ، كيوم الربيع الصافى الأديم ، فلما أن كبرت وعرفت الهوى تفتح قلبك للآلام ، ولقد كانت تلك الآلام ضيفاً كثير التزاور خلال أشهر الفراق الطويلة الماضية . وهذا الضيف دائب التزاور ما دامت الروح فى الجسد . فمن واجبك يا بردية أن تقصى هذا الضيف الثقيل الدخيل عن صافو بكل ما وسعت من قوة . لقد خبرت هذه الدنيا ، وانى لأتبين فيك — حتى قبل أن يحدثنى كريسوس بسجاياك الكريمة — انك أهل لعزيزتى صافو . وهذا ما جعلنى أسمح لك أن تأكل السفرجل معها ، وهو الذى يدفعنى الآن دون خوف ، الى أن أضع بين يديك أقدس الودائع عندى ، فتكون عندك كالعارية تسترد ، اذ ليس شىء أخطر على الحب والهوى من الاغراق فى الوثوق بشدة

امتلاكك من تحب . لقد لامنى الناس على سماحى لفتاة مثل صافو غير مجربة أن تذهب معك الى بلادك النائية حيث نسق العيش لا يلائم من هن من طرازها من النسوة ، غير أنى أعرف ما هو الحب . أعرف أن الفتاة التى تهوى لا تعرف لها مكانا رحباً غير قلب زوجها الذى تهواه ، وأن المرأة التى مس ايروس ، اله الحب ، قلبها لا تعرف من نوازل الزمن الا فراقها عن ذلك الذى اختارته لقلبها نجياً . ولى سؤال أوجهه لكما يا كالياس ويا ثيوبومبس ليسمعه عروسانا : هل نساء اليونان أحسن حالا من نساء الفرس ؟ أليست تقضى الاغريقيات حياتهن فى حجرات النساء كالفارسيات ؟ أليست ترى الزوجة الاغريقية العطف كل العطف من جانب زوجها اذا هو سمح لها أن تخرج الى الطريق مقنعة محجبة وبرفقتها خادم يرقبها ؟ اما من حيث تعدد الزوجات فى فارس فليس لى ما أخشاه على بردية ولا على صافو . انه سيكون أكثر اخلاصاً وامانة لزوجته من كثير من الاغريق ، لأنه سيجد فيها متانة الخلق الزوجى مع رقة بنات الهوى الأديبات اللائى صقلهن الزمن . نعم سيجد فيها أما وربة بيت ، وسيجد فيها شريكا مهذبا مثقفاً يسر لحديثه ويستأنس برأيه . نخذها يا ولدى . انى أسلمك اياها كما يسلم الجندى الشيخ سيفه ، وهو أعز شىء يملكه ، الى ابنه القوى الشجاع ، أى وأنا منشرحة الصدر مطمئنة القلب . واعلم أنها ستبقى اغريقية فى أى مكان تحل والى أى بلدة ترحل . وأعظم ساوى لى على فراقها اعتقادى أنها سوف ترفع من قدر الاغريق فى بلدها الجديد ، وسوف تكسبهم حلفاء جدداً . أى بنيتى ! اننى أشكر لك هذه الدموع . اننى أصبحت قادرة على حبس دمعى ، ففى سبيل ذلك أرغمتنى الاقدار على أن أدفع ثمناً باهظاً . وأنت يا بردية قد سمعت الآلهة قسمك فلا تنسه أبداً . اذكره ، ولتكن لك صافو متاعاً وصديقاً وزوجاً . وخذها الى بلادك تواً اذ ما رجع صحبك اليك ، فان الآلهة لم تقدر لصافو يوم عُرسها أن تغنّى لها أناشيد الزفاف . »

واذ قالت ذلك وضعت يد صافو فى يد بردية ، وعانقتها بحنو شديد . ثم قبلت الفتى فى جبهته ، وبعدها التفتت الى صديقيها الاغريقيين ، وقد تأثرا مما يريان ، وقالت « هذا زفاف بسيط خال من الجلبة ، فلا غناء ولا مشاعل موقدة ، وانى

لأرجو ان يكون مكللا بالخير والبركات . » ثم خاطبت مليتا قالت « وأنت يامليتا أحضرى زينة العروس من سوارات وحلى وعقود تجدينها فى علباء من البرنز موضوعة فوق خوان زينتى حتى تضع يدها فى يد زوجها وهى فى ملابس وحلى أميرة فارس المقبلة . »

قال كالياس وقد استعاد سروره «أجل ولا تتلكئى فى الطريق فلا يصح أن يتم زفاف بنت أخ الشاعرة الكبيرة دون غناء أو موسيقى . ولما كانت دار زوجك يا صافو بعيدة لا يلائم بعدها اجراء الطقوس التى اعتدناها ، فسنفرض أن حجرة الاستقبال داره ، وسنذهب بك الى هناك من الباب الأوسط . وهناك نقيم حفلة سرور وغناء بجوار الموقدة . وأنتن أيتها الجوارى أقبلن ، واجعلن من أنفسكن جوقتين للغناء وليقم نصفكن مقام الفتيان والنصف الآخر مقام الفتيات ، ثم أنشدن غنوة زفاف صافو . وسأكون أنا حامل المشعل فذلك الشرف من حقى . وبهذه المناسبة يجب أن تعرف يابردية أن لاسرتى حقاً وراثياً فى حمل المشاعل فى حفلات الغناء الربانى ، وهم لذلك يسموننا فى بلادنا دادوشى Daduchi أو حملة المشاعل . وأنت أيها العبد اذهب الى حجرة الاستقبال وزينها بالزهور والورود والرياحين ، وقل لرفاقك يمطروننا بقطع الحلوى (الملبس) عندما ندخل . وأنت يا مليتا كيف توصلت الى عمل تلك الاكاليل من البنفسج والآس والريحان بهذه السرعة ؟ ان المطر يتساقط من الفتحة التى فوقنا ، ويظهر أن هيمين اله الزواج قد استمال زيوس ليساعده حتى لا ينقص حفلة الزفاف هذه شىء ، فليس من الممكن فى مثل حالنا أن يستحم العروسان الصبح التالى لليلة الزفاف كما هو منصوص فى النظم القديمة ، ولذلك أرسل عليها زيوس المطر بدلا من مياه النبع المقدس . والآن ايتها الجوارى ابدأن النشيد ، هيا واندبن أيام الطفولة الوردية . وأنتم أيها الفتيان تمدحوا بحظ أولئك الذين يتزوجون فى ابان الشباب . »

فبدأ العذارى نشيدهن بصوت عال ، وبانغام محزنة ، وكن متمرنات على الغناء ، قلن :

« فى أرض الحديقة المسورة المفلوحة حيث لا ترعى الغنم وحيث لا تلتوى خطوط المحراث ، عند ما تينع الزهور تقويها أشعة الشمس ، ويحييها رذاذ المطر ، وينعشها الهواء الندى ، هناك ترنو العـذارى بأنظارهن الى تلك الزهور لتزين بهـا جسومهن فيرشقنها حيث يراها الفتيان فيريدونها لانفسهم .

« ولكن هذه الزهور سيرمى بها فى الثرى بعد أن تنتزع من سيقانها فلا يرغب فيهـا فتى أو فتاة . وكذلك العذراء تنمى جمالها فيحبها أقرباؤها ويخلص لها الود أترابها الصغيرات ، فاذا مالوث جمالها وطهرها المذريين ملوث بمذاقه ، فان يرقب خطاها بعد ذلك عباد جمالها من الشبـان ، بل وتهجرها أتراب صباها .

« ألا فاستمع أيها الاله هيمين . ايها المعبود المقدس أسرع لنجدتنـا فانت رب المغرمين ، وولى المحصنات الطاهرات . »

فردت عليهن الجوقة الاخرى بأصوات أعمق ونغم سار قلن :

« ان الـكروم فى الحقول العارية لا تفرخ الا افراخاً ضعيفـاً ، ولا تستطيع رفع سيقانها الواهنة ، ولا تزهو سناء بالثمر . وعند ذلك يهملها الرعاة والابل . أما اذا التفت غصونها الضعيفة حول جزوعها أصبحت كالعروس فلا تهملها الرعاة ولا الظباء المـارة . فبالتعهد والسقيا تحيا وبالاهمال تموت .

« وكذلك شأن الحسناء التى ترتبط برباط الزواج الطاهر من زوج موافق ، فانها توجد السرور الذى به ينشرح صدر زوجها ، ويسر لسرورها أبواها .

« ألا فاستمع أيها الاله هيمين . أيها المعبود المقدس أسرع لنجدتنـا ، فأنت رب المغرمين وولى المحصنات الطاهرات . »

واذ ذاك أعاد القسمان نداء هيمين غير مرة بنغمات كلها رغبـات وآمال وفرح وابتهاج .

ثم سكت الغناء فجأة لأن ضوء البرق سقط عليهم من الفتحة التى وقف تحتها العروسان ، وتلا ذلك رعد شديد ، فقال كالياس رافعاً يديه نحو السماء « انظروا أن زيوس نفسه قد كفانا مؤونة حمل المشعل ، وقد غنى أناشيد الزفاف المقربين اليـه المصطفين منه . »

وفى فجر اليوم التـالى خرج بردية وصافو للتنزه فى الحديقة . وكانت الحديقة ، بعد تلك العاصفة الشديدة التى كانت ثائرة طول الليل ، جميلة المنظر فى ضوء النهار ، تبعث فى النفس سروراً .

أما جزع بردية على صاحبيه فكان شديداً أقلقه هو وصافو مع أنه نسيهما خلال حفلة الزفاف .

وكانت الحديقة قائمة على تل صناعى وتشرف على السهل الذى بأسفلها وكانت مياه الفيضان تعلوه . وكان يرى على سطح الماء الهادئ زهر اللوتس ما بين أزرق وأبيض ، وكانت طيور الماء من مختلف الأنواع تطير أو تحط رحلها على قمم النخيل ثم تطير ثانية وهى تتناغى . وبدا فى اليم شراع سفينة ، وكانت العاصفة قد خفضت الحرارة فسرى هواء عليل منعش . وعلى الرغم من هذه الساعة المبكرة فقد كان يوجد عدد من القوارب تطفو فوق أرض الحقول الغدقة بالماء تدفعها ريح الصباح . وقد ساعدت أغانى البحارة وأصوات المجاذيف وتناغى الطيور على وجود نوع من الحياة فى هذا البساط المائى المنبسط على وادى النيل .

ووقف كل من بردية وصافو متأبطين وهما يطلان من فوق سور الحديقة يتبادلان رقيق الكلام وشهيه ويستمتعان بالمنظر الجميل الممتد أمامهما . واذا ببردية يدرك ببصره شراع ذلك القارب القادم نحو الدار مباشرة مسرعاً فى السير يساعده على ذلك نسيم الصبح وقوة المجذفين .

وبعد بضع دقائق رسا القارب على الشاطئ ووقف أمامه زوبيروس ومنقذاه . ونجحت خطة دارا تماماً . وشكراً للعاصفة الشديدة التى بمجيئها على غير انتظار أفزعت المصريين فأووا الى دورهم . ولم يكن هناك من الوقت ما يضيعونه ، اذ من الجائز أن رجال سايس يقتفون أثر الهاربين بكل ما لديهم من الوسائل .

ولذلك كان على صافو أن تودع جدتها ، وكان الوداع على قصره رقيقاً لطيفاً . ثم قادها بردية وتبعتها مليتا ، وقد اختيرت لمرافقتها الى فارس، الى سفينة سيلوسون وبعد مسيرة ساعة وصلوا الى سفينة أخرى جميلة البناء سريعة السير ، هى السفينة المسماة هيجيا ، وهى سفينة كالياس .

وكان هذا ينتظرهم على ظهرها . فودع صحبه الفتيان وداعاً رقيقاً ، وعلق بردية بعنق ذلك الشيخ سلسلة ذهبية كبيرة الوزن غالية الثمن ، اعترافاً بجميله وفضله ، فى حين رمى سيلوسون بعباءته الارجوانية على كتفى دارا ذكرى للاخطار التى تعرضا

لها سوياً . وكان صباغ هـذه العباءة خير ما أخرجته بلدة صور . وقد أعجب بها دارا أيما اعجاب ، فقبـل الهدية وقال وهو يسلم عليه « لا تنس يا صديقي الاغريقي انني مدين لك ، واني لأرجو أن تهيأ لي الفرصة التي أرد لك فيها هذه اليد . »

وقال زو بيروس وقد عانق منقذه « بل يجب أن تأتي الى أولا لأني مستعد أن أقاسمك آخر فلس أملكه وأقضي لأجلك أسبوعاً كاملا في ذلك الوكر اللعين الذي أخرجتني منه . انهم يرفعون المرساة . فالى الملتقى أيها الاغريقي الشجاع . وداعاً . واذكرني عند بائعات الزهور وعلى الاخص استفانيون الصغيرة الجميلة . قل لها ان ذلك الرجل الطويل الساقين المفتون بها لن يضايقها مدة ليست بقصيرة : ثم اليك كيس النقود الذهبية هـذا . أعطه لاسرة ذلك الفتى الفضولي الذي لطمته لطمة شديدة أثناء العراك . »

ثم أكمل رفع المرساة ، وملأت الريح الشرع ، و بدأ أحد البحارة يصفر بنايه صفيراً سرمدي النسق هو صفير غنوة الجذاف ، وكان الصدى يتردد من عنبر السفينة . ووقف كل من بردية وصافو عند خيزرانة السفينة ينظران صوب نقراتس حتى غابت عن نظرهما ضفاف النيل ، وانبثقت رغوة الميـاه الخضراء ، مياه البحر الهيليني ، وتناثرت فوق سطح السفينة .

الفصل الثامن والعشرون

القتال

ما كاد يصل العروسان فى سفرهما مدينة افيسوس حتى بلغهما نعىُّ أماسيس . وغادرا افيسوس الى بابل ومن ثم الى باسارجاد حيث أقام فيها مؤقتاً كل من كاساندين وآتوسا وكريسوس . وكانت كاساندين قد اعتزمت أن ترافق الجيش الزاحف على مصر ، فرغبت ، قبل ذلك السفر الطويل و بعد أن رد نبنخارى اليها بصرها ، أن ترى الأثر الجليل الذى أقيم تذكاراً لزوجهـا العظيم والذى وضع كريسوس رسمه . ولقد سرها من هذا الاثر ما وجدت فيه من جلال وروعة خليقين بكورش الكبير . وهناك فى الحدائق الجميلة القائمة حول هذا الأثر المشتمل على رفات كورش كانت تقضى كل يوم شطراً كبيراً من الوقت .

ويُحتوى ضريح كورش على ناووس كبير مصنوع من قطع الرخام الصلبة ، وهو موطد كالبيت على بناء آخر سفلى مكون من سلم رخامى ذى ست درجات عاليـة . أما داخله فكان أشبه شيء بحجرة تشتمل ، عدا التابوت الذهبى الذى وضعت فيـه بقايا جثـة كورش المتخلفة بعد نهش الـكلاب والصقور وفعل العناصر ، على سرير وخوان فضيين ، وكان فوق الخوان كؤوس من ذهب وأردية عديدة محلاة بأجمل الحلى ومزدانة بأثمن اللآلئ وأندرها .

ويبلغ ارتفاع البناء أربعين قدماً ، وحوله الحدائق الغناء الظليلة وما يحيط بها من عمد مقنطرة نسقها كريسوس . أما فى وسط الأيكة المقدسة فقـد أعد مكان لسكنى المجوس المعينين لحراسة الضريح والمحافظة عليه .

وكان يرى من بعيد قصر كورش الذى ابتنـاه وأمر بأن تقيم فيه ملوك فارس المتعاقبون بضع شهور من كل عام . وكان هذا البناء الفخم ، الذى يحاكى القلعة فى حصانته والذى يعز مناله على كل مقتحم ، يشتمل على خزائن الدولة .

وشعرت كاساندين بالراحة والطمأنينة فى هذا الهواء الطلق ، وبالقرب من الاثر

المقام ذكرى لزوجها الذى أحبته كثيراً . ولقد سرها أن رأت آتوسا قد استعادت سرورها الماضى ومرحها السابق ، وكانت قد فقدتهما منذ وفاة نايتيتس وسفر دارا وما أسرع ما تمكنت عرى المحبة والصداقة بين صافو و بين أمها وأختها الجديدتين. ولقد أمض الثلاث اضطرارهن لمغادرة باسارجاد الجميلة .

و بقى دارا وزو بيروس مع الجيش الذى كان يتجمع فى سهول الفرات ، وكان على بردية أن ينضم الى الجيش قبل البدء فى السير .

وخرج قمبيز لملاقاة أسرته عند عودتها فأدهشه جمال صافو ، فى حين انها باحت لزوجها أن أخاه قد بعث فى قلبها الرعب والفزع .

ولقد تغير الملك كثيراً خلال الشهور الاخيرة ، فاحمرت وجنتاه المصفرتين ، وأتلفت الخمر ملامحه النبيلة ، ولم يبق له الا ذلك الشرر الذى كان يتطاير من عينيه السوداوين ، وان كان قد انطفأ وهجه وخبا قبسه . أما شعر رأسه ولحيته الكثيف الشديد السواد فقد أغبر وتدلى على وجهه وذقنه فى غير انتظام . وأما تلك الابتسامة الصلفة التى كانت تزين وجهه وملامحه فقد اختفت ، و بدت بدلا منها ملامح تدل على الضجر المذل والقسوة الشديدة .

وكان يضحك ضحك شراسة وتوحش حين تكون الخمر قد لعبت برأسه ، وأصبح ذلك من عاداته .

وظل هاجراً نساءه ومغلقاً على حرمه فى سوسا مع أن رجال حاشيته قد استصحبوا معهم فى الحملة على مصر أحب زوجاتهم وسراريهم اليهم . ولكنه حتى ذلك الوقت لم يدع لأحد أن يشكو أو يتذمر من حكم يجريه ، فما حاد عن الحق وما طغى وما بغى بل انه كان يلصق أكثر من ذى قبل بتنفيذ القانون ، فاذا ما رأى اخلالا به أنزل بالمذنب أقسى أنواع العقوبات وأشدها . ولقد بلغه ذات يوم أن قاضياً يدعى سيسامنيس قد قضى ظلماً فى دعوى لرشوة باهظة قبلها فأمر فى الحال بسلخ جلده ، وأن يغطى به كرسى القضاء . ثم دعا ابن ذلك القاضى ، وأقامه قاضياً مكان أبيه الخالى ، وأكرهه على الجلوس فى ذلك الكرسى المخيف المفزع . ولم تهن لقمبيز عزيمة فى استعراض جنده فى سهول بابل بشدة و يقظة حيرتا العقول .

وقد أصدر أمره للجيش بالسير بعد عيد رأس السنة (فى شهر مارس) الذى أسرف قمبيز فى الاحتفال به كل اسراف . فما كاد الحفل ينتهى حتى ذهب بنفسه الى الجيش ، فلقيه بردية فرحاً مسروراً وقبّل طرف ثوبه وبشره بانه عما قليل سيكون أباً فهال الملك هذا النبأ ووجم لا يحير جوابا . وأكثر فى تلك الليلة من الشراب حتى فقد الحس . وفى الصباح بعث فى طلب العرافين والمجوس والكلدانيين وقال لهم « قلتم لى فى تفسيركم رؤياى السابقة ان آتوسا سوف تلد ملكا على هذه الامة ، فهل أخطأ الى الآلهة ان انا اتخذت من أختى زوجاً فأحقق الرؤيا ؟ »

فتشاور المجوس قليلا وبعدها سجد أوروباست عند قدمى الملك وقال « لسنا نعتقد أيها الملك أن مثل هذا الزواج خطيئة ، وذلك لأمرين : أولهما أن من عادة الفرس أن يتزوجوا من أقرب قريباتهم ، وثانياً لأنه مع عدم وجود نص فى الشريعة عن زواج الرجل الطاهر من أخته ، يوجد نص يخول الملك أن يعمل كل ما يبدو له صالحا فى عينيه . وعلى ذلك فكل ما يسرك ويرضيك يا مولاى شرعى قانونى . »

فصرف قمبيز عنه المجوس مثقلين بالمنح والهبات ، ومنح أوروباست براءة الولاية والحكم مدة غيابه ، ثم أسرع الى أمه وأخبرها باعتزامه الزواج من أخته بعد فتح مصر وانزال العقاب بابن أماسيس . ففزعت للأمر أيما فزع .

وأخيراً بدأ ذلك الجيش الجرار مسيره مقسوماً فرقاً وكتائب وكان أكثر من ثمانى مائة الف مقاتل ، فبلغ بعد مسيرة شهرين بادية سوريا . وهناك انضمت اليه قبائل العرب الرحالة من العمالقة والجشوريين الذين ترضاهم فانيس وجاءوا معهم بالجمال والخيل لتحمل الماء للجيش .

وعند عكا فى أرض الكنعانيين تجمعت أساطيل السوريين والفينيقيين والأيونيين الخاضعين للفرس والسفن المساعدة من قبرص وساموس ، وكل ذلك بمساعى فانيس . ولقد كان أمر العمارة الساميــة عجباً . ذلك أن بوليقراط وجد فى مشروع قمبيز فرصة ثمينة للتخلص من مواطنيه المعارضين له ولحكومته ، فحمل أربعين سفينة من سفنه بثمانية آلاف منهم وأرسلهم الى الفرس ، سائلا قمبيز أن يحول جهده دون رجوع واحد من هؤلاء الثمانية آلاف .

واذ سمع فانيس ذلك حذر هؤلاء القوم المراد بهم هذا الشر ، فبدلا من أن يبحروا لينضموا الى الجيوش الفارسية عادوا الى ساموس وسعوا فى اسقاط بوليقراط وخلعه ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ودارت عليهم الدائرة ، ففروا الى اسبرطة يطلبون النجدة ضد الطاغية :

وقبل فيضان النيل بشهر كامل التقى الجيشان الفارسى والمصرى بالقرب من بيلوزه فى الشمال الشرقى من الدلتا .

وأسفرت خطة فانيس عن نجاح عظيم ، فقد حافظت قبائل العربان على عهدها الذى قطعته معه ، فاخترقت الجيوش الصحراء القاحلة دون خسائر تذكر ، ولولا مساعدة العربان لكلفهم ذلك أرواحا كثيرة . ولقد وفقوا لاختيار أحسن الأوقات ملاءمة لدخول الفرس مصر على اليبس دون عائق أو مشقة .

واستقبل الملك صديقه الأغريقى بكل اجلال وترحيب ، وانفض رأسه له موافقاً معجباً لما قال فانيس له « علمت أنك يا مولاى صرت أقل بشاشة عن المعتاد منذ وفاة عروسك الحسناء .ولقد تقضى المرأة حزنها وهى تشكو مر الشكوى وشديدها ولكن سلوى الرجل الشديد المراس ان تكون سريعة . انى أقدر يا مولاى شعورك قدره ، لانى أنا أيضاً فقدت أعز عزيز لدىّ ، غيرأن الواجب علينا مع ذلك أن نشكر الآلهة لمنحها ايانا خير علاج لحزننا — وهو الحرب والانتقام . »

وصحب فانيس الملك فى تفقده للجند ثم فى قصف المساء . وكان من المدهش رؤية مبلغ تأثير فانيس فى نفس قمبيز الشديدة القاسية ، اذ كانت تهدأ ثائرته لدى اقتراب الأثينى منه بل ويسرى عنه .

وكان الجيش المصرى ضئيلا اذا قورن بجيوش الفرس الجرارة . وكان يحميه من جهة اليمين قلاع بياوزة وأسوارها التى أقامها ملوك مصر على الحدود فى هذه الجهة لصد غارات الامم الشرقية . وقد أكد العربان للفرس أن الجيش المصرى يقرب مجموعه من ستمائة الف مقاتل . وكان تحت لواء بسامتك عدا عجلات الحرب الكثيرة العدد ثلاثون ألفاً من مرتزقة الكاريين والأيونيين ، وفرقة المازاى ، وهم نوع من الشرطة يتألف جزء منهم من الاجانب وظيفتهم حراسة أسرى الحرب وما الى ذلك

من الأعمال ، ومائتان وخمسون الفاً من حملة القسى والنبال ، ومائة وستون الفا من ذوات المآزر ، وعشرون ألفـا من الفرسان ، والاحتياطى ويبلغ عدد رجاله خمسين ألفاً . وكان بين الأخيرين جماعة البرابرة الليبيين المشهورين بمهارتهم فى الحروب ، وما تجمع من الاثيوبيين .

وكان المشاة مقسمين الى جماعات تحت أمرة ألوية مختلفـة مسلحين بمختلف الاسلحة . أما الجند المدججون بالسلاح فكانوا مدّرعين يحملون حرابا ومدى . أما حملة السيوف والفؤوس فكانوا مدّرعين أيضاً وانما بدروع أخف من الأولى ، وكانوا يحملون هراوات خفيفة . وبجانب اولاء وقف الرماة بالمقلاع والمنجنيق . أما الجزء الرئيسى من الجيش فكان من حملة القسى التى يبلغ طول القوس منها ، وهو غير منثن ، طول الرجل . ولم يكن على الفرسان من لبـاس سوى المئزر . أما أسلحتهم فكانت المناجل والفؤوس . وأما أولئـك المقاتلة من طبقة الاشراف وأمراء الجيش فكانوا يخوضون المعارك وهم فى مركبات من ذات العجلتين ، وكان هؤلاء يبذلون مبالغ على تزيين مركباتهم وسروج خيلهم المطهمة . فلا يذهبون للقتال الا وهم فى أحسن زينة وأثمنها .

ولم تكن مشاة الفرس تزيد كثيراً عن مشاة مصر ، ولكن فرسانهم كانوا سـتة أمثال فرسان المصريين .

واذا وقف الجيشان متقابلين أمر قمبيز أن يقتلع الشجر والحسك من سهل بياوزه الكبير ، وأن تزال الكثبان الرملية التى كانت ترى مبعثرة هنا وهناك ، كى يتسع المجال أمام فرقة الفرسان وأمام مركبات المناجل . وقد أفادت معرفة فانيس بالبلاد أكبر فائدة . وقد رسم خطة للسير على مقتضاها تنبئ عن مهارة حربية فائقة ونجح لا فى اكتساب موافقة قمبيز عليهـا فحسب ، بل وموافقة القـائد المحنك ميجابيزوس وخير رجالات الحرب الاخيمينيين . وكانت معرفته بالمكان ذات أهمية عظمى ، فاجتنب المستنقعات الموجودة فى سهـل بياوزه والتى قد تكون خطراً على الفرس . وفى ختام مجلس الحرب الذى عقده قمبيز طلب فانيس الكلام ، فأذن له ، فقال « الآن وقد انتهيتم من كل شىء فانى مدل اليكم بما يزيل دهشتكم من تلك

العجلات المغلقة الملأى بالحيوانات التى جئت بها الى هنا . انها تتضمن خمسة آلاف هر . نعم لكم أن تضحكوا ولكنى أقول لكم ان هـذه الحيوانات ستكون أنفع لكم من مائة الف من خيرة جنودكم . ان كثيراً منكم يعرفون معتقدات المصريين وايثارهم الموت على قتـل هر واحد . وأنا نفسى كنت على وشك أن أدفع حياتى ثمنـاً لمثل ذلك الشىء التافه . فلما تذكرت معتقدهم هذا سعيت فى جمع ما استطعت جمعه منها من جميع الاماكن التى ذهبت اليها — من قبرص حيث يوجد انواع عديدة فخمة ومن ساموس وكريت . وأرى أن توزع هذه الهررة على طليعة الجيوش التى تصادم المصريين ، ويؤمر كل جندى أن يعلق هراً بدرعه وأن يرفعه على مرأى من الاعداء اذا ما تقدم نحوهم . وانى اراهن على انه لا يوجد مصرى صميم الا وينكص من ساحة الوغى ، كى لا يقتل واحدا من هذه الحيوانات المقدسة . »

فأوغل الجميع فى الضحك ، ووافقوا عليها ، وصدر الأمر باجرائها فى الحال . اما الاغريقى اللبق فقد شرفه الملك بان مد اليـه يده لكى يحظى بتقبيلها . وأما الا كلاف التى تكبدها فقد استعاض عنها بالهدايا الفاخرة التى قدمت اليه ، وقد أرغم على أن يتزوج من نبيلة فارسية . وانتهى الامر بان دعاه الملك للعشاء معه . ولكن الأثينى اعتـذر بحجة أنه لا بد له أن يستعرض الفصائل الأيونية فى الجيش فان معرفته بهم قليلة ، ثم انسحب من المجلس .

وعند باب خيمته وجد عجوزاً رث الهيئة قذر الملبس غير حليق الذقن يلح فى مخاطبـة سيدهم . فظن فانيس انه أحد المتسولة فرمى له بقطعة من النقود الذهبية ، فلم يعبأ بها وأمسك بعباءة فانيس وصاح به « انى ارسطوماكس السبرطى . »

فتبين فانيس صديقه القديم وعرفه رغم ما بدا عليه من تغير شديد ، وأمر أن تغسل رجلاه ويسوى شعره ويدهن بالطيب ، وأمر له بخمر وطعام من لحم كى يستعيد قواه . وخلع عنـه أثوابه الباليـة والبسه جديدا غيرها . وكان جسمه مهزولا ناحلا ولكن لا زالت تبدو عليه علامات النشاط والقوة .

وتقبل ارسطوماكس كل شىء وهو صامت . ولما ان بعث فيه الطعام والشراب القدرة على الكلام . قص على صديقه المتلهف على تعرف اخباره ما حدث له قال

« بعد أن قتل بسامتك ابنك أنذرته بعزمى على ترك الجند واغرائى الجنـد الذين تحت امرتى أن يهجوا نهجى ، الا اذا أطلق سراح ابنتـك فى الحال ، وأن ينشر بياناً وافياً عن اختفاء الولد ذلك الاختفاء الفجائى . فوعد بسامتك أن ينظر فى الامر و بعد ذلك بيومين حينما كنت أسير ليلا بقاربى فى النيل قاصداً منف قبض علىّ جند مصريون ، وشدوا وثاقى ، ورمونى فى جوف سفينة سارت بى ليالى وأياما الى أن رست على شاطئ أجهله . ثم أخرج المسجونون منهـا وسيقوا فى الصحراء تحت وهج الشمس مارين بين صخور غريبة التكوين حتى وصاوا الى سلسلة جبال ، يوجد عند سفحها جمع من الاكواخ . وبهذه الاكواخ ناس يخرجون منها صباحاوالاغلال فى أعناقهم ، ويساقون قهراً الى منجم هناك حيث يرغمون على نحت الذهب من الصخور الصم . وكثيرون من اولئك التعساء قضوا أربعين سنة هناك ، غير أن كثيرين أيضاً قد ماتوا من شدة الاعنات والارهاق فى تلك الاشغال الشاقة معرضين لحر الصيف وبرد الشتاء . »

« وكان بعض رفاقى من القتلة السفاكين قد استبدل حكم الاعدام عليهم بالاشغال الشاقة ، و بعضهم خونة قطعت ألسنتهم ، ورجالا نظيرى يخاف الملك جانبهم لسبب من الأسباب . وقضيت فى منفاى هذا ثلاثة أشهر أجلد من نظار العمل حتى يغشى علىّ ، فاتقلب نهارى على نار الشمس كالشواء ، وأكاد أموت ليلى من شدة البرد فى العراء ، وأدركت أنهم جاءوا بى الى هذا المكان لكى أقضى نحبى فيه . ولـكن لم يبعثنى من جديد للحياة الا أملى فى الانتقـام والأخذ بثأرى . فحدث ان قد رضيت الآلهة عنى ، وأفرط حراسنا المصريون من الشراب فى عيد المعبودة باخت ، فتثقلوا بنوم عميق استطعت خلاله أن أهرب مع فتى يهودى قطعت يده اليمنى لاستعماله موازين ومكاييل مغشوشة . ولم يشعر بفرارنا أحد . ولقـد ساعدنا زيوس فى هذه الشدة ، نخيب آمال مطاردينا الذين كنا نسمع أصواتهم . وكنت أخذت قوساً من أحد الحراس ، وبها استطعنا الحصول على الطعام . ولما لم نكن نجد طيراً أو حيواناً بريا نصطاده كنا نقتات بجذور بعض الأشجار والثمار وبيض الطيور . وكان دليلنا فى مسيرنا الشمس نهاراً والكواكب ليلا . وعرفنا أن مناجم الذهب هذه لا تبعد

عن البحر الأحمر وانها فى جنوب منف . ولم يمض علينا زمن طويل حتى وصلنا الى الشاطئ ومن ثم تابعنا السير فى اتجاه شمالى فقابلنا بعض البحارة الذين اكرموا مثوانا واستصحبونا معهم حتى توفق لنا المجىء الى عصيون جابر Eziongeber فى أرض ادوم Edom ، وهناك سمعنا أن قمبيز جاء بجيش جرار على مصر ، وانه قد وصل فى مسيره الى حرمة Harma مع قوافل العمالقة الذين مدوا الجيش بالماء . ومن ثم ذهبت الى بياوزة مع بعض الرحالة الشاردين من الجيش الاسيوى ، وكانوا يركبوننى بين آن وآخر ظهر جواد . وهنا سمعت أنك قبلت وظيفة عالية فى جيش قمبيز . لقد احتفظت بنذرى ، وكنت أمينا لليونان فى مصر ، فبقى عليك أن تساعد أخاك أرسطوماكس الشيخ كى يحصل على أمنيته الوحيدة وهى الانتقام من ظالميه . »

قال فانيس ضاغطا على يده « سيكون لك ما طلبت . سوف أوليك قيادة الجيش الميليسى المدجج بالسلاح لتفنك بصفوف أعدائك ما شئت ، وذلك مقابل نصف الدين الذى علىّ لك . وانى أشكر للآلهة أن مكنتنى من أن أهيئ لك بجملة واحدة بعض أسباب العزاء . فاعلم اذن يا ارسطوماكس أنه بعد اختفائك من مصر بأيام قليلة وصلت الى ميناء نقراتس سفينة سبرطية بقيادة ابنك الباسل أرسله مجلس الايفورى Ephori ، وهو مجلس القضاة النبلاء ، كى يعود بأبى بطلى الالعاب الأولمبية الى وطنه مكرما منصوراً . »

فأخذت ذلك الشيخ قشعريرة لدى سماعه هذه الكلمات وغصت عيناه بالدموع ، ثم تلا صلاة قصيرة بصوت منخفض ضرب بعدها جبهته وقال بصوت مرتجف « لقد صدقت النبؤة وأصبحت حقيقة واقعة . عفوك يا آبولون وسامحنى على ارتيابى فى صدق نبؤة كاهنتك ، فماذا قالت فى وحيها ؟

« انه يوم يجئ المقاتلة بجموعهم من فوق الجبال المكسوة قممها بالثلوج ، وينحدرون الى الحقول التى تجرى فيها مياه النهر فتغدق السهل الفسيح ريا وسقيا ، فحينئذ يحملك الزورق بعد طول تمهله وابطائه الى تلك المراعى والرياض حيث يلقى الراحل الجوال الراحة والسلام ، وحيث يجد له وطنا يقيم فيه . وانه متى جاءك أولئك المقاتلة هابطين من تلك الجبال المكسوة قممها بالثلوج ، فحينئذ تمنحك الخمسة الاقوياء ما طالما أبته عليك . »

« وها قد تم وعد الاله ، وقد بات رجوعى ممكنا وسأعود . غير أنى أرفع يدى

قبل كل شيء الى الهة العدل المعبودة دكى Dikee ضارعاً أن لا تحرمنى من لذة الانتقام . »

قال فانيس مشاركا صاحبه فى ضراعته « ان يوم الانتقام سينبلج فجره غداً ، وغداً سأشبع القوم ذبحاً وتقتيلا فأثأر لابنى الذبيح ، ولن أذوق للراحة طعماً الا بعد أن يطعن قمبيز قلب مصر بالسهام التى أعددتها له . تعال يا صاحبى لآخذك الى الملك فان واحداً مثلك يستطيع ملاقاة جيش مصرى بأكمله فيجعله يمعن فى الفرار . »

* * *

وكان الوقت ليلا . وكان الجيش الفارسى متأهباً للحرب مستعداً لصد أى هجوم فجائى وذلك لعدم تحصين مركزه . فكان المشاة لابسين دروعهم ، وكان الفرسان مسرجين خيولهم . وجاس قمبيز خلال الصفوف راكباً جواده ومشجعاً جنده بالقول والنظر . ولم يكن غير قسم واحد من الجيش لم ينتظم بعد للحرب — وهو القلب الذى يتألف من فرقة الحرس وحملة العصى الطويلة ذات الرؤوس التفاحية وفرقة الخوالد وأقارب الملك الذين كان الملك يقودهم بنفسه فى الحروب .

وأمر فانيس الجند الاغريق أن يناموا . أراد بذلك أن يحتفظ بهم أقوياء نشطين ، فسمح لهم أن يناموا بأسلحتهم فى حين ظل هو ساهراً . واستقبل الاغريق أرسطوماكس بهتاف كالرعد ، واستقبله قمبيز بالترحاب وخصه برآسة نصف الجند الاغريق وجعل موقفه هو وجنده عن يسار القلب ، أما فانيس فخصه برآسة النصف الآخر وأوقفه فى الميمنة . وأما الملك نفسه فكانت له القيادة العامة ووقف على رأس فرقة الخوالد ، وعدد رجالها عشرة آلاف ، يتقدمه العلم الملكى المثلث الالوان الازرق والأحمر والذهبى ولواء كيو (١) Kawe وأما بردية فقد وكلت اليه قيادة فرسان الحرس الملكى وعددهم ألف وكذلك فرقة الفرسان المدرعين بالزرد من أخماصهم الى رؤوسهم

أما كريسوس فقد استلم قيادة فرقة الجند المقامة على حراسة ما فى المعسكر من المؤن والذخائر ، والمحافظة على نساء الاشراف وعلى أم الملك وأخته .

---

(١) يقول الفردوسى انه كان يتألف من المئزر الجلدى الذى كان يلبسه الحداد الشجاع الذى أثار الامة — كما جاء فى احدى الاساطير الفارسية — ضد جماعة الزحاك Zohaks وساعد فريدون Feridun على طردهم .

وأخيراً ظهر مثرا (الشمس) وانتشر ضوءه على الارض ، وأوت شياطين الليل الى مآويها ، وأضرم المجوس النار المقدسة التى كانوا يتقدمون بها الجيش طول الطريق من بابل الى مصر ، وأذكوها حتى صارت عظيمة اللهب . واشترك الملك معهم فى اطعامها العطور الثمينة ، وقدم قميز الذبيحة وهو رافع فى الهواء قصعة ذهبية ، ضارعاً الى الآلهة أن تمنحه النصر والمجد . ثم أعطى العساكر الكلمة المصطلح عليها للقتال وهى « أورامزدا المساعد والهادى » ووقف على مقدمة الحرس الذاهبين الى الحرب وعلى رؤوسهم العمائم وأكاليل الغار . وذبح الاغريق الذبائح أيضاً وهتفوا هتاف الفرح لدى سماعهم الكهنة وهم يعلنون أن وحى الآلهة يبشر بالظفر ، وكانت صيحة الحرب المصطلح عليها عندهم هى « هيبى Hebe »

وفى هذه الأثناء افتتح الكهنة المصريون يومهم بالصلاة وتقديم الذبائح واصطف جيشهم للقتال .

أما بسامتك ، وهو اليوم ملك مصر ، فكان يقود جيش القلب فى عجلة ذهبية تجرها جياد سيورها من ذهب وأرجوان وفوق رؤوسها ريش النعام . ولبس التاج المزدوج ، تاج الوجهين البحرى والقبلى ، ووقف عن يساره سائق عجلته ممسكا بالسوط والاعنة ، وكان هذا السائق من أعرق نبلاء المصريين .

ووقف عن يسار القلب المرتزقة من الجند الكارية والهلينية ، ووقف الفرسان عند الجناحين ، أما المشاة من المصريين والاثيوبيين فقد صفوا ستة صفوف عن يمين ويسار العجلات المسلحة والمرتزقة من الجند الاغريقية .

وجعل بسامتك يطوف فى الصفوف مشجعاً جنده بكل كلمات التشجيع والملاطفة فلما أن وصل أمام القسم الاغريقى وقف يخطبهم قال « يا أبطال قبرص وليبيا . انى اعرف بلاءكم الحسن فى الحروب ، وانى ليسرنى مجرد التفكير فى مقاسمتكم مجدكم اليوم وتتويج رؤوسكم بأكاليل نصر جديدة . ولا تخشوا أنى يوم الانتصار أغمط فضلكم وانتقص من حقوقكم وحرياتكم . نعم لقد تقول الواشون وهمست قالة السوء بأن ذلك منتهى أمرى معكم وغاية ما تنالونه منى . ألا خسئ الوشاة الكاذبون . اننى أعدكم وعداً صادقاً أنه اذا تم لنا النصر منحتكم منحاً جديدة تتمتعون بها أنتم وأبناؤكم

وأحفادكم . وسوف أدعوكم دعائم عرشي وعمد ملكي . واعلموا انكم اليوم لا تجاهدون في سبيلي فقط بل في سبيل حرية بلادكم النائية . وانه لمن السهل أن تدركوا أن قمبيز ان ظفر بمصر فهو سيمد يده الطامعة السلابة الى هيلاس الجميلة والى جزرها . وأراني في حاجة لتذكيركم أن هيلاس وجزرها هي الفاصل بين مصر وبين اخوان لكم في آسيا يرزحون تحت النير الفارسي . وهتافكم الآن يدلني على انكم متفقون معي ، ولكنني أراني مضطراً لسؤالكم الاصغاء الى" فترة أخرى . ان من واجبي أن أخبركم باسم الرجل الذي لم يبع مصر وحدها بل باع بلاده أيضاً لملك فارس مقابل المال الوفير والذهب النضير . انه فانيس ! أراكم استأتم فهل تشكون في ذلك ؟ أقسم لكم انه فانيس بعينه . فقد تقبل ذهب قمبيز وءالاءه لا على مصر وحدها فحسب ليكون دليله ومرشده في غزوها بل وعده أيضاً أن يفتح له بيديه أبواب بلاد الأغريق . فهو يعرف البلد والشعب ، ويقبل الرشوة ليأتي بكل ما ينطوي على الخيانة والغدر . أنظروا اليه تجدوه هناك يمشي الخيلاء بجوار الملك . أنظروا اليه كيف ينحني أمامه ويجثو على الثرى عند قدميه . سمعت مرة أن الاغريق لا يجثون لغير آلهتهم ، ولكن من يبيع وطنه يكون قد طلق وطنيته . ألست محقاً ؟ انكم تنفرون بالطبع أن يكون هذا أحد مواطنيكم ؟ أراكم توافقونني . اذن سأسلمكم ابنة ذلك الشقي الاثيم الخائن فافعلوا بها ما شئتم . ولكم أن تزينوها بالورد وأن تخروا لها ساجدين ، ان كان في ذلك ما يسركم ويرضيكم ، ولكن لا تنسوا أنها ابنة رجل شان اسم بلاده هيلين ، وخان وطنه ومواطنيه . »

فلما أن أتم كلامه صاح القوم غاضبين وتدافعوا نحو الطفلة المرتعدة ، فرفعها جندي بيده لكي يراها أبوها ويرى ما سينزل بها ، وكانت المسافة بين الجيشين لا تتعدى مرمى السهم . وفي نفس تلك اللحظة ناداه مصري اشتهر فيما بعد بجهورة الصوت قائلا « أنظر أيها الأثيني كيف يكون جزاء الخيانة والرشوة في هذه البلاد . » ثم أخذ أحد السكاريين طاسة كانت قد أترعت له ولرفقائه من خمرة جاد بها الملك عليهم لاسكارهم ، وأغمد سيفه في صدر تلك الطفلة البريئة ، وجعل دمها يسيل فيسقط في تلك الطاسة . ثم ملأ كأساً من ذلك المزيج الدموي المخيف ، وجرعها دفعة واحدة

كأنما يشرب نخب ذلك الوالد التعيس . ووقف فانيس يرقب بسكون ما يجرى ، وكأنه استحال حجراً صلداً . وانقض بقية الجند على الطاسة كالمجانين يتنازعون شرب ما فيها ، ولم تكن الوحوش لتشرب هذا الشراب الفاسد بأكثر من هؤلاء شغفاً وتعطشاً .(١)

وفى تلك اللحظة أطلق بسامتك متشفياً أول سهم على صفوف الفرس . فطرح الجند المرتزقة جثة الطفلة على الأرض ، وأنشدوا نشيدهم الحربى مترنحين من نشوة الخمر والدم ، واندفعوا الى الميدان متقدمين رفاقهم المصريين .

وعندئذ بدأت صفوف الفرس تتحرك ، وقاد فانيس جنده المدججين بالسلاح وهو ثائر ثورة الحزن والغضب وانقض بهم على مواطنيهم وقد شاركوه فى السخط على وحشيتهم ، واقتحم صفوف أولئك الجند الذين لم ين لحظة خلال توليه قيادتهم عشر سنين فى كسب حبهم ورضاهم .

والى ظهر ذلك اليوم كانت كفة المصريين راجحة . ولكن عند الغروب رجحت كفة الفرس ، وما كاد يكتمل ظهور القمر حتى ولى المصريون الأدبار لائذين بالفرار ، فمات البعض منهم غرقاً فى مياه الفيضان وفى النيل الذى كان يجرى وراء مراكزهم ، وبعضهم مات بسيوف الأعداء التى فتكت بهم ومزقتهم شر ممزق .

وبلغ عدد القتلى من الفرس عشرين ألفاً ومن المصريين خمسين ألفاً ، فصبغت دماؤهم الرمال حتى بدت للعين كأنها بحر قان . أما الجرحى والغرقى والأسرى فكان لا يحصرهم عد . وكان بسامتك آخر من ترك ميدان القتال ، تمكن من النجاة على جواد كريم يتبعه بعض ألوف من عساكره الامناء عبروا معه النيل ، ومن ثم الى منف وهى مدينة الاهرام الحصينة .

ولم يبق من مرتزقة الاغريق الا قليل ، فقد كان انتقام فانيس هائلا مروعاً ساعده عليه الايونيون خير مساعدة . وأسر من الكاريين عشرة آلاف كان من بينهم قاتل ابنته ، وقد قتله فانيس بيده .

---

(١) ذكر هيرودوت فى تاريخه تلك الحادثة المروعة .

وأتى ارسطوماكس أيضاً بالعجب العجاب رغم ساقه الخشبية . لكنه مع ذلك كله لم يتمكن هو ولا غيره من المتطلعين لنفس انتقامه من أسر بساماتك .

ولما انتهت المعركة عاد الفرس ظافرين الى خيامهم ، وهنـاك رحب بمقدمهم كريسوس وباقى الجند والـكهنة الذين كانوا فى المؤخرة ، واجتمعوا للصلاة والذبائح احتفالا بذلك النصر المجيد .

وفى صباح اليوم التالى عقد قمبيز مجلساً ضم أمراء جيشه . وهناك منحهم منحاً مختلفة من أثواب ثمينة ، وسلاسل من ذهب وخواتم وسيوف ونجوم من حجارة كريمة . أما الجند ففرق عليهم المال ، ونثر الفضة والذهب .

وكان هجوم المصريين موجهـاً على الخصوص نحو قلب الجيش الفارسى حيث تسلم قمبيز نفسه القيادة ، وضغطوا على القلب ضغطاً شديداً أوشك الفرس بسببه أن يتقهقروا لولا أن بردية أنجدهم فى تلك اللحظة بفرقة الفرسان ، فشدد عزم الخائرين وحارب بنفسه كالاسد الرئبال . فكفل بشجاعته وسرعته النصر للفرس فى ذلك اليوم .

فحياه الجند فرحين وهتفوا له وسموه « بطل بياوزة » و « غرة أهله الاخيمينيين » فطرق هتافهم اذنى الملك ، فألم له واستاء استياء شديداً ، لأنه مع مخاطرته بحياته فى الهجوم ومحاربته كالأبطال الجبابرة كان وشيك الخذلان لو لم يحقق بردية له النصر وهو ذلك الاخ الذى نكد عليه أيام حبـه الأولى وجاء يسلبه اليوم نصف شهرته الحربية . فأحس قمبيز أنه يكره أخاه ، وانقبضت يده رغماً منـه عند ما رأى هذا البطل الفتى قرير العين نشوان بالنصر الذى أحرزه .

وكان فانيس مضطجعاً فى خيمته جريحاً وبجواره ارسطوماكس راقداً يحتضر وهو يقول لصاحبه بصوت خافت « لقد خدعتنى النبوءة أخيراً ، فها انى أموت دون أن أرى وطنى مرة أخرى . »

قال فانيس « بل انها أصدقتك الخبر . ألم تكن كلمات بيثيا الاخيرة هى :

« يحملك الزورق بعد طول تمهله وابطائه الى تلك المراعى والرياض ، حيث يلقى الراحل الجوال الراحة والسلام ، وحيث يجد له وطناً يقيم فيه . »

« فهل يعسر عليك فهم هـذه الـكلمات ؟ انما هى تقصد قارب شارون البطىء

الذى سوف يحملك الى الدار الاخيرة ، تلك الدار الذى يستريح فيها جميع المتغربين الجوالين — الى العالم الثانى عالم الظلال . »

قال « أصبت يا صديقى فانى ذاهب الى هناك . »

قال « وقد منحك الخمسة ما قد طالما أبته عليك وهو العودة الى لا سيديمون . وعليك أن تحمد للآلهة أنها منحتك مثل ولديك البطلين ، ومثل ذلك الانتقام من أعدائك . ولك علىّ اذا ما برئ جرحى أن أذهب الى بلاد الاغريق وأخبر ابنك أن أباه مات موت الابطال وأنه قد حمل الى قبره على درعه شأن الابطال الشجعان . »

ثم قال « واذا ما وقع بسامتك فى أيدينا فهل أخبره بأنك شاركتنا فى خلعه واسقاطه ؟ »

قال « كلا فقد رآنى بنفسه قبل فراره ، فانه عند ما فجئته رؤيتى سقطت القوس من يده ، فاتخذ رجاله من ذلك اشارة تحثهم على الفرار ، فأداروا أجيادهم من ساحة الحرب وولوا هاربين . »

قال « لقد وعدت الآلهة أهل الخبث أن يكون هلاكهم نتيجة أعمالهم . ولقد أضاع بسامتك شجاعته ، اذ لا بد أن يكون قد اعتقد أن شياطين العالم السفلى أنفسهم يحاربون ضده . »

قال « ولكننا نحن بنى آدم قد كفيناه مؤونة حربهم . ولقد أبلى الفرس فى الحرب بلاء حسناً ، غير أنهم كادوا يخسرون المعركة لو لا فرقة الحرس ولولا جنودنا . »

قال « بلا شك . »

قال « شكراً لك يا زيوس وحمداً . »

قال « أو تصلى ؟ »

قال « انما أنا أشكر الآلهة لكونها سمحت لى أن أموت ميتة هادئة ، وكأنى أموت فى سبيل بلادى . ان هذه الجيوش الغير متجانسة لن تكون قط مصدر خطر على بلاد الاغريق . أيها الطبيب قل لى متى أموت ؟ »

فأشار الطبيب الميليسى الذى رافق الجند الاغريق الى رأس السهم الغائص فى صدره وقال وهو يبتسم ابتسامة الحزن « ليست لك الا ساعات قلائل تقضيها فى

هذه الحياة . على أننى ان نزعت هذا السهم منك لقضيت فى الحال . »

فشكره السبرطى وودع فانيس ، وكلفه أن يحيى عنه رودو بيس ، ثم نزع السهم من صدره بيد ثابتة قبل أن يستطيع أحد منعه . وما هى الا دقائق معدودات حتى كان أرسطوماكس فى عداد المائتين .

* * *

وفى ذلك اليوم ذهب وفد فارسى الى منف على ظهرسفينة لسبية يدعو بسامتك الى التسليم بدون شرط . وانطلق قمبيز فى أثر الوفد بعد أن أرسل الى سايس قسما من جيشه بقيادة ميجابيزوس لكى يستولى عليها .

وفى هليو بوليس قابله وفد من الأغريق سكان نقراتس ، وآخر من ليبيه يسألانه الأمان و يطلبان حمايته ، وقدما له اكليلا من ذهب وهدايا ثمينة . فتلقاهم قمبيز بالبشاشة واللطف مؤكداً حبه لهم ، ولكنه رد وفدى شيرين و برقة ساخطا غاضباً ، وفرق بيده ما قدماه له من المال ، وكان خمسمائة « منا » من الفضة أى نحو ألفى جنيه تقريباً ، مظهراً بذلك احتقاره لمثل هذا المبلغ الزهيد .

وفيما هو هناك بلغه أنه عند اقتراب الوفد من منف هرع سكانها الى الشاطئ ، وثقبوا قاع السفينة المقلة للوفد ، وقطعوا رجاله اربا اربا دون تمييز ، فكانوا فى عملهم كالوحوش حين تفتك باللحم يقدم لها ، ثم حملوا الجثث الى القلعــة . فصاح غاضباً قال « أقسم بمثرا لانتقمن لهؤلاء المقتولين ، ولأقتلن فى كل واحد منهم عشرة . »

و بعــد ذلك بيومين كان قمبيز وجيشه على أبواب منف . وكان الحصار قصير الأمد ، لأن الحامية كانت قليلة بالنسبة للمدينة ، وقدفت فى عضد المصريين الهزيمة المروعة التى نزلت بالجيش المصرى فى بيلوزة .

وخرج الملك بسامتك نفسه الى قمبيز ومعــه كبار الاشراف وقد شقوا الجيوب وعليهم كل شارات الحزن والاكتئاب ، فاستقبله قمبيز بكل برود وجمود ، وأمر جنده أن يقوموا على حراسته هو ومن تبعــه وأن ينقلوا الى مكان آخر . وأحسن معاملة لاديس زوجة أماسيس ، وقد تشفع لها فانيس اذ كثيراً ما كانت تحسن اليه . وسمح لها بالذهاب الى بلدها شيرين مع حامية كبيرة ، وظلت هناك حتى سقوط ابن أخيها

أرسسلاوس الثالث وهروب أختها فيريتيم . وعندئذ ذهبت الى أنتيلا ، وهى مدينة مصرية كانت من أملاكها ، وهناك قضت حياة هادئة ، وماتت بعد أن عمرت طويلا .

ولم يرد قمبيز أن ينتقم لنفسه من امرأة مستضعفة اشتركت فى خديعته والكذب عليه ، بل انه كفارسى أكرم الام اكراما كبيرا فلم يقدم على ايذاء لاديس أى ايذاء .

وفيما هو جاد فى حصار سايس كان بسامتك مسجوناً فى قصر الفراعنة ، وكان يعامل بالاحترام معاملة الملوك ، غير أن الرقابة كانت مضروبة عليه بشدة .

أما نيتحوتب كبير كهنة نيث فقد كان أحد أولئك السادة الذين كانوا يحثون المصريين على المقاومة ، وكان أشدهم حثا واثارة . ولذلك أرسل الى منف ، وهناك سجن مع مائة من رجال طغمته . وفى سايس تقدم لقمبيز عدد كبير من بلاط فرعون خاضعين مبايعين ولقبوه « ابن الشمس » واقترحوا عليه أن ينادى بنفسه ملكا على مصر بقسميها العلوى والسفلى بكل ما تقتضيه المناداة من الطقوس ، وأن يندمج فى طغمة الكهنة وفاقا للعادة القديمة المتبعة . فرضخ قمبيز لذلك غير طائع منصاعا لمشورة كريسوس وفانيس . بل لقد سار شوطاً بعيداً فقدم الضحية لمعبد نيث ، وسمح لكبير الكهنة الجديد أن يدلى اليه بمعلومات أولية عن الاسرار المصرية . وأبقى بجانبه بعض رجال البلاط ، ورقى بعض الموظفين الاداريين الى درجات عالية . ولقد نجح أمير أسطول أماسيس النيلى فى كسب حب الملك ، فعين من ضمن أولئك الذين لهم شرف الجلوس على مائدة الملك . وعند مغادرة سايس وكل قمبيز أمر المدينة للقائد ميجابيزوس . وما كاد الملك يبرح أسوارها حتى هاج حقد المصريين الكمين فقاموا يقتلون الحراس الفارسيين ، ويسممون الآبار ، ويوقدون النار فى اصطبلات فرقة الفرسان . فذهب ميجابيزوس فى الحال الى الملك قائلا ان مثل هذه الأعمال العدائيـة ان لم تقمع بشدة فقد تتلوها ثورة كبيرة وقال « ان الالفين من ابناء الأشراف فى منف الذين حكمت عليهم بالموت نظير قتلهم رسلنا يجب أن يقتلوا فى الحال ، وقد لا ينشأ ضرر اذا أضيف ابن بسامتك الى هذا العدد لانه قد يكون فى يوم من الأيام محور تجمع العصاة وموضع التئام صفوفهم . وقد سمعت أن بنات الملك الخاوع والكاهن الأعظم نيتحوتب يحملون الماء لحامات النبيل فانيس . »

فأجاب الاثيني باسما « لقد سمح لى مولاى قمبيز أن اتخذ من بنـات الاشراف خدما واماء . »

قال قمبيز « ولكنى أحظر عليك أن تمس حيـاة أحد من أفراد البيت المالك بسوء ، فليس يملك حق معاقبة الملوك الا الملوك . »

فانحنى فانيس ، ورد الملك على ميجابيزوس يأمره بقتـل أولئك المسجونين فى اليوم التالى ، ليكون فى قتلهم عظة وعبرة . أما الأمير الصغير فسيقرر الملك له أمراً فيما بعد ، ولكنه على كل حال يجب أن يؤخذ الى مكان الاعدام مع الباقين . وختم حديثـه قال « يجب أن نظهر لهم أننا نعرف كيف نقابل كل اعتداءاتهم واجرامهم بالشدة الكافية . »

وتدخل كريسوس يستشفع للولد البرىء . فقال قمبيز وعلى فمه ابتسامة « هدىء روعك أيها الصديق الشيخ فالصبى لم يمت بعـد ، وربما أخذناه معنا فيعيش كما يعيش ابنك الذى أبلى بلاء حسنا فى واقعة بيلوزة ، انما أردت أن أعرف هل يبدى بسامتك فى مصابه من الجلد والشجاعة ما أبديته أنت منذ خمس وعشرين سنة . »

قال فانيس « هذا سهل ميسور ، فمر يا مولاى باحضاره غدا الى فنـاء القصر فتمر به الأسرى والمحكوم عليهم بالاعدام ، وعندئذ نرى أرجل هو ذو بأس شديد أم جبان رعديد . »

قال قمبـيز « فليكن ذلك وسوف ألاحظه من حيث أرى ولا أرى ، وستكون يا فانيس معى لتذكر لى أسماء الأسرى ورتبهم . »

وفى صباح اليوم التالى استصحب فانيس الملك وذهبا الى طنف يطل على الفناء الكبير للقصر — وهو الفناء الذى مر بنا ذكره وقلنا عنه انه مغروس بالأشجار — واختفيا مصغيين خلف أيكة مزهرة ولكنهما يريان ويسمعان كل شىء تحتهما . رأيا بسامتك يحيط به بعض رجاله السـابقين ، وكان مستنداً الى نخلة ومطرقا اطراق الغم والكدر . فمرت بجانبه ابنته وابنـة نيتحوتب مع فتيات أخر وعليهن جميعهن ثياب الاماء وهن حاملات أباريق الماء . فلما رأين مليكهن بدرت منهن صيحة عالية تكفى لايقاظه من ذهوله . فرفع اليهن نظره وتبينهن واحدة واحدة ثم أطرق ثانية .

ثم رفع رأسه بسرعة وسأل ابنته لمن يحملن الماء . فلما أجابته انها أصبحت أمة فانيس امتقع حتى حاكى الموتى ثم نفض رأسه وصرخ « اذهبن ، اذهبن . »

و بعد بضع دقائق جيء بالأسرى الى الفناء والارسان فى أعناقهم ، واللجم فى أفواههم ، وفى مقدمتهم الأمير الصغير نيخو بن بسامتك . فمد ذراعيه الى أبيه طالبا منه أن يعاقب أولئك الغرباء الارديا الذين يريدون قتله . فذرف المصريون دموع الحزن لدى رؤيتهم ذلك وهم على أسوأ ما يكون من بؤس وضعة ، ولكن بسامتك لم تدمع عيناه بل أطرق وعيناه جافتان وأشار لابنه اشارة الوداع الاخيرة .

و بعد فترة جيء بأسرى سايس و بينهم نيتحوتب الشيخ البالى ، وهو كبير الكهنة السابق وصاحب الحول والطول ، فى ثياب خلقة يمشى الهوينا متكئاً على عصاه . وعند الباب رفع بصره فرأى تلميذه السابق دارا . فاندفع اليه يقص عليه حديث حاجته وسأله المساعدة وختم قوله بطلب الاحسان اليه . فأعطاه بعض النقود فأثار عمله هذا بقية الأخيمينيين الذين كانوا وقوفاً بجانبه فحيوا الرجل الشيخ مازحين ورموا اليه قليلا من قطع النقود . فانحنى على الارض فى مشقة يلتقطها شاكراً لهم صنيعهم .

وعند ذلك علا نحيب بسامتك ولطم وجهه ثم نادى صاحبه بصوت الحزين الملتاع .

فدهش قمبيز لذلك ، وخرج من مخبئه وقال « ألا أفصح لى عن نفسك أيها الرجل الغريب . لقد حركت قلبك كارثات نزلن بمتسول لا يمتّ اليك بصلة نسب ، فأثارت فيك شفقتك عليه ، ثم أنت ترى ابنك يساق الى الموت وابنتك وهى ترسف بقيود الذل وأخلاق الهون ، دون أن تدمع عيناك أو نسمع ندباً تنطق به شفتاك . »

فنظر بسامتك الى قاهره وأجاب « يا ابن كورش ، لقد رأيت مصابى فى أهلى أكبر من دمعة تترقرق ، ورأيت مصاب صديقى جديراً بها ، فقد استحال فى آخر أيامه من أسعد رجل الى أتعس انسان .(١) »

فاستحسن قمبيز جوابه ، والتفت فرأى كريسوس و بردية وجميع الفرس الحاضرين بل وفانيس أيضاً وهو الذى قام بالترجمة للملك ، يشاركونه فى البكاء . فلم يستأ لمظاهر

---

(١) رأى شوقى بك ، أمير الشعراء ، أن يذكر تلك الحادثة فنظمها فى بعض قصائده شعرا قال حفظه الله :

العطف هذه ، بل التفت الى الاثيني وقال « أظننا أيها الاغريقي قد انتقمنا لما نزل بنا . انهض يا بسامتك ، ووطن النفس على قبول ما قدرته عليك الأقدار نظير هذا الشيخ الجليل الواقف هناك . » وأشار الى كريسوس — « لقد أخذت أنت وأهلك بذنب أبيك الذى مكر بى . والتاج الذى انتزعته منك هو التاج الذى حرم أماسيس زوجتى منه — زوجتى نايتيتس التى لن أنساها ما حييت . فلاجلها أثرت هذه الحرب وأوقدت لظاها ، ولأجلها أمنحك اليوم حياة ابنك فقد كانت تحبه . وانك منذ الآن فصاعدا تستطيع أن تعيش فى بلاطى غير منزعج أو مضطرب ، فتأكل على مائدتى وتكون لك ميزات أشراف الفرس ونبلائهم . اذهب يا جيجيز وأحضر الصبى ، فسيربى كما ربيت أنت منذ سنين بين أبناء الاخيمينيين . »

فأسرع الليدى لينفذ ذلك الامر السار ، غير أن فانيس استوقفه قبل أن يصل الى الباب ، ووقف بين الملك و بين بسامتك وقال « انك ان ذهبت أيها الليدى

لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيز ولا طنطنت بك الانباء
دارت الدائرات فيك ونالت   هذه الامة اليد العسراء
فبمصر مما جنيت لمصر   أى داء ما ان اليه دواء
نكد خالد وبؤس مقيم   وشقاء يجد منه شقاء
يوم منفيس والبلاد لكسرى   والملوك المطاعة الاعداء
يأمر السيف فى الرقاب وينهى   ولمصر على القذى اغضاء
جىء بالمالك العزيز ذليلا   لم تزلزل فؤاده البأساء
يبصر الآل اذ يراح بهم فى   موقف الذل عنوة ويجاء
بنت فرعون فى السلاسل تمشى   أزعج الدهر عريها والحفاء
فكأن لم ينهض بهودجها الدهر ولا سار خلفها الامراء

* * *

وأبوها العظيم ينظر لما   رديت مثلما تردى الاماء
أعطيت جرة وقيل اليك النهر قومى كما تقوم النساء
فمشت تظهر الاباء وتحمى الدمع أن تسترقه الضراء
والاعادى شواخص وأبوها   بين الخطب صخرة صماء
فأرادوا لينظروا دمع فرعو   ن وفرعون دمعه العنقاء
فأروه الصديق فى ثوب فقر   يسأل الجمع والسؤال بلاء
فبكى رحمة وما كان من يبـ   ـكى ولكنما اراد الوفاء
هكذا الملك والملوك وان   جار زمان وروعت بلواء

النبيل فانما تذهب لغير طائل . فلقد عصيت أمرك أيها الملك واستخدمت السلطة التي منحتنيها مرة ، فأمرت أن يكون حفيد أماسيس أولى ضحايا الجلاد . وهـذا البوق الذي سمعت صوته الآن يشير الى موت آخر وارث لتاج مصر على ضفاف النيل ، والى لحاقه بآبائه الاولين . انني عالم بنصيبي يا قمبيز ، ولست أضرع وأستشفع للابقاء على حيـاة بلغت نهايتها . وأنت يا كريسوس لا أجهل ما تتضمنه نظراتك من التوبيخ والتقريع لانك تحزن على الاطفـال يقتلون . ولـكن الحياة ليست الا شبكة من النكد والنكال والشقاء وخيبة الآمال ، حتى انى لأتفق مع سولون الحكيم فيما يرى أن السعداء انما هم من تتوفاهم الآلهة في مقتبل أعمارهم كما حدث في سالف الايام لكل من الفتيين الشقيقين كليوبس وبيتون . وأنت يا قمبـيز ، ان كنت لا أزال ذا دالة عليك أو كانت لمشورتي الماضية قيمة عندك ، ايذن لي بآخر نعمة وهي أن تسمح لي بقليل من الكلام . ليس بخاف عليك يا بسامتك ما أوجب خصامنا وسيعلمه السادة الحاضرون . ان أماسيس أيها السادة أقامني مقام ابنه هذا في رآسة الجند الذين ذهبوا لمحاربة قبرص ، وهنـاك أحرزت نصراً وفخراً في حين خلف فيها بسامتك انكساراً وعاراً . وكذلك وقفت عن غير قصد مني على سر خطير يسلبه عرش مصر بعد أبيه . وأخيراً منعته أن يختطف عنوة عذراء حسناء فاضلة من دار جدتها المتقدمة في السن المحبوبة من كل الاغريق . تلك هي ذنوبي التي لم يستطع أن يغتفرها لي ، وتلك هي الاسـباب التي دفعت به لأن يعلن عليّ حرباً ضروساً عقب تركي لخدمة أبيه مباشرة . والآن انتهى القتال بيني وبينك يا بسامتك فأنت قتلت ولديّ البريئين ، وتأثرتني طالبـاً قتلي كأني أحد ضواري الحيوان . وهذا كان انتقامك . أما انتقامي فهو أني حرمتك عرشك ، ووضعت الاغلال في أعناق قومك ، واتخذت من ابنتك أمة لي ، وصدر حكم الاعدام على ابنك من فمي فأعدم ، ورأيت بعينيّ هاتين تلك الحسناء التي أردت اختطافها زوجة لبطل شجاع شريف . وها أنت في ضعتك وسقوطك تراني علوت ثم علوت حتى صرت أغنى وأعظم رجل بين قومي ، بل ورأيتني ، أنا فانيس ، تنسجم دموعي على ما أنت عليه من شقاء ، وذاك كان أشهى جزء في انتقامي . فهل من بلوة تعدل بلواك ؟ ان

الرجل الذى يعيش فى هـذه الدنيا لحظة واحدة بعد أن يرى عدوه فى هذه الضعة والذلة لهو السعيد فى نظرى كالآلهة . لقد قلت ما أريد . »

ثم سكت وضغط يده على جرحه . فنظر اليه قمبيز دهشاً ، ثم خطا نحوه خطوة يريد الاخذ بمنطقته — وفى ذلك اشارة تعدل امضاء حكم الموت على الواقف أمامه واذا بعينه تلمح السلسلة التى علقها بنفسه فى رقبة الاغريقى ، مكافأة له على الطريقة السديدة . التى انتهجها فى اثبات براءة نايتيتس . فانكسرت حدة غضبة بتذكره الفجائى لتلك التى أحبها ، ولمعروف ذلك الرجل المدين لأفضاله العديدة ، نخفض يده بعد أن رفعها للحكم على فانيس . وظل نحو دقيقة وهو يحدق فى وجه صديقه الذى عصى أمره . ثم بعدئذ رفع يده اليمنى فجأة وأشار بغطرسة وأنفة الى الباب الذى يصل فناء القصر بالخارج .

فانحنى فانيس وهو صامت ، وقبل ثوب الملك ، ونزل بملء الهدوء الى الفناء . وجعل بسامتك يرقبه وهو يرجف من الغيظ ؛ ثم قفز ناحية عوارض الشرفة ، ولكن قبل أن ينطق فمه باللعنة التى أعدها لفانيس سقط على الأرض خائر القوى مغشياً عليه . فأهاب قمبيز بصحبه وأتباعه أن يعدوا العدة حالا لصيد السباع فى جبال ليبيا .



آخر ساعات بسامتك فى السجن

نقلا عن كتاب Historians' history of the World.

الفصل التاسع والعشرون

نزهة فى النيل

فاضت مياه النيل ثانية . ومضى شهران على اختفاء فانيس حدث فى خلالهما الكثير من الأمور . فوضعت صافو بنتا يوم مغادرته مصر ، ولم تلبث أن استعادت قواها بعد نفاسها بفضل عناية جدتها . فاستطاعت أن تخرج لنزهة فى النيل اقترحها كريسوس يوم عيد المعبودة نيث . ومنذ سفر فانيس أصبح خلق قمبيز لا يطاق ، فاستأذن بردية أخاه أن يذهب بصافو الى القصر الملكى فى منف فراراً من تصادم يقع بينهما . ورضيت رودوبيس أن تذهب معهما . وكان كل من كريسوس وابنه وبردية ودارا وزو بيروس قد اتخذ من دارها مزاراً مستديماً .

وفى صباح يوم العيد ركبوا قارباً كبيراً جميلا وبدأوا سيرهم من نقطة تبعد عن منف نحو ثلاثين أو أربعين ميـلا ، وساعدتهم ريح الشمال فاستطاع الجذفون أن يسرعوا بالقارب .

وكان يقيهم حر الشمس مظلة خشبية مذهبة منقوشة بالألوان الزاهية . وجلس كريسوس بجوار رودوبيس ، وعند قدميها جلس ثيوبومبس ، واستندت صافو الى بردية . أما سيلوسون أخو بوليقراط فقد اتخذ له مقعداً بجوار دارا الشاخص فى النهر شارد الفكر ، فى حين جلس جيجيز وزو بيروس يضفران ما لديهما من الزهور التى جاءهما بها خادم مصرى أكاليل لصافو ورودوبيس .

قال بردية « من ذلك الذى يستطيع أن يظن أننا سائرون ضد التيـار ؟ ان القارب يسبح مسرعاً كأنما هو طائر يطير . »

قال ثيوبومبس « الفضل لتلك الريح التى تهب من الشمال فتدفعنا أمامها . هذا الى أن البحارة المصريين يعرفون كيف يؤدون واجبهم . »

قال كريسوس « وسوف يضاعفون الجهد فى العودة ضد التيـار . ان المقاومة

تدفع الرجل دائماً الى استخدام أحسن قواه . »

قالت رودوبيس « وقد تعترضنا الصعاب بل نخلقها بأنفسنا ان وضعت الاقدار سفينة الحياة فى ماء هادئ . »

قال دارا « هذا حق ، وصاحب العقل الراجح لا يرضى السباحة دون عناء مع تيار الحياة ، اذ الناس يتساوون فى حالة السكون والكسل . ولكى يقدرنا الناس أحسن تقدير علينا بالمضى فى الكفاح والمجالدة . »

قالت رودوبيس « ولكن يجب على من هم مثلك فى نبل الفكر أن يحذروا كل الحذر ، والا أشربت نفوسهم حب النزاع والمخاصمة . أترى هذا البطيخ المبعثر على التربة السوداء هناك ككرات الذهب ؟ ما كان لأية بطيخة منه أن تصل الى كمال نضجها لو أن الزارع أسرف فى بذورها عند زرعها . فالثمر يعوق نضجه ازدحام الشجيرات وكثرة الخيوط والاوراق . والانسان ولد ليكافح ويعمل ، غير أن عليه فى ذلك وفيما عداه من الأمور أن يكون معتدلا ان ودّ لجهوده النجاح والفلاح ، فالحكمة تقضى عليه أن لا يتعدى الحدود . »

قال كريسوس « وددت لو استطاع قمبيز سماع كلامك هذا . انه بدلا من أن يقنع بتلك الفتوح الواسعة ويفكر فيما يكفل سعادة رعاياه ، يضع من الخطط ما لا يخطر لاحد فى بال . يريد أن يسود العالم ويقهر كل ممالك الدنيا ، ومع ذلك أراه يخضع لشيطان الخمر فاذا هو مغلوب مدحور . »

قالت « أليس لتلك الوالدة العظيمة النبيلة سلطان عليه ؟ »

قال « لم تستطع حتى صده عن عزمه على الزواج من آتوسا ، بل انه اضطرها أن تحضر حفلة الزفاف مكرهة . »

قالت صافو « مسكينة آتوسا ما أتعسها ! »

قال كريسوس « انها كملكة على فارس لن تقضى حياة سعيدة ، ومن أصعب الامور عليها أن تعيش مطمئنة مع أخيها وزوجها وهى على ما نعهدها جميعاً من النزق والخفة . ويحزننى أن أسمع أن قمبيز يهملها اهمالا شديداً ويعاملها كأنها طفل صغير . على أن زواجاً كهذا لم يثر دهشة المصريين فكثيراً ما يقترن الاخ بأخته . »

قال دارا فى تكلف شديد « وفى فارس أيضاً يستحسن جداً الزواج بين الأقرباء . »

قال كريسوس مغيراً مجرى الحديث مراعاة لدارا « فلنعد الى الحديث عن الملك . أؤكد لك يا رودوبيس انه شريف النفس نبيلها ، ولطالما ندم على تسرعه فى اتيان بعض الفعال عقب اتيانها مباشرة ، ولم يربوا أن يحيد عن جادة العدل والحق فى أحكامه ووزنه للأمور . حدث أخيراً ذات يوم وكنا على مائدة العشاء أن لعبت الخمر برأسه فسألنا وهو منتش عن رأى الفرس فيه ان هم وازنوا بينه و بين أبيه كورش . »

قالت رودوبيس « وماذا كان الجواب ؟ »

قال زوبيروس ضاحكا « لقد أنقذنا انتافيرنز من ذلك المركز الحرج اذ قال انما الأفضلية لك على أبيك ، لأنك لم تكتف بالاحتفاظ بتراث كورش بل توسعت فى الفتح وامتد ملكك الى ما وراء البحار ، وذلك بفتحك مصر : والظاهر أن هذا الجواب لم يرق فى عين الملك لأنه ضرب الخوان بيده وقال لانتافيرنز المسكين : منافق متملق حقير : ثم التفت الى كريسوس وسأله رأيه ، فأجابه صديقنا الشيخ الحكيم قائلا . رأيى أنك لم تبلغ بعدُ عظمة أبيك لانك تعدم شيئاً واحداً هو أن يكون لك ولد كالذى وهبنا اياه كورش فى شخصك . »

قالت رودوبيس ضاحكة وقد صفقت بيديها اعجاباً « مرحى ، مرحى . جواب بلغ غاية السداد . جواب يعلى شأن أوديسيوس نفسه المشهور بسرعة الخاطر . ولكن كيف تلقى الملك هذه اللقمة الحلوة السائغة الطعم ؟ »

قال زوبيروس « لقد سر غاية السرور من كريسوس وشكره على ذلك ودعاه صديقه منذ ذلك الوقت . »

قال كريسوس « وقد انتهزت تلك الفرصة لألويه عن عزمه على محاربة الاحباش والعمونيين والقرطاجيين فلسنا نعرف عن أمة الاحباش شيئاً الا ما وصل الينا عن طريق الأساطير والقصص الخرافية ، وبمهاجمتهم سيكون غنمنا أقل بكثير من غرمنا وليس يسيراً أن يقتحم جيش كبير واحة آمون لوجودها فى صحراء قاحلة ، ومن انتهاك

الحرمات أن نثير حربا على معبود قصد الحصول على ما بهيكله من الكنوز والتحف سواء آمنا به أو كنا به من الجاحدين . وأما عن القرطاجيين فقد أثبت الأمر الواقع ما سبق أن تنبأت به من أن معظم رجال اسطولنا من السوريين والفينيقيين ، ولقد رفضوا كما هو المنتظر منهم ، أن يخوضوا غمار حرب تشهر على اخوانهم . ولكن قمبيز سخر من حججي وسفه آرائي وأقسم فى حال سكره ليركبن هذه الاخطار وليخضعن الأمم والامصار حتى بدون مساعدة بردية وفانيس . »

فسألت رودو بيس بردية « وماذا عساك تفهم من اشارته اليك يا بنى ؟ »

فسبقه زو بيروس الى الجواب قال « لأن بردية هو الذى أحرز النصر وحده فى واقعة بياوزة . »

قال كريسوس « أجل وكان يجب أن تكون أنت ورفاقك أكثر حرصاً فتذكروا أنه من الخطر اثارة غيرة رجل كقمبيز . انكم نسيتم أن قلبه مكلوم ، وأن أقل شىء ينكأ جرحه . فلقد فقد المرأة التى أحبها والصديق الذى أعزه ، وها أنتم تحاولون اليوم أن تسلبوه آخر ما يعنى به ويتأسى وهو شهرته الحربية . »

قال بردية آخذا بيد كريسوس « كف عن لومه وعذله ، فان أخى لم يحد قط عن جادة العدل ، ولن يحسدنى على هذا الانتصار الذى نلته صدفة لأن هجمتى حدثت فى الوقت الملائم فلا يصح أن تكون دليلا على كفاءة وعبقرية . وانك لتعرف انه وهبنى سيفاً فاخراً ومائة من كرام الخيل ورحى من الذهب مكافأة لى على بسالتى . »

وكانت كلمات كريسوس قد أثارت هاجس صافو ، ولكن ذلك الهاجس زال لدى سماعها كلام زوجها ، ونسيته عند ما أتم زو بيروس اكليله وزان به جبين رودو بيس .

وأعد جيجيز اكليل صافو . صنعه من زنبق ناصع البياض ، فلما وضعته بين ضفائر شعرها بدت جميلة للغاية فى هذه الزينة البسيطة حتى أن بردية قبلها فى جبهتها على مرأى الجميع . فكان ذلك باعثاً فى زيادة سرور القوم ، فاجتهد كل واحد منهم أن يعمل كل ما فى وسعه فى سبيل انشراح رفاقه . وجىء برطبات من كافة الأنواع

ووزعت على الحاضرين ، وذهب عن دارا تجهمه مدة من الزمن ، وشارك القوم فى لهوهم ومجونهم .

ولما توارت الشمس وضع العبيد على الجزء المكشوف من ظهر السفينة كراسى منحوته ومواطئ للاقدام وموائد . وجلس الركب وقد بلغ سرورهم أشده ، يمتعون عيونهم برؤية المناظر الجميلة التى لم يكونوا يتوقعون رؤيتها .

واحتفل المصريون بعيد نيث وكانوا يسمونه « عيد المصابيح » فأحيوه بايقاد المصابيح فى كافة الانحاء عند طلوع القمر ، وظهرت ضفتا النيل كأنهما خطين طويلين من اللهب . وازدان كل معبد وكل بيت وكل كوخ بالمصابيح الموقدة ، كل بحسب ذوق ساكنيه ومقدورهم . وكذلك أضيئت كل أروقة المنازل فى القرى ، وكل البروج الصغيرة التى كانت توجد فوق المبانى الضخمة ، بنيران لامعة ملتهبة أوقدت فى أوان من القار تتصاعد منهـا سحب الدخان ، فترى وسطه البنود والأعلام فى لطف ذات اليمين وذات اليسار . وكسا ضوء القمر النخيل وأشجار الجميز حلة فضية ، وانبعث من هذه الأشجار على المـاء ضوء جميل انعكس على مياه النيل الحمراء من انعكاس ضوء اللهب المنبعث من المنازل الممتدة على ضفتيه . غير أن هذه الاضواء على شدتها لم تستطع أن تبلغ حتى النصف عبر هذا النهر الـكبير ، حيث كان زورق القوم يجرى فيه ، فخيل اليهم أنهم انما يسبحون فى ظلام دامس بين نهارين غدقين بالأنوار . وكنت ترى ما بين آن وآن قارباً مضاء يعبر النهر ، فيبدو للعين عنـد ما يقترب من الشاطئ كأنه يشق لنفسه طريقاً فى لجة من الحديد المنصهر البراق .

وكانت أزهار اللوتس ترى على سطح النهر بيضاء كالثلج تعلو وتنخفض مع الأمواج ، وكأنهـا فى اللجة عيون مبصرة . ولم يكن ممكناً سماع أى صوت من الضفتين ، ولكن أصداء الاصوات متجمعة كانت تحملها ريح الشمال . فلم يكن يقطع سكون الليل لدى صحبنا الا وقع المجاذيف وغناء البحارة — وكأنما الليل قد سرق منه ظلامه .

وظل الصحب مدة طويلة ينظرون وهم سكوت الى هذا المنظر العجيب الذى يمرون به . وكان زوبيروس أول من قطع هذا السكون بأن قال « حقاً اننى أحسدك

يا بردية . لو أن الأمور جرت كما كنا نود لكان كل واحد منا الآن جالساً وبجواره زوجته فى مثل تلك الليلة العجيبة . »

قال بردية « وما الذى منعك أن تحضر معك احدى زوجاتك . »

فأجابه متنهداً « الخمس الاخريات . وددت لو سمحت فقط لزوجتى الأخيرة المحبوبة باريساتس بنت أوروتيز أن تصحبنى هذه الليلة و بعدها أكون فى عداد الأموات . »

فأخذ بردية بيد حبيبته صافو وقال « وأرانى سأقنع من دنياى بزوجة واحدة . »

فضغطت صافو على يدى بردية تشكره على ما قال ثم نظرت الى زو بيروس وقالت « يصعب علىّ تصديقك أيها الصديق ، اذ يظهر لى أن خوفك من مخالفة عادات بلادك يفوق خوفك من زوجتك . وقد بلغنى أن قد ليم بردية على عدم تسليمى للخصيان ورقابتهم على ، وعلى سماحه لى أن أقاسمه أفراحه وأتراحه . »

قال زو بيروس « وهو لذلك يفسدك كثيراً . فها زوجاتنا قد بدأن يتحدثن بطيبته وتساهله ، وذلك لأننا أبداً نضيق الخناق عليهن . لا بد من حدوث ثورة نسوية سريعاً حتى فى قصر الملك ، ويقع الاخيمينيون صرعى بطعن الاسنة وطوفان الدموع ، وهم الذين لم تصبهم سيوف المصريين . »

قال سياوسون « على رسلك أيها الفارسى ، واحترم هؤلاء اللائى هن صور آدمية لأفروديت إلهة الجمال . »

قال « ولكن نساءكم معشر الاغريق لسن يفضلن نساءنا كثيراً فى هذا الشأن ، والمصريات هن اللائى يتمتعن بقسط وافر من الحرية . »

قالت رودو بيس « نعم . أصبت . فان سكان هذه الأرض الغريبة قد منحوا الجنس اللطيف الضعيف حق مساواة الرجال منذ آلاف السنين . بل وانهم فى كثير من الوجوه قد فضلوا النساء على الرجال . فمثلا تحظر الشريعة المصرية على البنين العناية والاهتمام بالوالدين فى سن الشيخوخة وتخص البنات بذلك . وهذا دليل واضح على أن أسلاف أولئك القوم الذين قلب الدهر اليوم لهم ظهر المجن ، قد عرفوا طبيعة المرأة حق المعرفة ، ورأوا انها تفوق الرجل من حيث تمس الحاجة الى السهر والرفق

والعناية والمحبة . فلا تحتقروا اذن أولئك القوم عبدة الحيوانات ، الذين مع جهلي لهم أحترم شأنهم ، لأن فيثاغورس رب العلم والعرفان أكد لى أن الحكمة المخبوءة فى تعاليم كهنتهم تعدل الاهرام عظمة ورسوخاً . »

قال دارا « ولقد أصاب فيلسوفكم هذا . تعلمون أنى حصلت على أمر باطلاق سراح نيتحوتب ، وقد جلست اليه والى نيوفيس أسابيع عدة أتاقى العلم عليهما . فأخذت عنهما الكثير ، وتثقفت من علمهما بما لم يكن يخطر لى من قبل ببال . وما أشد حزنى على ما فاتنى استظهاره خلال اصغائى الى دروسهما . انهما يعرفان كل تاريخ السموات والأرض ، ويذكران اسم كل ملك والظروف التى اكتنفت كل الحوادث العظام التى حدثت خلال الاربعة آلاف سنة الماضية . ولهما المام تام بسير الكواكب والافلاك ، وبأعمال احذق الصناع الاخصائيين ، وبأقوال حكمائهم خلال هذه المدة . وذلك كله مدون فى كتب ضخمة محفوظة فى طيبة فى قصر يسمونه : مستشفى الروح : وفيه من الكتب المقدسة فقط نيف وعشرون ألف مجلد جمعت من قديم الزمان . وما شرائعهم الا مهبط الحكمة الحقة . ولقد أظهروا حذقاً ومهارة وبعد نظر عند ما وضعوا نظمهم وسنوا شرائعهم الحكومية الوضعية فكانت مطابقة لحاجات البلاد . وكم يسرنى ادخال مثل هذه النظم وسن مثل تلك القوانين فى بلادنا . وحكمتهم مؤسسة على استخدام الاعداد ، فهى السبيل الوحيد لحساب مسير الكواكب وتحديد كل الكائنات . وبتطبيقها على تقصير أوتار الآلات الموسيقية واطالتها استطاعوا أن يضبطوا النغم وينظموه . فالاعداد وحدها هى الحقائق الثابتة التى تأبى الخطأ وزوغان التأويل . لكل أمة آراؤها عن خطأ هذا وصواب ذاك ، وكل قانون قد تجعله الظروف وملابسات الاحوال غير صالح ، ولكن النتائج التى يحصل عليها من الأرقام لن تقبل النقض ولا الابرام . اذ من ذا الذى يستطيع أن يجادل مثلا فى أن ضعفى الاثنين أربعة ؟ فالاعداد تعين محتويات كل كائن ، وكل كائن يعادل مجموع مفرداته . فهى اذن حقائق لا يستطاع انكارها وهى أصل كل شىء وجوهره . »

فاعترضه زوبيروس قائلا « أستحلفك بمترا يا دارا أن تكف عن مثل هذا

الحديث الا اذا شئت أن يصيبنى منه دوار . ومن يسمعك الآن يخالك قضيت حياتك كلها بين أولئك المصريين الحالمين ، ويظن أنك لم تشهر قط بيدك سيفاً . ترى أى فائدة لنا بهذه الأعداد ؟ »

قالت رودوبيس « ان فائدتنا منها أكثر مما تظن . ان نظرية الاعداد هذه من أسرار الكهنة المصريين ، وقد أخذها فيثاغورس نفسه عن نيوفيس هذا الذى تتلمذ عليه العلم يا دارا . وعند ما تزورنى يا دارا أريك كيف أن هذا الفيلسوف العظيم وفق بين قوانين الاعداد وقوانين توافق الانغام . ولكن انظروا فهذه هى الاهرام . »

فنهض الجماعة اذ ذاك ، ووقفوا ينظرون سكوناً الى ذلك البناء الضخم القائم أمامهم على شاطئ النيل الايسر .

وظهرت الاهرام فى ضوء القمر الفضى ضخمة مروعة كأنما الأرض تميد تحتها من ثقلها . تلك هى المقابر الشامخة تضم فى أحشائها أجساد ملوك قادرين ، فكانت مثالا لقوة الانسان المبدعة ، وكانت فى الوقت ذاته نذيراً يحذر الانسان من غرور العظمة الدنيوية وباطلها . فأين خوفو الذى ابتنى جبلا بعرق رعاياه ؟ أين خفرع الذى استخف بالآلهة وقيل عنه انه اعتد بقوته الباطلة فأغلق أبواب المعابد محاولا تخليص الخلود لنفسه ولاسمه ، فابتنى لنفسه قبراً فوق طاقة البشر ؟ لعل ناووسيهما الخاويين يدلان على أن قضاة الموتى حكمت بأنهما لا يستحقان راحة القبر ، ولاهما يستأهلان البعث يوم النشر ، فى حين سمحوا لمنقرع ، بانى الهرم الثالث الذى فاق سابقيه جمالا ، أن يثوى مطمئناً فى قبره المبنى من البازلت الازرق ، لأنه قنع بأثر صغير وأمر بفتح أبواب المعابد الموصدة .

هناك قامت الاهرام تنازع الدهر البقاء وسط ذلك الليل الهادئ مشرفة على صخور جبال ليبيا ، تضيئها أنوار الكواكب ويحرسها أبو الهول العظيم حارس الصحراء . وعند أسفل هذه الاهرام مقابر مزخرفة أجمل زخرفة ، وضعت فيها مومياء أولئك الذين كانوا مخلصين لبانيها . ومقابل هرم منقرع ، التقى الورع ، هيكل تقدم فيه الكهنة الصلوات عن أرواح الموتى المدفونين فى قبور منف . أما فى الغرب

حيث تختفي الشمس وراء الجبال الليبية ، وحيث تنتهي الأرض الخصبة وتبتدئ الصحراء القاحلة ، فتوجد قبور أهل منف . واذ شخص الركب نحو الغرب صامتين شعروا وسط هذا السكون المهيب برهبة عقدت ألسنتهم من الخشية والخشوع .

ثم حثت ريح الشمال قاربهم فاجتاز بهم مدينة الموتى ماراً بالجسور الضخمة التي بنيت لكي تحمي مدينة مينيس من مياه الفيضان ، ثم بدت أمامهم مدينة الفراعنة وهي في حلة من الأنوار المنبعثة من لهب النيران الموقدة تكريماً للمعبودة نيث . وعند ما ظهر لهم أخيراً معبد بتاح ، وهو أقدم بناء في أقدم البلدان ، انفكت عقدة لسانهم وبدرت منهم صيحات الفرح والسرور .

وكان يضيء هذا المعبد ألوف المصابيح ، وأوقدت مئات المشاعل على صروحه وأسواره وفوق سطحه كذلك سطعت أضواء المشاعل بين صفين من تماثيل أبي الهول رصفت بين أبواب المعبد العديدة وبين بناية المعبد . وأحاطت بمسكن المعبود أبيس الخالي اذ ذاك نيران ذات ألوان جعلته يظهر كأنه صخرة حجر جيري بيضاء سقطت عليها أشعة الشمس عند الغروب . وكانت البنود والرايات والأكاليل تماوج فوق تلك الصورة الزاهية ، أما الموسيقى والاناشيد فكانت تسمع في جميع الأرجاء .

قالت رودوبيس متحمسة « ما أفخم هذا وأروعه ! أنظروا كيف تلمع الجدران والعمد المنقوشة في هذه الاضواء . وانظروا ما أبهج الاشكال المتكونة من ظلال المسلات وتماثيل أبي الهول على ذلك الافريز الاملس الاصفر ! »

قال كريسوس « وما أروع منظر الايكة المقدسة هناك . لم أر في حياتي قبل الآن أعجب من ذلك . »

قال دارا « أما أنا فقد رأيت ما هو أعجب من ذلك . قد لا تصدقونني ان أنا أخبرتكم أنني شهدت حفلة اقامة الشعائر للمعبودة نيث . »

فقال الكل في صوت واحد « حدثنا بالذي رأيت . حدثنا . »

قال « لقد أبى عليّ نيتحوتب في مبدأ الامر حضور الحفلة ، ولكني حينما وعدته أن أبقى مختبئاً فضلا عن أني سأطلق سراح ولده المسجون قادني الى مرصده

المشرف على ساحة واسعة جداً ، وأخبرنى أنى سأرى تمثيل ما وقع لأوزيريس .

« وما كاد يتركنى حتى أضيئت الأيكة المقدسة بأنوار ملونة استطعت بها أن أرى كل كبيرة وصغيرة تجرى .

« رأيت أمامى بحيرة[1] ملساء كالزجاج تحيط بها أشجار جميلة ومصاطب مفروشة بالزهور . وكان يمخر فى هذه البحيرة زوارق مذهبة جلس فيها بنون و بنات حسان الوجوه ، فى حلل بيضاء ناصعة ، وجعلوا يغنون أغانى جميلة أثناء سيرهم فوق الماء . ولم يكن بهذه الزوارق مجذفون يسيرونها كيف شاءوا ، ومع هذا فقد كانت حركتها فوق ثنيات المـاء منتظمة منسقة كأنها مقودة بأيد سحرية غير منظورة . وأحاطت هـذه الزوارق بزورق كبير مرصع بالاحجار الـكريمة ، وقف عند دفته صبى جميل ، وما كانت الدفة الا زهرة لوتس بيضاء تكاد تويجاتها الرقيقة لا تلمس المـاء . ورأيت فى وسط الزورق حسناء بلغت غاية الحسن والجمال فى زى احدى الملكات ، وكانت مضطجعة على وسائد حريرية . وجلس بجانبها رجل ضخم الجثـة جداً وضع فوق شعر رأسه المنسدل تاجاً من اللبلاب ، وطرح على كتفيه جلد نمر ، وأمسك بيمناه هراوة ملتوية . وأقيمت فى مؤخرة الزورق مظلة من اللبلاب وزهر اللوتس والورد ، ووقفت تحت هذه المظلة بقرة ناصعة البياض لها قرنان من ذهب وعليها قماش من أرجوان مطرز بالذهب .ولا يخفى أن اللبلاب هو نبات أوزيريس ، أما البقرة فهى الحيوان المقدس للمعبودة ايزيس . وقام الرجل يمثل دور أوزيريس، وقامت المرأة تمثل دور ايزيس ، أما الصبى الصغير فقام يمثل دور هوروس . ومخرت الزوارق الصغيرة فى ماء البحيرة جيئـة وذهابا حتى اذا مررن بالزورق الـكبير تعالت منهن أصوات الغنـاء المفرحة ، فينثر الاله والالهة الجالسين بالزورق الـكبير الزهور والثمار على جوقة المغنين والمغنيات الحسان مكافأة لهم وتشجيعاً . وبينما الحال كذلك اذا بى أسمع صوت رعد مفاجئ ، جعل يتزايد شيئاً فشيئاً ، واذا بى أرى رجلا بشع المنظر ذا شعر أحمر منفوش وعليـه جلد خنزير برى قد ظهر من الجزء المظلم من

---

(١) هى بحيرة صا الحجر الموجودة الآن .

الايكة ، ثم قفز الى البحيرة يتبعه سبعون رجلا مثله ، وجعلوا يسبحون فى الماء حتى أدركوا زورق أوزيريس .

« وعندئذ ولت الزوارق الصغرى الادبار جادة فى الهرب ، وأسقط الصبى الواقف على الدفة زهرة اللوتس وهو يرجف من الفزع .

« ثم هجم ذلك الغول المخيف على أوزيريس فقتله بمساعدة زملائه ، ووضع جثته فى تابوت ، ورمى التابوت فى البحيرة فجعلت مياهها تدفعه بطريقة سحرية عجيبة . وفى أثناء ذلك فرت ايزيس الى الشاطئ فى احد الزوارق الصغرى ، وظلت تروح وتغدو على شاطئ البحيرة وقد انسدل شعرها تندب زوجها الميت وتبكيه هى والعذارى اللائى فررن معها . وكانت انغام غنائهن وحركات رقصهن خلال بحثهن عن جثة أوزيريس غاية فى الحزن والاكتئاب ، وكانت العذارى يلوحن بطيالسة سود أثناء الرقص فتتماوج وتلتوى بشكل غريب مدهش . ولم يقف الفتيان سكوتا . بل انهم شغلوا أنفسهم فى صنع تابوت فخم ثمين لجثة أوزيريس الميت وهم يرقصون ويدقون على الصنوج . فلما أتموا صنعه انضموا الى العذارى فى موكب الندب واللطم الذى رأسته ايزيس ، وجالوا معهن على الشاطئ يشاركونهن فى الانشاد وفى البحث عن الجثة .

« ثم سمعت فجأة غنوة منخفضة الصوت من فم غير منظور . ثم صارت تعاو شيئاً فشيئاً معلنة أن جثة الآله قد نقلتها تيارات البحر الأبيض المتوسط الى جيبال Gebal فى فينيقيا البعيدة . فنفذ هذا الصوت الى سويداء قلبى وكان معى ابن نيتحوتب فقال لى اننا ندعو هذا الصوت « ريح الارجوفة »

« فلما سمعت ايزيس هذه الأنباء السارة خلعت عنها لباس الحداد ، وغنت غنوة الظافر الفرح ، وشاركتها العذارى فى الغناء . وصدقت الأنباء اذ وجدت ايزيس جثة زوجها فى ناووس على شاطئ البحيرة الشمالى . فارتمت على جثة زوجها العزيز ، وجعلت تنادى : أوزيريس ، أوزيريس ، وأوسعت الجثة تقبيلا . وفى خلال ذلك صنع الفتيان قبراً عجيباً من زهر اللوتس واللبلاب :

« فلما وضع التابوت فى هذا القبر الجميل نفضت ايزيس عنها حزنها وراحت

تبحث عن ولدها ، فوجدته فى الجهة الشرقية من البحيرة . ولقد كان نظرى موجها من مدة شطر هذا الفتى الجميل وهو يتدرب و بعض رفاقه على حمل السلاح .

« وفيما هى مسرورة لعثورها على ابنهـا سمع من جديد صوت رعد قاصف ، فكان ذلك دليـلا على أن تيفون آله الشر قد عاد الى الظهور والايذاء . غير أنه فى هذه المرة هجم على ذلك القبر الجميل المزهر ، ثم أخرج الجثة من ناووسها ، وقطعها أربع عشرة قطعة — وكان رفاقه أربعة عشر — ورمى بها على شاطئ البحيرة .

« فلما عادت ايزيس الى قبر زوجهـا لم تجد غير زهور ذابلة وناووسا خاويا ، ولكنها رأت فى أربعة عشر مكانا على الشاطئ أربعة عشر لسانا من اللهب الملون. فأسرعت تجرى هى ومن معهـا من العذارى الى هذه النيران فى حين قاد هوروس فتيانه لمحاربة تيفون وجنده على الشاطئ الآخر .

« ولم تكن لى عينان لترىا واذنان لتسمعا ما جرى . ففى ناحيـة قامت معركة هائلة مخيفة تلفت النظر بين قصف الرعد ونفخ الابواق ودق الطبول ، وفى الاخرى تعـالت أصوات جميلة هى أصوات النساء تغنى أغانى تسترعى الأسماع ، يصحبها رقص جميل يسحر العقول ويخلب الالباب . ذلك لأن ايزيس وجدت عند كل لهب جزءا من جسم زوجها يحترق فسرها ذلك .

« ما كان أحراك يازو بيروس برؤية هذا المنظر البديع ، فليس لدى من الكلام ما أستطيع به أن أصف لك رشاقة حركات هؤلاء العذارى . أو أقول لك ما كان أجملهن حين يختلطن ، ثم يقفن فجأة على صفوف مستقيمة ، ثم يعـدن الى ما كنّ عليـه من الاختلاط فالانتظام مرة أخرى . وكان ذلك يجرى بأسرع ما يمكن . وانبعثت من بين صفوفهن طول الوقت أشعة الضوء ، فان كلا منهن كانت تحمل مرآة بين كتفيها ، تلمع اذا ما تحركت وتعكس الاشكال والصور اذا ما سكنت .

« وعندما تجمعت أشلاء أوزيريس الا واحداً يقال ان تيفون رمى به فى النيل علت من الشاطئ الآخر صيحات الظفر ، ونفخ فى الأبواق . لقـد هزم هوروس تيفون ، وتابع السير الى العالم الثـانى لينقذ أباه . فانفتح باب هذا العالم السفلى فى الجانب الغربى من البحيرة ، وهناك وقفت لحمايته فرس بحر وحشية .

« واذ ذاك سمعت أنغام القيثار والناى تقترب شيئاً فشيئاً ، وعبق الجو برائحة عطر شذية ، وانتشر فوق الايكة المقدسة ضوء وردى اللون أخذ يشتد لمعانه لحظة فأخرى ثم خرج أوزيريس من العالم السفلى يقوده ابنه المنتصر . وأسرعت اذ ذاك ايزيس لمعانقة زوجها وقد بعث من جديد ، وأعطت هوروس الجميل زهرة اللوتس مرة أخرى بدلا من السيف ، ونثرت الثمار والزهور على الأرض فى حين جلس أوزيريس تحت قبة مكللة باللبلاب ، وجاءته ملائكة الأرض وشياطين الأمنتى (١) مظهرة الخضوع والطاعة . »

وهنا سكتت دارا فقالت رودو بيس « شكراً لك على حديثك الرائع ، ويبدولى أنه لا بد أن يكون لهذه الرواية التمثيلية معنى آخر غير مظهرها ، واننا ليتضاعف شكرنا لك ان أنت فسرت لنا هذا المعنى . »

قال دارا « انك محقة فى طلبك ، ولكنى لا أستطيع الادلاء بما أعرفه ، لأنى أقسمت لنيتحوتب أن لا أبوح بشىء . »

قالت رودو بيس « وهل أقول لك ما استخلصه من هذه القصة مسوقة فى ذلك بآراء فيثاغورس ونيوفيس ؟ ان ايزيس فى نظرى هى هذه الأرض الواسعة ، وأما أوزيريس فهو الماء أو النيل الذى به تخصب الأرض وتثمر . وأما هوروس فهو الربيع الفتى ، وتيفون هو الصيف ذو الحر اللافح . فهذه الأرض ، وقد حرمت من قوتها المنتجة ، تبحث عن هذا الزوج المحبوب صاخبة نادبة فى الاصقاع الشمالية الباردة حيث يفرغ النيل ماءه . وأخيراً يشب هوروس ، وهو قوة الطبيعة الفتية الناهضة ، فيقهر تيفون ، أو الحر اللافح . وما كان موت أوزيريس الا موتاً ظاهرياً ، شأنه فى ذلك شأن قوة الانتاج الطبيعية ، فهو إذن يبعث حياً من العالم الثانى ويعود لزوجته وهى الأرض — ويسود مرة أخرى على وادى النيل الخصيب . »

فقال زو بيروس ضاحكا « ولما كان سلوك هذا الاله الميت حسنا فى العالم الثانى فقد حباه أهل الجنة وأهل النار حبهم وأظهروا له طاعتهم . »

(١) الامنتى فى اعتقاد قدماء المصريين هى العالم الثانى أو عالم الارواح . اليها تفىء الروح بعد الموت ، واليها تذهب الشمس بعد الغروب .

فقال دارا « و بعبارة أخرى أهل الامنتى ، على أنه يجب أن تعرف أن هذين الزوجين المقدسين لا يمثلان الدورة الطبيعيـة للحياة بل يمثلان أيضاً خلود الروح البشرية لأن أوزيريس القتيل يعيش أبداً حتى فى حالة موت جسمه . »

قال « شكراً لك يا أخى . وسأذكر ذلك لو صادفتنى منيتى فى مصر . غير انى أود أن أرى تمثيل هذه القصة مهما كلفنى ذلك . »

قالت رودوبيس « وانى أشاركك هذه الرغبة ، فالشيخوخة تؤدى الى الفضول . »

فاعترضها دارا قائلا « بل انك ستكونين فتية طول حياتك ، وسيكون حديثك جميلا كوجهك ، وعقلك رائقاً صافياً كعينيك . »

قالت وكأنها لم تسمع هذا المديح « عفوا ان أنا قاطعتك فان ذكرك لعينىّ قد ذكرنى بطبيب العيون نبنخارى ، ولما كانت ذاكرتى ضعيفة فقد رأيت أن أسألك عنه قبل أن أنساه . انى لم أسمع بعد شيئاً عن ذلك النطاسى الماهر الذى رد لكاساندين بصرها . »

قال دارا « مسكين هذا الرجل ، فانه حتى قبل معركة بياوزه تجنب الظهور بل ولم يشأ أن يتحدث حتى مع مواطنه نيوفيس . ولم يسمح لغير خادمه الشيخ الهزيل أن يخدمه أو يجلس اليه يجاذبه أطراف الحديث . ولكن بعـد معركة بياوزة تبدل كل شىء ، فانه ذهب الى الملك مسروراً والتمس منه أن يأذن له فى الذهاب معه الى سايس وفى استعباد اثنين يختارهما من سكانها . فأذن له قمبيز فى ذلك اذ رأى أنه يتحتم عليه اجابة سؤال المحسن الى أمه . فلما بلغ عاصمة أماسيس أسرع الى معبد نيث ، وأمر بالقبض على الـكاهن الأعظم نيتحوتب وطبيب عيون يدعى بتامون كان يبغضه . وقال لهما انه جزاء احراقهما لأوراقه سوف يقضيان غابر أيامها عبدين فى خدمة رجل فارسى يبيعهما له ، فيقضيان حياتهما فى غربة مذلة مهينة . وكنت اذ ذاك هنـاك على مرأى ومسمع ، فهالنى جدا هـذا القضاء القاسى المخيف تنطق به شفتاه . لكن نيتحوتب أصغى اليه فى هدوء حتى اذا ما أتم نبنخارى حديثه قال له : ان كنت قد خنت وطنك أيها الغر الأبله لأجل ما أحرق لك من أوراق فأنت اذن من غلاة الخونة الظالمين أنفسهم و بلادهم ، لأنى احتفظت بمكتوباتك

الثمينة ، و وضعتها فى معبدنا ، وأرسلت منها نسخة كاملة الى مكتبة طيبة . ولم نحرق منها سوى رسائل أماسيس لأبيك ، وصندوق بال قديم . وكان بسامتك و بتامون حاضرين احراقها . وعزمنا أن نشيد لك قبراً جديداً بين المدافن ، جزاء وذكرى وتعويضاً لمكتوباتك والرسائل التى اضطررنا لحرقها فى سبيل مصر وصونها . وعلى جدران ذلك القبر تجد صور الآلهة التى كرست نفسك لها مصورة أحسن تصوير ، وأقدس فصول كتاب الموتى ، وعدة صور أخرى تشير اليك . فامتقع وجه ذلك الطبيب ، وطلب أن يرى أولا كتبه وثانياً القبر الذى شيد له . و بعد ذلك أطلق سراح أسيريه اللذين جىء بهما الى منف ، وذهب الى بيته يتهادى كالسكران و يده فوق جبينه طول الطريق . وهناك كتب وصيته موهباً فيها كل ما يملكه الى حفيد خادمه الشيخ هب . ثم تمارض وذهب الى فراشه . وفى اليوم التالى وجد ميتاً مسموماً حيث قد تعاطى ذلك السم المخيف وهو عصير الاستركنوس أو بذور جوزة القىء . »

فقال كريسوس « ياله من رجل تعيس ! لقد أعمته الآلهة فخان بلاده وحصد اليأس بدل الانتقام . »

قالت رودوبيس « وانى آسفة عليه . أرى المجذفين قد رفعوا مجاذيفهم اشارة الى وصولنا . وهاهى المحفات والمركبات فى انتظارنا . ولقد كانت نزهتنا جميلة ، فالوداع والى اللقاء قريباً فى نقراتس . وانى عائدة على الفور مع سياوسون وثيوبومبس . وقبلى عنى يا صافو برميس الصغيرة مئات القبل ، وحذرى مليتا أن تخرج بها فى حر الظهيرة ، فهو مضر بالعين . عم مساء يا كريسوس وأنت يا بردية . »

وبرح الفرس الزورق متبادلين اشارة الوداع . ولما لفت بردية وجهه مرة أخرى زلت قدمه فسقط على المرفأ . فأسرع اليه زوبيروس . ولكنه كان قد نهض قبل أن يدنو منه ، وخاطبه قائلا « حذار يا بردية فسقطتك هذه على المرفأ نذير شؤم . وقد حدث أنى سقطت مثل هذه السقطة عند مغادرتنا السفينة لما وصلنا نقراتس ، فكان من أمرى ما كان . »

الفصل الثلاثون

المباراة فى الرماية

بينما كان صحبنا يتنزهون فى النيل كان بركساسب سفير قمبيز قد عاد من بلاد الحبشة . وحدث قمبيز بما رآه فى رجالهم من طول القامة وشدة البأس ، وفى بلادهم من تعذر سلوك الطريق اليهم على جيش كبير ، وقص عنهم قصصاً كثيرة مدهشة . ومما قاله عنهم انهم معتادون أن يختاروا أجمل وأقوى رجل بينهم ؛ وينصبوه ملكا عليهم مطلق الأمر والنهى . وان كثيرين منهم يعمرون طويلا فيبلغون العشرين بعد المائة أو يزيدون ، وأن طعامهم اللحم المسلوق وشرابهم اللبن الحديث ، وأنهم يغتسلون فى عين ماء تفوح منه أطياب البنفسج ويكسو جلودهم بريقاً غريباً . وهذا الماء ضئيل الكثافة يغرق الخشب فيه . وأن قيود مسجونيهم من الذهب الخالص لندرة الفلزات الأخرى وغلوها فى بلادهم . وأنهم يطلون جسوم موتاهم بالجص أو الملاط ، ثم يضعون فوق هذا الطلاء طبقة من مادة زجاجية . وبعدئذ يحفظون هذه الجثث فى بيوتهم سنة كاملة يذبحون لها ، ثم يجمعونها بعد ذلك حول المدينة فى صفوف طويلة .

ولقد قبل ملكهم هدايا قمبيز قائلا بلهجة الهزء والاحتقار ان الفرس لا يكترثون لصداقته ، وان بركساسب لم يبعث اليهم الا لكى يتجسس عليهم ، وانه لو كان أمير آسيا عادلا لاقتنع بملكه الواسع وما حاول أن يخضع لسلطانه شعباً لم يبادئه قط بسوء . ومما قاله « خذ هذه القوس لقمبيز وانصحه أن لا يقدم على حرب معنا الا بعد أن يصبح الفرس قادرين أن يحنوا مثل هذه القوس بكل سهولة مثلنا . ألا وليحمد قمبيز ربه على أن الحبشان ما تحركت برؤوسهم الخواطر عن غزو بلاد أخرى ليست خاضعة لهم . »

ثم حل قوسه الكبيرة المصنوعة من الابنوس وأعطاها لبركساسب كى يحملها لقمبيز

فضحك قمبيز من كلام ذلك الافريقي المزهو ، ودعا عظماء الدولة لمشاهدة اختبار هذه القوس في اليوم التالي ، وأجاز بركساسب على الطريقة الناجحة التي تغلب بها على المصاعب التي اعترضته في رحلته . ثم سكر كعادته ونام نوماً مضطرباً رأى خلاله أن بردية قد تسنم ذروة العرش الفارسي ، وأن تاج الملك فوق رأسه قد طاول السهى .

ويستطيع هو تفسير هذا الحلم دون مساعدة العرافين والمنجمين ، وحرّك هذا الحلم ساكن غضبه أولا ، ثم جعله يفكر طويلا .

فهجره نومه ، وجعل يسائل نفسه هذه الأسئلة « ألم تهيئ بنفسك وسائل حب الأخذ بالثأر ؟ أتظن أنه ينسى انك سجنته وحكمت عليه بالموت مع أنه برىء ؟ واذا هو رفع راية العصيان في وجهك ألا ينضم اليه كل الأخيمينيين ؟ وما الذي صنعته لكسب حب رجال حاشيتي ذوى الاطماع الكثيرة ، أو ما الذي أنا صانعه في هذا السبيل ؟ وهل وجدت منذ وفاة نايتيتس واختفاء ذلك الأثيني مخلوقاً واحداً أركن اليه أو أعتمد على وفائه ؟ . »

وحركت هذه الآراء والأسئلة ساكنه فهاج ووثب من مرقده وهو يصرخ « لم أعد أعرف الحب ولم يعد يعرفني . سوف أعدل عنه الى العنف والغلظة ، وليحاول غيري ما يحاول من رحمة وشفقة ، والا فاني لابد واقع في أيدي من يكرهونني لعدلي ولانزالي العقاب الصارم الشديد بكل جان أثيم . انهم يتملقونني في وجهي ، وفي الغيبة يلعنونني ، حتى أن الآلهة تناصبني العداء والا فلماذا حرمتني من كل شيء أحبه ، ومن النسل ، وها هي تنل مني شهرتي الحربية التي هي حق من حقوقي ؟ ففيم يفوقني بردية حتى ينال مائة ضعف مما حرمته من الحب والصداقة والشهرة والبنين ؟ أرى كل هذا يتدفق عليه تدفق الانهار في مختلف البحار ، بينما قلبي كالصحراء تتحرق لوافحه وتتلهب مقايظه . لكنني لا أزال الملك ، ولسوف أريه أينا الاقوى وان طاولت رأسه السماء . فلن يكون لفارس الا رجل فذ واحد . فاما هو واما أنا . سأرده بعد بضعة أيام الى فارس ، وسأقيمه مرزباناً على بكتريا Bactria ، وهناك يستطيع أن يربي ابنته ويدللها ويصغي لأغاني زوجته ، في حين أكون أنا جاداً في احراز النصر والمجد في اثيوبيا فلا يستطيع أن يشوب مجدي بشائبه . وأنتم أيها

المهندمون جيثونى بأثوابى ونهلة من الخمر .وسوف أرى الفرس انى أصلح أن أكون ملكا على انيوبيا أيضاً ، وسأقهرهم أجمعين فى حنى تلك القوس . علىّ بكاس أخرى ، وسأثنى القوس ولو كانت شجرة سرو صغيرة وكان وترها حبلا سميكا ! » واذ قال ذلك كرع كأساً كبيرة من الخمر وخف مسرعاً الى حديقة القصر ، وهو واثق من قوته الهائلة ومن نجاحه فى المباراة .

وكان أرباب الدولة مجتمعين بانتظاره فحيوه بالهتاف العالى وانبطحوا على الارض أمام الملك مكفرين .

وأقيمت بسرعة عمد مربوطة بحبال من أرجوان بين السياجات و بين صفوف الأشجار . وتدلى من هذه الحبال خرق حمراء وصفراء وزرقاء قائمة فى حلقات من الذهب والفضة . ورصفت مقاعد خشبية مذهبة حول دائرة كبيرة ، وقام السقاة بتوزيع الشراب على ذلك الجمع المحتشد للمباراة فى أقداح ثمينة . وباشارة من الملك نهض الاخيمينيون ، وأدار الملك عينه بين صفوفهم وما كان أشد سروره حين لم يجد بردية بينهم . وهناك تقدم بركساسب اليه بالقوس الانيوبية وأشار الى هدف للرماية أقيم على بعد . واذ رأى قمبيز ضخامة الهدف ضحك ثم أمسك القوس بيمناه وأهاب برجاله أن يمتحنوا قواهم قبله ، وسلم القوس الى الشيخ هستاسب باعتباره أكبر الأخيمينيين قدرا .

وفيما هستاسب ورؤوس الأسر الست فى فارس يحاولون حنى القوس عبثاً كان الملك يفرغ من الخمر كأساً بعد كأس ، وكانت تزداد أساريره انفراجاً كلما رأى عجزهم عن حل هـذه المسألة الانيوبية . وأخيراً أخذ دارا القوس وكان مشهوراً بالضرب بها ، ولـكنه لم يفز بطائل . فقد كان خشبها كالحديد لا ينثنى ، ولم يصب منها الا أن استطاع أن يجذبها طول أصبع . فكافأه الملك على هذا النجاح الجزئى بأن هز رأسه ، ثم نظر الى صحبه وأقار به نظرة الواثق بالفوز والاستظهار وقال « أعطنى القوس يا دارا ، فسأبرهن لـكم على أنه ليس فى فارس كلها الا رجل واحد يستحق أن يكون ملـكا — نعم ليس فيها الا واحد فقط يستطيع أن يقف أمام الانيوبيين فى ميدان الوغى — وهو ذلك الذى يستطيع أن يحنى هذه القوس . »

ثم أخذها بيسـاره وجعل وترها ، الذى فى سمك اصبع الرجل والمصنوع من أمعاء أسد ، فى يمناه وشهق شهقة منكرة وحنا ظهره المتين وهو يجذبها حتى كادت تتمزق عضلاته من شدة المجهود ، وأوشكت شرايين جبينه أن تتقطع من جراء الضغط ، ثم زاد على ذلك أن استعان بقدميه وساقيه ، ولكن ذهب كل ذلك سدى وبعد ما قضى ربع ساعة فى بذل قوة خارقة للعادة خارت قواه ، وعادت تلك القوس الابنوسية ، التى استطاع حنايتها أكثر قليلا من دارا ، الى استقامتها هازئة بجهوده واذ شعر أخيراً بالاجهاد ألقاها بمزيد الغيظ وقال « ان ملك الحبشة كاذب ، فما من آدمى يستطيع حنايتها . وما تعجز عنه ذراعى لا تستطيعه ذراع أخرى . وفى ظرف ثلاثة أيام أزحف على الحبشة ، وسأهيب بملكهم الدعى أن يبرز الىّ فى جولة وسترون أينا الأشد والأقوى . خذ القوس يا بركساسب واحتفظ عليها ، وسوف تخنق بوترها ذلك الأسود الكاذب . ان هذا الخشب أمتن من الحديد وانى لأعلن أن الرجل الذى يستطيع حنايتهـا سيدى ومولاى . ولن أجد غضاضة فى دعوتى اياه كذلك لأنه لا بد أن يكون من معدن أجود من معدنى . »

وما انتهى من كلامه حتى ظهر بردية بين المجتمعين ، وما كان أشد ملاءمة لباسه الفخم لجسمه الممشوق القد ، وكانت تبدو على وجهـه علامات الانشراح والشعور بقوة الساعد . واخترق صفوف الأخيمينيين وهو يحييهم بهز رأسـه حتى اقترب من أخيـه فقبل ثوبه وقال « لقد تأخرت قليـلا يا أخى ومولاى وانى أسألك الصفح . أو هل أرانى جئت فى الوقت الملائم ؟ اخالنى كذلك فانى لا أرى سهما فى الهدف ، ولذا فانى متأكد من انك ، وأنت خير من أمسك قوساً ، لم تجرب قوتك فى هذه القوس . أراك تنظر الىّ يا مولاى نظرة المستفهم . اذن فها أنى أعترف لك أن ابنتى هى التى أخرتنى . لقد ضحكت اليوم لأول مرة ، وكانت من الحسن والخلابة هى وأمهـا بحيث مر بى الوقت دون أن أشعر وأنا أرقبهما . ولـكم جميعاً يا سادتى أن تضحكوا من نزقى . الحقيقة انى لا أعرف تلمس المعاذير لنفسى وانظروا لقد جذبت الصغيرة النجمة من سلسلتى . ولكنى أعتقد يا أخى انك سوف تعطينى اليوم نجمة أخرى ان أصبت عين الثور فى الهدف . فهـل تأذن لى بالرماية أولا ،

أو أنت الذى ستبدأ يا ملكى ؟ »

قال قمبيز دون أن يلتفت الى أخيه « أعطه القوس يا بركساسب » وحينما بدأ بردية يختبر القوس والوتر ضحك قمبيز ساخراً وقال « انى أعتقد وحق مثرا انك تريد أن تؤثر فى القوس بجمال وجهك فتلين فى يدك كما مالت اليك قلوب الناس . ردها لبركساسب فخير لك أن تلهو مع النساء الحسان والاطفال الضاحكين من أن تمسك مثل هذه القوس التى سخرت من كل شىء حتى من قوة الرجال الصناديد . »

فتورد وجه بردية بحمرة الغيظ من هـذا الـكلام القارص الذى زادته طريقة القاء قمبيز شدة على شدة ، ثم أخذ سهم القوس ووقف مقابل الهدف مستجمعاً كل قواه ، وحنى القوس بشدة فائقة وأطلق السهم فأصاب رأسه الحديدى قلب الهدف ، وتمزق الأبنوس اربا اربا (١) .

فضج أكثر الأخيمينيين ضجيج الاستحسان اعجاباً بقوة بردية الفـائقة ، ولكن أصدقاءه المقربين انعقدت ألسنتهم من الخوف ، وعلت وجوههم صفرة ، وهم ينظرون تارة الى الملك وهو يرجف من الغيظ وطوراً الى بردية وقد شمخ بأنفـه عجباً وسروراً .

وصار منظر قمبيز مخيفاً للغاية . وكأن ذلك السهم فى اصابته الهدف قد اخترق قلبه وقضى على قوته وعزته وشرفه ، وتطاير الشرر من عينيه ، وطنت أذناه بصوت يشبه صوت تلاطم أمواج البحر فى يوم عاصف ، وتوردت وجنتـاه حينما قبض بيمينه على ذراع بركساسب الواقف بجواره . فأدرك السفير معنى هذه القبضة من يد الملك وقال فى نفسه « مسكين يا بردية ! »

وأخيرا تمالك قمبيز نفسه ، وألقى الى أخيه سلسلة ذهبية دون أن يفوه بكلمة ، وأمر القوم أن يتبعوه ثم غادر الحديقة ودخل الى حجراته يروح فى عرضها ويجىء محاولا تسكين جأشه بالخمر . ثم عزم على شىء ارتآه فجأة فأمر صحبه بمغادرته الا بركساسب فلما خلا به صاح به بصوت أجش ولسان عقده الخمر « هذه الحياة أصبحت لا تحتمل

---

(١) ذكر هيرودوت فى تاريخه هـذه الحادثة ، ونحن مدينون له أيضاً فيما سنورده بعد ذلك من الحوادث .

خلصنى من عدوى أدعك صديقى المحسن الى ٠ »

فارتجف بركساسب وجثا عند قدمى الملك ورفع يديه ضارعاً متوسلا ، ولكن قمبيز بلغ السكر منه مبلغه وأعمته كراهيته لأخيه فلم يدرك مراد السفير بعمله هذا . ظن أن جثوه هذا امتثال منه لأمره ، فأشار اليه أن ينهض وأسر اليه كأنه خشى حتى سماع كلامه هو نفسه قال « باشر عملك سراً وبغاية السرعة . وان كنت تقدر لحياتك قدرها فاحذر أن يعلم أحد بموت هذا الفتى . اذهب وعند فراغك من هذا العمل خذ من خزائن المال ما شئت . ولكن كن منه على حذر فان له ساعداً قوياً ولساناً حلواً يجتذب به القلوب . واذا ما حاول أن يثنيك عن عزمك بحلو كلامه فاذكر زوجتك وبنيك . »

واذ قال ذلك جرع كأساً أخرى من الخمر وترنح عند باب الحجرة ثم قال وقد أدار ظهره لبركساسب « الويل لك ان أبقيت على هذا الفتى ، البطل فى صورة امرأة ، الذى سلبنى شرفى . »

ولما غادر الملك البهو بقى بركساسب وحده جامداً مأخوذاً لدى سماعه هذه الكلمات . لقد كان الرجل واسع الأطماع ولم تكن أطماعه وضيعة أو سيئة ، ولكنه شعر بأن قلبه ينسحق ان هو قام باداء تلك المهمة الموكولة اليه . وعلم أن رفضه أداءها قد يكون من ورائه الموت والعار له ولاسرته . ثم هو يحب برديه كأنه ابنه ، وعدا هذا فان طبيعته تأبى عليه أن يكون قاتلا سفاحاً مأجوراً . وثارت بقلبه ثورة هائلة ، وظلت هذه الثورة قائمة حتى بعد مغادرته القصر وفيما هو ذاهب الى بيته لقى كريسوس ودارا فى طريقه ، فخشى أن يقرآ فى وجهه علامات اقدامه على ارتكاب جريمة آثمة فاختبأ منهما وراء باب ناتئ لاحد البيوت المصرية الكبيرة . وقد سمع كريسوس يقول « لقد وبخت برديه أشد توبيخ على ما آتاه اليوم من اظهار قوته العظيمة ، وان يكن فى الجملة لا يستحق توبيخاً . ونحن نشكر الآلهة على أن قمبيز لم يثره الغيظ فيضرب أخاه ضربة قاضية . ولقد استمع لنصحى وذهب مع زوجته الى سايس . وأرى أنه يجب عليه أن لا يقترب من الملك فى بضعة الايام التالية ، ذلك لأن مجرد

مرآه قد يثير غضبه من جديد . وكل ملك قادر يستطيع دائماً أن يجد خدماً لا ضمائر لهم . . . . »

وابتعد عنه فلم يسمع بقية الحديث . ولكن الكلمات التى سمعها بركساسب كانت كافية لذعره وانتفاضه وفزعه وكأن كريسوس يتهمه بارتكاب أدنأ الجرائم . فعزم لساعته أن لا يلطخ يده بدماء صديق مهما أصيب هو فى سبيل ذلك . واذ اعتزم ذلك شمخ برأسه كعادته واستعاد مشيته الاولى الثابتة . ولكنه لما وصل الى مسكنه الذى خصص له فى سايس أسرع ولداه الى البـاب ليقابلاه وكانا قد غادرا خلسة ملعب أبناء الأخيمينيين — اذ كانت العادة أن يصحبوا الملك والجيش — ليريا أباهما لحظة فشعر نحوهما بعاطفة غريبة لم يدرك لها سرا حينما ضمهما الى صدره ، ثم قبلهما مرة أخرى حينما أخبراه بوجوب عودتهما الى الملعب ثانية حتى لا يعاقبا . ولما دخل البيت وجد زوجته المحبوبة تلاعب أصغر أولادها وكانت طفلة صغيرة بارعة الجمال . فاستولى عليه نفس الشعور . ولكنه تغلب عليه هذه المرة مخافة أن يفشى سره لزوجته فأوى الى مخدعه مبكراً .

وأسبل الليل ستره وألقى كلا كله . ولم يستطع ذلك الرجل المحزون نوماً ، وكأنما كان وهو فى فراشه يتقلب على الجمر . أقلقه أن فى ابائه انفاذ أمر الملك هلاكه وهلاك زوجتـه وبنيه . فخانتـه قواه وغاب عن فكره ذلك العزم الشريف الذى كان قد اعتزمه بل ان كلمات كريسوس التى حركت فيـه لدى سماعها عواطفه النبيلة قد أولها تأويلا آخر ، وجعل يرددها « كل ملك قادر يستطيع دائمـاً أن يجد خدماً لا ضمائر لهم . . . » فاستاء لها ففيها ما يشينه ، ولكنها ذكرته أنه اذا أبى اطاعة أمر الملك فان مئات غيره عتثلون : فتغلب هذا الفكر على أفـكاره السابقة المتنازعة فنهض من فراشه ، وفحص عددا من مداه المعلقة فوق سريره مرتبة منظمة ، وانتقى أمضاها وأقطعها ووضعها على خوان صغير أمامه و بعدئذ جعل يروح ويغدو فى حجرته وهو غارق فى أفـكاره ، وكان يذهب دائمـاً الى النافذة ليبرد هواؤها جبينه الملتهب ولكى يرى هل تنفس الصبح ولاح .

وأخيراً أضاء النهار ، وسمع دق الناقوس النحاسى يدعو الصبية الى صلاة البكور

فذ كرولديه وفحص المدية مرة أخرى . ومر به بعض رجال الحاشية ركوباً فى طريقهم الى الملك . فوضع المدية فى منطقته . وأخيراً سمع ضحك ابنته الرضيع يتصاعد من حجرات النساء فلبس عمامته وترك الدار دون أن يشعر زوجته برحيله ، ثم اصطحب معه عدداً من عبيده وأسرع الى النيل . وهناك استقل زورقاً وأمر البحارة أن يسيروا به الى سايس .

* * *

بعد بضع ساعات من مناظرة الرماية اتبع برديه نصيحة كريسوس وذهب الى سايس ومعه زوجته . وهناك وجدا رودوبيس . فقد أطاعت دافعاً نفسانياً فلم تعد الى نقراتس بل ظلت فى سايس . أزعجها سقوط بردية اذ زلت قدمه عند الشاطئ ورأت بعينها بومة تطير عن يسار رأسه . فتوقعت شراً وتطيرت . ولم يكن عقلها ليستطيع أن يطرح عنه مثل تلك الخرافات ، وقويت عندها الرغبة فى البقاء بجوار بردية وصافو بعد أن رأت فى نومها من الرؤى والاحلام ما أقض مضجعها .

ولقد سر الزوجان لوصولها اليهما على غير توقع منهما ، وأعدا لها فى القصر الغرف التى كانت تسكنها تاخوط فى أواخر أيامها . فبعد أن مكثت تداعب بريس ابنتها جاءا بها الى هذه الغرف ، وهناك نظرت بعين العطف الى محتوياتها التى أفصحت لا عن سن المتوفاة وجنسها فقط بل وعن ذوقها وخلقها . فكان على خوان الزينة كثير من المراهم وزجاجات العطور والأطياب والزيوت والأصباغ وعليه صندوق يمثل أوزة نيلية ، وآخر على أحد وجوهه صورة أحد النافخين فى الناى . وفى هذين الصندوقين كانت تاخوط تضع حليها الذهبى . وهناك كانت مرآة مقبضها على شكل حسناء نائمة ، طالما كانت هذه الأميرة ترى فيها وجهها الجميل . وكان كل شيء فى الحجرة ، من المتكأ الصغير الفاخر القائم على براثن أسد الى المشط العاجى المنحوت أجمل نحت ، يدل على أن ساكنة هذه الحجرات السابقة كانت تعنى بالزينة الخارجية . أما السستروم الذهبية والنبلا الجميلة الصنع (آلتان موسيقيتان) التى تقطعت أوتارهما من زمن طويل فانهما تدلان على ذوقها الموسيقى ، فى حين أن المغزل العاجى المكسور الملقى جانباً ، وبعض شباك من الخرز غير كاملة ، تدل على

أنها كانت مغرمة بالأعمال النسائية المنزلية .

وجعلت رودوبيس تفحص هـذه الاشياء والحزن آخذ منها كل مأخذ ، واستطاعت أن تستخلص لنفسها منها صورة لتاخوط ونسق حياتها لم يبعد خيالها فيها عن الحقيقة كثيراً . وأخيراً دفع بها بحثهـا الى العثور على سفط كبير منقوش . واذ رفعت غطاءه الخفيف وجدت بداخله أولا بعض زهور جافة ، وكرة ضفرت حولها يد ماهرة أكاليل من الورود والأوراق التى جفت بعد نضارة ثم بليت . ووجدت أيضاً عدداً من العوذات المختلفة الاشكال تمثل احداها الهة الصدق وتشتمل أخرى على رُقىً وتعاويذ مكتوبة على شريط من ورق البردى ومخبوءة فى درج صغير ذهبى وأخيراً عثرت على بعض رسائل مكتوبة بالاغريقية ، فقرأت بعضها فى ضوء المصباح وكانت هـذه الرسائل من نايتيتس كتبتها وهى فى فارس الى تاخوط ولم تكن تعـلم عن مرضها شيئاً . فلما أتمت رودوبيس قراءتها غصت عيناها بالدموع ، فقد وقفت على سر الفتاة المتوفاة . علمت أن تاخوط كانت تهوى بردية ، وأنه هو الذى أهداها هذه الزهور التى جفت ، وأنها هى التى ضفرت الورود حول الكرة لأنه هو الذى رماها اليها . واذن لابد أن تكون العوذات اما لابراء قلبها المريض ، واما لاضرام نار الحب فى قلبه .

وفيما هى ترد الرسائل الى مكانها عثرت ببعض أقمشة فى أسفل السفط وشعرت بشىء صلب تحتها . فنشرتها واذا فيها صورة نصفية من الشمع الملون تمثل نايتيتس أبرع تمثيل حتى أنها أذهلتها ، ومضت عليها فترة طويلة لم تحول نظرها عنها اعجابا بصنعة ثيودوروس المتقنة . ثم اضطجعت ونامت وهى تفكر فى نكد طالع نايتيتس الاميرة المصرية .

وفى الصباح التالى خرجت رودوبيس الى الحديقة — وهى تلك الحديقـة التى جئنا على وصفها يوم جلس فيها أماسيس يتحدث الى كريسوس — وهناك وجدت بردية وصافو جالسين تحت كرمة . وكانت صافو جالسـة على كرسى من الخوص ، وبنتهـا على حجرها تمد يديها وقدميها تارة الى أبيهـا الجالس على الأرض أمامها وطورا الى أمها وهى تنظر اليهـا ضاحكة . وما كان أشد سرور بردية بابنتـه ! كان

اذا ما غمرت أصابعها الصغيرة فى شعر رأسه أولحيته مال الى الوراء ليختبر قوة ساعدها الصغير ، ثم يقبل ليقبل قدميها الورديين أو كتفيها الصغيرين المستديرين الناصعى البياض أو ذراعيها الجميلتين . وكانت صافو تشاركه فى هذا اللعب محاولة دائما لفت نظر الصغيرة الى أبيها . وأحيانا كانت تنحنى صافو لتقبل شفتى برميس الورديتين ، فكان جبينها يلمس شعر رأسه ، واذ ذاك كان يختلس القبلة الموجهة الى برميس .

وظلت رودو بيس ترقبهما طويلا وهى مختفية ودموع الفرح تغمر عينيها ، فضرعت الى الآلهة أن تديم عليهما أبدا هذه السعادة الزوجية . وأخيراً جاءت الى الكرمة لتحييهما تحية الصباح ، وشكرت لميتا مجيئها فى الوقت المناسب والمظلة فى يدها لتحمل برميس الى فراشها مستظلة من ضوء الشمس وحرها . وكانت ميتا قد عينت كبرى مربيات برميس ، وشمخت بأنفها فى مركزها الجديد شموخاً مضحكا . وارتدت ثوبا فارسياً نحما احتفت تحت طياتها أوصالها العجفاء ، وجعلت تمشى مشية العجب والخيلاء مزهوة بما أصبح لها من حق الأمر والنهى على بقية الخادمات اللائى تحت امرتها ، واللاتى شغلتهن باستمرار فلا يسترحن .

وتبعت صافو ميتا الى القصر بعد أن طوقت بذراعيها عنق زوجها وأسرت اليه « أطلع جدتى على كل شيء وانظر هل توافقك على رأيك . »

وقبل أن يتمكن بردية من أجابتها قبلته فى فمه وخفت مسرعة وراء جاريتها العجوز السائرة مختالة معجبة .

وابتسم الامير وهو يرقب سير صافو وجمال شكلها وقال يخاطب رودو بيس « الا ترين معى أنها طالت ؟ »

قالت « انها تبدو لى كذلك . والمرأة وهى عذراء صغيرة جمالها الخلاب ، غير أنها تستكمل جمال الانوثة حين تصبح أما . فالأمومة تجعلها تشعر بأنها أدت ماعليها فترفع رأسها ، ومن ثم يخيل الينا أنها طالت عن ذى قبل . »

قال « نعم وأظنها سعيدة بحياتها . وأمس اختلفنا لأول مرة وقد أسرت الىّ عند ذهابها أن أستطلع رأيك فى الامر . وانى عن طيب خاطر أطيعها لأنى أكبر فيك تجاريبك وحكمتك ، بقدر ما أحب فيها غرارة الطفولة . »

ثم أطلعها على حادثة المناظرة فى الرماية بالقوس ، وختم كلامه قائلا « ولقد لامنى كريسوس على عدم حزمى ، ولكنى أعرف أخى ، وأعرف أنه فى غضبه يستطيع أن يأتى بأى ضروب الشدة والعنف ، وكان ممكنا أن يقتلنى فى اللحظة التى شعر فيها من نفسه بالغلبة . غير أنى أعرف أيضاً أنه عند ما تنطفئ حدة غيظه ينسى ذلك العمل الذى بززته فيه ويجتهد أن يبزنى فى أعمال أخرى من هذا النوع ولقد كان من سنة أقوى رجل فى فارس وأحسن من أمسك القوس ، وقد كان يحتفظ بأولويته هذه لولا ادمانه الخمر ولولا ما ينتابه من نوبات الصرع التى أضعفته . أما أنا فاعترف أنى أرانى أزداد قوة يوماً عن يوم . »

فقالت رودوبيس « أجل فان السعادة المنزهة عن الشوائب تقوى ساعد الرجل كما انها تزيد فى جمال المرأة ، أما الخمر والهواجس النفسية فمتلفة للجسم والعقل أكثر من الشيخوخة . فاحذر أخاك يا بنى فان نفسه الكريمة وسجاياه الجليلة قد تفسد وتنشل كما قد ينشل ساعده الذى كان يوماً ما قويا شديداً . وخذ عنى وعن تجاريبى أن الرجل الذى يصبح أسير احدى العواطف الشريرة قلما يستطيع امتلاك قياد ما بقى له من الأميال . وعدا هذا فليس أصعب على نفس القوى الذى تضمحل قواه من احتمال الاذلال . أقول لك مرة أخرى احذر أخاك واستمع الى صوت التجارب أكثر من استماعك الى صوت قلبك الذى ، نظرا لنبله وكرمه ، يعتقد أن كل القلوب تدانيه نبلا وكرماً . »

قال « اذن أنت من رأى صافو ، فقد سألتنى أن أعود واياها الى فارس على الرغم من عاوقها بك . وهى ترى أن قمبيز قد ينسى غضبه منى ان أنا اختفيت عن نظره . وأرى أنها قلقة هلوع ، فضلا عن أن فى ذلك اقصاء لى عن الاشتراك فى محاربة الاثيوبيين . »

قالت رودوبيس « ولكنى أتوسل اليك أن تعمل بمشورتها . وان الآلهة وحدها تعلم كم يؤلمنى فراقكما ولكنى أعيد عليك ألف مرة قولى : عد الى فارس ، واذكر انه ليس سوى الحمقى من يعرضون حياتهم وسعادتهم لمخاطر لا طائل تحتها . وأما محاربة اثيوبيا فضرب من الجنون ، فانكم بدلا من اخضاع هؤلاء السود سكان

الجنوب ستنهزمون أنتم من جراء الحر والعطش وكل أهوال الصحراء . ولست بقولى هذا أقصد جيشكم وحده بل أقصد كل جيش يشن الغـارة على الحبشة . وأما عن نصيبك أنت فى هذه الحرب فانى أستطيع أن أقول لك انه فى حالة ما اذا لم تحرز نصراً تكون قد عرضت حياتك وسعادة اسرتك لخطر غير منتج ، وفى حالة ما اذا أحرزت نصراً تكون قد زدت غيرة أخيك اشتعالا وغضبه اتقاداً . واذن فعد الى فارس بأسرع ما يمكن . »

وفيما كان بردية مزمعاً الاعتراض على كلامها هذا رأى بركساسب قادماً ووجهه مصفر . وبعـد التحية المعتادة أسر اليه أنه يريد مخاطبته على انفراد . فغادرتهما رودوبيس فى الحال . وعندئذ قال له متحيراً وهو يعبث بخواتم يده اليمنى « اننى قادم اليك من قبل الملك . فقد اغتاظ أمس مما عرضته من قوتك الفائقة ، وهو لا يرغب فى رؤيتك زمناً ما . ولذا فهو يأمرك أن ترحل الى بلاد العرب لتشترى كل ما استطعت شراءه من الجمال . لان هـذه العجماوات تحتمل العطش طويلا ، وقد تقرر أن نستخدمها فى نقل المؤونة والمـاء للحملة على الحبشة . فلا تتوان . واذهب على الفور وودع زوجتك ، واستعد للسفر قبـل المساء ، فهذا أمر الملك . وستكون غيبتك على الاقل شهرا ، وسأصحبك الى بياوزة . وتروم كاساندين أمك أن تكون زوجتك وابنتك بالقرب منها مدة غيابك . فابعث بهما الى منف بأسرع ما يمكن ، فهما ستكونان فى كنف أمك الملكة آمنتين مطمئنتين . »

ولم يلحظ بردية اقتضاب كلام بركساسب وحيرته ، بل انه سر من هذا التدبير البادية فيه روح الاعتدال من جانب أخيه ، ولم يكن منـه عند تلقى الأمر الذى يزيل الشك من نفس كل متسائل عن سبب مغادرته مصر الا أن مد يده الى صديقه — ولم يكن يرى فيه غير ذلك حتى هذه الساعة — ليقبلها ، ودعاه للدخول معه فى القصر .

وعند الغروب ودع صافو وابنته ، وكانت نائمة على ذراعى مليتا ، وأخبر صافو بوجوب اسراعهـا الى كاساندين ، وقال وهو يضحك لرودوبيس التى كان يدعوها حماته من باب المزاح انها أخطأت هذه المرة تقدير خلق أخيه ، ثم امتطى صهوة جواده .

وفيما كان بركساسب يمتطى جواده أسرت صافو اليه قائلة « اعتن بهذا الفتى المجازف ، وذكره بى وبابنته كلما رأيته يعرض نفسه لمخاطر لا داعى لها . »

فاجابها آخذاً بعنان جواده متجنباً النظر الى عينيها « ولكنى سأصحبه فقط الى بياوزة . »

قالت « اذن فلتكفل حمايته الآلهة . » ثم قبضت على يد زوجها وأطلقت لدموعها العنان اذ لم تستطع حبسها . فنظر اليها بردية ودموعها تنسجم فأحس بحزن شديد لم يشعر بمثله من قبل . فانحنى متلهفا من فوق سرجه ، وطوقها بذراعه القوية ورفعها اليه ، فلما أن استعادت توازنها مستندة على قدمه فى الركاب ضمها الى صدره طويلا كأنما يودعها الوداع الأخير . ثم أنزلها بلطف الى الأرض وأخذ ابنته وقبلها وداعبها ، وجعل يطلب اليها ضاحكا أن تكون اداة سرور لأمها مدة غيابه . ثم ودع رودوبيس وداعاً حاراً ، وأعمل مهمو زه فى خاصرة جواده وانطلق مسرعاً من باب قصر الفراعنة وبجواره بركساسب على جواده .

فلما أن خفت صوت حوافر الجوادين انطرحت صافو على صدر جدتها وبكت بكاء مراً . فعنفتها رودوبيس على بكائها ووبختها ، ولكن ذهب كل ذلك عبثاً ، اذ لم تستطع وقف عبراتها .

فدمعها سحٌّ وسكبٌ وديمة ورشٌّ وتوكافٌ وتنهملان

الفصل الحادى والثلاثون

الملك يؤنبه ضميره

فى الصباح التالى ليوم الرماية أصيب قمبيز باحدى نوبات دائه القديم ، وكانت شديدة اضطر بسببها الى ملازمة حجرته نهارين وليلتين مدنف العقل والجسم ، يثور تارة كمن به جنة ، ويسكن طوراً من الضعف ونهكة المرض فكأنه طفل غرير .

وفى اليوم الثالث ثاب اليه رشده وذكر المهمة المروعة التى عهد بها الى بركساسب ومكنة قضائها . فارتجف لدى هذا الخاطر وهو الذى لم يرتجف قط فى حياته ؛ واستدعى أكبر أبناء بركساسب ، وكان من سقاته ، ومنه علم ان أباه غادر منف دون أن يخبر أحداً . ثم استدعى دارا وزوبيروس وجيجيز لعلمه بأنهم أعز أصدقاء بردية وسألهم عنه . فلما علم منهم أنه فى سايس أرسلهم فى الحال اليها ، وأمرهم أن يطلبوا الى بركساسب اذا لقوه فى الطريق أن يعود الى منف دون تأخير . ولم يدرك أصحابنا الفتيان سر هـذا السلوك الغريب من الملك ، ولكنهم مع ذلك أسرعوا فى سيرهم مخافة أن يكون وراء الأكمة ما وراءها مما لا يسرهم .

وعبث الضجر بقمبيز فلعن فى نفسه الخمر والسكر ، ولم يذق الخمر طول هذا اليوم . ولما لقى أمه فى حديقة القصر تجنب لقاءها ، ولم يجسر أن تقابل عيناه عيناها .

ومرت الأيام الثمانية التالية دون أن يقف على أثر لبركساسب ، وخالها الملك سنة كاملة ، فجعل يستدعى ابن بركساسب مرة بعد مرة يسأله عن أبيه فلا يسمع منه الا ما يزيده يأساً .

وفى غروب اليوم الثالث عشر أرسلت كساندين تستدعيه اليها ، فذهب اليها على الفور لانه أحس بشوق لرؤيتها راجياً أن قد يكون فى رؤيتها ما يرد الى طرفه النوم الذى هجره . فبعد أن حياها بلطف غير معتاد أدهشها سألها عن سبب استدعائها له . فأخبرته أن زوجة أخيه بردية جاءت الى منف فى ظروف غريبة ، وقالت انها تروم أن تقدم له هدية . فسمح لها بلقائه ومنها علم أن بركساسب جاء

الى زوجها بأمر منه يكلفه بالسفر الى بلاد العرب على الفور واليها هى بالحضور الى أم الملك . فاصفر الملك لدى سماعه ذلك ونظر الى زوجة أخيه الجميلة بعين التحسر والتألم ، فشعرت بخطور أمر غريب فى ذهن الملك ، وأنذرها فؤادها بالويل والثبور وعظائم الأمور . فما كان منها الا أن قدمت الهدية بيد مرتجفة ولم تزد الا أن قالت « ان زوجى يرسل اليك هذا . » مشيرة الى الصندوق الجميل الصنع المشتمل على تمثال نايتيتس الشمعى . وكانت رودوبيس قد نصحت اليها أن تقدمه للملك باسم بردية تمهيداً للمصالحة . فلم يبدُ على قمبيز أى اهتمام بما اشتمل عليه الصندوق ، ثم أعطاه لأحد الخصيان ، وتمتم بعض كلمات الشكر لزوجة أخيه ، ثم غادر قسم الحُرُم دون أن يسأل حتى عن آتوسا التى يظهر أنه نسيها كل النسيان .

وكان قد جاء الى أمه رجاء أن زيارته اياها قد تكلم جرحه وتهدئ عقله المضطرب ولكن كلمات صافو قد أفقدته كل أمل بل وسلبته كل راحة وطمأنينة . وقد يكون بركساسب فى هذه الساعة قد أنفذ القتل ، بل وقد يكون فى هذه اللحظة شاهراً خنجره ليغمده فى قلب بردية . فكيف يستطيع بعدئذ أن يلقى أمه ، وكيف يجيب على أسئلتها هى أو أسئلة صافو الجميلة التى أثرت فيه نظراتها المتاهفة ايما تأثير ؟

وحدثه صوت داخلى بأن قتل أخيه عمل ينطوى على الجبن والغدر والظلم ، فارتعدت فرائصه ، وأنفت نفسه أن يكون قاتلا وغدا . لطالما أودى بحياة كثيرين من الناس دون أن يخزه ضميره ، وذلك لأن القتل كان يحدث فى حرب أو كان يحدث علانية على مرأى من الناس ومسمع . وعدا هذا فهو الملك ، وكل ما يعمله الملك عدل وصواب ، فلئن كان هو الذى قتل بردية بيده ما أنبه ضميره على ذلك ، أما أن يقتله سرا بعد أن قامت الأدلة على رجولته الممتازة التى تستحق الاعجاب والاكبار فهذا منتهى الغدر والسفالة ولؤم الطبع ، وشعر من نفسه بالخزاية وتأنيب الضمير ولم يحس من قبل بمثلهما . فبدأ يحتقر نفسه ، وهجره شعوره بأنه كان عادلا فى كل اجراءاته ورغباته ، وخيل اليه أن كل شخص أعدم بأمره كان كبردية ضحية بريئة لغضبه الوحشى . فلم يستطع احتمال هذه الافكار ، وعاد الى معاقرة الخمر لعله يضيعها من مخه . ولكن ذلك كان ضغثا على ابالة ، فان للخمر فى مثل تلك الحال

تأثيرا عكسياً زاد فى قلقه و بلباله . وتعرض جسده وعقله من الخمر ، و بسبب نو بات الصرع ، ومن جراء هذه الحوادث الاخيرة ، الى ضعف ما بعده ضعف . وكان على التوالى اما أن يصاب بقشعريرة أو تنتابه حرارة الحمى ، فطلب سريره ، وفيما الخدم يخلعون عنه ملابسه تذكر هدية أخيه ، فأحضر الصندوق وفتحه وأمر الخدم بالخروج . ذكرته النقوش المصرية الموجودة على ظاهر الصندوق بحبيبته نايتيتس ، فساءل نفسه ماذا عساها كانت تقول لو أنها اطلعت على ما أتاه أخيراً من الفعال . و بدأت الحمى تشتد عليه ، وحار أيما حيرة عندما أخرج التمثال الشمعى من الصندوق وحدق مرتاعا فى عينيه الجامدتين العديمتى الحركة . وكانت المشابهة تامة . ولما كانت قواه العقلية فى غاية الضعف بسبب الخمر والحمى خيل اليه انه صار ضحية لرقية ساحر ، ومع ذلك لم يستطع تحويل ناظريه عن ذلك الوجه المحبوب . ثم تراءى له بغتة كأن عينى التمثال تتحركان . فاستطار لبه من الفزع ، ورفع الصورة بيد متشنجة ، ورمى بها الحائط ظنا منه أنها الخاتم كائن حى . فتكسر ذلك الشمع المجوف الهش وتناثرت منه الوف القطع ، ثم خر على فراشه وهو يئن خائراً .

واشتدت عليه وطأة الحمى منذ تلك اللحظة . ورأى فى بحرانه فانيس يغنى أغنية اغريقية بها لوم وتعنيف ، و بعدها أغلظ له القول فانقبضت يده من الغيظ . ثم رأى كريسوس صديقه وناصحه الامين وهو ينذره بنفس كلمات التهديد والتحذير التى قالها له يوم حكم على بردية بالموت بسبب نايتيتس وهى « حذار أن تسفك دم أخيك فيتصاعد منه دخان يرتفع الى السماء ، و يصبح سحابة تجعل أيام القاتل مظلمة حالكة وتصب على رأسه صواعق انتقام مهلكة . »

فخيل اليه وهو فى هذا البحران أن مجاز هذا الكلام قد أصبح حقيقة . وأن الدم يتساقط عليه من السحب المظلمة ، وأن ثيابه و يديه ملطخة بذلك السائل المخيف . فذهب الى النيل ليتطهر من ذلك الدم ، وهناك رأى فجأة نايتيتس مقبلة اليه ، وعلى ثغرها انطبعت تلك الابتسامة الحلوة التى مثلها ثيودوروس فى تمثالها الذى صنعه . فأخذ بسحر هذا المنظر الجميل وانطرح أمامها آخذاً يدها ، ولكنه ما كاد يلمس أطراف أناملها الدقيقة حتى رأى قطرات الدم تعلوها فأشاحت عنه

فزعة مرتاعة . فتوسل اليها بخنوع أن تصفح عنه وتعود اليه ، ولكنها لم تلن اليه . فهاج غضبه وتوعدها أولا بالكلام وثانياً بالعقاب الشديد . واذ أجابته ساخرة منه بضحكة فاترة رماها بخنجره . فاستحالت الى الوف القطع نظير التمثال الشمعي . غير أن ضحك السخرية منه تجاوبت أصداؤه وتعالت . وسمعت معه أصوات أخرى عديدة وكل منها يحاول أن يكون له السبق فى تحقيره وتنقيصه . وكان صوت بردية ونايتيتس أجهر هذه الأصوات وأمرها لهجة . وأخيراً لم يستطع احتمال تلك الاصوات المزعجة طويلا ، فسد أذنيه . ولكن ذلك لم يغنه فتيلا ، فغمر رأسه أولا فى رمل الصحراء المتقد ثم فى ماء النيل البارد حتى فارقه صوابه . ولما أفاق أخيراً لم يستطع تمييز حقائق الحال . لقد ذهب الى فراشه فى المساء ، ومع ذلك فهو يرى من اتجاه أشعة الشمس الساقطة على سريره أن النهار فى عجزه لافى متوعه كما كان يتوقع . وأكد له ذلك سماعه الكهنة ينشدون لمثرا نشيد الغروب .

ثم أحس بعدد من الناس يسيرون وراء ستار أقيمت على سريره من ناحية الرأس . وحاول أن يتحرك فلم يستطع لضعفه الشديد . وأخيراً لما لم يستطع أن يعرف أفى يقظة هو أم فى منام نادى مهندميه ورجال حاشيته المعتاد أن يراهم عند صحوه . فجاءوه فى الحال ، ومعهم أمه وبركساسب وعدد من علماء المجوس وبعض المصريين الذين لا يعرفهم . وأخبروه أنه قضى أسابيع وهو نائم بسبب حمى شديدة انتابته ، وانه كاد يلقى حتفه لولا رحمة الآلهة ومهارة الأطباء وقيام أمه على تمريضه دون تعب أو كلال . فنظر مستفهما الى أمه أولا ثم الى بركساسب ثانياً وفقد شعوره مرة أخرى ، ونام نوماً عميقاً استيقظ منه عند صبح اليوم التالى مستجمع القوى .

وبعد مضى أربعة أيام استطاع أن يجلس ويسأل بركساسب عن الامر الوحيد الذى شغل باله . فاراد السفير فى بادئ الأمر مراوغة الملك نظراً لضعف صحته ، لكن الملك هدده بحركة من يده البالية المهزولة ونظرة لم يفقدها المرض بعد كل روعتها فأرغمه على الكلام . فأجابه على الفور، وفى ظنه أنه سيسر الملك أكبر سرور ويهدئ ثائرته تماماً ، قال « افرح أيها الملك فان الفتى الذى اجترأ على أن يبزك فيفقدك مجدك وفخارك قد صار فى عداد الهالكين البائدين . لقد قتلته بيدى هذه ودفنته فى

بعل زفون . ولم يشهد ذلك الا رمال الصحراء وموجات البحر الأحمر ، وليس من يعرف ذاك الا أنت يا مولاى وخادمك بركساسب وطيور الماء والغربان التى تحوم فوق قبره . »

فصرخ الملك صرخة غضب شديدة ، وانتابته نوبة جديدة وسقط مغشياً عليه يهرف فى بحرانه . ومضت عليه وهو كذلك عدة أسابيع وهم يتوقعون موته يوما بعد يوم . ولكن بنيته القوية تغلبت فى النهاية على المرض ، غير أن عقله ظل مختلا الى آخر ساعاته .

ولما استطاع أن يغـادر حجرة مرضه ويخرج للصيد كعادته ، عاد الى معاقرة الخمر مسرفا فيها لا يستطيع عنها حولا .

وصور له ذهنه المشوش أن أخاه بردية لم يمت بل استحال قوساً لملك اثيوبيا ، وأن روح أبيه كورش تأمره أن يسترد بردية انسانا كما كان وذلك بغزو الحبشة واخضاعها .

ودفعه هذا الظن ، الذى جعـل يدلى به الى الذين حوله كأنه سر عظيم ، الى مواصلة الليل بالنهار لاعداد جيش عظيم للحبشة فأعده وزحف به عليها . ولـكنه اضطر أخيراً أن يعود دون أن يظفر ببغيته بعد ما فقد الجزء الاكبر من جيشه من جراء الحروقلة المؤونة . و يقول هيرودوت ، وهو أحد مؤرخى ذلك العصر لانه زار مصر بعد موت قمبيز بنحو ستين عاماً ، انه بعد أن فرغ زاد جنده المنكودى الحظ أخذوا يعيشون على الاعشاب ما استطاعوا الى العثور عليهـا ، فلما بلغوا الصحراء حيث لا زرع ولا ضرع عمدوا ليأسهم الى عمل يستنكف القلم تدوينه وهو أنهم كانوا يقترعون على أنفسهم وكل عاشر فى العد كان يذبح و يؤكل .

وأخيراً أرغم الجنـد هذا الملك المعتوه على العودة ، ولكنهم ما كادوا يصلون الى الجهات العامرة الآهلة حتى عاد أولئك العبيد الاسيو يون الى سابق طاعتـه طاعة عمياء على الرغم من جنونه .

فلما عاد الى منف بفلول جيشه وجد المصريين يحتفلون باحد أعيادهم الدينية على أفخم منوال . لقـد وجدوا عجل أبيس جديد ، فراحوا يحتفلون بعودة آلههم

اليهم فى شكل ذلك العجل المقدس .

وبلغ قمبيز فى طيبة أن الجيش الذى أرسله الى واحة العمونيين ، وهى واحة سيوة ، فى صحراء ليبيا قد هلك عن آخره بريح الخماسين أو ريح السموم ، وأن سفنه التى أرسلها لضرب قرطاجنة امتنعت عن محاربة أهليها الذين هم اخوان لهم فى الجنسية فظن أن هذه الافراح التى يقيمها المصريون انما هى مظاهر سرورهم بخذلانه ، فاستدعى اليه وجوه منف وبعد أن عنفهم على مسلكهم العدائى سألهم عن سبب تجهمهم ازاء انتصاراته وفرحهم ازاء انكساره وانخذاله . فأجابوه بحقيقة أمرهم ، وأخبروه أن المصريين يحتفلون دائماً بظهور العجل المقدس أعظم احتفال . فرماهم قمبيز بأنهم كاذبون ، وحكم باعدامهم . وبعدئذ استدعى الكهنة فتلقى منهم نفس الجواب.

فسألهم ساخراً متهكما أن يسمحوا له برؤية هذا المعبود الجديد ، وأمرهم أن يجيئوه به . فأحضروا العجل أبيس ، وأخبروا الملك أن هذا العجل من نسل بقرة عذراء نفخ فيها القمر ضوءه ، وأنه لابد أن يكون أسود ذا غرة بيضاء ثلاثية فى الجبهة ، وأن يشبه ظهره النسر وأن يكون على جانبه هلال أبيض ، وأن يوجد على ذيله نوعان من الشعر ، وأن تكون بلسانه زائدة على شكل الجعل المقدس .

فلما رأى قمبيز العجل ولم يجد فيه شيئاً هاماً هاج غيظه وأغمد سيفه فى جنبه : فلما انبثق دم العجل يجرى سقط ، وصاح بهم قمبيز ضاحكا « أيها الحمقى ان آلهتكم من لحم ودم وهم لذلك يجرحون ويقتلون . وانكم لحريون بمثل هذا الجنون والحمق . ولسوف تجدون أنه ليس من السهل عليكم أن تتخذوا منى هزواً وسخرية . أيها الجند اجلدوا أولئك الكهنة حتى يموتوا ، واقتلوا كل من يشترك فى هذا الاحتفال الجنونى . » فأنفذ الأمر وبلغ غيظ المصريين أشده .

ومات أبيس من الجرح ، واحتفل أهل منف سراً فى الأقبية المخصصة للعجول المقدسة ، ثم ثاروا على الفرس تحت امرة بسامتك . ولكن الثورة أخمدت سريعاً بعد أن كلفت بسامتك حياته — تلك الحياة التى يصح أن يغتفر التاريخ له ما أتاه فيها من صنوف العسف والظلم ، مقابل ما بذل من همة لا تعرف الكلال وجهود غير منقطعة ، لانقاذ شعبه من نير حكم الأجنبى ، ومقابل موته فى سبيل الحرية والاستقلال .

ثم تحول جنون قمبيز وتمثل فى صور أخرى . فانه بعد اخفاقه فى محاولة استرداد بردية (الذى استحال كزعمه الى قوس) زاد هيجانه بحيث أن كلمة واحدة أو نظرة واحدة كانت تكفى لاثارته .

و بقى كريسوس صديقه المخلص ومستشاره الامين ملازماً له لم يتركه لحظة مع أن الملك أسلمه غير مرة للحراس آمراً اياهم باعدامه . ولكن الجند كانوا يعلمون ما كان عليه ملكهم ، فكانوا يتراخون فى القبض على ذلك الرجل الشيخ ، وكانوا فى الوقت ذاته واثقين من عدم العقاب لأن الملك كان ينسى فى الغد ما أبرمه فى الأمس أو كان يندم على ما فات منه . ولكن حملة السياط نالوا مرة جزاء رهيباً على تراخيهم هذا ، فان قمبيز سره يوماً انقاذ كريسوس فأمر باعدام منقذيه دون رحمة على عصيانهم أمره .

وان القلم ليأنف أن يذكر كل الفظائع البربرية التى ارتكبها قمبيز خلال فترة جنونه ، ولكننا سنذكر بعضاً منها نرى له مساساً بالحديث .

فمنها انه كان جالساً يوماً والسكر آخذ منه كل مأخذ ، فسأل بركساسب عما يقول الفرس عنه . فأجابه ، راجياً من اجابته أن يهدئ ضميره المعذب بمزاولة أعمال البسالة والبطولة ومنتهزاً كل فرصة ليؤثر فى نفس الملك الثائرة ، أنهم يمدحونه فى كل شيء الا أنهم يرونه كثير الولوع بالخمر .

فلما سمع هذا الكلام استشاط غيظاً وقال « أيقول الفرس ان الخمر سلبتنى نهاى ؟ سوف أبرهن لهم أنهم هم الذين فقدوا مشاعرهم . » واذ قال ذلك حنى قوسه مصوباً اياها الى صدر أحد سقاته وهو أكبر أبناء بركساسب وكان واقفاً فى مؤخرة البهو مستعدا لامتثال أمر مولاه ، ثم أطلقها عليه . و بعدئذ أمر أن تفتح جثته وتفحص ، واذا بالسهم يخترق قلب الفتى المسكين . ففرح لذلك هذا الطاغية الغشوم وقال ضاحكا « ها أنت ترى يا بركساسب ان الفرس هم الذين فقدوا حجاهم ولست أنا . فهل فيهم من يجيد الرماية خيراً منى ؟ »

ووقف بركساسب جامداً مصفر الوجه يتأمل ساكتاً ذلك المنظر المخيف ، وانحنى أمام مولاه بنفس ذليلة ، دون أن يشهر بيمناه خنجره لينتقم لولده من ذلك

الملك المجنون . فلما أعاد الملك سؤاله عليه مره ثانيـة أجاب فى ضعة و يده تضغط على قلبه « لا يستطيع أحد الآلهة يا مولاى أن يصيب الهدف كما أصبته . »

و بعد بضعة أسابيع ذهب الى سايس ، وهناك أروه الغرف التى كانت تشغلها فيما مضى عروسه نايتيتس . فعاودته ذكرياته القديمة الأليمة وذكر رغم اضطراب مخه أن أماسيس قد خدعه هو ونايتيتس شر خداع . فلعن ذلك الملك الميت وأمر أن يذهبوا به الى معبد نيث حيث وضعت مومياه . وهناك أخرج جثته المحنطة من ناووسها وأشبعها ضرباً بالسياط ووخزا بالأبر ونتف شعرها وأهان الجثة بكل شكل ممكن . ثم أمر فى النهاية باحراقها رغماً عما تنهى عنه شرائع الفرس الدينية التى تعتبر تدنيس النار الطاهرة بجثث الموتى خطيئة كبرى . وكذلك فعل بمومبا زوجة أماسيس الأولى الراقدة فى ناووسها فى بلدتها طيبة .

ولم يأنف قمبيز عند عودته الى منف أن يسئ الى آتوسا زوجتـه وشقيقته ضرباً بيده .

وأمر باجراء ألعاب يقوم بها ضوارى الحيوان ، ومن بينها أن يحارب كلب أسدا صغيراً . فقهر الأسد قرنه ، ولكن كلباً آخر ، هو أخو الكلب الأول المقهور ، أفلت من مربطه وهاجم الأسد الصغير وبمساعدة أخيه الجريح قهر الأسد .

فأظهر قمبيز سروره مما رأى ، ولكن كاساندين وآتوسا ، وكانتا قد أرغمتا على الحضور بأمر الملك ، ضجتا بالبكاء والنحيب . فعجب الطاغيـة من أمرهما وسألهما عن سبب بكائهما . فما كان من آتوسا المتسرعة العجول الا أن قالت له ان الكلب الشجاع الذى خاطر بحياته لانقاذ أخيه قد ذكرها بأخيها بردية . وهى لا تتهم شخصاً معيناً بقتله ، ولكنها تقول ان دمه ذهب هدراً وليس من ينتقم له .

فأثارت هذه الكلمات غيظ قمبيز ووخزت ضميره وخزاً شديداً ، وانتابته احدى نوباته الجنونية فانهال على أخته لكما وضرباً ، وكاد يقتلها لولا أن أمه رمت بنفسها بين ذراعيه وعرضت جسمها للكماته القاتلة الجنونية .

فخفف صوتها وارتماؤها من غرب غضبه ، لأنه لم يكن حتى الساعة قد فقد عاطفة احترامه لأمه . ولكن نظرة السخط والاحتقار التى رمته بها ، فتبينها ولم يستطع

بعد نسيانها ، بعثت فى عقله خاطراً جديداً . اعتقد منذ تلك اللحظة أن لعينى النساء قدرة على تسميمه ، فكان اذا رأى أى امرأة جزع وأخفى نفسه وراء رفاقه . وأخيراً أمر بأن تؤخذ جميع نساء القصر فى منف ، ومن بينهن أمه ، الى اكبتانا . وأن يصحبهن أراسب وجيجيز الى هناك .

***

وبلغت قافلة الملكات والأميرات سايس ، وهنــاك فى قصر الملك حط الركب رحله . وشيعهن كريسوس الى هناك . وتغيرت كاساندين كثيراً خلال بضع السنين الأخيرة . فرسم الحزن والشقاء غضوناً عميقة فى وجهها الذى كان يوماً آية فى الجمال ، ولكن آلامها لم تستطع أن تحنى قامتهــا الطويلة . أما آتوسا فقد كانت تزداد حسناً وجمالا بالرغم مما كانت تعانيه . لقد استحالت الفتــاة النزقة الغضوب الجريئة الى امرأة وقور ذات عزم ثابت وارادة قوية . لأن الحياة المرة التى قضتها ثلاث سنين بجانب زوجها وأخيهــا الشكس العنيد كانت خير معلم لها على الصبر ، ولكنها لم تستطع انساءها حبها الأول . ولقد وجدت فى صداقة صافو بعض العوض عن فقدها دارا .

وأما صافو فقد استحالت أيضاً الى مخلوق آخر منذ غياب زوجها فذهب عنها تورد وجنتيها وفارقتها ابتسامتها . ولكنها كانت غاية فى الحسن والجمال رغم نحولها واصفرارها واكتئابها . فما كان أشبهها بأريادن فى انتظارها لحبيبها تيسيوس . فكان الشوق والانتظار باديين فى كل نظرة من نظراتها ، وفى نغمات صوتها المنخفضة ، وفى مشيتها وهيئتها . ولطالمــا كانت ، اذا سمعت وقع خطى قادمة أو قرع باب أو صوت رجل مفــاجئ ، تنهض مذعورة تصغى ثم تعود خائبة غير يائسة الى سابق انتظارها وشوقها وحنينها ، ثم عادت الى سابق أحلامها فى أيام حبهــا الأول وهى عذراء كثيرة الآمال . ولم تكن تستعيد نفسها الا وهى تداعب ابنتهــا . فتتورد وجنتاها ، وتلمع عيناها ، وكأنها ما عاشت الا فى وقتها الحاضر لا الماضى ولا المستقبل فكانت ابنتها لها كل شىء . فيها تخيلت أن بردية لا يزال حياً ، فمنحتها كل قلبها وكل قواها دون أن ينتقص ذلك حبها لزوجها . وفى هذه الطفلة الصغيرة جعلت لها

الآلهة شفقة وحناناً غرضاً فى الحياة وصلة بهذه الدنيـا التى أضاعت أثمن شىء فيها بفقد زوجها . وفى بعض الأحيان اذ كانت تتفرس فى عينى ابنتهـا الزرقاوين الشبيهتين بعينى بردية كانت تقول فى نفسها « لمـاذا لم تولد ابنتى ولداً يشب مثل أبيه يوماً فيوماً ، وأخيراً يبدو لى كأنما هو بردية ثان واقفاً أمامى ؟ »

لكن أمثال هذه الأفكار كانت لا تلبث أن تزول وهى تضم ابنتها الى صدرها لائمة نفسها على حمقها وعلى نكرانها نعمة الآلهة . وفى ذات يوم خاطبتها آتوسا بنفس ما كانت تفكر هى فيه قالت « ليت برميس كانت ولداً ، اذن لشب كأبيه ولصار لفارس يوماً ما كورش الثانى . » فابتسمت صافو بحزن لصاحبتها ، وأوسعت ابنتهـا لثماً وتقبيلا . ولكن كاساندين قالت « اشكرى الآلهة يا ابنتى على أنها أعطتك بنتا ، فلو أن برميس كانت ولداً لأخذت منك عنـد بلوغها السنة السادسة لتتربى مع أبنـاء الأخيمينيين . أما وهى بنت فستبقى معك عدة سنين . » فارتجفت صافو لدى مجرد الظن فى مفارقة ابنتها ، وضمت رأسها الى صدرها . ومنذ ذلك الوقت لم تشك من أن برميس لم تكن ولداً ذكراً .

وآنست صافو فى صداقة آتوسا سلوى عظيمة لقلبها المجروح . فمعهـا كانت تستطيع التحدث عن بردية ما شاءت ، وكانت تجد فيها صديقاً مواسياً . وكانت آتوسا تحب أخاها حبـاً شديداً ، ومع ذلك فان حديث صافو كان مشوقاً حتى ليستطيب الغريب سماعه . وما كان أبلغ حديثها عن تلك الأيام الخالية السعيدة ، وكأنما حديثها الشعر المنظوم . فاذا ما أتمت حديثها أخذت قيثارتها ، وأنشدت عليها بصوتها الشجى الرخيم أغانى عمتها صافو الكبرى الغرامية التى تبين بحق عن أعمق مشاعرها ، فيخيل اليها انها جالسة من جديد مع حبيبها تحت ظل الياسمين وسط الليل الهادئ ، وتنسى حاضرها المحزن . حتى اذا ما ألقت القيثارة وخرجت بنفسها من مملـكة الأحلام زافرة زفرة الأسى والتوجع ، أدمعت عينا كاساندين مع أنها لا تفهم اللغة التى تغنى بها صافو ، ومالت آتوسا على صديقتها تقبل جبينها .

ومر على ذلك ثلاث سنين لم تر صافو خلالها جدتها الا قليلا ، فان الملك حظر عليها باعتبارها أم برميس أن تغادر شقة الحرم الا باذنه والا أن تكون مصحوبة

بكاساندين أو بالخصيان . لكن كريسوس الذى أحبها ولا زال يحبها كأنها ابنته استدعى رودوبيس الى سايس . لأنه أدرك مع كاساندين أن صافو ترغب شديدا فى توديع جدتها العزيزة قبل ذهابها الى فارس ، وعدا ذلك فان كاساندين رغبت أيضاً أن ترى تلك التى تمدح بها الكثيرون اليها . فلما انتهت صافو من توديع رودوبيس استدعيت هذه لمقابلة أم الملك . فلما تقابلتا ما كان ممكنا لغريب عنهما أن يعرف أيهما الملكة ، اذ يصعب عليه أن يقرر أيهما التى خلقت لتكون ملكة . وقام كريسوس ترجمانا بين هاتين السيدتين ، وصلته بهذه كصلته بتلك ، وساعده على وصل الحديث بينهما سرعة خاطر رودوبيس التى كسبت بمالها من جاذبية خاصة قلب الملكة حتى أنها لكى تثبت لها رضاها عنها عرضت عليها أن تسألها قضاء أى أمر لها . فترددت رودوبيس لحظة ثم رفعت اليها يديها كأنها تتضرع وتتوسل وقالت « اتركى لى عزيزتى صافو فهى عزائى وسرورى فى شيخوختى . »

فابتسمت كاساندين آسفة وقالت « ليس فى وسعى قضاء هذا السؤال ، فان شرائع الفرس تقضى على أبناء الاخيمينيين بأن يربوا فى قصر الملك . لست أجسر أن أسمح لبرديس ، حفيدة كورش الوحيدة أن تبتعد عنى ، ومهما كان حب صافو لك فانك تعرفين أنها لا تستطيع مفارقة ابنتها . وفضلا عن هذا فان صافو أصبحت عزيزة لدىّ ولدى ابنتى فلا أستطيع التفريط فيها رغم انى أعلم شديد حبك لها . » واذ رأت كاساندين أن عينى رودوبيس قد غصتا بالدموع قالت « ولكنى أعرف حلا يخرجنا من هذا المأزق . اتركى أنت نقراتس وتعالى معنا الى فارس . وهناك تقضين باقى أيامك معنا ومع حفيدتك مكرمة كأنك ملكة . »

فانفضت رودوبيس رأسها الجميل الذى وخطه الشيب وقالت فى صوت ملؤه الحزن « شكراً لك يا مولاتى الملكة على دعوتك اللطيفة ، ولكنى أشعر بعجزى عن تلبيتها . ان كل خيط من منسوج قلبى متأصلة جذوره فى بلادى ، بلاد الاغريق ، وهذه الخيوط تتقطع ان أنا تركت بلادى للابد . ولقد اعتدت يا مولاتى على العمل المستمر والحرية الكاملة المطلقة وعلى شحذ الفكر وتبادل الآراء ، ولهذا فانى أهزل وأشجى وأموت ان احتبست فى حجرات الحرم . ولقد عرض علىّ كريسوس

مقترحك هذا ، وكنت بسببه عرضة لكفاح طويل مع نفسى اقتنعت بعده بوجوب تضحية أحب شيء فى الوجود الىّ فى سبيل مبدئى وحريتى . ليس من السهل — ولكن من المجد الخليق بالاسم الاغريقى — أن يفضل الانسان حياة الشرف والبذخ على حياة السعادة ، فالواجب أولا ونعيم الحياة ثانياً . وان قلبى ملك لصافو ، ولكن عقلى وتجاريبى ملك للاغريق . واذا سمعت يا مولاتى يوما أن الشعب الاغريقى هو الذى يحكم نفسه بنفسه ، وأن الأمة لا تطأطئ رؤوسها لغير آلهتها وشرائعها ، ولا ترضى بغير الصالح الجميل ، فاعلمى اذن أن الغرض الأسمى الذى وقفت رودو بيس وخيار الاغريق الحياة عليه قد بلغنا اليه . ولا تغضبى يا مولاتى من المرأة الاغريقية التى تصارحك أنها تفضل الموت جوعا متسولة مستجدية ، عن أن تعيش مترفة كأنها ملكة يظنها الناس سعيدة وما هى فى الحقيقة الا أمة رقيقة . »

وأصغت كاساندين لرودو بيس وهى مندهشة . لقد فهمت بعض ما قالته رودو بيس ، ولكنها شعرت أنها أجادت القول . وأخيراً مدت اليها يدها فقبلتها . وبعد فترة قصيرة قالت كاساندين « اعملى ما يروق فى نظرك ، واذكرى أبدا أنه ما دمت أنا وابنتى فى قيد الحياة فان حفيدتك لن تكون فى حاجة الى من يخلص لها فى حبه . »

فقالت رودو بيس « ان ما ينطق به وجهك من النبل ، وما اشتهرت به من الفضيلة ليكفلان ذلك كل الكفالة . »

قالت الملكة « وثقى أيضاً أن من واجبى أن أعوض جهدى عما أصاب صافو من الاساءة . » ثم تنهدت واستطردت كلامها قالت « وسوف نعنى كل العناية بتربية برميس الصغيرة وتهذيبها . ويظهر لى انها مطبوعة على الذكاء والفهم ، وعن قريب تغنى مع أمها أغانى وطنها . ولن اعمل ما يعترض حبها للموسيقى ، مع أن فن الموسيقى فى فارس محصور فى الطبقات الدنيا أو مقصور على العبادة . »

فتورد وجه رودو بيس لدى هذه الكلمات وقالت « هل تسمح لى مولاتى الملكة أن اتكلم بحرية ؟ »

قالت « تكلمى ولا تخشى شيئاً . »

قالت « لما تنهدت حسرة من لحظة وأنت تتكلمين عن ابنك الفقيد ظننت أنه ربما كان يبقى حياً لو أن الفرس عرفوا كيف يربون بنيهم على منهاج أفضل من المنهاج الحالى . ولقد علمت من بردية مدى هذه التربية . فهى محصورة فى الرماية والطعان وركوب الخيل والصيد وقول الحق والالمام بشىء من خواص النباتات السام منها والصالح للدواء . أما صبيان الاغريق فهم يراضون أيضاً بأنواع المران الذى يقوى البنية ، لانها وسيلة الاحتفاظ بالصحة ، وما الطبيب الا مصلح مجدد لها . ولئن صار الشاب الاغريقى بمتابعة المران أقوى من الثور وأصدق من الآلهة وأحكم من كهنة المصريين ، فهو فى نظرنا لا يزال ينقصه أمران لا يحصل عليهما الا اذا قرن المران البدنى بحسن القدوة وبالموسيقى ، وهما الظرف والاعتدال . انك تبسمين لانك لا تفهميننى يا مولاتى ، ولكنى أستطيع أن أثبت لك أن الموسيقى ، التى تتأثرين منها على ما سمعت من صافو ، لا تقل أثراً فى التربية عن الرياضة البدنية . وقد يبدو لك غريباً قولى أن للموسيقى كما للرياضة البدنية أثراً فى تهذيب الجسم والعقل . والرجل الذى يحصر جهده فى الموسيقى تلين عريكته فى بادئ الأمر ان كان غضوبا شكس الطبع ، ويصبح هادئاً مطواعا كالفلز حين تصهره النار . لكنه فى النهاية يفقد شجاعته ، وتستحيل شدته الى نزق فلا ينفع فى الحروب ، والجندية عندكم معشر الفرس هى كل ما تتطلعون اليه . أما من يحصر جهده فى حذق الرياضة البدنية فانه يكون كقيمبز متفوقا فى البأس والقوة ، ولكن عقله — وهنا لا مقابلة ولا موازنة — يبقى بليدا أعمى ، وتختلط مشاعره وتضطرب . فلا يصغى للحجة ويلجأ الى القوة فى تنفيذ ما يريد ، وتصبح حياته ، بفقدانها الرقة والتناسب ، سلسلة من الشراسة والضراوة وخشنة الفعال . وعلى هذا فالموسيقى ضرورية لا للعقل فقط والرياضة لازمة لا للجسم وحده ، وانما هما معا يهذبان العقل والجسم ويكسبان الرجل رقة فى ارجولة ورجولة فى الرقة . » (١)

ثم سكتت رودوبيس فترة قالت بعدها « والشاب الذى لا يتلقى مثل هذه التربية ، والذى فى طفولته لا ينتهر على خشنته ، والذى يترك وشأنه ينفث غضبه

---

(١) هذا الكلام مأخوذ من حكمة افلاطون .

على كل انسان فلا يسمع الا كلمات التمليق بدل التعنيف ، والذى أبيح له أن يأمر قبل أن يتعلم أن يطيع ، والذى شب وهو يعتقد أن الفخامة والقوة والغنى هى كبرى الفضائل ، لا يمكن باى حال من الأحوال أن يبلغ شأو الرجولة الكاملة الحقة التى نضرع للآلهة أن تمنحها أبناءنا . ومثل هذا المخلوق المنكود الحظ اذا ولد والعنف من طبعه وقياد عواطفه لا يضبط ، فان المران الجسمى يزيد فيه ذلك العنف وحب الاسترسال فى العواطف مالم يصقل بالموسيقى ، والطفل الذى ينحدر من أبويه الى هذا العالم متجملا بأجمل الصفات قد ينحط من سوء التربية ويستحيل وحشا ضاريا مفسداً تقتله شهواته ، وطاغية مجنونا يطلق عقال الجور ويميت سنن العدل . »

والى هنا بلغ تحمس رودوبيس المنتهى . فسكتت اذ رأت عينى الملكة مغرورقتين بالدموع ، وشعرت أنها ذهبت فى القول بعيداً فجرحت قلب هذه الأم الممتلئ بأنبل العواطف والمشاعر . فلمست ثوبها وقبلت أطرافه وقالت فى رقة وليونة « سامحينى . »

فانفضت كاساندين رأسها بما ينبئ عن صفحها ، وسلمت على الاغريقية مستعدة للخروج من الغرفة . وعند العتبة وقفت ثم التفتت الى رودوبيس وقالت « لست مستاءة منك ، فتعنيفك عين الحق . ولكن عليك أنت أيضاً أن تجتهدى فى الصفح والمسامحة ، وانى أؤكد لك أن الذى نكد علىّ حياتى وحياة حفيدتك هو أولى الناس بالاشفاق عليه مع انه أقدر انسان . الوداع ، ومتى عرضت لك حاجة فاذكرى أرملة كورش التى تود أن تريك أن أكبر ما يتطلع اليه الفرس من الفضائل فى ابنائهم كرم النفس وجود الخصال . » واذ قالت ذلك غادرت الحجرة .

وفى نفس ذلك اليوم بلغ رودوبيس نبأ موت فانيس . فانه بعد أن عاد الى كروتونا أقام بجوار صديقه فيثاغورس ، وهناك أمضى وقته فى تأملات عميقة متألما من جرحه . وهناك مات ميتة الفيلسوف الهادئ .

فحزنت عليه حزناً شديداً وقالت لكريسوس « لقد خسر الاغريق أقدر رجالهم ، ولكنْ هناك كثيرون سيبلغون شأوه . انى أخشى من تعاظم قوة الفرس واتساع سلطانهم ، ولكنى اعتقد أنه اذا امتدت يد الشهوة الاستعمارية الى بلادنا

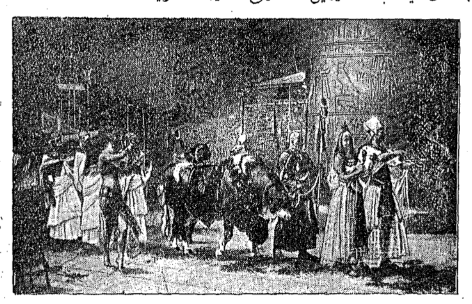
فان رؤساء الاحزاب هناك يتحدون ، وتصبح بلاد الاغريق ماردا قويا ذا رأس واحد ، تنحنى أمامه القوة البربرية وتنصاع اليه كما ينصاع الجسد للروح . »

***

وبعد ثلاثة أيام من ذلك ودعت صافو جدتها الوداع الأخير . وسافرت مع الملكة الى فارس . واستمرت على رغم الحوادث التى سنسردها فيما بعد ، تعلل نفسها بعودة بردية ، وانقطعت وهى ممتلئة القلب بحب زوجها وذكراه الى تربية ابنتها والعناية بكاساندين فى شيخوختها .

وزاد جمال برميس ، وتعلمت أن تحب بعد آلهة بلادها ذكرى أبيها الفقيد ، لأن أمها جعلت تحدثها عنه بما جعله ماثلا أبدا امام عينيها كأنه حى يرزق يعيش معهما .

أما آتوسا فظلت مستمسكة بصداقة صافو رغم طالعها السعيد الذى أشرق كوكبه عليها فيما بعد ، وبقيت تدعو صافو أختها . وسكنت صافو الحدائق المعلقة فى الصيف ، وهناك طالما بعثها الحديث مع كاساندين وآتوسا الى ذكر اسم تلك الفتاة البريئة ، التى كانت سبب تلك الحوادث التى قسمت حظوظ ممالك عظيمة وبتت فى حياة نبلاء كثيرين ، ألا وهى الاميرة المصرية .



موكب العجل أبيس المقدس

نقلا عن كتاب Historians' History of the World.

الفصل الثانى والثلاثون

موت قمبيز

آن لنا هنا أن ننهى هذه القصة ، ولكننا نشعر بأننا ملزمون أن نذكر بياناً عن آخر أيام قمبيز . ولقد ذكرنا شيئاً عن جنونه ، و بقى علينا أن نذكر كيف كانت خاتمة حياته وماذا جرى لبعض أبطال قصتنا .

بعد سفر الملكات وصلت نقراتس الأنباء بأن أوروتيز مرزبان ليديا قد خدع عدوه القديم بوليقراط فوافاه الى سارديس وهناك غدر به صلباً ، و بذلك تحققت نبؤة أماسيس عن مصير هذا الطاغية . وقد فعل المرزبان ذلك تحت مسئوليته دون موافقة الملك ، وحدثت تقلبات فى مملكة ميديا هددت بسقوط أسرة الأخيمينيين . ذلك أن طول غيبة الملك فى بلاد أجنبية قد قلل من رهبة الناس ، بل وأزال عنهم ذلك الخوف الذى كان يبعثه فى قلوبهم مجرد ذكر اسمه . وزال أيضاً من قلوب رعيته ذلك الاحترام الذى كانوا يحفظونه له وذلك لما بلغتهم أنباء جنونه وكيف ضحى نخبة رجاله فى صحارى ليبيا واثيوبيا . واستثار ذلك دفين أحقادهم ، وأذكى المجوس نار البغضاء هذه فى صدور الشعب ، فجهر الميديون والآشوريون أولا بالعصيان ، ثم تبعهم الفرس أنفسهم . وكان رافع راية العصيان صاحبنا أوروباست كبير الكهنة ، فقد سولت له نفسه الطموح الاستئثار بالحكم دون القناعة بالنيابة التى دعاه قمبيز اليها يوم سفره . وأخذ يتملق الشعب بتخفيف الضرائب ، ويستميلهم بالعطايا والوعود الخلابة . واذ أحس من النـاس الميل اليه اعتزم أن يغتصب بالخديعة عرش فارس لأسرته . ولم ينس بعد المشابهة العجيبة بين أخيه جوماتا (الذى حكم عليـه بصلم أذنيه) و بين بردية بن كورش . فلما سمع باختفائه ، وهو معبود الشعب الفـارسى المحبوب منه ، اعتزم أن يستغل ذلك فجاء بأخيه على اعتبار أنه الامير المختفى ، وأجلسه على العرش مكان قمبيز . وساعد على انفاذ ذلك كراهية الناس للملك المجنون وحبهم لأخيه بردية . ولما بعث أوروباست البشائر الى أطراف الولايات معلناً الى المعارضين

أن بردية بن كورش حى يرزق رغم ما ذاع من موته ، وأنه ثار على أخيه واعتلى العرش وأعفى الأمة من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ثلاث سنين ، بايع الناس أجمع ملكهم الجديد واحتفلوا بذلك فى جميع الأنحاء .

وقد أطاع بردية الدعى الكاذب أخاه أوروباست فى كل ما ندبه اليه لاعتقاده رجاحة عقله ، وأقام فى قصر نيساءا فى سهول ميديا ، وهناك لبس تاج الملك وأعلن أن حُرُم الملك قد أصبحن نساءه ، وأرى نفسه للشعب من بعيد فتبينوا فيه بردية القتيل . ولكى يأمن افتضاح أمره حبس نفسه فى القصر ، وانعكف على حسب عادة الملوك الاسيويين على الملاهى والشهوات ، فى حين قبض أخوه على الصولجان بيد ثابتة وخص المناصب الحكومية العالية بأصدقائه ورجال طغمته .

ثم بعث الخصى أكزباتيز ، لما استتب له الامر ، الى مصر ليخبر الجيش بالتغيير الذى حدث ويغريه على الانتقاض على قمبيز وموالاة بردية الذى يعبده الجند . وقد قام الرسول بالمهمة التى عهدت اليه خير قيام ، واستمال الى الملك الجديد قسما كبيراً من الجيش ، ولكن قبض عليه بعض السوريين وجاءوا به الى منف أملا فى مكافأة ينالونها . وعند وصولهم به الى مدينة الاهرام أتوا به الى الملك ، فوعده بالعفو عنه ان أقر له بكل ما يعرفه . فأكد له الاشاعة التى ذاعت فى مصر عن ارتقاء بردية عرش أبيه كورش ، وعن اعتراف الجزء الأكبر من المملكة به ملكا . فجزع قمبيز لهذه الانباء جزع الذى يرى ميتاً يبعث حياً من قبره بين الأموات . وكان حتى ذلك الوقت متأكداً من أن بركساسب قتل أخاه بردية بناء على أمره ، ولكنه بدأ فى هذه اللحظة يشك فى صدق سفيره الذى خدعه وأبقى على حياة أخيه وما كاد يخطر بباله هذا الخاطر حتى كاشف به بركساسب مؤنباً اياه على خيانته لملكه ، فاضطر هذا أن يحلف له بأغلظ الايمان أنه قتل بردية المنكود الحظ ثم دفنه بيديه .

وسئل رسول أوروباست ثانية عما اذا كان قد رأى الملك الجديد بنفسه . فأجاب بأنه لم يره ، وأضاف أن بردية لم يخرج من القصر الا مرة واحدة أرى فيها نفسه للشعب من بعيد . واذ ذاك أدرك بركساسب خبىء الأمر ، وذكر الملك بتلك الملابسات التى حدثت من جراء المشابهة العجيبة بين بردية وجوماتا ، وختم حديثه

بأن قدم رأسه رهناً على صدق ما قال فسر الملك من هذا البيان ، ومنذ تلك اللحظة تملكت عقله المريض فكرة أخرى جديدة تغلبت على كل فكرة أخرى وهى القبض على المجوس وتقتيلهم والتنكيل بهم . وفى الحال أصدر أمره الى الجيش باعداد العدة للمسير . وعين أرياندبز أحد أشراف الاخيمينيين مرزبانا على مصر ، وزحف بالجيش على بلاده دون ابطاء . ودفعه هـذا العزم الجديد على مواصلة السير ليلا ونهاراً ، فكبا به جواده من شدة الاجهاد ، وأصيب فى سقوطه من خنجره بجرح بليغ.

وبعد أن انطرح على فراشه عدة أيام وهو فاقد رشده ، فتح عينيه وطلب أولا أن يرى أراسب ثم أمه وأخيراً آتوسا مع أن هؤلاء الثلاثة برحوا مصر بأمره منذ شهور عديدة واتضح من كلامه أنه قضى هذه السنين الاربع الاخيرة منذ أصابته الحمى الى وقت اصابته بالجرح الاخير، كأنه فى حلم . ولقد دهش وتألم لما حدث خلال هذه السنين . ولم يذكر من كل ما أتاه من الاعمال الا قتل أخيه . وان بركساسب قتله بأمره ، ودفنه على شاطئ البحر الاحمر . وفى الليلة التى تلت تيقظ مشاعره اتضح أنه قد أصابت عقله جنـة فى المدة الطويلة الماضية . وقبيل الصبح نام نوماً عميقاً فاستعاد قواه وعند صحوه استدعى اليه كريسوس وطلب اليه أن يقص عليه بالتفصيل كل ما حدث خلال بضع السنين الماضية . فأطاعه صديقه الشيخ وناصحه الامين ، شاعراً أن قمبيز لا يزال تحت كنفه ، وآملا — وان يكن أملا ضعيفاً — أن يعود به الى الطريق السوى ، فلم يشأ أن يخفى عنه شيئاً مما ارتكبه من الوحشية .

ولذلك سر سروراً عظيما لما أدرك أن كلماته قد أثرت تأثيراً شديداً فى الملك الذى استيقظت مشاعره حديثاً . ذلك أن قمبيز ناح ملء جفونه ، وكأنه طفل على وجهه مسحة الخزاية ، أسفاً على جميع أعماله الظالمة وعلى جنونه . ورجا كريسوس أن يصفح عنه ، وشكر له صبره عليه واحتماله لقسوته . وطلب اليه أن يستسمح عنه على الخصوص كاساندين وصافو بل وآتوسا وجميع من أساء اليهم .

فبكى كريسوس طويلا ، ولكن دموعه هذه المرة كانت دموع الفرح ، وعشم قمبيز غير مرة بالابلال من المرض قائلا له انه سوف يجد من الفرص الملائمة ما يصلح به أغلاط الماضى . ولكن قمبيز كان ينفض رأسه لكل ذلك ، ورجا كريسوس أن

يحمل سريره على رغم ما به من وهن وضعف ، الى ربوة عالية فى الهواء الطلق ، وأن يدعو كل الاخيمينيين اليه . فلما تم ذلك رغم الحاح الاطباء رُفع قمبيز على المتكأ فكانما هو منتصب القامة ثم خطبهم بصوت عال يسمع من بعيد قال :

« أيها الفرس قد حان الوقت الذى أطلعكم فيه على سرى ونجواى . لقد خدعتنى رؤيا رأيتها فى نومى ، واغتظت من أخى الذى أضجرنى ، فأمرت بقتله فى احدى نوبات غضبى . وقد أنفذ بركساسب جريمة القتل بأمرى . ولكنى بدلا من أن أجد الراحة التى أتطلع اليها من وراء هذه الجريمة أصابنى جنون فموت اليم . واخالكم بهذا الاعتراف قد اقتنعتم بموت أخى بردية . ولكن المجوس قد اغتصبوا عرش الأخيمينيين ، وها أنتم علمتم أن أورباست الذى انبته عنى فى حكم فارس ، وأخاه جوماتا الذى يشبه بردية كثيراً حتى أن كريسوس وانتافيرنز وعمى هستاسب خدعوا لرؤيته فظنوه أخى ، قد أذكيا نار الفتنة ورفعا علمها . فالويل لى أنى قتلت أخى الذى كان ينتقم لى من الاساءة التى يوجهها المجوس الىّ . ولكنى لا أستطيع نشره من بين الموتى وقيامه من جوف القبور ، واذن فانى أكل اليكم تنفيذ وصيتى الاخيرة . وانى أستحلفكم بروح أبى وبالملائكة الاطهار الابرار أن لا تتركوا الحكم فى أيدى أولئك المجوس الانذال . ولئن كانوا تسنموا ذراه بالخديعة فاخلعوهم عنه بالخديعة ، ولئن كانوا اغتصبوه بالقوة فانتزعوه من أيديهم بالقوة . تلك وصيتى الاخيرة فأنفذوها ، وأطيعونى تغدق الارض عليكم من ثمارها وخيراتها الكثير الوفير ، وتبارك لكم الآلهة فى نسائكم وأغنامكم وماشيتكم ، وتظل الحرية من نصيبكم . وان أبيتم أن تطيعونى أصابتكم الشرور ونزلت بكم النازلات ، ويكون الموت نصيب كل فارسى كما هو نصيبى . »

ثم بكا الملك بعد ذلك بكاء مراً وانطرح فاقداً قواه . فلما رأى الاخيمينيون ذلك شقوا ثيابهم وصاحوا نادبين . وبعد بضع ساعات قضى قمبيز بين ذراعى كريسوس وكانت نايتيتس آخر ما خطر له من الخواطر ، ومات وهو يردد اسمها على شفتيه ودموع الندم تنهل من عينيه . ولما ترك الفرس الجثة النجسة حسب اعتقادهم جثا كريسوس بجانبه ، ورفع يديه نحو السماء ، وقال بملء الخشوع والوقار « أى كورش العظيم ،

لقد بررت بقسمى ، وبقيت لهذا الشقى المسكين صديقه المخلص وناصحه الامين حتى فارقته الحياة . »

وفى اليوم التـالى ذهب هذا الشيخ ومعه ابنه جيجيز الى بلدة بارين ، وعاش فيها سنين عديدة أباً لرعاياه مكرماً من دارا الملك فيما بعد ، ومحترماً من كل معاصريه.

* * *

وبعـد موت قمبيز اجتمع رؤساء عشائر الفرس السبع[1] وتشاوروا فيما بينهم ، واعتزموا أولا أن يتحققوا من شخصية ذلك المغتصب للملك . فأرسل أوتانز خصياً يثق فيه الى ابنته فايديم الموجودة عند الملك الجديد مع بقية نساء قمبيز . وقبل أن يعود الرسول كان نصف الجيش قد تسرب ، اذ انتهز الجند الفرصة المائلة وعادوا الى بلادهم وأسرهم بعـد الغياب عنهم سنين طويلة . وأخيراً عاد الرسول يقول ان الملك الجديد زار فايديم مرة فى حجراتها ، وفى خلال الزيارة استكشفت أنه مصلوم الاذنين معرضة نفسها بذلك لخطر شديد . وقالت انها حتى بغير هذا الاستكشاف كانت متحققة من أن المغتصب الذى يشبه بردية كثير الشبه ليس الا جوماتا المجوسى شقيق أوزوباست . وقد عاد صديقها القديم بوجيز الى رياسة الخصيان ، وكشف لها عن سر المجوس . وكان كبير الـكهنة قد لقيه يتسول فى شوارع سوسا فرده الى منصبه السابق وهو يقول له « انك قد أضعت نفسك وخسرت حيـاتك ولكنى فى حاجة الى رجال من طرازك . » ورجت فايديم فى النهاية أباها أن يبذل كل ما فى وسعه لطرد المجوس لانهم يعاملونها بمنتهى الاحتقار حتى أضبحت ترى نفسها أتعس امرأة فى الوجود .

ومع أنه لم يكن من بين الاخيمينيين من اعتقد لحظة أن بردية حى وأنه هو الذى توثب على العرش ، فان مثل هذا البيان الواضح عن حقيقة شخص المغتصب قد بدد كل شك ، وانتووا فى الحال أن يسيروا الى نيساعا بما تبقى من الجيش ، وأن يطردوا المجوس بالحيلة أو بالقوة .

---

(١) ذكر هيرودوت أسماء هؤلاء الرؤساء السبع وهم أوتانز وانتافيرنز وجوبرياس وميجابيزوس واسباتين وحيدر ودارا نائبا عن أبيه هستاسب .

فدخلوا العاصمة الجديدة دون ممانعة ، واذ رأوا أن غالبية الشعب راضية عن هذه الحكومة الجديدة تظاهروا هم أيضاً بأنهم مصدقون أن الملك الجديد هو ابن كورش وأنهم سيبايعونه . ولكن المجوس لم تنطل عليهم هذه الحيلة ، وتحصنوا فى القصر ، وجمعوا جيشاً فى سهل نيساعا ، ووعدوا الجند باجزال العطايا ، وسعوا جهدهم فى تقوية اعتقاد الشعب فى صحة ادعاء جوماتا . ولم يكن غير بركساسب من يستطيع أن يدحض حجتهم فى هذا السبيل . والفرس يكبرونه ويحترمونه ، فان هوأ كد لهم أنه لم يقتل بردية قضى على الاشاعة التى تنتشر بسرعة عن موت الفتى . فأرسل اليه أوروباست . وكان كل الاخيمينيين قد اجتنبوه بعد سماعهم ما قاله قمبيز قبيل وفاته وعاش كأنه مجرم تنفر الناس من لقائه . ووعده أوروباست بمبلغ كبير من المال ان هو صعد الى برج عال وأعلن للشعب المجتمع بأسفله ، أن بعض من لاخلاق لهم يرمونه بأنه قاتل بردية مع أنه رأى بعينيه الملك ، وأنه ليس سوى الابن الاصغر لكورش المحسن اليه . فأجابه بركساسب الى طلبه دون اعتراض ، وودع أسرته وداعاً رقيقاً والقوم مجتمعون ، وصلى صلاة قصيرة أمام مذبح النـار المقدس ومشى معجباً مختالا يقصد القصر . وفى طريقه لقى رؤساء العشائر السبع فرآهم يتجنبونه فصاح بهم قائلا « انى أستحق احتقاركم ولكنى سأجتهد فى أن أنال عفوكم . » ولما رأى دارا أسرع اليه وأخذ بيده وقال « انى أحببتك كابنى فأعن بنىّ ونفسْ كربتهم ان أنا مت ، واستعمل جناحيك يادارا المجنح . » ثم سار معتدل القـامة كعادته وصعد الى البرج .

وتجمعت بأسفل البرج الألوف من سكان نيساعا يسمعون حديثه فصرخ بأعلى صوته يقول « بنى وطنى . انكم جميعاً تعترفون أن الملوك الذين رفعوا قدر فارس حتى اليوم وأكسبوكم عزة ونخارا هم من بيت الأخيمينيين . ولقد حكمكم كورش حكم الأب لبنيه ، وحكمكم قمبيز بيد من حديد ، وكان بردية يحكمكم حكم الصديق لصديقه لو لا انى بيدى هذه التى أرفعها أمامكم قد قتلته على شاطئ البحر الأحمر . وأقسم لكم بمثرا انى ارتكبت هذه الجريمة الفظيعة ، وقلبى يدمى ، اطاعة لأمر مولاى الملك . ولقد أقض مضجعى هذا الجرم وسلبنى الراحة ليلا ونهاراً ، ومضى

عليَّ الآن أربع سنين تتأثرنى وتعذبنى شياطين الظلام التى تطرد النوم من عينى القاتل . فاعتزمت اليوم أن أنهى آلامى مكفراً عن سيئاتى بعمل عظيم ، وان يكن هذا العمل سيحرمنى الرحمة على جسر شنفات . غير أن كل ما أرجوه أن أطهر اسمى الشريف من اللطخة السوداء التى شابتـه . فاعلموا اذن أن الرجل الذى يدعى زورا انه ابن كورش قد أرسلنى اليكم ، ووعدنى بأعظم الجزاء ان أنا خدعتكم فأعلنت لكم أنه بردية سليل الأخيمينيين . ولكنى أهزأ بوعوده ، وأقسم لكم بمثرا و بأرواح ملوككم الغابرين ، وتلك أغلظ الايمان عندى ، أن الرجل الذى أقام نفسه ملكا عليكم ليس الا جوماتا المجوسى المصلوم الأذنين أخا أوروباست نائب الملك وكبير الكهنة الذى تعرفون . فان أردتم أن تنسوا كل فخر جاءكم به الاخيمينيون وان شئتم أن تضموا لهذا الجحود من جانبكم قبول الذلة والضعة فبايعوا تلك الطغمة ونادوا بأفرادها ملوكا عليكم . ولكن ان كنتم تحتقرون الكذب وتأنفون أن تطأطئوا رؤوسكم لأولئك الأدعياء الانذال فاطردوا ذلك المجوسى وأنزلوه عن العرش الذى اغتصبه ، قبل اختفاء مثرا فى السماء ، وملكوا عليكم أنبل الأخيمينيين دارا بن هستاسب فسوف يكون لكم كورشا ثانياً . ولكى لا تستريبوا كلامى فتظنوا أن دارا قد بعث بى اليكم أستميلكم نحوه فانى سأختم عملى بما يزيل من قلوبكم كل شك ، ويبرهن لكم أن مجد الأخيمينيين أفضل عندى من الحياة . فان عملتم بنصحى فالبركة عليكم ، وأن أبيتم أن تستخلصوا التاج من المجوس وتنتقموا لانفسكم منهم فاللعنة أسوقها اليكم . وانظروا ها أنذا أموت رجلا صادقاً شريفاً . »

واذ قال ذلك صعد الى أعلى شرفة فى البرج وألقى بنفسه مصوباً رأسه الى الأرض ، مكفراً عن الجريمة الوحيدة التى ارتكبها فى حياته بتلك الميتة الشريفة . وأصغى الشعب الحاشد الى كلامه وهم فى سكون عميق ، فلما أن ألقى بنفسه تفجرت من أفواههم صيحات الغيظ وطلب الانتقام . فاقتحموا أبواب القصر وهم يصيحون « فليمت المجوس » واذا برؤساء العشائر السبع ظهروا أمام الشعب الهائج يمنعونه من الدخول .

فلما رأى الشعب الأخيمينيين صاح صياح الفرح ، وعلا الهتاف عن ذى قبل

« فليمت المجوس وليحى الملك دارا . » وحمل الشعب ابن هستاسب الى ربوة عالية، وهناك خطبهم قائلا أن الأخيمينيين قد قتلوا المجوس الكذابين المغتصبين . فتعالى الهتاف من جديد لدى سماع هذه الكلمات ، ولما رأوا فى النهاية رأسى أوروباست وجوماتا اندفعوا فى الشوارع وهم يصيحون صيحات منكرة ، ويقتلون كل مجوسى يصادفهم . ولم يوقف هذه المذبحة الهائلة الا انتشار ظلمة الليل .

وبعد أربعة أيام انتخب رؤساء الأخيمينيين دارا بن هستاسب ملكا عليهم لحسبه ونبل أخلاقه ، وقابلت الأمة الفارسية اعتلاءه العرش بحماسة شديدة . ولقد قتل دارا جوماتا بيده، ومات أوروباست بطعنة من يد ميجابيزوس أبى زوبيروس فانه بينما كان بركساسب يخطب الشعب هذه الخطبة المثيرة ، دخل رؤساء العشائر السبع القصر من باب غير مخفور ، وقصدوا القسم الذى يسكنه المجوس ، وساعدهم على ذلك معرفتهم بالقصر وذهاب الحراس لمراقبة الشعب ساعة خطبة بركساسب . وهناك لقيهم بعض الخصيان وعلى رأسهم بوجيز فحالوا دون دخولهم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم وقتلوا . ولقد ثار دارا لدى رؤية بوجيز فقتله فى الحال . ولما سمع المجوس صراخ الخصيان المحتضرين أسرعوا للدفاع عن أنفسهم . فخطف أوروباست رمح بوجيز القتيل ، وطعن به انتافيرنز ففقأ احدى عينيه ، وجرح اسباتين فى فخده ، ولكن ميجابيزوس أجهز عليه بطعنة واحدة . أما جوماتا فانه هرب الى شقة أخرى وأغلق الباب وراءه ولكن دارا وجوبرياس تبعاه بسرعة ، وقبض عليه الأخير وطرحه على الأرض وضغط عليه بثقل جسمه ، وصاح بدارا الذى خشى أن يطعن فيصيب صديقه « اطعن طعنة نجلاء ولو تصيبنا كلينا . » فأطاع دارا ومن حسن الحظ أنها لم تصب الا المجوسى .

وهكذا مات أوروباست كبير المجوس وأخوه جوماتا الذى اشتهر فيما بعد باسم « سمرديس الكاذب » وبعد انتخاب دارا ملكا على فارس ببضعة أسابيع احتفل بتتويجه فى باسارجاد احتفالا فخما ، ثم احتفل ثانية بزفافه على آتوسا حبيبته (١) ولقد

---

(١) يقول هيرودوت فى تاريخه ان آتوسا كانت أحب زوجات دارا اليه ، وقد اختار كسرى ، ابنه منها ، ليكون وارث الملك بعده ، مع أنه ولد له ثلاثة بنين من زوجته الاولى ابنة

صقلت تجاريب الحياة خلقها وظلت زوجة محبه مخلصة لزوجها طول حياته المجيدة كما تنبأ له بركساسب . فلقبه الناس فيما بعد « دارا الاكبر » و « كورش الثانى »

وكان قائدا شجاعا حريصاً ، وفهم فى الوقت ذاته كيف يقسم مملكته الواسعة وكيف يدير مصالحها حتى ليصح أن يعد من أكبر المنظمين فى كل الازمنة والبلدان واليه يرجع الفضل فى بقاء الدولة الفارسية وحدة قائمة بذاتها بعد وفاته بمائتى سنة رغم ضعف من تقلب على العرش بعده من الملوك . وكان سخيا فى ماله الخاص ، حريصا على أموال الدولة . فكان فى عطاياه لا يتجاوز الحد . ولقد سن نظاما للضرائب بدلا من تلك الضرائب الاختيارية التى فرضها كل من كورش وقمبيز ، ولم يستمع فى ذلك السبيل لما كان يعترض به عليه الاخيمينيون بل أنفذ كل ما كان يراه صالحا عادلا حتى لقد سماه الاخيمينيون من فرط تشدده وحرصه على مال الدولة « التاجر » وكان هو أول من سك النقود فتبادلها الناس فى فارس ثم فى بقية العالم .

واحترم دارا طقوس ديانة كل أمة . ولما عثر فى دار الدفاتر فى اكبتانا على أمر كورش الكتابى ، الذى لم يعثر عليه قمبيز ، و به يسمح لليهود ببناء معبدهم ، اذن لهم ببنائه .. وكذلك ترك المدن الايونية حرة تحكم نفسها على النسق الذى ترضاه . وهو ما كان يرسل جيوشه فيما بعد لفتح بلاد الاغريق لولا أن أهانه الاثينيون فأثاروه .

ومما امتاز به عصره فى تملكه على مصر أنه أخذ عن المصريين الكثير من الأمور ومن بينها فن تنظيم ديوان مالية دولته تنظيما محكماً . ولهذا السبب كان يجل المصريين ويحترمهم ، فمنحهم كثيراً من الامتيازات والحقوق ، ووافقهم على أن يصلوا النيل بالبحر الأحمر بقناة يحتفرونها . ولا شك أن فى ذلك فائدة عظمى للتجارة المصرية .

واجتهد دارا خلال أيام حكمه كلها أن يصلح ما أفسدته قسوة قمبيز فى معاملته المصريين ، فلم يسمح لأى أن ينال من دينهم أو عاداتهم طول حياته . وظل

جوبرياس قبل أن يتزوج من آتوسا .

يستشعر من نفسه حتى فى آخر سنيه لذة وسرورا فى مطالعة نفائس الحكمة المصرية وقراءة كتب العلوم المصرية ، وعلى الاخص علم التنجيم ، مستعيناً فى ذلك بأستاذه القديم نيتحوتب كبير كهنة المصريين .

وتبين المصريون كل التبيان فى حاكمهم الجديد الطيبة والحلم فرفعوه الى مرتبة الآلهة ، وسموه الها كما كانوا يسمون ملوكهم . ومع ذلك ففى آخر أيام حكمه أنستهم رغبتهم فى الاستقلال ما أولاهم من جميل ، فحاولوا أن يطرحوا عنهم نير حكمه الهادئ اللطيف ، الذى لم يكن فى نظرهم جائراً الا لأنه فرض عليهم فى مبدأ أمره قهراً .

على أن الله لم يمد فى أجله ليرى نهاية ذلك الكفاح فى سبيل الاستقلال ، بل ترك الأمر لمن وليه فى الحكم ، وهو كسرى ابنه من آتوسا ، ليدخل من جديد أهل وادى النيل فى طاعة قهرية ومن ثم غير مأمونة .

ومن أعماله القصر العظيم الذى بناه على جبل رشمد ، ولا تزال آثاره الى الآن تثير اعجاب السياح ، فان ستة آلاف صانع مصرى ، كان أرسلهم قمبيز الى فارس ، اشتركوا فى بنائه ، وأقاموا أيضاً لدارا وخلفائه قبرا سخرت حجراته الصخرية المنيعة من مر الزمان ونوازل الحدثان ، وهى اليوم مأوى لما لا يحصى من وحشى الطير .

وكتب تاريخ أعماله باللغات الفارسية والميدية والآشورية نقشاً على جانب صخرة بهستان التى لا تبعد كثيراً عن البقعة التى أنقذ فيها حياة آتوسا . ويمكن فك رموز الجزء الفارسى من الكتابة ، وهو يشتمل على بيان للحوادث و يتفق مع ما ذكرناه فى بضعة الفصول الماضية ، ومع ما جاء به هيرودوت فى تاريخه . ونجد من بين النقوش الجملة الآتية : « يقول دارا الملك ان ما أجريته من الاعمال انما تم بفضل اورامزدا . ولقد خضت غمار تسع عشرة معركة بعد ثورة الملوك . ولكنى بعون أورامزدا احرزت النصر . وأسرت تسعة ملوك ، وكان أحدهم ميديا واسمه جوماتا . ولقد كذب وادعى أنه بردية بن كورش ، فدفع بفارس الى ثورة . »

وتحت هذه الجملة ذكر أسماء رؤساء العشائر الذين ساعدوه على خلع ذلك المجوسى وفى موضع آخر من هذا النقش توجد الكلمات الآتية : « يقول دارا الملك لقد أجريت ما أجريت بفضل أورامزدا . ولقد ساعدنى أورامزدا وغيره من الآلهة لأنى

لم أكن سريع الغضب كاذبا مستبداً . وكذلك لم تكن أسرتى . ولقد أكرمت كل من آزر أهلى ، وجازيت كل من عاداهم شر جزاء . وأنت يا من سترثنى الملك لا تأخذك شفقة بكل كذاب أو ثائر ، وأنزل به أشد العقاب . ويقول دارا الملك : أنت يامن ستقرأ بعدى هذه اللوحة التى كتبتها أو تلك النقوش التى حفرتها لا تمد اليها يدك بسوء وأحرص عليها ما حييت . »

بقى أن نقول ان زوبيروس ظل للملك أخلص خلصائه ، وأصدق أصدقائه حتى النهاية .

وفى ذات يوم قدم أحد جلساء الملك رمانة له وسأله عن الامنية التى تضاعف للملك سعادته بقدر ما فى هذه الرمانة من الحب . فقال دون تردد « أمنيتى زوبيروس . »

وتدل الحكاية التالية على مقدار اخلاص زوبيروس لصديقه الملك . بعد وفاة قمبيز ثار أهل بابل . فحاصر دارا المدينة تسعة شهور . وفى ذات يوم وافاه زوبيروس وقد جدع أنفه وصلم أذنيه ودمه يسيل على وجهه ، وقال لصاحبه ومولاه انه شوه نفسه على هذه الصورة ليخدع البابليين الذين يعرفونه تماماً لعلاقاته السابقة بينهم : وانه سيقول لهم ان دارا فعل به هذا وانه جاء لهم ليساعدوه على الثأر منه . وقد يسلموه قيادة بعض الجند فيهاجم بهم جيش دارا ويحرز انتصاراً مفتعلا . حتى اذا ما وثقوا منه يستلم مفاتيح المدينة ويفتح لهم باب سميراميس .

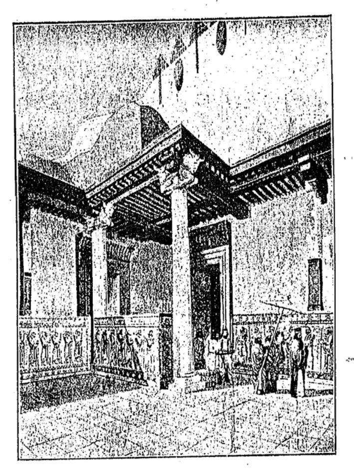
ولقد جعل زوبيروس يحدث الملك بذلك وهو يضحك رغم ما أصاب وجهه من تشويه . فبكى الملك من شدة تأثره . ولما تمكن بوساطة هذه الحيلة من افتتاح بابل التى لولا زوبيروس لاستعصت عليه قال « وددت لو أفدى تشويه زوبيروس بمائة بابل . »

وأقام زوبيروس مرزباناً عليها ومنحه خراجها وكان يخصه كل عام بانعامات وافرة : وجعل الملك يقول فيما بعد ان زوبيروس ، بعد كورش ، هو الرجل العظيم الذى لم يأت رجل مثل ما أتاه من كرم الفعال .

ولم يكن من بين الملوك من له صحب مخلصون يضحون أنفسهم فى سبيله كدارا

وذلك لأن قليلين منهم من يعرفون كيف يردون الجميل .

ولما جاء سولوسون أخو بوليقراط القتيل الى سوسا وذكر الملك بسابق خدماته استقبله هـذا كما يستقبل الصديق صديقه ، وجهزه بالسفن والعساكر وضافره على استرداد ساموس .



الملك دارا فى قصره ومعه بعض الحاشية

نقلا عن كتاب Wonders of the Past

واقد قاوم أهل ساموس مقاومة اليائس ، وقالوا حينما خضعوا أخيراً مسلمين « ان لدينا من الأرض البراح المساحات الواسعة التى تكفى سولوسون . »

وعاشت رودوبيس حتى سمعت بقتل هيباركوس طاغية أثينا بيد هرموديوس

وارستوجيتون ؛ وماتت أخيراً بين أذرع صديقيها نيو بوبس الميليسى وكالياس الاثينى ، وهى مستريحة الخاطر من ناحية بلادها ومواطنيها .

فحزنت عليها نقراتس كلها ، وأرسل كالياس رسولا الى سوسا ليخبر الملك وصافو بوفاتها . و بعد بضعة شهور من وفاتها تلقى مرزبان مصر من الملك الخطاب التالى : —

« بما أننا نكرم رودوبيس الاغريقية المتوفاة حديثاً فى نقراتس ، و بما أن حفيدتها أرملة الوارث الشرعى لعرش فارس تقيم عندنا حتى اليوم متمتعة بما تتمتع به ملكة فارس من الحقوق ، وأخيراً بما أنى قد اتخذت برميس[1] ابنة صافو و بردية زوجة شرعية ثالثة لى أرى من الضرورى أن تظهر مزيد الاحترام لجثة جدة ملكتين عظيمتين . ولذا فانى آمرك أن تدفن بقايا رودوبيس ، التى هى فى نظرى أعظم وأشهر امرأة ، فى أعظم المدافن وأشهرها ، وأعنى به أحد الاهرام . وتجد مع هذا قارورة ثمينة بعثت بها اليك صافو لتحفظ بها رماد جثتها .

« صدر بالقصر الملكى الجديد فى برسبوليس .

« الملك دارا بن هستاسب »

---

(١) يقول هيرودوت فى تاريخه ان دارا تزوج عدا آتوسا من برميس ابنة بردية المتوفى .

فهرس

رقم الصفحة

رقم الصفحة

